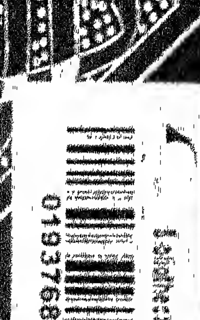
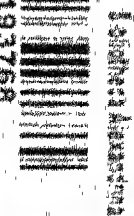
تاريخ الدولة الأموية في الأندلس

التاريخ السياسي

تأليف

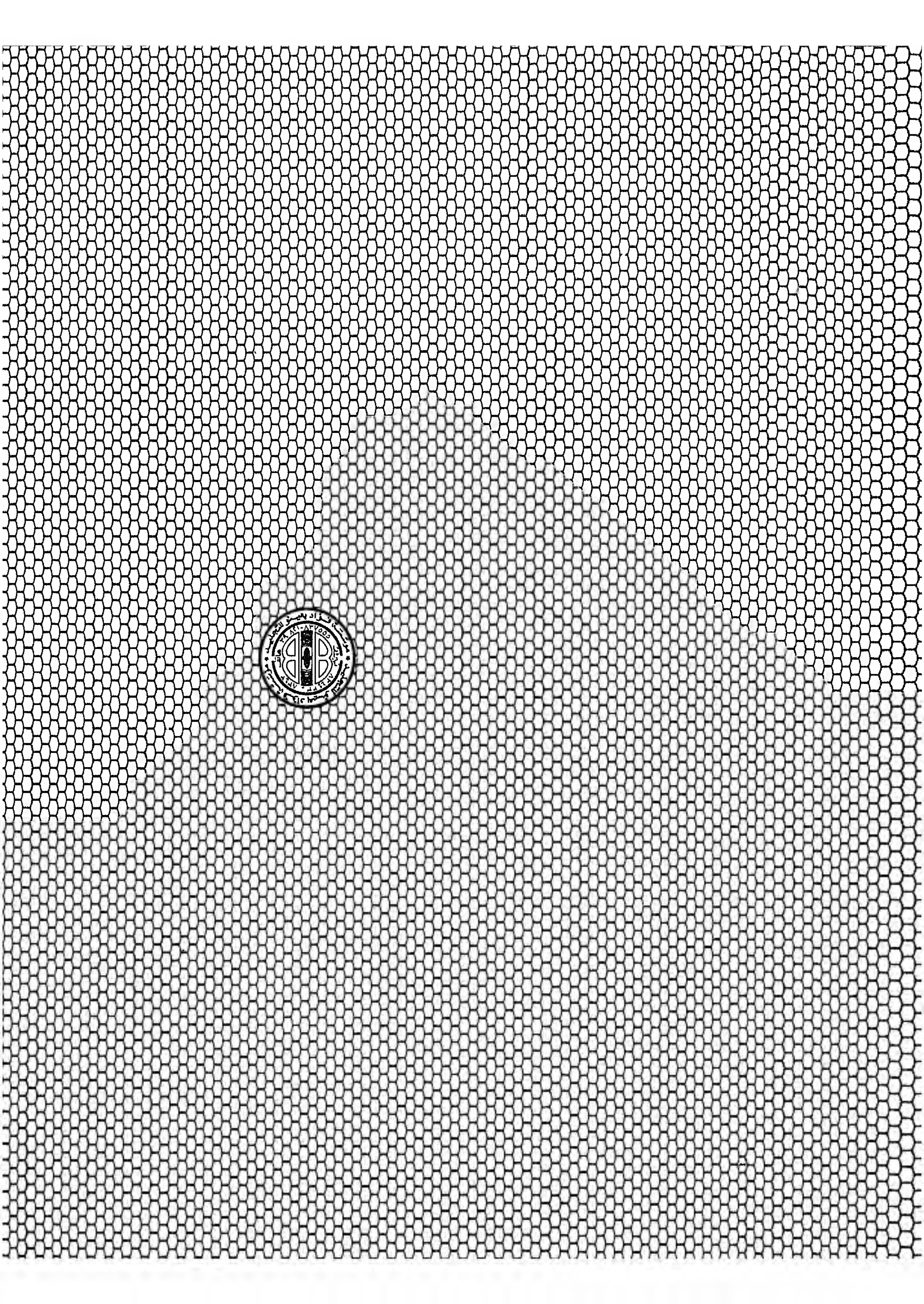
الدكتور عبد المجيد نعنعي





دار النهضة العربية
بيروت - لبنان



تاريخ

الدولة الأموية في الأندلس

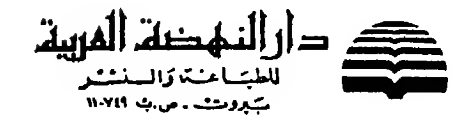
التاريخ السياسي

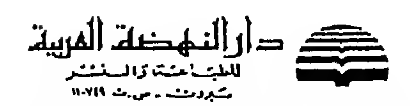
تاريخ الدولة الأموية في الأندلس

التاريخ السياسي

تأليف

الدكتور عبد المجيد نعنعي





* الإدارة : بيروت ، شارع مدحت باشا ، بناية كريدية ، تلفون : ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً : دانهضة ، ص . ب ٧٤٩-١١
تلكس : NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة : شارع البستاني ، بناية اسكندراني رقم ٣ ، غربي الجامعة العربية ، تلفون : ٣١٦٢٠٢

* المستودع : بئر حسن ، تلفون : ٨٣٣١٨٠

مقـــدّمة

على وفرة ما تلقاه المكتبة الأندلسية اليوم من المحققين والباحثين والدارسين من عناية واهتمام، وعلى كثرة ما تدفعه المطابع إلى القراء من مصنفات في تاريخ وحضارة وأدب الأندلسيين، فإن الحاجة تبقى ماسة للكثير الكثير من الجهد في هذا المجال. ذلك إن الاهتمام بدراسة تارخ وحضارة إسبانيا الإسلامية بدأ متأخراً ومتأخراً جداً، إذا ما قيس بما طالما لقيه تراث المسلمين المشارقة من عناية ودراسة، وعلى أيدي مجموعة من المستشرقين عملت الكثير وبقي الكثير مما لم تعمله لنفض غبار الإهمال والنسيان عن مخلفات الحضارة الأندلسية. إذ لا تزال أعداد لا حصر لها من المخطوطات في الأدب والتاريخ وسائر العلوم، مما أعطاه الأندلسيون أيام ازدهار حضارتهم، حتى يومنا هذا مشتتة في مكتبات العالم وبصورة خاصة في مكتبات ومجموعات الأديرة والكنائس الإسبانية بعضها مصنف ومفهرس وبعضها مجهول العنوان والمضمون وربما الوجود.

ومنذ مطلع هذا القرن بصورة خاصة أقدم باحثون عرب على دخول هذا الميدان بكثير من التردد والبطء ولكن أيضاً بالكثير من الثقة بالنفس والرغبة في العطاء والقدرة على الإنتاج. ومع إن ما أنجزوه حتى اليوم كان وما يزال أقل من المطلوب ودون الوافي، فمع كل مصدر محقق وكل مصنف جديد كانت تتكشف حقائق مجهولة ومعلومات طريفة قيمة تزيدنا تعلقاً بالتراث الأندلسي وتقوي الرغبة في مزيد من العمل ومزيد من الجهد لتعريف القارىء بذلك التراث العظيم الذي

يشكل في الواقع صفحة لعلها من الأبهى والأجمل في سجل تاريخ المسلمين وحضارتهم في العصور الوسطى.

ومن هنا، ومع علمي بان كثيرين غيري سبقوني إلى دراسة تاريخ فترة الحكم الأموي، كانت رغبتي في أن أقدم للقارىء هذا الكتاب في محاولة لرسم صورة تكون أقرب ما يكون من الدقة والوضوح لتطور الأحداث في الأندلس في القرون الأربعة الأولى من وجود الإسلام في تلك الديار وتأخذ بعين الاعتبار كل ما دفعته المطابع من مصنفات ومصادر في السنوات الأخيرة أكان ذلك في مشرقنا العربي أم في الغرب الأوروبي. والواقع إنني في محاولتي هذه تعمدت أن أطلع على كل ما استجد من كتب في تاريخ وحضارة الأندلسيين لتكون لي نظرة جديدة ومستحدثة حيال الكثير من الأحداث الكبرى التي وقعت في إسبانيا الإسلامية في الفترة المذكورة. وقد تعمدت بصورة خاصة في تقويمي للأحداث أو في نقدها أو في رفض القبول بها أن أعتمد منهجاً جديداً بعض الشيء فأربط أحداث إسبانيا الإسلامية بما كان يزامنها من تطورات عند الإسبان المسيحيين. إذ مع أخذي بعين الاعتبار كون الأندلس كانت دائماً جزأً أساسياً من العالم الإسلامي الكبير تتفاعل معه وتتأثر به وتنفعل بما يحدث فيه، كنت أرى دوماً ترابطاً وثيقاً بين دولة الإسلام في الأندلس وبين إسبانيا المسيحية ينبثق عن روابط الأرض والدم والقومية والاقتصاد والمصالح المشتركة. ومن هنا كان ما صنعه الأمويون في الأندلس من تاريخ في الغرب الأوروبي متميزاً بطابع يجعله يندرج في باب خاص من أبواب تاريخ دولة الإسلام في العصور الوسطى إنما دون أن يخرج من إطاره ودون أن يستقل عنه.

إن ما أقدمه في كتابي هذا هو كما قلت محاولة للإتيان بالجديد والطريف والقيم أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون ناجحة.

المؤلف ١٩٨٦/٨/١

الباب الأوّل

الفتوحات الإسلاميّة في المغرب وإيبريا

الفصل الأول

المغرب والأندلس قبل الفتح العربي

لا نفرق كثيراً في دراستنا لتاريخ المغرب الإسلامي بين ما هو من تاريخ الأندلس وبين ما هو من ماضي ما يسمى اليوم بالمغرب العربي الكبير. ذلك إن القطرين أو العدوتين، كما درج كثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين على تسميتهما، قد ارتبطت أحداثهما وتشابكت علاقاتهما وتوثقت صلاتهما منذ أن ارتفع علم الإسلام لأول مرة في سماء شمال أفريقيا إلى أن أنزل القدر وللمرة الأخيرة بيرق الإسلام عن سارية قصر الحمراء في غرناطة.

فقد انطلق المسلمون من المغرب ليحتلوا شبه الجزيرة الإيبرية، بجند جلهم من أهله، وبسفن لأبنائه وبإرادة ولاته وحكامه. ومنذ أن نزل المسلمون في سهول إسبانيا وجبالها ما انقطعت في يوم من الأيام العلاقة الوثيقة بين القطرين. فإذا استقوى الأندلسيون بسطوا نفوذهم على المغرب كما حدث زمن الخلافة الأموية، وإذا تعرض وجودهم لخطر نالوا العون والمدد واستمدوا أسباب البقاء والصمود من أبناء المغرب كما حصل حين جاء يوسف بن تاشفين مع جحافل المرابطين منجداً بعد أن قويت حركة الاسترداد واشتد أذاها باستيلاء الفونسو

السادس في سنة ١٠٨٥ على طليطلة درة مناطق الثغور. وحصل مثل هذا أيضاً حين خضعت الأندلس لحكم المرابطين ثم الموحدين. وما كان التأثير المتبادل سياسياً وعسكرياً فقط وإنما تأثر الفريقان ببعضهما بصورة قوية في ميادين الفقه والثقافة والعلوم والفنون والاقتصاد، ولو ان دور الأندلس في هذه المجالات كان دوماً أعظم وأشمل. وحين صارت في أواخر القرن الخامس للميلاد دولة بني الأحمر، آخر دول الإسلام في إسبانيا إلى زوال كانت رحاب المغرب ملجأ لمن آثروا من أهلها هجرة شبه الجزيرة الإيبرية تمسكاً بدينهم وتراثهم وحضارتهم.

المغرب قبل الفتح العربي:

يطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون عادة اسم المغرب على كل تلك الأراضي الواقعة في شمال أفريقيا، على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط، غربي الأراضي المصرية بين طرابلس وشواطىء المحيط الأطلسي وحدود هذه المنطقة الواسعة هي البحر الأبيض المتوسط في الشمال والمحيط الأطلسي في الغرب والصحراء الأفريقية الكبرى في الجنوب. وقد درج أكثر هؤلاء على تقسيمها إلى ثلاث مناطق كبرى رئيسية:

١ ـ المغرب الأدنى ويمتد من طرابلس باتجاه الغرب ليشمل كل ما نسميه اليوم بالجمهورية التونسية إضافة إلى بعض أجزاء المناطق الشرقية من الجزائر. واعتاد المسلمون منذ بداية فتوحاتهم أن يطلقوا على هذه المناطق مجتمعة اسم «ولاية أفريقيا».

٢ ـ المغرب الأوسط ويضم كل ما تبقى من أراضي الجمهورية الجزائرية اليوم، حتى نهر ملوية.

٣ ـ المغرب الأقصى ويضم تقريباً أراضي المملكة المغربية الحالية. مع الإشارة إلى إنه ولو اتخذ نهر ملوية في حالات كثيرة صفة الحدود إلا إنه كان من الصعب في العصور الوسطى عدم اعتبار المغربين الأوسط والأقصى أحدهما امتداداً للآخر.

وعلى كل فهذه التقسيمات كانت بالفعل اصطلاحية، وهي قليلاً ما كانت تتوافق مع الواقعين السياسي والعسكري. فبلاد المغرب بأقسامها الثلاث تشكل من الناحية الجغرافية وحدة طبيعية تمتد في شمال القارة الأفريقية من المحيط الأطلسي باتجاه الشرق على مدى أربعة آلاف كيلومتر. وتخترق هذه الكتلة بمحاذاة البحر المتوسط سلسلتان متوازيتان من الجبال، فتوحد بين أقسامها أكثر مما تفرق. في الشمال وعلى محاذاة البحر تمتد جبال الأطلس الشمالية الغربية من الأطلسي حتى مدينة تلمسان. وفي الجنوب تمتد جبال أطلس الجنوبية أو أطلس الصحاري، دون انقطاع، من مدينة أغادير حتى البلاد التونسية رابطة البلدان الأفريقية الشمالية ببعضها البعض. وتتكون في بعض منخفضات هذه الجبال سهول طولية شديدة الخصوبة وفيرة المياه إلا إنها لا تشكل انفصالات فعلية. هذه التركيبة الجغرافية تجعل من بلدان المغرب العربي ذات طبيعة وعرة كثيرة التضاريس يسهل فيها القتال، والدفاع بصورة خاصة، مما كان يشكل دوماً عقبة في طريق الغزاة والفاتحين.

من الناحية السياسية تبعت بلدان المغرب، الأمبراطورية الرومانية منذ سقوط دولة قرطاجة وبقيت كذلك إلى أن غزاها الفندال وحلوا فيها في القرن الخامس للميلاد. وبزوال دولة هؤلاء فرض الأمبراطور يوستنيانوس، وعلى يد قائد إسطوله بليزاريوس في سنة ٥٣٤ م، سيادة دولة الروم البيزنطيين على هذه المناطق. أقامت بيزنطية بعد ذلك فيها القواعد العسكرية واتخذت من بعض شطآنها مرافىء حربية وقواعد لأسطولها الكبير في غربي البحر الأبيض المتوسط. وأكثر ما تمركز نفوذ الروم البيزنطيين في السهول الساحلية بينما ضعف أو اختفى في الداخل وعلى الجبال. وإذا كانت بعض جاليات الروم قد انتشرت بأعداد وافرة على السواحل وفي المرافىء الكبيرة فإن البربر ظلوا يشكلون السواد الأعظم من سكان بلاد المغرب على طول امتدادها.

ومع اختلاف الآراء وتنوع النظريات في أصل الشعب البربري فإن المؤرخين وعلماء الأنساب من المسلمين، وبصورة خاصة ابن خلدون، يميلون

إلى اعتباره من أصول سامية. وكان البربر آنذاك ينقسمون إلى مجموعتين رئيسيتين:

أ ـ البربر البرانسة وهم من كانوا ينتشرون على السواحل وفي حواضرها الكبرى ويعتاشون بصورة أساسية من الزراعة. وكان هؤلاء على درجة من التقدم إذ كانوا قد أخذوا ببعض المظاهر الحضارية بسبب احتكاكهم بالروم البيزنطيين واتصالهم عموماً بعالم البحر الأبيض المتوسط.

ب ـ البربر البتر، سكان المناطق الداخلية والبوادي، وكان يغلب عليهم الطابع البدوي ويعتاشون، متنقلين من مكان إلى آخر، من رعاية المواشي.

وكانت كل مجموعة تضم عدداً كبيراً من القبائل. فقبيلة صنهاجة ذات البطون الكثيرة والتي ينتشر أبناؤها في كل بلدان شمال أفريقيا كانت تعتبر أهم قبائل البرانس. وبالمقابل فإن زناته بفروعها العديدة كانت تعتبر أهم قبائل البتر. ومن أبناء هذه القبيلة كثيرون رحلوا إلى شبه الجزيرة الإيبرية مع وصول الإسلام إليها واندمجوا في البيئة الأندلسية. ولا بد هنا من الإشارة إلى ان هذا الانقسام، ولو ارتكز إلى فروقات حضارية وتمايز اجتماعي واختلاف في المصالح الاقتصادية، وإلى تباعد في حالات كثيرة في الولاء السياسي، فإن البرانس والبتر يظلون دائماً من الناحية العرقية شعباً واحداً، من أصل واحد، ربطه مصير واحد، وضمته أرض واحدة على اتساعها وترامي أطرافها.

ولعل مما سيسهل تقارب البربر مع العرب وتمازجهم بهم وأخذهم بأسباب حضارتهم ومدنيتهم، واعتناقهم لدين رسولهم، هو التشابه الكبير في الميزات والخصائص بين الشعبين. فالبربر، كالعرب، امتازوا بالشجاعة والكرم، وعرفوا بالمشاكسة والميل للقتال، وألفوا شظف العيش، واعتادوا مواجهة الصعاب المتأتية خاصة من طبيعة بلادهم القاسية الحارة أحياناً والمجدبة في كثير من بقاعها. وهم فوق ذلك يشابهون العرب في أخذهم بالتنظيم القبلي بما فيه من

بطون وفروع وبما له من تقاليد تتعلق بالحرب والثأر والغزو وسرعة التنقل والحركة.

وإذا كانت الديانة المسيحية هي السائدة بين الجاليات البيزنطية في الحواضر الكبرى والسواحل فإنها انتشرت أيضاً بين بربر هذه المناطق من البرانس. إلا إن هذا الانتشار ما كان قوياً ولا كان عميق الجذور بالقدر الذي يجعله قادراً على مواجهة مد ديني آخر فتي وناشط. ولعل ذلك يعود بدرجة كبيرة لكون النصرانية عموماً، عشية دخول المسلمين إلى شمال أفريقيا، كانت تفتقر في هذه البلاد إلى التماسك والقدرة على الصمود بسبب ما أنزله الفندال الأريوسيون بالكنيسة الرومانية من ضرر وأذى، وما ألحقوه بمؤسساتها من خراب ودمار، وأيضاً بسبب ما شاع بين النصارى من خلافات مذهبية وعقائدية. وفي الداخل، ورغم انتشار اليهودية بين التجار وبعض الأغنياء وأيضاً بين قلة من بربر البتر فإن الوثنية كانت هي السائدة بين عامة السكان وهي وثنية على كثير من البدائية، ترتكز إلى عبادة بعض الظواهر الطبيعية أو القوى الخارقة التي ما كان البربر يجدون لها تفسيراً، وتتخذ لها طقوساً تقوم في أكثر الحالات على أعمال الكهانة والسحر والشعوذة.

إيبريا قبل الفتح العربي:

لشبه جزيرة إيبريا[1] تاريخ عريق، موغل في القدم، غني بالأحداث. إذ يظن بأن الإنسان العاقل ربما عبر لأول مرة من أفريقيا إلى القارة الأوروبية من هذه الأرض ماراً فيها وأيضاً مستقراً. وإلى هذه الأرض هاجرت في أزمنة قديمة عناصر حامية ـ ليبية تعرف باسم الإيبريين Iberos التقت فيها وتمازجت بعناصر كلتية Celtos أوروبية وفدت من الشمال[2]. من تزاوج وتفاعل هذه العناصر تكون أوائل سكان شبه الجزيرة الإيبرية والذين نسبة إليهم سيطلق اليونان على كامل

(١) تتألف شبه جزيرة إيبريا من دولتي إسبانيا والبرتغال الحاليتين.

(٢) تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادي، صفحة ٢٢.

أراضي إسبانيا والبرتغال الحالية اسم شبه جزيرة إيبريا.Iberia

ومنذ أوائل القرن العاشر قبل الميلاد انتشرت في تلك الأصقاع قواعد تجارية ومدن ساحلية أقامها التجار والبحارة الفينيقيون محطات على طريق خطوط تجارية بحرية أقاموها لأنفسهم على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط ووصلوا بها حتى أقصى السواحل الغربية لهذا البحر وأيضاً منه باتجاه المحيط الأطلسي. بعض هذه التجمعات السكانية، والتي جعل منها الفينيقيون مستقراً لمعمرين منهم عملوا في التجارة مع جوارهم، أو ممراً لأساطيلهم في عبورها لمضيق جبل طارق، نراها في يومنا هذا عامرة بالحياة والناس مثل قادش ومالقة.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد بدأت سواحل شبه جزيرة إيبريا الشرقية تتلقى المؤثرات الحضارية اليونانية. وفي نفس الفترة الزمنية تقريباً أو بعدها بقليل حل أبناء لقرطاجة في سواحل إيبريا الجنوبية (إسبانيا) أي في الأرض التي كانت قبل ذلك ممراً ومستقراً لأجدادهم أبناء الساحل الفينيقي. وما استطاع أبناء قرطاجة أو ما أرادوا حجب الإشعاع اليوناني عن إسبانيا ولا منعوا بعض سفن المستعمرات اليونانية في المتوسط من المرور أمام السواحل الإسبانية والتعامل مع النازلين في إيبريا. وهذا سمح بأن تتعايش وتتفاعل في شبه الجزيرة الإيبرية أبهى حضارتين قامتا في ذلك العصر في حوض البحر الأبيض المتوسط. وعلى هذا تكون هذه البلاد وقبل أن تحل فيها السيادة الرومانية قد تراكمت على أراضيها مؤثرات حضارية وعنصرية شديدة الاختلاف، كثيرة التنوع: حامية ـ أفريقية، كلتية ـ أوروبية، سامية، أغريقية...

مع إطلالة القرن الثالث (ق. م) كانت شبه الجزيرة الأيبرية قد صارت من بعض الأمبراطورية الرومانية تستقبل آداب الرومان ونظمهم، وتنتشر بين أهلها شرائع روما وقوانينها وتعمر مدنها بروائع الفنون الرومانية وبعظيم منشآت الحضارة الرومانية. وما تخلفت إيبريا عن تقبل اللغة اللاتينية التي ما زالت أمومتها للغتين الإسبانية والبرتغالية بارزة المعالم حتى يومنا هذا. وحين بدأت تعم

الأمبراطورية وتتأكد في ضمائر أهلها شريعة السيد المسيح ما تخلف سكان إيبريا عن تقبل هذه الديانة مما زاد في الترابط بينهم وبين روما. وفي القرن الرابع للميلاد صارت النصرانية راسخة القواعد بارزة الأثر بين الإسبان مما سمح بعقد مجمع ديني مقدس في سنة ٣١٤ م ربما لأول مرة في هذه الأرض.

في أوروبا توالت هجرات قبائل البرابرة الجرمان منذ أواخر القرن الرابع للميلاد باتجاه قلب الأمبراطورية الرومانية. وعبر جبال البرتات Pyrénées وصل بعضها إلى شبه الجزيرة الإيبرية. ومنذ مطلع القرن الخامس شغلت روما بصورة أساسية بالتصدي لهجمات بعض قبائل القوط على شبه الجزيرة الإيطالية فسحبت جل جنودها من أطراف الأمبراطورية، وخاصة تلك التي طالما رابطت على حدود غالة عند نهر الراين حائلة دون جموع قبائل الجرمان وأراضي الأمبراطورية لجهة الغرب. وهذا سمح لمزيد من هذه القبائل بعبور النهر الكبير والانتشار داخل الأمبراطورية. وكان أن حلت بعض موجات هذا الانتشار وبموافقة حكومة روما، باعتبار ذلك أخف الشرور، في إيبريا. بعض قبائل السويفيين حلت في مقاطعتي جليقية وأستورياس في شمال غرب شبه الجزيرة، وانتشر الآلانيون في أراضي لوزيتانيا (البرتغال الحالية). وتوزعت قبائل الفندال المعروفة بشراستها وميلها للقتل والتدمير في أراضي مقاطعة بيتيكا وكذلك في منطاق السواحل الشرقية (إسبانيا الحالية). ومن اسم هذه القبائل Vandales أخذت الأندلس اسمها أندلسيا Andalucia.

زرع القوط الغربيون الخراب والدمار في شبه الجزيرة الإيطالية، ودخلوا عاصمتها روما، فما أقاموا حرمة لما فيها من مقدسات، ولا كفوا أذاهم عن ما فيها من تراث حضاري باهر. وأخيراً رأى الأمبراطور ليسترضيهم ويخرجهم من إيطاليا أن يعطيهم موطناً ينزلون فيه، فأعطاهم بلاد أكيتانيا الغنية في غالة ووجههم نحوها. لم يتردد زعيم القوط الغربيين في قبول العرض السخي فانتقل مع جموعه إلى الأرض الموعودة حيث انتشروا على أشلاء أهلها وكذلك من كان فيها ممن سبقوهم من قبائل جرمانية صغيرة. وما لبثوا بديناميكية شعب فتي ناشط طامع

بحياة أفضل أن أكدوا سلطانهم ليس على هذه الأرض فقط وإنما أيضاً في محيط نربونة وفي مقاطعة طركونة داخل الأرض الإسبانية. ومع مزيد من الرغبة في التوسع في إيبريا كان لا بد للقوط الغربيين من مواجهة شعب جرماني لا يقل عنهم شراسة وخبرة في فنون الحرب والقتال: قبائل الفندال. أمام هجمات القوط المتزايدة وتصميمهم على التوسع شعر الفندال بصعوبة الصمود والمقاومة فاختار زعيمهم جنسريق[1] الشر الأهون وقرر الهجرة مع شعبه إلى شمال أفريقيا. وفعلاً عبر الفندال مضيق جبل طارق في سنة ٤٢٩ ميلادية مستفيدين مما كان في الشمال الأفريقي من فراغ سياسي ومن تمزق عقائدي وعسكري، فوصلوا حتى نوميديا (الجزائر) وأيضاً حتى السهول التونسية الغنية بالحبوب وهي الأرض التي أرادها جنسريق منذ بداية تحركه وذلك لإشباع شعبه الفقير.

بسرعة مدهشة فرض القوط الغربيون، على قبائل الجرمان الأخرى التي سبقتهم إلى الانتشار في إيبريا قبول سيادتهم وسلطانهم. وكذلك أخضعوا لنفوذهم السكان الأصليين وأقاموا لأنفسهم دولة قوطية كبيرة كانت عند سقوط الأمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ ميلادية تضم جنوبي بلاد غالة ومعظم أراضي شبه الجزيرة الإيبرية. إلا إنهم ما لبثوا أن أخلوا أراضي غالة بعد أن أخرجهم منها كلوفيس زعيم قبائل الفرنج.

وفي مطلع القرن السادس للميلاد بدت شبه الجزيرة الإيبرية، كوحدة سياسية، لأول مرة في تاريخها، تحت سيادة عنصر واحد بارز المعالم القومية والعرقية. ذلك إن الشعوب التي تعاقبت قبل ذلك على الإقامة في إيبريا أو المرور عبرها ما نجح واحد منها في فرض سلطانه أو إبقاء طابعه بصورة دائمة ومستقرة على جميع أراضيها. كذلك بدت إسبانيا ولأول مرة ذات حدود جغرافية بارزة المعالم تحكم حكماً مركزياً قوياً من عاصمة على درجة كبيرة من الازدهار والبهاء، كانت أولاً في ماردة العريقة بحضارتها والغنية بتراثها الروماني، ثم في

---

(١) Genseric.

طليطلة ذات الموقع الممتاز وسط شبه الجزيرة. ولطليطلة موقع مميز، إذ هي تعلو صخرة عظيمة تشرف على مجرى نهر التاج العظيم ويحيط بها من أكثر جنباتها أحد منحنيات النهر مما كان يعطيها موقعاً حصيناً وأمكانيات دفاعية كبيرة. ثم إن وجود مقر الحكم المركزي في هذه المدينة ذات الموقع المتوسط كان يعطي الحاكم مقدرة كبيرة على الإشراف على جميع مناطق البلاد ويبعدها إلى حد ما عن تلقي الكثير من المؤثرات الأوروبية. وإخراج القوط الغربيين نهائياً من بلاد غالة ما كان إلا ليزيد في قدرة جبال البيرينيه على أن تكون فاصلاً أقوى بين دولة القوط وبين جيرانها فيما وراء هذه الجبال. وهذا كان يؤدي إلى توجيه أنظار كل سكان شبه الجزيرة وبصورة قوية نحو طليطلة وحدها ويزيد من إمكانية القوط في تشديد قبضة حكمهم المركزي.

إلا ان سيادة العنصر القوطي، على سكان إيبريا الأصليين، وكذلك على بقايا القبائل الجرمانية الأخرى، ما كانت مقبولة ومستساغة لأن تمسك هؤلاء الأخيرين بكاثوليكيتهم ومحافظتهم على ولائهم لروما وللجالس فيها على عرش القديس بطرس كانا يحولان بينهم وبين التعاون الصادق مع سادتهم من القوط الغربيين. ذلك إن هؤلاء حين أخذوا بالنصرانية، وكان ذلك قبل نزولهم في إسبانيا، فعلوا ذلك وفق بدعة جاء بها مفكر يوناني يدعى آريوس، كانت كنيسة روما ليس فقط ترفضها وإنما تكفر القائلين بها وتحاربهم أشد الحرب. ومع الوقت وربما بتأثير البيئة والأرض تزايد الشعور عند ملوك القوط بأن عقيدتهم الأريوسية ستظل دوماً حاجزاً كبيراً يحول دون اتحادهم الفعلي بالسكان الأصليين. وعلى هذا قر رأي الملك ريكاريدو على تجاوز هذه العقبة للوصول إلى وحدة حقيقية للأرض وللناس الذين عليها. وفعلاً دعى ريكاريدو إلى مجمع ديني مقدس عقد في طليطلة في سنة ٥٨٩ ميلادية اعتنق أثناءه المذهب الكاثوليكي وتعمد وجاهر بخضوعه لسلطان البابا ودعا سائر أتباعه للعمل مثله. ومنذ ذلك التاريخ صارت الكاثوليكية المذهب الرسمي لإسبانيا وما تزال كذلك حتى يومنا هذا مما سيكون له أثر كبير في تاريخ هذا البلد.

هذه الخطوة وكما أظهر تطور الأحداث، ربما أتت متأخرة بحيث ما أحدثت ما أراده وتمناه ريكاريدو من قضاء على الفروقات المذهبية لإقامة وحدة عقائدية قوية بين سائر سكان إيبريا في ظل النصرانية. وهذا ما كان إلا ليزيد في حدة وتعقيد المشاكل التي سيعاني منها المجتمع الإسباني طيلة المائة سنة التي ستسبق نزول المسلمين في شبه الجزيرة. فهذه البلاد وإن كانت قد توحدت سياسياً في ظل سيادة القوط الغربيين فإنها ستبقى بعيدة جداً عن الوحدة القومية والثقافية والاجتماعية. فالقوط أصلاً ما كانوا كثيري العدد بالنسبة إلى باقي عناصر السكان، ولا كانوا بطبعهم من المنتجين، فما شاركوا كثيراً في حياة البلاد الاقتصادية، مفضلين العيش من نتاج الآخرين. هذا الاعتبار ما ساهم كثيراً في خلق دمج حقيقي بين القوط الغربيين وسكان البلاد الآخرين مما أبقى الفوارق العنصرية قوية وفاعلة في المجتمع الإسباني.

ثم إن ما كان يتعرض له اليهود، وكانوا يشكلون فريقاً كبيراً كثير العدد، عظيم الثروة، وافر النشاط، والتأثير، من عنت واضطهاد على أيدي السلطة وكذلك من قبل رجال الكنيسة كان يزيد في وهن التركيبة السكانية للمجتمع الإسباني. وقد بلغ هذا الاضطهاد ذروته في أواخر القرن السابع حين أقر مجمع طليطلة، وهو مجلس عالي المكانة يحضره كبار رجال العرش ومعهم كبار رجال الدين ويصدر القوانين والتشريعات في مختلف المجالات، سنة ٦٩٤ قرارات قضت باعتبارهم خارجين على سلطان الدولة وبنزع ممتلكاتهم وبحرمانهم من حرياتهم ما بقوا على اليهودية. ومن بين ما نصت عليه هذه القرارات فصل الأطفال اليهود عن والديهم لتربيتهم في بيئة مسيحية. وكان مرد هذه التشريعات، الظاهر على الأقل، اتهام يهود إسبانيا بالاتصال وربما بالتآمر مع إخوانهم يهود ما وراء البحار أي يهود شمال أفريقيا آنذاك. وما لبث الحكام القوط أن أمروا بطردهم نهائياً من إسبانيا فرحلوا إلى المغرب.

ثم إن المجتمع السياسي الإسباني في ظل حكم القوط الغربيين كان يشكو منذ أمد طويل مما هو أمر وأدهى. فالنظام السياسي الذي أخضع له القوط سكان

شبه الجزيرة الأيبيرية كان يرتكز إلى ملكية انتخابية. ولو ان الانتخاب كان يتم عادة في عائلة واحدة، فإن اختيار الملك كان يصاحبه من الدسائس والمؤامرات والتسويات ما كان في الواقع يذهب بفضائل مبدأ الانتخاب ويضعف وحدة الإسبان ويفقد البلد والدولة الاستقرار. وغالباً ما كان يصل إلى العرش الأقوى والأكثر مالاً ونفراً وليس الأجدر والأكفأ. ولو ان القوط ورثوا في إسبانيا عن أسلافهم الرومان نظماً سياسية وإدارية ممتازة وتشريعات راقية حاولوا احترامها بالقدر الذي يسمح لهم ما أخذوه عن مجتمعاتهم القديمة من عقلية قبلية متخلفة، إلا إن ملوكهم في النهاية حكموا حكماً فردياً واستبدوا بأمور البلاد والعباد وجعلوا من أنفسهم المصدر الرئيسي لكل سلطة تشريعية أو تنفيذية.

ثم إن المجتمع الإسباني أيام القوط كان يشكو من انقسامه إلى طبقات متمايزة يتحصن في أعلاها القوط الغربيون وبقايا الأرستوقراطية الرومانية القديمة التي تحالفت معهم للمحافظة على ما كان بيدها من ثروات ونفوذ وامتيازات. وما كان يتمتع به أبناء هذه الطبقة الرفيعة من ثروات وما يخصهم به القانون من إعفاءات وامتيازات ما كان إلا ليثير حسد وكره سائر فئات الشعب. يكفي لتبرير ذلك أن نذكر ان كبار القوط قد أخذوا لأنفسهم عند انتشارهم في إسبانيا الأراضي الزراعية التي كانت تملكها الدولة الرومانية وهذه كانت تشكل أفضل وأجود الأراضي الصالحة للاستثمار في البلاد.

وكان يلي هذه الطبقة الممتازة في الأهمية فئة رجال الدين، تستمد من تدين الجماهير سلطاناً روحياً لا حد له، كثيراً ما مارسته في توجيه القوانين والتشريعات بما كان يكفل لها المزيد من النفوذ والامتيازات وأيضاً المزيد من القدرة على التدخل في الأمور السياسية والعسكرية وهو ما كان يجعلها في حالات كثيرة معرضة للنقد والاتهام وما كان يفقدها بعض ما كان لها عند جماهير الإسبان من احترام ومصداقية. إلا أن نفوذها في كل الأحوال سمح لها بالحصول على موارد مالية لا حدود لها وبالسيطرة على مساحات ضخمة من الأراضي الزراعية مما جعل رجال الدين يملكون ثروة عقارية هائلة أبعدتهم كثيراً في عيون الناس عن الصورة

البسيطة والفقيرة التي أرادها السيد المسيح لكنيسته.

وفي طبقة ثالثة كان يتجمع عامة الناس من سكان المدن والتجار والحرفيين وبعض المزارعين الأحرار. هذه الطوائف الأخيرة وما كان أبناؤها إلا قلة سعت دوماً للمحافظة على كيانها وتمسكت بحريتها بوجه طغيان الطبقتين الممتازتين الأشراف ورجال الدين. إلا أن ما كان يصيبها من اهتمام الدولة وعنايتها كان بالقليل القليل، إذ ما عرف عن ملوك القوط كبير اهتمامهم بالخدمة العامة. أما العدد الأوفر من أبناء هذه الطبقة فكانوا من العبيد وأقنان الأرض. وكان هؤلاء يعملون في مزارع الأشراف ورجال الدين في ظروف قانونية واجتماعية واقتصادية سيئة جداً. كانوا يحرمون من أبسط حقوق المواطنية ويتعرضون لأبشع أنواع الاستغلال المادي. وفوق هذا وذاك على أكتافهم كانت تقع معظم أعباء الدولة. فعليهم استغلال الأرض، وعليهم تغذية صندوق العرش والدولة بالضرائب، وعلى أكتافهم تقع مسؤولية العمل في المشاريع العامة. وأيضاً على أبنائهم أن يرفدوا الجيش بجل عناصره باعتبار ان القوط بعد أن استقروا وسادوا أفسدهم الغنى والترف وأفقداهم روحهم العسكرية فجنحوا إلى الحياة السهلة المترفة، يتمتعون بخيرات البلاد ويتركون عبء الدفاع عن سلامتها وحدودها لأبناء الطبقة الثالثة.

في أواخر القرن السابع للميلاد، بدت عيوب المجتمع الإسباني هذه وغيرها، واضحة، بارزة وظهر حكامه وقادته بمظهر العجز عن حل المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتراكمة والتي برزت خطورتها بعد اعتزال الملك وامبا العرش سنة ٦٨٠ م. كان هذا الرجل كما تقول الرواية الإسبانية حكيماً، مدبراً، حازماً قضى على أكثر من ثورة قامت في عهده وأحبط مؤامرات كثيرة دبرها الطامعون بالعرش. أرضى الناس بما حاول أن يشيعه بينهم من عدل ونظام، إلا أن حياته انتهت في أحد الأديرة بعد أن اعتزل مدركاً استحالة حل مشاكل بلاده المعقدة.

تلى ذلك انتشار جو شديد الاضطراب عمت خلاله الفوضى وكثر الطامعون بالعرش والساعون إليه وكثرت دسائس الأشراف ومؤامراتهم وشاع تدخل رجال الدين في أمور الحكم والسياسة.

وكانت المحاولة الأخيرة لإقالة المجتمع الإسباني من عثرته ومنعه من التهاوي والسقوط، مع ارتقاء الملك غيطشة Witiza العرش سنة ٧٠٠ ميلادية. حاول الملك الجديد إصلاح أوضاع البلاد فأعاد من طردوا خارج حدودها، خصوصاً اليهود الذين خلف غيابهم فراغاً مخيفاً في مجالات المال والتجارة، وسمح لهم بممارسة شعائر دينهم بحرية، وأيضاً أطلق المساجين وحاول إشاعة الأمن والاستقرار بين رعاياه. إلا إن نظام انتقال العرش، الذي أشرنا إليه سابقاً أفسد جليل ما أنجز هذا الرجل. بعد وفاته انقسم النبلاء وكبار البلاد، وكثر المرشحون للعرش والطامعون بالسلطان، واشتدت المنافسات فعمت أنحاء البلاد أعمال التمرد والعصيان. وأخيراً نجح الفريق المعارض لأبناء غيطشة في حمل مرشحه لذريق Rodrigue حاكم قرطبة إلى العرش مما أغضب الموالين للملك المتوفي وأولاده. هب هؤلاء يطالبون بالملك لأحدهم وقلة Achila الذي كان والده قد أخذله في حياته موافقه الأشراف وكبار الدولة على جعله ولياً للعهد. لهذا السبب ولما كان قد تراكم في البلاد من مشاكل ومصاعب ساءت الأوضاع العامة أيام لذريق وعمت الثورات وفرغ بيت المال مما استدعى فرض مزيد من الضرائب ومصادرة لبعض ثروات الكنيسة وممتلكاتها لمواجهة الأوضاع المالية المتزايدة التردي. وهذا كله «كان أكثر من دليل لا يخيب، إنما يشير بوضوح إلى ان البلاد الإيبرية كانت تقدم نفسها طيلة القرن الثامن فريسة سهلة لأي غاز»[1].

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، صفحة ٥٧.

الفصل الثاني

فتح المغرب

ليس من السهل القول إن فتح بلاد المغرب قد تم نتيجة لخطة مدروسة ولبرنامج محدد للتوسع في القارة الأفريقية اتخذه المسلمون في هذا الاتجاه أو ذاك في عصر فتوحاتهم وانتشارهم. ومع إن بعض مؤرخي تلك الأحداث من غير المسلمين ومن المسلمين الثقاة[1]، رأوا في فتوحات المسلمين في الشمال الأفريقي جزءاً من خطة واسعة تستهدف الالتفاف حول حدود الأمبراطورية البيزنطية، حاملة مسؤولية الدفاع آنذاك عن العالم المسيحي بوجه المد الإسلامي الآتي إليها من شبه جزيرة العرب، ومهاجمتها عند حدودها الغربية، والشمالية ـ الغربية، فإن مثل هذه الأفكار والخطط كانت بعيدة آنذاك عن مدارك الخلفاء وطموحاتهم. فما كان عندهم من معلومات عن جغرافية أوروبا والعالم، وما أدركوه من معارف بالمسالك والدروب العالمية، ما كان يسمح لهم بهكذا تخطيط بعيد المدى. ثم إنهم كانوا آنذاك، بالذات حين خطوا الخطوات الأولى على

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٣، صفحة ٩٣.

دروب أفريقية، في قمة النشوة من انتصاراتهم على فارس وبيزنطية. وما كانوا بعد قد فقدوا الأمل بإمكان دخول بيزنطية عبر سوريا إذ كانوا بالفعل على مداخلها يدقون أبوابها بقوة وفعالية تعدان بما لا حد له من الانتصارات القريبة. يضاف إلى ذلك ما كان يظهره الخلفاء الراشدون دوماً من حرص على أن لا يرسلوا جنود المسلمين في متاهات خطرة لا تضمن عبرها سلامتهم. ألم يوص الخليفة عمر بن الخطاب القائد المسلم عمرو بن العاص وهو في مصر قائلاً: «لا تجعل بيني وبينك ماء، وانزلوا موضعاً متى أردت أن أركب راحلتي وأصير إليكم فعلت»[1]؟. كان هذا موقف ابن الخطاب من الفتوح بصورة عامة. وبالنسبة لأفريقيا بالذات فإن ابن العاص بعد أن كان قد حقق فيها بعض المنجزات سأل عمراً أن يسمح له بغزو ما بقي من أراضيها فكتب إليه: «إنها مفرقة لا يغزوها أحد ما بقيت»[2]. وأيضاً تردد عثمان بن عفان كثيراً قبل أن يسمح لمعاوية باحتلال جزيرة قبرص[3].

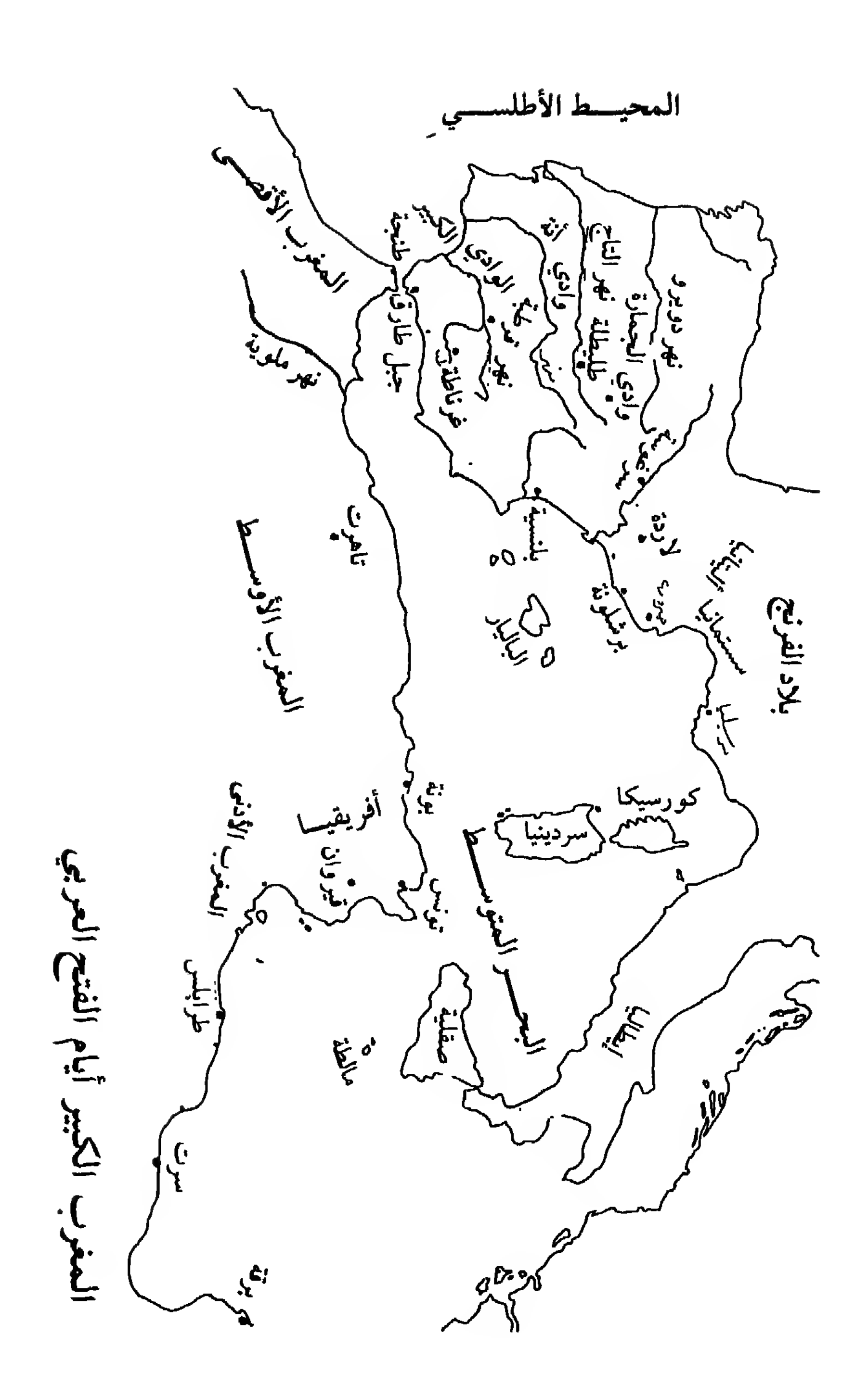
ولو إن احتلال شمال أفريقيا يندرج، فعلاً، في باب الصراع بين دولة الإسلام وأمبراطورية الروم البيزنطيين فمن الثابت والمؤكد ان فتح مصر واعتبارات حمايتها عند حدودها الغربية هما اللذان فرضا على المسلمين أن يسيروا الخطوات الأولى في دروب غزو بلاد المغرب الذي امتد على مدى ثمانين عاماً. وما تفكير عمرو بن العاص بهذا إلا لأنه رأى بعد احتلاله للإسكندرية إن جموع الروم المتمركزة في المقاطعات البيزنطية الأفريقية ستظل تهدد فتوح المسلمين في مصر بأشد الأخطار ما لم يرتفع عليها علم دولة الإسلام. ونظراً لما كان للإسكندرية في نظر المسلمين من أهمية، باعتبارها ثاني أكبر مدن الدولة البيزنطية، أقدم ابن العاص على مباشرة التوسع غربي حدودها دون مشورة السلطات المركزية باعتبار ذلك مكملاً وملازماً لما قام به أصلاً. فالتفكير إذاً

---

(١) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، جزء٢، صفحة ١٥٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، جزء٢ صفحة ١٥٦.

(٣) فتوح البلدان، البلاذري، صفحة ١٥٧، تحقيق رضوان محمد رضوان، طبعة ١٩٣٢.



المغرب الكبير أيام الفتح العربي

باحتلال بلدان المغرب ما كان أساساً إلا لاعتبارات أمنية وعسكرية واستراتيجية.

كان عمرو بن العاص عقب إتمام فتح الإسكندرية في سنة ٦٤٢ م (٢١ هـ) قد أرسل بعثة استطلاعية عبر الحدود الغربية بقيادة مجاهد من قادته الشجعان يدعى عقبة بن نافع وصل إلى زويلة وبرقة فافتتحهما[١]. وسار عمرو بن العاص بنفسه في السنة التالية من مصر إلى برقة فصالح أهلها على جزية يدفعونها[٢] ومنها اتجه إلى مدينة طرابلس الغرب وألقى عليها حصاراً طويلاً دام حوالي الشهر إلى أن تمكن بعض جنوده من عبور سورها خلسة من ناحية البحر مما سهل فتحها فهرب من كان فيها من الروم بما استطاعوا حمله في مراكبهم[٣]. وبنظرة القائد المجرب، والفاتح الطامح، أدرك ابن العاص أهمية «أفريقية» التي بات على أبوابها، فأرسل يخبر الخليفة ابن الخطاب بما أفاء الله عليه من الفتح والنصر ويستأذنه بمتابعة الفتح إذ ليس «أمامه إلا بلاد أفريقية»[٤] فما أذن له، كما رأينا سابقاً، فعاد بجنوده إلى مصر. أما رائد الفتوح الإسلامية في بلاد المغرب، ابن نافع فقد بقي في تلك الأراضي التي أحب ينشر الإسلام بين سكانها من البربر البتر.

مع مجيء الخليفة عثمان بن عفان حدث تغير في سياسة الدولة الإسلامية تجاه مصر وأفريقية. فالخليفة الجديد، بموقعه من البورجوازية التجارية في قريش وبخبرته الطويلة في شؤون المال والتجارة الدولية كان أقدر على فهم أوضاع مصر وأفريقية وأجرأ في اتخاذ القرارات الخطيرة، من سلفه ابن الخطاب، مما سمح له بوضع سياسة أفريقية أكثر طموحاً وأشد مرونة. أبعد عثمان بن عفان عمرو بن

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ١.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٣، صفحة ٢٥ ـ تاريخ اليعقوبي، جزء ٢، صفحة ١٥٦.

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٣، صفحة ٢٦.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٢.

(٥) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٣، صفحة ٨٩.

العاص عن ولاية مصر، وكان سيدها يتحكم بشؤون أفريقية، وعين مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان من جند مصر عارفاً بأمورها ومشاكلها. وكان هذا قد باشر فعلاً قبل تعيينه وبأمر الخليفة الجديد مهاجمة أطراف أفريقية ثم استأذنه في غزو «أفريقية»[1] بالذات وطلب إمداده بالجنود والمؤن. استشار عثمان بن عفان كبار الصحابة فأشار أكثرهم بالموافقة وبالتالي لاقت الدعوة للتوسع في بلدان المغرب مع هذا الخليفة من القبول والاستجابة أكثر مما لاقت أيام ابن الخطاب. ليس هذا فقط وإنما بادر جمع من الصحابة والتابعين إلى الخروج مع الحملة المتوجهة إلى مصر لتدعيم جيش ابن أبي سرح، منهم: مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن العاص[2]. وبوصول هؤلاء إلى مصر سار عبد الله بن أبي سرح بهم وبمن أتاه وبمن عنده من الجنود، وكان تعداد الجميع عشرين ألفاً، إلى برقة حيث لقيهم عقبة بن نافع بمن كان معه من المسلمين وبمن انضم إليهم من البربر الذين اعتنقوا الإسلام. سار حشد المسلمين في سنة ٦٤٧ - ٦٤٨ (٢٧ هـ) باتجاه بلاد تونس الحالية. وصل طرابلس فوجد الروم قد تحصنوا بها فتجاوزها، بعد أن استولى على بعض ما في سفن لهم كانت راسية على الساحل، وسار إلى قابس حيث تحصن الروم أيضاً فتركهم ودخل «أفريقية». وكان يحكم الولاية آنذاك قائد بيزنطي يدعى غريغوريوس، وتسميه المصادر الإسلامية جرجير. كان هذا عندما بلغه خبر زحف المسلمين إلى بلاده قد استعد لملاقاتهم وجمع جيشاً ضخماً[3]. تم لقاء الجمعين بالقرب من مدينة سبيطلة فدعا ابن أبي سرح خصمه جرجير إلى الإسلام أو اداء الجزية فامتنع. التحمت الحرب وقتل غريغوريوس (جرجير)، قتله عبد الله بن

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٣، صفحة ٨٨.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣.
(٣) تقدره المصادر الإسلامية مثل البيان المغرب، وابن الأثير، وعبيد الله بمائة وعشرين ألف جندي وهو رقم مبالغ فيه جداً إذا ما قيس بإمكانيات بيزنطية آنذاك وبكونه كان يتألف من الروم وحدهم وأيضاً إذا أخذنا بعين الاعتبار سرعة انتصار المسلمين عليه.

الزبير بيده، و«حمل المسلمون على عساكره، فقتلوهم في السهل والوعر»[1]. ثم حاصر عبد الله بن أبي سرح مدينة سبيطلة وفتحها وأرسل بعضاً من جنوده توغلوا في البلاد حتى وصلوا إلى مدينة قفصة.

وبعد ذلك مباشرة في سنة ٦٤٨ (سنة ٢٨ هـ) أرسل القائد المسلم، عبد الله بن الزبير، تكريماً له، ليبشر الخليفة عثمان بن عفان بما أنجزته الحملة. على ان عبد الله بن أبي سرح ما حاول قطف ثمار انتصاره، مع إن تلك الوقعة أذلت الروم بأفريقية وأصابهم رعب شديد[2]، بل اكتفى من النصر بما حمله معه من الغنائم والمكاسب وعاد، ربما لمواجهة اضطرابات قامت وراءه في مصر، أو لعله أدرك انه ما عاد يمكنه أن يحقق بجيشه الصغير أكثر مما حقق من مكاسب وانتصارات. على إن عودة ابن أبي سرح إلى مصر، متخلياً حتى عن المدن والحصون التي افتتحها، ستترك المجال للبيزنطيين لمزيد من الاستعداد ولإقامة تحالف وثيق وفاعل مع البربر لمواجهة المد الإسلامي. وقد أوقفت، بعد هذه الحملة الأحداث والاضطرابات التي قامت في بلاد المسلمين، في السنوات الأخيرة من حكم الخليفة عثمان بن عفان وبعد مقتله، أعمال الفتوح والتوسع في بلدان المغرب.

ومع قيام دولة بني أمية في بلاد الشام واستقرار الأمور لمعاوية بن أبي سفيان عادت الرغبة لمتابعة الفتوح في الشمال الأفريقي. وكانت هذه المرة أكثر ثباتاً وأوضح تصميماً، ذلك إن الجالس على عرش دمشق كان مدركاً لأهمية «أفريقية» الاقتصادية بعد ما رأى ما عادت به حملة بن أبي سرح من أموال ومغانم. لهذا بعد وفاة عمرو بن العاص، والي مصر وأفريقية في سنة ٦٦٥ (٤٤ هـ) عين الخليفة على ولاية «أفريقية» معاوية بن حديج جاعلاً من المغرب ولاية مستقلة ترتبط

(١) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، صحيفة المعهد المصري، المجلد الثاني، صفحة ٢١٧.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٨.

بالخلافة مباشرة[1]. ومنذ ذلك الوقت يمكن التأكيد بأن مرحلة الفتوح في شمال أفريقيا قد بدأت رسمياً وبصورة جدية وفاعلة.

ولاية عقبة بن نافع:

ما استطاع معاوية بن حديج هذا أن يحقق إنجازات كبيرة، أثناء ولايته، فعزله معاوية بن أبي سفيان، وعين مكانه عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري، وكان من أكابر التابعين وأفاضلهم. كان عقبة بن نافع هذا، رائد الفتوحات الإسلامية في شمال أفريقيا، ومن أبرز القادة المسلمين فيها. كان عارفاً بأمور هذه البلاد، خبيراً بدروبها ومسالكها، مطلعاً على مكامن الضعف والقوة فيها، إذ أتاها مع عمرو بن العاص وظل فيها بعده يشارك فيما قام به المسلمون من أعمال حربية، خاصة في أيام عبد الله بن أبي سرح. كان عقبة بن نافع محارباً شديداً، شجاعاً وبطاشاً، قوي الإيمان بالإسلام، كبير الرغبة في نشره ولو عن طريق السيف والقوة، مبتعداً في أكثر الحالات عن أساليب المهادنة والمسالمة والتبشير.

وكان عقبة خلال إقامته الطويلة في تلك الأصقاع قد أدرك بنظره الثاقب ان أعمال الفتوح والتوسع في شمال أفريقيا لا بدّ أن تكون طويلة وشاقة، ولا يجوز أن تظل معتمدة على قواعد بعيدة وصعبة الاتصال بالشام أو بمصر. على هذا صمم على بناء مدينة جديدة في بلاد تونس تكون قاعدة لقوات المسلمين ومركزاً للمؤن والأغذية ومقراً لعمالهم وقادتهم. وربما فوق ذلك تعمد بهذا أن يشير لأعدائه الروم إلى ان وجود المسلمين في هذه البلاد هو أمر دائم وثابت ولن يكون آنياً أو عابراً. ولمناعة المدينة التي صار اسمها «القيروان» اختار لها موقعاً يبعد عن السواحل، حيث تتواجد القوى البيزنطية، بما فيه الكفاية ويقترب من تخوم الصحراء في الداخل بما يجعل المسلمين يرتاحون للإقامة فيها لوجودهم في بيئة جغرافية تقرب مما ألفوه في مواطنهم، وبما يتيح لهم في نفس الوقت القرب من

---

(١) فجر الأندلس، حسين مؤنس، صفحة ٣٨.

البربر لمراقبتهم ورصد تحركاتهم. اختار عقبة أرض مدينته في «أجمة عظيمة وغيضة لا يشقها الحيات من تشابك أشجارها»[1]. واختط دار الإمارة والمسجد الأعظم ثم أخذ في بناء السور والمساجد والمساكن[2]. استقامت المدينة في سنة ٦٧٤ (٥٥ هـ)[3]. والواقع إن القيروان سرعان ما اتخذت لنفسها مكانة بارزة بين مدائن دولة الإسلام فباتت، في أفريقية، مقراً للولاة والعمال، منها تخرج جيوش الفتوح وإليها تعود غنائمها، ومن مساجدها ومدارسها يخرج الرسل والعلماء والفقهاء ليدعموا وجود الإسلام في تلك الأصقاع بنشر مبادىء هذا الدين بين البربر وبتعريف هؤلاء إلى القرآن وتعليمهم لغته. وبسرعة مدهشة عمرت بالدور والمنشآت العامة وأقبل كثيرون ممن أسلموا من البربر على الإقامة فيها يختلطون بالعرب ويتعايشون ويتآلفون معهم. وبذا يكون عقبة بن نافع قد نجح في أن يقيم في السهل التونسي قاعدة قوية للإسلام ينتشر منها في جموع البربر الضاربين حولها.

وفي سنة ٦٧٤ (٥٥ هـ) عين معاوية بن أبي سفيان على ولاية مصر و «أفريقية»، بعد أن كان في السابق قد فصل بين الولايتين، مسلمة بن مخلد الأنصاري الذي ما كان على علاقة حسنة فيما يبدو بعقبة. وما لبث معاوية أن أبعد عقبة بن نافع عن ولاية «أفريقية»[4] بصورة مفاجئة ولأسباب اختلف حولها المؤرخون. قيل مثلاً إن معاوية تخوف من أن يجنح عامله إلى الاستقلال في المناطق المفتتحة حديثاً، وقيل إن والي مصر مسلمة الأنصاري أوغر صدر الخليفة على عقبة، وربما إن سياسة عقبة الصلبة المتشددة ما راقت كثيراً لمعاوية المعروف بمرونته ودهائه وديبلوماسيته.

(١) معجم البلدان، ياقوت، المجلد الرابع، صفحة ٤٢١.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ١٦.
(٣) معجم البلدان، ياقوت، المجلد الرابع، صفحة ٤٢١ - ابن الأثير، الجزء الثالث، صفحة ٤٦٦.
(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ١٦.

أبو المهاجر دينار وسياسة التسامح:

أحل مسلمة الذي صارت إليه ولاية مصر «وأفريقية» مكانه أبا المهاجر دينار الذي ما كان أقل من عقبة حماساً للغزو ورغبة في الفتح، إلا انه كان صاحب نظرية في التعامل مع السكان المحليين أعطت في المدى الطويل أفضل النتائج. لقد آمن بان وجود دولة الإسلام في تلك الأصقاع النائية سيظل هشاً ضعيفاً ما لم يرتكز إلى قواعد متينة من حب أهل البلاد وولائهم. لذا فقد سعى دوماً للتقرب من البربر والتفاهم معهم لإبعادهم عن الروم مما يسهل على المسلمين الانتصار على هؤلاء وإخراجهم من بلدان شمال أفريقيا. نشر الدعاة في صفوف البربر يعرضون عليهم الإسلام، فآمن كثيرون، عن رضى وقناعة بالدين الجديد. ولعل أهم ما حققه في هذا المجال إسلام «كسيلة» زعيم قبائل أوربة من البربر البرانس وكان على النصرانية وحليفاً للبيزنطيين، مع نفر من أتباعه مما قوى صفوف المسلمين وفرّق أخصامهم. وكان من أبرز ما حققه في مجال الفتح والتوسع غزو بلاد المغرب الأوسط (في الجزائر الحالية) والوصول منتصراً حتى مدينة تلمسان. ساعده في هذا الإنجاز بصدق وإخلاص «كسيلة» زعيم البرانس. وقد أثبتت تجربة أبي المهاجر دينار إمكانية التقرب من البربر والتعاون معهم واتخاذ جموعهم تربة موآتية لنشر الدين الإسلامي، وبالتالي الإفادة من شجاعتهم وروحهم القتالية في إخراج البيزنطيين من شمال أفريقيا وربما فيما بعد في تحقيق مزيد من الفتوح.

ولاية عقبة بن نافع الثانية:

توفي معاوية بن أبي سفيان في سنة ٦٨٠ (٦٠ هـ) وآلت الخلافة إلى ابنه وولي عهده يزيد. أعاد يزيد هذا عقبة بن نافع مجدداً إلى ولاية «أفريقية» وصارت إليه منذ سنة ٦٨٢ (٦٢ هـ)[1] مهمة الفتوح والتوسع في بلاد المغرب. انطلق

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٣، صفحة ٤٦٦.

عقبة سريعاً إلى مدينة القيروان وتسلم سلطانه من عاملها أبي المهاجر دينار، وعزم على الخروج فوراً لمباشرة الفتح، فأنـزل فيهـا حامية من جنـوده مع الـذراري والأموال كما استخلف عليها زهيراً بن قيس البلوي[1]. ولمن كانوا حولـه قال: «إني بعت نفسي من الله تعالى» ورحل مع عسكر عظيم[2] يبغي الجهاد الذي طالما مارس وأحب، والذي حرم من القيام به طيلة ولاية سلفه. ما كان منتظراً من رجل مثل عقبة بن نافع اعتاد اعتماد العنف في حروبه وغزواته، وتحكيم السيف في التعامل مع الشعوب الغريبة، أن يتبنى سياسة سلفه التي رآهـا مغرقـة في المسالمة واللين وبعيدة عن تحقيق رفع سريع لكلمة الدين الذي أحب، وبه آمن بحماس واندفاع لا حدود لهما.

على سالف عادته اعتمد في تعامله مع البربر سياسة القوة والعنف وما تردد في تجاهل «كسيلة» والاستخفاف به، مع إنه كان قد أسلم وحسن إسلامه ورافق أبا المهاجر دينار في بعض غزواته، مما جعله يضمر له الغدر[3]. قاد عقبة جمـوع المسلمين الذين خرج بهم من القيروان واندفع بهم في حملة سريعـة غلبـت عليها روح المغامرة والحماس الديني. حاصر مدينة «بغاية» وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلهم قتالاً شديداً وهزمهم إلا إنهم عادوا إلى المدينة وتحصنوا فيها[4]. كره المقام الطويل هنـاك فسـار إلـى مدينـة «ممس» فوجـد عليهـا جموعـاً من النصارى، فحاربهم وانتصر عليهم دون أن يحتل المدينة أيضاً. ثم عبر إلى بلاد الزاب ووصل حتى مدينة «تاهرت» حيث تواجه مع جموع من النصارى ومن بربر من مختلف قبائلهم الهامة مثل لواتة، وهـوارة، وزواغـة، وزنانـة، ومكناسـة، وغيرهم[5] فقاتلهم وهزمهم. تمكن عقبة من الانتصار على كل من قابله في بلاد

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ١٠٥.
(٢) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ثاني، صفحة ٢١٩.
(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ١٠٨.
(٤) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ١٠٥.
(٥) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ثاني، صفحة ٢١٩.

المغرب الأوسط، إنما دون أن يحتل مدناً بصورة دائمة، ودون أن يقيم لدولة الإسلام قواعد ثابتة وحاميات تحمي مؤخرة جيشه، مكتفياً، من الحرب بالقتال وتسجيل الانتصارات. اندفع بعد ذلك في قلب المغرب الأقصى حتى وصل مدينة «طنجة» التي قابله صاحبها يوليانOlian الذي أهداه ونزل على حكمه[1]. ثم اندفع لمواجهة البربر المجتمعين في المكان الذي تقوم عليه مدينة فاس الحالية فقاتلهم حتى هزمهم[2] ثم تابع سيره عبر بلاد السوس الأقصى ووصل حتى ساحل المحيط الأطلسي، ساحقاً كل مواجهة لاقاها من البربر أو الروم وما كان عددها قليلاً، حيث أطلق كلمته المأثورة: «يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»[3]. تنقل بعد ذلك مع جموعه في بلاد المغرب الأقصى ثم رجع إلى مشارف مدينة «طنجة» ومنها عاد إلى بلاد المغرب الأوسط حيث أمر جل جنوده بالعودة إلى القيروان ولم يبق معه سوى خمسة آلاف جندي[4]. أقدم على ذلك إما ثقة منه بقدرته، بما أنزل في حملته هذه بأعدائه من ضربات فاعتقد بأنه ما عاد بحاجة في تنقلاته لعدد كبير من العساكر، أو لأن أحداثاً طارئةً في القيروان استدعت ذلك. سار عقبة ومن بقي معه إلى الجند نحو جبال أوراس سالكاً الطريق التي تقود إلى مدينة «تهودة»، إحدى أعظم مدائن المغرب. وربما كان في نيته أن يقيم قربها أو في أحوازها مدينة على شاكلة القيروان تكون قاعدة لجيوش المسلمين، ومنطلقاً لانتشار الإسلام والعربية في بلدان المغرب الأوسط. في هذا الوقت كان البربر قد نفروا منه لكثرة ما أنزل بهم من هزائم وكذلك الروم الذين راسلوا «كسيلة» ودعوه لمساعدتهم فما تأخر في إظهار ما كان يضمره من كره لعقبة، وجمع أهله وجموعه وقصد «تهودة» ينتظر وصول جيوش المسلمين[5].

---

(١) فتح العرب للمغرب عبيد الله بن صالح، مجلد ثاني، صفحة ٢١٩ ـ الكامل في التاريخ جزء ٤، صفحة ١٠٦.

(٢) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ثاني، صفحة ٢١٩.

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ١٠٦.

(٤) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ثاني، صفحة ٢٢٠.

(٥) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ثاني، صفحة ٢٢٠.

وهنـا لا بد من الإشارة إلى انه ربما كان من المستغرب من قائـد عظيم وعسكري بارع أن يسمح لنفسه بأن يستصغر أخصامه وأن يستمد من انتصارات خاطفة وآنية من القوة المعنوية وربما من الغرور ما يجعله بعيداً عن إدراك الواقع السياسي والعسكري، على حقيقته، واتخاذ ما يحتاجه من العدة والرجال. فهو قد اعتقد بعد انتصاراته الكثيرة والمتلاحقـة، ووصولـه إلى شواطـىء الأطلسي ظافراً متحدياً إنه ما عاد بحاجة للحيطة والحذر. وكم كانت دهشته كبيرة عندما واجهته جيوش عظيمة من الروم، ومن البربر البرانسة من أتباع «كسيلة»، عند مدينة تهودة وحيث كان ينوي إقامة قاعدته. قاتل المسلمون قتالاً شديداً، وبشجاعة، ولكنهم هزموا أمام جموع الروم وكسيلة وجيوشه، واستشهد عقبة بن نافع ومعه أبو المهاجر دينار ورهط كبير من المسلمين، ولـم يبـق منهـم إلا يسيراً جداً[1]. وتعتبـر هـذه المعركة التي حصلت في سنة ٦٨٣ ـ ٦٨٤ (٦٤ هـ) والتي تعرف باسم معـركة تهودة واحدة من أهم هزائم المسلمين في المغرب خلال فتـرة الفتـوح، انتشـر صداها في كل أنحاء العالم الإسلامي، خاصة لما رافقها من مقتل عقبة بن نافع أحد أهم أبطال الفتوحات الإسلامية وروّاد نشر الدين الإسلامي في عالم العصور الوسطى.

وصلت أخبار هذه الهزيمة إلى القيروان فأحدثت فيها دوياً مرعباً خاصة بعد أن عرف إن كسيلة يسير بجموع كبيرة من كل أهل أفريقية إليهـا. حاول عامـل المدينة زهير بن قيس البلوي احتواء الوضع ورفع معنويات الناس لجعلهم أقدر وأكثر رغبة في مواجهة أعدائهم والدفاع عن مدينتهم وعما أنجزته دولة الإسلام في تلك الأرض. غير أن حنش الصنعاني، وكانت له مكانة كبيرة بين الناس لسابقته في الإسلام ولطول جهاده، استهول الخطر وأصر على «النجـاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم»[2] فتبعه جلهم. وسار من بقي مع زهير بن قيس إلى قصره

(١) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ثاني، صفحة ٢٢٠ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ١٠٨.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ١٨.

بمدينة برقة فأقام بها مرابطاً حتى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان. دخل كسيلة مدينة القيروان ظافراً وبسط سلطانه على ولاية «أفريقية» كلها معطياً الأمان لكل من طلبه ممن بقي هناك من أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين الذين آثروا عدم الهجرة[1]. وبذلك يكون كسيلة قد أزال كل ما حققه المسلمون حتى ذلك الحين في بلدان شمال أفريقيا على الصعيدين السياسي والعسكري. إلا ان عدداً كبيراً من البربر الذين تحولوا قبل ذلك إلى الإسلام حافظوا على عقيدتهم وبقوا هناك يشكلون قاعدة وطاقة لأية حملة إسلامية محتملة.

مع وصول عبد الملك بن مروان إلى سدة الخلافة في دمشق عادت الرغبة في الشام لاستئناف الفتوح في أفريقية وبصورة خاصة للثأر لمقتل عقبة بن نافع وسقوط مدينته القيروان لما كان لهذين الحدثين من أثر سيء في العالم الإسلامي وفي ضمائر قادة الإسلام في المشرق. وما كان الخليفة عبد الملك أقل رغبة ممن حوله بانتصارات في شمال أفريقيا تحقق من بين ما تحقق من أغراض، تدعيماً لسلطانه وتقوية لخلافته. كان أكابر المسلمين يرون انه «لا يصلح لطلب دم عقبة من الروم والبربر إلا من كان مثله ديناً وعقلاً»[2]. وجه عبد الملك بن مروان إلى زهير بن قيس البلوي الموجود في برقة يأمره باستعادة القيروان لأنه كما قال هؤلاء «صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه»[3]. ما اكتفى عبد الملك بذلك بل إنه أمد زهيراً بالخيل والرجال والمال وحشد له جيوشاً كثيرة الجند بينهم جمع من وجوه العرب.

زهير بن قيس البلوي:

في سنة ٦٨٨ (٦٩ هـ) وبعد طول انتظار، في برقة مرابطاً، اكتملت استعدادات زهير بن قيس البلوي فسار إلى القيروان التي اختار كسيلة، عندما أتته

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ١٠٨.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ١٨.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ١٩.

أخبار الحشود التي أعدها المسلمون الجلاء عنها، وتراجع مع جيوشه الوافرة العدد والتي كانت تزيد جيوش المسلمين عدداً وعدة، إلى مكان بالقرب من مدينة «ممس». لقد تعمد كسيلة اختيار مكان يقع على طريق المسلمين إلى الماء ليحرج وضعهم وأيضاً قريباً من الجبال والصحراء يلجأ فيها مع جموعه الضخمة من روم بيزنطيين وبربر، في حال هزيمتهم، يتحصنون بها[1]، ويستعدون لجولة ثانية. ما توقف زهير ومن معه في القيروان أكثر من ثلاثة أيام ساروا بعدها حتى أشرفوا على معسكر كسيلة. التقى الجمعان واشتد القتال بين الفريقين وكثر القتل في الجيشين إلى أن هزم كسيلة وقتل في ساحة المعركة ولاحق المسلمون فلول جنوده حتى نهر ملوية عند حدود المغرب الأقصى. لقد كانت هذه المعركة هامة جداً وفاصلة من حيث إنها قضت على فعالية تحالف البيزنطيين مع بربر البرانس الذي طالما كان عماد المقاومة ضد الفتح الإسلامي إذ ذهب فيها الكثير من «ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم»[2].

وزهير بن قيس البلوي، ما استطاع أو ما أراد، ولأسباب غير واضحة، قطف ثمار انتصاره العظيم. ذلك إن نصره في معركة ممس كان حاسماً إلى حد كبير وكان يقتضي بالضرورة عملية احتلال وإعمار يؤديان إلى إدخال بلدان المغرب الأوسط بصورة دائمة في دولة الإسلام. لم يفعل زهير بن قيس البلوي ذلك واكتفى باستعادة القيروان وفقاً لرغبة الخليفة عبد الملك بن مروان وقفل عائداً إلى المشرق لأنه كما قال: «إني ما قدمت إلا للجهاد»[3].

وفي طريق عودته إلى المشرق وقبل وصوله إلى برقة كان الروم قد عرفوا بمغادرته «أفريقية» فأغاروا على برقة بمراكب كثيرة وقوة عظيمة وأصابوا فيها سبياً

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ١٩ ـ فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح مجلد ٢، صفحة ٢٢١.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء١ صفحة ١٠.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٢٠.

كثيراً، وقتلوا ونهبوا. استجار أهلها بزهير وجنوده، وكانوا قد اقتربوا منهم فتصدوا لجنود البيزنطيين، وكانت أكثر منهم عدداً وأوفر عدة فقاتلوا حتى قتلوا وهزموا وفرَّ من بقي من المسلمين حياً إلى دمشق ليخبر بالهزيمة وبوفاة القائد المسلم «فترادفت مصيبة زهير على مصيبة عقبة على المسلمين»[1].

ولاية حسان بن النعمان:

توقفت الفتوح أثر هذه الهزيمة سنوات عدة، ربما بسبب انشغال عبد الملك بن مروان في صراعات داخلية خاصة مع عبد الله بن الزبير، وأيضاً شاعت الفتن في بلاد المغرب وكثر المنتزون والمتمردون من البربر. إلا ان عبد الملك بن مروان، عظم عليه مقتل زهير وأهمه أما أهم المسلمين فما تخلى عن فكرة فتح بلاد المغرب بصورة نهائية وحاسمة. وبعد القضاء على ثورة ابن الزبير واستقرار الأمر نهائياً لعبد الملك باشر بإعداد جيش ضخم قادر على تدعيم ركائز دولة الإسلام في أفريقيا بصورة نهائية. حشد أربعين ألف جندي وجعل مقر تدريبهم وتجمعهم في مصر واختار لولاية «أفريقية» ولقيادة هذه الحملة الكبيرة حسان بن النعمان الغساني. أطلق عبد الملك يد حسان في كل ما يؤدي إلى نجاح مهمته التي حددها «بالنهوض إلى أفريقية» فقد سمح له بأن يتصرف بأموال مصر فيعطي منها من معه ومن قد يرد إليه[2] وأن يعطي من يشاء شرط أن يحسن الخروج إلى «أفريقية».

وكان حسان قائداً بارعاً عرف كيف يستفيد من أخطاء أسلافه. لقد أدرك من تجاربهم الكثيرة ان مسالمة البربر والتعامل معهم أفضل وأجدى من معاداتهم إذ في ذلك وحده يمكن فصلهم عن البيزنطيين واستعدائهم عليهم. وأيضاً عرف ان أهم أخطاء أسلافه إنهم جعلوا فتوحاتهم وتوسعاتهم في المناطق الوسطى

---

(١) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢١.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١ صفحة ٢٢.

والداخلية من بلدان شمال أفريقيا تاركين مناطق السواحل تحت سيادة البيزنطيين يصلهم دوماً وبحرية، عن طريق أسطولهم القوي، ما يريدون من العون والمساعدة ويمدون البربر بكل ما يحتاجونه لمقاومة المسلمين والصمود بوجههم. عندما بدأ تحركه اتخذ من مدينة القيروان قاعدة لجيشه ومنطلقاً لغزواته. في مرحلة أولية تقرب من البربر البرانس وصالحهم وقرب بعضهم إليه وضم آخرين إلى من معه وزحف، كما لم يفعل أي واحد من أسلافه، على مدينة قرطاجة العاصمة الأفريقية القديمة. ألقى على المدينة ومن فيها من جموع البربر والبيزنطيين حصاراً طويلاً وانتصر في أكثر من مواجهة، خارج أسوارها، معهم وقتل الكثيرين من فرسانها ورجالها[1]. وأخيراً اجتمع رأي من بقي فيها على الهرب، وكانت لهم مراكب كثيرة، فسار بعضهم إلى صقلية[2] وآخرون إلى إسبانيا. دخل حسان والمسلمون المدينة بالسيف فسبوا ونهبوا وغنموا وقتلوا قتلاً ذريعاً ثم استدعوا من حواليها فأمرهم القائد المسلم بتخريب قرطاجة وهدمها. بلغ حسان إن الروم والبربر اجتمعوا في بنزرت وصفطورة فأسرع إليهم فقاتلهم حتى هزمهم فما ترك من بلادهم موضعاً إلا وطأه[3]. وكان ذلك على الأرجح سنة ٦٩٥ م (سنة ٧٦ هـ). ولعب الأسطول الأموي الناشىء دوراً هاماً في هذا الإنجاز الكبير الذي قضى نهائياً على كل إمكانية للاتصال والتعاون بين البيزنطيين والبربر مما عزل هؤلاء عن الخارج وجعل أمر تصفية مقاومتهم في متناول يد المسلمين.

عاد حسان بعد ذلك إلى مدينة القيروان للاستراحة بعض الوق ت ولأن الجراح قد كثرت في أصحابه.

---

(١) البيان المغرب، ابن اذاري، جزء ١، صفحة ٢٤.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٢٤ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ٣٦٩.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٢٤ ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ٣٧٠.

ومع سيطرة المسلمين ولأول مرة على منطقة سواحل البحر الأبيض المتوسط أصبح القضاء على مقاومة بربر البرانس تاماً، إذ استكان من لم يكونوا بعد قد أنهوا مقاومتهم سلمياً لسيادة المسلمين. وعلى هذا عمد إلى توجيه عنايته نحو إخضاع بربر البتر في الداخل، وكانوا بزعامة امرأة قوية صامدة تدعى الكاهنة تنزل مع أتباعها في جبال الأوراس. كان لها في أفريقية نفوذ وسطوة. الروم يهابونها وجميع البربر لها مطيعون[1]. واجه حسان جموع الكاهنة في نواحي جبال الأوراس على جانبي «وادي سكتاتة» حيث أنزلت بالمسلمين هزيمة شنيعة وقتلت من وجوه العرب ما لا يحصى وأسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان[2]. كتب حسان إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يخبره بهزيمته، واستقر بمن بقي معه من الرجال حوالي خمس سنوات في برقة سادت خلالها الكاهنة على كل أفريقية، وصلهم بعدها من العون والمدد من بلاد الشام ما سمح بالاستعداد للثأر للهزيمة واسترجاع ما فقد من أرض.

خلال هذه السنوات الخمس استبدت الكاهنة، وعسفت، وأساءت السيرة في أهلها فكرهوها. وزاد في بعد الناس عنها ما ذهبت إليه من ان العرب لا يريدون من هذه البلاد إلا المدائن والذهب والفضة بينما لا يبغي البربر غير المزارع والمراعي وعلى هذا أطلقت رجالها في طول البلاد وعرضها يخربون المدن ويحرقون القرى ويتلفون الأشجار. وكانت تظن ان المسلمين لا بد سيقلعون عن التفكير باحتلال هكذا بلاد مخربة مجدبة. وكان ما فعلته مريعاً، إذ كانت أفريقية ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة، ففسدت ذلك، فلم يرجع إلى آخر الدهر»[3]، مما أفقدها الكثيرين من أنصارها واستعدى عليها السكان النصارى وخاصة بربر البرانس.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٢٥.

(٢) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٢.

(٣) فتح العرب للمغرب، عبيدالله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٢.

وحين وافته المساعدات من بلاد الشام ما تردد حسان بن النعمان في استئناف القتال مستفيداً مما استجد بين قبائل البربر من خلافات وانقسامات. أخذ يطاردها في أودية وممرات جبال أوراس حتى التقى بها. ويبدو إنها هذه المرة كانت واثقة من هزيمتها بسبب كثرة من انضم إلى جيوش حسان من البربر هرباً من طغيانها ولقلة من بقي حولها من مقاتلة، إذ طلبت قبل بدء المعركة من ولديها الذهاب إلى حسان ليستأمناه[1]. وفعلاً استأمناه وأمنهما. وفي المواجهة بين الجيشين انتصر حسان وهزم الكاهنة وقطع رأسها على بئر لا يزال يعرف باسم «بئر الكاهنة»[2].

كانت هذه المعركة المرحلة شبه الأخيرة في صراع طويل ومرير استسلم في نهايته البربر لسلطان المسلمين، الذين استقامت لهم أمور بلدان المغربين الأدنى والأوسط، رغم وجود جيوب عديدة بقيت خارجة على سيادتهم رافضة لنفوذهم، خاصة على الأطراف، مما سمح لهم بالعمل المجد لنشر دينهم ولغتهم ومفاهيمهم. وقد صالح بعدها حسان جموع البربر على أن يعطوه اثنى عشر ألف فارس رهائن، يقاتلون مع العرب حيث يجاهدون. وجعل كلاً من ولدي الكاهنة على ستة آلاف من هؤلاء مع علماء من التابعين يعلمون لهم القرآن وشرائع الإسلام[3].

عاد حسان بعد ذلك ليمضي شهر رمضان من سنة ٧٠١ (٨٢ هـ) في مدينة القيروان يقوم ما أنجز ويرتاح مما بذل من جهد وتعب. ومن ثم عمل على تأكيد نفوذ دولته في شمال أفريقيا، فأقام له عمالاً وقادة في مناطق البلاد، اختار أن يكون بعضهم من البربر لاستمالتهم. وللقضاء على إمكانية إغارة البيزنطيين مجدداً على

---

(١) فتح العرب للمغرب، عبدالله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٣ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٢٩.

(٢) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٣.

(٣) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٣.

سواحل بلدان المغرب. أقام بالقرب من قرطاجة المهدمة، ميناء تونس ليكون قاعدة بحرية إسلامية عظيمة التحصين. أقام فيها ترسانات لبناء السفن واستقدم لها عمالاً مهرة من أقباط مصر. كما أكمل تنظيم إدارة البلاد وعرب دواوينها واسترضى الفلاحين فيها بأن وزع عليهم أراضي الروم الواسعة. وبقي حسان بن النعمان الغساني في ولاية «أفريقية» لا ينازعه السلطة أحد حتى توفي عبد الملك بن مروان في سنة ٧٠٥ (٨٦ هـ)[١].

ولاية موسى بن نصير:

غموض محير وضباب كثيف يحيط بالأيام الأخيرة لحكم حسان بن النعمان الغساني في أفريقيا وبداية ولاية موسى بن نصير. بل إن الترتيب الزمني للأحداث متشابك، والمعلومات متضاربة ومتناقضة بشكل لا يسمح برسم صورة واضحة ودقيقة لهذه الفترة ولما تعاقب فيها من أحداث، على أهميتها. والواقع إن أحداث فتح شمال أفريقيا كلها غامضة، ومتناقضة كثيراً، وهذا ما وصل إليه المستشرق ليفي بروفنسال الذي كان شديد الاهتمام بتاريخ بلدان المغرب في ظل دولة الإسلام. لقد صرح في المقدمة التي أرفقها بالمخطوط الذي حققه وأظهره للنور، والمسمى «فتح العرب للمغرب» لصاحبه عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، قائلاً: «لا زلنا إلى الآن بعيدين عن الوصول إلى كشف النقاب تماماً عن تاريخ فتح العرب للمغرب، وإذا كنا اليوم على علم بمراحل الفتح الرئيسية التي تتابعت على طول نصف قرن من الزمان، فإن التفاصيل لا زالت قيد الإبهام، ولا زال الترتيب الزمني للحوادث متعارضاً متناقضاً»[٢]. إنما في كل الحالات الإبهام الذي يحيط بالسنوات السابقة لمباشرة فتح الأندلس انطلاقاً من الشمال الأفريقي هو أشد وأكثر تعقيداً بحيث نجد التناقض والغموض ليس بين مصدرين مختلفين وإنما

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٤، صفحة ٣٧٢.

(٢) صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد، المجلد الثاني، ١٣٧٣ ـ ٩٥٤ هـ، العدد ١ ـ ٢.

ضمن المصدر الواحد وعند مؤرخين من الثقاة والذين لا يرقى الشك إلى دقتهم وسعيهم الدائم لتحري الحقيقة والوصول إلى الخبر الأكيد. وهذه الظاهرة هي التي أوقعت أكثر من باحث من الثقاة الكبار في الزمن الحالي في أخطاء وتناقضات ليسوا مسؤولين عنها كثيراً. نجد على سبيل المثال عند ابن عذاري، وهو من أدق وأوثق رواة هذه الفترة، إن حساناً قد «عزله عبد العزيز بن مروان الوالي على مصر. وأمره بالقدوم عليه»[1]. ثم يقول في نفس الصفحة: «ورحل حسان بالأثقال التي بقيت معه حتى قدم على الوليد فشكا له ما صنع عبد العزيز»[2]. وهذا يعني إن عبد العزيز بن مروان ظل والياً على مصر حتى خلافة الوليد بن عبد الملك. بالمقابل من المعروف ان عبد العزيز بن مروان قد توفي على حياة عبد الملك بن مروان وهذا ما يؤكده الطبري[3]. وابن عذاري نفسه يوافق الطبري إذ يقول في بيانه، وفي مكان آخر، إن عبد العزيز بن مروان قد توفي في سنة ٨٥ للهجرة، وإن الخليفة عبد الملك بن مروان قد ولى مكانه ابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان[4]. وفي الصفحة التالية يخبرنا ابن عذاري نفسه بإن عبد الملك بن مروان قد توفي سنة ٨٦[5] للهجرة وهو أمر يجمع عليه المؤرخون المسلمون عموماً. هذا الإبهام هو الذي جعل الدكتور حسين مؤنس وهو من الباحثين الثقاة يقول: «ويبدو إن صفاته (يقصد حسان) تلك أوقعته في خلاف مع عبد العزيز بن مروان عامل مصر للوليد بن عبد الملك. . . فلم يزل يضايق حسان ويلاحيه حتى أخافه وجعل استمراره في العمل غير ميسور، فاعتزل هذا الرجل القدير العمل في أوائل سنة (٨٦ هـ) والمغرب في أشد الحاجة إليه»[6]، ثم يقول: «وسارع عبد العزيز فأقام على أفريقية وليه وأقرب رجاله إليه موسى بن نصير. وفي كل هذا تناقض كبير مع

(١ ـ ٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣٠.
(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري، جزء ١، صفحة ٣٤.
(٤) البيان المغرب، جزء ١، صفحة ٣٤.
(٥) البيان المغرب، جزء ١، صفحة ٣٥.
(٦) فجر الأندلس، حسين مؤنس، صفحة ٤٦.

كون عبد العزيز بن مروان كان قد توفي سنة ٨٥ هـ وفي كون موسى بن نصير ما عين والياً على «أفريقية»، وكما سيمر معنا الآن إلا زمن الوليد بن عبد الملك. ويبدو إن ابن عذاري نفسه قد أدرك ذلك فأشار في بيانه إلى ان «غزوات حسان لم تنضبط بتأريخ محقق، ولا فتحه لمدينة قرطاجة وتونس، ولا قتله للكاهنة». وأنا حين أسوق كل هذا للقارىء، لا أحاول أن أجد الأعذار والمبررات للباحثين في العصر الحاضر، ولي بالذات على أخطاء قد تكون ارتكبت في تقديم الترتيب الزمني للأحداث وإنما لأشير إلى اننا ما نزال بحاجة للكثير من المعلومات والمصادر التي قد تكون ما تزال في بطون المخطوطات، وعلى رفوف المكتبات الكبرى في العالم تنتظر من يكشف عنها لتنير أمام القارىء والباحث العربيين الكثير مما لا يزال مخفياً أو غامضاً من تفاصيل مراحل الفتوحات الإسلامية في شمال أفريقيا.

وبغض النظر عن كل ما أشرنا إليه من تناقضات، ومع الاعتراف بصعوبة وضع ترتيب زمني دقيق لحوادث سنوات حكم حسان بن النعمان الغساني لولاية «أفريقية» وتسلم موسى بن نصير هذه المهمة فإن من المؤكد ان هذا الأخير قد عين في هذا المنصب في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك وبناء لأوامره. هل كان ذلك بعد مباشرة الوليد سلطانه في سنة ٨٦ هـ حين «كتب إلى والي مصر عمه عبد الله بن مروان بولاية أفريقية والمغرب» لحسان[٢]؟ أم إن هذا قد حدث بعد ذلك بثلاث سنوات، أو خمس كما يؤكد عبيد الله بن صالح[٣] وابن الأثير[٤] واليعقوبي[٥] وهم من الثقاة من بين مؤرخي هذه الفترة. وفي كل الحالات، وإذا افترضنا بان الوليد بن عبد الملك لم يعين موسى بن نصير مباشرة بعد توليه الخلافة

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣١.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣٥.

(٣) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٣.

(٤) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، حزء ٤، صفحة ٣٧٢.

(٥) تاريخ اليعقوبي، جزء ٢، صفحة ٢٨٥.

واعتزال حسان بن النعمان فإن هذا يعني إن فترة من الفراغ في رأس السلطة في «أفريقية» قد حدثت وامتدت إلى ثلاث أو خمس سنوات بعد وفاة عبد الملك بن مروان. وإذا صح الافتراض الأخير فإنه يفسر لنا إشارة ابن الأثير بقوله: «وكان البربر قد طمعوا بالبلاد بعد مسير حسان»[١].

عند وصول موسى بن نصير إلى القيروان وجد ان أمامه إنجازين كبيرين لا بدّ من تحقيقهما لتصبح بلدان الشمال الأفريقي فعلاً من ضمن دولة الإسلام. كان عليه أن يقضي على ما كان قد بقي من جيوب في المغربين، الأدنى والأوسط، خاصة على أطرافهما، تتحصن فيها قبائل بربرية ما زالت ترفع لواء المقاومة للإسلام ولدولته. وفي مرحلة تالية كان عليه أن يخضع بلاد المغرب الأقصى التي وإن كان عقبة بن نافع قد قطعها واصلاً حتى المحيط فإن بربرها كانوا ما يزالون غير خاضعين لسلطان المسلمين. كانت أولى منجزاته بعد وصوله إلى القيروان إرسال حملة إلى منطقة زغوان القريبة من القيروان فأخضعها وسبى كثيرين من سكانها من البربر[٢]. ولما كان أربعة من أبناء عقبة بن نافع هم: عياض وموسى وعثمان وأبو عبيدة، يرافقونه في جيوشه فقد أرسلهم إلى منطقة مدينة «سجومة»، مع من أرسل من جيوش لإخضاع أهلها من البربر. وبعد أن تم إخضاع هؤلاء وسبي الألوف منهم أطلق يد أبناء عقبة في الثأر لأبيهم من هذه القبائل التي شاركت في هزيمة عقبة بن نافع فقتلوا من أسراهم ستمائة شخص[٣] دون مبرر شرعي غير الرغبة في الثأر الشخصي وربما إرادة إرهاب البربر عموماً لضمان استمرار استكانتهم. بادر بعد ذلك لإخضاع من بقي عاصياً ومعارضاً من قبائل هوارة وزناتة وكتامة فأغار عليهم، وقتل وسبى منهم، ثم هادنهم بعد أن طلبوا منه الأمان وقدموا له رهائن من خيارهم[٤].

---

(١) الكامل في التاريخ، جزء ٤، صفحة ٥٣٩.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣٢.

(٣) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٤.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣٤.

وللمهمة الكبيرة وهي إخضاع بلاد المغرب الأقصى، وإدخالها فعلاً في منطقة نفوذ المسلمين، قاد حملة كبيرة إليها فوجد البربر فيها قد هربوا خوفاً من بطش رجاله بعد أن وصلتهم أخبار ما أنزلوه بالقبائل البربرية التي أخضعوها من عنت وأذى وما أخذوه من أهلها من أسرى بلغ تعدادهم عشرات الألوف. لحق بهم وحاربهم وقتل منهم خلقاً كثيراً حتى استأمنوا وأطاعوه[1]. وبسرعة مدهشة، ربما من أسبابها البطش الشديد، تم إخضاع بلدان المغرب الأقصى لدولة الإسلام واستسلم البربر لدين الإسلام ولدولته. ولإدارة شؤون هذه الأراضي ولى مولاه طارق بن زياد على طنجة وأحوازها وترك معه جيشاً من سبعة عشر ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر الذين اعتنقوا الإسلام، وأوكل إلى العرب، بصورة خاصة مهمة تعليم أبناء البلاد القرآن وتفقيههم بالدين[2]. وما كان هؤلاء أصلاً بغرباء عن الإسلام كدين وعقيدة، إذ كان عقبة بن نافع قد ترك بينهم بعض الرواد من الفقهاء يبشرون بالقرآن والإسلام[3].

بعد هذا عاد موسى بن نصير إلى مقر ولايته في القيروان، معتبراً ان بلدان الشمال الأفريقي قد باتت من ضمن دولة الإسلام، ومع إنه تشدد كثيراً مع البربر المعارضين له، فقتل منهم دون رحمة أو شفقة، وأسر منهم ما يقدر بعشرات الألوف فإن مسيرة انتشار الإسلام ظلت قوية ناشطة، بينهم. ويذهب المؤرخ عبيد الله بن صالح في هذا المجال إلى حد التأكيد بانه وحتى قبل مباشرة فتح الأندلس كان البربر «قد أسلموا كلهم إسلاماً صحيحاً». وربما كان هذا ما يفسر لنا ما أظهره هؤلاء من إخلاص وحمية في الحملات على شبه الجزيرة الإيبرية. وعلى كل حال فقد كان لسياسة موسى بن نصير حيال البربر وجه آخر أكثر إنسانية ومودة.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣٦.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣٦ - فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٤.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١، صفحة ٣٧.

فهو مع من أسلموا وحسن إسلامهم اتبع نهج أبي المهاجر دينار الذي يقوم على مسالمة البربر والتعاون معهم. عامل هؤلاء بإنصاف ومحبة وساوى بينهم وبين العرب في المعاملة، وجندهم في جيوشه، فبادلوه إخلاصاً بإخلاص وولاءً بولاء. وبمساعدة هؤلاء فقط نجح في تركيز دعائم دولة الإسلام في كل بلدان المغرب حتى شواطىء المحيط الأطلسي وتخوم الصحراء الكبرى. وما بقي خارجاً في أيامه عن سلطان المسلمين في تلك الديار سوى مدينة سبتة التي كان أمرها لسيد نصراني من القوط أو ربما من الروم البيزنطيين يدعى يوليانOlian صمد بوجههم بقوة وعناد.

وربما كان نجاح المسلمين في نشر دين الإسلام على أيام موسى بن نصير في بلاد المغرب الأقصى والتقرب من البربر وتعريبهم الخطوات الأولى في المسيرة الطويلة نحو شبه الجزيرة الإيبرية وإقامة دولة للعرب والمسلمين، في ذلك الطرف الجنوبي من قارة أوروبا، بعد أن استعصى على خلفاء دمشق تحقيق مثل ذلك الإنجاز على ضفاف البوسفور القريبة منهم.

---

(١) فتح العرب للمغرب، عبيد الله بن صالح، مجلد ٢، صفحة ٢٢٤.

الفصل الثالث

فتح إيبريا

في مطلع القرن الثامن للميلاد كانت جيوش المسلمين قد وصلت في توسعها شرقاً حتى بلاد الهند. وفي الغرب كانت قد حملت لواء دين الإسلام ومدت حدود دولته حتى شواطىء المحيط الأطلسي. وما كان الفتح في هذا الاتجاه آنذاك، برأي بعض قادة الفتوح الإسلامية وروادها قد بلغ مداه. وأيضاً حمية الجيوش المقاتلة كانت ما تزال على قوتها بل ربما ازدادت فعالية بمن لحق بها من مجاهدين بربر أسلموا وصدقوا في إسلامهم وحملوا راية النضال في سبيل عزة عقيدتهم الجديدة. وعلى هذا بدا من الطبيعي أن لا يمنع البحر أنظار المسلمين في المغرب من أن تنظر نحو شبه الجزيرة الإيبرية التي لا يفصلها عن الساحل الأفريقي الشمالي إلا ذلك الممر الضيق الذي كان يعبر في ساعات قليلة والمعروف بمضيق جبل طارق. فعلاً ما رأى المسلمون في ذلك الممر حاجزاً يجب أو يمكن أن تقف عنده رغبتهم في التوسع وفي تحقيق مزيد من الانتشار لدينهم ولدولته. وما كان يصلهم يومياً من المتنقلين عبر المضيق من أخبار تردي الأوضاع السياسية والعسكرية في الأرض الإسبانية المجاورة ما كان إلا ليزيد في

شوقهم للوصول إلى هناك متابعين مسيرتهم الطويلة.

ولما كان الملك القوطي قد أمعن وتطرف في ملاحقة أبناء سلفه غيطشة وإنزال الأذى بهم وبمن تحلق حولهم من أنصار النظام القديم، فقد هرب أصدقاؤهم أو أقاربهم على ما تذكر المصادر الإسبانية إلى مدينة سبتة في المغرب وطلبوا العون والمساعدة من صديقهم وحليفهم حاكمها يوليان Olian. وكان يوليان هذا حاكماً على المدينة وأيضاً على مضيق جبل طارق المواجه لها، منذ ما قبل وصول المد الإسلامي إلى جوارها، من قبل الدولة البيزنطية. وبقي فيها بعد وصول المسلمين إلى المغرب إلا انه صار أكثر توجهاً نحو جيرانه القوط الغربيين، فأقام معهم صلات وثيقة باعتبارهم القوة المسيحية الأقرب والأقدر على مساعدته في المحافظة على استقلال مدينته. وكان على ما يبدو على درجة كبيرة من الحصافة والحكمة فأقام في الوقت نفسه صلات حسنة مع جيرانه البربر وأيضاً مع المسلمين. ما تردد يوليان في تبني قضية أولاد صديقه القديم، الملك القوطي، فوعد بالعمل على إعادة عرش أبيهم المسلوب منهم بغير وجه حق. بادر مقتنعاً بمصداقية دعوى أصدقائه، وربما أيضاً لأنه رأى في النظام الجديد في إسبانيا مصدر خطر لنفوذه وسلطانه، للاتصال بجيرانه المسلمين يستعديهم على الملك الجديد في إسبانيا ويدعوهم لاحتلال البر الإسباني واعداً إياهم بالعون والمساعدة.

يبدو إنه كانت هناك إلى جانب هذه الاعتبارات السياسية دوافع أخرى، وراء مبادرة حاكم سبتة، ذات طابع شخصي وعائلي أفاضت المصادر العربية في ذكر تفاصيلها، مضفية عليها بعض الطابع القصصي، في حين رفضتها بقوة المصادر الإسبانية المسيحية أو أدرجتها في عداد الأساطير والقصص الشعبي الذي ازدهر في العصور الوسطى. فالمصادر الإسلامية تغلب الباعث الشخصي في مبادرة يوليان للاتصال بالمسلمين. تقول الرواية إن يوليان كان قد أرسل ابنة له بارعة الجمال عرفت في التاريخ الإسباني باسم «فلوريندا» لتعيش في بلاط الملك القوطي لذريق، في طليطلة، على عادة بنات الأشراف والنبلاء والموسرين فتتعلم

عادات القصور وتتأدب بآدابها. إلا أن لذريق انجذب إليها وبهره جمالها «فاغتصبها نفسها فأرسلت إلى أبيها ودست إليه»[1]. وهذا جعل يوليان يحقد بشدة على الملك المغتصب الذي تجاهل مكانته ونفوذه وكذلك تجاوز التزامات الضيافة والأمانة فصمم على الانتقام منه وتبني قضية أعدائه. وسواء صحت هذه الحكاية كما تؤكد المصادر الإسلامية القديمة، مع بعض الاختلاف في التفاصيل، أو مال القارىء نحو النهج الإسباني المسيحي الذي يرفضها أو يدرجها في عداد نتاج قصاصي العصور الوسطى، فمن المؤكد ان المؤرخين يعطونها من الأهمية أكثر بكثير مما تستحق. إذ مهما عظمت أحقاد حاكم لبلد صغير، ومهما كثرت شهواته ونزواته فلا يعقل أن يقدم على عمل يعتبر خيانة واضحة لقومه ولأهل دينه في عصر كان للدين فيه أهمية بالغة من أجل حادث شخصي، ما كانت الأعراف والتقاليد وسنن الأخلاق في العصور الوسطى الأوروبية عامة وعند الجرمان خاصة تعطيه كبير أهمية.

وأياً تكن بواعث يوليان، وهي على الأرجح خوفه على سلطانه ونفوذه من نظام لذريق الجديد في إسبانيا وارتباط مصالحه الشخصية والسياسية بأبناء صديقه القديم، الملك القوطي الذي انتزع من أولاده عرش طليطلة دون وجه حق، فإن الفتوح الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبرية ما كانت إلا امتداداً لتوسع انطلق قبل ذلك بكثير من شبه الجزيرة العربية. وما كان لهذا التوسع أن يتوقف إلا بمواجهة قوة قادرة على أن تفعل ذلك، أو متى استنفذ أغراضه. وكل ما حدث غير ذلك فما كان إلا من قبيل التحريض أو التشجيع والمساعدة.

لا تتفق المصادر الإسلامية حول تفاصيل اتصال يوليان بالمسلمين. قيل إن يوليان اتصل بطارق بن زياد حاكم مدينة طنجة من قبل عامل المسلمين على شمال أفريقيا آنذاك، موسى بن نصير، «يزين عنده دخول الأندلس ويقرب له

---

(1) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩.

أمرها»[1]. وفي رواية أخرى إن يوليان سار بنفسه بحراً إلى القيروان حيث اجتمع بالوالي المسلم «وقرب عليه مرام غلبته الأندلس وسرعة فتحها وكثرة أموالها وجمال سبيها، وإنها بلاد مياه كثيرة وجنات وأنهار وغلات»[2]. ولما ما كانت أصلاً دعوة يوليان بعيدة عن مطامح المسلمين ولا غريبة عن أفكار وطبيعة وجودهم في تلك الأراضي البعيدة جداً عن مواطنهم، فقد اقتنع موسى بوجهة نظر حاكم سبتة. شجع موسى على التجاوب ما كان يعرفه عن تردي الأوضاع السياسية والعسكرية في إسبانيا وما وعد به الحاكم المسيحي من عون ومساعدة في نقل جند المسلمين عبر مضيق جبل طارق.

وحين شعر قادة المسلمين في المغرب بقدرتهم على مباشرة أعمال الفتوح، استأذن والي أفريقيا موسى بن نصير الخليفة الأموي في دمشق الوليد بن عبد الملك الذي أجابه: «ان خضها بالسرايا حتى تختبر ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»[3]. وبناء لطلب موسى بن نصير قام يوليان بنفسه باجتياز المضيق والنزول على البر الإسباني أكثر من مرة عاد في كل منها مثقلاً بالغنائم والأسلاب. ومع هذا فإن موسى، وهو المعروف بالحنكة واستقامة الرأي وحسن التدبير، وأيضاً احتراماً لتحفظات الخليفة بقي على حذره بعض الشيء فأوفد بعثة استكشافية ضمت حوالي أربعمائة فارس، بقيادة واحد من مواليه يدعى أبا زرعة طريف بن مالك، نزلت على البر الإسباني في شهر تموز سنة ٧١٠ (رمضان ٩١ هـ) في مكان قريب من صخرة جبل طارق ما يزال يعرف حتى اليوم باسم طريف Tarifa. هناك لقي عوناً صادقاً من أنصار يوليان، الذي كان قد تولى نقل الجنود على سفن قدمها له، وكذلك من حلفائه أبناء غيطشة، وغزا كل الساحل الممتد بين صخرة جبل طارق ومرفأ الجزيرة الخضراء وعاد بالوافر من الغنائم. ولعل أفضل ما أثمرته

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٦.

(٢) كتاب الاكتفاء، ابن الكردبوس، صفحة ٤٤.

(٣) أخبار مجموعة، صفحة٦.

هذه البعثة هو اقتناع المسلمين بصحة ما ترامى إلى مسامعهم عن تفسخ صفوف الإسبان عامة وضعف قدراتهم على المقاومة. وأيضاً زال عندهم كل شك في انهم سيجدون عوناً صادقاً ممن دعوهم لفتح إسبانيا متى باشروا ذلك فعلاً.

عندها عزم موسى بن نصير على توجيه حملة إلى شبه الجزيرة أسلم قيادتها إلى قائد من معاونيه يدعى طارق بن زياد. كان هذا بربرياً من قبائل نفزة اعتنق أبوه الإسلام وحسن إسلامه، وانضم هو إلى صفوف المسلمين، فعمل بصدق وإخلاص، وامتاز بالشجاعة والإقدام وحسن تعامله مع الجنود البربر. ربما لهذه الأسباب بات مقرباً من موسى بن نصير وموضع ثقته فجعله عامله على مرفأ طنجة الهام ثم عهد له بقيادة أول حملة جدية على بلاد الإسبان مقدماً إياه على غيره من أشراف العرب ومن زعماء البربر. ضم جيش طارق بن زياد ثلاثمائة من قادة العرب ووجهائهم وأشرافهم وحوالي سبعة آلاف جندي من البربر[1]. والواقع إن اعتماد العرب في جيش الفتح هذا على جيوش من أمة أخرى إنما يدل على ان البربر قد اعتنقوا فعلاً الدين الإسلامي وآمنوا به بصدق وتحمسوا لرفع لوائه حتى في خارج بلادهم لدرجة جعلت قادة المسلمين يثقون بهم ولا يترددون في إيلائهم شرف إنجاز واحدة من أعظم منجزاتهم العسكرية في العصور الوسطى. ربما أمكننا أن نضيف إلى ذلك عوامل أخرى شجعت موسى بن نصير على الاعتماد على البربر. فهؤلاء أكثر معرفة بطبيعة البلاد الإسبانية المجاورة لهم، وأعرف بدروبها ومسالكها، وأخبر بمواطن الضعف والقوة عند أهلها. وهم لهذا أقدر على مواجهتهم وأعرف بالتعامل معهم سلماً أو حرباً. وهم فوق هذا وذاك من المقاتلين الشجعان الذين يمكن الاعتماد عليهم في المهام الصعبة.

في سنة ٧١١ (٩٢ هـ) جاز المسلمون المضيق على دفعات وعلى متن أربع سفن قدمها لهم حليفهم يوليان حاكم سبته. وربما ساعدت في هذه العملية

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٦.

بعض سفن الأسطول الأموي العامل في غربي البحر الأبيض المتوسط من القاعدة البحرية الجديدة تونس. وكان هدف الحملة الأولى إقامة قاعدة للمسلمين على الشاطىء الإسباني تكون بمثابة رأس جسر مقابل للشاطىء المغربي بحيث تتأمن المواصلات بين الشاطئين بصورة دائمة.

وهنا لا بد من التوقف قليلاً عند رواية ترددها كثيراً بعض المصادر الإسبانية المتأخرة ربما نقلاً عن الأدريسي[1] ومفادها إن طارقاً بن زياد أحرق السفن التي نقلته مع جنده بعد فراغها من مهمتها. وردد هذه الرواية أيضاً ابن الكردبوس[2]. وتفسير ذلك ان القائد المسلم أراد أن يضع جنده أمام مخرج وحيد هو القتال حتى النصر أو الشهادة بعد أن يكون قد قطع عليهم كل إمكانية للعودة والتراجع. ومع إن عملاً بطولياً وربما أسطورياً كهذا ما كان بعيداً عن عقلية الرواد المسلمين، إلا إنه من المستبعد جداً أن يكون أمر كهذا قد حدث. فالمؤرخون المسلمون المتقدمون الذين أتحفونا بجل ما نعرفه عن أحداث فتح الأندلس ما أشاروا إلى مثل هذا الأمر وإنما انفرد بذكره رحالة متأخر وضع كتابه في صقلية بعيداً عن أرض الأندلس. ثم إن القائد المسلم الذي كانت أولى مبادراته السعي لإقامة رأس جسر عند صخرة جبل طارق بحيث تتأمن المواصلات بين الشاطئين بصورة دائمة ما كان من المعقول أن يحرق تلك السفن التي لا غنى عنها لإبقاء تلك الصلة قائمة. ثم فوق هذا وذاك فالسفن ما كانت للمسلمين ولا كانت تحت سيادتهم المباشرة.

نزل المسلمون عند صخرة على الشاطىء الإسباني الجنوبي صارت تعرف من ذلك الوقت باسم جبل طارق. وهناك أقام طارق بن زياد قاعدة لجنده ومرفأ يصله بالشاطىء المغربي وكذلك بنى المسلمون «سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب»[3]. ومن هناك قامت جيوش المسلمين بالاستيلاء على الساحل الممتد حتى

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الأدريسي، طبعة روما، صفحة ١٧٨.

(٢) كتاب الاكتفاء، ابن الكردبوس، صفحة ٤٦.

(٣) البيان المغرب، ابن عداري، جزء ٢، صفحة ١٣.

أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة الإيبرية عند المرفأ المعروف اليوم بالجزيرة الخضراء. وساهم أنصار يوليان بجدية في هذه العمليات وإليهم أوكل طارق مهمة الدفاع عن موقع عسكري أقامه هناك.

ويبدو إن لذريق ما كان غافلاً عما يحاك ضد عرشه وبلاده في الجنوب وإن كان ذلك مر بصورة شديدة الغموض في المصادر الإسلامية. إنما من خلال بعض إشارات وردت هنا وهناك يفهم بان لذريق كان يترصد بشكل أو آخر ما كان يحدث. فمن إشارة وردت عند ابن الكردبوس يفهم بان طارقاً عندما أرسى إلى الجبل «وجد بعض الروم وقوفاً في موضع وطي كان عزم على النزول فيه إلى البر فمنعوه منه، فعدل منه ليلاً إلى موضع وعر»[1]. ولا بد ان هؤلاء كانوا مكلفين بمهمة حراسة الشواطىء ومراقبة أية تحركات مريبة تحدث فيها أو قريباً منها. ومن إشارة عن ابن عذاري يفهم ان لذريق مع انشغاله في التصدي لاضطرابات أمنية في أحواز بنبلونة ما أن بلغه خبر نزول طارق ومن معه ومكانهم الذي هم فيه حتى بعث «الجيوش جيشاً بعد جيش، وكان قد قود عليه ابن أخت له يسمى بنج، وكان أكبر رجاله، فكانوا عند كل لقاء يهزمون ويقتلون وقتل بنج وهزم عسكره»[2].

وحين أدرك جدية ما كانت تتعرض له بلاده من أخطار، رأى أن يتوقف عن ملاحقة المتمردين في منطقة بنبلونة وعاد مسرعاً إلى عاصمته طليطلة حيث جمع حشوده ودعا ولاته على الأمصار لموافاته بالمؤن والجند والأغذية ثم سار من هناك إلى مدينة قرطبة ليكون أقرب من مسرح الأحداث.

معركة وادي لكة:

وهناك قريباً من قرطبة أخذ لذريق يخطط ويستعد للدفاع عن بلاده وطرد

---

(١) كتاب الاكتفاء، ابن الكردبوس، صفحة ٤٦.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١.

المغيرين منها. ولما كان طارق بن زياد قد هدف أصلاً لاحتلال مدينة قرطبة نظراً لأهميتها وموقعها الممتاز على مجرى «الوادي الكبير» فقد أخذ يتقدم نحو القاعدة الإسلامية الجديدة طريف ثم اتجه شمالاً حتى وصل إلى بحيرة الخندق «Janda». في هذا الوقت كان لذريق قد أكمل استعداداته فصمم على معاجلة المسلمين بجيوشه التي باتت كبيرة العدد خاصة بعد أن أكره أولاد الملك المتوفي غيطشة على الانضمام إليه مع جموعهم. وفعلاً أخذ يتقدم بجيوشه في منطقة مدينة شذونة Medina sidonia ويقترب من البحيرة. تخوف طارق من مواجهة حشود القوط، التي تضخمت بأكثر مما توقع، وبلغت حسب بعض المصادر مائة ألف فارس[1]، والتي في كل الحالات، تفوق بكثير ما كان مع طارق. كتب القائد المسلم إلى سيده موسى بن نصير «إنه قد زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به»[2]. يبدو إن موسى ما كان غريباً عن التطورات الجارية في إسبانيا فكان دائم المراقبة والاستعداد إذ «منذ وجه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة»[3]. وهذا ما سمح له بأن يمده فوراً بخمسة آلاف جندي على رأسهم بعض أشراف العرب وقادتهم وكذلك رائد الفتوح طريف بن مالك. وبذا تجمع حول طارق بن زياد اثنا عشر ألف جندي ومعهم يوليان في جماعة كبيرة من أهل البلد يرشدون المسلمين إلى مواطن القوة والضعف، يدلونهم على العورات، ويحملون إليهم الأخبار والمعلومات.

بدأ القتال في الأيام الأخيرة من شهر رمضان سنة ٧١١ م (٩٢ هـ) عند نهر صغير يدعى «وادي لكة» ودام ثمانية أيام لعب خلالها أولاد غيطشة وأنصار يوليان دوراً بارزاً في التآمر على لذريق لإضعاف جيشه. وعلى الرغم من إن القوط، عموماً، قاتلوا قتالاً مريراً في البداية إلا أن ولدي غيطشة اللذين كانا يقودان ميسرة

---

(١) كتاب الاكتفاء، ابن الكردبوس، صفحة ٤٧.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٧.

(٣) أخبار محموعة، صفحة ٧.

جيوش الإسبان وميمنتها ما لبثا أن تخاذلا وعملا على إنـزال الهزيمـة بجناحـي الجيش وهذا أدى إلى تراجع القلب، حيث كان لذريق يقود، ثم إلـى هزيمتـه هزيمة شنيعة. انجلت معركة «وادي لكة» عن نصر عظيم للمسلمين حطم مقاومة أخصامهم وفتح أمامهم شبه الجزيرة الإيبرية بحيث ما اضطروا بعد ذلك، لإنجاز الفتوح، أن يخوضوا معركة بهذه الأهمية. سقط من الإسبان في ساحة القتال خلق كثير واختفى زعيمهم لذريق، إذ ذكرت مصادر عربيـة إنه قتل وقالت أخرى إنه ألقى بنفسه في مياة النهر وما عثر له على أثر بعد ذلك.

أما بالنسبة للمسلمين فإن هذا الانتصار، مع انهم فقدوا في المعركة عدداً كبيراً من القتلى والأسرى بينهم بعض زعمائهم وقدامى مجاهديهم، قد رفع من معنوياتهـم بشـكل عظيم وتعرفـوا إلـى مكامـن الضـعف في القـدرة العسـكرية للإسبان، وأدركوا أهمية ما أنجزوه. وعلى هذا فقد صمم قائدهم طارق بن زياد، على تجاوز ما تركته المعركة في جيشه من جروح ونكبات، ومتابعة الفتح لقطف ثمار انتصاره. لقد أدرك طارق إنه ربح معركة واحدة، على أهميتها، أما إسبانيا فما زالت بأيدي القوط الذين بادر قادتهم إلى الانكفاء نحو عاصمتهـم طليطلـة لتضميد جراحهم وإعادة تكوين جيشهم واستئناف القتال. قبـل أن يتمكنـوا من إنجاز ذلك، وبناءً لنصيحة يوليان[1]، عزم طارق على توزيع جنده في بعثات تتولى احتلال بعض المدن الهامة على أن يتوجه هو بجل جنده نحو طليطلة العاصمة القوطية.

فتح قرطبة:

وجه طارق بعض جيشه لاحتلال عدد محدد من المدن والمواقع الهامة وأمر بصورة خاصة مولى الوليد بن عبد الملك مغيثـاً الرومـي بأن يتوجـه علـى رأس سبعمائة فارس لاحتلال مدينة قرطبة الهامة. نزل مغيث على الضفة اليسرى لنهر

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٤٨.

«الوادي الكبير» وانتظر الفرصة الملائمة لعبور النهر باعتبار ان القنطرة الرومانية القديمة الموصلة بين الضفتين كانت متهدمة. رابط القائد المسلم هناك بعض الوقت يستطلع أخبار المدينة فعرف ان أغنيائها وكبراءها قد غادروها، خوفاً وفزعاً، وما بقي فيها غير عظيمها وسواد الناس مع أربعمائة فارس[1] للدفاع عن المدينة وترامى إلى مسامعه ان في سور المدينة القديم ثغرة فوق باب السور وهو الباب المواجه للقنطرة. وفي ليلة ممطرة «أغفل فيها حرس السور الحراسة حيفاً من البرد والمطر»[2] تسلق رجل من المسلمين الحائط عند الثغرة وتبعه آخرون حتى تكاثروا على السور ثم دخلوا وأقدموا على قتل حراس باب القنطرة. فتحوا الباب ومنه عبر مغيث الرومي وجنده بعد أن كانوا قد نجحوا كلهم في اجتياز النهر.
حاول حاكم المدينة وجنوده احتواء المفاجأة ومقاومة المهاجمين لكنهم عجزوا وتراجعوا ثم تحصنوا في كنيسة تقع في القسم الغربي من المدينة حيث ظلوا محاصرين مدة ثلاثة أشهر. كتب مغيث إلى طارق بن زياد يخبره باحتلال المدينة بكاملها ومحاصرة حاميتها، وحل هو في قصر قرطبة الحكومي ينظم شؤون المدينة. طال الحصار وقل الماء والطعام داخل الكنيسة فحاول زعيم القوط المحاصرين الخروج خلسة من المدينة والتحصن في الجبال المشرفة عليها على أن يلحق به أتباعه. كان مغيث الرومي يراقب ما يحدث فلحق به بنفسه وأسره وكان أعلى من وقعوا أسرى بيد المسلمين مكانة من أكابر القوط. أما أتباعه المحاصرين فقد أسروا وقتلوا كلهم. أقام مغيث الرومي حامية عسكرية على المدينة من بعض جنوده وجعل معهم يهود المدينة يساعدونهم في ضبط الأمن فيها وفي تصريف شؤون سكانها. وكان يهود قرطبة كسائر يهود شبه الجزيرة الإيبرية راغبين في مساعدة المسلمين كرهاً بالقوط وثأراً منهم لما نالوه من أذى على يد سلطانهم، وأيضاً طمعاً بمعاملة تتسم بالرحمة والعدل والمساواة حصل عليها أبناء

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ١٠.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ١٠.

دينهم في كل قطر دخلته جيوش دولة الإسلام في المشرق كما في مصر وفي بلدان شمال أفريقيا.

فتح طليطلة:

أما طارق بن زياد فقد سار بجل الجيش الإسلامي وبمن انضم إليه من المجاهدين بعد أن شاع خبر نصره العظيم «فتسامع الناس به من كل مكان فجازوا إليه من شرق وغرب»[1]. أخذ طريقه إلى طليطلة مروراً بجيان. وهذا يعني إنه عبر الطريق الروماني القديم المعروف بطريق هنيبال[2]. ويبدو إن القوط ما استطاعوا أن يجمعوا شتاتهم بما يكفي ليعدوا من القوة ما يواجهون به عدوهم فاختار حاكم طليطلة مغادرتها، وكذلك فعل أكثر مقدميها وأيضاً أسقفها ورجال الدين فيها هرباً من مواجهة المسلمين مما جعل هؤلاء يستولون عليها دون مقاومة تذكر. ما شاء طارق بن زياد أن يتوقف عند انتصاره هذا، بل أبقى بعض جنوده مع يهود المدينة، الذين قدموا له العون والمساعدة، وسار لمتابعة أخصامه فدخل مدينة وادي الحجارة «ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى به إلى اليوم فبلغ مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة»[3] القريبة من قلعة هنارس[4] فأخضعها ودخلها. ومن هذه الفتوح صارت للمسلمين غنائم عظيمة من قصور أثرياء طليطلة ودور الحكم فيها، لعل أثمنها وأغناها بالذهب والجواهر مذبح الكنيسة العظمى في طليطلة والذي بالغ مؤرخو المسلمين في الإشادة بعظمته وغناه. إلا ان هؤلاء اختلفوا في تحديد مكان وطبيعة ما وجد. غير ان كبير مؤرخي الأندلس ابن حيان حسم الخلاف وأعطانا صورة دقيقة لحقيقة ما وجد إذ يقول: «وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه السلام لم تكن له فيما يزعم رواة

---

(١) كتاب الاكتفاء، ابن الكردبوس، صفحة ٤٨.

(٢) فجر الأندلس، حسين مؤنس، صفحة ٧٨.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧.

(٤) فجر الأندلس، حسين مؤنس، صفحة ٧٩.

العجم، وإنما أصلها إن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك، ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذا السبيل»[1]. ولما كان فصل الخريف قد اقترب ومعه فصل البرد والمطر رأى القائد المسلم الاستكانة بعض الوقت مع جنوده في طليطلة للراحة.

أما وقد صارت طليطلة عاصمة القوط، ترفع لواء دولة الإسلام ووضحت هزيمة الإسبان الحاسمة فإن هؤلاء أظهروا قصوراً عن فهم الحدث المصيري الذي تم على أرضهم. أبناء غيطشة وأنصارهم كانوا ما يزالون يعتقدون ان المسلمين يقاتلون لإعادة عرش أبيهم إليهم. وكثيرون من القوط ممن ساعدوا المسلمين وساروا معهم شوطاً طويلاً كانوا ما يزالون يعتقدون بأن طارقاً وأتباعه ما أتوا إلى شبه الجزيرة الإيبرية إلا لينهبوا ويسلبوا ويجمعوا غنائم يعودون بعدها إلى شمال أفريقيا. أما كانت هذه قناعة الذين خرجوا على لذريق أثناء لقائه الفاصل مع طارق بن زياد؟ إذ كانوا يرددون فيما بينهم إن المسلمين «قوم لا حاجة لهم بأئطان بلدنا إنما يريدون أن يملوا أيديهم ثم يخرجون»[2]. وعلى هذا تقدم أولاد غيطشة من طارق بن زياد يطلبون إليه إعادة عرش أبيهم إليهم، على افتراض ان المسلمين يعدون لرحيل قريب. إلا ان المسلمين ما كانوا في الواقع في إسبانيا إلا مبشرين بدينهم، عاملين على توسيع حدود سلطانه، وحمل لواء دولته إلى كل أرض قدروا عليها. وما عرف عنهم إنهم قبل ذلك دخلوا أرضاً وغادروها بإرادتهم. وكل ما أعطاه طارق بن زياد لحلفائه أبناء الملك القوطي جزاء مساعدتهم له إنه أعاد لهم ضياع أبيهم وممتلكاته وما كانت بالشيء اليسير. وقد أقر

(١) نفح الطيب المقرى، جزء ١، صفحة ٢٧٢.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٨.

بعد ذلك موسى بن نصير وكذلك أمير المؤمنين في دمشق طارقا على ما صنع ، مما يعني ان القائد المسلم ما كان في إسبانيا إلا معبراً عن سياسة دولة الإسلام والخلافة الأموية في الشام. وبذا أدرك الجميع ان دخول لواء الإسلام إلى إسبانيا كان أكثر من حادث طارىء ومؤقت، وكان هذا نقطة أساسية في تحول موقف عامة الإسبان من الفاتحين الجدد.

موسى بن نصير في إسبانيا:

بعد انتصار المسلمين في «وادي لكة» بدأت الاستعدادات، عظيمة وسريعة، في بلاد المغرب لإنجاد طارق بن زياد ودعم حملته. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المصادر العربية قد أفاضت في التعليق على ما حدث وذهبت إلى ان موسى قد تحركت في ذاته غريزة الأنانية، وظهر عنده الحسد لما حققه مولاه وتابعه طارق من انتصارات تجاوزت في أبعادها كل ما تمناه له المسلمون وحلموا به. ومع ما كان ينسب إلى والي شمال أفريقيا من غرور وميل للهيمنة والتسلط، فإننا نستبعد أن يكون قد حصل لموسى بن نصير هكذا انفعال تجاه تابعه أو حسد منه، ذلك إن طارقاً كان يقاتل باسم والي المغرب، وباسمه انتصر وتحت لوائه تقدم وفتح، وإليه كان يعود في الملمات وعند الشدائد. ثم فوق هذا وذاك كان دائم الاتصال به، يخبره بكل إنجاز، ويستشيره كلما أمكن ذلك، وإليه توجه بعد الانتصار. وسواء صحت هذه الروايات أم لا فإن موسى بن نصير سارع لدعم جيش طارق بقوة فاعلة مخافة أن يعيد الإسبان تكوين جيوشهم للثأر لهزيمتهم، وربما فيما لو صحت روايات المؤرخين لمجاراة طارق ومنافسته في مجال الفتح والتوسع.

اندفع موسى بن نصير بحمية عظيمة يعبر البحر في سنة ٧١٢ (رمضان ٩٣ هـ) على رأس جيش يضم ثمانية عشر ألف جندي من خيرة مقاتلة العرب بمختلف قبائلهم وفصائلهم من قيسية ويمنية. ويطلق المؤرخون عادة على هذه الجماعة اسم طالعة موسى بن نصير. نزل موسى ومن معه عند صخرة جبل طارق

في المواقع والمعسكرات التي كان قد نظمها وأقامها طارق بن زياد وهناك عرف إن ابن زياد كان قد أوغل السير شمالاً، وربما كان في هذا بعض السبب في عتبه، أو حتى في غضبه على طارق، لأنه تجاوز في ذلك ما كان لديه من أوامر وتعليمات، ولأنه وضع جند المسلمين في وضع غير مأمون إذ كانت المدن الواقعة على جانبي طريق طليطلة ما تزال في أيدي أعدائهم. وعلى هذا اختار موسى بن نصير طريقاً يقع غربي مسار طارق، وهي غنية بالمدن الكبيرة والقلاع والحصون. وربما دفع موسى لأن يأخذ هذا المسلك ما أخبره به أدلاؤه من الإسبان من ان مدائنها هي كثيرة الثروة، وافرة الخطب، باهرة العمران. افتتح مدينة شذونة عنوة فكانت أول إنجازاته. ومنها سار إلى مدينة قرمونة العظيمة التحصين. وكان يوليان وأنصاره، حين استقبلوا موسى على الشاطىء قد أفادوه بصدق عن أوضاع البلاد وأخبروه إن قرمونة ذات حصون قوية وقدرة عظيمة على المقاومة والدفاع. لذا عمد إلى الحيلة فدفع بفريق من جنود يوليان دخلوها نهاراً بموافقة أهلها. لكنهم غدروا بهم وفتحوا ليلاً أبواب المدينة للمسلمين واستولى جيش موسى على المدينة دون قتال [1]. كان هذا ثاني إنجازات موسى بن نصير.

تابع موسى وجيوشه المسار إلى أشبيلية كبرى مدن الأندلس آنذاك، والتي أدهشت المسلمين فوصفها بعضهم بأنها «أعظم مداين الأندلس شأناً وخطباً وأعجبها بنياناً وآثاراً وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس فلما غلبت القوطيون حولوا السطان إلى طليطلة وبقي شرف الرومانيين وفقههم ودينهم ورياستهم في دنياهم بأشبيلية»[2]. ناوش موسى أهلها ثم حاصرهم أشهراً حتى سقطت المدينة بأيدي المسلمين. ولما كان يهود أشبيلية، وكما فعل أبناء دينهم في مدن إسبانية أخرى، ما ترددوا في التعاون مع المسلمين، ضمهم القائد ابن

(١) أخبار مجموعة، صفحة ١٥.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ١٦.

نصير إلى بعض أتباعه وأوكل إليهم مجتمعين حماية المدينة وإدارة شؤونها، وسار هو إلى المدينة الرومانية القديمة ماردة، أهم حصون غرب الأندلس.

وماردة مدينة حصينة، عريقة في قدمها، بناها الرومان فكانت من أبدع وأبهى ما أورثوه للإسبان من تراث عمراني، ما زال بعضه قائماً حتى يومنا هذا. وصفها مؤرخ مسلم بقوله «كانت دار ملك في سالف الأيام، وكانت فيها آثار عجيبة، وقنطرة وقصور وكنائس تفتن الناظرين، وهي إحدى القواعد الأربعة بالأندلس التي ابتناها اكتبان (أغسطس) قيصر»[1]. ناوش المسلمون أهلها على أبوابها وهزموهم ثم في وقت لاحق نصب موسى لهم كميناً في ثقب كان لمقاطع الصخر فقتلوا منهم خلقاً كثيراً حين حاولوا الخروج من المدينة ولجأ منهم من نجا إلى داخل ماردة[2]. فرض عليهم موسى بن نصير بعد ذلك حصاراً طويلاً دام عدة أشهر اقتنع بعدها المحاصرون باستحالة الصمود فسعوا إلى المصالحة. صالح موسى أهالي ماردة حين جاؤوه على شروط فرضها عليهم تقضي بأن تعود إلى المسلمين جميع أموال قتلى يوم الكمين، والهاربين منهم إلى جليقية وأيضاً ثروات وكنوز الكنائس[3]. ودخل المسلمون المدينة العظيمة ورفعوا على أبراجها أعلام دولة الإسلام في يوم الفطر من سنة ٧١٣ (٩٤ هـ). وما أن أنجز موسى فتح مدينة ماردة حتى ندب ابنه عبد العزيز على رأس حملة توجهت إلى أشبيلية. ذلك ان حركة تمرد قامت أثناء انشغاله بحصار ماردة، سمحت لبعض سكان المدينة الأندلسية الكبيرة بالقضاء على ثمانين رجلاً من الحامية المسلمة وأخرجت الباقين منها. دخل عبد العزيز المدينة المتمردة فأعادها إلى حظيرة دولة الإسلام الناشئة في إسبانيا واقتص من الثائرين بقسوة وعنف.

ارتاح موسى بن نصير أياماً قليلة في مدينة ماردة، عمل خلالها على تنظيم

---

(١) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٢٠.

(٢) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٢٢.

(٣) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٢٣.

شؤون أهلها، ثم قرر مواصلة السير نحو الشمال عازماً الوصول إلى طليطلة، عاصمة القوط، حيث سبقه طارق ونفر من المسلمين. علم طارق برغبة سيده في الحضور إليه فسارع هو لموافاته في الطريق. ولما التقى طارق بسيده نزل إليه معظماً له، ومبادراً لطاعته، فوبخه موسى، وغضب عليه وقيل إنه وضع السوط على رأسه، وقيل إنه ضربه أسواطاً كثيرة[1]. اعتذر إليه طارق قائلاً: «إنما أنا مولاك وقائد من قوادك، ما فتحته وأصبته، فإنما هو منسوب إليك»[2]. هذا الحادث كان مثار تعليقات وروايات كثيرة أعمل مؤرخون كثر خيالهم فيه، واعطوه، كما أشرنا سابقاً من الأبعاد أكثر مما كان له بالفعل، ومن الأثر أكثر مما ترك. وإذا كان لموسى من مأخذ على تابعه ومولاه فهو إنه ربما تقدم بعد انتصاره في وادي لكة دون رأيه وهو مولاه، وعلى توغله بالمسلمين وتغريره[3] بهم في أراضي معادية. وليس أدل على كون الخلاف بين الرجلين ما كان إلا عابراً وسطحياً ما أورده المؤرخ الأندلسي ابن حيان بقوله: «إن موسى اصطلح مع طارق وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته على رسمه، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه»[4].

دخل موسى وطارق مدينة طليطلة وهناك قدم طارق لسيده ما غنمه في حملته من ثروات وتحف ومنها تلك المائدة، العظيمة القيمة، التي بالغ مؤرخو المسلمين في وصفها والأطناب بما فيها من جواهر وذهب والتي ما كانت إلا مذبح كنيسة العاصمة القوطية الجامعة، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

قضى موسى شتاء ذلك العام ٧١٣ ـ ٧١٤ (٩٤ ـ ٩٥ هـ) في مدينة طليطلة ومن هناك أرسل الرسل، ومنهم مغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك

---

(١) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٢٣.
(٢) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٢٧٣.
(٣) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٢٣.
(٤) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٢٧٣.

وفاتح قرطبة، إلى دمشق يزفون إليها وإلى سيدهـا بشـرى ما فتـح الله من مدن وحصون في شبه الجزيرة الإيبرية على أيدي القائدين الكبيرين موسـى بن نصير وطارق بن زياد.

فتوح طارق وموسى في الشمال:

ما اعتبر موسى بن نصير ان طليطلة بموقعها المتوسـط من شبـه الجـزيرة الإيبرية يمكن أن تكون نهاية فتوحاته في تلك الأرض، ولا رأى ان المسـلمين يمكن أن يكونوا في المدى الطويل آمنين فيها على وجودهم ما دامت المناطـق الشمالية خارجة عن سلطان دولة الإسلام. ثم إن موسى كان من الرواد المسلمين الأوائل الذين ما كانوا يرون انه يمكن لفتوحاتهم أن تكون لها حدود، أو أمامها سدود، إلا قدراتهم على الحرب والاستشهاد. وربما هذه الرؤية بالذات هي التي جعلت بعض المؤرخين يبالغون في ذكر أهداف موسى وطموحاته. لقـد اعتقـد المقري ان موسى كان يريد عبور جبال البرينيه واجتياز بلاد الفرنجة، وكذلك شبه الجزيرة الإيطالية للوصول إلى القسطنطينية ومن ثم إلى الشام فيقيم اتصالاً برياً بين مسلمي الأندلس وعاصمة الخلافة دمشق آنذاك[1]. ومع انه لا يمكن إنكار ما كان لدى موسى من طموحات ورغبة في الفتح وتحقيق الانتصارات غير انه من الصعب قبول هكذا تصورات بعيدة عن واقع المسلمين آنذاك، مستعصية إن لم نقل مستحيلة على قدراتهم وإمكانياتهم نظراً لطول طرق المواصلات، وصعوبة تأمين الذخيرة والمؤن وأيضاً لقلة معارف العرب في دروب أوروبا ومسالكها.

حين اطمأن القائد المسلم إلى حسن استعداداته العسكرية وإلى استقرار ما بأيدي المسلمين من مدن وقلاع في إسبانيا سار من طليطلة ومعه طارق بن زياد في مقدمة جيوش المسلمين في اتجاه أراضي الشمال الإسباني. قصد مناطق حوض نهر «الإيبرو» في الثغر الأعلى حيث فتح مدناً وحصوناً كثيرة حتى وصل إلـى مدينـة

(١) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٢٧٧.

سرغوسة الكبيرة التي دخلها المسلمون دون كبير عناء. كان يرافق جيوش المسلمين آنذاك التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني الذي بادر لتأسيس مسجد سرغوسة الكبير الذي ظل أهم المنارات الإسلامية في تلك المناطق من إسبانيا حتى سقوط علم دولة الإسلام عنها. ثم احتل المسلمون مدن وشقة ولاردة، وطركونة.

وبينما كان موسى وطارق وجنودهما يقاتلون في تلك الديار الإسبانية القاصية وفد عليهم من دمشق مغيث الرومي، مرسلاً من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، ليطلب إلى القائدين المسلمين ضرورة العودة إلى الشام إما لتقديم حساب عما أنجزاه في فتوحاتهما في شبه الجزيرة الإيبرية للخليفة، أو لأن هذا الأخير ما كان راضياً عن كل تصرفاتهما. وعلى كل حال ومهما كانت أسباب دعوة الخليفة فمن الثابت والوارد، عند كل المؤرخين المسلمين تقريباً، ان مغيثاً الرومي كان يأخذ على موسى أشياء كثيرة وربما ما كان يحبه أو على الأرجح كان ينافسه على ما بيده. وأيضاً ربما لأن موسى استرد منه ما كان قد استولى عليه عند فتحه لمدينة قرطبة من أرض دار الحكم فيها وما حولها، ولذا عمل في دمشق على ايغار صدر الخليفة على القائد المسلم وأيضاً على خلق جو مناوىء له في الأوساط المحيطة بالحكم والخلافة.

وهنا لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن السأم من الحرب والملل من أهواله جعل جند موسى يتطلعون إلى يوم يتوقفون فيه عن السير في أراض بعيدة مجدبة يسكنها قوم «كالبهائم»[1]، على درجة كبيرة من التخلف والهمجية وأيضاً على قدرة كبيرة من المشاكسة والروح القتالية، هم البشكنس. وقد عبر عن هذه الرغبة في إحدى المناسبات وبعد الإستيلاء على سرغوسة حنش الصنعاني بقوله لموسى، مثنياً إياه عن متابعة السير في أراضي الإسبان: «أين تذهب، تريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله، وأعرض مما فتح عليك، إني سمعت من

---

(١) البيان المغرب ابن عذارى جزء ٢ صفحة ٢٤.

الناس ما لا تسمع وقد ملوا أيديهم وأحبوا الدعة»[1].

ومع هذا أراد موسى أن يتجاهل دعوات التوقف والرجوع ذلك إنه ببصيرة القائد العسكري الفذ كان يعرف إن أعمال الفتح ما أنجزت وإن الاستيلاء على ما بقي من أراضي الإسبان، وخاصة أراضي جليقية، الأرض الصعبة الكثيرة الأودية والمرتفعات، العظيمة القيمة بموقعها وبصلاحها للقتال، ضروري جداً للمحافظة على ما حققه المسلمون حتى ذلك الوقت من مكتسبات. وقد نجح فعلاً في إقناع رسول الخليفة مغيث الرومي بإعطائه فرصة إنجاز ما عزم على إنجازه.

ولإنجاز الفتح بسهولة وسرعة قسم موسى جيشه إلى قسمين قاد طارق بن زياد أحدهما وسار من سرغوسة على يسار نهر «الإيبرو» متوغلاً في أراضي البشكنس مخضعاً مدنها وحصونها. وكانت أهم تلك المواقع: أمايا، أسترغة، وليون. وسار موسى وجنوده على محاذاة الضفة الثانية لنهر «الإيبرو» متوغلاً في أراضي قشتالة، فارضاً الخضوع لسلطته على من فيها، ثم اتجه نحو أراضي مقاطعة أستورياس فأخضع حصن لك العظيم، دون المرتفعات العالية وأقام بعض الوقت. ومن هناك ندب من جنده من وصلوا حتى صخرة بلاي المطلة على البحر[2]. أما موسى فإنه تابع بعد ذلك المسار حتى بلغ مدينة خيخون فاستولى عليها وأنزل فيها بعضاً من أتباعه وجعلها قاعدة لتلك الناحية. وبذلك تكون حملة موسى بن نصير قد وصلت إلى أقصى الشمال الإسباني وبلغت شواطىء المحيط الأطلسي. وما بقي عليه لإنجاز مهمته سوى إخضاع ما بقي من جليقية من مرتفعات عظيمة وأودية كثيرة، في شمال غرب شبه الجزيرة الإيبرية، خاصة وإن بعض من فروا من الإسبان من القلاع والحصون التي أخضعها كانوا يهربون إليها ويعتصمون في مجاهلها.

---

(١) الأمامة والسياسة ابن قتيبة جزء ٢ صفحة ٦٦.

(٢) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٢٧٦.

إلا ان الوقت قد داهم القائد المسلم، ودعوة الخليفة للسفر إلى دمشق، التي كانت قد تكررت، ما كان بالإمكان تجاهلها وإلا اتهم بالعصبيان والخروج على سلطان الخلافة والرغبة في الاستقلال، وهي أمور على كل حال نسبها إليه بعض من كانوا يناصبونه العداء وربما نقلوها لخليفة دمشق فكانت في بعض أسباب إلحاح الخليفة على ضرورة العودة. على ان الشيء المؤكد هو إن عدم إنجاز موسى لما عزم عليه وإهمال شعاب جليقية، بمن وفد عليها من الجند الإسبان الذين فروا من مواجهة القائد المسلم، سيكون له في المستقبل القريب نتائج على درجة كبيرة من الخطورة. ذلك إن تلك المناطق ستكون الأرض التي ستظهر فيها أولى خلايا المقاومة ضد الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبرية. ومن هناك ستنطلق أولى موجات حروب الاسترداد ضد دولة الإسلام في الأندلس.

موسى بن نصير في الشام:

وفي صيف سنة ٧١٤ م (٩٥ هـ) بدأ موسى رحلة العودة فاتجه نحو مدينة ليون حيث لاقى في أحوازها طارقاً بن زياد ومغيثاً الرومي فمضوا جميعاً نحو طليطلة ومعهم من الناس من اختار القفول[1]. كثيرون آثروا البقاء والسكنى كل في حصن أو موقع استحسنه وأحب العيش فيه. وكان أكثر من مال للإقامة في تلك المناطق النائية البربر الذين حلت أعداد وافرة منهم بصورة خاصة في مدينة خيخون الهامة. وكان ذلك بداية لانتشار الإسلام في تلك الديار البعيدة.

ومن طليطلة سار موسى وبرفقته طارق وصحبهما إلى قرطبة ثم إلى أشبيلية حيث ركبا البحر. وقد عين ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس وجعل أشبيلية القريبة من البحر عاصمة له. وكذلك استخلف ابنه عبد الله على ولاية «أفريقة»، وابنه عبد الملك على بلاد طنجة والسوس. رافقه في عودته عدد من أشراف العرب ورؤساء قبائلهم وعدد من أسرى الإسبان اختلف المؤرخون في تعدادهم فبالغ

---

(١) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٢٧٦.

بعضهم كثيراً حتى وصل العدد مع المقري إلى ثلاثين ألفاً[1]. على ان ابن قتيبة يجعل عدد الإسبان مئة من ملوك الأندلس ومن الأفرنجيين ومن القرطبيين[2]، وهي الرواية الأقرب إلى الواقع نظراً لصعوبة الانتقال بين الأندلس ودمشق ولكون تلك العملية هي رمزية أصلاً. وبالتالي قلة من الملوك والسادة تكفي للدلالة على عظيم ما أنجز القائد المسلم في بلاد الإسبان.

وفي مطلع العام التالي ٧١٥ م وصل موسى وصحبه إلى مشارف بلاد الشام وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك على فراش المرض، إذ ما لبث أن توفي بعد أربعين يوماً من ذلك. ويذكر أكثر المؤرخين ومنهم ابن عذاري ان سليمان حين عرف بقدوم موسى وما معه من غنائم وسبي كتب إليه «بأمره بالتربص رجاء أن يموت الوليد فيقدم عليه موسى بتلك الغنائم في أول خلافته»[3] إلا ان موسى بن نصير، إما وفاء منه لصلة ود وولاء كانت تربطه بالخليفة الوليد المريض أو لأنه بعقلية القائد العسكري، ما شاء إلا أن يكون منضبطاً فينفذ أوامر صاحب السلطان كائناً من كان، تجاهل الرسالة وتابع مساره بصورة طبيعية تاركاً الأمور تأخذ طريقها العادي فيقدم على من يكون على عرش الخلافة في دمشق. ولا بد ان هذه الحادثة تركت أثراً سيئاً في نفس سليمان ما كان في مصلحة موسى بن نصير، أضيف إلى الجو السائد في أوساط الخلافة أصلاً ضده والذي أشرنا إليه فيما سلف.

قدم موسى على الخليفة الوليد وسلمه كل ما حمله من الأندلس من تحف وهدايا وأسرى وأموال وأخبره بما حققه من انتصارات لدولة الإسلام في شبه الجزيرة الإيبرية. بعد أسابيع قليلة توفي الوليد وصارت الخلافة إلى شقيقه سليمان الذي ما كان في البداية على الأقل راضياً عن موسى لما سبق ذكره فعنفه بعض الشيء وأبعده ثم عفا عنه إلا انه ما أعاده إلى الأندلس واستبقاه قربه في

---

(١) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٢٧٧.

(٢) الأمامة والسياسة ابن قتيبة جزء ٢ صفحة ٦٨.

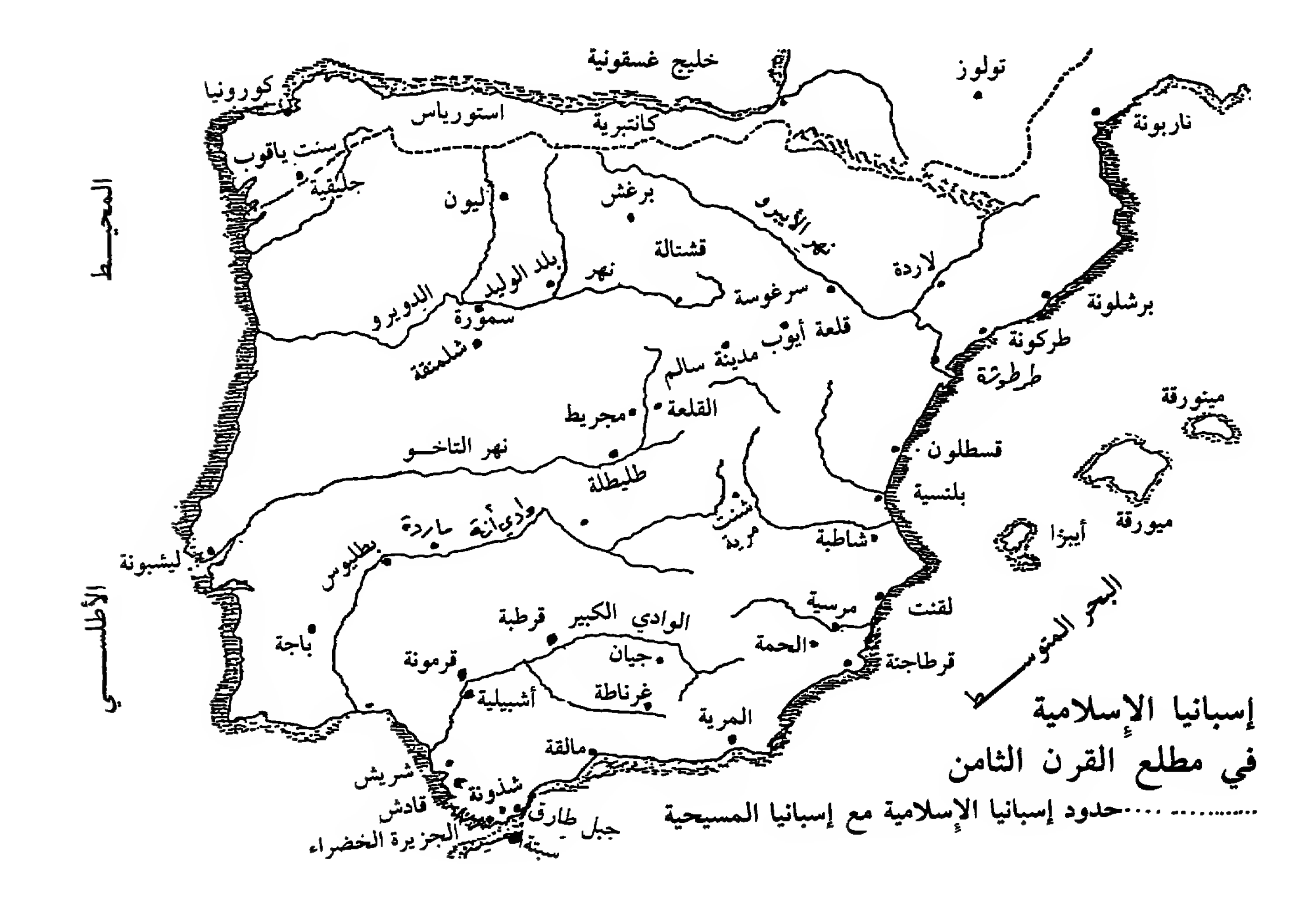
(٣) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٢٥.

المشرق، وكان آنذاك قد بات طاعناً في السن مشرفاً على الثمانين. ومع ان بعض المؤرخين يبالغ في وصف ما أنزل سليمان بالقائد المسلم من عذاب، وما ألحق به من الإهانات فمن المؤكد انه في النهاية نال عفوه ورضاه وبقي قريباً منه يخرج معه في بعض نزهاته. وكذلك كان برفقة الخليفة في حجة إلى الديار المقدسة في سنة ٧١٦ م (٩٧ هـ) حيث وافته المنية ودفن في المدينة المنورة على رواية ابن عذاري[١] وفي أم القرى كما يقول ابن البشكوال[٢]. إلا إنه في كل الحالات ما عاد إلى إسبانيا، الأرض التي أحبها، والتي كان يحلم بالعودة إليها لإكمال ما لم يتمكن من إنجازه وظل في المشرق حتى نهاية حياته في وضع لا يتلائم مع عظيم ما قدمه للعرب والمسلمين من فتوحات في المغرب وإسبانيا. أما طارق بن زياد فإن المصادر العربية أهملت عن قصد أو غير قصد الحديث عن أيامه الأخيرة، وإن كان من المؤكد انه ما عاد إلى الأندلس ليرى ثمرة ما أنجز.

الفتوح في الشرق والغرب:

ما اعتبر عبد العزيز بن موسى بن نصير ان أعمال الفتح قد اكتملت. ذلك انه كان يعرف ان والده، بسبب رحيله المستعجل، قد ترك وراءه جيوباً كثيرة، في الشمال الشرقي كما في الغرب وأيضاً مناطق واسعة في جنوب شرق الأندلس، يتحصن فيها القوط وربما يستعدون، إذا ما أعطوا الوقت الكافي لمباشرة عملية مقاومة الوجود الإسلامي. والواقع إننا لو تتبعنا أخبار الفتح على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير على الخريطة، وإذا ما نحن لاحقنا خطوط مسار القائدين الكبيرين وما أنجزاه من فتح وغزو ندرك ان ما كان على عبد العزيز أن يقوم به ما كان بالقليل. ومع إن المؤرخين لم يذكروا بالتفصيل من منجزات عبد العزيز في هذا المجال سوى فتحه لبلدان شرقي الأندلس، إلا إن بعضهم اثنى على جهوده

(١) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٢٨.
(٢) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٢٨٧.


المحيط
الأطلسي
خليج غسقونية
تولوز
كورونيا
استورياس
كانتبرية
سنت ياقوب
جليقية
ليون
برغش
نهر الأيبرو
ناربونة
قشتالة
نهر
بلد الوليد
الدويرو
سمورة
شلمنقة
سرغوسة
لاردة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
قلعة أيوب
مدينة سالم
القلعة
مجريط
نهر التاخو
طليطلة
قسطلون
بلنسية
مينورقة
ميورقة
أيبزا
شنت مرية
شاطبة
وادي آنة
ماردة
بطليوس
ليشبونة
باجة
الوادي الكبير
قرطبة
قرمونة
جيان
غرناطة
أشبيلية
الحمة
مرسية
لقنت
قرطاجنة
المرية
مالقة
البحر المتوسط
شريش
شذونة
قادش
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
سبتة
إسبانيا الإسلامية
في مطلع القرن الثامن
............حدود إسبانيا الإسلامية مع إسبانيا المسيحية

بصورة عامة وأشار إلى إنه «افتتح في ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقي على أبيه موسى منها»[1]. وكذلك يؤكد ابن عذاري إنه «افتتح مدائـن كثيرة وكان من خير الـولاة»[2]. والأرجـح إن أكثـر مناطـق غرب الأنـدلس وكذلك منطقـة برشلونـة وأحوازها قد تم فتحها زمن عبد العزيز بن موسى وفقاً لما أشار إليه بإيجاز المقري وابن عذاري، وأيضاً على اعتبار انه ما وردت أية إشارة تنبه إلى فتح هذه المناطق على يد قائد آخر أو في فترة زمنية مختلفة. على ان ما حظي باهتمام المؤرخين هو إنجازه فتح سواحل شرق الأندلس المقابلة لبلدان الشمال الأفريقي. لقد فتح عنوة مدن غرناطـة ومالقـة ثم اتجـه نحـو كورة تدمير ومركزهـا آنـذاك مدينـة أويولـة Orihuela وكان عليها مقدم من القوط يدعى تدمير. لاقـى الزعيم القوطي الغزاة المسلمين وتصدى لهم عند مدينة قرطاجة فهزم هزيمة منكرة وقتل من أتباعه خلق كثير فعاد إلى عاصمته يتحصن فيها مصمماً على الصمود والدفاع حتى النهاية. ولقلة من معه من الجنود أمر نساء المدينة «فنشرن شعورهن وأعطاهن القصـب ووقفن على سور المدينة، ووقف معهن بقية الرجال»[3]. ولما شدد المسلمون حصارهم على المدينة ونفذت من أهلها أسباب الصمود والبقاء قصـد صاحـب أوريولة، وهو بهيئة رسول، المسلمين وفاوضهم على الصلح ودخـول المدينـة دون قتال. صالحه المسلمون على ذلك إما لأنهم كانوا قد سئموا الحصار الذي طال، أو لأن كثرة من رأوه على أسوار المدينة من مقاتلة أوهمهم بأنهم سيواجهون مقاومة شرسة. وبذلك بسط عبد العزيز بن موسى سلطان دولة الإسلام على كورة تدمير بمدنها وحصونها سلماً وبموجب معاهدة، على شيء من الغموض، تبقي سكان هذه المناطق أحراراً في عقائدهم ودينهم، سادة في ممتلكاتهم وأراضيهم، على أن يدفعوا ضريبة سنوية للدولة، وأن لا يتعاونوا مع أعدائها وأن يدينوا بالولاء

(١) نفح الطيب المقري جزء ١ صفحة ٢٨١.
(٢) البيان المغرب ابن عذاري جزء ٢ صفحة ٣٠.
(٣) أخبار مجموعة صفحة ١٣.

للدولة الإسلامية. ثم أقام في المدينة رجالاً من أهل العسكر ليضمنوا الأمن فيها، صاروا مع أهلها. وقد حفظ لنا الضبي في كتابه «بغية الملتمس» النص الكامل للمعاهدة التي وقعها عبد العزيز مع صاحب كورة تدمير:

بسم الله الرحمن الرحيم،

«كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ألاّ يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنايسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه وأنه صالح على سبع مداين[1]: أوريوالة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرة وأيه ولورقة وأنه لا يؤوي لنا آبقاً ولا يؤوي لنا عدواً ولا يخيف لنا آمناً ولا يكتم خبر عدو علمه وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا وأربعة أقساط خل وقسطي عسل وقسطي زيت وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي، وحبيب بن أبي عبيدة (. . . . .) ابن ميسرة الفهمي وأبو قائم الهذلي كتب في رجب سنة ٩٤ من الهجرة[2]».

ومع إنجازات عبد العزيز بن موسى بن نصير تكون أعمال الفتوح في إسبانيا قد بلغت مداها تقريباً وحققت أغراضها، ولو أن رواد الفتوح ما أهملوا غزو المرتفعات الشمالية الغربية في جليقية، وهي الأراضي التي طالما حاول موسى إفتتاحها دون أن يتمكن من ذلك، أثناء وجوده في إسبانيا لأسباب خارجة عن إرادته، سبق وأشرنا إليها، لأمكننا أن نقول: إن فتوحهم حققت أغراضها بالكامل، ولربما أيضاً كان تاريخ الإسلام في تلك الديار قد اتخذ وجهاً مختلفاً.

---

(١) Orihuela, Baltana, Alicante, Mula, Villena, Lorca, Ello.

(٢) بغية الملتمس الضبي صفحة ٢٥٩.

وعلى كل فعبد العزيز كأبيه ما قصر إطلاقاً في هذا الميدان وهو يندرج في قائمة عظماء المسلمين ليس فقط بسبب أعماله العسكرية الباهرة وإنما لكونه أول من تنبه، من قادة المسلمين، لضرورة التوجه نحو السكان المحليين لإستمالتهم واستبعاد كرههم وحقدهم على الفاتحين الجدد.

الباب الثاني

عصر الولاة في المغرب والأندلس

الفصل الأوّل

الولاة في المغرب

مرت بلاد المغرب، بعد انتهاء أعمال الفتوح وتأكيد سلطان دولة الإسلام فيها، بمرحلة أطلق عليها المؤرخون اسم «عصر الولاة» كانت فيها واقعاً وقانوناً جزأً من دولة الإسلام. ومن عاصمة هذه الدولة، في الحجاز ثم في بلاد الشام كانت تدار شؤون بلاد الشمال الأفريقي بواسطة عامل اتخذ له من مدينة القيروان عاصمة ومركزاً لحكمه. وما لبث نفوذ هذا أن شمل بعد انتهاء فتح الأندلس، هذه البلاد أيضاً يفوض أمور الحكم فيها لوال أو أمير، كما كان الناس يسمونه هناك آنذاك. والواقع أنه في هذه الفترة كانت البلاد التي يفتتحها المسلمون، تدار أمورها بصورة حازمة، بالقدر الذي كانت تسمح به الأوضاع الأمنية وصعوبة المواصلات، وفق سياسة تضعها الحكومة المركزية ويلتزم عمالها وولاتها بتنفيذها.

لقد درج أكثر القادة العرب، والأوائل منهم بصورة خاصة، الذين فتحوا بلاد المغرب وحكموها ونظموا أمورها على اقتفاء السياسة التي نادى بها وطبقها أبو المهاجر دينار حيال البربر والتي تقوم على استمالتهم والتقرب منهم ومعاملتهم

بالحسنى والعدل والإنصاف، ذلك أن هذه السياسة كانت قد أثبتت جدواها حتى في المدى القصير، فالعرب ما استطاعوا السيطرة على سائر بلدان شمال أفريقيا إلاّ بعد أن استمالوا فريقاً من البربر، أبعدوهم عن البيزنطيين، ثم استعانوا بهم للقضاء على نفوذ هؤلاء، وهذه السياسة المرنة والمتسامحة، نفسها، هي التي أدت إلى نجاح الفتوحات في الأندلس التي قامت بالدرجة الأولى على أكتاف مقاتلة البربر.

وعلى هذا هدفت سياسة هؤلاء الولاة إلى تقوية الصلات مع البربر عن طريق نشر الإسلام بينهم على نطاق واسع وتعريبهم بإعطائهم لغة القرآن، وعادات العرب، وتقاليدهم، وثقافتهم. فالولاة الأوائل كانوا أساساً، بدرجة تقل أو تكثر، دعاة للإسلام ومبشرين به وعاملين على رفع لواء لغة الضاد محاولين أحلالها مكان اللغات واللهجات المحلية. والواقع إن نجاح هؤلاء في هذه المجالات بين البربر كان عظيماً إذ انتشر الإسلام سريعاً بينهم وظهرت طبقة من المسلمين الجدد لا تقل حماسة للإسلام والرغبة في العمل على إعلاء شأنه ونشر كلمته عن العرب إن لم تبزهم في بعض الحالات. ويبدو أن انتشار اللغة العربية كان يسير بمحاذاة توسع الإسلام ذلك أن معتنقي الدين الجديد من البربر كانوا بحاجة ماسة للعربية كونها لغة كتابهم القرآن ولسان سادتهم الجدد وحكامهم.

ولعل مما جعل البربر في البداية على الأقل يستكينون لحكم العرب ويألفونه بل ويوالونه كون هؤلاء كانوا على درجة كبيرة من المرونة فاحترموا عادات البلاد ونظمها وتقاليدها في كل ما لا يتعارض مع الإسلام أو مع سياسة الدولة العليا. لقد أبقوا على النظم الإدارية السائدة وكذلك على المؤسسات العامة، وهي على كل حال على درجة كبيرة من التقدم لكونها من عمل الروم البيزنطيين. وكذلك تركوا أكثر الوظائف بأيدي البربر وغيرهم من سكان البلاد بل واستعانوا بكثيرين منهم للمساعدة في إدارة الدولة والحكم. وما تردد الولاة تقرباً من القبائل، في أن يطلقوا يد كل قبيلة في المنطقة التي ينتشر فيها أفرادها تكون لها بما يشبه الأقطاع على أن تؤدي للدولة ما يحق لها من الضرائب. بل أكثر من هذا ما

تردد أكثر هؤلاء الحكام في المساواة الكاملة بين العرب والبربر في الحقوق والواجبات وإشراك هؤلاء الأخيرين في ثمار الفتوح من غنائم وسبي وفيء. هذه السياسة بالذات هي التي عملت على تركيز الوجود الإسلامي في بلدان شمال أفريقيا، وهي التي دفعت بصورة مستمرة كل المترددين من قبائل البربر ومن بقايا النصارى الروم واليهود إلى اعتناق الدين الجديد، إن لم يكن عن قناعة وإيمان فعلى الأقل للإفادة مما يتيحه ذلك من منافع الدولة وخيراتها.

إنما في الواقع ومع كل ما أعطته هذه السياسة المرنة المتسامحة من نتائج خيرة وإيجابية فإن الحكام العرب ما استطاعوا السير فيها طويلاً. أما لأن عصبيتهم العربية كانت دائماً تضع لهم الضوابط وتحاول أن تبعدهم عن هذا الخط أو لأن سياسة الخلافة الأموية جنحت بعد تركيز دعائم دولة الإسلام في بلاد الشام وخارجها نحو منهج أكثر تمييزاً للعرب وأشدّ ملائمة لمصالحهم. برزت هذه السياسة في شمال أفريقيا، وبشكل واضح لأول مرة، مع والي القيروان عبيد الله ابن الحبحاب (٧٣٤ م ـ ١١٦ هـ)، الذي مال منذ صارت إليه الأمور إلى سياسة متعالية ومتغطرسة حيال البربر تميل نحو تغليب مصالح العرب ولو خرج في ذلك عن قواعد الإسلام وسنة الولاة الأوائل. وبذا صار البربر يشعرون، ورغم كل ما فعلوه لنصرة الدين الجديد في المغرب كما في الأندلس، أنهم باتوا يخضعون لسادة مستغلين لا لحكام عادلين منصفين كما حاول أن يكون أوائل الولاة وكما يأمر القرآن. وما كان البربر، وهم من عرفوا بالأنفة والكبرياء والشجاعة والميل للمشاكسة والقتال، ليقبلوا بأن يتحولوا إلى أتباع ومحكومين وأن يصير حكامهم سادة مستبدين ومستغلين لهم. ومع ظهور هذا التحول الخطير في منحى العلاقة بين الشعبين كان قد بدأ يتوافد على بلدان شمال أفريقيا، بالمصادفة، بعض المبشرين والدعاة المتحمسين لأفكار الخوارج. ودعوة الخوارج نشأت أثر الصراع بين عليّ ومعاوية ونادت بأفكار إصلاحية جذرية تدعو لقيام الحكم على الأسس العادلة التي نص عليها القرآن. فالخوارج يرفضون أن تكون الخلافة في عنصر محدد ولو كان العنصر العربي، وإنما يريدونها للأصلح ممن يختاره المسلمون

ولو كان عبداً حبشياً. فهم يريدون حكماً يقوم على الشورى من فوق كل الحواجز العنصرية واللغوية. ولمّا ما كان البربر يريدون غير المساواة التي بشر بها القرآن فقد استهوت الكثيرين منهم دعوة الخوارج ووجدوا فيها حافزاً وإطاراً عقائدياً لخروجهم على الدولة الأموية وعمالها. وعلى هذا فأن تحركهم ضد الدولة الأموية، ولو أنه في الظاهر والحقيقة، وكما لا يمكن إلاّ أن يكون، صراع عربي بربري، إنما كان يدور من ضمن الوحدة الإسلامية ومتخذاً من مباديء الإسلام مبرراً ومطلباً قومياً.

في سنة ٧٤٠ م (١٢٢ هـ) اندلعت شرارة الثورة البربرية ضد عامل بني أمية في القيروان على يد ميسرة المطغري، من قبيلة زناتة القوية وممن كانوا قد تلقوا تعاليم الخوارج وآمنوا بها. وبسرعة مذهلة تدل فعلاً على استياء عامة البربر من إيغال السياسة الأموية في تمييز العنصر العربي، حقق نصراً عسكرياً بالقرب من مدينة طنجة على جيوش الوالي وأكد سلطانه على كل المغرب الأقصى. إلاّ أن حكم هذا الثائر ما طال كثيراً، لأنه سرعان ما اختلف مع أتباعه فقتلوه وسلموا الزعامة لثائر آخر هو خالد بن حميد الزناتي.

لّما كان ابن الحبحاب، والي القيروان، قد استاء كثيراً لهزيمة جيوشه وخاصة لمقتل ابنه إسماعيل فقد جمع حشوده، واستعان بمن كان في جزيرة صقلية من جند المسلمين، فأعد جيشاً كان فيه أيضاً كل وجهاء العرب ومقدميهم في المغرب، سار به للثأر لهزيمته. انتهت مواجهته معهم بأشنع هزيمة عرفها العرب في شمال أفريقيا، أطلق عليها المؤرخون اسم «غزوة الأشراف» لكثرة من قتل فيها من أشراف العرب وسادتهم.

كان لهذه الهزيمة، بصورة خاصة، صدىً واسعاً في العالم الإسلامي. ففي شمال افريقيا عمّ الاضطراب وتداعت دعائم الحكم وانتشرت الفوضى، وفي دمشق ذهل الخليفة هشام بن عبد الملك لهول الخسارة إدراكاً منه لمّا يمكن أن يؤدي إليه ذلك من انهيار دولة الإسلام في المغرب. كان رد فعل السلطة المركزية في

دمشق سريعاً وفعّالاً إذ أرسل الخليفة جيشاً ضخماً من عرب بلاد الشام بقيادة كلثوم بن عياض القشيري. وانضم إلى هذا الجيش كل من كان من العرب وممن بقوا من البربر على ولائهم للدولة في شمال أفريقيا فصار تعداد جنده حوالي سبعين ألفاً[1].

وهنا لا بد من الإشارة إلى ظاهرة انقسام جديدة جاءت تضعف الصف العربي. فأهل المغرب، من العرب، كان جلهم من الحجازيين الكارهين للأمويين وممن تركوا مواطنهم أصلاً تخلصاً من السياسة الأموية. لذا فإنهم ما استساغوا كثيراً كون النجدة التي أتتهم كانت كلها من عرب الشام الموالين للبيت الأموي. والحجازيون وكانوا يعرفون بالبلديين لتبلدهم، كانوا إضافة لذلك يخشون فيما لو انتصر الشاميون أن يبقوا في المغرب فيشاركوهم في منافعه وخيراته وهو ما لا يريدونه. ومع أن الحجازيين عموماً ما تخلفوا عن الالتحاق بجيش كلثوم بن عياض القشيري إلاّ أن بعضهم ما قاتل بما يكفي من الحمية والاندفاع وآخرون أخلوا ساحة القتال في الأوقات الحاسمة.

وفي المواجهة بين جيوش العرب وجموع البربر العظيمة بقيادة خالد بن حميد الزناتي على نهر سبو في مكان يعرف باسم بقدورة دارت الدائرة على العرب وقتل منهم خلق عظيم يصل إلى الثلث، كان منهم قائد الحملة كلثوم بن عياض. وتراجعت جيوش الشاميين، بعد ذلك بقيادة بلج ابن بشر القشيري، نحو مدينة سبتة وتحصنت داخل أسوارها فأخضعها البربر لحصار شديد. وكان من نتيجة هذه الهزيمة الساحقة التي وقعت سنة ٧٤١ م (١٢٣ هـ) انتشار نفوذ البربر على نطاق واسع في المغرب الأقصى وانحسار سلطان ممثلي الدولة الأموية هناك ولمدة طويلة.

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٣١.

الفصل الثاني

الولاة في الأندلس

يمتد عصر الولاة في الأندلس من نهاية أعمال الفتح والغزو في شبه الجزيرة الأيبرية للقائدين الرائدين موسى ابن نصير وطارق ابن زياد وعودتهما إلى المشرق، وحتى دخول عبد الرحمن الأموي إسبانيا وقيام عصر الإمارة الأموية سنة ٧٥٦ م (١٣٨ هـ). والواقع أن هناك صعوبة كبيرة في تلمس الجوانب الأساسية لهذا العصر على أهميته ووفرة أحداثه. ذلك أن أوائل المسلمين الذين وفدوا على الأندلس شغلتهم أمور القتال والتوسع ونشر الإسلام وتركيز دعائم دولته عن كل ما هو دون ذلك. ما تنبه أحد منهم إلى ضرورة تسجيل يوميات أو حوليات لتلك الأيام الحافلة بالأحداث الجسام، كما فعل فاتحون وغزاة كثيرون غيرهم. ومع استقرار دولتهم في تلك الأصقاع وانتشارهم على نطاق واسع في أرجاء إسبانيا شعر المسلمون بحاجة لكتابة تاريخهم في تلك الأرض منذ حلت فيها قدم أول رائد منهم. حينذاك اكتشفوا أن الشقة كانت قد بعدت كثيراً بينهم وبين الأحداث الأوائل وإن جل من صنعوا منجزات الفتح الأولى أو عايشوها قد طواهم الردى. وحين ما وجدوا في أرضهم ما يكفي من المصادر والرواة لجأوا إلى ما كان قد

سطره المشارقة عن أخبار فتح شبه الجزيرة الإيبرية، وما كان في كل الأحوال بالشيء الكثير أو الوافي.

وحتى المصادر الإسبانية المسيحية القديمة ما أمدتهم بالكثير من المعلومات تساعدهم على إدراك ما أهمله المسلمون. وعلى هذا فأن الصورة التي أمامنا اليوم لتاريخ عصر الولاة ليست شديدة الوضوح، ولا هي وافرة التفاصيل، أو واضحة الجوانب والزوايا.

كانت إسبانيا الإسلامية تعتبر في ذلك العصر من الناحية السياسية والإدارية قسماً من ولاية «أفريقية» يدير أمورها الهامة ويعين حكامها نظرياً على الأقل الأمير المقيم في مدينة القيروان. قلنا نظرياً على الأقل، باعتبار أن بعض ولاة الأندلس قد عينوا من قبل الخليفة في دمشق في حالات استثنائية، كما أن ولاة آخرين فرضهم الجنود المقيمون في إسبانيا، تارة بموافقة سلطات دمشق، وأخرى بتغاضيها وسكوتها. ذلك أنه مع استقرار أمور الحكم للمسلمين هناك، ومع تفاعل عناصر السكان المحلية بالسادة الغزاة، ومع بروز الشخصية المميزة لسكان إسبانيا الإسلامية في ظل دولة الإسلام، نزع الناس بصورة متزايدة نحو التفرد وربما الاستقلال ببعض أمورهم فعينوا في أكثر من مناسبة حاكم البلاد وسعوا للحصول على مرضاة دمشق بعد ذلك. نذكر على سبيل المثال، الوالي أيوب ابن حبيب اللخمي، أول وال حكم في الأندلس بعد مقتل عبد العزيز ابن موسى ابن نصير، مكمل الفتوح، الذي اختاره الجند ونصبوه عليهم وأقرتهم دمشق على ذلك بعدئذ. ويبقى على كل حال أن عدم الاستقرار السياسي والعسكري والاضطراب الدائم هما أهم ما يميز هذا العصر. فعصر الولاة كان في الحقيقة مرحلة انتقالية بين عهد سيادة القوط الغربيين وبين عصر دولة بني أمية. وقد زاد في قلق هذا العصر واضطراب أحواله ما ساده من صراعات عربية ـ عربية وعربية ـ بربرية مما يفسر لنا كثرة من توالوا على حكم إسبانيا من ولاة بلغ تعدادهم العشرين تقريباً في فترة تقل عن نصف القرن. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الاضطراب الذي طبع

العصر بطابعه نجده في روايات المؤرخين المسلمين عن عدد هؤلاء الولاة، وأسمائهم، وتواريخ تعيينهم. إذ ليس هناك بين المؤرخين المسلمين إجماع حول عدد الولاة، ولا فيما كتبوه لنا وما ساقوه إلينا من رواياتهم وأخبارهم وضوح ودقة. وسنكتفي هنا بإيراد قائمة باسماء من تعاقبوا على حكم الأندلس من حكام في عصر الولاة مكتفين بالقليل من أخبارهم الخاصة، على أن نعمل بعد ذلك على إظهار الخطوط الرئيسية لتوالي الأحداث وتطور الحياة السياسية والعسكرية في هذا العصر مؤكدين على أهم ما تخلله من مشاكل وصعوبات على مختلف الأصعدة؛ ومبرزين في نفس الوقت الأدوار الأساسية التي قام بها كل من الولاة المذكورين:

ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير: ٧١٤ م - ٧١٦ (٩٥ - ٩٧ هـ) عين من قبل والده موسى ابن نصير والي «أفريقية». عامل سكان البلاد الأصليين بإحسان وأنصفهم وأوكل إليهم الكثير من مراكز الإدارة والحكم لخبرتهم في هذا المجال ولمعرفتهم بأحوال البلاد وعادات الأهالي الأصليين وقوانينهم ونظمهم. عمل على نشر الإسلام بين الإسبان ليس بالترهيب وإنما بالتبشير والإقناع والترغيب. وأيضاً شجع المسلمين على معاشرتهم والاختلاط بهم والتعامل معهم، وأقدم هو على الزواج من إمرأة إسبانية تدعى أيخيلونا كانت على ما تذكر بعض المصادر الأندلسية زوجة لذريق آخر ملوك القوط. وليظل قريباً من جنوده، يشاركهم حياتهم، ويتساوى بهم عزف عن سكنى القصور، وما كانت قليلة في عاصمة المسلمين آنذاك، أشبيلية، وجعل إحدى زوايا كنيسة روفينا Rufina منزلاً له متخذاً من القسم الباقي مسجداً.

يبدو أن أيخيلونا هذه كانت جميلة، قوية الشخصية، واسعة الحيلة سيطرت سريعاً على شخصية عبد العزيز وساقته في بعض الحالات إلى اتخاذ بعض ما ألفه شعبها من ممارسات كانت بعيدة عن أفهام العرب وتقاليدهم. فهي على سبيل المثال وكما يقول ابن عذاري: قد أقنعته بوضع تاج الملوك على رأسه داخل منزله إذ قالت له: «فلو عملت لك مما بقي عندي من الجوهر والذهب

تاجاً[1]». هذه الممارسات أثارت ضده بعض حساده ومنافسيه من كبار الجند وكثرت الشائعات في أوساط الجيش عن تسلط زوجته عليه، ونسبت إليه نوايا كثيرة حول رغبته في الاستقلال بالأندلس وتحويل البلاد إلى مملكة يملك عليها هو. بل ذهبت بعض الإشاعات إلى حد اتهامه بالميل نحو النصرانية [2]. هذه الممارسات مع ما كان في الجيش من خلافات بين القبائل العربية ومن مطامع في نفوس بعض رؤوساء القبائل جعلت حبيب بن أبي عبدة الفهري الذي نصبه موسى وزيراً لابنه ومعيناً له وزياد بن نابغة التميمي وزياد بن عذرة البلوي يتآمرون على عبد العزيز ويقررون اغتياله. وفعلاً في سنة ٧١٦ م (٩٧ هـ) في مطلع شهر رجب أقدم زياد بن عذرة البلوي على اغتياله وهو يصلي في مسجد أشبيلية بعد مرور سنة وعشرة أشهر على بداية حكمه. تبعت مقتله فترة من الفوضى والاضطراب عمت الأندلس عدة أشهر قبل أن يتفق زعماء الجند على اختيار أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير والياً عليهم [3].

والواقع إن حادثة مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير شغلت الأندلسيين كثيراً وكانت موضع اهتمام مؤرخيهم. وجل هؤلاء لم يقتنع بان أسباب الاغتيال يمكن أن تكون فقط بسبب مطامع بعض جنوده وأيضاً ممارسات قام بها هو ما أعجبت أتباعه، وهي على كل حال تافهة وشكلية. ومن هنا كثرت الروايات في كتب المؤرخين حول اتهام الخليفة سليمان بن عبد الملك بانه هو الذي أمر الجند باغتياله وينسبون سبب ذلك إلى كون ما شاع عن جنوح عبد العزيز إلى الاستقلال بالأندلس قد وصل أسماع الخليفة. وبعضهم يرى بأن كلمات ربما تفوه بها الوالي الأندلسي حول ما حل بوالده في دمشق من عقوق ونكران للجميل على يد الدولة الأموية قد نقلت إلى الجالس على عرشها الذي «بعث إلى الجند يأمرهم

---

(١) البيان المغرب، ابن اذاري، جزء ٢، صفحة ٣٠.
(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٢٠.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٢.

بقتله»[1]. ويستدل بعضهم على ذلك بكون قتلته قد حزوا رأسه وأرسلوه إلى سليمان بن عبد الملك في دمشق[2]. على إن هذه الرواية تبقى ضعيفة بمجملها وتفتقر إلى الواقعية والعقلانية. ذلك إن سليمان ما كان بحاجة للتآمر على جندي، من جنوده طالما أظهر هو وأبوه، من قبله، كامل الولاء والطاعة للخليفة. كان يمكنه لو كان فعلاً يأخذ عليه أمراً أن يستدعيه إلى دمشق وأن يحاسبه كما حصل لأبيه، أو على الأقل أن يندب غيره لولاية الأندلس. ثم لو انه كان هو الذي أمر بقتله لما كان قد أصدر أوامره فيما بعد إلى والي أفريقية الذي كانت الأندلس من ضمن مسؤولياته أن يحقق في ما أقدم عليه حبيب بن أبي عبدة الفهري وزياد بن النابغة من اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير وأن «يتشدد في ذلك وأن يقفلهما إليه ومن شركهما في قتله من وجوه الناس»[3]. وهذا يجعلنا نميل إلى استبعاد كون سليمان قد شارك في عملية الاغتيال، ونرجح كون بواعثها كانت على الأكثر شخصية وأندلسية محلية. وبذلك انتهت حياة أول ولاة المسلمين على الأندلس والذي كان بإجماع آراء المؤرخين «من خير الولاة»[4].

- **أيوب بن حبيب اللخمي**: اختاره أهل الأندلس لصلاحه وتقواه، ونصبوه عليهم بعد أن ظلوا فترة دون وال، بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير. وهو الذي نقل العاصمة من أشبيلية إلى قرطبة[5] وحل في قصرها الحكومي. وكانت ولايته قصيرة امتدت على ستة أشهر فقط[6].

- **الحر بن عبد الرحمن الثقفي**: عينه محمد بن يزيد والي «أفريقية» من قبل

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢. صفحة ٣٢ ـ نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٢٨٠.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٢.

(٣) أخبار مجموعة، صفحة ٢٢.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٠.

(٥) أخبار مجموعة، صفحة ٢١، ـ نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٢٩٨.

(٦) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٣.

سليمان بن عبد الملك فحضر إلى الأندلس وبرفقته أربعمائة من وجوه الولاية[1]. دام حكمه حوالي ثلاث سنوات إلى أن عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز وعين مكانه والياً على إسبانيا الإسلامية السمح بن مالك الخولاني.

- **السمح بن مالك الخولاني**: عين على الأندلس في سنة ٧١٩ (رمضان ١٠٠ هـ). بنى قنطرة قرطبة وخمس الأندلس «وأخرج من أرضها ما كان عنوة»[2]. حكم أقل من ثلاث سنوات وقتل في بلاد غالة غازياً سنة ٧٢١ (١٠٢ هـ).

- **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي**: أحد معاوني السمح، قدمه الأندلسيون في غالة عليهم ليتولى قيادتهم بعد وفاة السمح.

- **عنبسة بن سحيم الكلبي**: عين والياً على إسبانيا الإسلامية من قبل والي القيروان لمتابعة الفتوح في بلاد غالة. وكان أطول الولاة حكماً إذ اقترب عهده من السنوات الخمس وتوفي في مطلع سنة ٧٢٦ (١٠٧ هـ).

- **عذرة بن عبد الله الفهري**[3]: قدمه الأندلسيون على أنفسهم بعد وفاة عنبسة ليتولى أمورهم ريثما تبت السلطة في القيروان أو دمشق بأمرهم. دام حكمه شهران.

- **يحي بن سلمة الكلبي**: عين من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك في دمشق ٧٢٦ ـ ٧٢٨ م. (١٠٧ ـ ١١٠ هـ).

- **حذيفة بن الأحوص الأشجعي**: عين على الأندلس من قبل عبيدة السلمي والي القيروان من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ٧٢٨ م (١١٠ هـ).

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢ لأصفحة ٣٣.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٢٣.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٢٩٩.

- **عثمان بن أبي نسعة الخثعمي**: عين من قبل والي القيروان وما دام حكمه أكثر من أشهر ٧٢٨ - ٧٢٩ م (١١٠ - ١١١ هـ).

- **الهيثم بن عبيد الكلابي**: دام حكمه حوالي العام الواحد وعينه والي القيروان ٧٢٩ - ٧٣٠ م (١١١ هـ).

- **محمد بن عبد الله الأشجعي**: ما زادت ولايته عن الشهرين ٧٣٠ م (١١١ - ١١٢ هـ).

- **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي**: عين سنة ٧٣٠ م (١١٢ هـ). دام حكمه سنتين وعدة شهر، وقتل في غالة ٧٣٢ م (رمضان ١١٤ هـ).

- **عبد الملك بن قطن الفهري**: خلف القائد الغافقي وحكم حوالي العامين إلى أن ندب حاكم القيروان عبيد الله بن الحبحاب في سنة ٧٣٤ (١١٦ هـ) عقبة بن الحجاج السلولي مكانه.

- **عقبة بن الحجاج السلولي**: تصدى للثائرين البربر في مدينة طنجة في شمال أفريقيا بناء لأوامر سيده ابن الحبحاب أمير القيروان[١] وهزم هزيمة منكرة في معركة «غزوة الأشراف» ٧٤٠ م (١٢٣ هـ). استغل الوالي السابق هذا الحادث فثار وثار معه أهل الأندلس وخلعوا الوالي المهزوم واستعاد عبد الملك بن قطن الفهري ولاية قرطبة مجدداً. وكان ابن الحجاج رجل فتح وتوسع، حقق منجزات كثيرة في غالة وفي جليقية. كان صاحب بأس ونجدة، ونكاية للعدو وشدة[٢].

- **عبد الملك بن قطن الفهري**: (ولاية ثانية). كان من أهل المدينة وممن يحملون في قلوبهم حقداً كبيراً على الشاميين إذ حضر معركة «الحرة» وشارك

---

(١) Historia de Espana Levi - Provencal TH p. 27.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١.

فيها. كان عليه مواجهة ثورة البربر في شمال أفريقيا. استعان لذلك بجيش بلج بن بشر القشيري المحاصر في مرفأ سبتة من قبل بربر الغرب. أنجده بلج وجنوده إلا انه ما لبث أن استولى على السلطة في قرطبة وعزله في سنة ٧٤١ م (١٢٣ هـ).

- **بلج بن بشر القشيري**: جاء من بلاد الشام مع جيوش كلثوم بن عياض القشيري التي أرسلها الخليفة هشام بن عبد الملك للقضاء على ثورة البربر في شمال أفريقيا. ولما هزمت هذه الجيوش حوصر هو وعدة آلاف من الجند الشاميين في مرفأ سبتة. استنجد بهم والي الأندلس لمقاومة ثورة البربر هناك فعبروا البحر وأنجزوا مهمتهم واستولى بن بشر على السلطة في قرطبة. جرح في معركة ضد اليمنيين من أنصار الوالي أبي الخطار الذي سبق أن أمر باغتياله وما لبث أن توفي بعد سنة واحدة من استيلائه على السلطة.

- **ثعلبة بن سلامة العاملي**: بعد جرح بلج ووفاته أثر معركة «أقوة برطورة» في آب ٧٤٢ م (شوال ١٢٤ هـ) ولى أهل الأندلس عليهم ثعلبة بن سلامة العاملي. وكان الخليفة هشام بن عبد الملك حين شكل جيش شمال أفريقيا قد أوصى بأن تؤول القيادة إليه في حال وفاة بلج[1]. تشدد كثيراً مع معارضيه والمتمردين عليه من البربر ومن أهل المدينة فطلب الأندلسيون من أمير القيروان استبداله.

- **ابو الخطار بن ضرار الكلبي**: من وجهاء أهل الشام ومن عقالهم. انتدبه أمير القيروان في سنة ٧٤٣ م (١٢٥ هـ) والياً على الأندلس. وزع جند الشام على كور البلدان وأقطعهم الأراضي الواسعة الغنية، وحاول أن يكون حكماً محايداً بين القيسية واليمنية. لم يلبث أن اختلف مع أحد أكبر زعماء القيسية وأذكاهم، الصميل بن حاتم بسبب ميل متزايد لليمنية نسب إليه. نجح الصميل في إقامة تجمع من القيسية ومن بعض اليمنية، مثل لخم وجذام الكارهين لسلطان أبي

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٣٠.

الخطار، وواجهوه في ساحة القتال وأنزلوا به هزيمة ساحقة في نيسان ٧٤٥ م (رجب ١٢٧ هـ).

- **ثوابة بن سلامة الجذامي**: زعيم قبائل جذام ورئيس التجمع الذي أقامه الصميل. بادر بعد الانتصار ووقوع أبي الخطار في الأسر إلى دخول قرطبة وإعلان نفسه والياً عليها.

- **يوسف بن عبد الرحمن الفهري**: لم يعمر ثوابة كثيراً بعد ذلك إذ بعد عام وأشهر قليلة توفي في خريف سنة ٧٤٦ م (محرم ١٢٩ هـ). وكانت خلافة الشام آنذاك في شغل شاغل عن الإسبان المسلمين وخلافاتهم، إذ كانت تعيش سنوات عمرها الأخيرة بعد أن احتدم الصراع مع العباسيين وحلفائهم. بقي أهل قرطبة أربعة أشهر دون حاكم يدبر أمورهم بسبب يمن تتشبث بضرورة عودة أبي الخطار وقيسية تتعصب لزعيمها الصميل بن حاتم[1].

- **يوسف بن عبد الرحمن الفهري**: إلا إن الصميل بن حاتم كان أذكى من أن يأخذ الولاية لنفسه وهو يعرف قلة عدد القيسيين في تلك الديار فعمل على أن تؤول الولاية إلى رجل معروف بالحياد والنزاهة، عريق في نسبه ووجاهته ينتسب إلى عقبة بن نافع، وثيق الصلة بإسبانيا الإسلامية وأهلها، فرشح يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي صار باختيار أهل قرطبة والياً في كانون ثاني سنة ٧٤٧ م (ربيع ثاني ١٢٩ هـ). وكما أراد الصميل، ظل هو الحاكم الفعلي في البداية على الأقل، ووجه سياسة الدولة بما يتوافق ومصالح القيسية. إلا ان الخلاف ما لبث أن دب بين الرجلين وابتعدا عن بعضهما وهذا ربما مما سهل مهمة مغامر آت من المشرق ما لبث أن انقض على الحكم في إسبانيا الإسلامية وأنهى عصر الولاة ليقيم على أنقاضه إمارة أموية تبعث تلك التي غابت عن مسرح الأحداث في الشرق قبل سنوات قليلة. هذا المغامر هو عبد الرحمن بن معاوية.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٥١.

الفصل الثالث

تمصير إيبريا

ونعني تمصير عملية تحويل بلاد شبه الجزيرة الإيبرية أو على الأقل القسم المفتتح منها والذي ترتفع في سمائه راية الإسلام إلى مصر أو بلد من بلدان دولة الإسلام. وهذا يقتضي بالضرورة، العمل على نشر الإسلام كدين وعقيدة بين السكان، وإعطائهم لغة القرآن والعرب، وأيضاً بعض عادات العرب وتقاليدهم وهذه كلها أمور لا بد منها لانتظام عمل دولة الإسلام وفعالية نظمها وتشريعاتها ومؤسساتها. وكان ان بدأ التمصير أو التعريب مع الاسم. فكلمات إسبانيا أو شبه الجزيرة الإسبانية أو إيبريا وهي كلها كانت شائعة عند القوط الغربيين قبل وصول المسلمين ما استعملها هؤلاء إطلاقاً. بل إننا لا نجد في كتب المؤرخين المسلمين أو فيما وصلنا من رسائلهم ووثائقهم ومصنفاتهم واحدة من هذه الكلمات. وإذا نحن عثرنا على إحداها بالمصادفة فإنها تكون استثناء وشواذاً. لقد أطلق المسلمون على هذه البلاد منذ البداية اسم بلاد «الأندلس». ويبدو إنهم تبنوه وأشاعوه في سنوات الفتح الأولى بدليل أننا نجده على قطعة نقدية وصلتنا وتعود

إلى السنة ٧١٦ ميلادية[١] (٩٨ هـ). وكانوا يطلقون هذه اللفظة على كل الأقسام التي تخضع لسلطة دولة الإسلام. أما الأقسام الإسبانية التي ما كانت تابعة لسلطان المسلمين فكانت دوماً تسمى بأسماء الممالك والدول التي كانت تقوم فوقها. ومن هنا فإنه يصعب تحديد الحدود السياسية لدولة الأندلس إذ كانت مساحتها تتمدد أو تتقلص مع اتساع أو تراجع الأرض التي يرتفع عليها علم المسلمين. ويبدو إن المسلمين ظلوا وحتى نزول علمهم عن سارية قصر الحمراء في غرناطة يشيرون إلى بلادهم والتي تحت حكمهم المباشر فقط باسم «الأندلس». أما أصل الكلمة فيبدو انه يعود إلى كلمة فانداليسياVandalicia [٢] وهي اللفظة التي أطلقها الجرمان الفندال على مقاطعة بيتيكا التي نزلوا فيها والمشتقة من اسمهم.

وتصدى القادة المسلمون الوافدون على الأندلس منذ اليوم الأول لحلولهم في تلك الديار للمهمة الأكبر والأعظم والتي كانت السبب الأول لوجودهم في تلك الأصقاع النائية عن ديارهم الأصلية وهي العمل على نشر دين الإسلام بين السكان الإسبان. إلا ان ذلك كان لا بد أن يجري بالتبشير والإقناع والترغيب باعتبارهم من أهل الذمة. ذلك إن الشريعة الإسلامية أعطت أهل الكتاب عامة ضمانات واسعة لاحترام دينهم ومعتقداتهم ومقدساتهم وأموالهم وأشخاصهم. وعلى هذا أبقى حكام عصر الولاة لنصارى الأندلس وكذلك ليهودها وهم عامة السكان في شبه الجزيرة الإيبيرية حرية كاملة في دينهم وأحوالهم الشخصية وعلاقتهم بكهنتهم وبكنيستهم ما داموا يدينون بالطاعة والولاء للدولة ويدفعون ما تفرضه عليهم القوانين من ضرائب. واحترام المسلمين الكبير لعقائد النصارى عموماً جعلهم ينجحون وبسرعة كبيرة في القضاء على ما كان قائماً قبلهم من خلافات بين الفرق النصرانية وما كان يتعرض له من كانوا ما يزالون على ولائهم لبعض العقائد الخارجة على الكنيسة الكاثوليكية وخاصة الأريوسيين. وكذلك أفاد يهود الأندلس

---

(١) Levi Provencal, Historia de Espana t IV, p. 45

(٢) Levi Provencal. Historia de Espana

من أهل الذمة من سياسة الحكام المسلمين المتسامحة في مجال الدين والعقيدة فارتاحوا مما تعرضوا له في أواخر القرن السابع للميلاد من عنت وظلم وتشريد على يد القوط الغربيين. وربما لهذا السبب والى اليهود الحكام المسلمين وأخلصوا في خدمتهم والتعاون معهم فأفاء عليهم هؤلاء بالمنافع والامتيازات وعهدوا لهم بمناصب رفيعة ومهمات إدارية ومالية وديبلوماسية.

والواقع إن هذا الموقف الذي اتخذه الولاة المسلمون الأوائل ما منع إطلاقاً الدعاة والمبشرين من القيام بدورهم، بل ربما ساعدهم في حالات كثيرة. فالإسبان أقبلوا منذ سنوات الفتح الأولى، ودون أن تحكمهم عقدة الخوف والتهويل، على تقبل عقيدة الإسلام والتحول إليه، بعضهم عن إيمان وقناعة، وربما بالنسبة لآخرين عن رغبة في التقرب من السادة الحاكمين. وأيضاً أسلم كثيرون بسبب التزاوج والاحتكاك بمن صاروا ينزلون بين الإسبان من المسلمين العرب والبربر. وكانت الطبقات الفقيرة والمستضعفة من العمال والمزارعين وخاصة من فئة أقنان الأرض الأكثر إقبالاً على اعتناق الدين الجديد والأشد حماسة لرفع كلمته، إذ كان الإسلام يفتح أمامهم الطريق واسعاً للتخلص من تسلط أسيادهم كبار ملاكي الأرض. وما تخلفت فئات كثيرة من تجار المدن وبورجوازيتها عن اعتناق دين الفاتحين الجدد ولو بنسبة أقل ولاعتبارات مختلفة. والواقع إن هذا الموقف المعتدل الذي اتخذه الولاة في القرن الثامن أوجد تعايشاً واقعياً بين جميع الأديان في بلادٍ كانت تشكو الخلافات الدينية وتدخل السلطة في شؤون مواطنيها العقائدية بصورة مستمرة وبوسائل شرسة وظالمة في أكثر الأحيان. ومن هنا ومع تعايش الكاهن والفقيه والكنيسة والمسجد في البلدة الواحدة والحي الواحد اطمأن الإسبان، بعد خوف وحذر رافقا الفتح والغزو، على عقائدهم ومقدساتهم وهذا مما ساعدهم إلى حد كبير على تقبل وطأة الحكم الجديد وعلى تحمل النازلين الجدد من مسلمين بينهم وفي أراضيهم وبلداتهم. ومما يجدر ذكره هنا ان المسلمين انطلاقاً من سياستهم هذه تركوا للنصارى نظمهم الكهنوتية وقوانينهم الكنسية القديمة وأيضاً تركوا لهم أسقفياتهم ومحاكمهم الروحية

يتقاضون أمامها وفق شرائعهم وتقاليدهم في أمور حياتهم الشخصية طالما كان ذلك لا يتعارض مع سياسة الفاتحين الجدد. وقد حافظ الولاة المسلمون على هذه السياسة، إلا في حالات نادرة، بدرجة كبيرة تجعل الباحث يتساءل مع المؤرخ دوزي عما إذا كان هؤلاء، ما كانوا أصلاً يريدون الذهاب بعيداً بتحويل النصارى إلى الإسلام لكي لا تسقط بذلك بعض الضرائب فتشح واردات الخزانة العامة[1].

والواقع إن التحول نحو الإسلام سار بسرعة ملحوظة في سنوات الفتح الأولى. وقد لاحظ اثنان من أقدم المؤرخين الأندلسيين: ابن القوطية وابن عذاري، فأشارا إلى تواجد الإسلام كدين في شبه الجزير الإيبرية وبصورة فاعلة في حوالي السنة ١٠٠ للهجرة نهاية القرن الأول هجري أي بعد تسع سنوات فقط من مباشرة أعمال الفتح والغزو.

ومع إن اهتمامات الولاة الأوائل كانت بالدرجة الأولى دينية وعسكرية إلا ان انتشار لغة القرآن والثقافة العربية كان لا بد أن يسير بالضرورة جنباً إلى جنب مع تزايد عدد المسلمين. فالأسالمة أو المسلمون الجدد كانوا بالضرورة مساقين لتعلم اللغة العربية وذلك لقراءة القرآن والتعرف إلى أحكامه وشرائعه وأيضاً لممارسة العبادات والشعائر الإسلامية. وحتى أولائك الإسبان الذين بقوا على نصرانيتهم ما أهملوا أمر تعلم العربية لأنها باتت طريقهم للتفاهم والتعامل مع السلطة القائمة، خاصة مع زوال ما رافق الفتوح الأولى من افتراض كونها غزواً مؤقتاً ومن كون القائمين بها على غير نية الإقامة الدائمة. وإذا كان الولاة أنفسهم، لانشغالهم بأمور أخرى، ما اهتموا بأمور الثقافة والفكر فإن وصول ذلك السيل المتصل من الفقهاء، والمحدثين، وحفظة القرآن، ورواة أخبار العرب وشعرهم وتاريخهم، من المشرق وخاصة من بلاد الحجاز إلى إسبانيا الإسلامية وبأعداد وفيرة ساعد على انتشار لغة العرب وثقافتهم في وقت مبكر نسبياً.

---

(١) Historia de los Musulmanes de Espana:Dozy. tI, p 230.

على صعيد الإدارة، أبقى الولاة، في البداية على الأقل، على ما وجدوه في الأندلس من مؤسسات مالية ومن نظم قضائية ومن تشريعات عامة إلا ما كان يتعارض منها مع مصالحهم أو مع قواعد الإسلام. شجعهم على ذلك كون أكثر هذه القوانين والمؤسسات كانت على درجة كبيرة من التقدم باعتبارها من مخلفات الحضارة الرومانية. وكذلك أبقوا على النظم الإدارية المعمول بها زمن القوط كما تركوا الوظائف بيد الإسبان لكونهم أدرى وأخبر بشؤون بلدهم، إنما احتفظوا لأنفسهم بالعليا منها فقط، وفق ما طبقه المسلمون في البلدان صاحبة الحضارة الزاهية التي أخضعوها لسلطانهم. وإذا كانوا قد استحدثوا بعض الوظائف فقد كان ذلك على نطاق محدود للغاية ووفق ضرورات السيطرة على الهام والأساسي من شؤون البلاد. كانت هناك وظيفة الوالي وصاحب الشرطة وصاحب الخراج والقاضي وصاحب البريد، استحدثها المسلمون في الأندلس وأبقوها لأنفسهم في أكثر الحالات.

وهنا لا بد من الإشارة إلى انه حتى على الصعيد المدني ما حرم الولاة سكان البلاد الأصليين من الرحمة والتسامح فتركوا لهم نوعاً من الاستقلال الذاتي شبه الكامل. إذ كانت لهم رئاساتهم الخاصة، ممثلة برئيس (Condes كونت) تنتخبه كل جماعة منهم، تتولى كل أمورهم الحياتية والمدنية وأبقوا لهم أيضاً محاكمهم المدنية واحترموا نظمهم القضائية إلا ما كان متعارضاً مع نظم دولة الإسلام وشرائعها.

وفيما يتعلق بالتقسيمات الإدارية فقد احترموا إلى حد كبير التقسيمات الإدارية التي اعتمدها القوط الغربيون والموروثة من أيام الرومان. وعلى هذا قسمت الأندلس أيام الولاة وفق هذا التقليد إلى أربع مقاطعات إدارية يحكم كل واحدة منها عامل يعينه والي قرطبة[1].

---

(١) الروض العطار، الحميري، ١٥٦.

واتخذ المسلمون في أول الأمر مدينة أشبيلية، والواقعة على ضفاف نهر «الوادي الكبير»، وذات المناخ المعتدل نسبياً، عاصمة لهم. غير انهم ما لبثوا أن أدركوا، بعد أن اكتملت فتوحاتهم، ان مدينة قرطبة والتي يمر عبرها النهر ذاته تصلح أكثر كعاصمة لدولة الإسلام في الأندلس لكونها تتوسط البلاد المفتتحة، ومنها يسهل الاتصال بصورة أفضل بجميع المقاطعات. وقد تم ذلك أيام الوالي أيوب بن حبيب اللخمي.

الفصل الرابع

التوسّع في بلاد غالة

ما اعتبر قادة الفتوحات في الأندلس، وأكثر الولاة المسلمين، جبال البيرينيه حداً طبيعياً يجب، أو يمكن، أن يقف عنده توسعهم في أوروبا. ذلك إن جلهم ما نظروا إلى تحركهم العسكري إلا على انه مظهر من مظاهر الجهاد لنشر الإسلام في العالم. وهذا أمر لا يجب، بل ما كان يمكن في نظرهم، أن يقف عند حدود أو سدود. والواقع إن أكثر من قاتلوا في الشمال، وخاصة وراء جبال البيرينيه، كانوا يندفعون في عملهم هذا بحماس ديني ما كان يأخذ كثيراً بعين الاعتبار الحقائق السياسية والعسكرية في إسبانيا الإسلامية. بل إن أكثر حملات المسلمين في بلاد غالة غلب عليها طابع المغامرة العسكرية، واتصفت بالاندفاع الصوفي وتهور الفروسية أكثر مما ارتكزت إلى استعدادات عسكرية وإمكانيات مادية فعلية. ولعل هذا ما يفسر لنا إلى حد كبير كون أكثر هذه الحملات انتهت بتحقيق نتائج جزئية، وفي أحيان كثيرة باستشهاد جل قادتها وخسارة ما لا يحصى من خيرة جنود المسلمين.

ولعل هذا الاندفاع وراء الفتوحات، والذي ما كان دائماً عقلانياً ومرتكزاً

إلى حقائق عسكرية ثابتة، هو الذي جعل المسلمين يباشرون توسعهم في غالة حتى قبل نهاية القرن الأول للهجرة أي قبل سنة ٧٢٠ م أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي، وفي وقت ما كان المسلمون قد ثبتوا بعد أقدامهم في شبه الجزيرة، وفي وقت كانت مناطق هامة كثيرة لا ترفع راية دولة الإسلام في تلك الديار. تشير المراجع النصرانية، ولو بإيجاز، إلى إن هذا الوالي قاد حملة وراء البيرينيه أوصلته حتى مدينة أربونة[1]. ويبدو من إهمال المؤرخين المسلمين الكامل لهذه الرواية إنها ما كانت هامة أو أساسية وما حققت أي مكسب على الأرض. وإنما تبقى على كل حال ونظراً لدقة صاحب الرواية وصحة أخباره، إيزيدور الباجي، صحيحة ويمكن اعتبارها بمثابة مقدمة هذه الفتوحات.

وحين تولى ولاية الأندلس، من قبل خليفة دمشق عمر بن عبد العزيز، السمح بن مالك الخولاني سنة ٧١٩ م (١٠٠ هـ) بعد أن نجح إلى حد كبير في أول أيام حكمه في ضبط أمور الأندلس وتنظيم بعض أمور حكمها وخاصة في مجالات المال والضرائب برز عنده ميل كبير نحو القيام بحملة عسكرية تستهدف بلاد غالة الواقعة وراء البيرينيه. وربما كان السمح، إلى جانب اندفاعه الصوفي في خدمة الإسلام ونشره، اعتقد إنه إلى جانب الغرض الديني ربما يكون في توسعه في الشمال إضعاف لبقايا المعارضة الإسبانية لدولة الإسلام في الأندلس، والتي اعتصمت في المرتفعات الجبلية في أستوريا واستحال القضاء عليها، عن طريق قطع كل اتصال بينها وبين نصارى غالة فلا تأمل بالحصول على مدد منهم. وعلى هذا قاد جيشاً من المسلمين عبر به جبال البيرينيه وحاصر مدينة ناربونة عاصمة أقليم سبتمانيا واستولى عليها وجعل منها قاعدة أساسية لانطلاق جيوش الفتح والتوسع الإسلامية إلى سائر مناطق غالة. ومما يجدر ذكره ان بلاد غالة ما كانت آنذاك تشكل كياناً سياسياً موحداً، فهي في مناطقها الواقعة شمالي نهر اللوار

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، صفحة ١٣٤.

كانت من ضمن الدولة الميروفنجية[1]، أما تلك الواقعة بين نهر اللوار وبين جبال البيرينيه والبحر المتوسط فكانت موزعة إلى دويلات صغيرة يحكمها سادة مستقلون بأمورهم، متصارعون في أكثر الحالات مع بعضهم البعض. أقام السمح في ناربونة فترة قصيرة، نظم أمورها الإدارية، وأقام حاكماً من قبله وأبقى معه حامية عسكرية كما أنزل بعض جنوده من العرب والبربر في أراض في أحواز المدينة أقطعهم أياها. ومن ثم عزم على مهاجمة أقليم أكيتانيا القوي، وكان يحكمه الدوق أودو. تقدم عبر الأقليم حتى وصل إلى قاعدته مدينة تولوز وسط مقاومة عنيفة من جنوده. وعند وصول المسلمين إلى المدينة كان أودو قد حشد جيشاً ضخماً تصدى للمهاجمين في أحواز المدينة وجرت بين الفريقين معركة رهيبة قتل فيها خلق كثير من الفريقين، وكان من القتلى السمح بن مالك الخولاني[2] نفسه، مما ألقى الرعب في صفوف جنوده فهزموا شر هزيمة ورجع من بقي منهم على قيد الحياة في فوضى مخيفة إلى مدينة ناربونة القاعدة الإسلامية الجديدة. وكان ذلك عشية عيد الأضحى لسنة ٧٢١ م (١٠٢ هـ). اختار الناجون من الجند قائداً عليهم عبد الرحمن الغافقي، أحد معاوني الوالي المقتول، فعمل على جمع شملهم وقادهم في عودتهم إلى ناربونة ثم إلى الأندلس. وقد بقي لفترة قصيرة يدبر شؤون الأندلسيين إلى أن ندب أمير القيروان والياً على قرطبة من قبله هو عنبسة بن سحيم الكلبي. وهكذا تكون حملة الخولاني، مع انها في البداية نجحت بالسيطرة على أقليم سبتمانيا، قد انتهت بشكل مأساوي حين حاولت فتح أقليم أكيتانيا.

وحين تسلم عنبسة الكلبي الولاية، لم يجد أمور البلاد الداخلية على درجة كافية من الهدؤ والاستقرار. وكذلك فوجىء بظهور خلافات كثيرة بين العصبيات العربية. تصدى بجرأة ومقدرة لمهمة تصحيح الأوضاع الداخلية للأندلس إلا انه

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، صفحة ١٣٧.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥.

وقبل إنجاز مهمته بشكل مرض بدأت تتحكم فيه هواجس الثأر لهزيمة الوالي السابق وأيضاً الرغبة في معاودة الحرب في غالة عبر جبال البيرينيه، بما تيسر له من الجنود، وسار إلى القاعدة الإسلامية ناربونة فتفقد أمورها وعمل على استرجاع بعض المواقع في سبتمانيا كان الفرنج قد استعادوها من أيدي المسلمين بعد انتصارهم في تولوز. آثر أن لا يتوجه بعد ذلك نحو أقليم أكيتانيا، إما خوفاً من مواجهة غير مأمونة العواقب مع الدوق أودو سيدها، أو لأن علاقة هذا الأخير بالمسلمين كانت قد تحسنت بعض الشيء أثر مقتل الخولاني فما أراد تعكيرها. أخذ طريقاً جديدة، يعبرها المسلمون لأول مرة، فسار على محاذاة البحر المتوسط باتجاه نهر الرون ووصل إلى مصبه ومن هناك اتجه شمالاً على طول مجرى النهر، غير عابىء بما قد يواجهه من مقاومة، وأيضاً غير مبال بجهله لمسالك ذلك الوادي ودروبه. توغل في أقليم بورغنديا ووصل حتى مدينة ليون فاحتلها وغنم في حملته هذه الكثير من الثروات والتحف المتواجدة في كنائس وادي الرون وأديرته. إلا ان عنبسة ومن معه تعرضوا في طريق عودتهم لمقاومة شرسة من السكان مما أدى إلى استشهاده وبعض من معه في كمين نصبه لهم بعض أبناء البلاد في سنة ٧٢٦ م (١٠٧ هـ). والشيء المميز لهذه الحملة هو أنها اتخذت طريقاً، مغايراً سار باتجاه جنوب فرنسا وأوغل في الابتعاد عن قواعد الإسلام في غرب أوروبا مما جعل نتائجها سلبية بل على الأصح مأساوية. وحتى هذا التاريخ كان المسلمون رغم ما قدموه من تضحيات وما أصابهم من هزائم قد أفلحوا فقط في الأستقرار في إقليم سبتمانيا الممتد من جنوب جبال البيرينيه على طول ساحل فرنسا على البحر المتوسط، حتى بلاد البروفانس، كما باتت لهم قاعدة أساسية لانطلاق فتوحهم هي مدينة ناربونة الحصينة.

عندما صارت ولاية الأندلس سنة ٧٢٩ م (١١٢ هـ) إلى المجاهد القديم

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥.

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العريز سالم، صفحة ١٣٧.

عبد الرحمن الفافقي برزت الرغبة في الفتوح والتوسع، وأيضاً إرادة الثأر للهزيمة القديمة في أكيتانيا، في معركة تولوز، على كل ما تعداها وحتى على ضرورات الاهتمام بالأوضاع الداخلية التي ما كانت على ما يرام. كان عبد الرحمن جندياً بارعاً ومجاهداً كبير الإيمان بضرورة نشر الإسلام في كل أرض وصقع، وكان في الوقت نفسه رجل حكم وإدارة من الطراز الأول. أدرك منذ البداية ضرورة إصلاح الأوضاع الداخلية في الأندلس، فحاول إخماد نيران العصبيات العربية على ما قدر، ووضع بعض من يثق بهم من رجاله في المراكز الهامة، في الإدارة والقضاء، وعمل على رفع بعض المظالم كانت الناس تشكو منها وخاصةً في مجال جباية الضرائب. إلا أن جهود عبد الرحمن كانت منصبة بالدرجة الأولى على تكوين جيش عظيم للقتال وراء البيرينيه لأنه كان في أعماقه مجاهداً قبل أن يكون حاكماً، ولأنه جندي ومقاتل، قبل أن يكون منظماً ومدبراً لشؤون الناس. لقد كان أسير ذكريات السنوات التي عاشها في بلاد غالة منذ ذهب إليها مع السمح بن مالك الخولاني فأحبها وتمنى أن يضمها لدولة الإسلام. تجمع حوله جيش عظيم، وافر العدد والعدة، يضم خليطاً من العرب القيسيين واليمنيين وأكثر منهم من مجاهدة البربر. بالغ المؤرخون، وخاصةً النصارى منهم في تقدير عدد من التحق بجيش الغافقي من المسلمين فقدروه وفق بعض الروايات وأكثرها اعتدالاً بحوالي سبعين ألف جندي.

وفي صيف سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) خرجت جيوش الغافقي، وهو على رأسها، باتجاه أراضي البشكنس في شمال غرب الأندلس، فعبرت ولاية نبرة ومنها اجتازت جبال البيرينيه إلى إقليم أكيتانيا لمواجهة صاحبها أودو. انتصر المسلمون أول الأمر في عدة معارك جانبية صغيرة. وهنا تختلف الروايات في تحديد الطريق التي سلكها الغافقي بعد ذلك. تقول بعضها إنه سار نحو مصبِ نهر الرون حيث مدينة آرل لاخضاع أهلها بعد أن كانوا قد رفعوا لواء التمرد بوجه سلطان المسلمين وتمنعوا عن دفع الجزية. وفي رواية أخرى أنه ندب فرقة صغيرة من جيشه لإخضاع هذه المدينة المتمردة بينما تابع هو وجل الجيش السير نحو

الهدف الأساسي. ويبدو أن هذه الرواية الأخيرة هي الأصح والأقرب إلى الواقع، إذ لا يعقل أن يحول جيش بهذه الضخامة عن مسار رسم له منذ زمن طويل وعن هدف حدد له بعناية وتصميم من أجل إخضاع مدينة صغيرة تمردت. حاول الدوق أودو أن يوقف تقدم جيوش المسلمين قبل أن تصل إلى المدينة الهامة بوردو فالتقى بهم عند تلاقي نهري الغارون والدردون وكانت بين الفريقين معركة شرسة للغاية هزم فيها الدوق أودو. **«والله يعلم كم قتل في تلك الموقعة من النصارى»** كما قال المؤرخ الإسباني أيزيدور الباجي[1]. بعد ذلك دخل المسلمون مدينة بوردو الهامة وحصلوا فيها على غنائم ضخمة.

بعد هذا النصر الساحق شعر أودو دوق أكيتانيا بعجزه عن كبح جماح توسع المسلمين ورأى أن عليه أن يتجاوز كراهيته للميروفنجيين وأن يتناسى خوفه من أطماعهم وبالتالي أن يطلب منهم العون والمساعدة. وكان يملك في ذلك الوقت على الميروفنجيين الملك الضعيف ثيودوريك الرابع إنما السلطة الفعلية كانت بيد رئيس البلاط شارل مارتل الطامح ليس فقط إلى زعامة الدولة الميروفنجية وإنما إلى زعامة النصرانية الأوروبية. وكان أخشى ما يخشاه الدوق أودو وسائر حكام جنوبي غالة المستقلين هي هذه الرغبة بالتوسع والسيطرة على كل غالة عند شارل مارتل. ومع هذا طلب أودو المساعدة من الميروفنجين. شارل مارتل وجد في ذلك فرصة عظيمة تتيح له من جهة القضاء على حساده ومنافسيه في الداخل وتأكيد سلطانه على كل أقاليم غالة، ومن جهة ثانية أن يجمع كل نصارى تلك الأصقاع تحت زعامته وأن يظهر أمام بلدان غرب أوروبا والبابوية وكأنه وحده القادر على كبح جماح التوسع الإسلامي وحماية النصرانية في الغرب من خطر المسلمين. استدعى شارل مارتل المقاتلين من كل مكان، وخاصةً من الجرمان النازلين في وادي الراين، وأراضي جرمانيا المعروفين بروحهم القتالية وشجاعتهم وقدرتهم على الصمود وسار باتجاه أكيتانيا ملبياً ومنجداً.

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، القسم الأول ـ العصر الأول، صفحة ٨٩.

التقت جموع المسلمين بجيوش شارل العظيمة في سهل واسع بين مدينتي تور وبواتيه بالقرب من طريق روماني قديم. وجرت المعركة بين الفريقين في شهر رمضان من سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) وانتهت بهزيمة ساحقة للمسلمين تعرف باسم معركة «بلاط الشهداء» لكثرة من قتل فيها من جنود المسلمين وقادتهم. وكان شر ما حل بهم مقتل القائد العظيم، ورائد تلك الحملة عبد الرحمن الغافقي، مما زاد في اضطراب أوضاع الجيش وتشرذم عناصره وانتشار الخلاف بين قادته الذين عجزوا عن الاتفاق على من يخلف القائد المقتول ويعود بهم إلى أراضيهم بالحد الأدنى من الخسارة.

أبرز ما نتج عن هذه الهزيمة هو توقف محاولات، المسلمين للتوسع في أراضي الشمال واقتناعهم باستحالة تحقيق نصر قريب في هذه الجهات خاصة وان ما حصل من ترد متزايد للأوضاع العامة في الأندلس يجعل من الأمور الملحة توجه الولاة نحو حل المشاكل الداخلية والداخلية فقط. وبالتالي فإن سكان غالة أدركوا خطورة الإبقاء على قواعد للمسلمين في أراضيهم، ولذا فإن شارل مارتل بدأ يمارس سياسة استرداد تجاه الوجود الإسلامي في غالة وتابعها بنجاح خلفاؤه وخاصة شارلمان. وانتهت هذه الحملات ليس فقط بإخراج المسلمين من غالة وإنما وفق شارلمان كما سنرى فيما بعد بعبور البيرينيه وإقامة قاعدة متقدمة في أراضي كتالونيا لحماية بلاده ومواقعه.

ولعل من المهم الإشارة هنا إلى ان المسلمين عموماً يسدلون ستاراً كثيفاً من الإهمال وربما التغافل عن إمدادنا بالتفاصيل الوافية عن هذه المعركة ومقدماتها ونتائجها وبالكاد نجد في بعض مصادرهم إشارة طفيفة[١] إلى أحداثها الفاصلة وكأنهم بعد عظيم ما أنجزوه في شبه الجزيرة الإيبرية ما استطاعوا أو ما أرادوا تسجيل هزيمة يصابون بها، بقيمة وأهمية هزيمة معركة «بلاط الشهداء».

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٢٥.

ومن هنا كانت معارفنا عن هذه المعركة قليلـة وموجـزة ومأخـوذة في جلهـا عن المصادر الإسبانية المسيحية.

وبالمقابل فإن هذه المعركة على أهميتها وعلـى ما انتهـت إليه من نتائـج حاسمة من حيث إنها أوقفت نهائياً المد الإسلامي عبـر غالـة، فإن المـؤرخين الغربيين المعاصرين وبعض المحدثين قد أعطوها من الأهمية أكثر مما تستحق، ذلك إن بعضهم رأى انه لو انتصر المسلمون فيها لكان الإسلام قد عم أوروبا كلها ولكانت مدنها الكبرى مثل لندن وباريس وروما قد تحولت إلى حواضر للإسلام. والواقع إن دراسة معمقة لظروف المعـركة ولأوضـاع الأنـدلس وأوضـاع الدولـة الأموية عموماً تجعل ما حصـل طبيعياً وواقعياً وحتمياً. ذلك ان موجـات التوسع الإسلامي في الغرب كانت قد بلغت بوصولها إلى الأندلس أقصى امتدادها وكان من الطبيعي أن تشكل جبال البيرينيه أو أي حاجز طبيعي آخر سداً تقف أمامـه. فطرق مواصلات المسلمين قد طالت كثيراً بالنسبة لقاعدتهم دمشق، وأسـاليب اتصالهم بالسلطة المركزية ما كانت تسمـح بعمـل سريع وحاسـم في الأوقـات الحرجة. يضاف إلى ذلك ان المسلمين ما كانوا بعد قد نجحوا في تمصير الأندلس ليتخذوها قاعدة رئيسية لفتوحاتهم في أوروبا. وحتى في حال نجاحهم في تمصير هذا القطر بشكل كامل فإنه ما كان ينتظر بالنسبة لما قد يوفره من إمكانيات محدودة أن يكون هو القاعدة الأم لفتح أوروبا. وربما كان من المجدي هنا أن نضيف ان ما كان بين المسلمين أنفسهم من عصبيات وحساسيات، كالخلافـات القيسية ـ اليمنية والنزاعات البربرية ـ العربية، ما كانت إلا لتضيف إلى نقاط الضعف في تكوين القوة العسكرية للمسلمين في غالة نقطة هامة. وتجمع المعلومات التي وصلتنا عن تفاصيل المعركة على أن الخلافات العربية ـ البربرية بالذات قد ساهمت وبنسبة كبيرة في تحقيق الهزيمة. ثم إن الدولة الأموية في المشرق كانت في العقد الرابع من القرن الثامن للميلاد قد بدأت تحث السير في طريق انهيارهـا، كما ان صراعها مع أخصامها من عباسيين وعلويين وشعوبيين، وما كانوا قلة ولا كانـوا مستضعفين، كان قد دخل في مراحل خطرة وحاسمة. وطبعاً ما كان منتظراً من

كيان سياسي دب الضعف والوهن في رأسه ومركز القرار عنده أن تعمل أطرافه، وخاصة البعيدة منها، بفاعلية وإيجابيه. ثم فوق هذا وذاك فالمصادر الإسبانية تجمع كلها، على كون الحملات وراء البيرينيه قد تمت بمبادرات خاصة من ولاة الأندلس، وبقوة استمدوها مما كان عندهم محلياً من إمكانات، وهي في أكثر الحالات ما كانت كافية، ثم إن الحملات ما انبثقت في يوم من الأيام من سياسة واضحة للفتح تضعها دولة الإسلام وتحشد لها الإمكانيات والقدرات المناسبة.

الفصل الخامس

النزاع العربي البربري

أهمية هذا النزاع تكمن في كونه قد سيطر على الحياة السياسية في الأندلس في معظم عصر الولاة وشغل قسماً كبيراً من اهتمامات حكامه وقياداته، في وقت كانت البلاد أحوج ما تكون لجهود هؤلاء من أجل تثبيت دعائم الحكم الجديد ومتابعة أعمال الغزو والتوسع في غالة. ثم إنه أضعف، ولحد كبير من بنية دولة الإسلام في إسبانيا وأفقدها مواقع وأراضي هامة كانت ضرورية لها لحماية حدودها الشمالية. ولعل أغرب ما في الموضوع أن يظهر الخلاف ثم العداء بين العرب والبربر، بعد أن اشترك الفريقان ولفترة طويلة في أعمال الفتوح والتوسع في ظل دولة واحدة وتحت راية دين واحد. والظاهر وكما تخبرنا أكثر الروايات التاريخية إن مسؤولية الخلاف ثم الشقاق بين الشعبين يتحملها العرب بنسبة كبيرة، وبصورة خاصة قادتهم وزعماؤهم.

من المعروف ان الفضل في افتتاح شبه الجزيرة الأيبرية يعود بدرجة كبيرة إلى البربر لما قدموه من مساهمة في تعريف العرب إلى تلك البلاد، وإرشادهم إلى دروبها ومسالكها، وأيضاً وبالدرجة الأولى لكون قادة وجنود أوائل الحملات كانوا

بأغلبيتهم منهم. فهل استطاع هؤلاء بعد أن انتهت أعمال الفتح، وبعد أن استقر في البلاد المفتوحة أكثر الجنود من الإفادة من ثمرة انتصاراتهم؟ يبدو انه على الصعيد العملي، ورغم كل ما كان يبديه بعض الولاة وقادة الجيوش، من نية طيبة تجاه البربر، ومن محاولة تحكيم ما يأمر به القرآن من عدل وإنصاف في التعامل مع الشعوب الأخرى، فإن العرب إجمالاً تحكمت بهم عقدة التعالي والغرور وأيضاً الرغبة في التسلط والهيمنة. والواقع إنهم بصورة عامة، ما كانوا منطقيين في تعاملهم مع البربر وغيرهم من سكان البلاد المفتتحة. فهم عند مجيئهم إلى المغرب قدموا للبربر كتاباً يضمن لمن يؤمن به حرية وعدالة ومساواة دون حدود أو قيود ويعطيهم شريعة فيها الخير كل الخير والحق كل الحق والإنصاف كل الإنصاف. وهم أيضاً أعطوهم ديناً، قالوا لهم ان أحد مبادئه الأساسية «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». آمن البربر بهذا الدين، وقبلوا دستوراً لحياتهم كتابه «القرآن الكريم» بصدق وحمية لا حدود لهما وقدموا في هذا السبيل من التضحيات الشيء الكثير. وفي نفس الوقت اعتقدوا ان من حقهم ومن واجبات حكامهم من العرب أن يعطوهم كل ما يقره لهم الدين الجديد طالما آمنوا به، وبأحكامه التزموا. والمفاجأة الكبرى كانت حين أدرك البربر ان ما تعطيهم إياه الشريعة الإسلامية وما يأمر به الرسول شيء، وما يعطيه العرب من سادة وأفراد شيء مختلف تماماً. كان واضحاً منذ البداية ان العرب يتصرفون تجاه البربر كسادة وكفاتحين وكغزاة. لقد تسلطوا بشكل كامل على شؤون الإدارة والحكم وأخذوا لأنفسهم الوظائف العليا من مدنية وعسكرية وقضائية وتركوا للبربر فقط أن يقدموا الجنود لغزوات المسلمين وراء جبال البيرينيه، على ما كانت تجره من مآسي وما تذهب به من ضحايا وشهداء. يكفي أن نذكر على سبيل المثال ان غالبية الجنود الذين رافقوا عبد الرحمن الغافقي في حملته الشهيرة إلى غالة، وجل الذين استشهدوا في معركة «بلاط الشهداء» كانوا من البربر. وأيضاً تركوا لهم فوق هذا أن يقدموا من أجسادهم دروعاً وحواجز تقبع عند الحدود مع الإسبان النصارى تحمي الأندلس من تحرشاتهم وغاراتهم.

وعلى الصعيد الاقتصادي كان الظلم أكبر والتمييز أشد وأوضح. عند انتشار المسلمين في مناطق شبه الجزيرة الإيبرية والاستيلاء على ثرواتها ومزارعها ومياهها اختص العرب أنفسهم بالأراضي الخصبة والسهول الخضراء وأحواض الأنهر الكبيرة مثل حوض الوادي الكبير وحوض التاج وحوض الدويرو. وأيضاً اختصوا أنفسهم بسكن المدن الكبيرة ذات المناخ المعتدل والمياه الوفيرة والامكانيات الواسعة. أما البربر فقد أخذوا أو ربما على الأصح أعطوا، مناطق الهضاب الوسطى ذات المناخ الجاف والمياه القليلة. وأيضاً ترك لهم أن ينتشروا في مناطق الشمال الوعرة ذات الطقس البارد المثلج يواجهون هناك بصدورهم المقاومة الدائمة لبقايا النفوذ القوطي الإسباني. ربما يقال إن البربر اختاروا المناطق الجبلية والوعرة التي تناسب مزاجهم والتي تماثل تلك التي كانوا يعيشون فيها في بلدانهم الأصلية[1] يمارسون ما ألفوه من تربية المواشي والاعتناء بالأشجار المثمرة. إنما يمكن الرد على ذلك بأن البربر أصلاً ما كانوا كلهم سكان جبال وهضاب، وكثيرين منهم مثل بربر البرانس كانوا أهل شطآن وسهول وسواحل وحواضر كبرى ولا يعقل أن يختار هؤلاء بحريتهم تلك المناطق الجبلية التي أنزلوا فيها في شمال الأندلس. ثم لو انهم أصلاً نزلوا تلك المناطق باختيارهم لما تجمع عندهم كل ذلك الكره للعنصر العربي ولما تفجر ذلك الحقد في فترة زمنية قصيرة ثورة وتمرداً ودماءً. وما كان البربر، الذين اتصفوا تقريباً بنفس مميزات العرب ليتحملوا هكذا معاملة تجافي العدالة وتبتعد عن المساواة لمدة طويلة. فالبربري، بما كان عنده من قوة وشجاعة وأنفة وعصبية وما اعتاده وتعلق به من حرية ومن ميل نحو الفردية ومن نزعة قتالية، ما كان ليتحمل تسلط العرب وتفردهم بالحكم لفترة طويلة.

ثورة البربر انطلقت أولاً، من بلدان شمال أفريقيا، ضد والي القيروان ابن الحبحاب وبسبب معاملة سيئة نقموها على العرب هناك وما كانت بعيدة عما طالما

---

(١) فجر الأندلس، حسين مؤنس، صفحة ٣٨٨.

اشتكى منه أبناء قومهم في الأندلس. وحين سجل الثائرون انتصارهم الكبير في معركة «غزوة الأشراف» في المغرب كان لذلك صدىً واسعاً في الأندلس. من جهة رأى في ذلك عبد الملك بن قطن الفهري أمير قرطبة السابق مناسبة يتحرر فيها من سلطان والي القيروان ويسترد حكمه فانقض على العاصمة واستعاد لنفسه ولاية الأندلس. ومن جهة ثانية وجد البربر في الأندلس في ثورة إخوانهم في المغرب وخصوصاً في هزيمة العرب في «غزوة الأشراف» فرصة استغلوها فرفعوا لواء التمرد والثورة بوجه سلطات قرطبة والوالي عبد الملك ابن قطن الفهري. انقض هؤلاء أول الأمر على من ساكنهم وشاركهم الحياة في مناطقهم النائية من قلة من المجاهدين والمزارعين من عرب جليقية وأسترقة والمداين[1] فأعملوا السيف برقابهم وقتلوا منهم كثيرين وفر الباقون نحو الجنوب خائفين لاجئين. وما لبثت ثورة البربر في الأندلس أن اتخذت طابعاً خطراً خاصة بعد أن توحد هؤلاء تحت قيادة واحدة[2] وانتظموا في جيوش حسنة الأعداد والتنظيم. وضع البربر الثائرون خطة عامة تهدف إلى الاستيلاء على العاصمة مقر الحكم كما على سائر أراضي الأندلس. قسموا جيوشهم إلى ثلاث مجموعات، سارت الأولى نحو طليطلة عاصمة القوط القدماء، واتجهت الثانية لمهاجمة العاصمة قرطبة والثالثة أخذت الطريق نحو الجزيرة الخضراء في محاولة للاتصال ببربر المغرب[3] وقطع الصلة بين عرب الأندلس ومركز الولاية في القيروان. حدث ذلك سنة ٧٤١ م (١٢٣ هـ). بادر عبد الملك الفهري للتصدي لهذه الحركة بسرعة وقوة وأخرج إليهم جيوشاً «فهزموها وقتلوا العرب في الآفاق»[4] وفشل في وقف الزحف البربري القادم من الشمال. وعندما أدرك البعد الحقيقي لخطر هذه الثورة، خاصة إذا انضمت إليها عناصر البربر المنتشرة في الجنوب وفي الحواضر الكبرى، ما وجد

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٣٨.
(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٣٩.
(٣) دولة الإسلام في الأندلس، عبد الله عنان، العصر الأول، القسم الأول، صفحة ١٢١.
(٤) أخبار مجموعة، صفحة ٣٨.

أمامه سوى الاستنجاد بأولائك الشاميين الذين كان بربر المغرب يحاصرونهم في سبتة والذين أشرفوا من شدة الحصار على الموت جوعاً، متجاوزاً ما قد يثيره قدوم هؤلاء إلى الأندلس من حساسيات في صفوف العرب أنفسهم.

والواقع إن الشاميين كانوا، حين ضيق عليهم البربر الحصار قد استنجدوا بوالي قرطبة وكتب إليه بلج بن بشر القشيري زعيمهم «وسأله إدخاله وإدخال من معه إلى الجند»[1] وذكر له «ما صاروا إليه من الجهد، وإنهم قد أكلوا دوابهم فأبى عبد الملك إدخالهم، ولم يأمنهم»[2]. ليس فقط تجاهل الفهري في البداية نداء هؤلاء بل ربما سر في أعماقه وتمنى هلاكهم إذ كان يخافهم على سلطانه[3]. ذلك إن عبد الملك هذا كان مضرياً وممن شهدوا موقعة «الحرة» حين هاجم جنود الخليفة يزيد بن معاوية المدينة المنورة واستباحوها وقتلوا خلقاً كثيراً من الحجازيين فيها فحمل في قلبه حقداً شديداً على الشاميين عموماً. إنما في النهاية، ومع تزايد خطر التمرد البربري في الأندلس واشتداد ضرباته قوة ما عاد أمامه سوى تلبية نداء القشيري مضطراً واستقدام الشاميين المحاصرين لمساعدته. وانسجاماً مع عواطفه وللمحافظة على التوازن القائم في الأندلس بين العصبيات العربية اشترط عليهم «مقام سنة بالأندلس ثم يخرجون عنها»[4] مكتفين بما سيحصلون عليه من اسلاب ومغانم حرب. وما كان أمام بلج بن بشر وسائر الشاميين، وخطر الموت جوعاً في سبتة يطبق عليهم، من خيار غير القبول وقدموا لوالي الأندلس ضماناً لتنفيذ شرطه رهائن منهم أنزلهم بجزيرة صغيرة تدعى جزيرة أم حكيم مقابلة لمرفأ الجزيرة الخضراء. نزل الشاميون، بعدها، على الشاطىء الجنوبي للأندلس بحالة يرثى لها من الجوع فهم «قد هلكوا وعروا»[5]. فأصلح أمرهم وأشبعهم

---

(١) (٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٢.

(٣) أخبار مجموعة، صفحة ٣٨.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٣.

(٥) أخبار مجموعة، صفحة ٣٩.

وغطى عريهم وطلب إليهم مساعدته في القضاء على تجمعات الجيش البربري المتمركزة في شذونة استعداداً للزحف نحو الطرف الجنوبي للأندلس عند مرفأ الجزيرة الخضراء الهام. وفعلاً هاجم عبد الملك والشاميون البربر عند وادي الفتح فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة واحدة فأبادوهم[1] وأصابوا منهم غنائم كثيرة. ومن هناك سار العرب لإنقاذ العاصمة فهزموا الجيش البربري الثاني وتابعوا مسارهم نحو مدينة طليطلة التي كان البربر قد حشدوا حولها جل إمكانياتهم وألقوا حصاراً عليها استطال مدة سبعة وعشرين يوماً. وهناك في مكان قريب من عاصمة القوط، على ضفة نهر التاج، يدعى «وادي سليط» التقت جموع الفريقين فكانت مذبحة رهيبة انتصر فيها العرب وقتلوا الآلاف من خصومهم[2].

وإذا كان البربر قد اضطروا بعد هزائمهم هذه للقبول بواقع السيادة العربية، غير المنازعة، فإن قسماً كبيراً منهم ما عاد إلى مواطنه القديمة وفضل عبور البحر إلى المغرب أو التفرق في قرى وحواضر جنوب وشرق الأندلس. وبذا خلت مدن كثيرة في الشمال من سكانها الشجعان وافتقرت قرى ومزارع، لا حصر لعددها، لتلك الأيدي الماهرة التي طالما عملت فيها ودافعت بشجاعة عن سلامتها وأمنها. ولعل أسوأ ما تمخضت عنه هذه الحرب أزمة اقتصادية عمت البلاد وبوار في مواسم العام التالي الزراعية مما آذى كثيراً تلك القلة من البربر التي أرادت البقاء والصمود في أماكنها الأصلية فأكرهت على الهرب والهجرة خوفاً من الجوع والموت. والواقع إن هذه الحرب الدموية بين إخوة الأمس ورفاق الحرب والغزو والتوسع كان لها، بالنسبة لدولة الإسلام في الأندلس، أثر مدمر على المدى الطويل. لقد أقفرت مناطق واسعة في شمال الأندلس وبعض غربه من السكان، وبقيت لفترة طويلة غير مأهولة تفصل بين نصارى إسبانيا ومسلميها إنما تنتظر دوماً من يسكنها ويملأ فراغها.

---

(١) البيان المغربي، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٣.

(٢) البيان المغربي، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٣.

كان النصارى الإسبان على استعداد لاستغلال هذا الواقع المستجد والإفادة منه. ذكرنا سابقاً إنه حين توقفت أعمال الفتوح والتوسع في شبه الجزيرة الإيبرية ما كان قد بقي خارجاً، عملياً، عن سلطة المسلمين غير تلك المنطقة القصية من شمال غرب إسبانيا في جليقية. وهناك، وبصورة خاصة في مرتفعات أستورياس الشاهقة وفي بعض أوديتها ومغاورها تجمع بعض نبلاء القوط ممن رفضوا بصورة قاطعة التعايش، بل حتى ومجرد التعامل مع دولة الإسلام. وإلى هناك لجأت أيضاً الملكية القوطية ممثلة بأحد أبناء العائلة المالكة بلايPelayo . وبالتعاون مع سكان أستورياس الأصليين، على قلة عددهم، أخذت تتشكل نواة المقاومة الإسبانية النصرانية. والواقع إن التفاصيل التي رافقت تكوين هذه المقاومة وتطورها في سنواتها الأولى شديدة الغموض، تحيط بها كثير من القصص والأساطير خاصة في كتابات الإسبان ولا تتوافق كثيراً مع ما تركه لنا الرواة والمؤرخون المسلمون. ويبدو إن بلاي قد اتخذ من المدينة الصغيرة كانيكاس[1] Canigas مقراً لبلاطه بعد أن انتخبه وجهاء القوط ومقدموهم زعيماً لهم[2]. وحصل هذا بعد أن سجل نصراً كبيراً على المسلمين في معركة كافادونجا Cavadonga لا تشير إليه المصادر الإسلامية ويحيط به كثير من الغموض والاضطراب في المصادر الإسبانية. إنما الشيء الثابت هو ان هذه المقاومة كانت منذ البداية موضع اهتمام ومراقبة من بعض الولاة المسلمين من أصحاب البصيرة النافذة مثل عقبة السلولي الذي ما أهمل أمرها ولا قصر في مواجهتها حتى وهي في المهد. وقد قاد بنفسه حملة إلى بلاد جليقية واقتحم معظم أراضيها وما استعصت على قدراته غير صخرة كبيرة لجأ إليها ملك أستورياس مع ثلاثماية رجل من أتباعه، «فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً وحتى فنيت أزودتهم»[3]. إلا ان الشيء المؤكد هو ان المسلمين فشلوا في القضاء على نواة

---

(1) Historia de Espana, Asian Pena, p. 97.

(2) Historia de Espana T IV, Levi Provencal, p. 41.

(3) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١ ـ أخبار مجموعة، صفحة ٢٨.

هذه المقاومة وبقي مقاومون «أعيا المسلمين أمرهم فتركوهم»[1].

بعد وفاة بلاي حوالي سنة ٧٣٧ م صارت زعامة الإسبان النصارى إلى ابنه ثم إلى صهره الذي يعرف باسم الفونسو الأول الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لمملكة أستورياس الصغيرة[2]. الفونسو الأول والذي حدثت ثورة البربر أيام حكمه الذي امتد من سنة ٧٣٩ إلى سنة ٧٥٧ م تقدمه لنا الروايات الإسبانية بشيء من المبالغة على انه رائد حروب الاسترداد[3]. وهو في أثناء حكمه اجتهد في العمل على استرداد أجزاء من أراضي جليقية من أيدي المسلمين كلما وجد ذلك ممكناً وأغار في أكثر من مناسبة على أراض غادرها بعض أهلها من البربر الشجعان بعد فشل ثورتهم. وفي الأراضي التي كان يستردها وتبقى تحت سيادته أقام متى أمكنه ذلك حصوناً وقلاعاً حشد فيها بعض أتباعه مع بعض المستعربين ممن كان يجدهم في المناطق التي يخليها المسلمون. استغل الفونسو الأول بصورة خاصة فترة القحط والمجاعة التي وقعت في منتصف القرن الثامن بعد ثورة البربر والتي دفعت من كان ما يزال صامداً في الشمال الإسباني من البربر إلى الهجرة والعودة إلى ديارهم الأصلية فضم كل أراضي جليقية إلى مملكته الصغيرة الفتية بما فيها مدينة ليون وما يحيط بها من سهول غنية ووصل في بعض غاراته حتى مشارف أسترغة وسمورة. وأيضاً استولى على بعض منحدرات جبال قنتبرية مما يعرف باسم قشتالة القديمة، كما مد نفوذه إلى أراضي ألبة. إلا ان سيادته على كل هذه الأراضي كانت وظلت لفترة طويلة أسمية أكثر منها واقعية إذ ما كان عند هذا الزعيم الإسباني من العناصر البشرية ما يكفي لإعمار واستغلال المناطق التي استولى عليها فبقيت شاغرة من الناس تفصل بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢ صفحة ٤١.

(٢) Historia de Espana T IV p. 43, Levi-Provencal.

(٣) Historia de Espana T IV p. 43, Levi-Provencal.

المسيحية[1]. وما كانت الأحداث المضطربة والحروب الأهلية التي سبقت ورافقت قيام الإمارة الأموية في الأندلس، إلا لتعزز نشاط الملك الإسباني وتقدم له المزيد من الفرص لاستعادة أراض كان الإسبان دوماً يعتبرون أنفسهم أصحابها الشرعيين.

ولعل خسارة العرب في الأرض آنذاك كانت تهون أمام خسارتهم لولاء البربر ومحبتهم. فمن بقوا منهم في الأندلس تحكم بهم الحقد وتسلطت عليهم عقدة الهزيمة والرغبة في الثأر فصاروا عناصر فوضى واضطراب بانتظار أي ثائر أو متمرد أو خارج على سلطان الدولة يمنحونه تأييدهم ومساعدتهم دون حساب. فما قامت ثورة أو ارتفع صوت متمرد في الأندلس إلا وكان البربر قد سارعوا للتأييد والمعاونة.

---

(١) Historia de Espana, T IV p. 43, Levi-Provencal.

الفصل السّادس

النزاعُ البَلدي ـ الشّامي

ما أن ارتاح الجنود الشاميون من المعارك والقتال حتى انصرفوا لقطف ثمار تضحياتهم وانتصاراتهم بالتمتع بما وجدوه في الأندلس من أطايب الطعـام ولذيذ الشراب ومن نساء جميلات. ما تحمل هذا برحابة صدر وتسامح «البلديون» أوائل الوافدين العرب على الأندلس. وكان هؤلاء قد تبلدوا وصاروا يعتبرون أنفسهم سكان البلاد الأصليين، لما يعطيه الفتح لصاحبه مع الزمن من حقوق واقعية، فما استساغوا رؤية الشاميين ـ وكان عددهم حوالي عشرة آلاف ـ يشاركونهم ما تحت أيديهم من ثروات وخيرات لا حدود لها ألفوا التفرد باستغلالها. ثم إنهم فوق ذلك ما كانوا يتصورون إمكانية بقاء هؤلاء في الأندلس يقاسمونهم السيادة والسلطان وربما يغيرون المعـادلات القبلية والسياسية في البـلاد. ولا بد هنـا من إضافـة الاعتبارات التاريخية التي كانت تفصل بين الشاميين والبلديين. فجل البلـديين كانوا من الحجازيين الذين هجروا الشرق بعد معركة «الحرة» التي انتصـر فيهـا الأمويون أي الشاميون. والواقع إن هذه المعركة، بما سفك فيها من دمـاء ومـا وقع فيها من مذابح ومآسي قد تركت شرخاً خطيراً في العلاقة بين أهل الشام وأهل

الحجاز. وعلى هذا فإن نفوس كثيرين من عرب الأندلس كانت تضج بالحقد والكراهية للأمويين ولأشياعهم الشاميين. وما كان عبد الملك الفهري أقل من الأندلسيين كرهاً للشاميين ولا كان أكثر منهم استعداداً للتسامح في رؤية هؤلاء يسرحون ويمرحون في رحاب البلاد بعد أن أنجزوا مهمتهم. ثم إنه فوق ذلك كان يخشى على سلطانه منهم فيما لو بقوا، لكون حملتهم كانت تضم إلى جانب بلج بن بشر القشيري عدداً وافراً من أشراف العرب وقادتهم وهؤلاء سيشكلون متى استقروا خطراً على نفوذه وسلطانه خاصة وإنه كان قد استولى على ولاية قرطبة بالقوة ودون سند شرعي أو مبرر قانوني.

لهذه الأسباب ما تردد في أن يطلب إلى الشاميين مغادرة الأندلس إلى المغرب، حاملين معهم ما حصلوا عليه من مكاسب ومغانم. فعل ذلك متناسياً ما قدم هؤلاء من تضحيات ومن خدمات للأمن في الأندلس، وما ينتظرهم من مصاعب وربما من مهالك في المغرب على يد البربر. في البداية كان موقف بلج وأصحابه منطقياً إذ أظهروا استعدادهم للخروج من البلاد، عملاً بالاتفاق السابق، وإنما اشترطوا عملاً ببنود نفس الاتفاق أن يغادروا الأندلس كلهم دفعة واحدة وإلى حيث يختارون هم من أرض أفريقيا. إلا ان عبد الملك الفهري، الذي ما كان يملك على ما يظهر الوسائل البحرية الكافية لنقلهم دفعة واحدة إلى حيث يريدون، أصر على خروجهم على دفعات وإلى مرفأ سبتة[1] بالذات من حيث أتوا وبأسرع وقت ممكن. عندها ما اعتبر بلج القشيري وأصحابه أنفسهم ملزمين بالخروج، لخروج الوالي عن نصوص الاتفاق، خاصة وانهم لو قبلوا العودة إلى سبتة لكانوا عرضوا أنفسهم للهلاك على يد البربر أعداءهم وأصحاب السيادة هناك.

ولما ألح عبد الملك بن قطن الفهري على الشاميين بضرورة الخروج من

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٤.

الأندلس أعلنوا الثورة عليه في سنة ٧٤١ م (١٢٣ هـ) وطردوه من دار الحكم إلى منزل آخر له في قرطبة ونصبوا زعيمهم بلج بن بشر القشيري مكانه والياً على الأندلس. وقد هرب أبناء عبد الملك أمية وقطن، لحق أحدهما بماردة ولحق الآخر بسرغوسة[1]. ثم ما لبث الشاميون أن أخرجوا عبد الملك من داره وكان شيخاً هرماً قد بلغ التسعين «كأنه فرخ نعامة من الكبر»[2] فقتلوه وصلبوه بثارات قديمة تعود إلى أيامهم في الحجاز وتعبيراً عن أحقادهم القديمة إذ كانوا يقولون: «أفلت من سيوفنا يوم الحرة فطلبتنا بثأرنا، في أكل الدواب والجلود، ثم أردت إخراجنا إلى القتل»[3]. وكان هذا إيذاناً باندلاع حرب بين العرب أنفسهم من بلديين وشاميين دامت حوالي سنة كاملة.

البلديون رفضوا قبول الهزيمة وما استساغوا تسليم الحكم في قرطبة لبلج بن بشر فالتحقوا بأبني عبد الملك بن قطن في أحواز سرغوسة مؤيدين لهما متضامنين معهما. وكان هذان قد أخذا يحشدان الحشود من المؤيدين والأنصار للثأر لدم أبيهما الشيخ. وكذلك انضم إلى صف هؤلاء عبد الرحمن بن حبيب الفهري، أحد قادة جيش بلج القشيري لأنه أنكر عليه مقتل عبد الملك، وعبد الرحمن بن علقمة اللخمي سيد فرسان الأندلس في زمنه، والمدافع عن وجود دولة الإسلام في غالة من مقره في مدينة ناربونة.

وبسرعة مذهلة التقى حول سرغوسة، في الثغر الأعلى، كل المتضررين تقريباً من وجود الشاميين في الأندلس وتجمع هناك حوالي مائة ألف مقاتل، على ما تقول رواية، أخبار مجموعة، وأقل من ذلك بكثير حسب روايات أخرى. وما لبث البربر أن التحقوا بجموعهم بهذه الحشود متناسين ولو مؤقتاً ما خلفته الحروب البربرية - العربية من أحقاد وثارات، وذلك رغبة في المحافظة على ما

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٦١.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٥.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٥.

كان بقي لهم من مصالح، على قلتها أصلاً، في الأندلس. وربما هدف البربر أيضاً من المشاركة في هذه الحرب الثأر للهزيمة التي أنزلها بهم الشاميون وزعيمهم بلج القشيري. وفي المعركة التي تواجه فيها الفريقان في مكان يعرف باسم «أقوة برطورة» حقق الشاميون انتصاراً ساحقاً على جموع أعدائهم، إلا انهم فقدوا في ساحة القتال زعيمهم بلج بن بشر القشيري الذي قتله بيده عبد الرحمن بن علقمة اللخمي[1]، حاكم ناربونة. هزيمة عرب الأندلس من يمنيين وحجازيين هذه تردد صداها في أرجاء العالم الإسلامي ووصل في دمشق إلى أسماع الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أدرك أبعادها الحقيقية وتخوف من امتداد آثارها إلى مناطق أخرى مثل بلاد الشام حيث العصبيات العربية كانت ما تزال حية فاعلة. ومما زاد في مخاوف الخليفة ما كان يصله من أصوات يرفعها إليه بعض عقال الأندلسيين تشكو إليه الممارسات القمعية والمتسمة بالحزبية الضيقة التي صار يمارسها ثعلبة بن سلامة العاملي الذي خلف القشيري على ولاية قرطبة. ومع إن ثعلبة هذا، كان رجلاً قوياً حازماً، حاول تهدأة الخواطر والسيطرة على الأحقاد والغرائز لإعادة الأمور إلى نصابها إلا ان تردي أوضاع الأندلس وانتشار مراكز القوى المتصارعة في المناطق كانا أقوى وأفعل من إرادته الطيبة. بل إنه هو بالذات ما لبث أن انجرف في سياسة حزبية متطرفة ضد البلديين و«كان يبيع ذراري أهل البلد ويحملهم أسراً، ويرهقهم من أمرهم عسراً»[2].

ولمعالجة هذه الأوضاع انتدب الخليفة هشام بن عبد الملك في سنة ٧٤٣ م (١٢٥ هـ)[3] أبا الخطار بن ضرار الكلبي، والياً من قبله على الأندلس يرضى به الشاميون لأنه من وجهاء بلاد الشام ولا يعترض عليه البلديون لأنه من وجهاء ومقدمي اليمنيين.

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٦١.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢ صفحة ٤٧.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٧.

عالج أبو الخطار مشاكل الأندلس، بحزم وقوة، وأيضاً بحكمة وروية. لقد أدرك انه لا يستطيع أن يعيد الشاميين إلى المغرب لما قد يتهددهم هناك من أخطار ومهالك فعمل على توزيعهم في مناطق الأندلس. أهل حمص أنزلهم في أشبيلية وما جاورها، وأهل دمشق أحلهم في غرناطة، وأهل الأردن أعطاهم مالقة، أما أهل مصر فقد أرسلهم إلى مرسية والمناطق المحيطة بها. وفي كل منطقة أعطاهم أراضي واسعة يستغلونها بشكل إقطاعات يعيشون من خيراتها. وبتوزيع الشاميين على هذه الصورة أرضى البلديين بعض الشيء لأنه قضى على القوة العسكرية لأخصامهم وشتتهم فأزال خطر تسلطهم على البلاد وقضى على إمكانية هيمنتهم على قرطبة مركز الحكم والدولة. سياسة أبي الخطار هذه أشاعت الأمن والاستقرار في الأندلس لفترة كان يمكن أن تطول لولا ان رياح العصبيات والصراعات القبلية ما لبثت أن هبت على الأندلس وافدة هذه المرة من بلاد الشام على صورة صراع بين القيسيين واليمنيين.

الفصل السابع

النزاع القيسي - اليمني

حمل العرب مع ما حملوه، من مواطنهم، إلى شبه الجزيرة الإيبرية من عادات وتقاليد وثقافة انقساماتهم القبلية وخصوماتهم العشائرية، وأيضاً أحقاداً تفرقهم وتعود إلى عصور مغرقة في القدم. فهم حين نزلوا في إسبانيا ما نسوا ان بعضهم كان من عرب الشمال أو القيسية وبعضهم من عرب الجنوب أو اليمنية - والأسوأ من ذلك إنهم كانوا يحفظون في ذاكرتهم ما كان يفرق بينهم دوماً من حروب وعداوات تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام.

وإذا كان من المعروف والمسلم به ان القبائل العربية تعود كلها إلى أصول سامية، فإنها ومنذ عصور قديمة استقرت في مناطق متباعدة وشديدة الاختلاف. القحطانيون استقروا في بلاد اليمن في الجنوب من شبه الجزيرة العربية حيث المناخ المعتدل والأرض الخصبة والمياه الوفيرة والموقع المميز من حيث إشرافه على ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندي. لهذا تقدم كثيراً أبناء هذه القبائل وبرعوا في الزراعة كما في شؤون التجارة وخاصة الدولية منها. وكان لهؤلاء دول لعبت أدواراً حضارية هامة في العصور القديمة كالدولة المعينية (٦٥٠ -

١٢٠٠ ق م) والدولة الحميرية (١١٥ ق م - ٣٠٠ ب م). وعند انفجار سد مأرب في اليمن حوالي سنة ١٢٠ ق م هاجر كثيرون ممن تضرروا من ذلك إلى الشمال واستقروا في بعض مناطق شمال شبه الجزيرة العربية حيث تتوفر الأراضي الخصبة والمناخ الملائم بعض الشيء. والعدنانيون استقروا في بلاد الحجاز من شمال شبه جزيرة العرب، منعزلين على أنفسهم في صحارى ذات مناخ حار جاف مما جعل تعرفهم إلى الحضارة بطيئاً ومحدوداً، حتى إن مشاركتهم في التجارة الدولية المارة عبر شبه الجزيرة كانت أقل مما حصل عليه اليمنيون. وحين بدأ الاختلاط بين الفريقين يكثر لضرورات التعايش خاصة في العصر السابق لظهور الإسلام (الجاهلية) كانت الفروقات في اللهجة والمستوى الحضاري والتاريخ والمصالح الاقتصادية كبيرة وبارزة بحيث كانت قادرة على أن تعطي لكل من الفريقين طابعه الخاص المميز. وما كان مثل هذا إلا ليثير بينهما من المنافسات والخلافات والبغضاء الشيء الكثير والمتزايد مع تقدم الزمن بحيث ما كان أحد من الفريقين مستعداً لتقبل سيادة الفريق الآخر وحكمه.

ومع ظهور الإسلام وانتشاره في صفوف القيسية واليمنية على السواء فإن الخلاف بين الفريقين غاب عن الواجهة، دون أن يزول من الصدور والعقول، خاصة في حياة الرسول. إنما يبدو ان الإسلام وما رافق ظهوره وانتشاره خارج شبه الجزيرة العربية ما كان إلا ليعطي هذا الصراع أسباباً كثيرة تعمل على تأجيج نيرانه وزيادة لهيبه. بل يبدو ان الخلاف الذي ظهر بعد وفاة الرسول بين المهاجرين والأنصار ما كان في بعض جذوره بعيداً عن الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب. ومع قيام الدولة الأموية ظهر هذا الصراع عنيفاً مدمراً ومأساوياً في بلاد الحجاز كما في بلاد الشام. ويتحمل خلفاء بني أمية مسؤولية كبيرة في هذا المجال. ذلك إن أكثرهم ما كان يتردد في اللجؤ إلى هذا الانقسام يعتمد على فريق ضد الآخر لتقوية حكمه والقضاء على أخصامه مما قوى كثيراً من حدة الصراع القيسي - اليمني ومما سيكون أحد أبرز أسباب القضاء على الدولة الأموية.

وما استجد من مآسي ومذابح بين الفريقين في ظل دولة الإسلام وخاصة أيام

الأمـويين في بلاد الشـام ما كان إلا ليقـوي جذور ذلك الانقسـام ويزيد الـكره والأحقاد بين فريقيه. والواقع إن معركة الحرة التي أنهى بها الأمويون بصورة دموية ثورة قام بها سكان «المدينة» والتي قتل أو ذبح فيها عدد كبير من حفظة القرآن ومن صحابة رسول الله ومن التابعين قد خلفت من الأسى والمرارة في نفوس اليمنيين ما لا حد له خاصة وان الجيش الشامي المهاجم كان جل جنوده من القيسيين. ثم إن ما جرى بعد ذلك في معركة «مرج راهط» أثناء القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وما سفك من دماء على أيدي الجيوش الشامية الأموية ما كان إلا ليزيد في حقد كل فريق على الآخر.

وإذا علمنا ان الكثيرين من الناجين من معركة الحرة هاجـروا، هربـاً من بطش الأمويين، إلى شمال أفـريقيا ورافقـوا موسـى بن نصير في حملتـه علـى الأندلس وحلوا بعد ذلك هناك ومعهم حتماً أحقادهم ضد القيسيين حلفاء بني أمية وأنصارهم آنذاك أدركنا أية مصيبة حملها العرب معهم إلى شبه الجزيرة الإيبرية. صحيح ان المسلمين في الأندلس شغلوا منذ سنوات الفتح الأولى وحتـى سنـة ٧٣٢ م وهزيمتهم في معركة «بلاط الشهداء» بأمـور تركيز دعائـم الفتـح وأيضـاً بأعمـال الغـزو والتوسـع في ما وراء جبـال البيرينيه متنـاسين خلافاتهـم القبلية والحزبية يساعدهم في ذلك كون القيسيين كانوا في تلك الفترة قلة بين مسلمي إسبانيا. ولكن من المؤكد ان النار كانت دوماً تحت الرماد. ورأينا كيف ظهـرت بشكل سافر أثناء ثورات البربر في شمال أفريقيا، وحين استنجـد بلـج بن بشـر القشيري وجنده المحاصرين طالبين من والي الأندلس إنقاذهم من موت محقق.

ومع ان الوالي أبو الخطار بن ضرار الكلبي قد تصرف في مطلـع ولايتـه بمنتهى الحكمة والحذر وأشاع العدل والمساواة بين الجميع إلا ان شديد ولائه لليمنية وما يحمل من أحقاد في قلبه للقيسيين ما لبثا أن أخذا يميلان به تدريجياً نحو موقف أقل حياداً وأبعـد عن النزاهـة. وكان يحـدث ذلك في وقـت كانـت الخلافات القبلية هذه في بلاد الشام قد فرقت المسلمين ودفعتهم إلى حروب أهلية وصراعات سياسية حادة وضعت الدولة الأموية كلها على درب الزوال.

انقسم الأندلسيون إلى يمنيين، وهم الأكثرية بين مسلمي إسبانيا، بزعامة الوالي أبي الخطار بن ضرار الكلبي وقيسية أوكلت زعامتها إلى الصميل بن حاتم حفيد الشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين في كربلاء وأحد رموز الانقسامات القبلية بين المسلمين. ومن خلاف بين رجلين كل منهما من حزب احتكما إلى أبي الخطار فمال إلى اليمني، بحق أو بغير حق، بالرغم من تدخل الصميل بن حاتم مما أدى إلى خلاف بين الرجلين الكبيرين. ومن هذا الخلاف الصغير اندلعت الحرب بين الحزبيتين على طول مجرى نهر الوادي الكبير في قلب الأندلس. وقد شغلت هذه الحرب المدمرة ومعها الخلاف القيسي ـ اليمني كل السنوات الأخيرة من عصر الولاة وألهت حكام الأندلس وعقالها عن الاهتمام بأي أمر آخر. وما استطاعت حكومة دمشق في ذلك الوقت أن تتدخل مصلحة وحاسمة وكما فعلت أكثر من مرة في السابق لأن خلافة بني أمية كانت آنذاك قد دخلت صراعها مع العباسيين.

هزم أبو الخطار ومعه جموع اليمانية في معركة بالقرب من شذونة في سنة ٧٤٥ م (١٢٨ هـ) ووقع هو نفسه في الأسر، وتسلم السلطة في قرطبة ثوابة بن سلامة الجذامي قائد جيوش التحالف وزعيم قبيلة جذامة اليمنية المتحالفة هي ولخم مع الصميل والقيسيين لخلاف خاص مع أبي الخطار واليمانية. بقي ثوابة سنة يحكم في قرطبة بينما الزعامة الفعلية للصميل زعيم القيسيين. وبوفاته في أواخر سنة ٧٤٦ م (محرم ١٢٩ هـ) طرحت مجدداً مشكلة ولاية الأندلس في وقت ما كان باستطاعة دمشق أو القيروان القيام بعمل فعال، كما ذكرنا سابقاً. أظهر الصميل مجدداً الكثير من الحكمة والتعقل ومال عن مباشرة السلطة بنفسه منعاً للأحقاد ولكي لا يثير أخصامه المهزومين. عمل على إعطاء الولاية إلى فهري من وجهاء الأندلس هو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن عبيد الله بن عقبة بن نافع. كان هذا الرجل عظيم المكانة عند الجميع لكونه حفيداً لعقبة بن نافع وأيضاً لتقدمه في السن ولترفعه دائماً عن العصبيات والصراعات الحزبية. ومع هذا فقد ظهرت أنانيات كثيرة وقامت أعمال التمرد والعصيان في أكثر من منطقة مما كان

يشيع جواً قريباً من أجواء الحروب الأهلية. إلا ان الصميل عرف دائماً بذكائه النادر كيف يحتفظ بالسلطان لصديقه وحليفه الفهري وينزل بالمتمردين أكثر من هزيمة.

لم تتقبل اليمنية عموماً تعيين يوسف الفهري والياً على الأندلس خلافاً لما افترض الصميل. عملت قضاعة على مساعدة أبي الخطار على الفرار من سجنه فتجمع حوله اليمنيون وأخذ يدعو لمقاومة الفهري وحليفه. وهكذا تحالفت أفضل القبائل اليمنية من حمير وكندة ومذحج وقضاعة واختارت لقيادتها يحي بن حريث والي كورة رية الذي كان الفهري قد عزله[1]. وكذلك تجمعت أكثرية القبائل القيسية بحماس لا حد له حول يوسف الفهري وصديقه الصميل بن حاتم. زحف اليمنيون بزعامة يحيى بن حريث ومعهم أبو الخطار على قرطبة وحلوا بقرية شقندة القريبة منها[2]. وحين تواجه الجمعان في ساحة القتال كان المسلمون قد أنقسموا فعلاً إلى قيسيين ويمنيين وبشكل واضح تحدوهم صراعات قبلية عنيفة وتتفاعل في ذواتهم أحقاد وضغائن قديمة جاؤوا بها معهم من مواطنهم الأصلية. كان انقسام الأندلسيين عنيفاً وحاداً بحيث «لا يعرض أحد لأحد فيودع بعضهم بعضاً حتى يلحق كل رجل بقومه وهي أول حرب كانت في الإسلام بهذه الدعوة، لم تكن حرب قبل هذه الوقيعة وهي الفتنة العظمى التي بها يخاف بوار الإسلام»[3]. نتيجة المواجهة كانت مجزرة رهيبة لحقت باليمنيين ومات منهم خلق كثير بينهم زعيمهم أبو الخطار نفسه ولم «يعهد حرب مثلها في المسلمين»[4]. وكان للصميل دور بارز وأساسي في ساحة القتال وما تردد في أن يشرف بنفسه على قتل كبار أسراه من اليمنيين مما زاد في حدة العداء لشخصه في الأندلس.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٥٢ ـ أخبار مجموعة، صفحة ٥٨.
(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٥٩.
(٣) أخبار مجموعة، صفحة ٥٩.
(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٥٣.

هذا الانتصار رفع من مكانة الفهري وثبت دعائم حكمه في قرطبة، بعد انكفاء اليمنيين سياسياً بسبب هزيمتهم العسكرية، فمال إلى الانفراد بالسلطة. وقد رأى، لتحقيق ذلك، أن يبعد صديقه الصميل بن حاتم إلى سرغوسة حيث عينه والياً على منطقة الثغر الأعلى. وهو ربما رأى في ذلك تهدئة لخواطر اليمنيين لما صار عند هؤلاء من عداء للزعيم القيسي. ما راقت هذه الخطوة كثيراً للصميل، مع انه قبل بها، إذ كان يعتبر نفسه المنتصر الحقيقي في الحرب القيسية اليمنية مما يعطيه الحق في أن يتصرف على أساس إن «ليوسف الاسم وللصميل الرسم»[1].

ومن سؤ حظ الأندلسيين إن هذه الحروب الأهلية رافقتها وتبعتها موجة من القحط تلتها مجاعة بسبب استطالة الحروب وانشغال المزارعين بالقتال وأيضاً لعدم ملائمة الأحوال الجوية. دامت الأزمة الاقتصادية حتى نهاية عصر الولاة. لم يستطع اليمنيون، وهم جل سكان الأندلس من العرب، تحمل وطأة الحكم القيسي رغم الأزمة الاقتصادية الآخذة برقاب البلاد والعباد ورغم المجاعة الضاربة في أكثر من منطقة. وبالمقابل واجه الصميل بن حاتم المجاعة في مناطق الثغر الأعلى بنبل وتسامح فما كان يفرق بين يمني أو قيسي في إعطياته. كان يصرف من مال الدولة ومن أمواله الخاصة على إمداد الجائعين والمعوزين من الفريقين بكرم لا حدود له.

وأشراف العرب من القريشيين ما تحملوا كثيراً وطأة حكم الثنائي: الصميل بن حاتم ويوسف الفهري، إذ كانوا يرون في هذا الأخير، على نبل محتده، قرشياً ولكن من الصف الثاني باعتبار ان قومه الفهريين ليسوا من أهل مكة وإنما من أبناء منطقتها وضواحيها. تآمر بعض القريشيين مع أهالي سرغوسة وأحوازها، وجلهم من اليمنيين وبعض البربر وألقوا حصاراً على الصميل في قصره يرمون عزله أولاً

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٥٣.

ثم التخلص من صديقه وحليفه والي قرطبة. وما تمكن الصميل من الخلاص من المتآمرين عليه ومن ورائهم من أخصام أقوياء هم سائر اليمنيين في الأندلس إلا بنجدة وافاه بها بسرعة القيسيون إلى أن تمكن يوسف الفهري من القضاء على حركة التمرد بشكل تام.

هزائم اليمنيين المتوالية، جعلتهم بعد هزيمة سرغوسة، يأخذون في حياتهم نهجاً جديداً. مالوا عن السياسة وابتعدوا عن طلب الحكم والسلطان وتعاطوا الزراعة والتجارة فبرعوا فيهما وصار بعضهم من أصحاب الثروات الكبيرة. وأيضاً بعض فتيانهم مالوا إلى طلب العلم والاهتمام بالشعر والأدب فصار منهم أئمة ورواة حديث وعلماء ساهموا في نشر الإسلام بين الإسبان وأشاعوا في طول البلاد لهجتهم اليمنية وعاداتهم وتقاليدهم خاصة بين أبناء المدن والحواضر الكبرى.

هذه الأحداث الأخيرة كلها صادفت وصول شاب شريد إلى بلاد المغرب، أتى من المشرق بعد القضاء على سلطان أسرته الأموية، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي سيعرف فيما بعد باسم عبد الرحمن الداخل. اعتقد هذا الشاب، انه ربما استطاع أن يستفيد من أحداث الأندلس وحروبها وخلافات أهلها ليقيم لنفسه ملكاً ويبعث في أقصى غرب دولة الإسلام ما قضى عليه العباسيون في المشرق من دولة لبني أمية. وبفضل نشاط وحيوية نفر من موالي بني أمية كانوا يقيمون في الأندلس أمكن تحويل هذا الحلم إلى حقيقة وظهرت إلى الوجود في سنة ٧٥٦ م (١٣٨ هـ) الإمارة الأموية في قرطبة.

الباب الثالث

عَصرالإمَارَة الأمويَّة

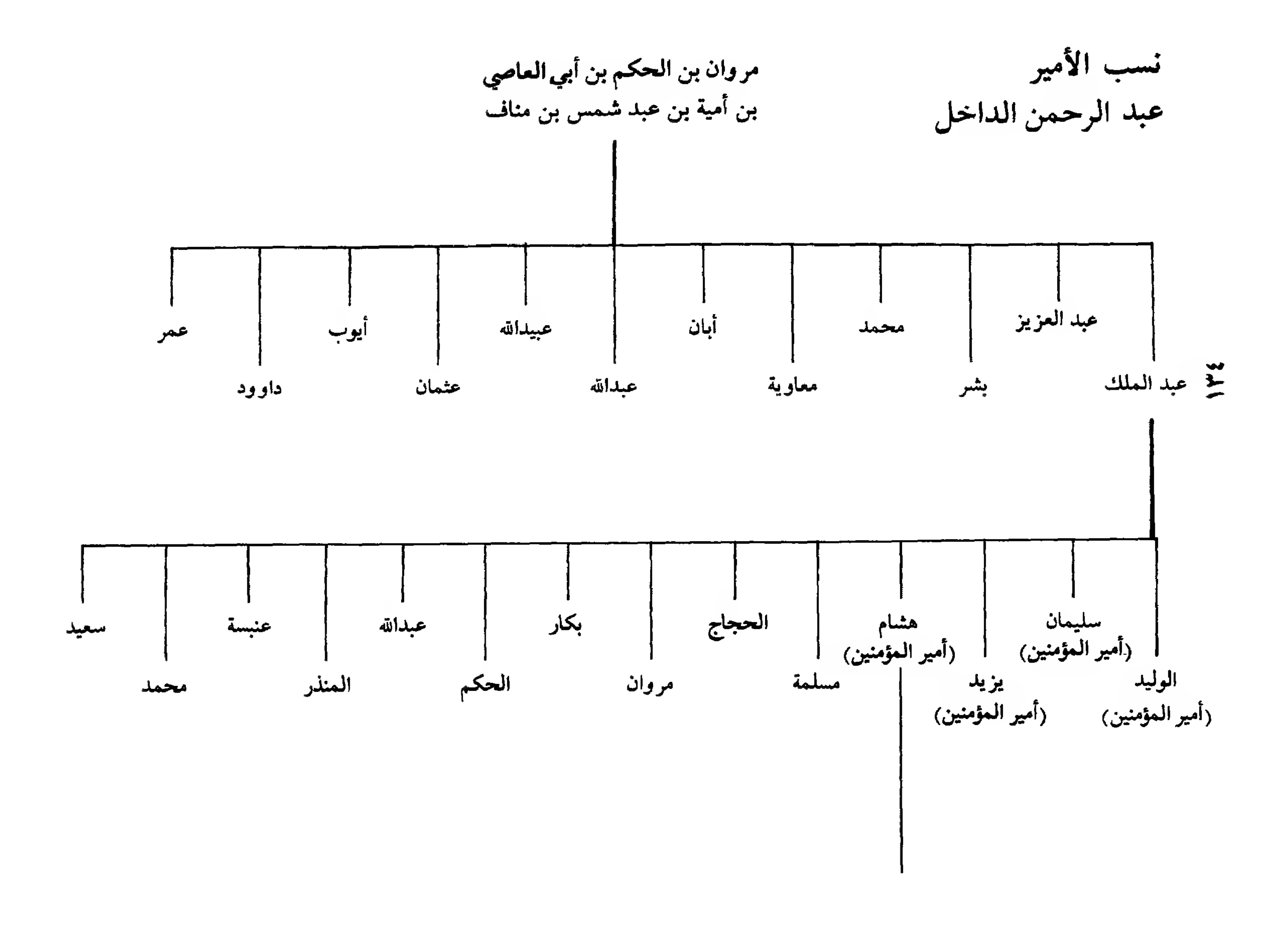
الفصل الأول

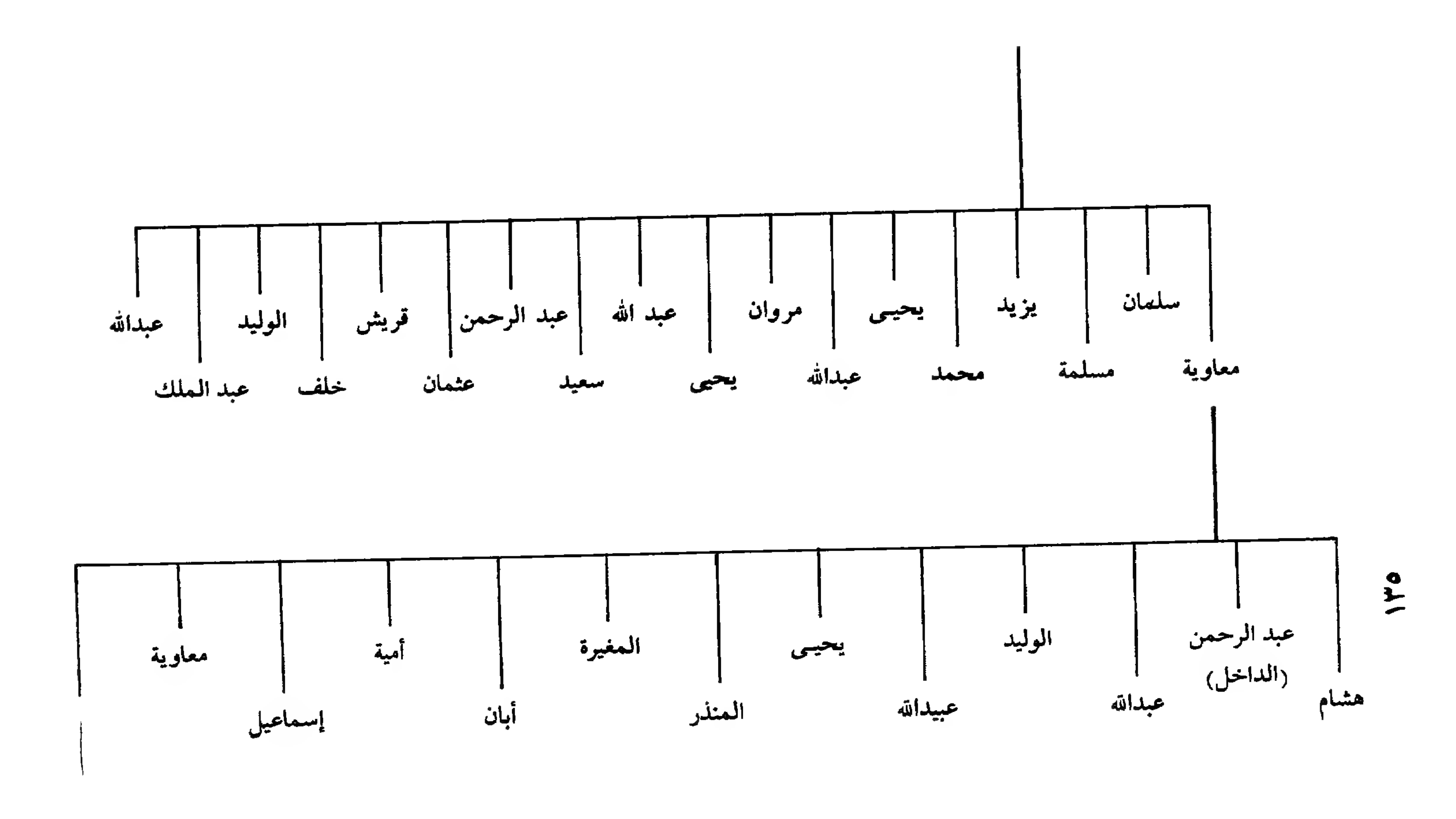
عبد الرحمن بن معاوية

في منتصف القرن الثامن للميلاد كان القطر الأندلسي يمر بأزمات حادة تضعف من قدراته على الصمود وتعصف بركائزه التي اجتهد أوائل الرواد المسلمين لإقامتها بالدماء والتضحيات. فالفتوحات وراء جبال البيرينيه انتهت إلى نتائج سلبية، خاصة بعد هزيمة الغافقي في معركة بلاط الشهداء، وبدأت في غالة حروب استرداد الأراضي المفتوحة من المسلمين. وحركة التمصير كانت تتعثر أحياناً، وتسير ببطء أحياناً أخرى مما كان يجعل شبه الجزيرة تبدو إسبانية أكثر منها أندلسية. ثم إن الحساسيات والانقسامات القبلية والعنصرية والجنسية كانت تشغل الأندلسيين وتعوق قيام وحدة وطنية ومجتمع متجانس. كل هذا رفع من معنويات بقايا المقاومة القوطية في شمال غرب إسبانيا وأمدها بالعزيمة والأمل. وقد جاءت ثورات البربر وجلاء معظمهم عن أراضي شمال وغربَ الأندلس ليحول هذا الأمل إلى حقيقة واقعة عندما بدأ الإسبان يتوسعون في هذه المناطق مستعيدين بعض ما فقده آباؤهم في مطلع القرن لحساب دولة الإسلام.

وما كان للمخلصين الغيارىَ على وجود الإسلام في شبه الجزيرة الإيبرية أن

نسب الأمير عبد الرحمن الداخل




معاوية
سلمان
مسلمة
يزيد
محمد
يحيى
عبدالله
مروان
يحيى
عبد الله
سعيد
عبد الرحمن
عثمان
قريش
خلف
الوليد
عبد الملك
عبدالله
هشام
عبد الرحمن
(الداخل)
عبدالله
الوليد
عبيدالله
يحيى
المنذر
المغيرة
أبان
أمية
إسماعيل
معاوية

ينتظروا الإنقاذ من الداخل وعلى أيدي ولاة وزعماء وقادة مزقتهم الخلافات السياسية وأبعدت بين أتباعهم الصراعات على المصالح الدنيوية والمكاسب المادية. في هذا الوقت بالذات لاح بريق أمل بالخلاص والإنقاذ حين نزل على سواحل الأندلس أمير من الأمويين يحمل في قلبه آمالاً عراضاً ومطامح واسعة، ويقدم للأندلسيين الأمل والقدرة على السير وإياهم في دروب الاستقرار والوحدة هو عبد الرحمن بن معاوية. فمن هو عبد الرحمن هذا الذي ساقه القدر إلى الأندلسيين ليكون خشبة خلاص من الوضع اليائس الذي كانوا يتخبطون فيه؟ ومن أين أتى؟ وكيف وصل إلى الأندلس؟.

عبد الرحمن في المغرب:

بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق على يد العباسيين اندفع هؤلاء مع أحقادهم الدفينة والقديمة فانساقوا في موجة شديدة القسوة يعملون سيوفهم في رقاب الأمويين. لم يوفروا شاباً أو شيخاً أو طفلاً متى وصلت يدهم إليه. لاحقوهم في كل مكان وصبوا عليهم كل ما كان قد تجمع في صدور المعارضين للحكم الأموي، وما كانوا قلة، من كره وضغينة. لذا هرب كثيرون من وجوه بني أمية لهم أسماء وأقدار فتغيبوا عند من أواهم من العرب وأفناء الناس، فما وجدت سيوف العباسيين إلى رقابهم سبيلاً[1]. أمام هذا الواقع ما تردد أمير الشام من قبل العباسيين عبد الله بن علي في اللجؤ إلى المكر والخديعة فأعلن وأشاع في كور الشام وعساكره «إن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان في بني أمية»[2] وأعطاهم أماناً وأمر بأن لا يتعرض لهم أحد بمكروه. وفعلاً وببراءة وربما بخفة قبل هذا الأمان وأخذه على محمل الجد والصدق كثيرون من كبار الأمويين ووجوههم فخرجوا من مخابئهم، وبعضهم حل في دمشق أو في منازل ودور يملكونها في الأرياف بصورة علنية. ومع انتشار خبر هذا الأمان عاد إلى الظهور العلني جل الأمويين من

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٤٧.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٤٧.

مصريين وعراقيين ومدينيين وكأنهم قد اطمأنوا كلياً إلى نوايا الدولة العباسية حيالهم. وبعد أن بالغ عبد الله بن علي في تطمين الأمويين المتواجدين في الشام وإغداق المواثيق والعهود عليهم، دعاهم إلى مأدبة في داره ثم غدر بهم وذبحهم ذبح النعاج وكان عددهم نيفاً وسبعين رجلاً من وجوه بني أمية. «ثم اشتد الطلب على بني أمية فهربوا في الآفاق وكانوا يسمعون في الروية إن مستراحهم بالمغرب فنزع أكثرهم إلى أفريقيا»[1]. كان والي شمال أفريقيا عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فتجاوب مع هذه النزعة واستقبل بالترحاب من لجأ إلى بلاده من الأمويين فأعطاهم الأمان وقدم لهم أسباب الإقامة والعيش.

وكان من النفر القليل الذي نجا من سيوف العباسيين، من أمراء بني أمية، أمير شاب عرف بالطموح والجرأة واتصف بالإقدام والشجاعة هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم المولود سنة ٧٣١ م (١١٣ هـ) في إحدى قرى قنسرين. تخلص هذا الأمير من موت مؤكد على أيدي عمال العباسيين بطريقة فذة اعتمدت على الذكاء والدهاء وروح المغامرة أيضاً. وقد ترك لنا قصة نجاته وهربه من المشرق في رواية شيقة نقلها إلينا بأسلوب قصصي وافي التفاصيل صاحب كتاب أخبار مجموعة[2]. ذكر اله عندما اشتدت وطأة الدولة العباسية على الأحياء من الأمويين لجأ هو إلى دار يملكها في قرية على ضفة نهر الفرات فراراً من ملاحقيه بانتظار ظروف أفضل تسمح له بالهرب بعيداً. وحين كشف أمره وتعرف عمال العباسيين إلى مكان وجوده فر من وجههم وعبر نهر الفرات سباحة قبل لحظات من وصولهم إليه، في حين ما استطاع أخ له أصغر منه النجاة من سيوفهم لحظة نزوله إلى المياه. ومن هناك مضى متخفياً حتى حل في كورة فلسطين[3]. وألحقت به أخته غلامه بدراً وآخر لها اسمه سالم

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٥٠.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٥٢.

(٣) أخبار مجموعة، صفحة ٥٤

ومعهما بعض المال وشيء من الجوهر ليتدبر أمر وصوله إلى موطن يأمن فيه على نفسه. برفقتهما توجه نحو البلاد المصرية حيث الولاء للأمويين كان ما يزال حياً فاعلاً مما يدفع عنه الخطر العباسي. أقام في مصر بعض الوقت ثم خرج قاصداً القيروان عاصمة الشمال الأفريقي. وبوصوله إلى هذه المدينة وجد ان صاحبها عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد تغير موقفه ممن عنده من الأمويين، بعد أن تكاثروا في بلاده وحوله فبات يخشى منهم على نفوذه وسلطانه، وأيضاً ربما ما عاد يجد وجودهم في ولايته مناسباً في وقت جنح فيه لإعلان تأييده للعباسيين في الظاهر على الأقل. عبر بعد ذلك إلى أراضي البربر فجال فيها بعض الوقت إلى أن حل ومرافقاه في ضيافة وحماية شيخ كبير من زعماء قبيلة مكناسة يدعى وانسوس استراح بقربه وأنس إلى معاشرته. وكان أن اتجه بعد ذلك، وبعد خمس سنوات من السفر والمغامرة ومواجهة الأخطار والتحديات، إلى مدينة طنجة ينزل فيها بين أهله وأقاربه، إذ كانت أمه من قبيلة نفزة البربرية الضاربة في أحواز هذه المدينة، مطمئناً إلى حياته بصورة تامة بعد طول فزع وخوف على الحياة والمصير.

وهنا قد يتبادر إلى الأذهان سؤال هام: لماذا قصد عبد الرحمن بلاد المغرب الأقصى بالذات؟ وهل كان ذلك مصادفة ساقتها الأقدار؟ أو إن تسلسل الأحداث قاده دون قصد أو تخطيط إلى حيث صار؟ أم إنه ما صار هناك إلا لأنه كان يخطط لأمر ما؟ أم لأنه سار على خطى من هم أكبر منه سناً أو أعلى مقاماً فتبعهم إلى القيروان حيث صاروا قبله؟ المصادر التاريخية الإسلامية لا تمدنا بما يكفي من الأخبار والمعلومات للإجابة بدقة عن مثل هذه التساؤلات. فما تخبرنا به عن حياة الأمير المغامر وخاصة في الفترة السابقة لقيام إمارته في الأندلس ليس بالوافر ولا بالدقيق. إنما يبدو على الأرجح انه تعمد اختيار المغرب ملجأ له، طمعاً بحماية يجدها عند عشيرة أمه، ولأنه كان يعرف ان سكان شمال أفريقيا، والبربر منهم خاصة، ما كانوا شديدي الولاء للحكومة المركزية وعمالها، ولأنه وبحكم صلته بالأوساط النافذة كان يعلم ان سلطان هذه الحكومة، ونتيجة لما تعرضت له في أواخر أيام الخلافة الأموية من مصاعب وثورات يضعف كلما بعد عن مقرها في

العاصمة. وأكثر ما كان يبدو هذا الضعف في ولاء الناس في مصر وتونس للحكم العباسي الجديد. ولا بد من الإشارة هنا إلى عامل شخصي، ذكره عبد الرحمن نفسه، ربما لعب دوراً في توجيه أفكاره وأحلامه نحو المغرب الأقصى. روى عبد الرحمن ان حكيم بني أمية مسلمة بن عبد الملك، عندما رآه لأول مرة قبله وبكى بكاءً شديداً وأوصى به جده وكافله هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين قائلاً: «إنه صاحب بني أمية ومحي دولتهم بعد زوالها»[1]. ويؤكد عبد الرحمن إن جده هشام بن عبد الملك، الذي كان يكفله، باعتبار ان والده توفي وتركه طفلاً صغيراً، مع إخوته كان يؤثره ويتعهده بالصلة[2] وانه كانت له عنده دالة ومكانة تميزانه عن أترابه من الإخوة وأبناء العمومة. ويؤكد الأمير ان هذه الحادثة قد خلفت في نفسه أثراً كبيراً وظل ولفترة طويلة من شبابه يشعر بان تلك النبؤة توجه أحلامه وربما مساعيه إذ يقول: «فكانت تلك في نفسي مع أشياء كانت تذكر». بالطبع النبؤة لم تحدد البلد الذي ستبعث فيه أمجاد بني أمية، إنما زرعت هاجساً في نفس الأمير الفتى رافقه في حله وترحاله. ثم إنه لما كان يجد ان أفضل ملجأ يمكن أن يأوي إليه هو بلدان الشمال الأفريقي للاعتبارات التي ذكرناها آنفاً، فربما ارتبطت في ضميره أو في عقله اللاواعي تلك النبؤة بتلك الأرض.[3] ولا ندري ما إذا كان قد أدرك عند وصوله إلى القيروان وحلوله في ولاية «أفريقية» استحالة إقامة إمارة لنفسه على تلك الأرض، في وقت كان فيه البربر ما نسوا بعد ما عانوه من ظلم بعض عمال الأمويين وتعصبهم عليهم، وأيضاً بسبب شدة حرص الوالي عبد الرحمن بن حبيب على نفوذه وسلطانه، إنما المؤكد ان أخبار الأندلس كانت تشد انتباهه وتثير في نفسه دوماً الكثير من العناية والاهتمام إذ ان مرافقه، ومولى أخته سالماً، طالما حدثه عن شبه الجزيرة الإيبرية وعن دروبها ومسالكها، وزوده بالكثير من أخبارها وقصص

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٦١.
(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٥٢.
(٣) أخبار مجموعة، صفحة ٥٣.

أهلها ذلك إنه «دخلها مع ابن نصير أو بعده وغزا صوائف الأندلس»[1].

عبر ذلك المعبر، مضيق جبل طارق، الفاصل بين سواحل جنوب الأندلس والشواطىء المغربية بين مدينتي سبتة وطنجة، حيث حل عبد الرحمن في أواخر أيام إقامته في شمال أفريقيا، كان الرسل والمسافرون كثيرون وكانوا ينقلون لمن في المغرب أخبار اضطراب أوضاع الأندلس وضياع وحدة شعبها مما ينذر بإمكانية زوال دولة الإسلام فيها. وكان في هذه الأخبار ما يفسح في الآمال العراض أمام أمير ضاع ملك آبائه وما كان زاهداً في بعثه ولو في أقاصي الأرض. ما تأخر عبد الرحمن كثيراً في إدراك أهمية الفرصة المتاحة أمامه. مما صار عنده من أخبار ومعلومات اعتقد بأنه يستطيع الإفادة من الفراغ السياسي في الأندلس والمرور عبره إلى السلطة، إذا عرف كيف يقيم لنفسه هناك ركائز سياسية قوية. كان يعرف ان في الأندلس جالية عالية المكانة من موالي بني أمية، منهم من حل هناك في سنوات الفتح الأولى، ومنهم من جاء مع حملة بلج القشيري، وكثيرون وصلوا فرادى منذ أن بدأت شمس الخلافة الأموية في المشرق تميل إلى الزوال. ويقدر المؤرخون العرب عدد هؤلاء بحوالي أربعماية رجل في حين يرى بعض الباحثين المعاصرين، ومن هؤلاء الدكتور مؤنس، ان عددهم لا بد أن يكون أكبر من ذلك بكثير[2] نظراً لما كان لهم من فعالية وقدرات على توجيه الأحداث في تلك الديار ولما أظهروه من دور واسع في المجتمع الأندلسي. كان هؤلاء يتمركزون بصورة أساسية في كورتي ألبيرة وجيان وفي مناطق أخرى قريبة ولكن بكثافة ضئيلة. وكان هؤلاء قد أفادوا كثيراً من الدولة والسلطة، خاصة حين كانت الأندلس تتبع فعلاً حكومة دمشق فجمعوا ثروات كبيرة وأقاموا لأنفسهم دعائم قوية في الإدارة كما في القضاء، وفي أوساط المال والتجارة حيث صار لبعضهم ثروات ضخمة. وكانوا بصورة خاصة على علاقة ممتازة مع آخر ولاة الأندلس، يوسف الفهري، وصديقه

---

(١) اخبار مجموعة، صفحة ٥٥.

(٢) فجر الأندلس، مؤنس، صفحة ٦٦٧.

زعيم القيسية ورجل الأندلس القوي الصميل بن حاتم.

إلى هؤلاء الموالي توجه عبد الرحمن، عبر رسوله إليهم حاجبه بدر، برسالة يشكو فيها ما حل بالأمويين «ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم... ويعرض إنه إنما يريد الاعتزاز بهم وإن يمنعوه وأن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس أن يعلموه»[1]. وفي قرية طرش حيث كان يقيم كبير الموالي الأمويين أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وبحضور صهره عبد الله بن خالد بن أبان، سلمه الحاجب بدر الرسالة. تشاور الزعيمان الأمويان في أمر عبد الرحمن وفي طلبه فرحبا بعرضه وأقرا بحقه عليهما وعلى أتباعهما ووجدا في تحقيق ذلك تدعيماً لوجود الأموية في الأندلس وحماية لمصالح مواليها. إنما مشكلة موالي بني أمية كما رآها الرجلان، إنهم مع عظيم ولائهم للبيت الأموي لا يمكنهم أن يكونوا ركيزة قوية لحكم ثابت ومستقر، لقلة عددهم. ومن هنا كان لا بد، لضمان نجاح قضية عبد الرحمن، من الاعتماد على إحدى العصبيتين الكبيرتين في البلاد: القيسية أو اليمنية.

في اتصال أول أقامه الموالي الأمويون مع صديقهم وحليفهم الصميل بن حاتم رحب هذا بعرضهم وقابل بدراً واستمع إليه وأكرمه ببعض المال، إنما استمهلهم بعض الوقت لدراسة الأمر مع الوالي. اطمأن هؤلاء إلى أقواله وأظهروا الرغبة في الذهاب مع أتباعهم في حملة يعدها يوسف الفهري للقضاء على ثورة قام بها بعض القرشيين في أحواز سرغوسة. إلا أن الموالي الأمويين كانت تشغلهم في الحقيقة قضية عبد الرحمن قبل أي شيء آخر فتوزعوا أموالاً كان الوالي قد أعطاهم إياها ليجهزوا جنودهم بها واحتفظوا بأكثرها لتمويل قضية الأمير الأموي. وحين عادوا للحصول على جواب الصميل على عرضهم، قابلوه في معسكره في أحواز مدينة جيان وهو في طريقه إلى ساحة المعركة فبادرهم بجواب سلبي.

يبدو انه في فترة ما بين اللقائين استعاد الصميل في ذاكرته ما كان للأمويين

---

(1) أخبار مجموعة، صفحة ٦٧.

عموماً من نفوذ وسطوة وأدرك أن نجاح قضيتهم في الأندلس يعني زوال مجده وزعامته فتراجع عن ترحيبه السابق وعبر عن رأيه بكثير من الحدة والفظاظة إذ قال لهم: «إنه من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة لغرقنا في بوله»[1] وإن أول سيف يسل عليه هو سيفي. وبهذا اقتنع الزعماء الأمويون باستحالة الحصول على دعم من القيسية. ذلك إن الصميل وهو زعيمهم دون منازع وصاحب الكلمة النافذة فيهم رفض بصورة قاطعة التخلي عن تأييد الوالي يوسف الفهري لما له في عهده من نفوذ وسلطان ولما يجمعه به من مصالح مشتركة. على هذا قرروا لساعتهم التوجه إلى الفريق الآخر. بدأوا يتصلون بزعماء اليمنية، فعرضوا في طريق عودتهم من جيان على كل من وثقوا به منهم قضيتهم فألقوا «قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم ورغبوا في عقد بني أمية بالأندلس»[2]. فاليمنيون الذين كانوا قد فقدوا مواقعهم في السلطة أثر هزيمتهم الشنيعة في معركة «أقوة برطورة» والكارهون لتسلط القيسية بزعامة الصميل بن حاتم على الحياة السياسية في الأندلس ما كانوا ليرفضوا هكذا فرصة يثأرون فيها لهزيمتهم ويعودون إلى بعض ما فقدوه من مواقع سياسية ولو بصورة غير مباشرة وعبر طرف ثالث.

قد يبدو لنا هكذا تحالف أموي ـ يمني، في الظاهر على الأقل غير منطقي وغير معقول بالنسبة للانقسامات القائمة آنذاك في الأندلس. إنما الواقع ان اليمنيين بعد سلسلة الهزائم التي أصابتهم على يد القيسية وخاصة أيام يوسف الفهري والصميل بن حاتم باتوا على استعداد للتحالف مع أي طرف حتى ولو كان أموياً لاستعادة حقوق فقدوها، برأيهم، دون وجه حق. وأيضاً فإن هكذا تحالف قد يعمل على رفع هيمنة ثنائي الفهري ـ الصميل على أمور الحكم والدولة في قرطبة. وأخيراً يجب أن لا ننسى ان خلفاء بني أمية في دمشق ما كانوا دوماً معادين

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٤٨ ـ أخبار مجموعة، صفحة ٧٣.
(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٧٤.

لليمنية ذلك إن بعضهم ما حكم إلا بتحالف معها وبتأييد منها. ومن هذه الزاوية بدى تحالف اليمنيين في الأندلس مع موالي الأمويين مقبولاً ومستساغاً على الأقل في المدى القصير. وأيضاً رحب بالانضمام إلى قضية الأمير كثير من البربر وجدوا في ذلك فرصة يحققون فيها بعض المكاسب وأيضاً يثأرون ممن أذلوهم وشردوهم من الحكام الأندلسيين العرب. وحين اعتبر بدر ان مهمته قد انتهت إلى نجاح اشترى مركباً وعاد به إلى الشاطىء المغربي يرافقه أحد عشر رجلاً من قبل موالي بني أمية ليخبر الأمير عبد الرحمن بما أنجز وليطلب إليه السفر إلى الأندلس. وحمل له أيضاً بعض المال ليتدبر أموره وليرضي حماته من البربر.

عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس:

بعد أن صار بإمكان عبد الرحمن أن يعتمد إلى ثلاث قوى هامة في شبه الجزيرة الإيبرية صمم على بدء مغامرته، فعبر مضيق جبل طارق ونزل عند مرفأ أندلسي صغير هو المنكب Almunecar حيث كان في استقباله زعيم موالي بني أمية أبو عثمان بن عبيد الله. ومنه انتقل إلى قرية طرش حيث نزل في دار أبي الحجاج يوسف بن بخت. وكان ذلك في شهر أيلول من سنة ٧٥٥ م (ربيع الثاني ١٣٨ هـ)- اتخذ من هذه القرية مقراً له يستقبل فيه وفود المؤيدين وتتجمع حوله الجنود والفرسان. إلى هناك وافته جموع الأمويين وجندهم مؤيدة داعمة. وكذلك أيدته ودعمته جماعات اليمنيين من أهل أجناد الأردن وفلسطين وحمص. وأيضاً انضم إلى قضيته عامل كورة رية وعامل موررور ويمنية قرطبة[١]. وبسرعة مذهلة انضمت اليمانية والأموية[٢] إلى ابن معاوية وأقبل الناس إليه من كل مكان.

وفي طريق عودة يوسف الفهري والصميل من سرغوسة بعد أن تم القضاء

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٢٨ - البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٦٦.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٨٣.

على المتمردين فيها توقف الجيش قريباً من طليطلة للراحة بعض الوقت. وهناك علم يوسف الفهري من رسالة أرسلها له ابنه بنزول عبد الرحمن بن معاوية في طرش وتحلق الجموع حوله وانتشار دعوته بشكل سريع وواسع. أدرك يوسف فوراً خطورة الحدث فاستدعى صديقه الصميل للتشاور في الأمر. رأى الصميل، الذي كان أكثر ذكاءً وأكثر فهماً لأوضاع الأندلس، التصدي مباشرة للأمير الأموي ومقاتلته والقضاء عليه قبل أن تنتشر دعوته وتكتمل عدته. إلا ان الخبر ما لبث أن انتشر في صفوف الجيش وعرف الناس تفاصيل ما حدث فترك الجند اليمنيون الجيش وفروا للحاق بأهلهم وقومهم حول الأمير الأموي. ومن بقوا في الجيش من القيسيين كانوا متعبين غير قادرين وغير راغبين في مواصلة الحرب. ولذا مال قادة الجند إلى ضرورة تأخير المواجهة مع الأمويين خاصة وإن الشتاء كان يقترب بسرعة وشتاء إسبانيا كما هو معروف شديد البرد كثير الثلوج غزير الأمطار. وبصعوبة كبيرة اقتنع بذلك الصميل، لأنه كان يدرك خطورة ذلك، وسار الجميع إلى قرطبة للإعداد للمعركة المقبلة.

وفي وقت كان الفريقان يحشدان جموعهما ويستعدان للمعركة الفاصلة اقترح بعض المقربين من يوسف الفهري عليه أن يفاوض الأمير الأموي وأن يعرض عليه تزويجه ابنته وأن يمنحه المال والثروة وأيضاً الحماية والمكانة. وقد لاقت الفكرة قبولاً عند الفهري اعتقاداً منه ان الأمير الشريد قد يكتفي بالأمن والسلامة والحياة الغنية المترفة. وعلى هذا وجه إليه رسالة مع وفد من ثلاثة من معاونيه المقربين، جاء في آخرها: «فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأت إليه، أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معي إن أردت، أو بحيث تريد. ثم لك عهد الله وذمته بي ألا أغدرك، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب «أفريقية» ولا غيره»[1]. استقبل عبد الرحمن موفدي والي قرطبة بحضور جماعة من بني أمية

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٦٨.

ورجال من اليمن يختلفون إليه[1] وتسلم منهم الرسالة. ومع إن اليمنيين عموماً أظهروا ميولاً مسالمة بعض الشيء إلا ان الجميع في النهاية نصحوا الأمير بالرفض والإصرار على طلب تنازل يوسف الفهري له عن حكم الأندلس. لاقى ذلك هوىً في نفس الأمير لأنه أساساً طالب سلطـة وملك لا ساع وراء ثروة وامرأة. ثم إن أحداً ما كان يمكنه أن يثق بوعود يوسف الفهري نظراً لكونه تحت نفوذ وتأثير زعيم القيسيين الصميل بن حاتم الذي ما عرف في يوم من الأيام بانه كان شديد التمسك بعهد أخذه على نفسه أو وعد ألتزم به.

معركة المصارة:

وفي شهر أيار من سنـة ٧٥٦ م (ذي الحجة ١٣٨ هـ) كانـت القيسية قد جمعت حشودها وأتت بحماس كبير لتأييد قضية الصميل وصديقه الفهـري بمـا اعتبره هذان الأخيران كافياً للخروج من العاصمة والتوجه نحو كورة البيرة حيث كان عبد الرحمن يجمع قواته. تقدم يوسف والصميل وجموعهما علـى محـاذاة الضفة الغربية لنهر الوادي الكبير فوصلوا حتى طشانة[2] حيث نزلوا بعض الوقت للراحة ولمزيد من الاستعداد. في هذه الأثناء كان عبد الرحمن بن معاوية ما زال في طرش يكمل استعداداته وينظم الوافدين إليه من موالي بني أمية ومن البربر ومن جموع اليمنيين فيرتب الكتائب ويعبـىء الأجنـاد. ومـن هذه القـرية، في كورة البيرة، حيث جعل إقامته منذ نزل في الأندلس، سار إلى رية التي بايعه عاملها وانضم إليه مع حشد يزيد عن ألف من فرسان اليمنية ومنها إلى شذونة التي واجهه أهلها بالبشر والترحاب. ومن هناك سار، لملاقاة أخصامه محاذياً الضفة الشرقية لنهر الوادي الكبير حتى وصل إلى منطقة أشبيلية التي انضم إليه من فرسانها عدد كبير من بينهم زعيم اليمنية فيها أبو الصباح اليحصبي. وحتى ذلك الوقت ما كان

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٨٠.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٨٥.

عبد الرحمن قد اتخذ شعاراً له ولجيشه إذ كانت كل مجموعة من أنصاره ترفع علمها، إلى أن أقدم أبو الصباح اليحصبي على رفع عمامة وقناة[1] جاعلاً منهما شعاراً للأمير وجيشه، كل جيشه. كانت هذه البادرة على درجة كبيرة من القيمة والأهمية لكونها كانت أول إشارة إلى وحدة القوى الثلاث المؤيدة للأمير الأموي تحت سلطة واحدة وفي سبيل قضية واحدة.

ولستة أيام خلون من شهر ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) تواجه الجمعان عند قرية تدعى المصارة في أقليم طشانة يفصل بينهما نهر الوادي الكبير في وقت كانت فيه مياهه في أوج غزارتها وفي أعلى منسوب لها، بحيث ما سمحت لأي من الجيشين بالعبور لملاقاة الجيش الآخر ومباشرة القتال. وبالرغم من كل التأييد الذي حصل عليه عبد الرحمن من أنصاره عموماً ومن مقاتلتهم بصورة خاصة، وبالرغم من كل الحماس الذي بدا في أوساط البربر واليمنيين عندما صاروا أمام أعدائهم القيسيين فإن جيوش الأمير الأموي كانت تعاني من نقطة ضعف أساسية إذ كانت تفتقر للضروري من الزاد والغذاء. ولهذا السبب ومخافة أن يطول ارتفاع منسوب مياه النهر فتدب المجاعة بين جنوده، حاول عبد الرحمن خداع أخصامه والتوجه بجموعه في ظلام الليل إلى العاصمة قرطبة لمفاجأة أهلها والاستيلاء عليها وأيضاً للحصول على ما فيها من مؤن وأغذية يقدمها له من فيها من أنصار ومؤيدين له من اليمنية. وحين فشلت هذه المحاولة لم يبق أمام عبد الرحمن سوى استعجال اللقاء الحاسم تفادياً لأزمة غذائية تحل بجموعه.

وفي يوم الخميس ٩ من ذي الحجة، انحسرت بعض الشيء مياه النهر وصار بالإمكان العبور فلجأ إلى الحيلة والمناورة لتسهيل هذه العملية. أظهر لأخصامه رغبته في المصالحة وتفادي القتال مما لقي ترحيباً كبيراً من الفهري الذي ليس فقط تركه وجنوده يعبرون النهر إليه وإنما أولم لهم وأطعمهم وأمدهم بما

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٨٤.

يحتاجونه. ولما كان عبد الرحمن لا يرى في الحقيقة من طريق لحسم الخلاف مع الوالي وزعيم القيسية صلحاً فقد فاجأ أخصامه بمباشرة القتال صبيحة اليوم التالي أول أيام عيد الأضحى. وفعلاً في ذلك الصباح، وكان وقد صير قيادة جيوشه لكبير موالي بني أمية أبي عثمان بن عبيد الله، التقت جيوش الفريقين في معركة دامية أعطت للأمير المغامر نصراً ساحقاً على أعدائه خاصة بعد مقتل كبير الفرسان القيسيين عبيد بن علي[1]. ومن ساحة القتال هرب يوسف الفهري ناجياً بنفسه إلى نواحي طليطلة حيث كان ابنه عبد الرحمن، وفر الصميل إلى جهات جيان. وهكذا فتح انتصار عبد الرحمن بن معاوية في معركة «المصارة» يوم ١٠ ذي الحجة من سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) أمامه أبواب العاصمة الأندلسية فدخلها في أول أيام عيد الأضحى[2]، من تلك السنة وصلى في جامعها ونودي به هناك أميراً على بلاد الأندلس.

وهكذا يكون هذا الأمير المغامر، ابن الستة والعشرين عاماً قد بعث في أرض بعيدة عن موطنه وفي بلاد غرب أوروبا أمجاد الأمويين الزائلة في الشرق وأقام لهم إمارة عمرت حوالي القرنين قبل أن تقوم على أنقاضها، أو قبل أن تتحول هي إلى خلافة أموية جديدة في الغرب. وتعاقب على كرسي الإمارة هذه ثمانية أمراء هم: عبد الرحمن بن معاوية المعروف عند المؤرخين باسم الداخل، هشام بن عبد الرحمن، الحكم بن هشام، عبد الرحمن الأوسط، محمد بن عبد الرحمن، المنذر بن محمد، عبد الله بن محمد ثم عبد الرحمن الناصر.

أعلن عبد الرحمن قيام دولته الأموية في الأندلس مستقلة عن باقي دولة الإسلام، ومنفصلة تمام الانفصال عن نفوذ الدولة العباسية في الشرق. ويكون بذلك قد حقق إنجازاً عظيماً جعل، أشد خصومه أبا جعفر المنصور يلقبه بصقر قريش ويقول عنه في أحد مجالسه: «صقر قريش، عبد الرحمن بن معاوية الذي

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٨٩.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧٠.

عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين ونال ملكاً بعد انقطاعه عن تدبيره وشدة شكيمته[1]» .

إمارة عبد الرحمن بن معاوية

إذا كان عصر الولاة قد نجح إلى حد كبير في نشر لواء الإسلام في شبه الجزيرة الإيبرية فإن القائمين على الحكم فيه ما استطاعوا أن يقيموا فعلاً للإسلام دولة في هذه الأرض ترتكز إلى دعائم ثابته وإلى مؤسسات ونظم قادرة على تأمين الديمومة والاستمرار. فهم مع ما شغلوا أنفسهم به من سعي للفتح والتوسع فيما وراء جبال البيرينيه، ما تركت لهم الصراعات القبلية والحساسيات العنصرية والعصبيات العربية مجالاً للاهتمام بأمور توطيد دعائم الحكم والاهتمام بالأمور الداخلية. بل أكثر من ذلك فإن أواخر الولاة الأندلسيين غرقوا، أو انهم أُغرقوا، في بحر الخلافات الداخلية والحروب الأهلية مما كان من الممكن أن يطيح بوجود الإسلام في تلك الأصقاع لو دامت الحال كذلك مزيداً من الوقت. وعلى هذا بدا منذ أن صارت أمور الأندلس إلى عبد الرحمن بن معاوية انه يواجه مهمات على درجة كبيرة من الخطورة. لقد كان استمرار وجود الإسلام كدين وكذلك كدولة على تلك الأرض يتوقف على مدى نجاح الأمير الشاب. كان عبد الرحمن يدرك ان نجاحه في إقامة دولة أموية في غرب أوروبا تقوم على دعائم من الثبات والاستقرار هو وحده الطريق لإبقاء الإسلام في تلك الديار. وكان يعرف أيضاً ان نجاحه ما كان بالأمر السهل لما خلفه له أسلافه من مشاكل ومصاعب. وفوق هذا وذاك فهو غريب عن الديار وأهلها يجهل كل شيء عن أوضاع الأندلس السكانية والسياسية والاقتصادية ولا يستطيع أن يعتمد إلا على ولاء موالي بني أمية، وهم على ولائهم وشدة إخلاصهم له، نفر قليل، مما يجعل فعالية دورهم محدودة للغاية. أدرك منذ الوهلة الأولى انه لا يستطيع أن يعتمد كثيراً على العصبيات العربية من قيسية ويمنية لأنها كانت في أساس مصاعب البلاد، ومنها كانت شرور

(١) أخبار مجموعة، صفحة ١١٨.

الحرب الأهلية. ثم إن كلاً من الحزبيتين تمزقت هي أيضاً إلى قبائل وأفخاذ وبطون تتناحر فيما بينها وتلتف حول زعماء صغار منتشرون في أنحاء الأندلس يسعى كل منهم وراء مصالحه الشخصية والخاصة ويعمل بإصرار على الاحتفاظ ببعض النفوذ والسلطة له على حساب السلطة المركزية.

كان يعلم بان من أيدوه ودعموا دعوته من زعماء اليمنية إنما فعلوا ذلك طمعاً بالثأر من أخصامهم القيسيين ورغبة في العودة إلى السلطان عن طريقه وبالتالي لا يمكنه أن يقيم دعائم دولته وسلطانه على ولائهم. ذلك إنه فعلاً وبعد دخوله قرطبة اكتشف، إذ حال بين عامتهم وبين الثأر من أخصامهم القيسيين وسلب ممتلكاتهم وثرواتهم، انهم ينفرون منه ويحقدون عليه ولا يمانع بعضهم في التخلص منه. ألم ينقلوا لعبد الرحمن ان صديقه وحليفه أبا الصباح اليحصبي عامل أشبيلية وزعيم اليمنيين قال لأحد المقربين منه، ثعلبة بن عبيدة ساعة دخول عبد الرحمن القصر، «يا ثعلبة هل لك في فتحين في فتح، قال له ثعلبة: وكيف ذلك، قال أبو الصباح: قد استرحنا من يوسف، فاسترح بنا من هذا، وتكون الأندلس قحطانية»؟ والواقع إن زعماء اليمنية حين تأكدوا ان عبد الرحمن لن يكون أداة يعبرون بها إلى الحكم والسلطان مالوا عن تأييده وصاروا في الصف المعارض لإمارته. وما كان قادراً أن يعتمد على القيسية، رغم ما كان يشد هذه العصبية في المشرق من رابطة إلى البيت الأموي بصورة عامة. ذلك إن هؤلاء كانوا أصلاً يعارضون ريادته ويوالون خصمه الصميل بن حاتم ويذكرون دوماً بمرارة هزيمتهم على يده. والبربر أيضاً حاربوا إلى جانبه كرهاً بأخصامه لا حباً ببني أمية. ثم هم منذ هزيمة ثورتهم بات لهم موقف ثابت هو الوقوف إلى جانب كل ثائر متمرد على السلطة وكل ساع لتحطيم الهيمنة العربية على شؤون الأندلس أكانت هذه قيسية أم يمنية. فهو إذاً لا يستطيع أن يتخذ منهم عدة لإقامة دولته. وما بقي أمامه سوى أبناء البلاد الأصليين سواء من بقوا على نصرانيتهم أو من أسلموا

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٥٥ ـ أخبار مجموعة، صفحة ٩٠.

وهو يجهل كل شيء عنهم وعن أوضاعهم وميولهم وبالتالي فهو لا يمكنه الركون إليهم. ومن هنا كانت مطامحه في البداية محدودة فهو ما حاول أن يتخذ لنفسه لقب «خليفة» أو «أمير المؤمنين» واكتفى بلقب «الأمير» جاعلاً من دولته ذات التركيبة الواهنة شيئاً أقل من الخلافة. وربما كانت لديه اعتبارات أخرى جعلته يكتفي بلقب الأمير. إذ ما كان من السهل، وهو على ما هو عليه، أن يتجرأ على اتخاذ صفة الخلافة صوناً لوحدتها، واحتراماً منه لهيبة المؤسسة وعظمة المنصب، وربما أيضاً كان هناك شعور عام عنده كما عند عامة المسلمين بانه لا يمكن أن تقوم خلافة في أرض نائية بعيدة عن مهبط الوحي وقبلة المسلمين.

سياسة عبد الرحمن الداخلية.

وإدراكاً منه، أيضاً لوضعه الصعب، جعل أحلامه السياسية أكثر واقعية من أسلافه فما سعى لفتوحات أو توسعات خارجية واكتفى في هذا المجال بموقف الدفاع ساعياً للمحافظة ما أمكنه على ما كان للمسلمين من مواقع في بلاد غالة. ركز جل اهتمامه على إعادة تكوين وحدة الأمة الأندلسية في الداخل، وإقامة دولة لبني أمية ثابتة الدعائم. أما الفراغ الذي كان يحيط به على الصعيد الشعبي فاعتقد ان أفضل ما يفعله هو أن يستقدم ما استطاع ممن بقي في الشرق من أمويين أو من أراد من موالي بني أمية. وأقام من هؤلاء طبقة ممتازة، تحلقت حوله وساعدته في إدارة أمور دولته، فوسع لها في السلطان والنفوذ وخفف عليها من أعباء الضرائب وزاد في ثرواتها. وما تردد في إرسال الرسل إلى الشرق لدعوة من بقي من هؤلاء للانضمام لهذه الجماعة.

إلا ان طريقه نحو تحقيق وحدة الأندلسيين كانت شاقة وعسيرة. كان عليه أن يكرس كل حياته، على مدى اثنين وثلاثين عاماً قضاها في الإمارة للقضاء على سلسلة متصلة من الثورات وحركات التمرد والصراعات القبلية والعنصرية ومؤامرات الطامحين إلى السلطان والراغبين في الإمارة.

كان عليه بعد انتصاره الباهر في معركة المصارة وبعد أن حصل على بيعة

أهل العاصمة أن يؤكد انتصاره، قبل كل شيء آخر بإخضاع الصميل ويوسف الفهري اللذين فرا بعد هزيمتهما كما ذكرنا آنفاً. فيوسف الفهري الذي ما كان بعد قد سلم بهزيمته لجأ إلى طليطلة ليستعد بمساعدة من له فيها من أنصار ومؤيدين وخاصة عاملها هشام الفهري[1] لجولة جديدة يستعيد فيها عاصمته المفقودة. أما الصميل فقد لجأ إلى منطقة جيان يستعين بمن فيها من قيسيين موالين له وظل فيها حتى أتاه يوسف الفهري بجيوشه. اتجها بجموعهما نحو كورة البيرة فأستعاداها وطردا منها الوالي المعين حديثاً من قبل الأمير الأموي. جعل عبد الرحمن صديقه أبا عثمان عبيد الله عاملاً على قرطبة وسار هو بجيوشه التي تكاثر عددها بمن انضم إليها ممن سلموا بإمارته واعتبروها رمزاً للشرعية حتى نزل في إحدى قرى كورة البيرة[2]. يبدو انه في اللحظة الأخيرة أدرك الزعيمان القيسيان عقم المكابرة وصعوبة الصمود فدخلا في مفاوضات مع الأمير انتهت باستسلامهما وباعترافهما بسلطته وبسيادته على كل الأندلس على أن يمنحهما العفو ويحفظ لهما أملاكهما وأموالهما. وقدم الفهري اثنان من أولاده ينزلان في قصر الأمير كرهائن[3]. عاد الأمير إلى قرطبة مسجلاً أول انتصاراته في ظل شرعية الإمارة ومعه الصميل الذي نزل في دار له في إحدى ضواحي قرطبة بينما حل يوسف الفهري في قصر كان سابقاً للحر الثقفي[4] ثم اشتراه هو بماله.

وفي الوقت الذي أخذ عبد الرحمن يعمل على تنظيم أمور البلاد وتحقيق المهمة التي ندب نفسه من أجلها صار يبدو له ان كل ما أظهره من تسامح وعدل ومرونة تجاه زعماء الأحزاب العربية وخاصة يوسف الفهري والصميل بن حاتم ما كان كافياً للقضاء على مؤامرات الطامعين بالحكم.

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ٩١.
(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٩٣.
(٣) أخبار مجموعة، صفحة ٩٤.
(٤) أحد ولاة الأندلس السابقين.

كان يوسف الفهري أشد الطامعين في القضاء على إمارة عبد الرحمن حقداً وأكثرهم رغبة في عدم إعطاء الأمير الأموي الفرصة التي كان يحتاجها لتأكيد سلطانه على كل الأندلس. ثم إنه بالرغم من كل ما أحاطه به الأمير من تكريم ومن كونه اتخذ منه مستشاراً وجليساً ونديماً في حالات كثيرة ما كان يطمئن إلى نوايا عبد الرحمن تجاهه وكان يحس بانه دوماً موضع مراقبة دقيقة في تحركاته وتصرفاته. يضاف إلى ذلك ان فريقاً من أتباعه ومحازبيه كانوا يحرضونه دوماً على الثورة واستعادة السلطة ليستعيدوا بدورهم ما كان لهم أيامه من نفوذ وامتيازات. اتصل بأنصاره وأقاربه في ماردة وطليطلة ولقنت فأنس منهم رغبة في مساعدته واستعداداً للثورة تحت لوائه[1] فصمم على الهرب من العاصمة وإعلان التمرد. عرض مشروعه على الصميل وبعض زعماء القيسية فكان جوابهم سلبياً إذ قالوا: «حسبنا قد قضينا الذمام ولا والله نخلعه»[2]. فرَّ من قرطبة سراً في سنة ٧٥٨ م (١٤١ هـ) واتجه إلى ماردة «فحشد أهلها عربها وبربرها»[3] ثم مضى إلى لقنت وبعدها حل في منطقة أشبيلية حيث تجمع حوله حوالي عشرين ألف جندي من البربر والعرب اليمانية[4]. سار نحو مدينة أشبيلية فحاصرها وكانت تحت حكم أمير أموي ممن وفدوا على عبد الرحمن من المشرق، عبد الملك بن عمر المرواني الذي صمد للحصار حتى وافاه ابنه عبد الله العامل على منطقة مورور بنجدة قوية. في هذا الوقت كان عبد الرحمن يعد جيشاً قوياً في العاصمة خرج به يريد مواجهة يوسف إلا ان هذا وكان قد ترك أشبيلية متجهاً نحو قرطبة وجد نفسه بين جيشين كبيرين فعاد واستعجل اللقاء مع عامل أشبيلية وابنه قبل أن يلتقيا بالجيش الآتي من العاصمة. فكانت معركة دموية رهيبة فيها انهزم يوسف وتفرق

(١) اخبار مجموعة، صفحة ٩٥.
(٢) أخبار مجموعة، صفحة ٩٦.
(٣) أخبار مجموعة، صفحة ٩٦.
(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، حزء ٢، صفحة ٧٣.

أصحابه عنه[1]. عاد الأمير عبد الرحمن إلى قرطبة وصار يوسف في بعض أتباعه إلى أحواز طليطلة حيث تجول بعض الوقت إلى أن أقدم عبد الله بن عمر الأنصاري في إحدى قرى طليطلة على قتله قائلاً لبعض من معه: «في قتله الراحة له ومنه»[2] وأرسل رأسه إلى الأمير عبد الرحمن في قرطبة سنة ٧٥٩ م (١٤٢ هـ) الذي بادر إلى قتل ابنه عبد الرحمن بينما نجح الثاني في الفرار إلى طليطلة. بعد هذه الثورة مال عبد الرحمن عن سياسة المهادنة التي اتبعها مع أنصار الحكم السابق وقضى على الصميل بن حاتم في السجن الذي كان قد أودعه فيه منذ بداية تمرد يوسف الفهري مفترضاً ضلوعه بمؤامرة صديقه، أو على الأقل معرفته بها، علماً إنه ما شارك في التمرد بأي شكل من الأشكال. وهكذا زال الفهري وصديقه وبزوالهما أزاح الأمير الأموي عقبة هامة كان يعتقد انها ستعترض دائماً، لو بقيت، طريقه إلى استقرار سلطانه وإمارته.

ولعل أعقد ما واجهه من مشاكل على طريق تأكيد سلطانه مقاومة دعاوى الدولة العباسية في الشرق بأحقيتها في السيادة على الأندلس وما نتج عن ذلك من دسائس وتمرد. فالعباسيون الذين ورثوا سلطان بني أمية في الشرق كانوا يعتبرون سيادتهم على كل أراضي دولة الإسلام أينما كانت حقاً يجب أن لا ينازعوا فيه. ومن هنا كانوا ينظرون إلى عبد الرحمن الداخل في الأندلس على إنه ثائر متمرد يجب إخضاعه أو القضاء عليه.

باسمهم ثار، ورفع لواءهم الأسود، هشام الفهري الذي جعل من مدينة طليطلة الحصينة قاعدة لتمرده وأعلن فيها دعوته لبني العباس. أدرك الأمير الأموي خطورة هذه الثورة وجديتها، خاصة إذا نجحت وحصلت على المدد والعون من عمال العباسيين في شمال أفريقيا، لذا سارع في الخروج بنفسه في سنة ٧٦٢ م (١٤٥ هـ) وألقى حصاراً على المدينة في محاولة لإخضاع المتمردين. عند

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧٤.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧٤ ـ أخبار مجموعة، صفحة ٩٩.

اشتداد الحصار مال الفهري المحاصر إلى المسالمة فصالح الأمير واعترف بسلطانه وقدم ابنه ليعيش في قرطبة رهينة[1]. وما أن ابتعد الأمير الأموي عن طليطلة حتى عاد هشام الفهري إلى الثورة ورجع عن البيعة التي أعطاها مما اضطر الأمير للخروج إلى طليطلة في السنة التالية وألقى الحصار على المدينة دون جدوى[2] إذ اضطر لفك الحصار والعودة إلى عاصمته حيث استدعت حضوره أمور ملحة.

إلا ان حركة هشام الفهري، كانت نسبياً، محدودة الخطر خاصة وان اتصاله بالعباسيين كان عسيراً، إنما الخطر العباسي الحقيقي والجدي أطل مع حركة العلاء بن مغيث اليحصبي. ذلك إن هذا ما كان ثائراً أو متمرداً كغيره من ثوار الأندلس الذين كثروا أيام عبد الرحمن الداخل وإنما تحرك بطلب ودعم من الخليفة العباسي المنصور الذي أرسل له عبر عماله وأعوانه في أفريقيا علم العباسيين الأسود[3] وسجلاً بتسميته والياً على الأندلس. وقد أمره الخليفة المنصور باحتلال الأندلس باسمه وكان هذا ضرورياً بالنسبة للعباسيين خاصة بعد أن أعلنت بلدان شمال أفريقيا ولاءها لهم، ولو شكلياً عبر حاكمها عبد الرحمن بن حبيب الفهري. اتخذ العلاء بن مغيث من مدينة باجة في غرب الأندلس قاعدة لتمرده وجمع حوله جيشاً من سبعة آلاف جندي رفعوا علم الخلافة العباسية وجهروا بالدعوة للخليفة أبي جعفر المنصور وأعلن هو انه قد صار أميراً لبلاد الأندلس من قبل الخليفة الشرعي. وكان أكثر من تحمس لهذه الحركة زعماء اليمنية الذين انضموا إليها بحشد عظيم من أشياعهم كما التحق بها بعض البربر والفهريين عموماً. ما أراد عبد الرحمن أن يمهل المتمردين خاصة وان دعوة العلاء لقيت ترحيباً واسعاً وسريعاً «فاتبعه الأجناد، وتطلعه العباد إلى أن كادت دولة الأمير

(١) اخبار مجموعة، صفحة ١٠١.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ١٠١.

(٣) أخبار مجموعة، صفحة ١٠٢.

أن تنصرم، وخلافته أن تنحزم»[1]. خرج من قرطبة وحل في مدينة قرمونة فتحصن بها مع مواليه وثقات رجاله[2] والقليل من الجنود الذين تمكن من جمعهم، يستعد لمهاجمة خصمه. إلا ان الثائر العلاء بن مغيث، مدركاً لكثرة من حوله وقلة جند الأمير، بادر هو إلى الهجوم وألقى الحصار على مدينة قرمونة قبل أن يستكمل الأمير عدته. طال الحصار وصمد عبد الرحمن ومن معه إلى أن بدأت عوارض التعب والوهن تنتشر بين صفوف عساكر المتمردين فخرج إليهم الأمير الأموي على رأس سبعمائة من خيرة رجاله بصورة مفاجئة. دارت بين الفريقين حرب طويله حقق فيها الأمير الأموي نصراً مذهلاً وقضى على قادة المتمردين في سنة ٧٦٤ م (١٤٧ هـ)، وقتل العلاء بن مغيث نفسه فيمن قتل في تلك المعركة الدموية. وإمعاناً في السخرية من الدولة العباسية وربما لإظهار قوته جمع لواء أبي جعفر المنصور ورأس العلاء بن مغيث وأرسلهما مع نفر من الحجاج الأندلسيين وضعوهما في موسم الحج أمام سرادق الخليفة المنصور في مكة المكرمة. ولما نظر المنصور لما أمام سرادقه قال: «إنا لله ! عرضنا بهذا المسكين للقتل الحمد الله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان»[3]. وما كان أبو جعفر المنصور يعني بقوله هذا غير عبد الرحمن الداخل. ولعل أهمية هذا الانتصار تكمن في كونه قد أدخل في روع العباسيين في المشرق ان دولة بني أمية في الأندلس هي حقيقة واقعة لا مجال لتجاهلها أو القضاء عليها. وإذا كانت قد قامت بعد ذلك تحركات أخرى في الأندلس باسم العباسيين فإنها افتقرت دوماً لمشاركتهم الجدية. ثم إنه فوق ذلك كان انتصاراً واضحاً على اليمنيين جعلهم يدركون ان سلطة عبد الرحمن باتت راسخة الجذور في هذه الأرض قادرة على سحق أي تمرد من أية جهة أتى. إلا انه على كل حال ظل على الأمير الأموي أن يبقى حذراً منهم. وقد اضطر بالفعل لأن يقضي بعد ذلك على أكثر من تمرد قام به بعض زعمائهم قبل أن

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧٧.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧٧.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧٨.

يستكينوا لحكمه ويقبلوا بإمارته ولو على كره.

بعد هذا الانتصار مباشرة تفرغ للقضاء على تمرد هشام الفهري في طليطلة والذي طال كثيراً. ندب لذلك بدراً مولاه وتماماً بن علقمة في جيش كثيف ألقى الحصار الطويل على المدينة حتى مل أهلها القتال والجوع فراسلوا بدراً وتماماً وعرضوا عليهما الاستسلام وتسليم رؤوس الثورة والتمرد مقابل الأمان[1]. وفتحت طليطلة أبوابها على هذه الشروط وعين الأمير عبد الرحمن أحد المقربين إليه تمام بن علقمة عاملاً من قبله على عاصمة القوط القديمة، وحمل بدر زعماء الثائرين إلى قرطبة حيث قتلوا وصلبوا ليكونوا عبرة وعظة.

وفي سنة ٧٦٧ م (١٥٠ هـ) ثار أبو الصباح اليحصبي زعيم اليمنيين، وصديق وحليف عبد الرحمن بن معاوية أيام نزوله في الأندلس وشريكه في انتصاره الباهر في معركة «المصارة». ذلك إن العلاقة بين الرجلين ساءت بعد ذلك لكلام سيء نقل إلى عبد الرحمن على لسان الزعيم اليمني أشرنا إليه سابقاً، وأيضاً لكون الأمير الأموي قد ولى صديقه على أشبيلية ثم عزله عنها لفشله في ضبط الأمور فيها. أعلن أبو الصباح ثورته في أشبيلية واعتصم فيها وكانت قد تحولت فعلاً منذ قامت الإمارة إلى قاعدة للمعارضة اليمنية ضد الحكم الأموي. وقد سبق لليمنيين قبل سنة أن تمردوا أيضاً في مدينة أشبيلية بزعامة سعيد اليحصبي المعروف بالمطري وقضى عبد الرحمن بنفسه على هذه الثورة وقتل زعيمها[2]. عمد عبد الرحمن إلى الحيلة والمكر للقضاء على تمرد أبي الصباح. دعاه لزيارته في قرطبة وأعطاه الأمان فحضر ومعه أربعمائة من خيرة فرسانه. وحين دخل عليه في قصره حصل حوار ونقاش بين الرجلين تطور فأمر الأمير بقتل ضيفه وإخراج رأسه إلى أتباعه الذين تفرقوا دون رد فعل يذكر[3].

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ١٠٤ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧٩.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٨٠.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٨٠.

وفي الوقت الذي كان فيه الأمير عبد الرحمن الداخل يصارع العصبيات العربية لإخضاعها لسيادة الدولة انفجر بوجهه وبصورة مفاجئة تمرد عنيف قامت به عناصر البربر. صحيح إن هؤلاء رحبوا بعبد الرحمن أول الأمر وكانوا أعواناً له في إقامة دولته في قرطبة غير انهم ما لبثوا أن أعرضوا عن تأييده ودعمه حين تأكدوا من انه لن يعطيهم ما أرادوه من مكاسب ومنافع ومن انتقام من أخصامهم. وقد رأيناهم يشاركون اليمنيين في معارضتهم لحكم الأمير وأيضاً رأيناهم يحملون السلاح إلى جانب هشام الفهري الذي ثار في طليطلة. وفي سنة ٧٦٩ م (١٥٢ هـ) ثار البربر هذه المرة بمبادرة منهم ولحسابهم بقيادة واحد منهم ادعى لنفسه نسباً شريفاً يعود به إلى الحسن بن علي[١] وسمى نفسه عبد الله بن محمد واشتهر باسم المكناسي لكونه من قبيلة مكناسة البربرية. وقد حاول بادعائه الانتساب إلى آل البيت أن يعطي تحركه طابعاً عقائدياً وأن يجعل ثورته مقبولة حتى من المسلمين العرب. انتشرت دعوته أول الأمر في مناطق شرق الأندلس حيث كان يكثر العنصر البربري بين السكان. ولما اشتد ساعده سار إلى مدينة شنت برية فقتل عاملها واتخذ منها قاعدة لحركته ثم استولى على ماردة ومنطقة قورية. والواقع إن الأمير عبد الرحمن ما تهاون في أمر هذا الثائر، خاصة وانه كان يدرك ما قد يسببه من مخاطر بسبب التفاف أكثرية البربر حوله وأيضاً لما تستر به من دعوة علوية. خرج إليه هو شخصياً أكثر من مرة وأرسل إليه جيوشاً كثيرة ومع هذا ما استطاع القضاء على هذا التمرد الذي استفحل وفشى في مناطق الأندلس والوسطى منها خاصة. وكانت نقطة القوة في حركة المكناسي انه كان خبيراً بدروب الأندلس ومسالكها فعرف كيف يستفيد من الوضع الجغرافي للمناطق التي سيطر عليها. كان دوماً يتحاشى المعارك الكبيرة في الأراضي المكشوفة ويرفض حرب المدن لما قد تجره من حصار ودمار. كان في كل مرة يواجه جيوش الأمير يتقحم الجبال بمن معه أو يركب الوعر وربما يدخل المغاور وينقطع أثره[٢] فتعود الجيوش المهاجمة دون إنجاز المهمة

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٨١.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٨١.

التي أتت من أجلها. وما استطاع عبد الرحمن القضاء على تمـرد البربـر هذا، والذي دام حوالي العشر سنين، إلا بعد أن تآمر اثنان من أعوان المكناسـي عليه وقتلاه في قرية العيون[1] وحملا رأسه إلى الأمير عبد الرحمن في قرطبة في سنة ٧٧٦ م (١٦٠ هـ). وربما ما كانت هذه المؤامرة بعيدة عن تدبير أمير قرطبة، حتى ولو لم يكن هناك ما يؤكد ذلك، لأنها قريبة من اسلوبه وطريقته في التعامل مع أخصامه كما مع المقربين منه. وبذا انتهت تلك الثورة البربرية والتـي أشاعـت ولسنوات عديدة الفساد وعدم الاستقرار في مناطق واسعة من بلاد الأندلس.

تجاوز هذه المحن والثورات المتتابعة، والتي كانت كثيرة جداً ما ذكرنا منها إلا ما كان هاماً وبارزاً ومؤشراً لخط سياسي ثابت ودائم، أظهر حنكة عبد الرحمن ودهائه وقدراته الفائقة على مواجهة الصعاب مما أفقد خصومه الكثر كل أمل في القضاء على دولته من الداخل. وعلى هذا فإن بعض الحاقدين النـاقمين علـى سلطانه ما ترددوا أخيراً في الاتجاه نحـو التعـاون مع قوى خارجية يستدرجونهـا لمساعدتهم على التخلص من الإمارة الأموية في قرطبة.

العلاقات مع النصارى:

أشرنا سابقاً إلى ان الأمير عبد الرحمن حاول منذ بداية حكمه أن يسير على سياسة تتسم بالواقعية والعقلانية. وعلى هذا اهتم أول أمره بقضايا الأمن الداخلي والقضاء على خصومه ومعارضيه لتحقيق وحدة الأندلسيين حول الإمارة.

ما حاول القيام بالفتوحات والغزوات في أراضي المسيحيين في إسبانيا أو في غالة. بل ربما كان موقفه تجاه هؤلاء يتسم في أكثر الحالات بالصفة الدفاعية أو السلبية. أغار إسبان الشمال أكثر من مرة في أوائل عصر الإمارة علـى حدودهـا الشمالية وتوسعوا في عمق الأراضي التي خلت من السكان المسلمين بعد ثورات البربر. والواقع إن هذه الغارات ما دامت طويلاً إذ سرعان ما استطاع الأمير الأموي

(١) أخبار مجموعة، صفحة ١١١.

الوصول إلى اتفاق سلمي معهم، أشاع الهدؤ على طول حدود الأندلس مع أراضي إسبانيا المسيحية في الشمال طيلة السنوات العشرين الأخيرة من حكمه.

أما توسع الإسلام في أراضي غالة فإنه كان قد توقف فعلاً بعد هزيمة معركة «بلاط الشهداء» وبصورة خاصة منذ منتصف القرن الثامن للميلاد وكان الكارولانجيون قد احتووا الوجود الإسلامي في أراضيهم وبدأوا مرحلة استرداد توجها بيبين القصير باستعادته القاعدة الإسلامية الهامة ناربونة سنة ٧٧٦ م وحصر وجود الإسلام في الأراضي الساحلية من مقاطعة سبتمانيا. هذه التطورات السلبية ما استطاع عبد الرحمن الداخل أن يهتم بها إلا بصورة هامشية أو إن أوضاع بلاده الداخلية ما تركته يفعل أكثر مما فعل.

ومن هنا فإن سياسة عبد الرحمن الداخل المتسمة بالسلبية حيال الفرنج ما كانت إلا لتشجع الكارولانجيين على مزيد من التوسع في غالة وأيضاً في الأندلس ذاتها. ولعل هذه السياسة هي التي جعلت شارلمان، بعد كل ما حققه في أول حكمه من انتصارات في أوروبا وخاصة ضد قبائل السكسون والآفار في بلاد الجرمان يفكر بإمكانية القيام بحملات وراء جبال البيرينيه تعيد للنصرانية أراضي القوط في شبه الجزيرة الإيبيرية أو ربما تمد حدود الدولة الكارولانجية من جهة الجنوب حتى جبل طارق. وفي وقت من الأوقات تلاقت هذه الرغبة مع تحركات بعض معارضي حكم الأمير الأموي داخل الأندلس مما دفع شارلمان نحو مغامرة كبيرة ضد المسلمين.

كان من أكثر الحاقدين على الأمير الأموي، والمناوئين لحكمه من أخصامه، عبد الرحمن بن حبيب الفهري وكان والياً على «أفريقية» ويرفع ولو شكلياً لواء الدولة العباسية. وأيضاً من الكارهين لهذا الحكم، كان هناك سليمان بن يقظان الأعرابي الثائر في أحواز سرغوسة، والمتمرد على سياسة عبد الرحمن الداخل لأنه كان يرى إنها تقوم على تقوية الحكم المركزي على حساب مراكز القوى في المقاطعات، وهو أبرزها، ولأنه كان يأخذ عليها تقارباً متزايداً مع

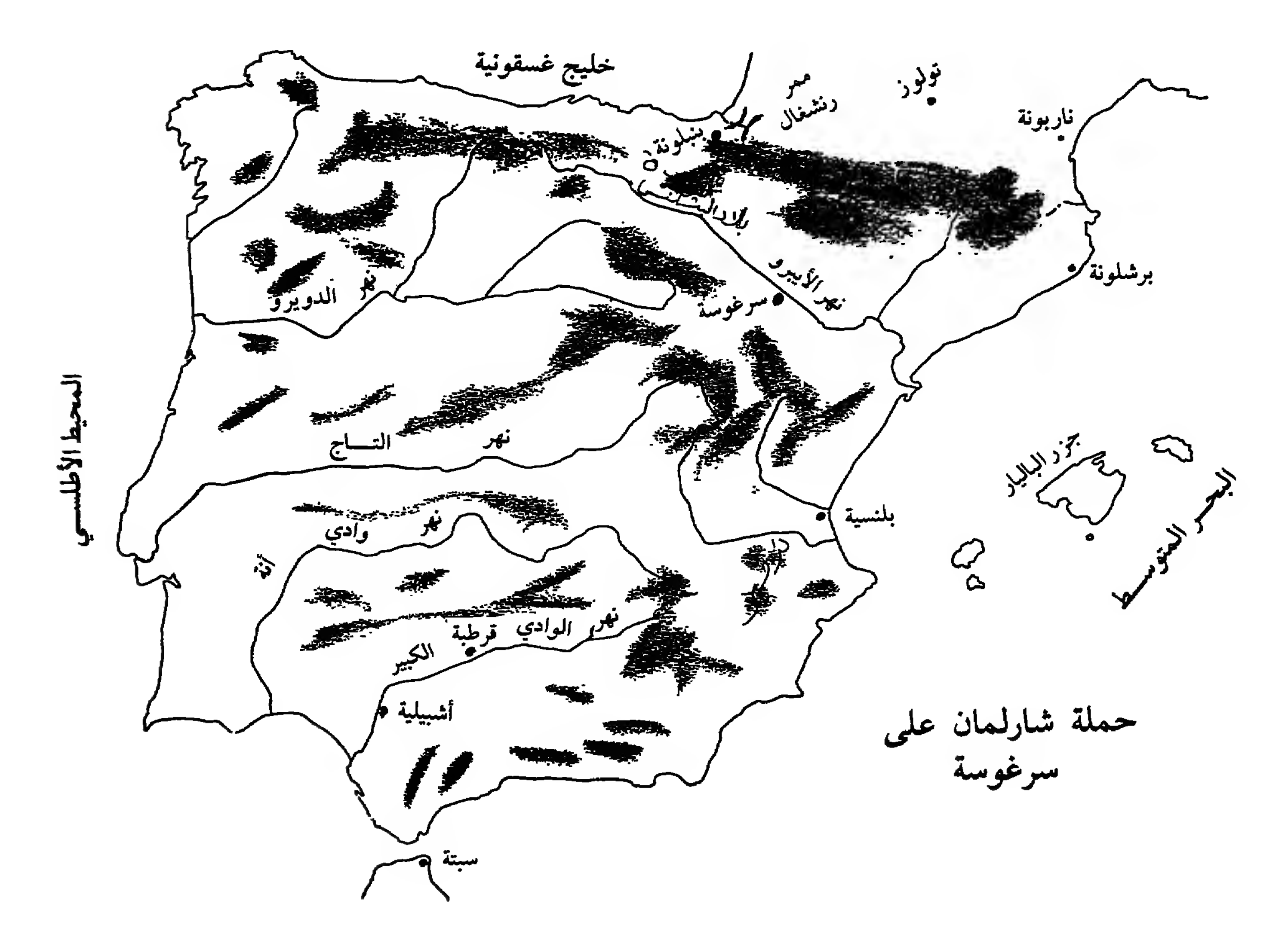
العناصر القيسية بعد أن استكانت. كان هذان الرجلان يعرفان شدة ولاء شارلمان للكنيسة ورغبته في التوسع على حساب دولة الإسلام في الأندلس فاتصلا به[1] واستعدياه على أميرهما ووعداه بالعون والمساعدة إذا قدم إلى إسبانيا.

وهنا لا بد من الإشارة إلى ان المصادر العربية وأيضاً الفرنجية المعاصرة للأحداث لا تمدنا بالكثير من الأخبار والروايات عن هذه الأحداث مما يسمح لنا بمعرفة المضمون الحقيقي لاتفاق شارلمان مع الداعيين. كل ما نعرفه هو ان سليما بن يقظان[2] وعده بمساعدته على دخول مدينة سرغوسة بالتواطؤ والاتفاق مع واليها حسين بن يحي الأنصاري[3] الذي كان عارفاً بالاتفاق وموافقاً عليه في البداية على الأقل. ولكن في سبيل أي هدف وبأي ثمن سيسلم الرجلان المدينة إلى شارلمان؟ بل أكثر من هذا لا نعرف إذا كان العباسيون قد شاركوا في هذه المؤامرة كما توحي بعض المصادر أم لا. نحن نعلم ان علاقة وثيقة كانت في هذه الفترة، تربط بين شارلمان والرشيد خليفة بغداد ونعرف إن عبد الرحمن بن حبيب الفهري، عامل العباسيين على «أفريقية» وحليف سليمان الأعرابي، قد نزل على شواطىء الأندلس في كورة تدمير (مرسية) ومعه بعض جيوشه. وفي حال مشاركة العباسيين في هذه المؤامرة وفي كون التمرد سيكون في النهاية لحسابهم فما هي مصلحة شارلمان باستبدال حكم مسلم بحكم مسلم؟ الأرجح ان الاتفاق ما كان ذا أبعاد كبيرة وواضحة وإنما استنجد الواليان بشارلمان كما كان يفعل عادة زعماء الأندلس من استعداء فريق على فريق ومحالفة فريق ضد آخر لأسباب آنية مؤقتة لا تلبث أن تزول وتتغير معها الأحلاف وتتبدل المواقع.

في ربيع سنة ٧٧٨ م (١٦١ هـ) وكان شارلمان قد انتهى من إنجاز واحد من أكبر انتصاراته العديدة على قبائل الساكسون، المعروفين بشدتهم وميلهم

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٦، صفحة ١٤.
(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٢، صفحة ١٤.
(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٦، صفحة ٦٢.



حملة شارلمان على سرغوسة

للمشاكسة، وفرض على كثيرين منهم قبول النصرانية ديناً لهم، خرج على رأس جيوشه الكبيرة إلى مقاطعة أكيتانيا. قسم جيشه إلى قسمين سار أحدهما عبر جبال البيرينيه في مناطقها الشرقية وقاد هو القسم الآخر من جهة الغرب ماراً بممر رونسفال[1]، عابراً بلاد نبرة أو بلاد البشكنس. ولما كانت قبائل البشكنس هذه دائمة الاستعداد للقتال حريصة على استقلالها تجاه كل غريب مسلماً كان أم نصرانياً فإنها ما رحبت بمرور جيوش شارلمان عبر أراضيها مما اضطره لمحاصرة عاصمتها بنبلونة واحتلالها. ومن هناك سار إلى سرغوسة حيث التقى بأحوازها بالجيش الآخر المتقدم من جهة الشرق.

قبل وصول شارلمان إلى أسوار مدينة سرغوسة كان عبد الرحمن الداخل قد بادر، على عادته في استفراد أخصامه، لمهاجمة كورة تدمير في شرق الأندلس ومقاتلة عبد الرحمن بن حبيب الفهري قبل أن ينجح في ملاقاة حلفائه في سرغوسة وتقديم العون لهم. وبسهولة ويسر انتصر الأمير الأموي ومزق الجيش الأفريقي وانتهى بن حبيب بالموت على يد أحد زعماء البربر[2] وربما كان ذلك بتدبير الأمير الأموي نفسه[3].

عندما واجه شارلمان أسوار سرغوسة ما وجد ما وعده به حلفاؤه من عون ومساعدة. ثم إن أهل المدينة أنفسهم، على كره جلهم وكانوا من اليمنيين للأمير الأموي، وكذلك عاملها الحسين بن يحي الأنصاري، رفضوا تسليم المدينة وأغلقوا الأبواب على أنفسهم وصمموا على الدفاع والصمود. ويبدو أن الأنصاري الذي كان في الأساس متآمراً مع سليمان الأعرابي وشارلمان تراجع عن تنفيذ ما اتفق عليه أمام معارضة سكان المدينة أو لأن نفسه تغيرت على حليفه

---

(١) ممر ضيق عبر القسم الغربي من جبال البيرينيه الذي يسميه العرب باب الشزري. وأيضاً باب شزروا كما عند الشريف الأدريسي في كتابه «نزهة المشتاق».

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٨٣.

(٣) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٦، صفحة ٥٤.

واختلف معه حول الزعامة القيادة. شدد شارلمان الحصار وأصر على دخول المدينة وتحطيم مقاومتها لأنه ما أراد أن يسجل على نفسه هزيمة أمام المسلمين بعد كل ما حقق من انتصارات في أوروبا. إلا انه في أحرج الأوقات وردته من بلاده أخبار سيئة تفيد بان شعب السكسون الذي كان قد أخضعه وانتصر عليه قبل المجيء إلى إسبانيا، استغل غياب شارلمان ومشاغله ورفع مجدداً لواء العصيان والتمرد وطرد من أراضيه الرهبان والقسس وعاد عن النصرانية. ومن هنا ما عاد شارلمان كثير الرغبة في أن يبقي نفسه رغم كثرة جنده في مناطق وعرة، بعيداً عن موطنه وعن مصادر تموينه، وبين قوم معادين له بدرجة كبيرة ولا يقلون عنه شراسة وميلاً للقتال والمشاكسة.

ورجع شارلمان عن أسوار سرغوسة خائباً خالي الوفاض إلا من بعض الرهائن والأسرى من حلفائه السابقين ومنهم سليمان بن يقظان الأعرابي. وفي طريق العودة مر بأراضي البشكنس الذين ما استقبلوه بترحاب ومسالمة مما اضطره لاقتحام عاصمتهم بنبلونة وتهديم أسوارها والانتقام من أهلها. تابع بعد ذلك سيره عبر نفس الطريق التي جاء منها. وعند عبوره ممر رونشفال الضيق أصيب بكارثة رهيبة إذ هاجمت مؤخرة جيوشه جموع من البشكنس وكذلك بعض العرب ومنهم عيشون ومطروح من أبناء سليمان الأعرابي أسيره وقد نجح العرب في استعادة سليمان وبعض رفاقه من الأسر[1] وحصل الفريقان المهاجمان على كثير من الأسلاب والغنائم من بينها خزائن شارلمان نفسه.

وقد خلد الفرنسيون أخبار هذه الهزيمة وذكر من استشهد فيها وخاصة القائد الشاب الشجاع رولان في ملحمة شعرية غلب عليها الطابع الأسطوري ظهرت بعد ذلك بعدة قرون وعرفت في تاريخ الأدب الفرنسي باسم «مغناة رولان» la Chanson de Roland. هذه الهزيمة التي مني بها شارلمان قد أذهبت نهائياً ما كان

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٦، صفحة ١٤.

ربما قد مر في خاطره من رغبة أو تصميم على القضاء على الدولة الأموية في الأندلس أو إزالة الإسلام الأوروبي كما توحي بذلك بعض المصادر الفرنجية. هذا مع العلم انه مهما كانت ظروف ونصوص اتفاق شارلمان مع العصاة الأندلسيين قبل حصار سرغوسة فإن الأحداث أثبتت ان هذا التحرك كان على الأرجح وليد رغبات آنية وليس في إطار خطة ثابتة لاحتلال إسبانيا. ذلك انه بعد هذه الهزيمة سلم شارلمان بالدولة الإسلامية المجاورة على انها واقع سياسي وعسكري لا يمكن تغييره أو تجاوزه وعلى هذا صمم على اعتبار جبال البيرينيه حدوداً ثابته بين بلاده وبين الأندلس. ولضمان أمن حدوده مع المسلمين أقام في أراضي أكيتانيا دويلة أعطى عرشها لابنه لويس تكون مهمتها السهر على الحدود مع المسلمين وتشكل قاعدة دفاعية أمامية للكارولانجيين. وإلى جانب ذلك ما تردد بعد ذلك في أن يتصل بالأمير الأموي ويتبادل معه الرسل والبعثات وربما الهدايا ويقيم مع دولته شكلاً من أشكال الهدنة استمرت حتى أواخر القرن الثامن للميلاد.

تنظيمات عبد الرحمن الداخل:

إذا كان عبد الرحمن الداخل قد قضى أكثر سنوات حكمه في مقارعة العناصر الثائرة والمتمردة وفي القضاء على العصبيات وعلى عناصر الفرقة والإنفصال، حتى تمكن من تثبيت دعائم حكمه وتأكيد وجود إمارة بني أمية الناشئة، فإنه ما استبعد إطلاقاً عن اهتماماته الجوانب الحضارية. اهتمامه الدائم بالأمور العسكرية ما منعه من العمل الدائم في تنظيم أمور حكومته وتدبير شؤون الناس اليومية. فالولاة الذين تعاقبوا على الحكم قبله أبقوا النظم الإدارية والحكومية التي وجدوها في البلاد والتي خلفها الرومان ثم القوط الغربيون، إلا انهم أدخلوا عليها بعض التعديلات التي تفرضها الشريعة الإسلامية. وفي هذا كانوا إلى حد كبير مقلدين لما سبقهم إليه الأمويون في الشام وهذا هو ما أطلق عليه المؤرخون الأندلسيون اسم «التقاليد الشامية». إنما تبدل الأحوال وظهور نظام

سياسي جديد، مع قيام الإمارة الأموية، كان لا بد أن يجعل الأمير عبد الرحمن يدخل الكثير من التغييرات والتعديلات لتأمين ديمومة نظامه واستقراره ولكن دون أن يبتعد كثيراً عن «التقاليد الشامية». ذلك إن متغيرات كثيرة استجدت منذ نزوله في الأندلس كان لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار. في أيام الولاة ما كانت بلاد الأندلس أكثر من مقاطعة صغيرة في آخر أطراف أعظم وأكبر دول العصور الوسطى. إنما مع عبد الرحمن الداخل باتت هذه المقاطعة دولة مستقلة ذات حدود سياسية وجغرافية واضحة المعالم. وصحيح إن عبد الرحمن الداخل ما اتخذ لنفسه صفة الخليفة لاعتبارات كثيرة ذكرناها آنفاً. وصحيح أيضاً إنه أبقى ولمدة عشرة أشهر تقريباً الدعاء على منابر مساجد الأندلس للخليفة العباسي، ولولا تدخل ابن عمه عبد الملك بن عمر المرواني[1] بعنف وإصرار لما كان تجرأ على قطع الدعاء لهم. إنما من المؤكد ان هذا ما كان له أي مدلول سياسي أو رغبة في الإبقاء على صلة ولو واهية مع بغداد وإنما كان مبعثه احترام موروث لمنصب الخلافة بمعزل عن شخص الجالس على سدتها. ومن هذا التطور انبثقت ضرورة تعديل النظم الإدارية والمالية وفق الأوضاع التي استجدت مع قيام عصر الإمارة.

على صعيد التنظيم الإداري أبقى على تقسيمات البلاد إلى مقاطعات أو كور (كورة) كما كان الأمر قبل ذلك. وكان يرأس كل كورة عامل أو وال يقيم في واحدة من كبريات حواضرها. والتجديد الهام الذي أوجده الأمير عبد الرحمن انه جعل على رأس حكومته ومساعديه موظفاً اسمه «الحاجب» يتقدم على الجميع بما في ذلك الوزراء ومستشاري الأمير. يرأس «الحاجب» الجهاز التنفيذي للدولة وينوب عن الأمير[3] ـ والخليفة فيما بعد. واستمر هذا التقليد ولمدة طويلة أيام الدولة الأموية في الأندلس كما زادت سلطات هذا الموظف وكثرت مهامه وعلي

---

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ١، ص ٣٦.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ٥٩.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٢١٦.

قدره مع تعاظم قدرات الدولة وسمـو مكانة الإمارة. ونظراً لأهمية هذا المنصب ولكون الأمير عبد الرحمن بقي حتى آخر حياته يشعر بالغربة والعزلة في الأندلس مما ولد عنده شعوراً متزايداً بعدم الثقة بالناس فإنه اعتمد في هذا المركز على أقرب الناس إليه وأشدهم ولاء لشخصه دون اعتبار لكفاءتهم ولخبراتهم الإدارية. وقد تعاقب على منصب الحاجب في ظل دولة الأمير عبد الرحمن خمسة أشخاص هم: تمام بن علقمة، ويوسف بن بخت، وعبد الكريم بن مهران، وعبد الحميد بن مغيث، ومنصور فتاه.

ويلي في الأهمية منصب الوزير يعينه الأمير لمساعدته في ما يوكل إليه، دون تحديد دائم، من مهمات ويستشيره في بعض الأمور ويشركه في مجالسه. لم يكثر عبد الرحمن الداخل من تعيين الوزراء، ربما لكونه كان يفضل، نظراً لقلة ثقته بمن كانوا حوله، إبقاء كل السلطة والنفـوذ بين يديه وأكثـر بالمقابـل من تعيين المستشارين والأعوان المباشرين. ولم نعرف من وزرائه سوى أربعة: عبيد الله بن عثمان، عبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت، وحسـان بن مالك[٢]. وكان يختار لوظيفة الوزير كما لوظائف العمال على المقاطعات أو الكور أمراء من بني أمية من الذين وفدوا عليه بكثرة أو من المخلصين من موالي بني أمية. وفيما عدا ذلك من الوظائف الكبرى كان يختار لها من المسلمين إذا كانت طبيعة الوظيفة تفرض أن يكون صاحبها عارفاً بالقرآن والحديث مثل وظيفة صاحب الشرطة، أو صاحب الخراج أو القاضي. أما سائر الوظائف فإنه كان يعتمد لها موظفين من أبناء البلاد الأصليين، بغض النظر عن عقيدتهم، لأنهم كانوا أدرى بالقوانين والنظم التفصيلية السائدة في البلاد قبل دخول الإسلام والتي أبقى عليها المسلمون طالما كانت لا تتعارض مع أحكام دينهم.

وفيما يتعلق بالنظم المالية فإن المصادر التاريخية الإسلامية لا تشير إلى انه

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧٢.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٧١.

أحدث تغييرات هامة بالنسبة للنظم التي أقامها الولاة انطلاقاً مما وجدوه في إسبانيا ومما حملوه معهم من بلادهم سواء أكان مستمداً من الشريعة الإسلامية أو التقاليد الشامية في المال والإدارة. وكل ما نعرفه في هذا المجال إنه حاول أن يخفف من أعباء ضريبة الخراج لتحسين أحوال الفلاحين والمزارعين ولكسب ولائهم.

وعلى صعيد التنظيم العسكري فقد أدرك بتجاربه الكثيرة ومما عرفه عن أيام الولاة إن الجنود المسلمين، بسبب التراث والتقاليد القبلية عند العرب كما عند البربر، كان ولاؤهم دوماً لعصبياتهم ولزعمائهم بالدرجة الأولى ثم بعد ذلك للدولة والحاكم. ولما كان هو ما استطاع أن يعتمد على حزب أو عصبية يثق بها ويصدق ولاؤها له، فقد مال بعد أن انتصف حكمه لإيجاد جيش دائم منظم يكون ولاؤه للدولة ولسيدها فقط. هكذا جيش ما كان بالإمكان إعداده من عرب الأندلس أو بربرهم أو من كليهما معاً. لذا أخذ ينظم جيشه من مرتزقة من شجعان البربر يأتي بهم مباشرة من المغرب بعيدين عن حساسيات الأندلس وخلافاتها المزمنة، يدينون له وحده بالولاء لأنه مصدر رزقهم الدائم ودافع رواتبهم. وكذلك استقدم إلى هذا الجيش أعداداً كبيرة من أسرى الصقالبة الأوروبيين المشهورين بقوة أبدانهم وشجاعتهم، وأيضاً ضم إليه جنداً من أبناء البلاد الأصليين ممن أسلموا أو ممن بقوا على نصرانيتهم. وهكذا بات له في السنوات الأخيرة من حكمه جيش قوي وعظيم التدريب بلغ تعداده حسب أكثر الروايات المعاصرة ما يزيد على أربعين ألف جندي. وكانت دوماً صلته وثيقة بهذا الجيش إذ اعتاد في أكثر الحالات أن يقود جنوده بنفسه في الصوائف والشواتي كما في حملاته على أخصامه، فيعايشهم ويتحمل المشاق معهم ويكرم الشجاع منهم ويواسي المصاب من بينهم مما كان يزيد من ولاء هذا الجيش للأمير ومن إخلاصه لدولته. بهذا الجيش المحترف والبعيد عن العصبيات القبلية تأكدت سلامة الحدود الخارجية وقامت إمكانية دائمة للقضاء على كل ثورة أو تمرد وأيضاً تدعمت ديمومة واستمرارية الحكم والدولة والإمارة.

العمران والثقافة:

عندما اختيرت قرطبة لتكون عاصمة لدولة الإسلام في الأندلس كانت مدينة صغيرة ولكنها ما لبثت أن صارت عاصمة لدولة مستقلة متزايدة النمو والسلطان، فتكاثر سكانها بسرعة مدهشة وضاقت بهم أحياؤها وشوارعها وكثرت حولها الأرباض. عمل عبد الرحمن بهمة وسخاء على مواكبة تطور عاصمته فأغناها بالمنشآت العامة والمباني والقصور. اجتهد في تطويره لعاصمته أن لا يخرج على التقليد الشامي في الطرز المعمارية المعتمدة في أيام الولاة. لقد أظهر حرصاً مدهشاً على تقليد العاصمة دمشق في منازلها وشوارعها وحدائقها. وما نسي وهو يعمل على تطوير قرطبة أن ينقل إليها الكثير من أشجار الفاكهة الدمشقية[١] والتي ما كانت قبل ذلك معروفة في شبه الجزيرة الإيبيرية. ومما ساعده في تقليد دمشق خاصة في نظمها المعمارية كون قرطبة في موقعها ومناخها ووفرة مياهها وبيئتها الجغرافية عظيمة الشبه بالعاصمة الشامية.

ولعل أعظم ما قام به في مجال العمران مباشرته في بناء المسجد الجامع مكان كنيسة قوطية قديمة استملكها من نصارى المدينة بتعويض كبير بلغ مائة ألف دينار ذهبي[٢]. أراد أن يقلد المسجد الأموي في دمشق فجلب إليه أبرع المهندسين واستورد الرخام الممتاز والأعمدة الفخمة من مناطق الأندلس وحتى من خارجها. لقد بالغ في الاهتمام بأن يأتي مسجده تحفة تليق بدولته حتى إنه صرف في أعمال البناء التي أنجزت على حياته حوالي مائة ألف دينار[٣]. توفي الأمير عبد الرحمن قبل أن ينتهي بناء الجامع الذي أنجزه ابنه هشام بن عبد الرحمن فجاء أجمل وأبدع من المسجد الأموي في دمشق ولو كان مشابهاً له في نقوشه كما في مداخله وعقوده ومنارته.

---

(١) المقري، نفح الطيب، الجزء ١، صفحة ٥٤٦.

(٢) المقري، نفح الطيب، الجزء ١، صفحة ٥٤٦.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٥٤٦ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٨٦.

واهتم أيضاً بالقصر أو دار الإمارة الذي كان مجاوراً للمسجد، وحيث كان ينزل هو وعائلته فعمل على إعادة بنائه وتجديده إذ كان قديماً في عمارته يعود إلى أيام القوط. وكما كان لجده هشام بن عبد الملك قصر، أو دار ريفية، خارج دمشق يعرف باسم الرصافة كذلك أقام عبد الرحمن لنفسه قصراً على منحدر جبل يطل على قرطبة أسماه «قصر الدمشق» وأبدع في بنائه وتزيينه على النمط الدمشقي وأقام حول القصر حدائق واسعة غرسها بكل ما استطاع نقله، أو أرسلته له اخته أم الأصبغ من بلاد الشام، من أشجار الفاكهة والزينة. وقد عرف هذا القصر الذي كان يقضي فيه أوقات راحته وفراغه باسم «منية الرصافة».

وما نسي في اهتمامه بعاصمته قرطبة أن يعيد بناء وترميم سورها القديم الذي أتت عليه عاديات الزمن والذي زادت في تخريبه الحروب الأهلية والثورات. وقد استغرق استصلاحه خمس سنوات وتكلف أموالاً وفيرة.

على صعيد الفكر والثقافة ما حققه عبد الرحمن كان قليلاً بحيث يصعب الحديث عن حياة فكرية وثقافية على أيامه. فالناس منذ حل المسلمون في الأندلس حتى زمنه هو شغلتهم أول الأمر أمور الفتح والتوسع ثم شغلوا بالحروب الأهلية والخلافات القبلية والعنصرية فما اهتموا بأدب أو شعر أو فلسفة. وإذا أمكن تلمس جوانب بعض النشاط الأدبي على أيامه فما كان ذلك إلا ترداداً وتقليداً لما عرفته بلاد الشام أيام الأمويين. والشعراء وإن كثروا، وكان منهم أمراء ورؤساء قبائل، فما كان شعرهم إلا صورة للشعر العربي في العصر الأموي يصعب إلى حد كبير تلمس أثر للبيئة أو الأرض أو المحيط فيه. والغريب ان الأمير عبد الرحمن نفسه كان أديباً وشاعراً ممتازاً نقلت لنا المصادر التاريخية نتفاً من قصائد قالها في بعض المناسبات لا تخلو من الإجادة ولو إنها خلت من الجدة، إلا انه ما نجح في دفع رعاياه نحو مباشرة حياة ثقافية وأدبية تذكر.

وحتى على صعيد الحياة الدينية، والتي كانت محور اهتمامات الأندلسيين الفكرية، فما كان هناك نشاط مميز يستحق الذكر. والإنجاز الوحيد الذي تحقق

في هذا الإطار هو وصول مذهب الإمام الأوزاعي في الفقه الذي حمله إلى الأندلس القاضي الغرناطي أسد بن عبد الرحمن السبأي، في رواية وفي أخرى صعصعة بن سلام الشامي ثم تعميمه في مساجد البلاد وأوساطها الدينية والقضائية. وعلى هذا صارت الأندلس أيام عبد الرحمن تعتبر مذهب الأوزاعي المرجع الأول في أمور القضاء والتشريع. وفي هذا المجال أيضاً ما كان الأندلسيون إلا مقلدين لأهل الشام. وربما إن ما شجع الأندلسيين على اعتماد هذا المذهب اهتمامه بالتشريعات والاجتهادات المتعلقة بقوانين الحرب وأحكام الجهاد مما كان الأندلسيون في أمس الحاجة إليه لكونهم في حرب دائمة مع جيرانهم النصارى.

وفاته:

وفي تشرين أول من سنة ٧٨٧ م (ربيع الثاني ١٧٢ هـ) توفي الأمير عبد الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الأول، لكونه أول ثلاثة من حكام بني أمية في الأندلس سموا بعبد الرحمن، والمشهور أيضاً باسم الداخل لكونه دخل على الأندلس ولم يولد فيها. مات الأمير الأموي عن عمر ناهز الستين عاماً كان حافلاً بالعذاب وأيضاً بالنضال والكفاح من أجل إقامة مجد لبني أمية في الغرب بعد أن أفل في الشرق، وأيضاً من أجل إقامة دولة لنفسه، وفوق هذا وذاك من أجل ترسيخ دعائم دولة الإسلام في الأندلس بعد أن عصفت بها الأنواء وزعزعت قواعدها الخلافات الداخلية، وهددت حدودها الأطماع والأخطار الخارجية. وهو في كل ذلك نجح إلى حد كبير، إلى الحد الذي جعل ألد أعدائه الخليفة المنصور يقدمه في الشجاعة والبراعة على نفسه ويعطيه لقب «صقر قريش»[1]. ولعل أبرز ما نجح فيه هو انه تمكن من تأكيد سلطان الدولة وديمومته بحيث انتقلت الإمارة إلى ابنه هشام بن عبد الرحمن بصورة طبيعية وهادئة.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٨٦ ـ أخبار مجموعة، صفحة ١١٦.

الفصل الثاني

الأمير هشام بن عبد الرحمن
(الرضا)
(٧٨٨-٧٩٦م) (١٧٢-١٨٠هـ)

إذا كان عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ما استطاع عند وفاته القضاء على كل العصبيات العربية والحساسيات البربرية فمن المؤكد انه ترك لخلفائه دولة قوية تقوم على دعائم سياسية ثابتة، وتعتمد على جيش قوي عظيم التنظيم، كبير الولاء للدولة وحدها. بل أكثر من ذلك فمن المؤكد انه أضعف تلك العصبيات وحد من قواها وقدراتها بما ساقه ضدها من حملات منظمة خلال ثلث قرن تقريباً بحيث بسط سلطان دولته ورفع علم إمارته على كل ديار إسبانيا الإسلامية، وباتت دار الإمارة في قرطبة تحكم بصورة جدية ومركزية كل بلاد الأندلس، وربما لأول مرة منذ ارتفع في سمائها لواء دولة الإسلام في مطلع القرن الثامن للميلاد.

على انه ساعة وفاته ما كان قد حسم أمر خلافته من بعده، ولا كانت مشاغله الوفيرة أيام حكمه سمحت له بأن يضع نظاماً لولاية العهد في إمارته. والواقع إنَ المنية وافته في وقت ما كان قد اختار أحد اثنين، من أولاده الأحد عشر، هما سليمان وهشام. ذلك إن الأمير عبد الرحمن كان دائماً يتردد في الاختيار بين

أحدهما لخلافته وهذا ما أثار عند المؤرخين بعض الاضطراب حول هذا الموضوع. من هنا رأينا بعضهم مثل المقري[1] يميل إلى تأكيد تسمية الأمير عبد الرحمن لولده هشام كخليفة له. بل أكثر من ذلك كثيراً ما عبر عن حبه لهشام وإعجابه به فكان يردد أحياناً: «إن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال». والواقع إن الاختيار بين الاثنين ما كان سهلاً على الإطلاق لأنه كان يرتبط بالتوازنات السياسية والعنصرية القائمة في الأندلس. فالخلاف بين الأخوين والتنافس بينهما اشتد في السنوات الأخيرة من حياة الأمير مما جعله يتردد في إعلان قراره الحاسم. فابنه سليمان هو من مواليد بلاد الشام ومن أم عربية ولذا كانت علاقته بالعرب الشاميين وثيقة فأمدوه بالتأييد والدعم وبات المعبر عن مصالحهم والمدافع عن اتجاهاتهم في أوساط الحكم والدولة. أما هشام فقد ولد من أم إسبانية تدعى جمال[2] وفي إسبانيا وحدها عاش وترعرع، فهو أحد أبناء جيل المولدين الذين كان عددهم في تزايد مستمر والذين كانوا يمثلون بحق مصالح أبناء البلاد الأصليين عامة ومن اعتنق الإسلام منهم بصورة خاصة. وكل ما استطاع الأمير عبد الرحمن فعله ساعة وفاته أن ترك بين يدي ولده الثالث عبد الله المعروف بالبلنسي وصية على شيء من الغموض إذ قال له: «من سبق إليك من أخويك فارم إليه بالخاتم والأمر، فإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له»[3]. عند وفاة الأمير كان هشام بماردة مقر ولايته وكان أخوه سليمان في طليطلة حيث له مؤيدون وأشياع كثر.

قدم هشام من ماردة قبل سليمان فدخل قرطبة وحل في قصرها وتسلم خاتم الإمارة. ومن الطبيعي أن لا يرضي هكذا حل وهكذا وصية غامضة سليمان الذي

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٣٤.

(٢) وفي رواية أخرى حلل.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٢.

طالما أعد نفسه للإمارة إذ كان دوماً يرى انه الأحق والأجدر لكونه الابن الأكبر لأبيه، ولكريم محتده من جهة الأب كما من جهة الأم. اتخذ سليمان من طليطلة مقراً له وحصل على بيعة أبنائها لشخصه كما أعلن نفسه أميراً شرعياً على الأندلس وبدأ يجمع حوله المؤيدين والأنصار للزحف على قرطبة. وما لبث عبد الله البلنسي، ثالث أولاد الأمير المتوفي، أن نقم على أخيه هشام تفرده بالحكم واستئثاره بالسلطان وانضم إلى جانب شقيقه الأكبر سليمان الثائر في طليطلة.

وحين اكتملت استعدادات سليمان ووافاه أنصاره بما يلزمه من الرجال والعدة قرر في سنة ٧٩٠ م (١٧٣ هـ) الزحف على قرطبة ومباغتة أخيه[1]. ويبدو ان هذا ما كان غافلاً عما يجري في الشمال فتحرك في الوقت المناسب بجيوشه لإلقاء الحصار على طليطلة. وقبل أن يصل سليمان وأتباعه من المتمردين إلى العاصمة لاقاهم أهلها فهزموهم وردوهم على أعقابهم. بعد هذه الهزيمة آثر سليمان أن لا يواجه شقيقه الأمير مباشرة فتوجه إلى جهات ماردة يريد أن يستقر فيها غير ان عامل هشام على المدينة هزمه وطرده من المنطقة فاعتصم في بعض قرى وثغور كورة تدمير (مرسية)[2]. تشدد هشام في حصار طليطلة، التي بقيت على عصيانها، مدة فاقت الشهرين دون جدوى فعاد عن أسوارها. وما لبث عبد الله البلنسي، أن مل الثورة والتشرد فانصرف إلى أخيه الأمير هشام طالباً الصفح والأمان فقبل منه وأكرمه وأنزله عند ابنه الحكم[3] إلا انه فضل مغادرة البلاد فهاجر إلى المغرب حيث بقي إلى ما بعد وفاة شقيقه. وفي سنة ٧٩١ م (١٧٤ هـ) وجه الأمير هشام حملة عسكرية إلى كورة تدمير بقيادة ابنه معاوية الذي أشاع فيها الذعر والدمار مما جعل سليمان يستكين ويطلب الأمان والصفح. اشترط عليه الأمير للقبول منه الخروج عن الأندلس ويعطيه ستين ألف دينار. وافق سليمان وركب

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٣.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٤.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٤.

البحر بأهله وولده وحل ببلاد البربر في المغرب فكفاه الله أمر إخوته[1].

بيدو ان العصبيات العربية، على ما أنزل بها عبد الرحمن الداخل من ضربات، كانت ما تزال حاقدة على سلطان بني أمية، ناقمة على كل حكم مركزي قوي إذا كان لا يحقق لها أغراضها وأنانياتها، وإذا كان لا يفسح لها للمشاركة في السلطان ولا يوسع لها في المنافع. والواقع إن مصالح هذه العصبيات من عربية وبربرية كان لا يمكن أن تتوافق مع ما سعى إليه وأقامه الأمويون من حكم مركزي ثابت يتصف بالاستقرار والديمومة. وعلى هذا فإن اليمنيين تحركوا مباشرة بعد وفاة عبد الرحمن الداخل معتبرين ان في تغيير الأمير وما استجد من صراع بين أبنائه ثغرة واسعة يمكنهم العبور من خلالها لتحقيق بعض مصالحهم. ثار سعيد بن حسين الأنصاري في أقليم طرطوشة ثم أقبل إلى سرغوسة فاحتلها وطرد واليها ودعا إلى نفسه. وليقوي من مركزه أثار الحساسيات والعداوات القديمة بين اليمنية والقيسية فتصدى له أحد زعماء الشمال من المولدين، موسى بن فرتون، وكان من أنصار القيسية ومن مؤيدي أمير قرطبة فهزمه وأخرجه من سرغوسة بعد معركة رهيبة لعبت فيها العصبية العربية دوراً بارزاً فكان القتلى بأعداد كبيرة. ثم ثار بعد ذلك زعيم آخر من اليمنيين في الشمال في منطقة برشلونة هو مطروح بن سليمان بن يقظان الأعرابي الذي التفت حوله جموع غفيرة ونشر سلطانه على وشقة وسرغوسة مع كامل أقليمها[2] مستغلاً انشغال الأمير بتمرد شقيقيه. وفي سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ) ندب الأمير هشام قائده عبيدالله بن عثمان لفرض النظام في مناطق الثغر الأعلى حيث يرفع اليمنيون لواء التمرد والعصيان. حاصر عاصمة المتمردين سرغوسة حصاراً طويلاً وشديداً ضج منه السكان وتآمر بعضهم على الزعيم الثائر مطروح فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى القائد الأموي الذي كان آنذاك في طرطوشة بعد أن فرغ من إخضاعها وإعادتها إلى الطاعة. سار بن عثمان إلى سرغوسة عاصمة

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٤.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٣.

الثغر الأعلى فدخلها ورفع عليها لواء الأمير الأموي[1].

وما تخلف البربر كعادتهم عن ركوب مركب التمرد والثورة فرفعوا لواء العصيان سنة ٧٩٥ ـ ٧٩٦ م (١٧٨ هـ) وثاروا في مدينة تاكرنا في أقليم روندا وقتلوا عدداً كبيراً من العرب المقيمين هناك وهجروا آخرين. أرسل لهم الأمير هشام جيشاً قضى على تمردهم بشدة وقساوة وقضى على أكثرهم وهجر من بقي منهم حياً وظلت تاكرنا بعد ذلك سنوات كثيرة خالية من الناس[2].

وهنا لا بد من الإشارة إلى ان السرعة التي تمكن فيها الأمير هشام من السيطرة على زمام الحكم والدولة والسهولة التي قضى بها على حركات التمرد تدل بوضوح على أمرين: أولهما ان الدولة التي أقامها عبد الرحمن الداخل قد باتت بالفعل حقيقة واقعة قادرة على مواجهة كل الاحتمالات متى توفر لها سيد أو أمير يتصف بالحزم والجرأة ويتميز بخصائص رجل الدولة وهي أمور ما كان يفتقدها الأمير هشام. وثانيهما ان الجيش النظامي الذي ورثه عن أبيه كان على درجة رفيعة من الفعالية والولاء للدولة كائناً من كان في رأس السلطة فيها. ولعل هذا الواقع الذي أبرزته أحداث البلاد الداخلية منذ تولي الأمير هشام السلطة هو الذي سيدفعه في طريق العودة إلى سياسة المواجهة مع الإسبان المسيحيين في الشمال وأيضاً مع الغاليين وهي السياسة التي كان والده قد عزف عنها أو اضطر للعزوف عنها بسبب أوضاعه الصعبة.

العلاقات مع نصارى الشمال:

كان الأمير هشام بطبعه كريم النفس، عاقلاً تقياً متديناً. بل أكثر من ذلك، منذ تنبأ له أحد المنجمين انه لن يعيش ليحكم أكثر من ثماني سنوات[3]، مال نحو

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٥.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٦.
(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٣٥.

التزام أفعال البر والزهد في الدنيا. هذه الميزات هي التي جعلت الناس تطلق عليه لقب «الرضا» وهي الصفة التي لازمت اسمه في مصنفات المؤرخين المسلمين. ومع ان هذه الصفات كلها لا تجعل منه رجل حرب وقتال بصورة عامة إلا ان تدينه الشديد جعله ينزع، بعد أن تأكد من وحدة الأندلسيين في طاعة أميرهم ومن استكانة المعارضين للأمر الواقع، نحو سياسة الغزو والتوسع في أراضي الإسبان النصارى كما في بلاد غالة التي توقفت الغزوات باتجاهها منذ هزيمة عبد الرحمن الغافقي سنة ٧٣٢. ولعل أكثر ما آذاه في ورعه وتقاه، وما دفعه للإسراع في تحقيق السياسة المذكورة ما صار يشيعه أخصامه من انه لا خير في أمير لا يحارب إلا أبناء دينه.

أساساً ما هادن نصارى الشمال كثيراً، الأمير هشام الرضا، إذ درجوا منذ وصوله إلى السلطة على الاعتداء على حدود الأندلس والإغارة على المناطق القريبة منهم كلما أمكنهم ذلك. وعلى هذا ما أن فرغ من القضاء على حركات التمرد التي قامت بوجهه في الأندلس حتى بادر إلى إرسال جيش ضخم بقيادة عبيد الله بن عثمان إلى منطقة ألبة والقلاع[١] (قشتالة القديمة) في صيف سنة ٧٩١ م (١٩٥ هـ)[٢]. حيث لقي جموع الإسبان فنازلهم وانتصر عليهم. كذلك حقق قائده يوسف بن بخت وفي نفس السنة انتصاراً على جيوش برمودو ملك جليقية، الذي انهزم عسكره وقتل منهم خلق كثير، وعاد المسلمون إلى قرطبة بالوافر من الغنائم والسبي.

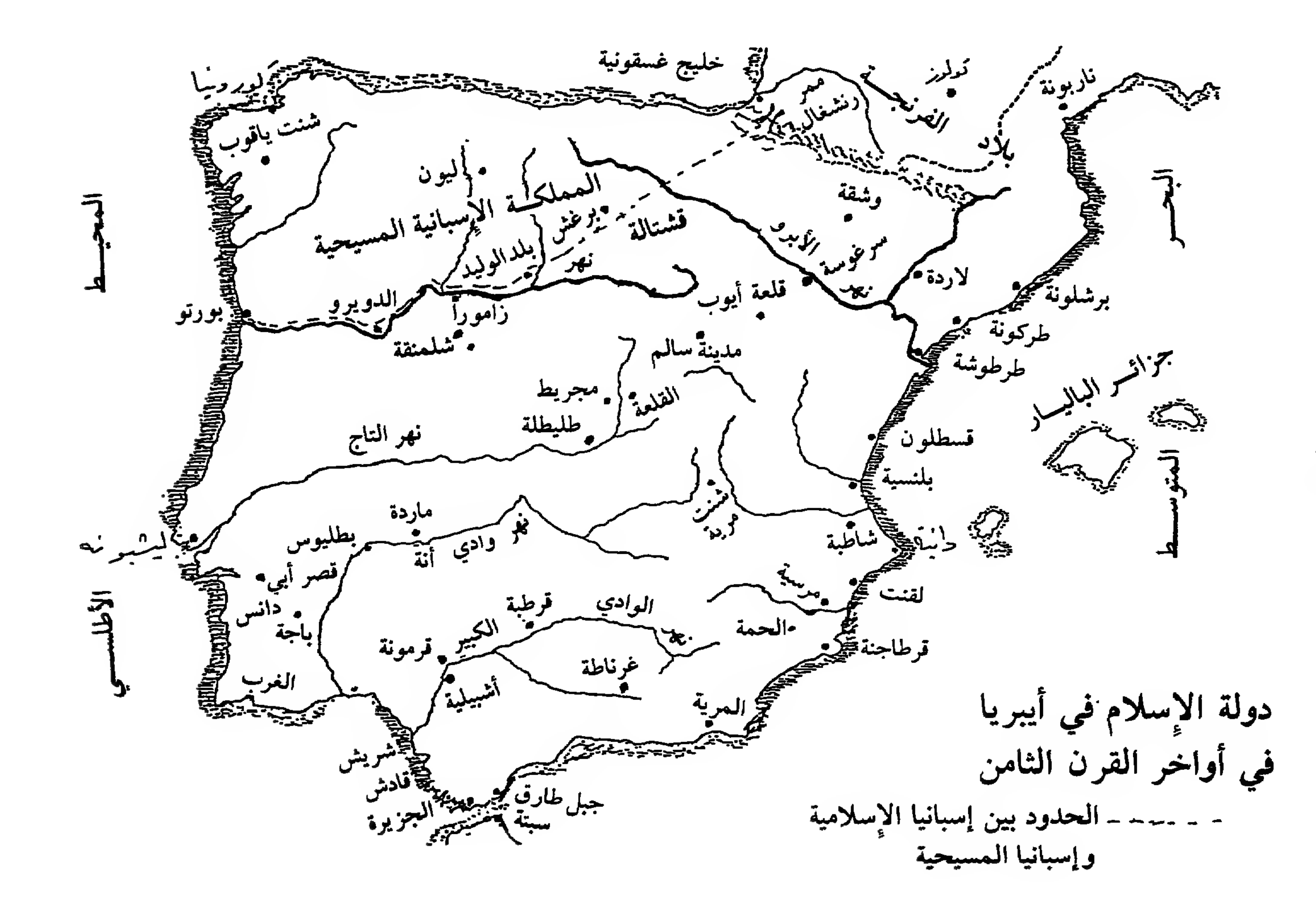
وأمام نجاح الجيش الأموي في الانتصار أكثر من مرة على جيوش الإسبان النصارى رأى الأمير هشام أن يوسع مجال غزواته فوجه في سنة ٧٩٢ م (١٧٧ هـ) بقيادة الوزير عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث[٣]، حملة إلى أراضي سبتمانيا،

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٥.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٣٧.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٣٧ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٩٥.



دولة الإسلام في أيبريا
في أواخر القرن الثامن
- - - - - الحدود بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية

في جنوب غالة، في محاولة لاسترجاع بعض ما كان شارلمان قد استولى عليه من أيدي المسلمين. استغل الأندلسيون آنذاك انشغال شارلمان في حروبه ومتاعبه في شبه الجزيرة الإيطالية ومع قبائل الساكسون فعبروا أراضي غالة بعد أن كانوا قد هاجموا وخربوا ـ مدينة خيرونا (جرندة)[1] في شمال شرق إسبانيا، فانتصروا في أكثر من معركة وهدموا الكثير من القلاع والحصون وسجلوا نصراً كبيراً على دوق مدينة تولوز الذي أرسله شارلمان للتصدي لهم. وكان هذا الانتصار بالقرب من مدينة ناربونة، وحصلوا بنتيجته على مكاسب عظيمة من الأسلاب والغنائم.

هذه المعركة رفعت كثيراً من معنويات دولة الأمير هشام بوجه خصومه في الداخل لأنها المرة الأولى التي ينتصر فيها المسلمون في غالة بعد هزيمة «بلاط الشهداء». إنما، على كل حال، يلف الغموض كثيراً نتائج هذا الانتصار على الصعيد الأقليمي. ففي حين تؤكد المصادر المسيحية ان المدينة ظلت بأيدي النصارى بعد خروج الأندلسيين إلى بلادهم تشير المصادر الإسلامية إلى ما حدث بشكل لا يؤكد بالضرورة وبشكل حاسم استعادة المدينة إلى أيدي المسلمين. فابن عذاري يقول إن القائد المسلم «أوقع بمدينة أربونة»[2] والمقري يقول إنه «أثخن فيها»[3]. وهذا يجعلنا نرجح مع كل إيجابيات حملة القائد الأندلسي عبد الملك بن مغيث ان مدينة ناربونة ما عادت إلى أيدي المسلمين. واستمر هشام بعد ذلك، وحتى وفاته، يرسل الحملات الصيفية ـ الصوائف ـ إلى أراضي الإسبان النصارى في أستورياس في شمال غرب شبه الجزيرة الإيبرية وإلى أراضي قشتالة. وكانت هذه الصوائف تنتهي كلها، على ما تروي المصادر الإسلامية، بانتصارات عسكرية تقل أهميتها أو تكثر إنما دون أن تحقق نتائج أقليمية ذات شأن.

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٣٧.
(٢) البيان المغرب، جزء ٢، صفحة ٩٥، ابن عذاري.
(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٣٧.

الحضارة والعمران:

مع ان الحروب الداخلية والغزوات في بلاد النصارى شغلت الكثير من وقت الأمير هشام وأخذت جل اهتمامه مع أعوانه، إلا ان ما ساد عموماً من أمن واستقرار في أيامه ترك للأندلسيين فرصة للتطلع نحو بلاد المشرق يبحثون عن مواطن الحضارة ومراكز الفكر والثقافة يتعرفون إلى ما فيها من مستجدات. ولما كان أكثر أوائل الوافدين على شبه الجزيرة الإيبرية من أهل الحجاز، ومن أبناء المدينة بصورة خاصة كان من الطبيعي أن تتجه الأنظار نحو هذه البلاد، إذ ما كانوا يريدون التطلع إلى بغداد لأسباب سياسية، حيث ازدهرت بدرجة كبيرة العلوم الدينية وفنون الغناء والموسيقى والطرب. وكانت أهم مراكز الحضارة آنذاك في شبه الجزيرة العربية في مكة المكرمة والمدينة المنورة. ذلك ان بلاد الحجاز بما أعطى الخلفاء الأمويون أهلها من امتيازات وبما أفاؤوا على أبناء البورجوازية العربية من مال وثروات وبما وفروه لهم من أسباب الغنى والترف لإبعادهم عن الاهتمام بالسياسة والحكم تحولت إلى مهد لأكثر من قاعدة حضارية. أندلسيون كثيرون في ذهابهم لتأدية مناسك الحج، زاروا المدينة في ذهابهم أو في عودتهم ونهلوا مما فيها من ينابيع العلم والمعرفة فحضروا أو تتلمذوا على كبار علمائها وفقهائها ومحدثيها. وما تخلف بعضهم عن التردد على الأوساط الفنية فتعرفوا إلى أولى منجزات الفنانين العرب في مجال وضع أسس موسيقى عربية أصيلة. ومع هؤلاء الزائرين أو الدارسين انتقل إلى الأندلس الكثير مما حققه الحجازيون من منجزات علمية وأيضاً مما صار عندهم من تقدم اجتماعي ومن تطور في أساليب العيش. ولعل أهم ما حمله الأندلسيون معهم في هذه الحركة مذهب مالك.

ظهر هذا المذهب في بلاد الحجاز على يد الإمام مالك بن أنس الذي عاش في القرن الثاني للهجرة والمتوفي سنة ٧٩٥ ـ ٧٩٦ م (١٧٩ هـ) في المدينة المنورة. عرض الإمام مالك مذهبه الفقهي في كتاب شهير أسماه «الموطأ» رتب فيه أبواب الفقه على الحديث[١]. عرف مذهب مالك بشدته وبالتزمت في تحري

(١) تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادي، صفحة ١١٤.

صحة الأحاديث النبوية. وينحو المذهب المالكي عموماً نحـو التقيد بنصـوص القرآن الكريم والحديث وعمل أهل المدينة وهو يبتعد ما استطاع عن استعمال الرأي والقياس. وفي هذه الناحية يبتعد كثيرا عن مذهب الإمام أبي حنيفة المعاصر والسائد في بلاد العراق حيث كان الفقهاء يلجأون كثيراً إلى الاعتماد على الاجتهاد والرأي والقياس في غياب النصوص. ولعل ما برر هذه المرونـة التـي اعتمدهـا الحنفيون عموماً كون بيئة العراق المعقدة حيث تلاقت حضارات عديدة وتعايشت شعوب مختلفة وقامت قاعدة لإمبراطورية عظيمة، كانت دوماً تطرح الكثير الكثير من المشاكل والقضايا المستجـدة والمعقـدة ممـا يستدعـي لحلهـا التوسـع في الاجتهاد والتفسير[1].

انتقل المذهب المالكي إلى الأندلس عبر أولائك الذين قصدوا الحجاز من طلاب العلم والمعرفة ومن أبرزهـم زياد بن عبـد الرحمـن اللخمـي المعـروف بشبطون، وعيسى بن دينار ويحي بن يحي الليثي الذين حضروا دروس الإمـام مالك في المدينة كما حضروا على بعض تلاميذه في المشرق ثم حملوا مذهبه إلى الأندلس وعملوا على نشره بين الأندلسيين. ويبدو ان رائد الفقه المالكي وأول من أدخل هذا المذهب إلى الأندلس، وكانـوا قبلـه يتفقهـون علـى مذهـب الإمـام الأوزاعي، هو زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون[2]. ثم رحل بعد ذلك نفر من فقهاء الأندلس ومن تلاميذ شبطون إلى المدينة فسمعوا على مالك، وكان ذلك أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن، وعادوا «يصفون فضـل مالك وسعـة علمـه، وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس، فانتشر يومئذٍ رأيه وعلمه بالأندلس»[3]. وبرع بصورة خاصة في تدريس الفقه المالكي وتعميم «موطأ» مالك في مساجد قرطبة ومعاهدها العلمية يحي بن يحي الليثي المعروف بـ «عاقل الأندلس» وهو

(١) تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادي، صفحة ١١٤.
(٢) نفح الطيب، جزء ٢، صفحة ٤٥، المقري.
(٣) نفح الطيب، جزء ٢، صفحة ٤٦، المقري.

اللقب الذي أعطاه إياه مالك نفسه. والدولة الأموية نفسها، بشخص الأمير هشام حينما رأت انتشار هذا المذهب الجديد عملت على تقويته وتعزيزه على حساب مذهب الإمام الأوزاعي الذي كان معتمداً حتى ذلك الوقت في الأندلس كما في المغرب. ولعل ما دفع الأندلسيين للأخذ بمذهب الإمام مالك كونه كان يناسب مزاجهم وأسلوب تفكيرهم. فالعرب الذين حلوا في الأندلس كان أكثرهم من سكان الحجاز وهؤلاء يميلون نحو البساطة والبعد عن التعقيد وهو ما يقدمه لهم مالك في اعتماده فقط على القرآن والحديث والسنة. وهم ما كانوا ميالين بطابعهم القبلي البسيط الذي احتفظوا به رغم بعد الشقة عن موطنهم الأصلي، لتقبل ما كان يعتمده المذهب الحنفي الذي كان بدأ يسود آنذاك في المشرق من فتاوى واجتهادات تقترب قليلاً أو كثيراً من الطابع الفلسفي. ثم إن الأمويين رأوا أمام سرعة انتشار المذهب الحنفي في الشرق بتأييد ودعم من الخلافة العباسية أن يسارعوا في نشر مذهب الإمام مالك في الأندلس لقطع الطريق على أنصار المذهب الآخر. ولا بد من الإشارة إلى اعتبارات شخصية لعبت دوراً كبيراً في جعل الأمويين في الأندلس ينحون هذا المنحى. فالأمير هشام الرضا يجمعه بالإمام مالك عداء شديد للعباسيين ودولتهم. ثم إن الإمام كان يحمل للأمير هشام الرضا بالذات إعجاباً كبيراً إذ قال عنه مرة أمام بعض تلاميذه الأندلسيين: «نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم»[1].

ويبدو ان الأمير هشام الرضا تبنى هذا المذهب بصورة مباشرة وساعد على سرعة انتشاره وجعله مذهباً عاماً لكل أهل الأندلس. فقد قرب إليه يحي الليثي وجعله مكيناً عنده «وكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه»[2].

واتخاذ مذهب الإمام مالك مذهباً وحيداً، في الأندلس سيوفر على

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٦٥ ـ أخبار مجموعة، صفحة ١٢٠.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ٢، صفحة ١٠.

الأندلسيين في المستقبل متاعب الصراع بين أصحاب المذاهب الإسلامية المختلفة وسيجنبها التمزق الفكري الذي أصاب بلاد المشرق فيما بعد. إلا ان تدين هشام بن عبد الرحمن وتقريبه العلماء والفقهاء زمن انتشار المذهب المالكي أعطى رجال الدين مكانة كبيرة ونفوذاً واسعاً في الدولة مما رفع من قدراتهم السياسية والاجتماعية بحيث صاروا يتدخلون في شؤون الدولة والحكم بصورة متزايدة وخاصة زمن ابنه الأمير الحكم.

وفي مجالات العمران والبناء كان للأمير هشام الرضا أثر يذكر وفضل يشكر. لقد عمل على تجديد القنطرة الكبيرة التي كانت تعلو نهر الوادي الكبير، والتي رفعها السمح بن مالك الخولاني بناء لأوامر ورغبات الخليفة عمر بن عبد العزيز، فأحكم بناءها وصرف عليها أموالاً طائلة. وكذلك أكمل بناء مسجد قرطبة الكبير الذي كان والده عبد الرحمن قد باشر العمل في إقامته كما وسع نطاقه وأضاف إليه المأذنة والميضأة وبعض السقائف.

توفي الأمير هشام في شهر نيسان سنة ٧٩٦ م (صفر ١٨٠ هـ) عن عمر ناهز الخامسة والأربعين قضى في الحكم منه حوالي ثماني سنوات أعطى فيها الأندلس ما لا حدود له من الأمن والاستقرار والعمل الدؤوب لإكمال بناء الدولة. وكان من أفضل أمراء بني أمية وأتقاهم وأعدلهم وأكثرهم مخافة من الله. تصفه المصادر الإسلامية على انه «كان رحمه الله بسيط اللسان، فصيح الجنان، وسيع الجناب، حاكماً بالسنة والكتاب، قبض الزكوات من طريقها، ووضعها في حقها، لم يأخذه في الله لوم، ولا تعلق به ظلم... وكان هشام يبعث إلى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال ثم ينصرفون إليه بما عندهم... وكان كريماً، عادلاً، فاضلاً متواضعاً، عاقلاً لم تعرف عنه هفوة في حداثته ولا زلة في أيام صباه»[1].

---

(١) البيان المغرب، ابن عداري، جزء ٢، صفحة ٩٧ - ٩٨.

الفصل الثالث

الحكم بن هشام
(٧٩٦ ـ ٨٢٢م) (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ)

شاء هشام الرضا أن يوفر على الأندلس والأندلسيين صراعاً بين الطامعين في الحكم والإمارة من بعده، وما كانوا قلة بين أمراء بني أمية، فعهد على حياته لابنه الحكم بولاية العهد. وعلى هذا فعند وفاته انتقلت الإمارة مباشرة إلى الحكم وهو آنذاك في السادسة والعشرين من العمر ونصب أميراً في قرطبة في نيسان ٧٩٦ م (صفر ١٨٠ هـ).

توسم الناس خيراً بمجيء الأمير الشاب الذي عرف شؤون الحكم ومارس بعضها أيام أبيه فخبروه «شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تتقى»[1] شجاعاً مقداماً يباشر دوماً الأمور بنفسه. حاول في بداية عهده أن يمارس سياسة قوية تجاه أخصامه نصارى الشمال، مستفيداً من فترة الاستقرار الداخلي التي عرفتها البلاد أواخر أيام أبيه، فندب في صيف ذلك العام ٧٩٦ م (١٨٠ هـ) قائده عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في جيش عظيم إلى الشمال غزا جليقية[1] واستولى على

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١٧.

قلعة قلهرَّة على نهر الأيبرو ثم اتجه إلى بلاد البشكنس حيث أغار على الأراضي والمدن واستباح الأموال والناس وعاد غانماً ظافراً مثقلاً بالغنائم والأموال والسبي[٢].

ثورات المعارضة

ومع انه تسلم الحكم بسرعة وسهولة وفرض سلطانه بقوة وحزم على كل الأندلس إلا انه وكما كان طبيعياً ومألوفاً آنذاك، ما لبث أن ووجه بمعارضة شديدة لحكمه جاءته من أهل بيته بالذات واضطرته لوقف كل نشاط على الصعيد الخارجي رغم ما أنجزته الحملة الأولى من انتصارات ومكاسب. فعماه سليمان وعبد الله اللذان كانا يعيشان منفيان، في المغرب منذ مدة طويلة اعتقدا ان غياب أخيهما هشام قد يفسح لهما المجال في الحصول على ما كان كل واحد منهما يعتبره حقه في الحكم والسلطان.

بعد أشهر قليلة من وصول الأمير إلى السلطة ثار عليه بهلول بن مروان المعروف بأبي الحجاج في منطقة الثغر واستولى على مدينة سرغوسة وأقام فيها رافعاً لواء الثورة والتمرد. والواقع ان هذه المنطقة التي يكثر بين سكانها العنصر اليمني وكذلك البربر رأيناها منذ أيام الأمير عبد الرحمن الداخل معقلاً من معاقل معارضة الحكم الأموي وأهلها ما كانوا حتى أيام الحكم قد استساغوا الخضوع لحكم قيسي ولا كانوا قد وطنوا أنفسهم على قبول ذلك ولو كأمر واقع. لهذا السبب نجحت بسرعة مذهلة ثورة بهلول هذا وأنذرت بأخطار أمر وأدهى. فالعمّان نظرا إلى سرغوسة ومنطقتها على انها محطة على طريق وصولهما إلى الحكم والسلطان ومشجعاً على الخلاف والفرقة بسبب النجاح السهل الذي حققه بهلول.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٣ ـ نفح الطيب، جزء ٢، المقري، صفحة ٣٣٩.

عبر عبد الله البحر ونزل أول الأمر في مناطق شرق الأندلس حيث ما وجد ما تمناه من عون وتأييد فانتقل إلى سرغوسة من جهات الثغر الأعلى حيث أقام بعض الوقت دون أن يحصل على ما تمناه من دعم وتأييد فعزم على التوجه إلى بلاد الفرنجة[1]. وفعلاً خرج قاصداً مقابلة شارلمان في عاصمته آخن لاستعدائه على ابن شقيقه. استقبل هناك استقبالاً جيداً وأكرم الكارولانجيون ضيافته، ولكن ليس من المؤكد انهم استجابوا لندائه بدليل إنه عاد بعد هذه المغامرة الطويلة ليستكين إلى الأمر الواقع في شرق الأندلس. ذلك ان الكارولانجيين وكانوا في أواخر القرن الثامن قد باتوا قوة عظمى في أوروبا ما كانوا ليلبوا نداء أول طارىء عليهم من أعدائهم مهما كانت منزلته في قومه. وفي حال عزمهم على القيام بعمل عسكري فإن هذا سيكون لحسابهم وليس لحساب الآخرين. ثم هم فوق هذا وذاك ما كانوا مستعدين لتجربة تلك الكأس المريرة من الهزيمة التي شربوها في مكمن رونشفال. وإذا كانوا بعد هذه الزيارة قد قاموا بحملة على مناطق الحدود مع المسلمين فأنما قاموا بها لحسابهم ومن ضمن سياستهم الهادفة إلى استرداد ما بأيدي المسلمين من مواقع في بلاد غالة كما في المناطق الإسبانية المحاذية لها.

وفي السنة التالية ٧٩٨ م (١٨٢ هـ) عبر سليمان البحر من المغرب، عدته جيش من البربر والمرتزقة، ونزل على شواطىء الأندلس واتجه نحو قرطبة للإستيلاء عليها ولكنه هزم بعد معارك شديدة مع جيوش الحكم[2]. ثم التقى بجيوش ابن أخيه في العام التالي بالقرب من أستجة فهزم مجدداً وهرب بعد ذلك فحل بجيان ثم بألبيرة ليستعد لجولة جديدة. وفي سنة (٨٠٠ م (١٨٤ هـ) التقى به الأمير الحكم هناك ودارت بين الفريقين معارك رهيبة انتهت بهزيمة سليمان وفراره لاجئاً إلى مدينة ماردة[3]. أرسل الحكم أحد قادته في طلبه فأسره وأتى به إلى الأمير

(١) البيان المغرب؛ ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٣.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٥.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٥.

الذي أمر بقتله. إلا انه بالمقابل أكرمه بعد وفاته فصلى عليه في جامع قرطبة وأمر بدفنه في حديقة القصر بالقرب من أبيه.

أما الأمير عبد الله، العم الثاني المتمرد، فإنه بعد نزوله في شرق الأندلس حاول الانضمام إلى شقيقه سليمان إلا انه ما لبث أن مال إلى الإقامة في مدينة بلنسية حيث وجد من أهلها بعض الترحيب والتأييد فاستقر فيها إلى أن تمكن من إقامة اتصال مع الأمير الحكم بعد مقتل أخيه سليمان وحصلت مصالحة بين الرجلين نال الأمير الثائر فيها العفو والمغفرة ومرتباً دائماً قيمته ألف دينار على أن يقيم بصورة دائمة في بلنسية[1]. وبقي هناك حتى نهاية حياته بحيث صار يعرف باسم عبد الله البلنسي بينما لحق أبناؤه بأمير قرطبة ووالوه ونالوا عنده مكانة وحظوة.

ثورات طليطلة والثغر الأعلى:

على ان أخطر ما واجه حكم الأمير الحكم، منذ بدايته، كانت العلاقات مع فئة المولدين. فالمولدون هم من ولدوا من آباء إسبان اعتنقوا الإسلام، والذين مع انتشار الإسلام في شبه الجزيرة الإيبرية كانوا في تزايد مستمر بحيث أتى زمن صاروا فيه، في ظل بني أمية يشكلون الأغلبية بين سكان البلاد وخاصة في الحواضر الكبرى، وإذا كان الأمير عبد الرحمن الداخل قد تقرب من هذه الفئة وأوسع لها في النفوذ والمنافع، بسبب عزلته السياسية، وكثرة أخصامه، فإن من خلفوه في السلطة مالوا إلى الاعتماد على أبناء جلدتهم من العرب بحيث بات المولدون يشعرون بحيف كبير ويجدون أنفسهم محكومين ومستغلين وأحياناً مضطهدين في أرضهم ووطنهم على أيدي غرباء عن الديار. وهذا بدأ يخلف عند هذه الفئة عقدة نقص تجاه العرب كان يزيدها حدة معرفتهم بأنهم يشكلون جل أبناء البلاد والعاملين المنتجين فيها حقاً. والواقع إنهم كانوا يشعرون بانه لا بد من

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٦.

إقامة معادلة صحيحة في الأندلس بينهم وبين الحكام تقوم على أسس من العدالة، والمساواة، كما تقضي بذلك الشريعة الإسلامية التي قبلوها وآمنوا بها بصدق. وكان يتضامن مع هؤلاء ويؤيدهم في رفع لواء الظلم المستعربون وهم من استعرب من الإسبان وقبل العيش في ظل سيادة دولة الإسلام مع بقائهم على نصرانيتهم. وأكثر ما كانت تنتشر فئات المولدين، والمستعربين في مناطق الثغور وخاصة في مدنها الكبرى الثلاث: طليطلة وسرغوسة وماردة. وربما بالصدفة، أو رغبة في العيش بعيداً عن سلطان قرطبة في هذه المناطق بالذات كانت تسكن فئات كثيرة العدد من البربر الذين بقوا في شبه الجزيرة الإسبانية، بعد ثورتهم، والذين يحملون في صدورهم للعرب من الكره والحقد ما جعلهم حلفاء طبيعيين للمولدين والمستعربين. ونلاحظ انه بسبب هذه التركيبة السكانية المناوئة للعرب أساساً ظلت مناطق الثغور ولفترة طويلة، بل ويمكن القول حتى سقوطها بأيدي النصارى مركزاً ناشطاً للاضطرابات ضد الأمراء الأندلسيين وموطناً لدعاة الانفصالية والنزعات القومية والاستقلالية. ويمكن التأكيد بأنه وحتى في أيام قوة الأندلسيين وسيادة دولة الإسلام فإن سلطان حكومة قرطبة في هذه المناطق ما كان بالفعالية والقوة الكافيتين

وفي هذه المناطق الثائرة المضطربة تميزت طليطلة بالذات بالحيوية والتصميم الدائم على رفع لواء التمرد وربما كان لطليطلة وأهلها على العرب مأخذ أخرى غير ما ذكرنا. فهم أخذوا منها صفتها كعاصمة لشبه الجزيرة الإسبانية لقرون عدة، وجعلوا منها واحدة من مدن الثغور القليلة الأهمية بالنسبة لمدن حوض الوادي الكبير كأشبيلية وقرطبة.

والواقع إن مدينة طليطلة، شأنها مع أسلافه، ما هادنت الأمير الحكم منذ اليوم الأول لارتقائه عرش الإمارة. بعد عام واحد تزعم رجل من المولدين يدعى عبيدة بن حميد[1] ثورة في طليطلة ودعى أهلها وكانوا في أكثريتهم الساحقة من

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٤.

المولدين والمستعربين والبربر إلى تأييده ورفض سلطان قرطبة. وكان في المدينة شاعر مولد هو غربيب بن عبد الله[1] على عداء شخصي مع الأمير فأخذ جانب الثورة والتمرد وصار يحرض بقصائده وشعره الطليطليين على حمل السلاح للتخلص من سلطان العرب والأمويين وتسلط حكومة قرطبة على مصالحهم وأراضيهم. وكان هذا رجلاً ذكياً حاذقاً كريماً. يحمل في قلبه عميق الحب لوطنه وأرضه إسبانيا. والواقع إن دعواته لقيت استجابة واسعة من أهالي المدينة ومنها انتشرت إلى سائر مدن وقرى المنطقة مما أخذ يقلق سلطات قرطبة.

رأى الأمير الحكم ضرورة القضاء على هذه الثورة قبل أن تستفحل فأوكل هذه المهمة إلى مولد من أبناء مناطق الثغور امتاز بشدة ولائه للبيت الأموي وبإخلاصه الشديد لشخص الأمير الحكم هو عمروس بن يوسف من أهالي مدينة وشقة. «ولاه على طليطلة وكتب إلى أهلها كتاباً يخدعهم عن عقولهم، ويقول إني اخترت لكم رجلاً من أهلكم وأعقابكم من موالينا ومن يتصرف في عمالتنا»[2]. اختار الحكم رجلاً من المقربين إليه يثق به ويطمئن إلى ولائه وهو كمولد يمكن أن يرضي أهل طليطلة ويأنسوا إليه إنما في الواقع أطلق يده وأمره بالقضاء وبصورة حاسمة على نزعة التمرد الدائمة عند الطليطليين. نازل عمروس الثائرين في مواقع عديدة في أحواز طليطلة إلى أن اقتنع بانه لا بد من اللجؤ إلى الخديعة للتخلص من رأس الثورة في المدينة فاتصل سراً برجال من أهل المدينة «واستلطفهم حتى مالوا إليه فدعاهم على القيام على عبيدة والفتك به ووعدهم على ذلك بمثوبة جليلة من الأمير»[3] وقتل هؤلاء زعيم ثورة طليطلة عبيدة بن حميد وأرسلوا رأسه إلى عمروس الذي كان يعسكر مع جنوده في طلبيرة. ونجح بعد ذلك في أخذ موافقة أهل المدينة على دخولها سلماً ونزل فيها. أنس هؤلاء إليه وتعاملوا

---

(1) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٦٨.

(2) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٦٨.

(3) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٤.

معه بعد أن عاملهم باللين والحسنى. ثم عزم أن يبني لنفسه مقراً فاختار مرتفعاً عند مدخل المدينة دعي جبل عمروس بنى عليه قصراً لسكنه وإقامة جنده[1].

وحين شعر بان الأمر استقر له صمم على توجيه ضربة قاسية لأهل طليطلة تخضعهم للدولة والأمير ولفترة طويلة. استغل مناسبة ذهاب عبد الرحمن ابن الأمير الحكم على رأس جيش في حملة إلى الشمال الإسباني فدعاه إلى وليمة في قصره الجديد دعى إليها مقدمي المدينة وثراتها وفقهائها. واختار باباً لدخول المدعويين على أن يخرجوا من آخر. وكان الخدم يرافقون المدعوين من المدخل إلى مكان وقف فيه «السيافون على شفير حفرة، وكل من دخل ضربت رقبته»[1] وألقي في الحفرة. وما فطن أهل طليطلة إلى ما كان يحدث إلا متأخرين، خاصة وان أصوات قرع الطبول كانت تحول دون سماع صراخ واستغاثة الضحايا خارج القصر. وتعرف هذه المذبحة التي وقعت في سنة ٧٩٧ (١٨١هـ)[2] على الأرجح باسم «حفرة عمروس»، قتل فيها حوالي سبعمائة من أشراف طليطلة. هذه الضربة القوية أفقدت المدينة لسنوات عديدة قدرتها على الثورة والتصدي وجعلتها تستكين، حتى بعد أن غادرها عمروس للقيام بحملات أخرى في مناطق الثغر الأعلى. إلا ان أحقاد أهلها وكرههم للحكام الأمويين كانا في تزايد مستمر. وما أن استعادت بعض قدراتها، ولو بعد سنوات عديدة، حتى بدأت ترفع لواء التمرد مع إطلالة السنة ٨١١ ـ ٨١٢ م (١٩٦ هـ). وقد ندب الأمير أكثر من حملة ألقت الحصار على المدينة وأخضعتها ولكن دائماً بصورة مؤقتة وآنية ريثما يتمكن أهلها من العودة إلى الثورة والتمرد. وقاد هو نفسه إحدى هذه الحملات في سنة ٨١٥ م (١٩٩ هـ) فدخل المدينة في غفلة من أهلها ليلاً «واستوسق له ملكها دون

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٦٩.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٤ ـ هناك مراجع أخرى تضع الموقعة في سنة ١٩٠ أو ١٩١ مثل ابن الأثير إنما يبدو إن رواية ابن عذاري أصح خاصة وان ابن حيان يؤكدها.

مؤونة ولا قتال»[1] وانتقم من أهلها وحرق ديارها.

ثورة الربَض:

على إن أخطر ما واجهه الأمير الحكم في ولايته الطويلة، من اضطرابات وثورات كانت ثورة الربَض التي انفجرت بوجه حكمه أكثر من مرة. ومكمن الخطورة في هذه الثورة ليس ما جندته من إمكانات وما أثارته من اضطرابات وإنما لما كان فيها من مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية تستهدف الأسس والركائز التي أقام عليها الأمويون دولتهم في الأندلس. فهي بحق واحدة من الثورات الاجتماعية الكبيرة التي عرفها من آن لآخر تاريخ دول الإسلام في العصور الوسطى كثورة الزنج مثلاً.

مدينة قرطبة، منذ أن اتخذها المسلمون عاصمة لإسبانيا الإسلامية، تزايد عدد سكانها بسرعة مذهلة وقصدها المهاجرون من عرب وبربر ليكونوا قريبين من السلطة وأيضاً أمتها جموع من الفلاحين والعمال والتجار من الإسبان المسلمين وكذلك نزلت فيها عائلات موظفي وجنود الإمارة. وعلى هذا كانت مساكنها وأحياؤها في تكاثر مستمر وانتشرت حولها وعلى أطرافها الضواحي والأحياء السكنية، وكانت تسمى بلغة ذلك الزمان الربَض (جمعها أرباض). وبصورة خاصة نمت على الضفة الثانية لنهر الوادي الكبير في الجهة المقابلة لمسجد قرطبة الكبير ودار الإمارة، وبسرعة كبيرة، ضاحية أو ربض اكتظ بالسكان من أبناء الطبقات المتوسطة والفقيرة. وكان جل هؤلاء من الإسبان المسلمين أو المولدين. كان هؤلاء كما ذكرنا ينكرون على العرب تفردهم بالسلطان والحكم ويرفضون سياسة الدولة المتحيزة للقلة التي أتت من وراء الحدود. كانوا يرفضون السياسة الأموية من موقعين هامين، فهم بسبب طغيانهم العددي ولكونهم أصحاب الأرض والبلاد يرون أنفسهم أحق بالأمر وأجدر بالعناية والرعاية. ثم إنهم من موقعهم كمسلمين

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١٣.

كانوا يرون في سياسة الدولة هذه خروجاً على أحكام الإسلام التي تأمر بالعدل والمساواة من فوق كل الحدود الجنسية والعرقية والطبقية.

ثم إن طبقة الفقهاء التي قربها هشام الرضا من مواقع السلطة والنفوذ وسمح لها بالتدخل في أمور الدولة وشؤون الناس باسم المحافظة على أحكام الإسلام، ما رضيت عن خط الأمير الحكم الذي كان يصر على أن يحكم البلد حكماً مباشراً وأن يحسم الأمور، كل الأمور بنفسه. كان الحكم يرى ضرورة استعادة بعض ما أخذه رجال الدين عموماً من مكانة سياسية أيام أبيه والحد من نفوذهم والحيلولة دون تدخلهم في شؤون الدولة ليكونوا فقط حيث يجب أن يكونوا، في المساجد والمدارس وبين المؤمنين. والواقع إن سياسة الأمير هذه ما كانت في أساسها معادية للدين ولرجاله وإنما مبعثها رغبته في أن لا يشاركه أحد في سلطانه ونفوذه، وقناعته بان طبقة الفقهاء أخذت في السابق ما ليس لها، وما أخذته مارسته في حالات كثيرة بطرق غير صحيحة وغير مطابقة لمصالح الأمة والدولة. فالمؤرخون المسلمون، من والوه وأكثروا من ذكر محاسنه ومن نقدوه وكالوا له التهم جزافاً، ما طعن أحد منهم بعقيدته وبغيرته على الدين وأهله. كان من المعروف ان رابطة قوية كانت تشده إلى كبير فقهاء المالكية[1] إذ كما يقول المقري كان «يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن»[2]. كان يستشيره في الأمور الكبيرة ويأنس إلى معاشرته ويستمع إلى آرائه وشروحاته. وقد عمل الحكم كثيراً وفق نهج أبيه في تثبيت دعائم مذهب مالك في شبه الجزيرة الإيبرية حتى جعل منه الوحيد المعتمد في هذه البلاد في الفتيا والقضاء وغيب مذهب الإمام الأوزاعي بصورة نهائية بعد أن ساد حوالي أربعين سنة[3]. إنما في موقفه هذا كان يعمل لصالح الدولة منطلقاً من

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٤٠.

(٢) زياد بن عبد الرحمن الملقب بشطون من أوائل وربما أول من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس.

(٣) الأوزاعي صبحي المحمصاني، صفحة ٤١.

كونه كان يريد تحقيق وحدة الجماعـة دون أن يقصد الإساءة إلى رجال الدين إذ ظل «يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين»[1]. ويؤكد نهجه هذا ابن القوطية حين يقول إنه «كان جميل السيرة في رعيته، متخيراً لحكامه وعماله، مؤمناً للسبـل، متكرراً بالجهاد»[2]. الفقهاء ورجال الدين رفضوا بصورة علنية وقاطعـة سياسـة الحكم هذه فنقموا عليه أشد نقمة وعادوه جهاراً وانتشروا بين الناس وخاصة بين فئات المتدينين من أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطـة يشنعـون عليه وينتقـدون سياسته. استغلوا المنابر والمساجد للتنديد به والتعريض بسياسته. ومما كان يعطي حملاتهم عليه مصداقية أمام العامة كونه كان محباً للحياة مرحـاً، يهـوى الصيد والقنص يشارك في مجالس الأنس والطرب ويجالس الشعراء والماجنين، ميالاً إلى الترف والبذخ. وعلى هذا فإن مواجهة حادة بين الأمير والفقهـاء بدت منـذ مطلع عهده وكأنها قدر لا هروب منه.

أكثر ما لاقت دعاوى الفقهاء ورجال الدين، للتمرد ومناهضـة الأمير، من ترحيب كان في أوساط المولدين الرافضين أصلاً لسياسة الدولة. وقوي هذا التأييد وتمركزت الدعوة للرفض والثورة ومعها دعاة التمرد والعصيان في أرباض قرطبـة وبصورة خاصة في الربض المواجه لدار الإمارة حيث يكثر المولدون. في شهر أيار سنة ٨٠٥ م (جمادي الثاني ١٨٩ هـ) اعتقد الفقهاء وبعض وجهـاء قرطبـة الكارهين لحكم الأمير الحكم ان معارضة الناس، في قرطبة خاصة، بلغت حداً يسمح لهم بالعمل على إسقاط الأمير الأموي وإبداله بآخر. تآمروا عليه وصمموا على الغدر به وعرضوا على أحد أبناء عمومته محمد بن قاسم[3] تقديمه وخلـع الحكم فأظهر لهم الإجابة ولكنه في الحقيقة خذلهم وأفشى سرهـم. ما تهـاون الأمير مع المتآمرين إذ واجه الأحداث بسرعة فائقة في التحرك والتصرف فأخذهم

(١) نفح الطيب المقري، جزء ١، صفحة ٣٤٢.
(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٦٧.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٦.

بأقصى الشدة والعنف. قتل من المتآمرين اثنين وسبعين رجلاً وصلبهم ليعتبر بهم الآخرون. وكان من هؤلاء عدد ممن عرفوا بالزهد والتقوى والورع مثل يحي بن نصر اليحصبي، وموسى بن سالم الخولاني وولده، من الأعلام المشاهير[2] مما خلف في نفوس الأتقياء جرحاً عميقاً.

كان تأثير هذه المذبحة على جماهير قرطبة وخاصة سكان الأرباض قوياً رهيباً فارتفعت حدة المعارضة للأمير وكثر المعرضون به وعمقت النقمة عليه مما جعله.يتحسب لردة فعل سريعة فأقدم على تدعيم سور قرطبة وتقويته وكذلك جدد وعمق الخندق المحيط به[3]. إنما في كل الحالات بدا وكأن الضربة كانت كافية ليستكين الناس وينصرفوا إلى أعمالهم دون أن تهدأ نفوسهم ودون زوال ما كان في رؤوسهم وقلوبهم من حقد على الأمير.

هكذا بقيت النار ولسنوات تحت الرماد بانتظار الفرصة المناسبة ليعود لهيبها قوياً مدمراً حارقاً. وفعلاً وفي ٢٥ آذار سنة ٨١٨ م (١٣ رمضان سنة ٢٠٢ هـ) اندلعت نيران الثورة من شرارة صغيرة. خلاف طارىء بين أحد جنود الأمير وحداد في الربَض تباطأ في عمله فقتله الجندي الأموي، أثار هياجاً رهيباً في ضواحي العاصمة وأسواقها كانت أسبابه أساساً موجودة وتتزايد بصورة مستمرة منذ ما قبل مذبحة الفقهاء. هذا الحادث الصغير أثار أهل الربض فأغلقوا الدكاكين والمتاجر ورفعوا كل ما وصلت إليه أيديهم من سلاح وساروا بحركة جماهيرية عفوية نحو قصر الأمير يسعون لاقتحامه والاقتصاص من سيده. وما كان دور الفقهاء في هذا التحرك قليلاً أو غائباً إذ شارك كبراؤهم في شحذ الهمم وزيادة الهيجان، من أمثال ابن يحي الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه، وطالوت الفقيه وغيرهما فأباحوا للجماهير سفك دمه وهتك ستره وإباحة حرمه. لقد أدرك الحكم ان كل ما

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٧.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٠٧.

في قلوب أخصامه، من مولدين وبربر وفقهاء ويمنية، من حقد عليه تفجر دفعة واحدة وإنه من الصعب السيطرة على الموقف بأساليب عادية. فلجأ إلى الحيلة والدهاء فاستدعى أحد قواده وطلب إليه، وكان الثائرون قد تكاثروا وباتوا على أبواب القصر يحيطون به وبسور قرطبة، أن يذهب إلى مؤخرة الثائرين ويشعل النار في مخازنهم ومنازلهم وأسواقهم. خرج هذا القائد، عبيد الله بن عبد الله البلنسي مع جنوده وحرس الأمير، وجاء الربض من خلفه وأعمل النار فيه. حين ارتفعت ألسنة النيران خاف الثائرون على نسائهم وأطفالهم وأموالهم فتراجعوا عن القصر في فوضى رهيبة. هذا الاضطراب سمح لجنود الحكم المدافعين عن قصره أن يعملوا فيهم سيوفهم فأجروا مذبحة رهيبة خاصة فيمن حوصروا على الجسر ـ القنطرة ـ. سحق الأمير هذا التمرد بسرعة مذهلة وأيضاً بقسوة رهيبة لا يبررها إلا رغبته في المحافظة على سلامة الدولة وكيانها.

ما اكتفى الأمير بذلك إنما بعد أن تأكد من القضاء على كل أثر للمقاومة أمر بهدم منازل الربض وأسواقه وصيره بطحاء مزرعة[2]. وأيضاً أنذر أهله بمغادرة قرطبة وأحوازها إذا كانوا يريدون البقاء على قيد الحياة وأمهلهم لذلك ثلاثة أيام. بعض هؤلاء عبروا البحر إلى بلاد المغرب ونزلوا في حماية دولة الأدارسة الذين أحلوهم في عاصمتهم الجديدة مدينة فاس وجوارها ومعهم كل مظاهر حضارة الأندلس التي ما تزال بادية في عمارة هذه المدينة حتى يومنا هذا. وطائفة عظيمة منهم تقدر بحوالي خمسة عشر ألف شخص ركبت البحر واتجهت نحو بلاد المشرق حيث نزلت في مدينة الإسكندرية على كره من الدولة العباسية التي كانت آنذاك تعاني من آثار الصراع بين الأمين والمأمون. إلا أن الخليفة المأمون، بعد أن استقرت له الأمور أمر عامله على مصر عبدالله بن طاهر فأجبر هؤلاء على ترك مدينة الإسكندرية فساروا بقيادة مقدمهم أبي حفص البلوطي بحراً ونزلوا في جزيرة كريت

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٣٩ ـ تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٧٦.
(٢) الحلة السيراء، جزء ١، صفحة ٤٤، ابن الأبار.

(أقريطش)[1] التابعة آنذاك للدولة البيزنطية حيث أقاموا لأنفسهم دويلة وقاعدة بحرية عمرتا زمناً ولعبتا دوراً هاماً في المواصلات البحرية في شرق المتوسط. وبعض من أحبوا البقاء في الأندلس ذهبوا إلى ناحية طليطلة[2] حيث حلوا برضى الأمير.

وحين اطمأن الحكم إلى انه قد قضى على تمرد الربض والفقهاء بصورة نهائية وحاسمة أعطى من هجرهم أو هاجروا بأنفسهم «أماناً على الأنفس والأموال وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته، حاشا قرطبة أو ما قرب منها»[3]. ومنذ ذلك الحين رافقت ذكرى هذه المذبحة اسم الأمير الأندلسي الذي صار يعرف باسم «الحكم الربضي»

العلاقات مع الممالك النصرانية

حاول الأمير الحكم منذ البداية أن يمارس سياسة تتسم بالقوة وربما بالعدوانية تجاه جيرانه النصارى في إسبانيا كما في بلاد ما وراء جبال البيرينيه. وفي صيف السنة التي ارتقى فيها سدة الإمارة بادر إلى إرسال صائفة، كما كان يفعل أبوه هشام في سنوات حكمه الأخيرة، إلى أراضي الشمال بقيادة حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، كانت نتائجها إيجابية كما أسلفنا. إلا ان ما جوبه به عهده من ثورات متواصلة ومن معارضة مسلحة، صدرت من قبل عناصر مختلفة وفي أكثر أنحاء إمارته أجبرته على إهمال سياسة الصوائف إلى أراضي أخصامه في الشمال إلا في حالات قليلة واستثنائية. والواقع ان فترة حكمه على استطالتها، وقد امتدت على طول ست وعشرين سنة، ومع كل ما كان عنده من قوة وحزم في مجابهة أخصامه، كانت مجدبة على صعيد تحقيق المكاسب الأقليمية. بل ربما كان ما خسره المسلمون من أراضي ومواقع أيام الحكم أكثر

---

(١) نفح الطيب، جزء ١، صفحة ٣٣٩ ـ الحلة السيراء، جزء ١، صفحة ٤٥.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١٥.

(٣) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٢، صفحة ١١٥.

بكثير مما ربحوه هذا إذا كانوا فعلاً قد استولوا على أرض.

العلاقات مع إسبانيا المسيحية:

فما أن عاد الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد من صائفته الأولى إلى أراضي الشمال الإسباني حتى قام تمرد في منطقة الثغر الأعلى على يد بهلول بن مروان الذي استولى على سرغوسة ورفع فيها لواء العصيان على إمارة قرطبة. ومباشرة بعد ذلك بدأت تحركات سليمان وعبد الله عمي الأمير والتي شغلته ولسنوات عديدة عن الاهتمام بأمور الصوائف والشواتي بل وحتى عن التفكير بصيانة حدوده مع النصارى والدفاع عن أمن مواطنيه من سكان مناطق الثغور. بل أكثر من ذلك نلاحظ ان كثرة انشغال أو إشغال الأمير الحكم بالدفاع عن سلطانه وإمارته وخاصة بوجه أقربائه تركت مدينة ليشبونة الهامة تقع في أيدي زعيم إسبانيا المسيحية آنذاك الفونسو الثاني في سنة ٧٩٨ م (١٨٢ هـ) مما اضطر الأمير بعد ذلك لإرسال حملة بقيادة أحد أولاده استرجعتها سنة ٨٠٨ ـ ٨٠٩ م (١٩٣ هـ) إنما بعد أن بقيت أكثر من عشر سنوات خارج سيطرة دولة الإسلام في الأندلس[1]. ليس هذا فقط بل إن ألفونسو الثاني هذا، وكان ملكاً على جليقية، ما ترك فرصة إلا واستغلها ضد جيرانه الأندلسيين فكانت حملاته على أراضيهم تقريباً متوالية تثير الدمار والخراب والقتل خاصة في الأراضي المجاورة لحدوده والواقعة بين نهري التاج والدويرو كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقد ضج سكان هذه المناطق من استمرار العدوان عليهم وبدأت الأصوات ترتفع متناولة الأمير الحكم ومندددة بإهماله وتقاعسه مما اضطره للخروج بنفسه في سنة ٨١٠ م (١٩٤ هـ) بصائفة، بعد أن شغل عن ذلك سبع سنوات متواليات بتوجيه الصوائف إلى ماردة العاصية عليه، إلى أراضي إسبانيا النصرانية مما يلي منطقة وادي الحجارة فأوغل فيها وافتتح بعض الحصون وهدم بعض القرى وأسر كثيرين[2]. والواقع إن نتائج هذه الحملة

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV. p. 113.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١٠.

كانت محدودة جداً وكان القصد منها قبل كل شيء إسكات الأصوات الناقدة له المنددة بتقاعسه عن حماية الحدود.

وكان رد الفعل الأقوى والأفعل من قبل الأمير الحكم على تعديات ألفونسو الثاني المتواليه على أراضي المسلمين وأيضاً على استيلاء قبائل البشكنس على بعض أراضي الأندلسيين بما في ذلك مدينة بامبلونة، حين قرر في سنة ٨١٦ م (٢٢٠ هـ) توجيه حملة عظيمة إلى الشمال بقيادة قائده عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث. قصد القائد المسلم أراضي البشكنس حيث واجه مقاومة عنيفة من هؤلاء ومن حليفهم ألفونسو الثاني. تلقى الإسبان النصارى من جلالقة وبشكنس سلسلة من الهزائم تراجعوا فيها إلى الوراء وتحصنوا في مواقع طبيعية ساعدتهم على إيقاف تقدم جيوش الأندلسيين إنما ما منعت هؤلاء من إنزال الخراب والدمار بمنطقتي غاسكونيا وقشتالة القديمة والعودة بأسلاب ومغانم هامة[1]. هذا الانتصار وإن تكن نتائجه محدودة على الأرض رفع بدرجة كبيرة من مكانة الأمير الحكم بين الأندلسيين وأزال ما كان لحق بسمعته من شوائب وتهم بانه عجز عن صيانة الحدود والدفاع عن الأرض والناس.

العلاقات مع غالة:

أشرنا فيما سبق إلى ان الفرنج درجوا بعد هزيمة المسلمين في معركة «بلاط الشهداء» على انتهاج سياسة عسكرية تهدف إلى استرداد الأراضي التي استولى عليها المسلمون في جنوب غالة كلما أمكنهم ذلك. وما اعتبروا جبال البيرينيه حدوداً فاصلة بين دولة الإسلام في إسبانيا وبين الدول النصرانية في أوروبا فعبروا، أو حاولوا، عبور تلك الجبال كلما كان ذلك ممكناً. وقد نجحوا في هذا المجال في الاستيلاء على مدينة جيروندة الهامة سنة ٧٨٥ م (١٦٩ هـ) وفشلت

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١٢ ـ نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٤٠.

محاولات المسلمين المتكررة بعد ذلك لاستعادتها. وفي فترات الاضطراب والثورات المتوالية التي شغلت عهد الأمير الحكم واتت الفرص لانتهاج سياسة استرداد عنيفة وناشطة ضد المسلمين على جانبي جبال البيرينيه. ويبدو ان الخلافات بين الأندلسيين كانت عنيفة وحادة بحيث اتصل أكثر من طرف بشارلمان زعيم النصرانية الأوروبية آنذاك داعياً ومشجعاً وربما عارضاً العون والمساعدة لاجتياح بعض مناطق الأندلس. وقد ذكرنا سابقاً ان الأمير عبد الله عم أمير قرطبة والمعروف بكثرة خروجه على السلطان والشرعية زار شارلمان ودعاه لغزو أراضي الأندلس واعداً إياه بالعون والمساعدة. وكذلك اتصل بهلول الثائر في سرغوسة[1] في شكل أو آخر بابن شارلمان لويس، أمير أكيتانيا، داعياً إياه لغزو أراضي المسلمين في مناطق الثغر مع وعد بالدعم والمساعدة. إنما في كل الحالات ما أخذ الفرنج هذه الدعوات على محمل الجد ولا اعتمدوا على أصحابها، ذلك انه كانت لهم أكثر من تجربة مريرة مع أمثال هؤلاء الخارجين على سلطة دولة الإسلام في إسبانيا.

ولكن الجو المضطرب والقلق الذي ساد الأندلس أيام الأمير الحكم كان يشجع الفرنج، ولكن لحسابهم وحساب دولتهم فقط، على انتهاج سياسة عدوانية تجاه جيرانهم المسلمين. يضاف إلى ذلك ان نفوذ ومكانة شارلمان المتعاظمتان باستمرار في أوروبا، بسبب انتصاراته ضد السكسون وفي إيطاليا، ما كانا إلا ليدفعا به في طريق مغامرة جديدة ضد المسلمين تساعده في الظهور أمام الأوروبيين، والبابوية بصورة خاصة، بمظهر بطل النصرانية في أوروبا دون منازع. وعلى هذا وفي السنة التي قصد فيها مدينة روما ليتلقى من سيدها تاج الأمبراطورية في كنيسة القديس بطرس قام ابنه لويس بحملة صغيرة على أحواز ليردة ووشقة فأشاع فيها الخراب والدمار والقتل وعاد دون أن يحقق مكسباً على الأرض خاصة وان بهلول تخلى عن مساعدة الفرنج وما قدم ما سبق أن وعد به[1].

---

(١) Levi Provencal, Historia de Espana T IV. p. 115.

وفي السنة التالية ٨٠١ م (١٨٥ هـ) وكان قد زين رأسه بتاج الأمبراطورية، بعد أن كانت هذه المؤسسة قد غابت عن أوروبا منذ السنة ٤٧٦ م، دفع بجيش عظيم التقت فيه جموع من القوط والفرنج والبشكنس، والبورغنديين والبروفنساليين بقيادة قوطي يدعى بيراBeral لاجتياح أراضي المسلمين في جهات برشلونة وإلقاء الحصار على هذه المدينة الهامة. ولما كان الأمير منشغلاً آنذاك بمقارعة الخارجين على سلطانه وخاصة عمه عبد الله فقد بات عبء الدفاع عن المدينة المحاصرة على عاتق حاكمها سعدون الرعيني. الحصار كان قوياً يتزايد شدة بتزايد النجدات الوافدة باستمرار من القوى النصرانية المتحالفة. صمد سكان المدينة وقاوموا فترة طويلة وطلبوا العون والمساعدة من حكومة قرطبة التي كانت في شغل شاغل عن الاهتمام بمصير برشلونة، وأيضاً طلب الحاكم سعدون الرعيني المدد من حكام ومقدمي مدن الثغور المجاورة، وكان هؤلاء كلهم تقريباً خارجين أو شبه خارجين على سلطان العاصمة فما تجاوبوا ولا استجابوا. وأخيراً وتحت وطأة الجوع والحرمان والحصار المتزايد ومع فشل كل محاولات أمير المدينة الشجاع للحصول على المساعدة استسلمت المدينة لمصيرها وارتفع في سمائها علم الدولة الكارولانجية منهياً وجود الإسلام في تلك الديار وللأبد[1].

وهكذا انتقل المسلمون، على الأرض من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع. فبعد أن كانت لهم في القرن الثامن للميلاد وحتى نهايته تقريباً أراضي وراء البيرينيه تعتبر بمثابة ثغور أو مواطىء أقدام لهم في أراضي الفرنج بات لهؤلاء ومنذ بداية القرن التاسع للميلاد ولاية تسمى الثغر الإسباني داخل أراضي المسلمين في

---

(١) حول موعد استسلام المدينة يبدو ان هناك أكثر من رواية، ولو ان المؤرخين المسلمين ما اهتموا كثيراً بتسجيل دقائق هذا الحدث على اهميته. فابن حيان يذكر ان حصار برشلونة قد تم في ٧٩٩ (١٨٣ هـ) وان استسلامها قد حدث بعد سنتين تماماً. وقد رأينا اعتماد رواية ليفي بروفنسال التي تجعل بدء الحصار في سنة ٨٠١ (١٨٥ هـ) واستسلامها بعد عامين لأنها تتوافق مع الرواية الفرنجية الوافرة التفاصيل والكثيرة الدقة.

شبه الجزيرة الإيبرية تضم مدن جيروندة وسولسونة وأحوازهما، عاصمتها مدينة برشلونة.

ولن يلبث هذا الجيب الفرنجي بزعامة بيرالBeral أن يتحول منذ سنة ٨١٧ م إلى ما يعرف باسم كونتية برشلونة، ليأخذ شكل دويلة ذات استقلال متزايد تكون نواة لكاتولونيا الكبيرة. وخسارة هذه المناطق كانت ضربة قوية لدولة الإسلام في الأندلس لأنها ابتعدت بها في مناطق جنوب جبال البيرينيه عن شواطىء البحر وجعلت مدينة سرغوسة الكبيرة والهامة على تماس دائم مع دويلة مسيحية ووضعتها في خط دفاعي أمامي وهو وضع ما كانت تحسد عليه ربما سيعجل في خروجها من سيادة الدولة الأندلسية.

وقد تابع الفرنج وحلفاؤهم نصارى إسبانيا التقدم في أراضي المسلمين انطلاقاً من قاعدتهم الجديدة برشلونة فحاولوا أكثر من مرة الاستيلاء على طرطوشة ووشقة إلا ان الأندلسيين صمدوا لهم ودافعوا عن أراضيهم، وأخيراً وبعد أن نجح الأندلسيون في احتواء تقدم الفرنج من برشلونة عبر أراضيهم وربما أيضاً بسبب تقدم السن بشارلمان وبسبب ما لاح في العمق من خلافات حول وراثة عرشه الأمبراطوري، بدأ يجنح بصورة متزايدة نحو مهادنة الحكم أمير قرطبة. وما كان هذا أقل رغبة في السلام، لكثرة ما عانى من ثورات الخارجين على سلطانه، وأيضاً ربما لما بدأ يلوح في الأفق من خطر أخذ يظهر في بلاد المغرب مع قيام دولة الأدارسة الحسنية[1] والتي ما كان ينتظر منها أن تكون صديقة أو حليفة للأمويين. وقد أمكن التوصل فعلاً إلى توقيع هدنة، ذات نص على شيء من الغموض في مصادر المؤرخين، بين الدولتين ابتداء من سنة ٨١٢ م حسب المصادر الفرنجية[2].

---

(١) نسبة إلى الحسن بن علي.

(٢) Historia de Espana, T IV, p. 118.

هذه الهدنة ما منعت الأمير الأموي من متابعة القتال ضمن حدود شبه الجزيرة الإيبرية، مما يعني ان توقف الأعمال الحربية شمل أراضي الفرنج فقط. وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بان شارلمان كان أكثر رغبة في السلام وإنه على الأرجح صاحب المبادرة في السعي إليه لأسباب خاصة بدولته أشرنا إليها سابقاً. في سنة ٨١٥ م (١٩٩ هـ)[1] أرسل حملة كبيرة بقيادة قائد صوائفه آنذاك عبيد الله البلنسي لمهاجمة الثغر الإسباني (كونتية برشلونة) بسبب استمرار حاكمها في الاعتداء على مناطق المسلمين المجاورة. التقى القائد المسلم في مرج قريب من برشلونة بجيوش حاكمها الفرنجية. قاتل المسلمون قتالاً شديداً واستبسلوا «فمنحهم الله أكتاف المشركين وانهزموا وقتل عامتهم وفرق جمعهم»[2]. كانت هذه المعركة انتصاراً باهراً للأمير الحكم، سجله، في سنوات حكمه الأخيرة ولكنه كان محدود الأثر على الأرض فما غير شيئاً في طبيعة الحدود بين دولة الإسلام في الأندلس وبين الثغر الإسباني (كونتية برشلونة). إنما في كل الحالات يبدو ان الصراع في هذه المناطق قد خبا، بعض الوقت، لأن الزعيمين الكبيرين شارلمان والحكم كانا قد صارا في سنوات حياتهما الأخيرة وما كانت أحوالهما الصحية تسمح لهما إلا باعتماد سياسة مهادنة ومسالمة بصورة عامة.

إنجازات الحكم الأول

يبدو انه من الصعب جداً تقويم أعمال الأمير الحكم ومنجزاته. ذلك إن عهده على استطالته ووفرة أحداثه وكثرة منجزاته كثرت فيه الأعمال الباهرة ولكن أيضاً الأخطاء الكبيرة والمجازر البشرية. من هنا بإمكان المؤرخ أن يخرج بصورة زاهية للأمير وحكمه إذا نظر إلى ذلك من زاوية المنجزات الإيجابية وهي وافرة. أيضاً بإمكانه الخروج بصورة غاية في السواد إذا ما اعتمد الزوايا السلبية وإذا ما نظر إلى كثرة من قتلوا على أيدي الحكم أو بأمره وإرادته. ولعل نسبته إلى الربض ولقبه

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١٠.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١١.

الربضي المستمد من مجزرة الربض التي قتل وهجر فيها الألوف كانا من ابتداع أولائك الذين ما نظروا إليه إلا من الزوايا السلبية. ويجد المؤرخ اليوم في عودته إلى المصادر الإسلامية القديمة صعوبة كبيرة في تقويم أعمال هذا الرجل وتصنيفه بين أمراء بني أمية. فالأحكام عليه كثيرة ومتناقضة. فابن حزم لا يرى فيه إلا «إنه كان من المجاهرين بالمعاصي، السافكين للدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء»[1]. أما المراكشي فإنه يجده «طاغياً مسرفاً، وله آثار سؤ قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم»[2]. بالمقابل هو بالنسبة لابن عذاري «شديد الحزم، ماضي العزم، . . . وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته»[3]. والمقري يرى «إنه أول من جند الأجناد، واتخذ العدة، وكان أفحل بني أمية بالأندلس، وأشدهم إقداماً ونجدة، وكان يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدة الملك، وتوطيد الدولة، وقمع الأعداء»[4].

إنما في مقابلة بين أحكام وروايات من أحبه من المؤرخين المسلمين ومن أخذ جانب الفقهاء وهم أخصامه في أكثرهم وأيضاً من خلال نظرة مجردة إلى منجزاته وأعماله نخرج بحكم اعتقد إنه يقرب كثيراً من الصواب. فالحكم الأول هو كأكثر العظام من خلفاء وأمراء بني أمية في المشرق كما في المغرب كان رجل دولة في المقام الأول. لذا يجب أن ينظر إليه فقط من خلال ما عمله للإبقاء على الدولة الأموية في الغرب حية فاعلة بمعزل عن الاعتبارات الدينية والأخلاقية التي يمكن أن توجد لها دوماً المبررات الكافية لمن كان لا يخاصم الحكم ولا يعاديه لاعتبارات لا تعدوا أن تكون شخصية وخاصة المؤرخ ابن حزم مثلاً.

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٤٢.
(٢) المعجب، المراكشي، صفحة ١٩.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١١٦.
(٤) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٤٠.

لقد ورث عن أبيه هشام الرضا دولة ـ الدولة الأموية ـ كانت ما تزال بحاجة ماسة، بعد كل ما فعله الأميران السابقان، لتدعيم قواعدها وتقوية حدودها وتوحيد عناصر سكانها وتأكيد سلطانها. ورث دولة معزولة عن العالمين المسيحي والإسلامي تناصبها العداء أكبر أمبراطوريتين في ذلك الزمن: الدولة العباسية والأمبراطورية الكارولانجية. ثم فوق هذا وذاك ما أن تسلم الحكم حتى واجهته سلسلة متصلة من الثورات وأعمال الخروج على الجماعة وعلى سلطان الدولة شغل في القضاء عليها حتى أيامه الأخيرة، ويمكن التأكيد بأنه وخلال حكمه الذي امتد على طول ربع قرن تقريباً ما ارتاح يوماً واحداً من مقارعة أعداء الداخل ودفع عدوان أخصام الخارج عن حدود دولة اعتبر أنه ورث التزاماً دينياً ووطنياً وعائلياً بضرورة المحافظة عليها بوجه الجميع وبكل الوسائل. ويبدو أن مآخذ من انتقدوه انبثقت من انه ما التزم حدوداً، اعتبروها هم أخلاقية ودينية، في سعيه لصيانة إمارة بني أمية وأيضاً سلامة دولة الإسلام في الأندلس.

والواقع أن أخصامه يأخذون عليه أمرين: أولهما إنه كان يعاقر الخمرة بكثرة ويغشى مجالس الأنس والطرب ويعاشر الشعراء والمغنيين والماجنين. ولكن في هذا المجال هل كان وحيداً بين أمراء بني أمية بل وبين عامة أهل عصره في الأندلس؟ لقد كان محباً للحياة، أديباً شاعراً، ولكن في كل ذلك ما كان متجاوزاً لما كان سائداً في عصره وبين أهل زمانه. والأمر الثاني إنه كان صارماً، يعتمد دوماً وسائل الطغيان المطلق، لا يتأخر عن ركوب أي مركب لتحقيق أهدافه مهما كان دموياً وبعيداً عن الرحمة والإنسانية. ويستدلون على ذلك دائماً بذكر مذبحتي «حفرة عمروس» في طليطلة و «الربض». أما بالنسبة لطليطلة فهل هادنت هذه المدينة، منذ ارتفع في سمائها علم دولة الإسلام والياً أو أميراً؟ ألم تعلن الثورة على كل من مارس السلطان في قرطبة؟ أما أجبرت أكثر من حاكم وأمير على أن يذهب في معاقبة أهلها بأشد مما فعل الأمير الحكم؟

أما ثورة الربض وبمن كان روائها من الفقهاء، مع كل ما كان لهم من نفوذ وسطوة على العامة، فإنها تهددت ركائز الدولة الأموية في الأندلس وشعر الأمير

الحكم بأن عليه أن يواجه قراراً مصيرياً لا بد من اتخاذه وهو: لمن تكون السلطة والسيادة، للأمير أو للفقهاء ورجال الـدين؟ ولما كان بطبعـه شديد الحرص على سلطانه حريصاً على أن لا يشاركه أحد نفوذه فقد حسم الأمر لصالح الأمير والدولة ولكن على طريقته القاسية التي كرهها كثيرون في عصره. ولـكن هنـا لا بد من الإشارة إلى أن قسوته سببها قناعته بإن الدولة ـ أي دولة في العصور الوسطى ـ لا تحتمل رأسين أو شريكين في سلطة واحدة. ثم إنه ليس وحده من اشتكى وتألم، من ممارسات أسواق قرطبة وأرباضها وعامتها ومن نفور القرطبيين، على اختلاف الحكام والأزمنة، من وطأة السلطة. ألم يعرف المـؤرخ ابـن سعيد في حضـرة السلطان يوسف بن عبد المؤمن ثاني خلفاء الموحدين في الأندلس قرطبة «وإن عامتها أكثر الناس فضولاً وأشدهم تشغيبـاً، ويضـرب بهـم المثـل ما بين أهـل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم». وأكد هذا الحكم القاسي أبو يحي، شقيق السلطان الموحدي يعقوب المنصور بعد أن تخلى عن منصب والي قرطبة إذ قال، عن أهلها إنهم «مثل الجمل إن خففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح، ما تدري أين رضاهم فتقصده، ولا أين سخطهم فتتجنبه»[1].

ومهما قيل فيه فإنه قد نجح في تأكيد سلطان الإمارة وترسيخ نفوذها وصان حدودها بالقـدر الـذي سمحـت له به كثـرة مشاغلـه في تأكيد سيادة الدولـة في الداخل. وحين توفي في ٢١ أيار سنة ٨٢٢ م (٢٥ ذي الحجة ٢٠٦ هـ) ترك لابنه وولي عهده عبد الرحمن الثاني المعروف بالأوسط ملكاً وطيد الدعائم ودولة يشمل سلطانها ونفوذها كل شبر من أرض الأندلس، وأعداء أصاب كل واحد منهم في صميم قوته وبأسه بحيث ما عاد يخشى خطرهم على الأقل في المستقبل القريب.

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ١٥٥.

الفصل الرابع

عَبد الرّحمَن الثّاني
(الأوسَط)
(٨٢٢ ـ ٨٥٢م) (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ)

خلف الأمير الحكم ابنه عبد الرحمن المولود في طليطلة سنة ٧٩٢ م (١٧٦ هـ) من جارية تدعى «حلاوة». وتعرفه المصادر الإسلامية بعبد الرحمن ا«الأوسط» لتوسطه في سلسلة حكام بني أمية بين عبد الرحمن الأول «الداخل» وعبد الرحمن الثالث «الخليفة الناصر». أعده والده لتسلم ولاية عهده فأحسن إعداده. عني بتعليمه وتثقيفه وتزويده بالعلوم الزمنية وأيضاً بعلوم الفقه والحديث، كما ظهر أيضاً في فنون الشعر والأدب. تولى الإمارة بعد ثلاثة قضوا أيامهم في تأكيد سلطان الدولة ونشر سيادتها وإخضاع أعدائها والثائرين عليها، وأيضاً في صون حدودها ورد الطامعين في أقاليمها. ورث ملكاً واسعاً، ثابتاً، مستقراً عرف كيف يدبر أموره وينظم شؤونه بحيث حقق من المنجزات الحضارية والعلمية والسياسية ما لم يتيسر لواحد من أسلافه.

ثورات المعارضة

حين أخذت له البيعة في قصر قرطبة، بعهد من أبيه، بعد يوم واحد من وفاته، ما كان غريباً عن شؤون الدولة والحكم ولا كان بعيداً عن أمور الإدارة

والجيش. كان في ذلك الحين في الثلاثين من عمره، اعتاد منذ فتوته المشاركة في الحياة العامة إلى جوار أبيه. قاد أكثر من حملة عسكرية، رأيناه في إحداها يمر على مدينة طليطلة ويشهد مذبحة «حفرة عمروس» الشهيرة. وتولى في فترات الاضطراب الشديد الولاية في مناطق الثغر الأعلى. ثم إنه مارس الإمارة فعلاً في فترة المرض التي سبقت وفاة الأمير الحكم. كان مدركاً، إذ أنه كان شاهد عصر أبيه، لعظيم ما تركه الحكم الأول. لقد ترك له بلاداً يرفرف السلام على جل مناطقها، وإدارة بالغة التنظيم، وخزينة عامرة، واقتصاداً ينمو ويزدهر بصورة مضطردة[1]. من هنا كان بإمكانه أن ينطلق في سياسته، الداخلية منها والخارجية، من دعائم ثابتة مستقرة. على صعيد السياسة الداخلية حرص، عبد الرحمن الثاني على اعتماد ما درج عليه أسلافه من إصرار على المحافظة على وحدة الأمة الوطنية، وعلى تحقيق مركزية الحكم. وفي هذا المجال واجهت الأمير، وإن بدرجة أقل، نفس المشاكل التقليدية المزمنة التي طالما أضعفت كيان دولة الإسلام في إسبانيا، وهي العصبيات العربية، والحساسيات البربرية ـ العربية، وموقف أبناء البلاد من مولدين ومستعربين من دولة بني أمية. وفي معالجته لما نتج عن هذه المشاكل من اضطرابات وتمرد ما كان مجدداً ولا كان مبدعاً، وإنما درج على سياسة أبيه وجده من اعتماد القسوة والعنف، ولو أنه كان بطبعه أكثر منهما ميلاً نحو المسالمة واللين.

وفي مطلع ولايته وفي سنة ٨٢٣ (٢٠٧ هـ) تمرد عم أبيه المقيم في بلنسية، عبد الله البلنسي الذي طالما أزعج الدولة بمطامعه وأثار بوجهها المصاعب لأنه يعتبر نفسه وقد أبعد عن السلطان بغير وجه حق، علماً بان الأمير الحكم كان قد بالغ في إكرامه إذ قرب أولاده إليه ووسع لهم في السلطة والنفوذ وجعل من أحدهم عبيد الله أحد قادة جنده ورائد صوائفه كما إنه ترك عبد الله يحكم بلنسية وأحوازها حكماً شبه إقطاعي. ورغم كل ذلك اعتقد ان وفاة أمير

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 129.

ومجيء آخر قد يمنحه فرصة مناسبة إن لم يكن للحصول على إمارة قرطبة فعلى الأقل لتوسيع نفوذه وضم مقاطعة تدمير (مرسية) إلى مناطق هيمنته. وفعلاً جمع جنده وسار نحو أراضي كورة تدمير، حيث أصابه عارض صحي أعاقه على ما يظهر عن تنفيذ ما عزم عليه، فعاد إلى بلنسية، قبل أن يرسل له الأمير عبد الرحمن من يقاتله، حيث بقي طريح فراشه حتى وفاته في العام ٨٢٣ - ٨٢٤ م (٢٠٨ هـ). عادت بعد ذلك مدينة بلنسية إلى سلطة قرطبة التي ندبت عليها والياً يرتبط بالأمير مباشرة.

وفي نفس السنة التي ثار فيها البلنسي تحركت العصبيات العربية، فاشتغلت ببعضها، حين أدركت قوة الدولة واستقرارها وقدرتها على سحق أي تمرد على سيدها. خلاف شخصي تافه بين قيسي ويمني أثار حرباً ضارية بين أبناء العصبيتين في شرق الأندلس من سكان كورة تدمير (مرسية). استطالت الحرب بين الفريقين وأشاعت الدمار والخراب في حقول هذه المنطقة وعلى دروبها ومسالكها. أغزى إليهم الأمير عبد الرحمن في هذا العام يحي بن عبد الله بن خلف فلم يفلح في القضاء نهائياً على الفتنة ثم «كان يبعث إليهم المرة بعد المرة بالقواد فيفترقون فإذا قفلوا عادوا إلى الفتنة»[1]. وبرز في هذه الفتنة زعيم يمني يدعى أبا الشماخ ناهض سلطان قرطبة لسنوات عديدة والتقى بجنود القيسيين في أكثر من واقعة «كانت الدوائر تدور أكثرها على اليمانية والقتلى منهم»[2]. هذا الصراع الطويل استهلك طاقات الفريقين وقدراتهم مما سمح للأمير بعد ذلك بالتدخل دون كبير عناء. استجلب إلى ناحيته الزعيم اليمني أبا الشماخ الذي صار فيما بعد من ثقاته ومقربيه ثم أمر في سنة ٨٣١ م (٢١٦ هـ) بتهديم مدينة ألهElloالتي كانت قاعدة الفتنة وموطنها وبنى مدينة جديدة «مرسية»، جعل منها قاعدة لكورة تدمير ومقراً لعاملها.

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٢.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٤.

وكذلك البربر رفضوا أن يفوتهم قطار التمرد والثورة، ولـو في غير الأوان المناسب وفي ظل أمير قادر ومصمم على سحق كل عصيان. في سنـة ٨٢٦ م (٢١١ هـ) ثار في منطقة تاكرنا (روندا) بربري يدعى طوريل. ندب الأمير أحد قادته «فظفر به وقطع عاديته»[١] وفي السنوات التـالية تكررت ثورات البربـر في ماردة وأحوازها حيث يكثرون وقد برز من زعمائهم في هذه الفترة سليمان بن مرتين ومحمـود بن عبـد الجبـار بن راحلـة. وكان يقطـن في هذه المنطقـة كثير من المستعربين ما تخلفوا عن دعم الثائـرين وتأييدهـم. وقـد تميز محمـود بن عبد الجبار، بالقوة والشجاعة والقدرة على الريادة تساعده في ذلك أخـت له بارعـة الجمال لا تبارى في مجال الحرب والفروسية تدعى «جملة»[٢]. كثرت الحملات التي وجهها الأمير عبد الرحمن للقضاء على الثائرين في منطقـة ماردة دون كبير نجاح. وأخيراً وفي سنة ٨٣٣ م (٢١٨ هـ) خرج الأمير عبد الرحمن بنفسه إلـى ماردة ففر زعماء البربر وبعض أتباعهم إلى مناطـق غرب الأنـدلس حيث ظلـوا يعيثون فساداً، وإن على نطاق محدود جداً، سنوات عديدة إلى أن أدركهم اليأس والقنوط من تحقيق نصر ذي قيمة ففروا إلى مملكة ألفونسو الثاني حيث قتل بعد ذلك الزعيم محمود بن عبد الجبار، وانقطعت أخبـار أختـه بزواجهـا، ورفاقـه بتفرقهم في تلك الديار. ثم في أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الثاني حمـل لواء الثورة والعصيان في جبال الجزيرة الخضراء بربري آخر يدعى حبيب البرنسـي، سرعان ما قضت الدولة على حركته بعد أن قتلت عدة من أصحابه وافترق الباقون عنه وهرب هو، وكان ذلك في سنة ٨٥٠ م (٢٣٦ هـ)[٣].

والمولدون أيضاً ما شاؤوا أن يمر عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط دون أن يثيروا بوجهه بعض المصاعب ولو من باب إثبـات الوجـود. ففـي سنـة ٨٢٩ م

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٤.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٨٩.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣٤.

(٢١٤ هـ) ثار في مدينة طليطلة حداد من العاملين في أسواق قرطبة، هاشم الضراب، وهو من فئة المولدين، جمع حوله حشداً كبيراً من أهل الشر والفساد أكثروا من الغارات على العرب والبربر المقيمين في المناطق المجاورة. ومع الوقت ومع تكاثر أمواله من حاصلات الغزو والسلب جاءه أهل الشر من كل جهة حتى اجتمع له منهم جمع عظيم وخلق كثير فاشتد ساعده وعلا ذكره وانتشر صيته[1]. وبعد عامين أي في سنة ٨٣١ م (٢١٦ هـ). أرسل له الأمير عبد الرحمن قائده محمد بن رستم فوقعت بين الفريقين حرب شديدة دامت أياماً انتصر في نهايتها القائد الأموي وانهزم هاشم الضراب وقتل. إلا أن طليطلة ظلت كعادتها ترفع لواء المعارضة للأمير وحكمه ولا تميل نحو السلام والمهادنة إلا لتعود فتجنح نحو التمرد والعصيان. وما استسلمت نهائياً لحكم الأمير عبد الرحمن الثاني إلا بعد أن فتحها غصباً القائد الإسكندراني سنة ٨٣٧ م (٢٢٢ هـ).

هـذه أبرز التحركات العسكرية الداخلية والثورات التي قامت بوجه حكم الأمير عبد الرحمن الثاني. وهي كما رأينا كانت ضعيفة أصلاً في منطلقاتها، تفتقر لأسباب النجاح الكامنة في دعم واسع من الجماهير ووفرة الإمكانيات المادية. لذا فإن هذه التحركات وأمثالها، مما اعتقدت انها لا تستحق الذكر، ما استطاعت أن تغير صفة السلام والرخاء وأيضاً ميزة الحزم والقوة والقدرة على القمع السريع، مما اتصف به عهد هذا الأمير ولا تمكنت من أن تحوله عن اهتماماته السياسية الكبيرة والحضارية.

العلاقات مع دول النصرانية

لعله بسبب استطالة سنوات حكمه، واستقرار أوضاع بلده، وتبدل الأحوال في بلدان النصرانية المجاورة كان على عبد الرحمن الثاني أن يبذل اهتماماً كبيراً، وأكثر مما فعل أي واحد من أسلافه بالشؤون الخارجية. لقد اعتقد عبد الرحمن

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٥.

الأوسط انه، بصفته حام لدولة الإسلام في إسبانيا، وكوارث لعبد الرحمن الداخل والحكم الأول، يلتزم بمتابعة سياسة «الجهاد» في شمال إسبانيا المسيحي وفي بلاد غالة.

العلاقات مع الشمال الإسباني:

كان عبد الرحمن الثاني إلى جانب التزامه بفكرة «الجهـاد» التقليدية عنـد حكام الأندلس والقاضية بنشر الإسلام في كل أرض وصقـع، يشعـر بأن والـده الحكم الأول، قد أورثه من بين ما ترك له، علاقات متوترة مع ملك أستورياس المشاكس. والواقع إن ألفونسو الثاني هذا استغل إلى أقصى حد متاعـب الأمير الحكم الداخلية فكانت غاراته وغزواته على مناطق المسلمين المجاورة لا تتوقف وما استطاع الأمير الأندلسي حتى بعد الانتصار الذي سجله حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد في سنة ٨١٦ م (٢٠٠ هـ) في ألبة وبلاد القلاع (قشتالة) أن يحسم هذا الأمر نهائياً وأن يضمن سلامة حدود المسلمين. من هنا شعر عبد الرحمن الثاني ان وقف تعديات ألفونسو الثاني على أراضيه هو ضرورة ملحة تتقدم علـى أي إنجاز آخر، وبالتالي باشر سياسة الصوائف. إنما لا بد من الإشارة إلـى ان أمير قرطبة الشاب سار في هذا الدرب وكأنه أمر مفروغ منه بمعنى إنه، وكما ستظهر الأحداث، وكما حصل في أيام أسلافه، ما كانت الصوائف التـي سترسـل إلـي الشمال لمقارعة أخصامه النصارى وطيلة أيام حكمه تستهدف غاية معينة وثابتة، وتندرج تحت خط سياسي واضح الأبعاد. فالصوائف كلها كانت تذهب فتخرب وتدمر وتثير الفوضى والاضطراب. وهـي ما حاولـت مرة واحـدة أن تسـتفيد من الانتصارات العسكرية لتقوية الحدود وتحصينها أو لتوسع أقليمـي. وعلـى هذا ستكون نتائج حروب عبد الرحمن الأوسط في إسبانيا المسيحية كما ضد الفرنج سلبية من حيث المكاسب الثابتة رغم وفرة ما حققته من انتصارات معنوية ومـن غنائم وأسلاب وأسرى.

في صيف سنة ٨٢٣ م (٢٠٨ هـ) خرج القائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن

مغيث في أولى هذه الصوائف على رأس جيش كبير أريد له أن يكون عظيماً باهراً فتوافت عليه عساكر الإسلام من كل حدب وصوب. قصد القائد المسلم أراضي القلاع (قشتالة) من جهة ألبة «إذ كان ذلك الباب أنكى للعدو وأحسم لدائه»[1]، وهو العالم الخبير بتلك الأصقاع وبمواقع الإسبان فيها لكثرة ما تردد إليها أيام الحكم الأول. وهناك في بسيط من أرض قشتالة أنزل بعض الهزائم غير الهامة بجيوش الإسبان الذين ما أقدموا على ما يظهر على مواجهة كبيرة مكشوفة. وقد اكتفى المسلمون باجتياح ذلك الأقليم ونهب خيراته وتدمير عامر مدنه وقراه وإفقار مزارعه. وانصرف المسلمون غانمين ظافرين[2]. وكانت هذه آخر صائفة يقوم بها هذا القائد المسلم الكبير والذي لعب دوراً مميزاً في الحياة العسكرية في الأندلس طيلة الربع الأول من القرن التاسع للميلاد، إذ ما لبث أن انتقل إلى الدنيا الآخرة بعد عودته إلى قرطبة بأشهر قليلة.

في سنة ٨٢٥ م (٢١٠ هـ) خرجت جيوش المسلمين بقيادة عبيد الله البلنسي في صائفة إلى أراضي ألبة حيث سجل انتصاراً عسكرياً على جيوش أستورياس. وفي نفس الوقت كان قائد مسلم آخر هو العباس القرشي يسجل نصراً عسكرياً في مقاطعة غاليسيا. والواقع إننا لا نعلم الكثير عن تفاصيل وخطوط سير هاتين الحملتين اللتين تفرد بذكر خبريهما ابن حيان[3].

بعد هذين الإنجازين أوقف عبد الرحمن الأوسط إرسال الصوائف إلى الشمال الإسباني لمدة عشر سنوات ولأسباب أهمل مؤرخو هذا العصر الكشف عنها. فالأحداث الداخلية وخاصة التحركات المعادية للسلطة والتي قامت في منطقتي طليطلة وماردة كانت محدودة الفعالية، قليلة الخطر كما رأينا ولا يمكن أن توقف مسار سياسة «الجهاد» التي جعلها الأمير منذ تسلمه السلطة في أولى اهتماماته. ولا ندري إذا كان يمكننا الذهاب مع ليفي بروفنسال والافتراض بإن

---

(١) (٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٣.

(٣) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 136.

اتفاق هدنة، من نوع ما، أمكن الوصول إليه بين ألفونسو الثاني وأمير قرطبة، دون أن تكون هناك إشارة إلى ذلك في المصادر الإسلامية أو الإسبانية[1].

استأنف الأمير عبد الرحمن الثاني في سنة ٨٣٨ م (٢٢٣ هـ) سياسة الصوائف ـ لماذا هذه السنة بالذات؟ لا أحد يدري ـ فندب شقيقه الوليد على رأس صائفة إلى أراضي جليقية سجلت نصراً عسكرياً وكانت لها فتوحات كثيرة[2]. وفي السنة التالية قاد ابنه الحكم صائفة إلى مناطق الثغور فعبر الحدود إلى أراضي الإسبان النصارى «فدوخها وقتل من المشركين ما لا يحصى»[3]. وفي سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) كانت الصائفة إلى أراضي جليقية بقيادة الأمير عبد الرحمن الثاني نفسه. وقد أهمل المؤرخون إيراد تفاصيل ما حدث فيها وما حقق خلالها من منجزات. إنما يبدو من حديث ابن عذاري انها ما كانت مثمرة كثيراً إذ «طالت غزاته وتعب فأرق في بعض الليالي»[4] وكل ما ذكره المقري عن هذه الحملة، والتي كانت الأخيرة يقودها عبد الرحمن بنفسه إلى أراضي جليقية انه «جال في أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم»[5]. والصائفة التالية إلى هذه الأراضي قادها ابنه مطرف بن عبد الرحمن وهي وإن كانت غير واضحة الإنجاز إلا ان الأمير عاد منها بانتصار عسكري أشار إليه أكثر من مؤرخ مسلم.

وفي سنة ٨٤٢ (٢٢٨ هـ) خرج الأمير عبد الرحمن الثاني بنفسه على رأس صائفة رافقه فيها ولداه محمد والمطرف، ولكن هذه المرة إلى أراضي البشكنس حيث لقي جيشاً كبيراً «فأنزل الله نصره على المسلمين»[6]. ثم سار عبد الرحمن

---

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 136.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٧.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٨.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٨.

(٥) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٤٥.

(٦) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٩.

إلى عاصمتهم بانبلونة بعد أن فر سيدهم غرسية، فاقتحمها وخرب عمائرها ودمر أبراجها «وأفاء الله على المسلمين من ذراري بنبلونة وخيلهم وأسلحتهم ما عظم به من الله سبحانه المنُّ»[1].

وفي السنة التالية ٨٤٤ م (٢٢٩ هـ) خرج الأمير عبد الرحمن الثاني على رأس حملة كبيرة لمحاصرة موسى بن موسى بن فرتون بن قسي، والي مدينة تطيلة في الثغر الأعلى (آراغون)، الثائر والذي تحالف مع جاره غرسية ملك البشكنس في تصديه لأمير قرطبة حين هاجم مدينة بنبلونة. نزل الأمير في مدينة سرغوسة وأرسل ابنه الأمير محمد لمحاصرة تطيلة وزعيمها ومن يتحالف معه من جيرانه النصارى. ولما اشتد الحصار على المدينة بادر موسى بن موسى لعرض رغبته في الاستسلام والخضوع لسلطان قرطبة فقبل منه الأمير محمد ذلك وأقره على ولاية تطيلة وأحوازها وأخذ منه الرهائن لضمان استمرار خضوعه. ثم تقدم المسلمون ومعهم موسى بن موسى بن فرتون[2] إلى مدينة بنبلونة فكانت لهم بها وقعة عظيمة انتصروا فيها على البشكنس[3] وعادوا بغنائم وأموال وأسرى مما لا يحصى.

في هذه الأثناء حدث تغير هام في شمال غرب إسبانيا إذ توفي ألفونسو الثاني ملك أستورياس، والذي طالما أزعج المسلمين عند حدودهم مع مملكته، في سنة ٨٤٢ وخلفه ابنه راميرو الأول. في أيام هذا الملك قاد المسلمون صائفتين فقط على أراضيه، على حياة عبد الرحمن الثاني. الأولى في سنة ٨٤٦ م (٢٣١ هـ) قادها الأمير محمد إلى أراضي جليقية فحاصر عاصمتها مدينة ليون

---

(١) البيان المغرب، ابن عذارى جزء ٢ صفحة ١٢٨.

(٢) موسى بن موسى بن فرتون بن قسي أحد زعماء المولدين في مناطق الحدود مع إسبانيا المسيحية (الثغر الأعلى) كان جده الأعلى من زعماء القوط ومن مقدمي منطقتهم عند نزول المسلمين في إسبانيا. اعتنق الجد الإسلام على يد خليفة دمشق الوليد بن عبد الملك وصار من مواليه محتفظاً بأمواله ونفوذه. واستمر بعد ذلك، في ظل دولة الإسلام في الأندلس نفوذ عائلة بني قسي، مع إن إخلاصها وولاءها لأمير قرطبة ما كانا دائماً فوق الشبهات.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٩.

وقذفها بالمنجنيق[1] مما أذهل السكان المحاصرين وألقى الرعب في قلوبهم لرؤيتهم هكذا سلاح مدمر للمرة الأولى، فهربوا إلى الجبال ودخلها الأمير محمد وخربها وهدم أسوارها وحصونها. والثانية قادها الأمير المنذر في سنة ٨٤٨ م (٢٣٥ هـ) إلى مدينة ألبة وأحوازها وعاد محملاً بالغنائم والسبي.

العلاقات مع الفرنج:

كانت مواقع المسلمين في غالة، وكما أشرنا سابقاً، في تراجع مستمر منذ هزيمة «بلاط الشهداء» لحساب الكارولانجيين والذين كانوا قد توجوا انتصاراتهم باسترداد مدينة برشلونة إلى حظيرة النصرانية من أيدي المسلمين في سنة ٨٠١ وإقامة ثغر متقدم للدولة الكارولانجية عند أطراف جبال البيرينيه المطلة على البحر المتوسط. ولما كان المسلمون ما اعتبروا الصراع مع الفرنج في تلك المناطق منتهياً أقدم الأمير عبد الرحمن الثاني، حين سمحت له ظروفه، على إرسال حملة كبيرة في سنة ٨٢٨ م (٢١٢ هـ) بقيادة عبيد الله البلنسي استهدفت مدينة برشلونة ومنطقتها. ألقى القائد المسلم الحصار على المدينة. إلا انه ما نجح في كسر صمودها وعاد فحاصر مدينة جيرندة دون نتيجة أيضاً فرجع إلى قرطبة بعد أن جال في المنطقة مدة ستين يوماً[2] ناشراً فيها الدمار والموت جامعاً الأسلاب والغنائم.

عاد الأمير عبد الرحمن فأرسل حملة في سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) بقيادة عبد الواحد الإسكندراني توغلت كثيراً في الأراضي الواقعة تحت سيادة الفرنج وعبرت البيرينيه الشرقية ووصلت حتى أحواز ناربونة إلا أنها فشلت في تحقيق أي مكسب على الأرض. وكذلك فشلت محاولة أخرى لاستعادة مدينة برشلونة تمت في سنة ٨٥٠ م (٢٣٦ هـ)[3].

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣٢.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٤.

(٣) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 142.

العلاقات مع بيزنطية:

ما كانت علاقات الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) بالدول المسيحية دائماً علاقات قتال وعداء وإنما كانت تمر أحياناً بفترات من السلام ومحاولات التفاهم على حد أدنى من التعايش وإن لم تصل أبداً معهم إلى حد التحالف. فالمراجع الفرنجية مثلاً تشير إلى مسعى لإحلال هدنة بين أمير قرطبة والملك الكارولانجي شارل الأصلع تم في سنة ٨٤٧ م حين ندب سيد قرطبة من جانبه بعثة إلى مدينة رمس سعياً وراء السلام والتفاهم بين الدولتين[١].

وما تزال هذه المحاولة غامضة جداً بتفاصيلها وربما بحقيقتها في التاريخ الأندلسي نظراً لكون المصادر الإسلامية لا تشير إليها لا من قريب ولا من بعيد. أما العلاقات مع بيزنطية فهي أكثر وضوحاً تتفق حول طبيعتها المصادر الإسلامية كما البيزنطية.

في القرن التاسع للميلاد كانت الأمبراطورية البيزنطية في صراع حياة أو موت مع الدولة العباسية في المشرق ومع عمالها وحتى أيضاً مع من كانت صلاتهم بالعباسيين واهية مثل الأغالبة في تونس. وكانت الدولة البيزنطية، منذ ظهور الإسلام، تخسر الموقع تلو الآخر خاصة في جزرها الكثيرة المنتشرة في البحر الأبيض المتوسط، مما يهدد بفقدانها نفوذها البحري حتى في القسم الشرقي من هذا البحر والمواجه لأراضيها. وكان أشد ما نزل بالبيزنطيين من نكبات في هذه الفترة تلك الهزيمة التي أنزلها الخليفة العباسي المعتصم بجيوش الأمبراطور تيوفيل في غمورية، وما انتهت إليه من تخريب المدينة وتشريد أهلها في سنة ٨٣٨ م (٢٢٣ هـ). في مواجهته الخطر العباسي رأى الأمبراطور تيوفيل البيزنطي أن لا بد من السعي للحصول على أصدقاء وربما حلفاء له ولدولته. وهو لا يرى حليفاً في الكارولانجيين، مع انه حاول ذلك، الذين كانت الخلافات حول وراثة

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 142.

العرش تشغلهم والذين كانت الحروب الأهلية تقسم صفوفهم. ثم إنه ما كان يأمل الحصول منهم على عون جدي لما بدأ يظهر بين كنيستي البلدين من تباعد ومن خلافات عقائدية. لهذه الأسباب اتجه نحو الأمير عبد الرحمن الثاني الذي كان يبدو آنذاك بين ملوك العالم، نافذ الهيبة، عظيم السطوة، وافر القوة. وقد اعتقد ان ما يفصل بين الأمويين في إسبانيا والعباسيين في الشرق من عداء قديم لا بد أن يشد إليه الأمير الأندلسي. وفعلاً حلت في ديار الأندلس في سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) سفارة بيزنطية بزعامة يوناني يجيد لغة العرب يدعى قرطيوس يحمل رسالة صداقة وهدايا ثمينة لأمير قرطبة. كان الأمبراطور يشتكي من معاملة المأمون ثم المعتصم لدولته ويطلب إليه التعاون والتفاهم في مواجهة دولة بني العباس العدو المشترك للرجلين ولبلديهما. بل إنه ذهب في رسالته وكما يقول المقري إلى حد استعداء أمير قرطبة على الخليفة العباسي إذ يرغبه في ملك سلفه بالمشرق[1]. وأيضاً اشتكى الأمبراطور البيزنطي من احتلال عناصر أندلسية بزعامة أبي حفص البلوطي جزيرة كريت ذات الموقع الهام في المتوسط وهي من أملاكه وأيضاً تعدياتها المستمرة على خطوط الملاحة البيزنطية.

رد عبد الرحمن الثاني على هذه السفارة بسفارة مثلها جعل على رأسها الشاعر الأديب والمحدث الأنيق يحيي الغزال ومعه هدايا ثمينة ورسالة ود وصداقة. وقد نشر المستشرق ليفي بروفنسال نص هذه الرسالة لأول مرة في سنة ١٩٣٧ بالعربية نقلاً عن مخطوط لابن حيان نقتطف منها فقرات «وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة[1]، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قبله، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله، وزوال سلطانهم، وما حضر من وقت رجوع دولتنا، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا، فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا، ونستنجز موعوده إيانا، ونمتري حسن بلائه لدينا، بما جمع لنا من طاعة من قبلنا،

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، ٤٧٦.

(٢) ماردة والدة الخليفة المعتصم وهي جارية.

من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا، وما لم نزل نسمع ونعترف إن النقمة تنزل بهم، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا، فيقطع الله دابرهم، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى»[1]. قام الشاعر الغزال بمهمته الملوكية على أفضل وجه وساهم في إقامة دعائم تفاهم وصداقة بين سيده وبين سيد بيزنطية. إنما من المؤكد ان علاقات التفاهم والصداقة هذه ما استندت إلى أي تحالف أو التزام سياسي أو عسكري. فالأمير الأموي يعرف حدود إمكانياته ويدرك مدى بعد الصلة بين أرضه وأراضي أعدائه العباسيين وبالتالي استحالة الدخول في صراع حربي معهم. أما بالنسبة لأندلسي كريت ولو ان أمير قرطبة ما كان على علاقة جيدة معهم ولا كانوا يعترفون بسلطانه إلا انه لا يستطيع أن يتحالف ضدهم ويقاتلهم في وقت كانوا يرفعون فيه لواء الإسلام في صراعهم مع البيزنطيين. ثم إن مضمون الرسالة التي حملها السفير الشاعر لا توحي بوجود أي ارتباط أو التزام جدي بين الدولتين.

وتذكر لنا الرواية الإسلامية إن الشاعر الغزال نفسه قد سار في سفارة أخرى إلى بلاد النورمانديين (إسكنديناقيا) بعد إغارتهم على أشبيلية في سنة ٨٤٤ م (٢٢٩ هـ) وهزيمتهم في معركة طلياطة. وردت تفاصيل وافية عن هذه البعثة في كتاب «المطرب من أشعار أهل المغرب» من تأليف ابن دحية البلنسي. تذكر الرواية ان السفير الأندلسي لقي كل ترحاب في بلاد النورمانديين وإنه قدم لملكتهم هدايا ثمينة ورسالة من سيده. ويبدو من الرواية إن إقامة البعثة طالت هناك وإن علاقة من نوع ما قامت بين الشاعر الصبوح الوجه، الطويل القامة، وبين الملكة الرائعة الجمال تود. وتقول الرواية إن الشاعر الغزال عاد ومعه رسالة صداقة وهدايا لسيده عن طريق البحر ثم عبر أراضي مملكة أستورياس الإسبانية.

هذه السفارة كانت ولمدة طويلة محل جدل ونقاش بين المؤرخين إذ ذكرها

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول، عنان، صفحة ٢٧٩.

لأول مرة مؤرخ متأخر، ابن دحية، عاش في القرن الثالث عشر. وأيضـاً لكون الرواية كتبت بأسلوب لا يبعد كثيراً عن أسلوب قصاصي ذلك العصر الشعبيين.
وأكثر ما يأخذ الدارسون والنقاد على رواية ابن دحية التشابه القوي بين أحداث السفارة إلى بيزنطية وهذه السفارة. ومع إن دراسة علمية معمقة لما ورد في الرواية من ذكر أسماء المدن والأماكن التي يفترض أن يكون الغزال قد مر فيها تعطيهـا بعض المصداقية، فإن عدم إشارة أي من المصادر الأندلسية القريبة من عصر عبد الرحمن الثاني إلى وجود هكذا سفارة أو إلى تكليف الشاعر الغزال بأكثر من بعثة واحدة في حياته خارج الأندلس، تجعلنا نميل إلى الشك في وجود السفارة أصلاً وبالتالـي إلـى قيام اتصـــال سلمـــي من أي نوع كان بين الأمير الأمـوي وملك النورمانديين.

السياسة البحرية

لقد تنبه حكام الأندلس المسلمون منذ أيام الفتوح الأولى لأهمية الأسطول البحري كجزء متمم لقواهم الحربية. فهم منذ لجـأوا إلى يوليان حاكم سبتة ليؤمن لهم السفن اللازمة لنقل جنود الحملة الأولى على شبه الجزيرة الإيبرية أدركوا إلى أي حد سيكون وجودهم في تلك البلاد ضعيفاً ومضطرباً إذا لم يعتمد على حماية قوات بحرية قادرة، من جهة على ضمان الاتصال الدائم مع إخوانهم المسلمين في شمال أفريقيا ومصر، ومن جهة ثانية على رد غارات أعدائهم عن شواطـىء تترامى على ثلاثة بحار. والواقع إن مهمتهم في السعي لإنشـاء بحـرية إسبـانية مسلمة ما كانت مستحيلة ولا حتى صعبة. فشبه الجـزيرة الإيبـرية بلـد عريق في صناعة البحر بحكم موقعه الطبيعي، وبمـا يتوفـر فيه من المـواد اللازمـة لذلك كالحديد والخشب، وبما يقوم على طول سواحله الشرقية خاصـة من ترسانـات ومرافىء كبيرة وصغيرة، وبما لدى أهله من تقاليد ومعرفة في صناعة السفن. إنما، وربما بسبب إنهماكهم أول الأمر بسياسة الفتوح والتوسع في إسبانيا وفي غالـة وبسبـب ما أغرقتهـم فيه الصراعـات القبلية والعصـبيات العنصـرية من ثورات وحروب أهلية ما وجد واحد من حكام الأندلس، حتـى منتصف القـرن التاسـع

الوقت أو القدرة على الاهتمام الجدي ببناء أسطول أندلسي كانت تتوافر له كل أسباب النجاح والازدهار. ولحماية شواطئهم اعتمدوا ولفترة طويلة على الحل الأسهل والأيسر. لقد أنزلوا في السواحل الشرقية المطلة على البحر المتوسط بعض الجماعات من الوافدين العرب من أبناء اليمن[1]. كان هؤلاء أصلاً عريقين في صناعة البحر ومغالبة الأمواج فكان عليهم أن يتدبروا بوسائلهم الخاصة تنظيم شراذم أو فصائل بحرية تهتم بحماية السواحل الأندلسية ولا تتردد أيضاً في الإغارة على أية شواطىء أخرى مجاورة ومعادية للمسلمين. وفي نفس المناطق كانت تنتشر جماعات بحرية من الأندلسيين المسلمين والمستعربين وأيضاً من بعض البربر. هذه الجماعات تولت إدارة القائم وما استحدثته هي من مرافىء صغيرة ومرابط ومصانع وترسانات لبناء السفن. والواقع ان هذه الجماعات وإن التزمت بواجب حماية شواطىء الأندلس الشرقية فإنها ما كانت شديدة الارتباط بالدولة وحكومتها ولا كانت دائمة الولاء لسياستها ومصالحها. بل إنها أكثر ما وجهت اهتماماتها إلى التنقل بين شواطىء الأندلس وسواحل أفريقيا الشمالية والجزر الكثيرة في البحر المتوسط الغربي ممارسة أعمال النقل البحري ومتعاطية التجارة وربما في بعض الحالات أعمال القرصنة. وأقامت هذه الجاليات الأندلسية، لنفسها أكثر من مركز على طول سواحل المغرب تحول بعضها مع الوقت إلى مدن مثل وهران[2] التي أقيمت في أواخر القرن الثالث الهجري على الساحل الجزائري وما تزال قائمة حتى يومنا هذا.

وإذا كانت هذه الجماعات أو الشراذم البحرية قد اعتادت أن تلبي طلبات حكام الأندلس بالدفاع عن سواحلهم الشرقية أو القيام ببعض الغارات على دول مجاورة لحساب الأندلسيين باسم «الجهاد» ومحاربة أعداء الإسلام فمن المؤكد انها كانت تبتعد بصورة متزايدة عن الخضوع لسلطان قرطبة لتعمل في أكثر

(١) تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادي، صفحة ١٣٤.
(٢) معجم البلدان، ياقوت، جزء ٥، صفحة ٣٨٥.

الحالات لحسابها الخاص. صحيح ان الأندلسيين قد استخدموا بعضها لتحقيق سياساتهم كما حصل حين أرسل عبد الرحمن الثاني حملة بحرية دعمت الأغالبة في أعمال فتحهم لجزيرة صقلية والتمكين لنفوذ المسلمين هناك في سنة ٨٢٩ م (٢١٤ هـ). وكذلك استعان هذا الأمير بهذه الجماعات لشن سلسلة من الغارات على شواطىء سبتمانيا للقضاء على ما كان الكارولانجيون قد أقاموه هناك من قواعد عسكرية. وامتدت هذه الغارات على مدى عشر سنوات من ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) إلى ٨٥٠ م (٢٣٦ هـ). وتشير المصادر التاريخية إلى ان الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) نفسه قد استعان بهذه الجماعات في حملات تأديبية ضد سكان جزر الباليار الذين عمدوا في أكثر من مناسبة للتعرض للتجارة البحرية للأندلسيين. ويقول ابن عذاري في هذا الصدد: «وفي سنة ٢٣٤[١] أمر الأمير بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة ميورقة[٢] لنكايتهم وإذلالهم ومجاهرتهم بنقضهم العهد وإضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين، فغزتهم ثلاثمائة مركب، فصنع الله للمسلمين جميلاً وأظفر بهم وفتحوا أكثر جزائرهم»[٣].

إنما في كل الأحوال ما كانت هذه الجماعات، في غاراتها الكثيرة، على شواطىء بلدان مسيحية مجاورة، مثل أراضي الدولة الكارولانجية والجزر التابعة للأمبراطورية البيزنطية، إلا ساعية وراء مصالحها الخاصة بالحصول على الأسلاب والغنائم، ونادراً ما كانت تهتم بما قد يكون لتصرفاتها من انعكاسات سيئة على علاقات الدولة الأندلسية بالدول الأخرى. وكتب الحوليات والمصادر التاريخية الأوروبية حافلة بالشكوى من تصرفات هذه الجماعات وغاراتها المتكررة على أراضي الآخرين وعلى خطوط الملاحة في البحر المتوسط.

وقد أدرك عبد الرحمن الثاني (الأوسط)، وهو أكثر من تعاون مع هذه

---

(١) ٨٤٨ ميلادية.

(٢) أكبر وأهم جزر البالियار.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، حرء ٢، صفحة ١٣٢.

الجماعات من أمراء الأندلس وأكثر من أوكل إليها مهمات عسكرية رسمية، انها أولاً وأخيراً هي أقرب لفئات القراصنة ولا يصح الركون إلى ولائها ولا يمكن الاعتماد على انضباطيتها ونظامها لكونها دوماً تسعى وراء مصالحها الشخصية ومنافعها. وأمير قرطبة كان يدرك انه في صراعه، كما في تعامله مع البيزنطيين ومع الكارولانجيين، يحتاج لأسطول حربي قوي. وكان يزيد في الحاجة إلى هذا الأسطول انتشار النفوذ الإسلامي في جزر البحر المتوسط مثل صقلية التي استولى عليها الأغالبة وكريت التي خضعت جزئياً لنفوذ الأندلسيين وجزر الباليار التي باتت منذ منتصف القرن التاسع ضمن مناطق نفوذ قرطبة وإن لم تصبح في عداد ممتلكات أميرها إلا بعد نصف قرن من ذلك.

وإذا كان هذا النظام الدفاعي البحري، غير فعال وغير كاف لحماية شواطىء شرقي الأندلس وللدفاع عن مصالح دولة الإسلام في البحر المتوسط فإن الفراغ الأدهى والأخطر يبقى قائماً على طول امتداد سواحل إسبانيا الجنوبية الغربية والغربية على المحيط الأطلسي حيث لا تتواجد أية قوة بحرية مسلمة قادرة على القيام بأعمال الدفاع أو المراقبة. وأكثر ما تكشف خطأ الاعتماد على مثل هذا النظام في الدفاع البحري حين تعرضت شواطىء إسبانيا على الأطلسي في القرن التاسع للميلاد لغزوات النورمان الشماليين أو المجوس كما تسميهم المصادر الإسلامية .

يرجع الشماليون[1] إلى الأصول التي ينتمي إليها الجرمان. وهم استقروا منذ عصور مغرقة في القدم في شبه جزيرة اسكنديناوة. ويعرفون أيضاً باسم النورمان كما يسمون أحياناً الفايكنغ. ويطلق المؤرخون المسلمون عليهم اسم

(١) ويقسم هؤلاء أساسا إلى ثلاثة فروع: السويديون والنروجيون والدانيون أو الدانمركيون. وهؤلاء الأخيرين كانوا الأنشط والأقوى والأشرس في تعاملهم مع العالم الخارجي وفي سعيهم للتوسع وهم الذين انفردوا بالانتشار على طول سواحل فرنسا وشبه الجزيرة الإيبيرية ابتداء من أوائل القرن التاسع.

الأردمانيين وأحياناً المجوس لأنهم خلطوا بينهم وبين عبدة النار إذ كانوا يكثرون من إشعال النيران في معسكراتهم ليلاً.

والنورمان لهم خبرة عريقة في التعامل مع البحر، خبروا صناعته وتمرسوا فيها وبرعوا في مغالبة العواصف والأنواء وفي التعرف إلى الطرق البحرية والتيارات المائية. بدأوا في أواخر القرن الثامن يتحركون ويتجهون للخروج من بلادهم، ربما لأنها بدأت تضيق بهم بسبب تكاثرهم العددي ولضيق الأرض الزراعية فيها. وفعلاً بدأت فئات كثيرة منهم تخرج، على متن سفنهم ذات الأشكال الطويلة، الكثيرة المجاذيف، القليلة العمق والقادرة على الأسفار الطويلة للإغارة على شواطىء البحار الشمالية ونهب خيراتها. وفي القرن التاسع صارت هذه الغارات تشمل شواطىء بلدان غرب أوروبا. فكانوا يقومون بغاراتهم مع إطلالة كل ربيع يجوبون البحار ويهاجمون الشواطىء ويحرقون المدن والقرى ويسرقون كل ما تصل إليه أيديهم ليعودوا إلى مواطنهم الأصلية قبل حلول فصل الأمطار والثلوج. وبهذه الطريقة تعرفوا إلى أكثر شواطىء أوروبا الأطلسية ووصلوا أيضاً في أكثر من مناسبة إلى المتوسط. وطيلة الثلث الأول من القرن التاسع للميلاد كانت غارات هؤلاء تتواصل على شواطىء بلاد الفرنج وعبر مجاري أنهارها ناشرة فيها الخراب والدمار. وأيضاً في هذه الفترة أقام هؤلاء لأنفسهم في هذه المناطق أكثر من قاعدة عند مصبات الأنهر الكبيرة، تقيم فيها بعض جموعهم بصورة دائمة إذ ما عادوا يرجعون كلهم إلى بلادهم بعد كل غارة. وقد نمت بصورة خاصة تجمعات لهم أقاموها عند مصب نهر السين حيث أخذت هذه الأراضي بعد ذلك اسمهم وصارت تعرف باسم نورمانديا. ومع الوقت اتخذوا من هذه المناطق منطلقات أساسية لتحركاتهم على شواطىء بلدان غرب أوروبا وما عادوا يعتمدون كثيراً على مواطنهم الأصلية في الإعداد والتحضير لغاراتهم المدمرة.

وكان من الطبيعي أن يثير جشعهم وطمعهم، وهم كانوا دوماً أقرب إلى القراصنة منهم إلى المهاجرين أو المقاتلين، ما كان يصلهم من أخبار عن بلاد

الأندلس المجاورة وتقدمها ووفرة الثروات والخيرات فيها. وعلى هذا رأيناهم في صيف سنة ٨٤٣ م يهاجمون الشواطىء الواقعة عند مصب نهر اللوار في فرنسا وأيضاً تلك الواقعة عند مصب نهر الغارون ووصلت سفنهم حتى مدينة بوردو الفرنسية. ثم تابعوا تقدمهم على شواطىء إسبانيا المطلة على المحيط الأطلسي فنزلوا على الساحل بالقرب من مدينة خيخون ومنها تابعوا المسير على شواطىء جليقية غير ان ملك أستورياس تصدى لهم بقوة وهزمهم وأبعدهم عن شواطئه[١].

عند ذلك اتجهوا جنوباً وساروا على محاذاة شواطىء إسبانيا الإسلامية المطلة على الأطلسي وظهرت سفنهم أمام شواطىء المسلمين عند مدينة ليشبونة في العشرين من شهر آب سنة ٨٤٤ م (١ ذي الحجة ٢٢٩ هـ). وانتشرت سفن النورمان وكان عددها أربعة وخمسون مركباً كبيراً ومثلها من القوارب الصغيرة[٢] السريعة الحركة عند مصب نهر التاج. ما كان للمسلمين قبل ذلك عهد أو معرفة بهذا الشعب ولا كانوا شاهدوا سفنه ذات الطراز الخاص كما ذكرنا سابقاً. أدرك عامل ليشبونة خطورة ما تتعرض له المدينة فكتب إلى أمير قرطبة يخبره بالأمر. عمم الأمير عبد الرحمن الثاني هذه الرسالة على ولاته وعماله في المدن والمناطق الساحلية ليأخذوا أسباب الحذر والحيطة[٣]. بقي هؤلاء أمام مدينة ليشبونة ثلاثة عشر يوماً اصطدموا مع حاميتها أكثر من مرة ثم ساروا نحو مرفأ قادش ومنه اتجهوا للعبور في مجرى نهر الوادي الكبير على عادتهم القديمة في السير في مجاري الأنهار الكبيرة. وفي طريقهم نحو مدينة أشبيلية الكبيرة احتلوا قبطيل، وهي جزيرة صغيرة في النهر وأقاموا فيها حوالي ثلاثة أيام ساروا بعدها إلى قرية صغيرة تدعى قورة وتقع على بعد اثني عشر ميلاً من أشبيلية[٤] نزلوا فيها بعد معركة مع حاميتها

---

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 146.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣٠.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣٠.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣٠.

قتل فيها عدد كبير من المسلمين. وفي اليوم التالي حلوا في قرية طلياطة التي ما كانت تبعد عن أشبيلية سوى ميلين، مما أشاع الهلع والذعر بين سكانها الذين «فروا منها إلى قرمونة وإلى جبال أشبيلية. . . ولم يقدروا على مقارعة القوم لشدة شوكتهم»[1]. والواقع إن هؤلاء السكان ما هربوا جبناً وتمنعاً عن المواجهة وإنما لكون المدينة كانت تفتقر لأسباب الدفاع القوية وبصورة خاصة لسور قوي يرد عنها المغيرين. ومع هذا فإن من آثروا البقاء فيها على قلتهم تصدوا للنورمان حين هاجموا المدينة «فانهزم المسلمون وقتل منهم ما لا يحصى»[2]. دخل المهاجمون المدينة وأعملوا في من كان فيها من أهلها قتلاً وسبياً وأشاعوا فيها الدمار والخراب. محنة أشبيلية هذه امتدت على طول سبعة أيام انسحب بعدها النورمان إلى جزيرة قبطيل حيث أودعوا ما نهبوه من أموال وغنائم ومتاع.

في هذا الوقت كان الأمير عبد الرحمن الثاني قد استنجد بعماله وولاته وأمراء المقاطعات البعيدة. كانت استجابة الناس لاستغاثة الأمير قوية وسريعة فأتته النجدات من كل مكان، وما تردد بعض من كانوا على جفاء معه مثل موسى بن قسي أمير الثغر الأعلى في إظهار الشعور بالمسؤولية والقدوم على أميرهم. وهذا سمح للأمير بأن يرسل جيشاً كبيراً عليه أعظم قادة ذلك العصر، عبد الله بن كليب، عبد الواحد الإسكندراني، ومحمد بن رستم.

تمركز هذا الجيش في تل مشرف على أشبيلية يدعى «الشرف». وما لبث أن وصل جيش آخر بقيادة الفتى نصر. ولما أيقن النورمانديون ان المسلمين عازمون على قتالهم تراجعوا إلى قرية طلياطة الحصينة وتمركزا فيها. وفي ١١ تشرين ثاني سنة ٨٤٤ م (٢٥ صفر ٢٣٠ هـ) كانت الوقعة الكبيرة بين الفريقين قادها ابن رستم في وقت حوصر فيه النورمانديون من جانبي النهر. وقطع أسطول يتألف من خمس

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣١.

عشرة سفينه مشحونة [1] بالمقاتلة والعدة أرسلها الأمير عن طريق الشاطىء لمنعهم من الهرب. هزم النورمان في هذه الواقعة التي «قتل فيها منهم خلق كثير، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً»[2]، كما تركوا بين أيدي المسلمين عدداً كبيراً من الأسرى قتل بعضهم وصلبوا على جذوع النخل أمام أعين بعض من نجوا وتمكنوا من الهرب في مراكب قليلة.

طالت غزوة النورمان هذه منذ النزول في أشبيلية حتى الهزيمة الأخيرة والهرب ثلاثة وأربعين يوماً عرف خلالها سكان أشبيلية والمدن الواقعة على مجرى نهر الوادي الكبير مختلف ألوان المحن والرزايا.

هذه المحنة كانت نقطة تحول في سياسة إمارة بني أمية البحرية. إذ عمد الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى إعادة تنظيم القوى البحرية بحيث يكون هناك أسطول حربي يكون ولاؤه للدولة وللدولة فقط ويكون حاضراً وقادراً على تلبية حاجاتها الدفاعية في كل وقت وعلى كل ساحل وشاطىء. وفي غمرة اهتمامه بالأسطول ما أهمل أمر الدفاع عن أشبيلية فأمر رجلاً من الموالي الشاميين يدعى عبد الله بن سنان ببناء سور للمدينة من الحجارة وأيضاً بتحصينها من ناحية النهر.

وقرر عبد الرحمن الثاني بناء سلسلة من الترسانات ودور صناعة السفن بمبادرة من الدولة ولحسابها فاستدعى البحارة والفنيين من كل الأنحاء وبأجور كبيرة وثابتة للعمل لحساب الدولة في أسطولها. وقد أمر خاصة «بإقامة دار صناعة بأشبيلية وإنشاء المراكب»[4] وأقام أيضاً المحارس والرباطات والقواعد الحسنة التحصين لرسو سفن الأسطول الأندلسي الجديد على طول سواحل إسبانيا الإسلامية، وخاصة تلك المطلة على سواحل الأطلسي كما زود هذه القواعد

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٥٧.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣١.
(٣) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٨٧.
(٤) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٨٨.

بنقاط المراقبة الدائمة وبالراجمات وقوارير النفط.

والواقع إن سياسة الأمير عبد الرحمن الثاني هذه قد أعطت ثمارها حتى في المدى القريب مما سمح له بأن يرسل ثلاثمائة مركب بعد ذلك بثلاث سنوات فقط لتأديب أهالي جزيرة ميورقة كما ذكرنا سابقاً. وكذلك نرى هذا الأسطول في نمو متزايد مما جعله في أيام ولده الأمير محمد ينجح في طرد الغزاة النورمان حين حاولوا مهاجمة سواحل الأندلس مجدداً. وظل هذا الأسطول، نظراً لما أظهره من فائدة وجدية موضع عناية واهتمام أمراء الأندلس حتى بات للأندلسيين أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر واحد من أحسن أساطيل عالم القرن العاشر للميلاد.

ثورة المستعربين

في أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط» هبت على بلاد الأندلس رياح فتنة، دينية، اجتماعية، عنصرية، كانت على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية. وأهمية هذه الفتنة إنها كشفت ان الأمويين، بسبب سياستهم، أو لأسباب خارجة عن إرادتهم ما كانوا بعد قد نجحوا بما فيه الكفاية، في جعل ذلك الخليط الشديد التنوع من العناصر البشرية التي تواجدت في إسبانيا عقب فتح المسلمين لها يندمج في وحدة وطنية تساعد على تكوين ما يمكن تسميته بالأمة الأندلسية. جاءت حركة الثورة هذه من جهة فئات المستعربين.Les Mozarabes

المستعربون:

يطلق هذا الاسم على تلك الأعداد الكبيرة من الإسبان، الذين مع تمسكهم بديانتهم الكاثوليكية، ظلوا في أراضيهم ومدنهم بعد الفتح الإسلامي وخضعوا لحكم المسلمين وعاشوا معهم، وبالتالي أخذوا مع الوقت باللغة العربية، وتعلموا أساليب حياة الفاتحين الجدد. في بداية عصر الإسلام في الأندلس، كان المسلمون يطلقون على الإسبان النصارى، الذين تحت حكمهم اسم ا«العجم» وهو اسم اعتادت الجماعات الإسلامية في الشرق إطلاقه على من لا يتكلم العربية وبصورة خاصة على الفرس، وكانوا يسمونهم أحياناً عجم الذمة.

وفي حالات قليلة كانوا يسمونهم الروم ـ ومفرد الكلمة رومي ـ. وللإشارة، بصورة خاصة إلى تلك الفئات من الإسبان الذين فتحت أراضيهم صلحاً، وبموجب عهود ومواثيق كانوا يستعملون لفظة المعاهدين، أو المعاهدة من النصارى.

أما كلمة المستعربين فقد ظهرت عند الإسبان فقط ومنذ القرن الحادي عشر. ذلك إننا لا نجدها في أي من المصادر أو السجلات العربية القديمة وإنما نعثر عليها فقط في بعض العقود والاتفاقيات التي وصلتنا من نصارى الأندلس والتي تعود إلى القرن الحادي عشر وما بعده. والظاهر أنهم كانوا يستعملون هذه الكلمة للتمييز بين نصارى الأندلس والإسبان النصارى الذين كانوا يعيشون في المناطق غير الخاضعة لسيادة دولة الإسلام في الأندلس. والواقع إن كل المصادر النصرانية القديمة تفرق بين المستعربين وبين باقي النصارى الذي لم يخضعوا لحكم المسلمين، وبالتالي حافظوا على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وحضارتهم القوطية. ويظهر هذا التمييز بصورة متزايدة الوضوح كلما تقدمت حركة الاسترداد وزاد بالتالي عدد المستعربين الذين عادوا للخضوع للحكم الإسباني المسيحي بعد انتزاع أراضيهم من أيدي المسلمين.

كان المسيحيون الإسبان في بداية عصر الأندلس يشكلون بالنسبة للفاتحين الجدد أغلبية ساحقة بين سكان البلاد. وبالرغم من ان عدد هؤلاء كان في تناقص مستمر بسبب تقدم حركة اعتناق الإسلام، فقد بقيت في البلاد أعداد كبيرة منهم حافظت على دينها رغم استعرابها وأخذها بحضارة العرب وثقافتهم. ولعل مما شجع هؤلاء على البقاء تحت حكم المسلمين ما ظلوا يتمتعون به من حرية في ممارسة معتقداتهم وطقوسهم الدينية إذ تركت لهم كنائسهم وأديرتهم ومجامعهم الدينية وقضاؤهم الأكليريكي. فالمسلمون طلبوا من المستعربين فقط الإخلاص والولاء للدولة الأندلسية. ولعل هذا العهد الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لصاحب تدمير يوضح بصورة كافية سياسة المسلمين عند نزولهم في الأندلس تجاه الإسبان.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش إنه نزل على الصلح وإن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يقدم ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع من ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه».

لقد تركت لنصارى الأندلس حرية تامة في ممارسة ديانتهم فبقيت كنائسهم قائمة في كل مكان وبصورة خاصة في المدن الكبيرة كطليطلة وقرطبة وأشبيلية حيث ظل عددهم كبيراً ولمدة طويلة جداً. كما أبقيت لهم نظمهم الكهنوتية وقوانينهم الصادرة عن كنيستهم الإسبانية القديمة. وظل رجال الدين المسيحيون يمارسون وظائفهم في كل ما يتعلق بالزواج والميراث وتعميد المواليد وتسجيل العقود بين أتباعهم، وكذلك ظلوا يمارسون حقهم في اختيار رؤسائهم دون تدخل من جانب الدولة. وفي هذا المجال حدث تغيير واحد هام اقتضاه تغيير العاصمة. ذلك إن طليطلة ظلت عاصمة النصرانية في الأندلس وبقي فيها كرسي المطرانية غير ان الأمراء المسلمين الذي ورثوا سلطان دولة القوط فرضوا على المطران الإقامة بصورة دائمة في العاصمة قرطبة دون أن يؤثر ذلك على مركز طليطلة الديني. كما انهم أخذوا بصفتهم ورثة دولة القوط الحق بالموافقة على انتخاب المطران وكذلك حق الموافقة على دعوة المجامع الدينية. هذا التغيير جعل للمسيحية الأندلسية وضعاً خاصاً يميزها عن باقي نصارى غرب أوروبا وبالتالي جعل الاتصال بينها وبين البابوية بصورة خاصة والكنيسة الغربية عامة يضعف بصورة متزايدة حتى أتى زمن انقطعت فيه بصورة عملية العلاقة بين الكرسي الأسقفي في طليطلة وبين روما.

ولعل هذا الاستقلال الفعلي الذي مارسته الكنيسة الكاثوليكية في الأندلس هو الذي أدى إلى امتداد حركة الاستعراب إلى بعض نظمها مما أدى إلى نشؤ

طقوس دينية خاصة تدعى الطقوس المستعربية. Rite Mozarabe يقيمها رجال الدين بلغة نصارى الأندلس وهي مزيج من الإيبرية القديمة واللاتينية الدارجة والعربية، وأيضاً بنفحة من التقاليد الكنسية المشرقية.

وفيما يتعلق بحياتهم وأساليب معيشتهم فقد احتفظ المستعربون بقوانينهم القديمة المساة فويرو Fuero يخضعون لها في كل ما يتعلق بأمورهم البلدية والمحلية، ذلك إن المسلمين أبقوا لهم نوعاً من الهيئات المحلية الخاصة لإدارة شؤونهم. فكانوا في أكثر الحالات يعيشون في أحياء خاصة بهم يحكمهم ويدبر شؤونهم حاكم منهم يدعى قومس Comes وهو منصب متوارث من أيام الرومان والقوط أبقى المسلمون عليه مع تعديل بعض سلطاته. في أيام القوط كان الملك يعين القومس من المقربين له، إلا ان المسلمين جعلوا حق اختياره لأبناء البلاد، فلكل جماعة من المستعربين الحق في انتخاب قومسها ولحكومة قرطبة الحق في تعيين قومس الأندلس، أو حاكم جميع نصارى الأندلس، وهو المسؤول تجاه الدولة عن كل ما يتعلق بأمور أتباعه ومصالحهم.

وكان لهؤلاء محاكمهم الخاصة يتحاكمون أمامها بموجب قوانينهم وتقاليدهم القديمة ولا يمثلون أمام محاكم المسلمين إلا إذا حدث خلاف بين مسلم ومسيحي. وفي مثل هذه الحالات فإن قاضي الجند والذي صار اسمه فيما بعد «قاضي الجماعة» كان المرجع الصالح لحل مثل هذه الخلافات. وهذا كان يفرض على القاضي المسلم الإلمام التام، إلى جانب التشريع الإسلامي، بالنظم والقوانين القوطية القديمة. وهذا أدى في المدى الطويل إلى تأثر النظم القضائية عند مسلمي الأندلس بالتقاليد القضائية الرومانية.

وقبل انتهاء القرن الثامن للميلاد كان نصارى الأندلس «المستعربون» قد باتوا يشكلون عنصراً متميزاً عن باقي الإسبان يأخذ بالعربية ـ لغة الفاتحين ـ ويجيدها كأبنائها. وقد أغرق كثيرون من هؤلاء في استعرابهم حتى صاروا يحملون اسمين: عربي يعرف به ولاتيني يستعمله في الكنيسة وفي الحالات

لرسمية. ومنهم من كان يختن أولاده على طريقة المسلمين أو يتخذ الحريم في داره. وليس أدل على مدى قوة حركة الاستعراب ورسوخها من كون بعض المدن الكبرى ظلت ولفترة طويلة تستعمل اللغة العربية بعد أن عادت إلى الحكم الإسباني. ففي طليطلة مثلاً التي استردها ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥م بقيت العربية لغة التجارة والقضاء والقانون والأدب لمدة تزيد عن القرنين بعد ذلك.

وعلى كل فلا بد من الإشارة إلى ان هذا التحول الكبير في عقلية نصارى الأندلس وأسلوب تفكيرهم لم يعزلهم، عاطفياً وقومياً على الأقل، عن إخوانهم الذين ظلوا في الشمال رمزاً للمقاومة الإسبانية المسيحية للفاتحين الجدد وبالتالي فقد احتفظوا بشيء من الشعور القومي ظل يباعد بين كثرتهم وبين المسلمين. وربما نما هذا الشعور وبرز بصورة أكثر وضوحاً أثر تغير موقف الدولة في بعض الحالات من المستعربين الذي حصل بتأثير انتشار المذهب المالكي في الأندلس وتزايد نفوذ الفقهاء في البلاد من ناحية، ونمو قوى المقاومة الإسبانية في الشمال من ناحية أخرى. وكثيراً ما برزت تلك العاطفة القومية عند المستعربين في تأييد الثورات التي كانت تقوم بها من آن لآخر عناصر من المولدين ضد السلطات الأموية في قرطبة.

المستعربون في قرطبة:

والواقع إن حركة الاستعراب هذه، كانت تحمل في طياتها، مع نجاحها وسرعة نموها، بذور تفجر رهيب. فالسرعة التي كان يتحول بها الإسبان عن لغتهم وقوميتهم ما كان يمكن إلا أن تخلق في بعض الأوساط المحافظة والمتعصبة لدينها وقوميتها ردود فعل سلبية، إذ إن ذلك كان يثير شعوراً داخلياً بالخوف والقلق من أن يتحول الإسبان النصارى في مستقبل قريب إلى أقلية صغيرة تعيش على هامش الأحداث في أرضها ووطنها. ومما كان يزيد في الخوف والحذر كون الاستعراب ما كان في حالات كثيرة إلا الخطوة الأخيرة في طريق التحول نحو الدين الإسلامي وهذا بالذات ما كان يقلق الأوساط المتدينة ورجال الكنيسة. هذه التحفظات من

قبل رجال الدين الإسبان ومن قبل العناصر الموالية للقومية الإسبانية كانت تقوى وتزداد كلما كثر المستعربون وأيضاً كلما تزايد عدد أولائك الذين يجعلون الاستعراب ممراً إلى الإسلام. والواقع إن هذه المشكلة كان لا بد أن تنفجر في وقت أو آخر بدافع المحافظة على البقاء في وجه دين ولغة وحضارة يسرعون في القضاء على كل ما كان قبلهم في شبه الجزيرة الإيبرية ولو بأساليب الترغيب والإقناع فقط.

هذا الانفجار وقع فعلاً في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط، مع ما رافق عهده من هدؤ واستقرار، وما صار يحيط بالحكم الإسلامي من فخامة وأبهة ومراسم ملوكانية، ومع ما كان يتحقق لدولة الإسلام في الأندلس من علاقات خارجية ومراكز قوى عبر البحار، وأيضاً مع ما وصل إليه المجتمع الإسلامي من تقدم وارزدهار وغنى. وبسبب كل ذلك، وصل المحافظون إلى نقطة اللاقبول والرفض المطلق مخافة أن تأتي هذه المظاهر الباهرة على ما تبقى للقومية الإسبانية وللمسيحية من وجود ونفوذ في الأندلس.

كانت قرطبة العاصمة من دون سائر حواضر الأندلس الكبرى مركز هذا الانفجار ومصدره ومن أبنائها كان وقوده. وهنا لا بد من التساؤل لماذا قرطبة وحدها رفعت لواء الثورة والتمرد؟ وهل كانت أوضاع نصارى العاصمة أسوأ من أوضاع باقي نصارى الأندلس؟ أو هل كانت أوضاعهم سيئة بالمطلق؟

الواقع إننا لو عدنا إلى المصادر التاريخية الإسلامية وأيضاً إلى ما بين أيدينا من مراجع مسيحية لوجدنا ان أوضاع المستعربين في قرطبة ما كانت سيئة إطلاقاً. كان نصارى العاصمة يتمتعون بمركز يفضل كثيراً ما حصل عليه أمثالهم في المدن الأخرى أو المقاطعات. كثيرون منهم التحقوا بالوظائف العامة ووصلوا إلى مراتب عليا في الإدارة. وفي الجيش ما كان عددهم قليلاً حتى بين أولائك الذين بلغوا المراتب العليا[1]. يكفي أن نذكر إن واحداً منهم يدعى ابن مروان بلغ مرتبة رئيس

---

(١) Las Cagigas, los Mozarabes, p. 188, T.I.

الحرس الأميري أيام عبد الرحمن الثاني[1]. ومنهم تجار كبار جمعوا ثروات كبيرة من التجارتين الداخلية والخارجية يعيشون في محيط الأمير وبتوافق تام مع البورجوازية الأندلسية[2]. ومع كل محافظتهم على لغتهم الأصلية فإن أكثرهم أتقن اللغة العربية وصار جزءً من المجتمع المثقف في العاصمة الأندلسية[3].

إنما بالرغم من كل ذلك تبقى هناك ناحية أساسية تقيد حركة هؤلاء. فالدولة بما عمل من أجله كل أمراء بني أمية كانت ذات نظام مركزي قوي. بمعنى ان السلطات بكامل مظاهرها كانت بين يدي الأمير وحده. بل أكثر من ذلك كانت كل مراكز الفعاليات الاقتصادية والسياسية والعسكرية وحتى الثقافية متجمعة في العاصمة حول الأمير وفي محيطه. من هنا كانت قبضة الدولة قوية شديدة على كل من وما في قرطبة. وأيضاً كان الإحساس بثقل السلطة وباستعدادها لسحق أية معارضة ولو كلامية، شديداً يشعر به الجميع. بل كان المستعربون في العاصمة يعرفون ان أية محاولة لرفض أو مقاومة سلطة الدولة والأمير مستحيلة، وقد رأوا ما حل بالفقهاء على ما كان لهم من تقدير وقداسة في المجتمع الأندلسي، حين ثاروا بوجه الحكم. بالمقابل كان المستعربون خارج قرطبة في الأقاليم كما في المدن يشعرون بوطأة الحكم والسلطة بنسبة أقل. ذلك إن قبضة الحاكم كانت تتراخى كلما بعدت المسافة عن العاصمة. ثم إن تواجد مراكز قوى كثيرة، بعيداً، في الأقاليم ترك مجالاً واسعاً أمام المستعربين للاستفادة من التناقض الدائم بين مصالح هذه وسياسة السلطة المركزية. من هنا كانوا، في سائر مناطق الأندلس يعبرون، كلما أرادوا، عن رفضهم للدولة الأموية أو سخطهم على بعض ممارساتها بالالتحاق بمغامر أو عاص، من العرب، أو البربر، أو المولدين وما كانوا قلة منذ قامت الإمارة الأموية، وبذلك يحصلون بشكل أو آخر على بعض ما

---

(١) Las Cagigas, los Mozarables, p. 188, T.I.

(٢) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 153.

(٣) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 153.

يريدونه أو القليل من المكاسب مما يحسن وضعهم. وفي كل الحالات مشاركتهم في هذه الثورات كانت تعطيهم دوراً فاعلاً في المجتمع الأندلسي يرفع من مكانتهم ويعزز معنوياتهم ولو من الناحية النفسية. يضاف إلى ذلك إن حكام المقاطعات والحواضر البعيدة عن قرطبة وهيمنة سادتها، كانوا في أكثر الحالات من غير العرب وبالتالي كانوا أكثر ميلاً للتكيف مع أماني السكان ـ وكانوا في أكثريتهم من المولدين والمستعربين واليهود ـ وبالتالي لجعل المجتمع أقل خضوعاً لهيمنة الحضارة العربية والثقافة العربية وأكثر تقبلاً واحتراماً للتراث الإسباني القديم. هذا كله كان يجعل الناس في المناطق، من غير العرب أقل شعوراً بوطأة السلطة المركزية وبالهيمنة العربية وحتى بتسلط فئة الفقهاء المسلمين. بالمقابل كانت عوامل الكبت تتجمع في صدور المعارضين للسلطة، في قرطبة وتزيد في أحقادهم وضغائنهم لعجزهم الدائم عن مجابهتها. وحين وصلت معارضة هؤلاء إلى درجة الانفجار ما كان أمامها إلا الأسلوب السلبي في التعبير عن الثورة والتمرد والذي اتخذ شكل الأستشهاد. وفكرة الأستشهاد عبر عنها هذا الفريق بالتحول عن معارضة الثقافة العربية وحضارة العرب إلى مهاجمة الإسلام ونبي المسلمين وسبهما علناً في الساحات العامة وفي الشوارع. وما كان فقهاء المسلمين ولا عامتهم ليقبلوا، أو ليسكتوا عن مثل هذه التصرفات التي كانت عقوبتها في أكثر الحالات الموت. والواقع إن كثيرين من الشبان والشابات من علمانيين ورهبان وممن امتلؤوا حماسة للمسيحية وإيماناً بالقومية الإسبانية اندفعوا بحماس صوفي لا حدود له في هذا الطريق المؤدي للموت المؤكد.

وقبل الدخول في تفاصيل حركة الاستشهاد هذه لا بد من الإشارة إلى ان عقبة أساسية تحول دون رسم صورة تامة الصدق لأحداث هذه الفترة في قرطبة. ذلك إن المصادر الإسلامية تغفل تماماً هذا الموضوع. بل من المؤكد انه ليست هناك أية إشارة فيها لا من قريب ولا من بعيد لحركة المستعربين هذه. وحتى في المصادر المسيحية لا نجد تفاصيل ذلك إلا في كتابات رجلين هما أولوخيو وآلفارو كانا في أساس الحركة باعتبارهما رائديها وباعثيها ومن ضحاياها أيضاً.

وانطلاقاً من هذا الواقع الصعب سنحاول قدر الإمكان أن نرسم صورة تقترب أكثر ما يمكن لما وقع فعلاً في العاصمة الأندلسية في سنوات حكم الأمير عبد الرحمن الثاني الأخيرة وأوائل سنوات خكم ابنه الأمير محمد.

حركة الاستشهاد:

تزعم هذه الحركة في العاصمة راهب إسباني يدعى أولوخيو من عائلة نصرانية عريقة في نسبها، مقدمة في مكانتها، بارزة في ثروتها، هاله ما كان يرى من تحول سريع للإسبان عن دينهم وقوميتهم فحاول خلق حركة تجديد في اللغة اللاتينية لتقريبها من أذواق الشباب وأفهامهم ولكن دون جدوى، فمال نحو الدعوة للتمرد على حكم المسلمين وجنح نحو إثارة الأحقاد ضدهم والسعي للتخلص من وجودهم. وكانت دعوته في أساسها دينية وطنية تهدف إلى إحياء الحس القومي عند المستعربين كطريق لمحافظتهم على النصرانية. والواقع ان الشعورين الوطني والديني كانا يتجاوران في أعماقه بحيث يصعب تحديد ما إذا كانت دعوته دينية أكثر أو وطنية أكثر. وذلك ناتج عن كونه ما كان يرى حدوداً بين المسيحية والوطنية الإسبانية. فهو يرى ان الإسباني لكي يكون وطنياً لا بد أن يكون مسيحياً حقاً، وليكون مسيحياً بما فيها الكفاية لا بد أن يكون إسبانياً وطنياً بما فيه الكفاية. فأولوخيو وهو رجل دين كان اللاهوت عنده يرتبط بحب عميق لوطنه إسبانيا[1]. وأثناء دراسته تعرف إلى راهب آخر يدعى ألفارو من عائلة قرطبية بورجوازية عظيمة الثراء، ذات أصول عبرانية، كانت تجول في ذهنه الخواطر نفسها وتسيطر على أفكاره الرغبة في إحياء الروح الإسبانية الأصلية بوجهيها الديني والثقافي[2]. ومنذ ذلك اليوم ترافقا في طريق طويلة تهدف إلى قيادة المستعربين في قرطبة في الدروب التي أحباها وآمنا بها أياً كانت الوسيلة ومهما كانت النتائج حتى ولو لم يكن رؤساؤهم الزمنيون والدينيون بصورة خاصة يقرونهما عليها. وقد رأيناهم

---

(١) los Mozarabes, las Cagigas T I, p. 199.

(٢) los Mozarabes, las Cagigas, T I, p. 200.

بالفعل وفي مناسبات كثيرة يرفضون ويتبرأون من اتجاهات وممارسات الراهبين المتطرفة[1].

وكانت بداية تحول دعوة الراهبين أولوخيو وآلفارو إلى مأساة عندما عمد راهب متدين يدعى برفكتوPerfecto إلى سب الإسلام وشتم الرسول علناً وأمام جمع من المسلمين مما أثار هؤلاء ومن ورائهم عوام العاصمة. تدخلت السلطة وأحالت الشاتم إلى القضاء الذي حكم بإعدامه. وقد أعدم فعلاً في سنة ٨٥٠ م (٢٣٥ هـ) بعد صلاة الظهر من يوم جمعة أمام القصر الأميري مما كان نقطة البداية لحركة إعلامية واسعة النطاق شملت مدن الأندلس وقراه ضد حكم المسلمين بل وضد وجودهم في إسبانيا. وكثيرون من النصارى المتدينين هزتهم الصدمة وأثارت في أعماقهم الحقد والكراهية ضد حكام البلاد المسلمين وأقبل بعض من غلاتهم على النزول في العاصمة قرطبة يطلبون الاستشهاد عن طريق شتم مقدسات المسلمين. والواقع إن الدولة الأندلسية قد أحرجت كثيراً من هذا الحادث وأدركت أبعاده الحقيقية الخطيرة من حيث إنها ما كانت راغبة في الاسترسال في تنفيذ أحكام الإعدام ولا كانت قادرة على التغاضي عن أعمال يعاقب عليها القضاء الشرعي بالموت. وقد عمد الحزب الإسباني المحافظ بزعامة الراهبين ألفارو وأولوخيو، لاستغلال إعدام الراهب برفكتو، إلى أقصى حد ممكن لتمكين سيطرته على مستعربي قرطبة الذين كانوا في أكثريتهم ميالين نحو المهادنة فحول جنازته إلى مهرجان معاد للدولة وأضفى عليه كل ما تستحقه فكرة الاستشهاد من تعظيم وتمجيد.

وعندما تكررت هذه الحادثة صار القضاة المسلمون يعالجونها باللين والحسنى فيسعون لإقناع المتهمين بالتراجع عن أقوالهم أو بتحريفها بحيث لا تظهر الرغبة في تحدي القوانين والأنظمة ولكن نادراً ما نجحت هذه الأساليب لأن الحركة كانت قد فشت ورسخت جذورها في ضمائر الكثيرين من غلاة مؤمني

---

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana T IV, p. 151.

النصارى وأتقيائهم. وكان أوقع الإعدامات أثراً في نفوس الأتقياء استشهاد فتاة قرطبية بارعة الجمال تدعى فلورا Flora في سنة ٧٥١ م (٢٣٦ هـ). وفلورا هذه فتاة قرطبية من أب مسلم وأم مسيحية إسبانية، عاشت في كنف أمها فأخذت عنها حباً عميقاً للسيد المسيح وللمسيحية وتديناً شديداً. مالت منذ نشأتها لمخالطة أوساط الزهاد والمتنسكين. وقد فشلت كل محاولات أخيها لإعادتها إلى عائلتها المسلمة وإلى محيطها وأقربائها. وكذلك فشلت جميع المحاولات التي بذلها القاضي لمنعها من اللحاق بحركة المعارضة الدينية وشتم النبي والإسلام والمسلمين طلباً للاستشهاد. وكانت على صلة وثيقة بالراهب أولوخيو، شديدة التأثر بآرائه أوأفكاره. وكحل وسط أمر القاضي بوضعها في السجن ومعها صديقة لها تدعى ماريا سلكت نفس الطريق. وأمام تمسك الفتاتين بموقفهما الرافض وتكرار شتمهما للنبي والإسلام علناً، كما أمام قضاة الشرع، كان لا بد من إعدامهما. وقد طوبت فلورا بعد ذلك قديسة من قديسي الإسبان.

هذه الحركة، مع امتدادها إلى خارج قرطبة ومع إقبال الشبان الإسبان بعفوية لا حدود لها وبإيمان صوفي على الاستشهاد، أربكت السنتين الأخيرتين من عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط وشغلته عن كل أمر آخر. ومما كان يعقد موقف الأمير ان الدولة ما كان بإمكانها أن تقدم أية تنازلات للمستعربين لسببين:

١ ـ إن المستعربين، في قرطبة كما في سائر مناطق الأندلس، ما كانوا بالفعل يخضعون لمعاملة سيئة فيما يتعلق بأوضاعهم الدينية والكنسية. بل من المؤكد إن وضعهم في ظل دولة الإسلام في الأندلس كان أفضل من وضع أية أقلية دينية في أوروبا العصور الوسطى. وليس أدل على ذلك من ان الكتاب الذي وجهه صاحب أكيتانيا سنة ٨٢٨ م إلى نصارى ماردة جواباً على مطالب وفود من قبلهم جاءت تشكو إليه أوضاع نصارى الأندلس وتطلب مساعدته، يشير فقط إلى مظالم ذات طابع ضريبي ومالي ولا شيء غير ذلك على الإطلاق[1]. وهذا يعني ان

---

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 151.

حركة الاستشهاد ولو إنها اتخذت شكلاً دينياً إلا انها كانت ذات أبعاد سياسية وقومية ووطنية تتناول مسألة الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبرية من الجذور. وعلى هذا الصعيد لا يستطيع الأمير عبد الرحمن الثاني إلا أن يكون حازماً وصارماً، ولا يستطيع أن يقدم أي تنازل.

٢ ـ إن الأمير في تعامله مع هذه العناصر المتطرفة لا يستطيع أن يتصرف إلا على أساس انه رئيس لدولة دينها الإسلام ودستورها القرآن ودعامتها الشريعة الإسلامية. وبموجب هذه الشريعة يعاقب المرتد عن الإسلام وكذلك من يشتم الرسول أو العزة الإلّهية بالموت. وهذه العقوبة لا تطبق حصراً بوجه غير المسلمين وإنما تطبق على الجميع. وقد رأينا بالفعل رجلاً مسلماً يدعى أبا الخير[١] يحاكم ويعدم أيام الخليفة الحكم الثاني لهذه التهمة. وكذلك أعدم ابن حاتم الأزدي في مدينة طليطلة سنة ١٠٦٤ م (٤٥٧ هـ) لتجرؤه على مقدسات المسلمين[٢].

ولما كان الأمير يشعر ان الحل الحقيقي ليس عنده وإنما عند الفريق الآخر رأى كحل معقول أن يلجأ إلى الكنيسة الكاثوليكية يطلب منها كمؤسسة مسؤولة العون والمساعدة.

دعت كنيسة إسبانيا سنة ٨٥٢ م إلى عقد مجمع مقدس في العاصمة قرطبة برآسة أسقف أشبيلية، ومثل حكومة قرطبة في المجمع أحد كبار موظفيها «والي الكتابة» وكان مسيحياً من المستعربين يدعى غومس بن أنطونيان. تداول المجتمعون في أسباب هذه الحركة وفي تطوراتها وفي ما يمكن أن تؤدي إليه لو استمرت، من اضطرابات وانعكاسات سيئة. ومع كل ما عبر عنه المجتمعون من عطف على شهدائهم، ومن تقدير لتضحياتهم، إلا انهم ما استطاعوا إلا أن يعلنوا استنكارهم لتلك الحركة الانتحارية وأن يحذروا النصارى المخلصين من ولوج

(١) (٢) دائرة المعارف الإسلامية، الجزء العاشر، صفحة ٤٤٣، ماسينيون.

هذا الدرب الخطر. كما طلبوا إلى الدولة العمل على اعتقال كل مخالف لقرارات المجمع المقدس.

أولوخيو وأنصاره من جماعة التيار المتشدد في قرطبة أدركوا الموقف الصعب الذي واجه المجتمعين في المجمع المقدس وعرفوا ان مقرراته ما كانت بالواقع إلا تسوية بين واجبهم نحو الدولة وعواطفهم تجاه فريق يستشهد دفاعاً عن عقيدة السيد المسيح. لذا ما توقف هؤلاء عند هذه المقررات بل تابعوا ا تحركهم مما أدى إلى وضع عدد من الشبان والشابات في سجن قرطبة، كان منهم، أولوخيو نفسه. وما تردد شبان آخرون بعد ذلك في دخول مسجد قرطبة وشتم مقدسات المسلمين مما أدى إلى لحاقهم بقافلة من سبقوهم إلى الموت. مات عبد الرحمن الثاني الأوسط والمشكلة الدينية كانت ما تزال تشغل سلطات قرطبة.

حاول خليفته الأمير محمد، في بداية ولايته، أن ينهج سياسة أقل تشدداً مما فعل والده تجاه المستعربين المتمردين فأخرج زعيمهم أولوخيو من السجن وسمح له بالسفر إلى خارج العاصمة كما أطلق سراح رفاقه. هذه الخطوة من قبل الأمير أعطت نتاجها في المدى القصير فرقدت حركة الاستشهاد، بعض الحين، خاصة وقد ابتعد رائدها ومبعث نيرانها. حل الراهب الثائر في مدينة بنبلونة، بعض الوقت يدعو لأفكاره التي ما وجدت عند البشكنس، الذين لم يخضعوا فعلاً في يوم من الأيام لسلطان قرطبة بشكل كامل، استقبالاً حسناً مع أنهم كانوا في جلهم من المولدين أو المستعربين. ومع ان هؤلاء أكرموه واستمعوا إلى مواعظه، إلا ان دعوته إلى الاستشهاد ما لقيت آذاناً صاغية عندهم على شدة تمسكهم بالمسيحية وكبير ولائهم للوطنية الإسبانية. وكل ما فعله له مستعربو الشمال هو انهم بعد رجوعه إلى قرطبة، انتخبوه رئيساً لأساقفة طليطلة، وهو الانتخاب الذي كان بحاجة لموافقة الأمير ليصبح نافذاً مما لم يحصل أبداً. في العاصمة، وبعد غياب دام مدة عامين اكتشف ان حركته قد خبت نارها وخف لهيبها، وأكثر أتباعه حماساً ملوا المعارضة وجنحوا نحو مهادنة الدولة والأمير وتناقص كثيراً عدد من ساروا

بأنفسهم إلى الموت. عاد مع صديق عمره ألفارو إلى إثارة الناس ودعوتهم إلى التمرد والاستشهاد، وإنما بنجاح أقل من السابق فلم يستشهد في الفترة الممتدة بين عامي ٨٥٣ م و٨٥٨ م أكثر من أربعة عشر متطوعاً[١].

وأخيراً وبعد أن شعر الأمير محمد ان حركة الاستشهاد قد خفت كثيراً وان تجاوب المستعربين مع دعوات أولوخيو وأتباعه قد خبا كثيراً عزم على حسم الموقف نهائياً ومرة واحدة. أحال زعيم التمرد إلى القضاء الذي أصدر الحكم بإعدامه. وقد أعدم أولوخيو فعلاً في الحادي عشر من شهر آذار سنة ٨٥٩ (٢٤٥ هـ)[٢]. وبعد أربعة أيام أعدمت لنفس الأسباب شابة قرطبية، صديقة للراهب، تدعى لوكريسيا من عائلة نبيلة وثرية[٣] ذات جذور عربية.

ومع الوقت صارت فكرة الاستشهاد نفسها تتراجع تدريجياً إلى أن قضى الزمن على كل أثر لها. والواقع إن هذه الحركة، على سلبيتها أربكت الدولة الأموية في الأندلس لفترة طويلة، وعقدت علاقاتها المعقدة أصلاً مع الدويلات المسيحية الإسبانية في الشمال ومع دولة الكارولانجيين. وفوق هذا وذاك فإنها كشفت ضعف اللحمة بين عناصر المجتمع الأندلسي المختلفة، وأعاقت حركة الاستعراب، وأحيت في ضمائر الإسبان النصارى ولو إلى حين مفاهيم ومثل دينية ووطنية ولغوية، في بلاد الأندلس، كانت تسرع نحو الأفول.

طلائع الحضارة الأندلسية

في أواخر أيام الحكم بن هشام، وفي مطلع أيام ابنه عبد الرحمن الثاني «الأوسط» أخذت تظهر في بلاد الأندلس ملامح حضارة جديدة فيها الكثير مما حمله معهم الفاتحون من مدنيات المشرق القديمة، وفيها مما هب على الأندلس

---

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 156.

(٢) Las Cagigas, los Mozarables, T I p. 220.

(٣) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 156.

في القرن الثامن للميلاد من رياح حضارية شامية أولاً ثم حجازية مدنية[1]، وفيها أيضاً مما كان يهب على إسبانيا، رغم ضعفها من نسائم حضارية أوروبية عربية يضاف إلى كل ذلك الكثير من تأثيرات الأرض والبيئة وما فيهما من ميراث روماني وقوطي. وصار للبلاد آنذاك ما يمكن أن نسميه فعلاً بطلائع نهضة حضارية أندلسية. ولما كان الأمير عبد الرحمن الأوسط نفسه، أديباً ذا همة عالية، عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة[2]، شاعراً واسع الثقافة والمعرفة فقد أدرك انه أمام انطلاقة حضارية صحيحة فما بخل بما كان عنده، من دولة مستقرة، وخزينة عامرة بجهد أو مال لرعاية هذه الحركة والعناية بها لتطويرها وتقدمها. والواقع إن الإمكانيات المادية ما كانت تنقصه لدفع هكذا حركة حضارية بقوة نحو التقدم والازدهار. لقد ترك له والده خزينة عامرة بالمال ومالية على درجة كبيرة من الدقة والتنظيم بلغت وارداتها حسب رواية ابن سعيد[3] وكذلك ابن حيان[4] مليون دينار ذهبي سنوياً مما كان يجعله في القرن التاسع للميلاد أحد أغنى حكام بلدان البحر الأبيض المتوسط[5].

ظهور تباشير هذه الحضارة، العربية لغة وتقاليد، وما كان يقدمه الأمير من تشجيع للعلوم والفنون والآداب أخذ يدفع إلى الأندلس بأعداد كبيرة من رجالات الشعر والأدب والفن يأتون من الشرق للإسهام في الحضارة الجديدة وللإفادة منها أيضاً. والواقع إن هذه الهجرة ما كانت إلا لتحمل معها من العراق موطن بني العباس، ومن بغداد خاصة، عاصمة حضارتهم تياراً حضارياً جديداً هو التيار العراقي. وما تردد الأمير الأموي لحظة في قبول هذا العطاء بل والترحيب به على ما كان بين الدولتين والعائلتين من عداء قديم. فدولة بني أمية في الأندلس باتت في

---

(١) نسبة إلى المدينة المنورة.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٤٧ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣٥.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٤٨.

(٤) (٥) Levi-Prove,cal, Historia de Espana, T IV, p. 163.

منتصف القرن التاسع للميلاد قوية الدعائم، راسخة الجذور، لا تخشى على وجودها من عدو قرب مكانه أو بعد ولو كان بقوة العباسيين العظيمة. ثم إن العباسيين قد أينعت في بلادهم وبفضل تفاعل المؤثرات الحضارية لمختلف شعوب الشرق العريقة من هنود وفرس وصينيين ويهود ويونانيين أزهى حضارة في ذلك الزمن وصارت عاصمتهم بغداد أكبر مركز حضاري عالمي آنذاك. فعبد الرحمن الأوسط ما عاد، كما كان أسلافه، يخشى بني العباس ليغلق أبواب الأندلس أمام الرياح الحضارية الآتية من بلادهم، ولا كان بما له من علم وثقافة إلا مقدراً لهذه الحضارة راغباً في الاستفادة وإفادة شعبه من ثمارها.

التنظيم الإداري:

اعتقد الأمير عبد الرحمن الثاني ان دولته باتت قوية بما يكفي وراسخة الجذور ومستقرة بحيث يمكنه أو يفترض فيه أن يعيد النظر بنظمها الإدارية الموروثة والتي كانت على شيء من الجمود، بسيطة على دقتها، بحيث ما عادت تفي بحاجات دولة كبيرة، وذات خزانة عامرة والتزامات متعددة ومعقدة في كثير من الأحيان. وفي هذا المجال ما تردد إطلاقاً، وهو الذي فتح الباب واسعاً أمام دخول التيارات الحضارية العراقية إلى بلاده، في الاعتماد بشكل أو بآخر على تجربة الخلافة العباسية في مجال التنظيم الإداري. بل إنه ربما ذهب بعيداً في الاعتماد على التجربة العباسية لدرجة جعلت أحد أبرز المستشرقين ليفي بروفنسال يرفض أن يعطيه صفة المنظم والمبتدع في مجال الإصلاح الإداري ليكتفي باعتباره مقلداً[١]. ويبدو إنه أعجب كثيراً بالتجربة العباسية في مجال تنظيم دوائر المال والإدارة فما تردد في تقليدها ولكن بطبيعة الحال مراعياً بعض الاعتبارات التي كانت تفرضها طبيعة البيئة الأندلسية.

كان الأمير يجلس في رأس الهرم الحكومي، بيده كل السلطات دون حدود

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 164.

أو قيود، في مجال التشريع كما في التنفيذ وفي الديني كما في الزمني. وإذا ما فوض بعض سلطاته لواحد من الأتباع أو المقربين فإن هذا يبقى أولاً وأخيراً مسؤولاً أمام الأمير وحده ويمارس هذه السلطات طالما بقي سيده راضياً عنه. وكانت الوزارة تساعد الأمير أو بالأحرى تنفذ تعليماته وأوامره وتحول إرادته إلى واقع منفذ على الأرض وبين الناس. وكان يمارس الوزارة وزير أو أكثر دون تحديد للعدد وفق إرادة الأمير. هذا كان يحدث مع أسلاف الأمير عبد الرحمن الثاني ولكن معه وفي أيامه أدخل تعديلاً كبيراً على خطة الوزارة وأعاد تنظيمها على أسس أكثر ملائمة لحاجات دولة الأندلس وأكثر مطابقة لواقعها. لقد عمد إلى تقسيم الوزارة إلى وزارات تخصصت كل واحدة بأمور واضحة وثابتة فكان هناك:

١ ـ وزير لحسبان المال.
٢ ـ وزير للترسيل.
٣ ـ وزير لحوائج المتظلمين.
٤ ـ وزير لحوائج أهل الثغور.

وقد جعل من الوزير بمثابة موظف كبير له دخل ثابت كان في حدود ثلاثماية دينار. كما جعل لكل واحد منهم مقراً ثابتاً بالقرب من قصره ليستدعيه إليه متى شاء. واختار من بين الوزراء واحداً جعله متقدماً عليهم وأعطاه لقب الحاجب فكان أقربهم إلى الأمير وألصقهم به. وجعل له من المكانة والنفوذ ما يجعله شبيهاً برئيس الوزراء في عصرنا الحاضر. وقد أوجز لنا المؤرخ ابن حيان أسلوب عمل هذه الوزارة وطريقة تعاملها مع الأمير بقوله: «والأمير عبد الرحمن أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في النوازل، وأفرد لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره مخصوصاً بهم، يقصدون إليه، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم. فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢١.
(٢) تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادي، صفحة ١٤٨.

جماعة وأشتاتاً، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه. وإذا قعدوا في بيتهم أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه»[1].

ويبدو إن الأمير كان دقيقاً في اختياره لوزرائه يختارهم في أكثر الحالات من عائلات معينة عرفت بعراقتها ووجاهتها وعلمها وولائها للبيت الأموي، حريصاً على الأكفياء الأفاضل منهم. فما ارتقى منصب الوزارة في فترة حكمه الطويل أكثر من تسعة وزراء ولا وصل إلى الحجابة سوى عبد الكريم بن عبد الواحد الذي كان حاجباً لأبيه ثم له، وخلفه طيلة حياة الأمير، عيسى بن شهيد، الذي عرفه ابن القوطية بقوله: «لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس في إنه ما خدم ملوك بني أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية، ولا أكرم اصطناعاً، ولا أرعى لذمته. ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة على زيادة خصاله وأدواته على عيسى، إلا في باب كرم الصنيعة واستتمامها، فلم يك تفضله درجة بل كان عبد الكريم يقصر عن عيسى في باب قبول الهدية... فإنه كان يقبل ذلك ولا يأباه»[2].

واهتم الأمير عبد الرحمن الثاني بقضايا الأمن الداخلي وبصورة خاصة أمن العاصمة التي اتسعت أحياؤها كثيراً ونمت أرباضها وتعقدت مشاكلها. في السابق كانت قضايا أمن العاصمة منوطة بموظف كبير يدعى صاحب السوق تشمل صلاحياته جميع شؤون قرطبة الأمنية والبلدية. وقد رأى الأمير أن يضيف إلى ذلك مناصب جديدة ذات اهتمامات وصلاحيات مجددة ومتخصصة. لقد أبقى على منصب «صاحب السوق» ولكن حصر صلاحياته في مراقبة الأسواق والتجار والاهتمام بقضايا الغش والمكاييل والموازين وغيرها. وأقام نظاماً مستقلاً للأمن

---

(1) المقتبس، ابن حيان، تحقيق مكي، صفحة ٢٩.

(2) المقتبس، تحقيق مكي، صفحة ٣٠.

يرأسه موظفان كبيران يدعى الواحد منهما «صاحب الشرطة»[1] وتتبعهما قوى الأمن الداخلي وكذلك ابتدع منصباً جديداً للاهتمام بالأمور البلدية وجعل على رأسه موظفاً أسماه «صاحب المدينة»[2].

وأمام تزايد واردات الدولة وتنوع التزاماتها وتشعب علاقاتها الاقتصادية الخارجية كان لا بد من إعادة تنظيم النقد الأندلسي. فالدولة حتى ذلك الوقت ما كانت تسيطر على نقدها. فالنقود الفضية والبرونزية التي كانت تضرب في الأندلس ما كانت الدولة هي التي تتولى إصدارها ومراقبتها ولم يكن هناك سوى عدد ضئيل من النقود أو الدنانير الذهبية مما ضرب في الأندلس. وكان الناس يتعاملون بكثرة بالنقود الإسلامية المشرقية أو البيزنطية أو تلك التي ضربت في بلدان شمال أفريقيا. هذا الوضع كان سبباً في وجود بلبلة في سوق الأموال في حواضر الأندلس وبين تجارها. لذا أمر عبد الرحمن الثاني ببناء «دار السكة» التابعة للدولة وأوكل إدارتها لرجل من الثقاة يدعى حارث بن أبي شبل تتولى وحدها إصدار ومراقبة النقود الفضية والبرونسية وأيضاً الذهبية على قلتها نظراً لندرة وجود معدن الذهب في إسبانيا آنذاك.

وأمر أيضاً بإنشاء «دار الطراز» تتولى لحساب الدولة صناعة السجاد، والستائر والأقمشة الفخمة لتأمين حاجات قصور الأمير ودور الحكم ومنازل الأثرياء. وقد كان عبد الرحمن في إنشائه لداري السكة والطراز مقلداً للخلفاء العباسيين في المشرق.

النهضة الثقافية والفنية:

على صعيد العلم والأدب كان عبد الرحمن الثاني مبادراً في إقامة الصلة مع بغداد حين انتدب الشاعر عباس بن ناصح الجزيري ليسافر إلى العراق وليحمل

---

(١) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، جزء ٢، صفحة ٤٦.
(٢) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، جزء ٢، صفحة ٤٦.

إليه بعض النفائس مما فيها من مصنفات موضوعة أو مترجمة. وكان من بين ما حمله الجزيري من رحلته هذه كتاب «السند هند»، وهو من أقدم كتب الحساب والأعداد، وقد ترجم في بغداد إلى العربية. وعن هذا الطريق بدأت تصل إلى بلاد الأندلس ترجمات علماء بغداد الكثيرة لتراث المشارقة.

وقد درج الأمير عبد الرحمن الثاني على منح العلماء والأدباء الأندلسيين، أو الوافدين على الأندلس كل الرعاية والحماية والمساعدة. وتفيض كتب الطبقات والمراجع الأدبية في الحديث عما أغدق هذا الأمير من رعاية وتشجيع للعالم عباس بن فرناس[٢] وللشاعر الأندلسي يحي بن حكم المعروف بالغزال. برز الغزال كشاعر رقيق ماجن ينادم الملوك والأمراء ويقول الشعر للشعر فلا يتكسب به ولا يجني بسببه مالاً. وكذلك حظي بعطف الأمير ومحبته الشاعر عبد الله بن الشمر بن نمير[٣]، وكان بارعاً في الأدب والشعر وكذلك في علمي المنطق والتنجيم. وأيضاً في محيط الأمير وحوله عاش الشاعر عباس بن ناصح الجزيري[٤].

والواقع إن شخصية الغزال قد طبعت الحركة الشعرية في عصر عبد الرحمن

---

(١) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، جزء ٢، صفحة ٤٥.

(٢) ترجم له ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» نقلاً عن ابن حيان فقال: «حكيم الأندلس، الزائد على حماعتهم بكثرة الأدوات.والفنون... وكان فيلسوفاً حادقاً، وشاعراً مغلقاً مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة... كثير الاختراع والتوليد، واسع الحيل، حتى نسب إليه السحر وعمل الكيمياء، وكثر عليه الطعن في دينه، واحتال في تطيير جثمانه فكسا نفسه الريش على سَرَق الحرير، فتهيأ له أن استطار في الجو من ناحية الرصافة واستقل في الهواء، فحلق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة».

(٣) ترجم له ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» نقلاً عن ابن حيان فقال: «إنه كان نسيج وحده محموعاً له من الخصال النبيلة ما فرق في عمره من جميع التعاليم والأدب والشعر والنثر». ونقل عن ابن حيان أيضاً: «إن الأمير عبد الرحمن كان مصغياً لأحكام التنجيم، ولم يكن عنده في المنحمين مثل ابن الشمز» ونقل عن الحجاري إنه «رئيس المنجمين بالأندلس».

(٤) ترجم له ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» نقلاً عن ابن حيان فقال: «وكان عالماً شاعراً، أثيراً عند الخلفاء المروانيين». وجعله الرازي «فحل شعراء الأندلس».

الثاني بطابعها الفريد. فهو شاعر، فنان، ماجن يقول الشعر للشعر لأنه فنه وأداته للتعبير عن عواطفة ومشاعره لا يهتم إذا كان ما سيقوله سيرضي الآخرين أو بعضهم. لقد كان في شعره يعبر عن أسلوب حياة الفنان المغامر الماجن الذي يهتم بفنه وأدبه أكثر مما يهتم بالبحث عن أسباب الحياة. لقد كان الغزال بأسلوبه الشعري السهل وطريقة حياته مدرسة أندلسية متميزة في الشعر كثر أتباعها في زمنه وبعده. والواقع إن عبد الرحمن الثاني قبله على علاته، بل أكثر من ذلك أحبه وأنس إلى شعره وأدبه وأعجب بشخصه وبأناقته ورقته وأسلوبه الأنيق في الحياة حتى انه ما تردد في أن يتخذ منه سفيراً له عند ملوك أجانب كما رأينا.

وفي مجال الموسيقى والغناء أيضاً ما تأخرت المؤثرات العراقية في الوصول إلى الأندلس فرعاها الأمير عبد الرحمن الثاني ورحب بها فأثرت بالموسيقى الأندلسية وطورتها بل وكسفت المؤثرات المدينية في الموسيقى والغناء. وصلت المؤثرات الموسيقية والغنائية العراقية إلى إسبانيا الإسلامية مع المغني والملحن الفارسي الحسن بن نافع ـ الملقب بزرياب[1] ـ. كان هذا تلميذاً للموسيقي العراقي الشهير إسحق الموصللي الذي عاش واشتهر في بلاط هارون الرشيد في بغداد.

قصد بلاد الأغالبة في شمال أفريقيا وحل في عاصمتهم القيروان، طلباً لشهرة ومجد ما كان ليستطيع الحصول عليهما بوجوده قرب أستاذه الشهير. أقام بعض الوقت في تونس لكنه سرعان ما اختلف مع صاحبها ابن الأغلب[2] وغادرها قاصداً بلاد الأندلس. وتختلف الروايات في أسباب هجرته من بغداد. بعضها يعيد ذلك إلى خلاف حصل مع أستاذه الموصللي فاتقى شره بالهجرة ألى بلاد نائية. وأخرى تجعل هزيمة الأمين وتنكيل الخليفة المأمون بأصدقاء أخيه وندمانه، وزرياب منهم سبب نزوله في الأندلس. استقبله الأمير عبد الرحمن الثاني أفضل استقبال لما سبقه من سمعة عظيمة في مجال الغناء والطرب «وأنزله في دار من

(١) زرياب كلمة فارسية تعني: الطائر الأسود الحسن الصوت.

(٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه، طبعة القاهرة ٥٣، جزء ٦، صفحة ٣٤.

أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه، وخلع عليه، وبعد ثلاثة أيام استدعاه، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً، وأن يجري على بنيه الذين قدموا معه وكانوا أربعة. . . عشرون دينار لكل واحد منهم كل شهر، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار. . . وأن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدي ثلثاها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار»[1].

وفي قرطبة كشف عن مهارات فنية عظيمة إذ سبق معاصريه في ألحانه الجديدة المتطورة. كان العود قبله على ما يبدو بأربعة أوتار «وزاد زرياب بالأندلس في أوتار عوده وتراً خامساً اختراعاً منه. . . فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة»[2]. «وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر، معتاضاً به من مرهف الخشب، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه»[3]. ودرب الأندلسيين على أساليب جديدة في وضع المقدمات والخواتم الموسيقية. وأيضاً كان أول من استعمل المجموعات في الغناء. والواقع إن زرياب هو واضع حجر الأساس للمدرسة الموسيقية الأندلسية التي تعتبر من أرقى مدارس الموسيقى الشرقية، والتي ما زالت تأثيراتها ماثلة حتى يومنا هذا في موسيقى وغناء بلدان شمال أفريقيا.

كان زرياب إضافة إلى براعته الموسيقية والغنائية صاحب ذوق خاص رفيع في أساليب حياته ومظهره. لعب دوراً بارزاً في تطوير أساليب حياة النبلاء والموسرين من الأندلسيين. لقد أشاع بين هؤلاء خاصة، وبين الأندلسيين عموماً أساليبه الأنيقة في ترتيب المائدة وفي إعداد الطعام وتنويعه إذ كان مبتكراً لأصناف الطعام. وأيضاً كان صاحب مدرسة في ترتيب البيت والأثاث. «مما أخذه الناس

---

(١) البيان المغرب، المقري، جزء ٣، صفحة ١٢٥.
(٢) البيان المغرب، المقري، جزء ٣، صفحة ١٢٦.
(٣) البيان المغرب، المقري، جزء ٣، صفحة ١٢٦.

عنه بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة واختياره سفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية»[1].

وكان له منهج خاص في الملبس يقوم على الترف والتنوع، أشاعه بين الأندلسيين فعلمهم ارتداء الملابس القطنية والحريرية في الصيف وصبغها بالألوان الزاهية وترك الملابس الصوفية والقاتمة الألوان لفصل الشتاء والبرد. كذلك كانت له طريقة خاصة في تصفيف شعره يعتمدها هو وأولاده وزوجاته «فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعوره، وتعصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم وإسدالها إلى أصداغهم... هوت إليه أفئدتهم، واستحسنوه»[2].

وهكذا عمل على تطهير مجتمع أهل اليسار من رواسب البداوة والخشونة في أساليب العيش ودربهم على أساليب الترف والأناقة.

وعلى العموم «كان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب، ولطف المعاشرة، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده أحد من أهل صناعته حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه»[3] هذه الاتجاهات المجددة لأساليب العيش والحياة في الأندلس لاقت هوى في نفس الأمير عبد الرحمن الثاني وتشجيعاً منه. ذلك إن الأمير كان منذ بداية حكمه، متقبلاً لكل رياح التغيير الآتية من بغداد، يقلد تصرفات خلفاء بني العباس المترفة. مال، على طريقتهم إلى سكنى القصور الفخمة والإكثار من الحرس والخدم والمرافقين واتباع المراسم الشرقية المعقدة في مقابلة الناس واستقبال الأعيان والحكام، بعيداً عن البساطة القبلية التي طالما اعتمدها أسلافه من الأمراء

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ١٢٨.
(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ١٢٧.
(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ١٢٧.

الأمويين. بل أكثر من ذلك رأيناه أثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون يفتح أبواب قصره أمام التجار العراقيين أو الوافدين من العراق يحملون إليه كل غال ونفيس مما وصلت إليه أيدي السلب والنهب، في قصور بغداد، من بينها عقد الشبا[1] وكان لزبيدة زوجة الرشيد.

البناء والعمران:

إلى جانب عناية الأمير عبد الرحمن الثاني بالعلوم والفنون والآداب فقد كانت له اهتمامات خاصة بالبناء والعمران. فاستطالة عهده ووفرة مداخيل خزينته سمحا له بأن يقيم في الأندلس ما لا حصر له من الأبنية والقصور والمنشآت العامة. كان له ولع خاص ببناء المساجد. وفي سنة ٨٢٥ م (٢١٠ هـ) أمر عامله على مدينة جيان[2] ببناء المسجد الجامع فيها. وبعد أربع سنوات أي في ٨٢٩ م (٢١٤ هـ) أمر ببناء مسجد كبير في مدينة أشبيلية تولى الإشراف على بنائه وتأسيسه الفقيه القاضي عمر بن عباس. وجاء مسجد أشبيلية «من عجيب البنيان وجليله، وصومعته بديعة الصناعة، غريبة العمل»[3]. ومع اتساع العاصمة وتنامي ضواحيها وأرباضها «كثر الناس بقرطبة أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم المطمئنة، وانتابوها من كل أوب وجهة حتى تضايق عنهم مسجد جامعها، وأخل كثير منهم بشهود الجمعة... فأمر عند ذلك بتوسيعه والزيادة فيه»[4]. وقد تم ذلك على مرحلتين. في المرة الأولى أضاف بلاطين جديدين[5]، واحداً من الجانب الشرقي، وآخر من الجانب الغربي فصارت أبهاؤه أحد عشر بهواً، وقد أنجزت هذه الزيادة في سنة ٨٣٣ م (٢١٨ هـ). ثم عاد في سنة ٨٤٨ م (٢٣٤ هـ) فوسع المسجد

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٣٦.
(٢) الروض المعطار، الحميري، صفحة ٧١.
(٣) الروض المعطار، الحميري، صفحة ٢٠.
(٤) المقتبس في أخبار الأندلس، ابن حيان، تحقيق الحجي، صفحة ٢٤٥.
(٥) قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، صفحة ٣٢٤.

في العمق ومد بلاطات المسجد جنوباً بعد أن نقل المحراب من مكانه القديم إلى مكان آخر يتناسب مع الزيادة الجديدة. وأشرف على أعمال التوسيع والبناء كبير مساعدي الأمير ورجل ثقته الفتى «نصر». ويبدو إن هذه الأعمال ما أنجزت كلها على حياة الأمير عبد الرحمن الثاني إذ عند وفاته كان قد بقي عليه في هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة «أتمها الأمير ابنه محمد الوالي في مكانه»[1].

ولما كان كثير الميل للنساء، أنزل في قصره ما لا يحصى من الجواري والقيان، أغدق على من أحب منهن ما لا حدود له من المال والعطايا. وأيضاً لما كان عنده من شديد التدين فقد شجع جواريه المقربات منه على بناء المساجد من أموالهن الخاصة، مرضاة لوجه الله. فكان هناك «مسجد الشفاء»[2] «مسجد الفجر»[3] و«مسجد طروب»[4].

أولى القصر الأميري في قرطبة اهتماماً خاصاً فاعتنى بأبراجه وأقام لنفسه، على عادة من سبقه من أمراء بني أمية، جناحاً جديداً ضمن أسوار القصر. وجلب إليه الماء الجارية بأنابيب خاصة من الجبال القريبة من العاصمة. وأقام خارج القصر سبيلاً عاماً للناس يتزود من المياه الجديدة بدأ يروي عطش الناس منذ سنة ٨٥٠ م (٢٣٦ هـ).

وكان قبل ذلك وبالذات في سنة ٨٢٧ م (٢١٢ هـ) قد أمر ببناء رصيف عظيم للمشاة، على ضفة نهر «الوادي الكبير» مما يلي القصر الأميري والمدينة.

ولعل أهم منجزاته العمرانية وأبقاها، إذ هي موجودة عامرة حتى يومنا هذا، مدينة «مرسية» التي أقامها على الساحل الشرقي لبلاد الأندلس في كورة تدمير التي صارت تعرف بعد ذلك باسم كورة «مرسية». «بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت داراً للعمال وقراراً للقواد، وكان الذي تولى بنيانها وخرج العهد

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٨٤.

(٢)(٣)(٤) طروب، شفاء، فجر، اسماء جواري كن في بلاط الأمير عبد الرحمن الثاني.

إليه في اتخاذها جابر بن مالك بن لبيد»[1]. هذا الإنجاز العظيم تحقق في سنة ٨٣١ م (٢١٦ هـ).

ولعل مما يذكر له من فضل في مجال العمران بناؤه سور أشبيلية «بعد غلبة المجوس عليها بالحجر وأحكم بناءها»[2].

هذه المنجزات العظيمة هي التي جعلت أحد أشد أعدائه، زعيم حركة الاستشهاد أولوخيو المعاصر للأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط» يقول: «إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة، ورفع من ذكرها، وأفاض عليها حلل المجد، وأغدق عليها الثروات، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق»[3].

وفاته

وفي سنة ٨٥٢ م (٢٣٨ هـ) توفي الأمير العظيم عبد الرحمن الثاني المشهور بالأوسط تاركاً لابنه الأمير محمد دولة مزدهرة ثابتة الأركان، وحضارة انطلقت بسرعة مذهلة في دروب التطور والنمو، وأيضاً أورثه مع كل ذلك بذور مشاكل وخلافات ومصاعب تمتد جذورها عميقاً في تاريخ إسبانيا الإسلامية وفي تركيبتها السكانية، وهي بقيت حية وفاعلة وإن بدت كما حصل على أيام الأمير عبد الرحمن كما لو انها غابت إلى غير رجعة.

(١) الروض المعطار، الحميري، صفحة ١٨١.

(٢) الروض المعطار، الحميري، صفحة ٢٠.

(٣) دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول ـ القسم الأول، عنان، صفحة ٢٧٦.

الفصل الخامس

عصر الفتنة والتمزق
(٨٥٢ - ٩١٢م) (٢٣٨- ٣٠٠هـ)

عندما كانت أيام الأمير عبد الرحمن الثاني «الأوسط» صائرة إلى نهايتها كان يبدو وكأنه الضمانة الوحيدة لبقاء وديمومة ذلك الاستقرار، وتلك الدولة العظيمة القوة، الباهرة السناء، والكبيرة الهيبة في نفوس أبنائها كما في عيون وقلوب أعدائها. فما حفلت به أيام هذا الأمير من ثورات داخلية وحركات تمرد وعصيان ورياح انفصالية وأيضاً ما تعرضت له من عداء وحروب من قبل الممالك الإسبانية المسيحية، وما حل بسواحلها وببعض مدن الأندلس من نكبات على يد النورمانديين فإن يد عبد الرحمن القوية الحازمة والشديدة الوطأة قد أتت عليه وجعلت نتائجه في المدى القصير سلبية. إلا ان ذلك كله ترك في الواقع، في بنية دولة الإسلام في الأندلس وفي ركائز وحدة البلاد آثاراً وجروحاً دامية ولو ان الظاهر كان يوحي بغير ذلك. بل ربما كان يبدو، في أواخر أيام الأمير عبد الرحمن للمراقبين ذوي الرؤية البعيدة والقدرة على التعرف على الحقائق ولو كانت تحيط بها تلال من المظاهر البراقة والآمال الخادعة وكأن البلاد مقدمة على عاصفة هوجاء تثيرها عناصر الفرقة والاضطراب، وما يتحرك في الخفاء من تناقضات وحساسيات مغرقة في القدم.

وبالفعل فإنه ما أن صارت أمور دولة الإسلام في الأندلس إلى ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن في سنة ٨٥٢ م (٢٣٨ هـ) حتى بدأت مرحلة في تاريخ إسبانيا الإسلامية دامت حوالي ستين سنة وشملت أيامه وأيام ولديه المنذر وعبد الله ، شاعت فيها الفتنة ، وعمت الاضطرابات ، وصار الانفصال ورفع لواء الفرقة والعصيان هو القاعدة والعادة عند حكام وأمراء ومقدمي الأقاليم والمدن الكبرى ، وخاصة في مناطق الثغور. فقد صار نفوذ الأمراء الأمويين وحكوماتهم المركزية في تناقص مستمر حتى أتى زمن أيام الأمير عبد الله ما كان فيه سلطان الجالس على عرش الإمارة يتجاوز أسوار العاصمة وبعض أريافها والقرى القريبة منها.

لقد بدت الأندلس خلال هذه الفترة ، التي يبدو لي من المناسب أن أسميها باسم «عصر الفتنة والتمزق» وكأن دولة الإسلام في الأندلس قد فقدت وحدتها السياسية وافتقرت إلى تلك الأيدي الحازمة القوية التي طالما ردت الأذى عنها وطردت الأخطار من حولها ، كما كان الحال أيام عبد الرحمن الداخل والحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط. بل أكثر من ذلك بدت في بعض الساعات ، وحين توالت عليها المصائب وشاعت أعمال الانفصال وكأنها صائرة إلى زوال محتوم.
وهنا لا بد من الإشارة إلى انه ربما كان وجود دولة بني أمية في غرب أوروبا ، في الوقت الذي كان فيه نظام الإقطاع هو القاعدة في الدول الأوروبية المجاورة مثل بلاد الفرنج والممالك الإسبانية المسيحية ، يعتبر ظاهرة شاذة من حيث إصرار حكامه على ممارسة سلطان مركزي موحد وقوي. ذلك ان من أبرز سمات النظام الإقطاعي الذي عرفه الغرب آنذاك تفكك سلطان الحكومات المركزية ، وتوزع النفوذ الفعلي بين سادة المقاطعات والأقاليم من أكابر ملاكي الأرض بقوة الأمر الواقع وأيضاً وفق تقاليد وأعراف وصيغ قانونية عامة. وما كان من السهل منع هذه الظاهرة من أن تمتد تأثيراتها السياسية والعسكرية ، على الأقل ، إلى الأندلس من فوق الحواجز الجغرافية والعنصرية والدينية. فما سعى إليه وطالب به حكام الأقاليم ومقاطعات الثغور من استقلال عسكري ومالي ونفوذ سياسي يمارسونه على حساب سلطان حكومة قرطبة هو نفسه تقريباً ما كان يمارسه كبار الإقطاعيين

من الفرنجة والأسبان على حساب سلطان سادتهم الملوك الكارولانجيين والأسبان ومن جهة ثانية ربما كان لقرب ممالك الإسبان المسيحيين ولاستعدادهم الدائم، في مسعى منهم لإرباك وإضعاف دولة الإسلام في إسبانيا، لمساعدة كل ثائر ومتمرد عليها، أثر فعّال في تزايد المشاعر الإقليمية والنزعات الانفصالية.

ويضيف المؤرخ الأندلسي ابن الخطيب[1]، إلى هذه الاعتبارات الخارجية سببين آخرين يرتبطان بتركيبة المجتمع الأندلسي، لكثرة الثورات وحركات العصيان والتمرد في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد:

أ ـ منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم النصارى في الشمال.

ب ـ علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان منهم الأشراف الذين يأنفون الخضوع والإذعان.

والواقع إن محمد بن عبد الرحمن أول أمراء عصر الفتنة الثلاثة، والذي دام عصره ثلث قرن تقريباً ما كان سيئاً بالقدر الذي كانت عليه الأحوال في زمنه، وبالتالي فإنه لا يجوز أن يحمل أوزار ما حدث في عصره، ذلك إن كل التناقضات التي ركدت أيام أبيه تفجرت منذ الأيام الأولى لولايته، وقبل أن يكتسب ما يكفي من الخبرة والمران، وقبل أن تستقر أمور دولته، كما ظهر دفعة واحدة كل ما كانت تزخر به البلاد من انقسامات عنصرية وحساسيات قبلية وأنانيات مكبوتة مما جعل الإمارة تجنح بصورة متزايدة في طريق فتنة جارفة وثورات متلاحقة ما توانى لحظة عن مجابهتها بحزم وتصميم مما شغل كل حياته السياسية دون أن يحقق نجاحاً يجعله في صف أبيه، مع إنه كان يستحق ذلك فعلاً.

---

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٤١.

الأمير محمد بن عبد الرحمن
٨٥٢ - ٨٨٦ م
٢٣٨ - ٢٧٣ هـ

تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الإمارة في أيلول سنة ٨٥٢ م (ربيع الثاني سنة ٢٣٨ هـ) بعد وفاة أبيه مباشرة إذ بويع وأعلن أميراً على الناس في وقت كان أبوه ما يزال مسجى على فراش الموت. ومع هذا فإن ارتقاءه سدة الإمارة ما كان بهذه البساطة. يشير أكثر المؤرخين الأندلسيين إلى ان الأمير عبد الرحمن الثاني كان في الأساس ميالاً إلى اختيار ابنه محمد لولاية عهده[1] ويستدلون على ذلك من كونه أبقاه مكانه في القصر في أكثر مناسبة وصحبه أو قاد بمفرده أكثر من حملة عسكرية هامة وقام بأكثر من سفارة لدى ملوك أجانب ونوه بكفاءته ومقدرته أكثر من مرة. ويذكر عيسى الرازي ان عبد الرحمن «قد كشف عن مذاهب ولده، ولداً ولداً، وعجم أخلاقهم اختباراً فوجد محمداً منهم راجحاً بخلاله». ومع هذا ما تجرأ الأمير على حسم موضوع ولاية العهد. ذلك إن هذا الأمر كان موضع تجاذب ونزاع بين أكثر من واحد من أولاده. وكان هؤلاء كثيرين، ربما وصل عددهم إلى خمسة وأربعين ولداً ذكراً[2]. وكان أكثرهم طموحاً لولاية العهد ابنه عبد الله تدعمه وتشد أزره والدته الجارية طروب التي كانت شديدة التسلط على الأمير عبد الرحمن في أواخر حياته. وأيضاً كان من أنصار عبد الله كبير خصيان الأمير والأثير لديه، الفتى نصر الذي كان مبغضاً لمحمد[3]. وقد وصل الأمر بالجارية والفتى إلى حد التآمر على حياة الأمير لمنع محمد من الوصول إلى الإمارة. لقد عمد الفتى نصر إلى استدعاء طبيب مشرقي وفد حديثاً على قرطبة وطلب منه إعداد سم سريع الفعالية حاول أن يقدمه للأمير على انه دواء لعلة كانت به معتمداً على ما لسيده من ثقة به. إلا أن الأمير لوشاية بلغته من جارية كارهة لطروب

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٩٦.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٢٢.
(٣) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٩٦.

ونفوذها، أجبر الفتى نصراً على اجتراع السم فكانت به نهايته[1]. وبقيت قضية ولاية العهد دون حسم نهائي.

وعند وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني أغلق خدمه أبواب القصر وكانوا كلهم تقريباً من أشياع طروب وعملائها وتداولوا في الأمر فيما بينهم. وضع هؤلاء الفتيان، وكانوا من الصقالبة عواطفهم ومصالحهم جانباً وعزموا على اختيار الأكفأ والأصلح وسمعوا رأي أحدهم ويدعى ابن المفرج حين قال لهم: «وأنا أعلمكم إن رأيي كرأيكم وأني أشكر للسيدة لفضلها علي دونكم، ولكنه أمر أن ينفذ فهو سبب لقطع آثارنامن الأندلس، وإن واحدا منا لا يخطر في طريق، ولا يمر بجماعة، إلا قال الناس: اللهم العن هذه الوجوه، فأنهم ملكوا أمر المسلمين، فولوا شر من يعرفونه، وتركوا خير من يعرفونه، وقد علمتم عبد الله وحاله ومن يطوف به، والله لئن ملك شيئاً من أموركم وأمور المسلمين ليحدثن فيكم وفيهم الأحداث فيسألكم الله عنهم وعن أنفسكم، فكأن ذلك وقى بأنفسهم، فقالوا له: من تراه، فقال لهم: الصالح العفيف محمد... فقالوا له: رأينا ما رأيت»[2].

وفعلاً استدعي الأمير محمد إلى القصر الأميري، في وقت كان شقيقه ومنافسه عبد الله بن طروب يشرب الخمرة مع أعوانه وندمائه، وأبلغ بوفاة أبيه وتمت بيعته في تلك الليلة وبعث يستدعي إليه الوزراء والخدمة والموالي[3]. وهنا لا بد من الإشارة إلى ان الفتيان الصقالبة الذين كان عددهم في تزايد في أيام الأمير عبد الرحمن الثاني، يظهرون لأول مرة على مسرح الأحداث السياسية ولو بشكل أيجابي، إنما مما سيكون له في المستقبل، كما سنرى نتائج خطيرة ومعقدة.

أبقى الأمير محمد على أكثر رجال أبيه ومساعديه في مناصبهم خاصة وإنهم

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٩٧ - المقتبس، ابن حبان، تحقيق مكي، صفحة ١١.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٩٨.

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٩٨.

كانوا من الأفاضل المجربين وأقر بصورة خاصة عيسى بن شهيد حاجب أبيه على خطة الحجابة، كما أبقى في الكتابة عبد الله بن أمية بن يزيد، الذي ما لبث أن أقعدته علة عن ممارسة مهامه فأوكلها إلى مستعرب، كان ممن استعملهم أبوه ووثق بهم، هو غومس بن أنطونيان.

عرف ابن القوطية الأمير محمد[1] بانه «كان من أهل الأناة وقلة العجلة والتنزه عن العقوبة، مكرماً لأعلام الناس من أهل العلم والموالي والأجناد، متخيراً لعماله». وترجم له ابن سعيد فقال «كان محمد مؤثراً لأهل الحديث، عارفاً، حسن السيرة»[2]. وأيضاً قال عنه ابن عذاري: «كان الأمير محمد رحمه الله فصيحاً بليغاً عظيم الأناة متنزهاً عن القبيح، يؤثر الحق وأهله، لا يسمع من باغ ولا يلتفت ألى قول زائغ، وكان عاقلاً على أخلاق جميلة ومكارم حميدة، ذا بديهة وروية، يرى كل من باشره وحدثه إن له الفضل المستبين في إدراكه وفهمه ودقة ذهنه ولطيف فطنته وجزالة رأيه»[3] كان من الواضح انه يمتلك من الصفات والخصائص، ما يمكن بل ما يجب أن يجعل منه، بمفاهيم ذلك العصر من أفضل وأنجح وأقوى أمراء زمانه. ومع ذلك فإنه ما استطاع أن يواجه الفتنة بنجاح لأنها كانت أقوى من أن تجابه وهذا ما جعل ابن حيان عند تقويمه لمنجزاته يقول عن عصره «المشوب آخره بالتنكيد، المنصرم عن فرقة الجماعة، ونجوم النفاق بكل جهة».

العلاقات مع النصارى:

ما كان الأمير محمد في سياسته حيال الممالك الإسبانية المسيحية في الشمال مجدداً ولا مبتدعاً، لقد مارس سياسة الصوائف والشواتي التقليدية والتي ورثها عن أسلافه. فكان يجد لزاماً عليه أن يرسل الحملات العسكرية إلى أراضي

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ٩٢.

(٢) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، جزء ١، صفحة ٥٤.

(٣) البيان المغرب، حزء ٢، صفحة ١٥٩.

النصارى في الشمال مع إطلالة كل صيف، وكلما سمحت له الظروف بذلك، دون هدف واضح سوى مقاتلة الأعداء وتخريب أراضيهم وتدمير مدنهم وقلاعهم والعودة بأكبر قدر ممكن من الأسلاب والغنائم. ويبدو أن الهدؤ النسبي الذي ساد الحدود بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا النصرانية في السنوات الأخيرة من حكم أبيه الأمير عبد الرحمن ما استمر ولا دام في عهده. إذ كانت العلاقات في أيام الأمير محمد دائمة التوتر والاضطراب مع الملوك النصارى، والأسوأ من ذلك هو إن مسرح الاقتتال كان في أكثر الحالات داخل أراضي المسلمين. ذلك إن مناطق الثغور كانت دائمة التمرد والعصيان على سلطان الأمير محمد وما تردد قادتها وزعماؤها في التحالف والتعاون والاستنجاد بجيرانهم الإسبان مما يجعلهم أقدر على مجابهة الأمير محمد وجيوشه ومما يجعل هذا الأخير عاجزاً عن إرسال الصوائف إلى الشمال الإسباني.

وبالرغم من ذلك وبالرغم من الثورات المستمرة في مناطق الثغور فإن المصادر التاريخية تذكر لنا سلسلة طويلة من الحملات أرسلها الأمير الأموي إلى المناطق المسيحية قاد بعضها بنفسه أو ندب لها بعض أولاده. وبعض هذه الحملات حققت انتصارات عسكرية هامة وعادت بمغانم ومكاسب وافرة إنما ودائماً دون تعديل في خط الحدود الأساسي ودون تحقيق أي مكسب أقليمي يبرر الدماء المسلمة التي أهدرت والأموال التي أنفقت. وسنكتفي هنا بذكر أبرز هذه الحملات وأفعلها.

١ ـ استهل الأمير محمد نشاطاته العسكرية فقاد لأول مرة، بنفسه بعد أن تولى الإمارة، صائفة إلى أراضي قشتالة (القلاع) وبلغ إلى أقصاها في سنة (٨٥٣) (٢٤١ هـ) وافتتح كثيراً من حصون المشركين[١]. وربما قصد من ذلك الثأر من ملك أستورياس للمساعدة الكبيرة التي قدمها قبل عام للثوار الطليطليين مما سيأتي ذكره فيما بعد.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٤.

٢ ـ وفي السنة التالية أي سنة ٨٥٦ م (٢٤٢ هـ) طلب إلى موسى بن قسي والي تطيلة وأكبر زعماء مناطق الثغر الأعلى أن يقود حملة عسكرية كبيرة إلى مدينة برشلونة. وكان موسى هذا، قد عاد في أواخر أيام الأمير عبد الرحمن إلى الطاعة والولاء للإمارة بعد أن خرج على سلطانها مدة من الزمن. واستمر على التعاون بصدق وإخلاص مع إبنه الأمير محمد. هاجم موسى بن موسى مدينة برشلونة وحاصرها دون أن يتوصل لإخضاعها، فاكتفى بأن نشر الخراب والدمار في ضواحيها وفي سائر منطقتها وافتتح حصن طراحة من أحوازها[1].

٣ ـ وفي سنة ٨٦٠ م (٢٤٦ هـ) جهز الأمير محمد حملة كبيرة إلى أراضي نبرة (بلاد البشكنس) قادها أحد أبرز زعماء جيشه «فخرج في هذه الغزوة خروجاً لم يخرج قبله مثله جمعاً وكثرة وكمال عدة وظهور هيبة»[2]. وكان هدف الحملة مواجهة التحالف المعقود بين أردونيو الأول ملك أستورياس وغرسية سيد مملكة نبرة ورد عدوانهما عن أراضي المسلمين «فأقام هذا القائد يدوخ أرض بنبلونة[3] متردداً فيها اثنين وثلاثين يوماً يخرب المنازل وينسف الثمار ويفتح القرى والحصون»[4]. وكان انتصار المسلمين في هذه الصائفة مشهوداً وعادوا إلى قرطبة ومعهم فرتون ابن الملك غرسية الذي ظل أسيراً بعد ذلك عند الأمير الأموي مدة عشرين سنة.

٤ ـ وفي السنة التالية ٨٦١ م (٢٤٧ هـ) كانت هناك صائفة إلى أراضي ألبة والقلاع (قشتالة) دون أن تصيب نتيجة تستحق الذكر.

توالت بعد ذلك عدة صوائف إلى أراضي الشمال المسيحي طيلة أيام الأمير محمد، طبعاً حين كانت ظروفه الداخلية المتزايدة صعوبة وتعقيداً، تسمح له

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٤.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٦.
(٣) عاصمة نبرة.
(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٦.

بذلك. وأكثر ما اتجهت مثل هذه الحملات إلى أراضي القلاع (قشتالة) إنما دون أن تحقق واحدة منها نتائج هامة.

غزوة النورمان:

عادت سفن النورمانديين بعد غياب استمر عدة سنوات للظهور أمام سواحل إسبانيا الغربية في سنة ٨٥٩ م (٢٤٥ هـ) وكان عددها اثنين وستين مركباً، فما حققت هناك ما أنجزته في السابق، ذلك إن أسطول المسلمين كان جاهزاً للمواجهة. وأيضاً مراكز المراقبة التي أقامها الأمير عبد الرحمن الثاني قامت بوظيفتها خير قيام. وحين تجرأ النورمان على الاقتراب من سواحل باجة صدهم المسلمون واستولوا على مركبين «بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدة»[1].

وحين اقتربت السفن المعادية من مصب نهر «الوادي الكبير» في محاولة للتسلل إلى أشبيلية واجهتهم مقاومة مسلمة شديدة فانحدروا جنوباً حتى مدينة الجزيرة الخضراء التي نجحوا في التغلب عليها وإحراق مسجدها الجامع. ثم تمكنوا من النزول على سواحل الأندلس الشرقية ووصلوا حتى شواطىء كورة تدمير. وخلال ذلك جرت عدة معارك بحرية وبرية بينهم وبين المسلمين خسروا فيها كثيراً من سفنهم ورجالهم. وقد انتهت هذه الغزوة النورماندية على بلاد الأندلس دون تحقيق نتائج إيجابية مع خسائر كبيرة في الأرواح والسفن إذ بلغ تعداد ما فقدوه منها أكثر من أربعين مركباً[2]. وكانت هذه الغزوة بمثابة أول اختبار جدي لفعالية الجهاز الدفاعي البحري الذي كان قد أقامه الأمير عبد الرحمن الثاني فأثبت فعالية كبيرة جعل من أتى بعده من الأمراء الأمويين يستمرون في الاهتمام بالأسطول وتطويره وزيادة عدد قطعه ورجاله.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٥.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٦.

ثورات المولدين

على ان أهم ما جابه الأمير محمد والذي أخذ منه جل اهتمامه وشغله طيلة فترة حكمه على استطالتها كان العلاقة مع فئة المولدين والتي اتخذت دوماً شكلاً دموياً عنيفاً. من هم هؤلاء المولدون؟ وما هي أصولهم؟

المولدون:

اعتاد الأندلسيون أن يطلقوا على جماعة الإسبان النصارى الذين يعتنقون الإسلام المسالمة أو الأسالمة. وأكثر ما نجد هذا اللفظ في المصادر العربية القديمة وفي سنوات الفتح الأولى. في النصف الأول من القرن الثامن للميلاد كان المسالمة يشكلون طبقة خاصة وافرة العدد. ذلك انه بعد أن استقر الحكم للمسلمين ظهرت في الأندلس حركة أسلمة واسعة النطاق ومتزايدة القوة. إن سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون تجاه سكان البلاد الأصليين دفعت الكثيرين من هؤلاء لاعتناق دين الفاتحين الجدد إما عن إيمان وقناعة أو سعياً وراء مصالح خاصة وتقرباً من السلطان والدولة. وعلى الرغم من ان المسلمين في بداية عهدهم لم يكرهوا أحداً من الإسبان على ترك عقيدته كما لم يحاولوا نشر الإسلام بالقوة نظراً لما كانت تأمر به الشريعة الإسلامية من احترام لأهل الكتاب، إلا أن الكثيرين من النصارى اعتنقوا الإسلام باعتبار انهم كانوا بذلك يحصلون على مكانة مساوية لمكانة المسلمين سادة البلاد. وعلى كل فإن جميع الذين اعتنقوا الإسلام في عصر الولاة وفي مطلع عهد الإمارة الأموية فعلوا ذلك طوعاً واختياراً ودون إكراه. وما تغير موقف الدولة من هذا الموضوع إلا زمن سيطرة الفقهاء أيام هشام بن عبد الرحمن الذي كان يتأثر كثيراً بدعاة الفقه المالكي مما كان يدفعه أحياناً لإظهار بعض التزمت حيال النصارى الإسبان والتشدد في السياسة الضرائبية حيالهم. وكان لهذه السياسة على قصر الفترة التي اعتمدت فيها أثر في دفع أعداد كبيرة من النصارى لاعتناق الإسلام. إلا أن هذه المحنة زالت بزوال عصر تسلط الفقهاء بعد القضاء على ثورتهم المعروفة بثورة الربض زمن الحكم الأول.

أبناء الأسالمة والذين كانوا يشكلون الجيل الثاني من الإسبان المسلمين عرفوا باسم «المولدين» في كل المصادر العربية القديمة. والواقع أنه ما إن أطل عهد بني أمية حتى كانت هذه الفئة من السكان وبسبب الانتشار المتزايد للإسلام تشكل الأغلبية بين أهالي إسبانيا الإسلامية، وبصورة خاصة في المدن والحواضر الكبرى مثل أشبيلية وسرغوسة وطليطلة التي ظلت وحتى سقوطها بيد الملك ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥ تشكل أكبر مركز لتجمع عنصر المولدين وكذلك المستعربين. وربما لهذا السبب حافظت هذه المدينة على النزعة القومية الإسبانية عند سكانها رغم تغير عقيدة أكثرهم. والواقع أن عاصمة القوط القديمة بقيت دوماً مركزاً ناشطاً لحركات التمرد والاضطراب ضد سلطان قرطبة وموطناً للنزعات الانفصالية والميول الوطنية الاستقلالية. وكذلك في أشبيلية تجمعت أعداد كبيرة من المولدين عملوا في التجارة والزراعة وجمعوا ثروات كبيرة مكنتهم من الحصول على مراكز ممتازة في الحكم والإدارة وفي المجتمع الأندلسي.

لقد أخذ المولدون بصورة عامة بدين الفاتحين وتعلموا لغتهم وبرعوا فيها واكتسبوا عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم وأساليبهم في العيش والسياسة والإدارة. ومع تقدم الزمن وكثرة التزاوج والاختلاط بين مختلف عناصر المسلمين تخلى المولدون عن الكثير من ذكريات تاريخهم القديم وعاداتهم الموروثة من المجتمع القوطي. وكثيراً ما رأينا بعض هؤلاء، تقرباً من الحكام. أو على سبيل التباهي يدعون لأنفسهم نسباً عربياً قديماً أو شرقياً. وعلى سبيل المثال نشير إلى ان الأديب والفقيه والمفكر ابن حزم كان يدعي انتسابه إلى عائلة فارسية عريقة مع انه كان من المعروف والشائع والمؤكد انه من أصل إسباني وضيع ومن أهالي وسكان مدينة لبلة في الأندلس.

إلا ان الظاهرة الهامة في حياة المولدين هي إصرارهم على التمسك بشخصيتهم المميزة لهم وعدم التنكر لقوميتهم الإسبانية بالرغم من شدة تمسكهم بإسلامهم ومن عمق وأصالة استعرابهم. وكانت هذه النزعة تهدأ وتختفي في

الفترات التي كانت الدولة تنتهج فيها سياسة حكيمة متسامحة وعادلة تجاه مختلف عناصر السكان، ومتى ضعفت الدولة وظهرت الغطرسة العربية عند أبناء الأرستقراطية الحاكمة استفاقت النزعة القومية عند المولدين وتفجرت في حركات ثورية وفي اضطرابات لعل أبرزها ثورات طليطلة المتلاحقة وثورة عمر بن حفصون التي ستشغل الدولة أكثر من نصف قرن.

وتمسك المولدين بقوميتهم يظهر بصورة واضحة في محافظتهم على لغتهم الرومانسية وهي عبارة عن لاتينية عامة إلى جانب العربية التي اتقنوها وأجادوها. وما كانوا يكتفون بتعلم الرومانسية بل إنهم عملوا على نشرها بين مختلف فئات السكان كلغة ثانية للبلاد. وقد شاعت هذه اللغة حتى صار من السائد، والمألوف بين فئات المثقفين وكبار الموظفين سواء أكانوا من أصل إسباني أو عربي أو بربري تعلم هذه اللغة. ومن المعروف ان قضاة أندلسيين كانوا يتحدثون مع الناس حتى في محاكمهم وفي المساجد باللغة الرومانسية التي كانوا يحسنونها.

وكما ادعى بعضهم لنفسه لقباً عربياً أو شرقياً، فإن كثيرين من المولدين تمسكوا بألقابهم السابقة لإسلامهم وحملوا أسماء تدل بوضوح على نسبهم الإسباني القديم مثل بني موسى بن فرتون، وبني مردنيش، وبني غرسية، وبني ردلف، وبني أنجلين. وكثيرون منهم استعملوا في كتابة اسمائهم الأسلوب الإسباني القديم في التكبير والتفخيم فصاروا يضيفون المقطع الإسبانيUn أون، لآخر اسمائهم فتصبح حفصون وعبدون وزيدون.

وهكذا نرى ان المولدين شكلوا عنصراً خاصاً ضمن المجتمع الإسلامي إذ أخذوا من المسلمين اللغة والدين والعادات والتقاليد وحافظوا على شيء من نزعة قومية إسبانية وتمسكوا ببعض التراث الإسباني القديم مما جعلهم فئة مميزة في الأندلس. وكانت النزعة القومية عندهم بارزة لدرجة رأيناهم أكثر من مرة يحملون السلاح إلى جانب النصارى المستعربين ضد سلطات قرطبة خاصة في الفترات التي كانوا يتعرضون فيها للأذى أو للاضطهاد على يد الأرستقراطية العربية.

ثورات طليطلة:

كان على الأمير محمد أن يواجه وبعد أيام قليلة من تسلمه الحكم ثورة أهالي طليطلة الذين رفعوا بوجهه لواء التمرد والعصيان واحتجزوا عامل المدينة آنذاك حارث بن بزيع، بعد أن هزموا حاميتها. طلب الثائرون مقابل الإفراج عن الحاكم الأسير أن يأمر أمير قرطبة بتحرير عدد من الرهائن الطليطليين كان قد احتجزهم أبوه عبد الرحمن لضمان استمرار هدؤ عاصمة القوط القديمة واستكانة أهلها. وهكذا تكون طليطلة قد واجهت الأمير محمد بما اعتادت أن تقابل به حكام الأندلس الأمويين من تمرد وعصيان يساعدها في ذلك موقع استراتيجي ممتاز، وحصانة طبيعية وما كان يصب فيها باستمرار من تيارات معادية لدولة الإسلام في الأندلس آتية من الشمال الإسباني، وأيضاً مما كانت ترسله إليها فئات الإسبان المسلمين (المولدين) من شكاوى وتذمر سببها تسلط العرب على أمور الحكم في أرض هم عنها غرباء. وما أطلق الثائرون سراح الحاكم إلا بعد أن حل الأمير رهائنه وتركهم يغادرون العاصمة.

ومع بداية صيف العام التالي ٨٥٣ م (٢٣٩ هـ) ندب أمير قرطبة شقيقه الحكم على رأس صائفة لتأديب الثائرين. وكان هؤلاء قد أغاروا على قلعة رباح وخربوها وطردوا جل سكانها لموالاتهم حكومة قرطبة. استعاد الأمير الحكم قلعة رباح وأمر ببنيان سورها واسترجاع من فر من أهلها إليها[1]. إلا ان شرذمة من جنود الأمير تعرضت لكمين نصبه لها المتمردون فهزموها وقتلوا كثيرين من جنودها. عاد الأمير الحكم إلى العاصمة وظل المتمردون على عصيانهم ينزلون الاضطراب في أحواز طليطلة ويهاجمون الجنود والحاميات الموالية للأمير كلما أمكنهم ذلك.

في سنة ٨٥٤ م (٢٤٠ هـ) عزم الأمير محمد على أن يرأس بنفسه صائفة كبيرة لإخضاع طليطلة نهائياً. وجعل الأمير جيشه كبيراً في حجم خطورة تمرد

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٢.

أهالي طليطلة من مولدين ومستعربين، الذي استفحل وطال واستشرى في منطقة الثغر. وما تردد الثائرون في التحالف مع جيرانهم نصارى الشمال فاتصلوا بملك أستورياس أردونيو الأول وطلبوا منه العون والمساعدة فأمدهم بجيش كبير يقوده أحد أقربائه ويدعى غاستون[1] Gaston . وحين تأكد الأمير محمد من اتصال الثائرين بملك ليون وحصولهم على دعمه زاد تصميمه على إخضاعهم واستدعى مزيداً من الجند والفرسان. وقبل أن يصل إلى المدينة وضع ونفذ خطة عسكرية دقيقة ومحكمة. ذلك انه ترك قسماً صغيراً من جيشه يعبر الطريق التقليدية القديمة إلى طليطلة عبر وادي سليطGuazalete بينما وزع باقي جنوده وراء التلال والمرتفعات المحيطة بالوادي بحيث يرون ولا يراهم أخصامهم. فلما رأى أهل طليطلة قلة من يعبرون الوادي إليهم من جنود الأمير هاجموهم ومعهم حلفاؤهم النصارى. «فلما التقى الجمعان خرجت الكمائن عن يمين وشمال. . . فانهزم المشركون وأهل طليطلة وأخذتهم السلاح هذاً بالسيوف وطعناً بالرماح»[2]. وكانت معركة رهيبة سجل فيها الأمير محمد أحد أكبر انتصارات عهده العسكرية وقتل من أعدائه عشرين ألفاً، اثني عشر ألفاً من جنود طليطلة وثمانية آلاف من حلفائهم الإسبان، على ما تروي المصادر الإسلامية. وأرسل الأمير المنتصر رؤوس بعض القتلى من مقدمي الثائرين وحلفائهم إلى الحواضر والمدن الكبرى الأندلسية وأيضاً إلى مناطق السواحل وإلى المغرب لتكون عبرة لمن يفكرون بالثورة والتمرد.

إلا أن هذه الهزيمة، على قساوتها ما قضت على عصيان طليطلة وأهلها ولا جعلت هؤلاء يجنحون نحو السلم والمهادنة بل إن الدعاية ضد الأمويين والحقد عليهم كانا في تزايد مستمر بصورة خاصة بسبب وجود، زعيم المستعربين آنذاك أولوخيو في المدينة، ينفث في أهلها كل ما كان من حقد في صدور الفئات

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٢.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٢.

المحافظة والمتشددة من المستعربين، ضد دولة الإسلام في الأندلس. أرسل الأمير محمد ابنه في صيف سنة ٨٥٦ م (٢٤٢ هـ) «بالجيوش إلى طليطلة فحاصرها وأقام عليها ينسف معايشها»[١] دون أن يتوصل لإخضاعها. وفي السنة التالية عندما أقدم الثائرون على مهاجمة مدينة طلبيرة تصدى لهم عاملها مسعود بن عبد الله العريف فردهم عنها وهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً أرسل من رؤوسهم سبعماية رأس إلى سيده أمير قرطبة[٢].

وفي سنة ٨٥٨ م (٢٤٤ هـ) وكان قد نفذ صبر الأمير على عصيان طليطلة بمستعربيها ومولديها، وبما يمكن أن يكون لذلك من ردود فعل خطيرة عند أبناء هاتين الفئتين في سائر بلاد الأندلس، فصمم على حسم هذا الأمر مهما كانت التضحيات والمحاذير. خرج بنفسه على رأس جيش كبير عازماً على أن لا يعود إلا منتصراً. وهنا لا بد من الإشارة إلى انه بالمقابل كانت قد استنفذت طاقات الثائرين وقدراتهم لكثرة ما أهرق في الهزائم المتوالية من دماء شبانهم ولما هلك من ثرواتهم ولما حل بهم من مصائب ونكبات فما عادت هزيمتهم النهائية مستحيلة ولا حتى صعبة المنال. ألقى الأمير محمد الحصار على المدينة، حين وصل إليها، ومنع عنها كل مدد من الخارج وانتشر هو وجنوده على التلال والمرتفعات المحيطة بالمدينة على الضفة الثانية لنهر التاج. وحين مل الثائرون الحصار وقلت مؤنهم وأغذيتهم عزموا على الخروج والمبادرة بالقتال مهما كانت النتيجة. وكان فعلاً خروج يأس وقنوط أكثر مما كان مبادرة شجاعة وإقدام. وما كان لطليطلة من طريق للعبور إلى التلال المحيطة بها سوى القنطرة الكبيرة التي تعلو نهر التاج فعبرتها مقاتلتهم. وكان الأمير، منتظراً هكذا عبور، قد أمر قبل ذلك المهندسين المرافقين له بأن يزعزعوا القنطرة (الجسر). وبالفعل ما تحملت جموع الثائرين العابرين عليها فانهارت بهم وقتل وغرق خلق عظيم منهم[٣]. ما اكتفى الأمير

(١ - ٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٤.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٤٤.

بذلك بل أرسل جنده يخربون ويدمرون كل مظاهر الحياة في أحواز طليطلة كما في داخلها. عند ذلك عمد من بقي حياً من وجهاء المدينة ومقدميها لطلب الأمان فأعطاه لهم الأمير وظلوا على خضوعهم واستكانتهم مدة عشر سنوات شغلوا فيها بآثار ما نزل بساحتهم من كوارث بشرية واقتصادية.

وحين عادوا للثورة بعد ذلك سنة ٨٧٥ م (٢٥٩ هـ) ما اكتفى الأمير بأن خرج إليهم بنفسه، وأخضعهم وأذلهم بل أخذ منهم رهائن كثيرة، وفرض عليهم، ضريبة إضافية يؤدونها سنوياً لخزانة الدولة[1] مما أرهق اقتصادهم وأعجزهم ولمدة طويلة عن أي تحرك أو عصيان.

ثورات بني قسي:

ذكرنا سابقاً إن موسى بن موسى بن قسي زعيم منطقة الثغر الأعلى، والذي يعود في أصله إلى عائلة إسبانية مسيحية وجيهة ونبيلة، قد عاد في أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الثاني إلى الولاء لحكومة قرطبة والتعاون معها واستمر على ذلك في أيام الأمير محمد الذي كلفه بأكثر من مهمة عسكرية صعبة. إنما بالمقابل كان دائماً حريصاً على سلطاته، راغباً في أن لا تتحرك قرطبة في مناطقه إلا من خلاله وعبر جيوشه يسعى دوماً لمد سلطانه في مناطق الثغر الأعلى التي كان جل سكانها من المولدين مثله. لقد كان حقاً زعيم المولدين في تلك المناطق دون منازع، يقيم العلاقات الدائمة مع جيرانه الملوك النصارى وبصورة خاصة مع البيت المالك على البشكنس (نبرة) ويرتبط معه بأكثر من رابطة زواج، فإحدى بناته كانت زوجة للملك غرسية. ومع إن هذه العلاقات ما كانت ترضي قرطبة كثيراً ولا كانت توحي لها بالكثير من الاطمئنان إنما ما كان يريحها بعض الشيء كون بني قسي كانوا شديدي الولاء للإسلام وبالقدر الذي تسمح لهم به وطنيتهم الإسبانية، وكانوا يأخذون على عاتقهم وبجد وكفاءة حماية دولة الإسلام في الأندلس عند حدودها

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٥٢.

الشمالية الشرقية مع الإسبان النصارى. وعند وفاة موسى بن موسى شعرت حكومة قرطبة بأن الأمور مع أبنائه قد لا تستمر كما كانت معه خاصة وإن هؤلاء كانوا كثيري العدد وعلاقاتهم بجيرانهم وأقاربهم النصارى كانت أوثق مما كان على عهد أبيهم. ومما كان يخيف حكومة قرطبة كون سلطان بني قسي كان آنذاك قد اتسع ليشمل حواضر إسلامية هامة مثل سرغوسة ووشقة وتطيلة. وعلى هذا عزم الأمير محمد على أن يحكم تلك الديار مباشرة وليس عبر مراكز قوى محلية فعين لها حكاماً أكثر ارتباطاً بالأمير وأوثق صلة بحكومة قرطبة إنما من المولدين في أكثر الحالات وذلك لإيجاد إمكانية حقيقية لتعاون السكان معهم. ويبدو ان هذا التدبير ما كان حكيماً، ذلك إن أبناء موسى بن موسى بن قسي إسماعيل ومطرف وفرتون ما ترددوا في التحالف مع جيرانهم وأقاربهم ملوك الإسبان النصارى لإحكام قبضتهم على القواعد الشمالية التي طالما كان يسيطر عليها بنو قسي. وحتى أولائك الحكام الذين عينهم الأمير محمد لثقته بهم والذين كانوا من المولدين ما كانوا أكثر ولاء لسلطان قرطبة ولا كانوا أقل تحسساً بالوطنية الإسبانية من غيرهم من الإسبان المسلمين فرأينا على سبيل المثال سليمان بن عبدوس يثور في مدينة سورية من أعمال سرقطة وعمروس بن عمرو بن عمروس يثور في مدينة وشقة. هذا الواقع جعل منطقة الثغر الأعلى شديدة الاضطراب كثيرة الثورات يسيطر عليها المتمردون والمغامرون. وقد أرسل الأمير محمد العديد من الصوائف إلى تلك الديار وقاد بعض الحملات بنفسه وحقق أكثر من انتصار. إنما من المؤكد ان المنطقة ما استمرت هادئة ولا استعادت قرطبة سلطانها على كل مناطق وحواضر الثغر الأعلى طيلة أيام الأمير محمد خاصة وان سادة الممالك الإسبانية الشمالية كانوا دوماً على استعداد لإحباط كل محاولة جدية تبذلها حكومة قرطبة لمد سلطانها على جميع مناطق الثغر الأعلى ذات الأهمية العسكرية القصوى للفريقين.

ثورة عبد الرحمن الجليقي:

إذا كانت مناطق الثغور المحيطة بطليطلة ومنطقة الثغر الأعلى، في شمال

شرق الأندلس قد شغلت الأمير محمد سنوات طويلة دون أن يتوصل بصورة نهائية ودائمة إلى إخضاعها والقضاء على عناصر الفرقة والانفصال فيها فإن مناطق الثغر الأدنى المحيطة بمدينة ماردة العريقة ما لبثت أن سارت في الركب ورفعت لواء الثورة والعصيان. ودون الدخول في تفاصيل خلاف أهلها مع سلطات العاصمة يكفي أن نشير إلى ان سكانها كباقي سكان مناطق الثغور كان جلهم من فئة المولدين والمستعربين، وشكوى هؤلاء في الأندلس كلها واحدة سبق أن أشرنا إليها بالتفصيل.

وترتبط ثورة مناطق الثغر الأدنى بشخصية ثائرة متمردة مغامرة تعرف باسم عبد الرحمن الجليقي. وعبد الرحمن هذا هو ابن مروان بن يونس الذي كان حاكماً من قبل الأمير عبد الرحمن الثاني على مدينة ماردة وبقي كذلك حتى قتله سكان المدينة سنة ٨٢٨ م (٢١٣ هـ). وقد أظهر طيلة حياته ولاءً شديداً لحكومة قرطبة وإخلاصاً كبيراً لشخص الأمير الأموي ولعائلته الحاكمة. وينتمي مروان وابنه عبد الرحمن إلى عائلة من المولدين ذات عراقة ووجاهة من منطقة جليقية (في شمال البرتغال الحالي بالذات) استقرت منذ أمد طويل في مدينة ماردة. وغلب اسم «الجليقي» نسبة إلى جليقية على كنية أفراد هذه العائلة. ويبدو ان عبد الرحمن الجليقي كان في أوائل أيام الأمير محمد على صلة به وعلى ولاء لدولته كما يخبرنا ابن القوطية إذ يقول إنه «كان في جملة الحشم»[1]. إنما ما لبث أن استسلم لنوازع الفرقة والانفصال وتغلبت عليه طموحاته الشخصية وعواطفه الوطنية الإسبانية فجنح إلى الابتعاد عن سلطات قرطبة وانخرط في أوساط الخارجين على الدولة وما كانوا قليلي العدد في أوساط المولدين في مناطق الثغور. وكان أول ظهور علني في مواجهة الإمارة الأموية، حين قاد بعض عناصر المولدين والمستعربين وانتزى بمدينة ماردة حيث كان يقيم معظم أفراد عائلته، في سنة ٨٦٨ م (٢٥٤ هـ). ولم يمهل الأمير محمد، الذي عانى الكثير من ثورات وعصيان المولدين، الجليقي

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٠٦.

المتآمر، كثيراً إذ سار بنفسه على رأس جيش كبير متظاهراً بأنه يقصد طليطلة وذلك لكي لا يترك للمتمردين فرصة الحصول على العون والمساعدة من متمردين آخرين من المولدين. نزل بصورة مفاجئة في جوار مدينة ماردة وألقى حصاراً شديداً عليها. ولما كان أهلها غير مستعدين فعلاً لمجابهة هكذا جيش كبير وللصمود لحصار قد يطول فقد أذعنوا للأمير وطلبوا الأمان. وفعلاً دخل الأمير محمد مدينة ماردة وهدم أسوارها ولم يبق من تحصيناتها سوى القصبة ليقيم فيها عامل المدينة ومساعدوه. وقبل مغادرتها عين عليها سعيد بن عباس القرشي وأخذ معه إلى طليطلة عبد الرحمن الجليقي[1] وكبار أتباعه.

أقام ابن مروان الجليقي حوالي سبع سنوات قرب الأمير في قرطبة وشارك في بعض حملاته إلى أن تحركت في ذاته نوازع العصيان والخروج، إذ يبدو انه كان له «من العقل والكيد والبصر بالشر بحيث لا متقدم له فيه». استغل خلافاً شخصياً حصل بينه وبين أحد وزراء الأمير محمد، القائد هاشم بن عبد العزيز، فهرب مع بعض أتباعه ونزل في منطقة غرب شبه الجزيرة الإيبرية. اختار حصناً قوياً، يدعى قلعة الحنش على بعد حوالي عشرين كيلومتراً جنوب شرق مدينة ماردة، اتخذه مقراً له. وما تجرأ على احتلال مدينة ماردة بالذات لأن عاملها آنذاك كان على استعداد تام لمواجهته ولمعرفته بأن الأمير محمد لن يتساهل معه في هكذا أمر نظراً لأهمية المدينة.

ومع هذا فإن الأمير محمد ما تغافل إطلاقاً عن تمرد ابن مروان الجليقي فخرج بنفسه على رأس جيش كبير ألقى حصاراً على القلعة ومن فيها. شدد الأمير على الثائر «وحاصره حصاراً قطعه وضيق عليه مدة من ثلاثة أشهر ألجأه فيها إلى أكل الدواب، وقطع عنه الماء ورماه بالمجانيق حتى أذعن وطلب الأمان، وشكا ثقل الظهر وضيق الحال»[2].

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٥٠.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٥٣.

لم يسيء الأمير محمد إلى الثائر ابن مروان ولم يعاقبه وأيضاً لم يعده إلى قرطبة إنما سمح له بالإقامة في مدينة صغيرة في الغرب هي بطليوس وأخذ بعضاً من مقربيه كرهائن. إنما كل ذلك ما منع «الجليقي» من العودة بعد أشهر قليلة إلى إعلان العصيان والتمرد، وابتنى في بطليوس التي ما كانت أكثر من قرية كبيرة حين حل فيها، حصناً وجعله موطناً وأدخل فيه أتباعه وأنصاره من أهل ماردة. لهذا أرسل الأمير محمد في سنة ٨٧٦ م (٢٦٢ هـ) صائفة كبيرة بقيادة ابنه الأمير منذر ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز[١] الخصم العنيد للثائر ابن مروان. في هذه الأثناء كان ابن مروان قد قوي واشتد ساعده بتحالفه مع ثائر آخر من المولدين يعرف باسم سعدون السرنباقي كان على صلة وثيقة بملك أستورياس ألفونسو الثالث الذي خلف أباه أردونيو الأول. ومن هنا حينما وصلت إلى أراضيه جيوش الأمير منذر ما كان ضعيفاً وإنما كانت إلى جانبه جيوش السرنباقي وبعض الفرق التي أرسلها إليه الملك الإسباني ألفونسو الثالث. وفي معركة جرت جنوبي بطليوس في منطقة وعرة شديدة التضاريس كثيرة الأودية والمرتفعات، أحسن السرنباقي توزيع قواته فيها، حلت بجيش قرطبة هزيمة كبيرة ووقع القائد هاشم ابن عبد العزيز بالأسر. وقد أرسل القائد الأندلسي إلى مدينة أفيدوOviedo حيث بقي أسير ملك ليون مدة طويلة قبل أن يفتدى بمبلغ كبير من المال[٢].

واستمر بعد ذلك الأمير محمد في ملاحقة ابن مروان دون كلل أو ملل مدة عامين أنفض خلالها كثيرون من أنصار الثائر عنه وشعر بصعوبة الصمود واستحالة الانتصار فترك مناطق الغرب وذهب ليعيش في حمى صديقه وحليفه ألفونسو الثالث مدة تقرب من الثماني سنوات.

في سنة ٨٨٤ م (٢٧١ هـ) عاد ابن مروان إلى بطليوس أثر خلاف مع الملك الإسباني إلا أن الأمير المنذر ما لبث أن طرده منها فاتخذ من أحد حصون

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٥٣.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٠٨.

وادي يانة Guadiana ويدعى أشيرغرة[1] Esparragosa مقراً دائماً له ينشر منه الدمار والتخريب منتقلاً من منطقة لأخرى مع حليفه السرنباقي لا يستقر في مكان واحد لكي لا يعطي السلطة فرصة محاصرته وإنهاء تمرده. بذلك فشت حركته وصار زعيم المولدين في الغرب[2] وسطا على مناطق واسعة ووصلت غاراته حتى أحواز أشبيلية واستولى على حصن طلياطة الهام والمجاور لها[3]. ولما فشلت أكثر من محاولة لإخضاعه، وكان الأمير محمد قد مل القتال والحرب وتعب حتى من الحياة وبات على أبواب الرحيل إلى العالم الآخر، تركه يحكم في بطليوس وما إليها من المناطق على أن يكون في حزب الإسلام[4]. والواقع ان استقلال هذه المناطق عن سلطان العاصمة سيدوم طويلاً لكون أحداث هامة جداً ناتجة عن ثورة مولد آخر يدعى عمر بن حفصون ستأخذ كل وقت وجهد الأميرين المنذر وعبد الله اللذين سيخلفان الأمير محمد.

ثورة عمر بن حفصون:

في السنوات الأخيرة من عهد الأمير محمد تردى الوضع الأمني في الإمارة الأموية بشكل خطير. فمناطق الثغر الأعلى، بما في ذلك الحاضرة الإسلامية الكبيرة سرغوسة، كانت ترفع أكثر من لواء للتمرد والبعد عن سلطان قرطبة برعاية وريادة آل قسي من المولدين. ومناطق الثغر الأدنى كان يصول ويجول فيها ابن مروان الجليقي، متذرعاً بموافقة حصل عليها بشكل أو آخر من الأمير للاستقلال بأموره، ضمن حدود الولاء لحزب الإسلام، وإن لم يتقيد كثيراً بتلك القيود. وفي منطقة الثغر الأوسط كانت هناك طليطلة، التي ما غفرت في يوم من الأيام للعرب كونهم أخذوا منها مكانتها كعاصمة لشبه الجزيرة الإيبرية، ترفع بصورة مستمرة

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٧، صفحة ٤١٦.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٠٨.

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٠٨.

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٠٨.

بيرق العصيان والثورة، وإذا ما اضطرت يوماً وأنزلت هذا العلم عن أبراج أسوارها المرتفعة فما ذلك إلا للاستعداد لنشره بصورة أقوى وأفعل.

إلى كل ما ذكرنا أخذ الأمير يواجه تحركاً شديد الخطورة لكونه يتمركز في الجنوب وفي مناطق كان سكانها بصورة شبه كاملة قد تحولوا إلى الإسلام. ولعل أخطر ما في هذا التحرك كونه جاء يعبر عن خيبة أمل ونقمة أولائك الإسبان الذين مع تحولهم إلى الإسلام ما استطاعوا إلا أن يحافظوا في الوقت نفسه، في أعماقهم على ولاء عظيم لقوميتهم الأصلية وعنصرهم وبلدهم. بدأ المولدون في أواخر عصر الأمير محمد في الجنوب يظهرون بصورة متزايدة رفضهم لسياسة الدولة الضرائبية، وأيضاً لهيمنة السلطة المركزية في قرطبة وأسيادها من العرب. وأكثر ما ظهرت علامات القلق والرفض في مقاطعتي تاكرنا ورية Reyyo حيث بدأت السلطات المحلية تعجز عن ضبط الأمن خاصة منذ تزعم أحد المولدين ويدعى الجزيري في سنة ٨٧٩ م (٢٦٥ هـ) فتنة قوي شرها واستطار[1]. صحيح إن الوزير هاشم بن عبد العزيز قد قضى على تحرك الجزيري وأسره وحمله إلى العاصمة قرطبة. إلا إن الصحيح أيضاً والواقع ان أسباب النقمة على الحكم الأموي والرغبة في التخلص من قبضة العاصمة القوية أو إضعافها على الأقل ما كانتا إلا في تزايد مستمر. وقد ظهر ذلك بوضوح حين تزعم بنو رفاعة تمرداً جديداً في حصن الحامة الهام بين غرناطة ومالقة. على ان معارضة أبناء الجنوب الأندلسي لقرطبة وسيدها ستأخذ أبعادها الحقيقية والخطيرة فعلاً مع ظهور الثائر المغامر عمر بن حفصون وتصديه لزعامة وريادة هذا التيار الرافض ومنذ ذلك الوقت واجه الأمويون أخطر تحد رفع بوجههم طيلة عصر الفتنة والتمزق. ومن هنا كان تعريف ابن حيان لهذا الثائر في حديثه عن عصاة عصر الفتنة والتمزق بقوله: «إمامهم وقدوتهم، عمر بن حفصون، أعلاهم ذكراً في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطاناً، وأعظمهم كيداً، وأبعدهم

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٥٥.

قوة». إلا أن ثورة ابن حفصون كانت قطعاً أكثر بكثير من تمرد ثائر عادي أو عبث مفسد في الأرض كما اعتاد أن يصوره المؤرخون المسلمون. لقد كان عمر بن حفصون، في أقواله كما في أفعاله يعبر فعلاً عن عواطف وأماني وشكاوى كل تلك الفئات من الإسبان المسلمين والنصارى، على السواء، وأيضاً البربر التي قبلت زعامته والتحقت بثورته وحاربت تحت لوائه وقدمت التضحيات العظيمة في الأرواح كما في الأموال مما جعل هذه الثورة تنتشر على نطاق واسع وتصل في أكثر من مرة بسلطانها إلى مشارف العاصمة وتهدد ركائز الدولة لمدة تقرب من نصف القرن. لقد جاءت ثورة ابن حفصون تعبيراً عنيفاً عن رفض الإسبان لسياسة بني أمية القائمة على تفضيل فئة ضئيلة من العرب، الدخلاء على الأرض الإسبانية، على سائر السكان. وكانت أيضاً وفي الوقت نفسه بمثابة احتجاج على فئة من الحكام عملت على نشر دين جديد بين الإسبان يعد من يؤمنون به بالكثير الكثير من أسباب العدل والمساواة والحرية مما كانت الفئة الحاكمة باسم هذا الدين والرافعة للوائه تمنعه عنهم في أكثر الحالات.

يعرف المؤرخ ابن حيان هذا الثائر بقوله إنه: «عمر بن حفصون المعروف بحفص بن عمر ابن جعفر بن شتيم بن ذبيان بن فرغلوش بن أذفونس»[1]. فهو من عائلة إسبانية غير قديمة في إسلامها إذ اعتنق هذا الدين أحد أبنائها جعفر المعروف باسم «جعفر الإسلامي» على أيام الأمير الحكم الأول، جد الأمير محمد. أصل العائلة من رندة، من كورة تاكرنا، ثم نزلت أيام الجد جعفر في طرجيلة[2] Torrecilla بكورة رية Reyyo حيث ولد له حفصون الذي أنسل بدوره عمر[3]. ويبدو ان هذه العائلة كانت قبل أن تتحول إلى الإسلام على شيء من الوجاهة

(١) دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول ـ القسم الأول، عنان، صفحة ٣٠٤.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٥٨.
(٣) معجم البلدان، ياقوت، جزء ٤، صفحة ٢٧.
(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، جزء ٤، صفحة ٣٨.

والغنى. وفي ظل دولة الإسلام في الأندلس مارس حفصون الزراعة بنجاح وعاش مع أولاده في بحبوحة جعلته بارزاً ومقدماً في محيطه. وفي رعاية حفصون هذا نشأ وترعرع عمر الثائر. بدا منذ مطلع شبابه شرساً، عاتياً مشاكساً «لم يمسك من حين كان عن أحد ممن ناظره، ولا سكت عن أقبح ما يمكن من السب لمن عاتبه، وإنه قتل أحد جيرانه على سبب يسير دافعه عنه»[1]. هذه الجريمة، دون سبب أو مبرر معقول، دفعت والداه للهرب به من حيث يقيمان واللجوء إلى الإقامة بعيداً عند أقدام جبل ببشتر لينقذاه من عقاب السلطة. إلا أن هذه الممارسة أكدت على كل حال وجود ميول إجرامية عند هذا الشاب الغريب الأطوار. وهناك في هذه المنطقة الجبلية، الوافرة التضاريس، جمع حوله بعض الشطار وعشراء السوء والخارجين على القانون وتفرغ لأعمال السلب والسطو على القوافل ونهب المزارع والبيوت. وقع بيد العدالة لجرم من هذا النوع فاكتفى عامل رية من تأديبه بضربه بالسياط[2] لجهله بما كان له من سابقة في الإجرام. ولما ما وجد عند والديه الحماية بعد ذلك عبر البحر إلى المغرب ونزل في مدينة تاهرت حيث عمل عند خياط من الأندلس يعرفه كان يقطن تلك المدينة. إلا ان إقامته هناك ما طالت كثيراً لأسباب غير واضحة، فإما إنه مل العمل وهو الذي اعتاد حياة البطالة والتشرد أو إنه خاف أن تكتشف السلطات أمره وتسلمه إلى حكومة الأندلس التي كانت على صلة ممتازة بها. ويعطينا كل من ابن القوطية[3] وابن الخطيب[4] سبباً آخر لعودته يربطانه بنبؤة سمعها في تاهرت جعلته يعود مسرعاً إلى بلده. تقول النبؤة «فجاوز البحر إلى تيهرت، فصار فيها عند رجل من الخياطين كان أصله من رية، وكان يخيط عنده، فبينما هو جالس في حانوته إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه... فسمع الشيخ كلام ابن حفصون، فأنكره عند الخياط فقال له: من هذا، فقال: غلام من

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، جزء ٤، صفحة ٣٩.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٠٩.

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٠٩.

(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة، جزء ٤، صفحة ٣٩.

جيراني برية أتى ليخيط عندي، فالتفت الشيخ إليه فقال له: متى عهدك برية، فقال له: منذ أربعين يوماً، قال: تعرف جبل ببشتر، فقال له: أنا ساكن عند أصله، قال له الشيخ: فيه حركة؛ قال: لا، قال: قد أذهله ذلك، ثم قال: هل تعرف فيما يجاوره رجلاً يقال له عمر بن حفصون، فذعر من قوله، وأحدَّ الشيخ النظر إليه... فقال له: يا منحوس تحارب الفقر بالإبرة، إرجع إلى بلدك فأنت صاحب بني أمية، وسيلقون منك غياً، وستملك ملكاً عظيماً». هذه الرواية على علاتها وردت على لسان بعض أعاظم مؤرخي الأندلس فإذا صحت فلا بد إن الشيخ كان يعرف مسبقاً شخصية عمر بن حفصون ويعرف ما عنده من روح عدوانية مشاكسة فأراد دفعه إلى جنوب الأندلس حيث يمكنه أن يكون مفيداً وسط ما يسود المنطقة من نقمة على الأمويين ورغبة في الثورة عليهم.

عاد ابن حفصون إلى الأندلس وحل عند عم له وأخبره بعزمه على ريادة ثورة فجمع من أحداثه نحو الأربعين رجلاً[1] كلهم من أهل الشر والفساد فنظمهم وضبط أمورهم وانتشروا في الجبل فسيطروا عليه واتخذ ابن حفصون مقراً له بقايا حصن روماني قديم[2] يعلو قمة الجبل. كان الحصن يعلو مرتفعاً شاهقاً مما يعطيه حصانة قوية تضاف إلى كونه يشرف على السهل الواسع الممتد أمامه حتى العاصمة قرطبة[3]. تفرغ ابن حفصون مع أنصاره لأعمال قطع الطرق والسلب والاعتداء على المزارعين، فقوي واشتد ساعده لضعف السلطة وعجزها عن حماية مواطنيها، وأيضاً عن فرض الأمن على مسالكها ودروبها. ومع الوقت تزايد عدد أنصاره إذ أقبل إليه كل هارب من الشرطة وخارج على الأمن أو راغب في الكسب السهل السريع وحياة التشرد والمغامرة، وما كان أمثال هؤلاء قلة في ذلك الوقت. وعلى الرغم من سمعته السيئة وممارسات أتباعه الإجرامية فإن عواطف السكان

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١١٠.

(٢) Historia de Los Muslumanes de Espana, Dozy, T.I, p. 308.

(٣) Historia de Los Muslumanes de Espana, Dozy, T.I, p. 308.

المحيطين بجبله كانت تميل إليه لكونه أولاً من المولدين ولتمرده على سلطة لا يحبونها، وأيضاً لإجادته استغلال سؤ إدارة حاكم أقليم رية وتماديه في جمع الضرائب. ارتفعت مكانته بين السكان وصار بعضهم ينظر إليه على انه أكثر من رئيس عصابة وقاطع طريق حين سجل أول إنجاز مباشر له على الدولة بانتصاره في سنة ٨٥٠ م (٢٦٧ هـ) على عامل الكورة عامر بن عامر، مما جعل حكومة قرطبة تستبدله بآخر هو عبد العزيز بن عباس[1] الذي تفادى، لبعض الوقت، إثارة ابن حفصون والاصطدام برجاله.

بعد هذا الانتصار تقاطر المولدون، والمستعربون أيضاً، بأعداد متزايدة إلى الالتحاق بعصابة ابن حفصون، وزادت أمواله ووارداته مما سمح له بترميم وتدعيم حصنه المعروف بحصن ببشترBobastro وكانت غارات أتباعه وأنصاره تتوالى على مناطق ومدن أقليم رية ينشرون فيها الخراب والدمار ويربكون سلطات الأمن المحلية. وأمام فشل حاكم كورة رية المتوالي في وضع حد لنشاط هذا المغامر المتمرد، الوافر الحركة والنشاط، وأيضاً أمام ميله المتزايد لتحويل تنظيمه من عصابة إجرام وسرقة إلى ثورة وطنية، مما كان يقلق بال سلطات العاصمة ويخيفها، ندب الأمير محمد حاجبه الوزير هاشم بن عبد العزيز في سنة ٨٨٣ م (٢٧٠ هـ) على رأس حملة كبيرة لتأديب ابن حفصون وأنصاره. نجحت الحملة في أسر عمر بن حفصون مع عدد من أتباعه وأقاربه فحملتهم أسرى إلى قرطبة حيث أحلهم الأمير في ضيافته ومنحهم الرعاية وأسباب الحياة الكريمة اللائقة. وبالذات كان عمر بن حفصون موضع حماية الوزير هاشم بن عبد العزيز صاحب النفوذ الواسع في قرطبة، وأيضاً الأمير محمد الذي أشركه في حملاته العسكرية في أكثر من مناسبة. ومع انه تعامل بإخلاص مع حكومة قرطبة وبرع في الحملات العسكرية التي شارك فيها إلا انه كان يتعرض مع أنصاره لمضايقات

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٥٥.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١١٠.

كثيرة من جانب والي قرطبة محمد بن وليد بن غانم الذي كان شديد الكره للوزير هاشم ولكل من يلوذ به. يضاف إلى ذلك إن ابن حفصون كان يشعر دوماً انه، وهو في قرطبة يشبه طائراً في غير سربه، فمكانه الطبيعي هناك في جبال الجنوب بين أهله وقومه من المولدين أصحاب القضية التي تصدى لريادتها.

وفي سنة ٨٨٤ م (٢٧٢ هـ) نجح الثائر ابن حفصون في الهرب من العاصمة والعودة إلى الاعتصام في حصنه القديم ببشتر. والواقع انه ما وجد كبير صعوبة في استعادة الحصن من أيدي حاميته القوية وقائدها التجوبي. ومع إن هذا الأخير كان قد أجاد تحصين القلعة وزاد في أبراجها وقدراتها الدفاعية إلا ان من كانوا مع الثائر ومن التحقوا به فور هروبه من العاصمة من المغامرين والشطار، وأيضاً من المعارضين للدولة من مولدين ومستعربين، جعلوا من المستحيل مجرد الدفاع عنها ففر التجوبي دون أن يتمكن حتى من إنقاذ جاريته الأثيرة لديه فتركها لتصبح بعد ذلك زوجة للثائر ابن حفصون[1] القائد الجديد لحصن ببشتر. وبسرعة مذهلة وفي وقت واحد كان يتكاثر أنصاره، ويمتد نفوذه ليشمل مزيداً من الأراضي ومن الحصون والقلاع.

تعاظم حركة التمرد هذه وما كانت تثيره من ردود فعل في أوساط المستعربين والمولدين، خاصة في مناطق الحدود المجاورة لأراضي الإسبان النصارى، كما في مناطق في قلب الأندلس عرفت دوماً باستكانتها وخضوعها لسلطان بني أمية، جعل أعلام التمرد والعصيان ترتفع بصورة متزايدة في المدن والقلاع الأندلسية. ولوضع حد لهذا الوضع المتردي أرسل الأمير ولده المنذر على رأس جيش عظيم في سنة ٨٨٥ م (٢٧٣ هـ) إلى الجنوب فقصد مدينة الحامة حيث كانت ترتفع أعلام العصيان والتمرد بزعامة ابن حمدون من بني رفاعة، والذي كان متحالفاً مع ابن حفصون. حاصر الأمير المنذر الثائرين المولدين ومن معهما داخل المدينة

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١١٢.

حتى نفذت منهما المؤن وعز الماء فعزما على المغامرة بالخروج والمبادرة بالقتال. وفي معركة جرت خارج الحامة تمكن المنذر من أخصامه فقتل منهم خلقاً كثيراً بينهم ابن حمدون ذاته وأصيب ابن حفصون بجراح عديدة وشلت يده[1] وعاد ليختبىء داخل المدينة المحاصرة. إلا ان الأمير المنذر ما تمكن من إنجاز المهمة التي أتى من أجلها إذ وافته من قرطبة أخبار وفاة أبيه الأمير محمد فترك ساحة القتال وعاد مسرعاً إلى العاصمة لتولي مهام الإمارة. وكان ذلك في شهر آب سنة ٨٨٦ م (صفر ٢٧٣ هـ) وتمت له البيعة دون عناء في اليوم التالي لوصوله[2].

والواقع إن الأمير محمد رغم ما أتصف به عهده من فرقة الجماعة وتفرق الكلمة وضياع الوحدة، وكثرة العصاة والمتمردين فإنه كان من خيرة أمراء بني أمية ومن أتقاهم وأفضلهم للناس. وقد وصفه المؤرخ الأندلسي الرازي بقوله: «ولمحمد في سلطانه الآثار الجميلة والآيات الجزيلة، والفتوح العظيمة، والعناية بمصالح المسلمين، والتهمم بثغورهم، والغبط لأطرافهم والتوجيه لمصالحهم».

الأمير المنذر بن محمد
٨٨٦ - ٨٨٨
(٢٧٣) (٢٧٥) هـ

عند تسلم الأمير محمد سلطاته كانت الثورة بالفعل قد انتشرت، والوحدة قد تمزقت وبدت وكأنها ذهبت إلى غير رجعة، فشغلته أعمال التمرد والعصيان طيلة حياته، وأخذت منه كل جهده بحيث ما تركت له القدرة على الاهتمام بما يستحق الذكر من منجزات العمران والبناء والحضارة. حكمه القصير الذي دام ثلاثة وعشرين شهراً وعدة أيام، شغل كله تقريباً بالصراع ضد عمر بن حفصون.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٥٩.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧١.

ويمكن اعتبار هذا الثائر بمثابة النجم الساطع في الحياة السياسية والعسكرية في الأندلس طيلة حياة هذا الأمير بحيث كان هو الشغل الشاغل للناس وهو باعث الأحداث الهامة. ومن هنا كان اهتمام المؤرخين المسلمين بالأمير المنذر وبحياته الخاصة ومنجزاته محدوداً للغاية بحيث ان بعض كبار مؤرخي هذا العصر مثل ابن الأبار وابن سعيد والمقري ما وجدوا ما يستحق التسجيل عنه سوى أسطر قليلة وربما لا شيء إطلاقاً. هذا لا يعني ان الأمير المنذر كان خاملاً وضعيفاً، بل من المسلم به انه كان من أفاضل الرجال وأشجعهم. وقد رأيناه في حياة أبيه الأمير محمد يكلف بأكثر من مهمة سياسية وعسكرية ما كان فيها كلها إلا شجاعاً، ومحققاً لأفضل الإنجازات. يعرفه ابن عذاري، معطياً له ما يستحق فعلاً؛ بقوله: «ولم يكن أحد من الخلفاء قبله مثله شجاعة وصرامة وعزماً وحزماً، ولقد بلغ في سنة بذلك ما لم يبلغه غيره في الدهر»[1]. ويعرفه ابن القوطية بانه: «كان من أهل العقل والإكرام لأهل العلم والصلاح والاصطناع لكل من أخذ بحظ من علم وأدب»[2].

حاول منذ أيامه الأولى في الحكم أن يمارس سياسة تليق بأمير كبير، كما كان يريد أن يكون وكما كان يستحق فعلاً، فما توقف عند الاهتمام بثورة ابن حفصون وحدها، وإنما بادر إلى ممارسة سياسة الصوائف والشواتي التي طالما نفذها الكبار والأقوياء من أمراء بني أمية. لقد ندب في أول صائفة محمد بن لب إلى منطقة ألبة والقلاع (قشتالة) في جموع كبيرة من جيوش المسلمين. وقد كانت الحملة، إيجابية من حيث إنها كباقي الصوائف خربت ودمرت وقتلت الكثيرين من الإسبان[3] وعادت بالوافر من الغنائم والسبي. وفي نفس الفترة الزمنية تقريباً واجهته، وكالعادة طليطلة، عاصمة القوط القدماء، بثورة قام بها أهلها ضده

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨١.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، صفحة ١١٩.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٣.

متحالفين مع بعض البربر من سكان مدينة ترجيلة[1] Trujillo المجاورة فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً. واضطر خلال حكمه القصير لأن يقضي على أكثر من تمرد وعصيان في تلك المنطقة.

إلا ان حادثاً داخلياً ما لبث أن شغله بعد أشهر قليلة من توليه الحكم. ذلك إنه عقب وفاة أبيه أبقى كل وزرائه في مناصبهم، كما ترك الحجابة بيد هاشم بن عبد العزيز على ما بين الرجلين من جفاء واختلاف في الأمزجة وطرق العمل والتفكير. كان عمل الأمير المنذر هذا عن عقل راجح وفكر ثاقب ونظرة واقعية للأمور. كان يعرف ان ما تتعرض له الأندلس خطير وخطير جداً مما يفرض شيئاً من الديمومة والاستقرار في الحكم وأجهزته للتفرغ لما هو أهم وأخطر. كان هاشم بن عبد العزيز من وجهاء ومقدمي المولدين، خدم الأمير محمد سنوات طويلة كوزير وكحاجب فأحسن الخدمة وأخلص في الولاء لسيده وحقق منجزات كبيرة على صعيد السياسة كما في ساحات القتال فصار أبرز القوى السياسية الفاعلة في قرطبة، وكان فوق ذلك أديباً، شاعراً، محدثاً ونديماً أنيقاً. إلا انه في المقابل كان متكبراً يميل نحو الاستعلاء على أقرانه وأسويائه يدل بمكانته عند الأمير. كل ذلك أكثر من حساده وكارهيه بحيث ما كان له صديق في أوساط الحكم والدولة.

ولما كان الأمير المنذر أصلاً لا يحب الوزير هاشم ولا يستسيغ التعامل معه فإن أخصامه سرعان ما أوغروا صدره على الحاجب ونقلوا إليه أكثر من وشاية بحق أو بغير حق فأمر فجأة بعزله وسجنه وسجن أولاده وحاشيته وانتهب ماله وهدم داره وألزم أولاده غرم مائتي ألف دينار «ثم بعث فيه الأمير ليلاً فقتله»[2]. والواقع إن هذا الحادث الذي ما كان أكثر من دسيسة، طالما حفلت بها قصور الأمراء والملوك في

---

(١) مدينة بالأندلس من أعمال ماردة بينها وبين قرطبة ستة أيام غرباً، هكذا عرفها ياقوت في كتابه معجم البلدان جزء ٢، صفحة ٢٢. وهي غير مدينة طرجيلة من أعمال كورة رية.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٥.

العصور الوسطى، قد أثار اهتمام المؤرخين المسلمين فأعطوه من الأهمية والمكانة أكثر مما يستحق مما أساء كثيراً إلى سمعة الأمير المنذر وإلى عهده.

على انه من المؤكد ان جل اهتمام الأمير المنذر كان منصباً على الاهتمام بثورة عمر بن حفصون وضرورة تصفيتها بأقرب وقت ممكن. أفاد هذا الثائر كثيراً من فترة انشغال العاصمة بوفاة أمير ومقدم أمير آخر فعمل بجد ونشاط على ترسيخ دعائم سلطانه وتدعيم نفوذه. اتصل بزعماء الحصون والقلاع الواقعة في السهول الممتدة بين جبل ببشتر وسواحل البحر المتوسط وكانوا في أكثريتهم من المولدين دعاهم للانضمام إليه والاعتراف بزعامته فاستجابوا. وانتشر نفوذه إلى بعض مناطق ألبيرة وإلى أحواز جيان. واستولى على حصن باغة الهام وأسر عامله عبد الله بن سماعة وحصل له من ذلك من الأموال ما لا يوصف[1]. ويبدو انه مع الوقت طرأ تحول أساسي على تفكير هذا الثائر وعلى طريقة تعامله مع الناس. لقد أدرك ان السكان في جبال الأندلس، بصورة خاصة وفي سائر إسبانيا المسلمة، بأغلبيتهم من أصول إسبانية، مستعربين أو مولدين، غير راضين عن الهيمنة العربية المستمرة في قرطبة فبدأ يخاطبهم من هذه الزاوية. لقد طرح نفسه على المولدين خاصة كمعارض لسلطان بني أمية بالذات وليس كقاطع طريق أو ساع وراء المال والكسب المادي. وفي أكثر مناسبة توجه إلى الأندلسيين قائلاً: «طالما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم»[2]. فكان ابن حفصون لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره، فكانت طاعة أهل الحصون بهذا الوجه وكانوا كلهم تقريباً من المولدين أو المستعربين وبعض البربر. تكاثر أتباعه وتوافد المؤمنون به أو بدعوته من جميع أرجاء إسبانيا الإسلامية يقدمون له العون والتأييد. ومما كان يعطي كلامه مصداقية عند الناس عموماً، ودعوته قيمة ووزناً،

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧١.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧١.

كونه نجح في كبح جماح من كانوا معه أصلاً من الشطار والأشرار بإعطائهم الكثير من الأموال ومن غنائم الغزو، وبذلك منع أذاهم عن الناس العاديين. ثم إنه هو شخصياً كان ذا شخصية غريبة الأطور. فمع كل ما كان عنده في مطلع شبابه من طيش وتهور وعدوانية وميل نحو الشر تمكن في رجولته وبعد أن صار رائد حركة تحرير المولدين، من أن يظهر «متحبباً لأصحابه، متواضعاً لألافه... شديد الغيرة، حافظاً للحرمة، فكان ذلك مما يميل النفوس إليه»[1]. هذا كله جعله يتمكن في غمرة انشغال الأمير المنذر في قرطبة، من أن يقيم العدل وينشر الأمن والاستقرار بشكل لا مثيل له في كل المناطق التي صارت تحت حمايته والممتدة من الجزيرة الخضراء في أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيبرية حتى مدينة مرسية على الساحل، ومن هاتين المدينتين حتى جبل ببشتر بشكل مثلث تقريباً. لقد كان شجاعاً مقداماً في إحقاق الحق وحماية الضعيف حتى من ابنه[2]. «ولقد كانت المرأة في أيامه تجيء بالمال والمتاع من بلد إلى بلد منفردة لا يعترضها أحد من خلق الله»[3].

كل هذا رفع من معنويات عمر بن حفصون بدرجة كبيرة وصار بحق وكما وصفه دوزي المستشرق، الزعيم لجميع الإسبان من مولدين ومستعربين في وسط شبه الجزيرة الإيبرية[4]. بل ذهب في ممارسته السياسية بعيداً فصار يتصرف وكأنه بالفعل رئيساً لدولة مستقلة تنافس بل وتناوىء بني أمية في قرطبة. لقد دخل في روعه وروع بعض أتباعه انه بات نداً للأمير المنذر. ومن هذا المنطلق بالذات ما تردد في الاتصال ببني الأغلب في تونس ومراسلتهم. وربما كان أيضاً على اتصال بشكل أو بآخر بالدولة العباسية في المشرق وجاهر في أكثر من مناسبة بميله إلى العباسيين،

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٢.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٢.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٢.

(٤) Historia de Los Muslumanes de Espana, Dozy, T.I, p. 310.

على الأرجح نكاية بأخصامهم حكام قرطبة. وأيضاً راسل بعض ملوك إسبانيا المسيحية. وحتى في خارج المناطق التي سيطر عليها كان التأييد له قوياً طاغياً في كل مكان ينزل فيه مستعربون ومولدون. وفي مناطق الحدود بالذات حيث كان السكان في أغلبيتهم الساحقة من مسلمين أو نصارى من أصل إسباني كان التجاوب مع دعوة ابن حفصون قوياً جارفاً. بالنسبة لهؤلاء وحتى أيضاً بالنسبة لأبناء جلدتهم ممن يقيمون في مناطق تخضع مباشرة لحكم بني أمية بدت ثورة ابن حفصون في بعض أوقاتها وكأنها دعوة للحرية والاستقلال واستعادة أمجاد القوط القدماء ولو في ظل دين الإسلام وفي إطار دولة الإسلام.

في الوقت الذي كانت تتقدم فيه حركة ابن حفصون بهذا الشكل الخطر ما كان الأمير المنذر غافلاً عما يحصل فرأيناه يندب في صيف السنة التي تولى فيها الإمارة جيشاً بقيادة بعض قادته مثل عبد الله بن مضر وأيدون الفتى إلى ناحية قبرة في الأندلس حيث قاتلوا بعض رجال ابن حفصون[1] وهاجموا حصوناً وقلاعاً تدين له بالطاعة وترفع لواءه.

في ربيع سنة ٨٨٨ م (٢٧٤ هـ) وأمام انتشار الثورة وتزايد قدرات عمر بن حفصون رأى الأمير المنذر أن يسير بنفسه وعلى رأس حملة كبيرة حشد لدعمها كل إمكانيات الدولة وقدراتها. هاجم منطقة قبرة وافتتح ما بها من حصون وقلاع ثم ألقى حصاراً شديداً على حصن ببشتر بالذات «وأفسد ما حواليه وضيق عليه»[2]. وفي نفس الوقت هاجم أرشذونة وكانت لابن عيشون المولد والحليف القوي لسيد ببشتر. دخل الأمير المدينة برضى أهلها وأسر ابن عيشون وأنصاره فأرسلهم إلى قرطبة حيث أعدموا وصلبوا على أسوار العاصمة. وكذلك هاجم حصوناً ومدناً، بجبل باغة كانت بزعامة مولدين من بني مطروح حلفاء لابن

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٣.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٣.

حفصون، فأخضعها، وأسر زعماءها فأرسلهم إلى قرطبة وأمر بقتلهم وصلبهم[1]. ولما اشتد الحصار على ابن حفصون اتصل بالأمير وعرض عليه الصلح والاستسلام المشرف وحصل على بعض المؤن والأغذية لقومه المحاصرين داخل حصن ببشتر إلا ان الأمر بالنسبة للثائر ما كان أكثر من خديعة رام من خلالها كسب الوقت مما جعل أمير قرطبة يحقد عليه ويقوي الحصار ويصمم على الحصول عليه بأي ثمن. استطال الحصار أربعين يوماً ذاق خلالها الثوار المحاصرون مر العذاب. غير ان القدر تدخل لصالحهم وبصورة غير منتظرة. لقد مرض الأمير المنذر مرضاً شديداً فاستدعى شقيقه الأمير عبد الله من العاصمة لمتابعة الحصار. وبعد أيام قليلة من وصول عبد الله إلى جبل ببشتر اشتد المرض بالأمير وأسلم الروح في ٢٩ حزيران سنة ٨٨٨ (١٥ صفر ٢٧٥ هـ) في وقت كانت الفتنة قاب قوسين أو أدنى من نهايتها وكان رأسها ابن حفصون، على بعد خطوات من الهزيمة أو الأسر أو الموت، كان موت المنذر المفاجىء وفي تلك اللحظة بالذات كارثة بالنسبة للأندلس. لقد أجمع معاصرو تلك الأحداث على انه كان رجل تلك اللحظات الحرجة. «وان الخبر المستفيض عن الشيوخ انه لو عاش المنذر عاماً واحداً زائداً لم يبق برية منافق»[2].

الأمير عبد الله بن محمد
٨٨٨ - ٩١٢
(٢٧٥ - ٣٠٠) هـ

بويع الأمير عبد الله في اليوم الذي مات فيه أخوه في المعسكر وبين الجنود والقادة العسكريين المحاصرين لحصن ببشتر. اختير لوراثة عرش الإمارة لكون الأمير المنذر ما كان قد سمى أحداً لولاية عهده بسبب موته المفاجىء وهو ما يزال

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٠.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٧٠.

في سن الشباب ولكون أولاده ما كان أحد منهم في سن تسمح له بتسلم الحكم والإمارة. بعد ذلك مباشرة تحرك موكب الأمير الجديد وصحبه نحو العاصمة، ليدفن شقيقه المتوفي في حدائق القصر الأميري إلى جانب أسلافه من الأمراء الأمويين، وليأخذ البيعة لنفسه من أهل قرطبة. لقد استعجل الرحيل مخالفاً نصيحة من كانوا حوله بإخفاء خبر الوفاة والبقاء ريثما يتم الاستيلاء على الحصن المحاصر والقضاء على تمرد عمر بن حفصون مما كان منتظراً ومتوقعاً في وقت قصير. إنما يبدو ان الأمير عبد الله كان يريد أن يسيطر على الوضع في العاصمة قبل أن يصلها خبر وفاة أميرها ويكثر الطامعون بالإمارة والمزاحمون له. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما شاع في أوساط الجيش المرافق، وما صار معروفاً وشائعاً فيما بعد في الأندلس، من ان له يداً في وفاة أخيه ليستعجل الوصول إلى الحكم كان تسرعه بالعودة مفهوماً ومعقولاً. ولقد أكد أكثر من واحد من المؤرخين المسلمين الثقاة أن المنذر توفي مسموماً بناء لأوامر أخيه عبد الله[1].

لم يكن الأمير عبد الله عند تسلمه السلطة شاباً يافعاً وإنما كان رجلاً تجاوز سن الأربعين وعرف الحكم وشارك فيه أيام أبيه الأمير محمد وشقيقه المنذر فاكتسب خبرة واسعة. كان على إطلاع واسع على أحوال الدولة السياسية والاقتصادية والمالية، عارفاً بالمشاكل الحقيقية التي كانت تعاني منها دولة الإسلام في إسبانيا. كان على صلات ممتازة بالأوساط الحاكمة وبالإدارة الأموية عموماً، متصلاً بأكابر رجال السياسة والجيش ممن كانوا يحيطون بأخيه المتوفي. بادر هؤلاء إلى احتضانه والترحيب به، متجاوزين موقفه الضعيف من حيث اتهامه بمقتل المنذر، ذلك أنهم إدراكاً منهم لوفرة مشاكل إسبانيا الإسلامية وكثرة الأخطار والخطوب التي كانت تتهددها، ومعرفة منهم بقوة الأمير عبد الله وحزمه وقدرته على حسم الأمور، اعتبروه الرجل المناسب لتلك الحقبة. وقد قابلهم

---

(١) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، جزء ١، صفحة ٥٤ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٣٣.

الأمير بمبادرته السريعة للتعاون معهم فأبقى على الرجل القوي عبد الرحمن بن أمية بن شهيد في منصب الحجابة. واستعان بعدة رجال من بني عبدة ممن عرفوا بخبرتهم الطويلة وقدراتهم وأيضاً بولائهم وإخلاصهم المشهود للبيت الأموي عموماً. فكان منهم أكثر من وزير ومن قائد. ومن وزرائه أيضاً عبد الملك بن عبد الله بن أمية والزعيم البربري سليمان بن وانسوس. هؤلاء كلهم كانوا من أفاضل الناس وأكثرهم خبرة وفهماً لواقع الأندلس ولحاجاته، خدموا المنذر وما بخلوا بكل ما عندهم من معرفة وكفاءة في خدمة الأمير عبد الله. بل أكثر من ذلك إن هذا النفر من المساعدين ومن انضم إليهم أو أخذ مكانهم بعد ذلك، وكانوا من طبقتهم الممتازة، كانوا عدة الأمير وسلاحه الماضي في مواجهة الفتنة والتصدي لها وربما في إنقاذ عرش بني أمية من عاصفة كادت تطيح به في أواخر القرن التاسع للميلاد.

وعلى الصعيد الشخصي كان رجلاً فاضلاً أديباً «متفنناً في ضروب العلوم، بصيراً بلغات العرب، فصيح اللسان حسن البيان»[1]. وكان متديناً شديد الإيمان «حافظاً للقرآن كثير التلاوة له، وكانت له صدقات كثيرة ونوافل جزيلة، وكان متقدماً في ورعه وفضله، محباً للخير وأهله، كثير الصلاة دائم الخشوع والذكر لله عزَّ وجلّ»[2]. هذا كله جعله مقرباً من طبقة الفقهاء في قرطبة، وما كان نفوذهم قليلاً، أثيراً لديهم يدافعون عنه ويتبنون مواقفه مما كان يقويها ويعطيها سنداً وقوة في دولة دينها ودستورها الإسلام. لقد أحبه الفقهاء وتقربوا منه وصدقوا في ولائهم له ودفاعهم عن سياسته مما ساعده في دفع تهم كثيرة التصقت به، ليس أقلها الدموية التي تجلت في قتله لاثنين من إخوانه واثنين من أبنائه إلى جانب كثيرين آخرين.

وفوق ذلك كانت له خصال شخصية أخرى جعلته مقرباً من العوام محبوباً منهم. «كان مقتصداً يظهر ذلك في ملبسه وشكله وجميع أحواله»[3]، بعيداً عما

---

(١) (٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٢٨.

(٣)

عرف به من الإسراف والتبذير بعض أسلافه وخاصة عبد الرحمن الأوسط. كان «شديد التواضع منكراً للسرف ومبعداً لأهله وشديد الوطأة على ذوي الظلم والجور»[1]. «وكان يقعد أحياناً على بعض أبواب قصره في أيام معلومة فترفع إليه فيه الظلامات وتصل إليه الكتب. . . فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده، ولا إنهاء مظلمة على لسانه»، «وكان قد فتح باباً في القصر سماه باب العدل، وكان يقعد فيه للناس يوماً معلوماً في الجمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه، ولا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً»[2]. هذه الصفات قربت منه كثيراً عامة أهالي قرطبة، والفقراء والضعفاء منهم بصورة خاصة. لقد بات بالنسبة لهؤلاء مثال الأمير العادل المنصف المحب لرعيته، الغيور على مصالحها، المدافع عن المظلومين والمقهورين، البعيد عن الإسراف في وقت جفت فيه موارد الدولة المالية فما اضطر لزيادة ضريبة ولا التشدد في جباية.

هكذا وبسرعة مدهشة دعم سلطانه في العاصمة وباتت له ثلاث ركائز قوية: كبار موظفي الدولة، الفقهاء، وعامة الناس من أهل قرطبة. ولكن هنا يتبادر إلينا سؤال هام: هل كانت صورة الأمير خارج قرطبة زاهية هكذا؟ وهل كان موقفه قوياً في المناطق والثغور والحواضر الكبرى كذلك؟ الواقع إن أوضاع الأندلس عند تسلم الأمير عبد الله سدة الإمارة كانت قد تردت كثيراً بحيث تجاوزت مقدرة رجل واحد، مهما كان قوياً وحازماً وذا إرادة حسنة، على ضبطها، وانحدرت كثيراً في طريق الفتنة والتمزق.

واجه الأمير عبد الله منذ بداية حكمه ظروفاً صعبة وقاسية. فالبلاد كانت قد سارت شوطاً طويلاً في متاهات من الفرقة والتمزق لا قرار لها، وعرش بني أمية في قرطبة تتهدده غير ثورة عمر بن حفصون، التي كاد الأمير المنذر يقضي عليها، ثورات وحركات تمرد وعصيان يزداد عدد القائمين بها يوماً بعد يوم. وما عاد أقليم

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٢٨.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٣٠.

واحد من أقاليم الأندلس يخلو من عشرات الثائرين والعصاة والمنتزين يجمعهم كلهم عداء عنصري، أو قبلي، أو ديني، أو كل ذلك معاً، للسلطان المركزي، ويفرق بينهم البحث عن الأمجاد الشخصية والمكاسب والمغانم على حساب هذا السلطان، وأيضاً على حساب بعضهم البعض.

ثم إن مدناً أندلسية هامة وحواضر كبرى طالما كانت مقراً ومرتكزاً لدولة الإسلام في إسبانيا مثل بطليوس وإشبيلية ولورقة وجيان وغرناطة ما لبثت أن لحقت بركب الفرقة ورفعت لواء العصيان والتمرد. شارك في ذلك زعماء من المولدين، ومن البربر المعروفين بشدة ولائهم لدين الإسلام. والعرب أنفسهم، مدفوعين بحساسياتهم القبلية، ومتأثرين بانقسامات وأحقاد حملوها من مواطنهم الأصلية وتعود لعدة أجيال مضت، ما تخلف بعض زعمائهم ومقدميهم عن الإفادة مما أصاب السلطة المركزية من ضعف وارتباك، فاختصوا أنفسهم بمدن وأقاليم أقاموا فيها دويلات مستقلة أو شبه مستقلة. وقد أتى زمن عمت فيه الفرقة وشاع العصيان، في أيام الأمير عبد الله حتى ما عاد سلطان الحكومة المركزية يتجاوز ضواحي قرطبة نفسها خاصة منذ استولى عمر بن حفصون على حصن بولاي Poley القريب من العاصمة.

وقد أوجز لنا المؤرخ ابن عذاري وضع دولة الإسلام في إسبانيا في تلك الحقبة من تاريخها بقوله: «وأفضت الخلافة إليه وقد تحيفها النكث، ومزقها الشقاق، وحل عراها النفاق والفتنة مستولية، والدجنة متكاثفة، والقلوب مختلفة، وعصا الجماعة متصدعة، والباطل قد أعلن، والشر قد اشتهر، وقد تمالأ على أهل الإيمان حزب الشيطان... وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة، الذين جردوا من سيوفهم على أهل الإسلام، فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب، ومحصور يعيش مجهوداً، ويموت هزلاً، فقد انقطع الحرث وكاد ينقطع النسل»[1].

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٤.

نظراً لخبرته الطويلة في الشؤون العامة كان يعرف ان أساس المشاكل التي تعاني منها الأندلس يكمن في العصبية القومية الإسبانية وفي الحساسيات العربية وهما الظاهرتان اللتان ما نجح أي من الأمراء الذين سبقوه في القضاء عليهما. لقد اعتقد ان كل الحركات التي كانت تمزق الأندلس على أيامه ولو اتخذت مظاهر مختلفة وتذرعت بأسباب عديدة مبعثها واحد من العاملين المذكورين. لقد تصدى لمختلف أشكال ومظاهر الفتنة بقوة وشجاعة وحزم وقاومها مدة خمس وعشرين سنة دون تعب أو ملل. ما أوقف الصوائف والشواتي مرة واحدة وإنما مع فارق واحد وهو انها طالما كانت في أيام أسلافه تذهب إلى أراض ترفع لواء العداء لدين الإسلام ولدولته، وفي زمنه صارت تذهب إلى حيث يرتفع لواء الإسلام كدين ولواء الفرقة والعصيان سياسياً وعسكرياً، على ما في ذلك من تناقض، على قرطبة قاعدة دين الإسلام في إسبانيا. لم ييأس، لم يستسلم، وحتى في تلك الحالات التي كان فيها العدو الأكبر وعماد الفرقة والعصيان عمر بن حفصون يدق أبواب العاصمة ويتهدد أمنها وسلامها ويقترب حتى من قصرها الأميري ومسجدها الجامع رمزي السلطة والدولة.

قاتل الثائرين والمتمردين في كل مكان، استغل خلافاتهم وتناقضاتهم، ضرب بعضهم ببعض بميكيافيلية يبررها إصراره على المحافظة على الحد الأدنى من مظاهر الدولة وسلطانها.

ونحن لا نستطيع أن نعرض لجميع هذه الحركات لكثرتها أولاً ولتداخلها ولتشابكها وفي أحيان كثيرة لغموض أسبابها وتطوراتها. وسنكتفي هنا بعرض سريع لبعض ظواهر العصيان مع ذكر اسماء زعمائه وانتماءاتهم وارتباطاتهم بالقدر الذي تسمح لنا به المعلومات التي وفرها لنا المؤرخون الأندلسيون على أن نركز على تطورات ظاهرتين اعتبرناهما الأهم والأبرز في عصر الفتنة والتمزق: ثورة المولدين بزعامة عمر بن حفصون والصراع العربي المولدي في كورتي أشبيلية والبيرة.

الثوار المولدون:

- **ديسم بن إسحق:** ثار في كورة تدمير وأقام هناك دويلة شبه مستقلة وتغلب على مدن لورقة ومرسية وتدمير[1] وأدخلها في سلطانه. تنامى نفوذه كثيراً مستفيداً من انشغال الدولة بثورة ابن حفصون واتخذ لدولته بلاطاً على شاكلة الملوك وجعل لحمايته جيشاً عظيماً حسن التدريب وافر العدة بلغ تعداد أفراده حوالي خمسة آلاف فارس[2]. كان محبوباً من الناس لكرمه ونجدته، رفيقاً برعيته، عادلاً بينها. وكانت له اهتمامات كبيرة بالشعر والأدب، تردد كثيراً إلى قصره الشاعر عبيديس بن محمود فمدحه ونال الكثير من عطاياه.

- **عبيد الله بن أمية بن الشالية:** عرفه ابن الآبار بانه كان من كبار الثوار في أيام الأمير عبد الله، ومن أعلام المخالفين عليه[4]. ثار في كورة جيان وسيطر على بعض أقسامها خاصة جبل شمنتان واتخذ من حصن قسطلونة الهام قاعدة له ومقراً لحكمه. هادن الأمير بعض الوقت وأظهر الطاعة له غير انه ما لبث أن عاد إلى العصيان. وتغلبت عليه العصبية لقومه من المولدين فمال نحو ابن حفصون وتقرب منه وتحالف معه في أكثر مناسبة وزوج ابنته من جعفر ابن حفصون ووصل يده بيده فاعتز جانبه[5]. ازدهرت دولته وكثرت مواردها المالية فبنى المباني الفخمة وأكرم الشعراء والأدباء وأكثر من العطاء لهم. واتخذ من الشاعر الأديب عبيديس بن محمود كاتباً ومتصرفاً في خدمته. وعمرت دولته حتى أيام عبد الرحمن الناصر الذي أمر بالقبض عليه وأرسل إلى معاقله من ضبطها وحمل عياله إلى قرطبة[6].

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٠٥.

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، صفحة ١٢٥.

(٣) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٣٠.

(٤) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٣٠.

(٥) الحله السيراء، ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٣٠.

(٦) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٣١.

- **سعيد بن وليد بن مستنة**: ثار في كورة باغة، وبسرعة كبيرة استفحل أمره وكثر شره وعم أذاه إذ كان صديقاً وحليفاً لابن حفصون حاصلاً على دعمه وتأييده لكونه كان من غلاة المؤيدين لطبقة المولدين والمعادين لسلطان بني أمية. تمكن من السيطرة على مجموعة كبيرة من الحصون والقلاع في المنطقة الواقعة بين قرطبة وجيان، أربعة منها كانت لا مثيل لها في الحصانة والمنعة في الأندلس. وبقيت دويلته قائمة حتى نهاية أيام الأمير عبد الله.

- **بنو هابل**: ثاروا في المرتفعات الشمالية الشرقية لمنطقة جيان واستولوا على بعض أهم حصونها. كانوا أربعة أكبرهم منذر بن حريز بن هابل، وأخوه أبو كرامة هابل بن حريز وأخوه عامر وأخوه عمر[1]. استنزلهم الأمير عبد الرحمن الناصر وأعطاهم الأمان وأدخلهم في خدمته فأخلصوا له.

- **خير بن شاكر**: كان من المتعصبين لفئة المولدين ومن أوائل ثوارهم. رفع لواء العصيان منذ بداية أيام الأمير عبد الله في الحكم. ثم ظاهر ابن حفصون وتحالف معه منذ سنة ٨٩٠ م (٢٧٧ هـ). وكانت منطقة تحركه كورة جيان حيث اتخذ من حصن شوذر مقراً له. غزاه القائد ابن أبي عبدة في نفس السنة فحاربه وحاصره وقتل جماعة من أصحابه وأحرق كثيراً من دور جيان[2]. وبعد فترة قصيرة قتلته جماعة من أنصار وحلفاء ابن حفصون الذي أرسل رأسه إلى الأمير عبد الله تقرباً منه ورغبة باسترضائه[3].

هذه باختصار أخبار بعض من ثاروا على سلطان قرطبة من المولدين في مناطق جنوب شبه الجزيرة الإيبرية ممن اعتقدنا ان ما قاموا به كان هاماً بعض الشيء ويستحق الذكر إنما في كل الحالات يبقى ان أهم هؤلاء على الإطلاق هو

---

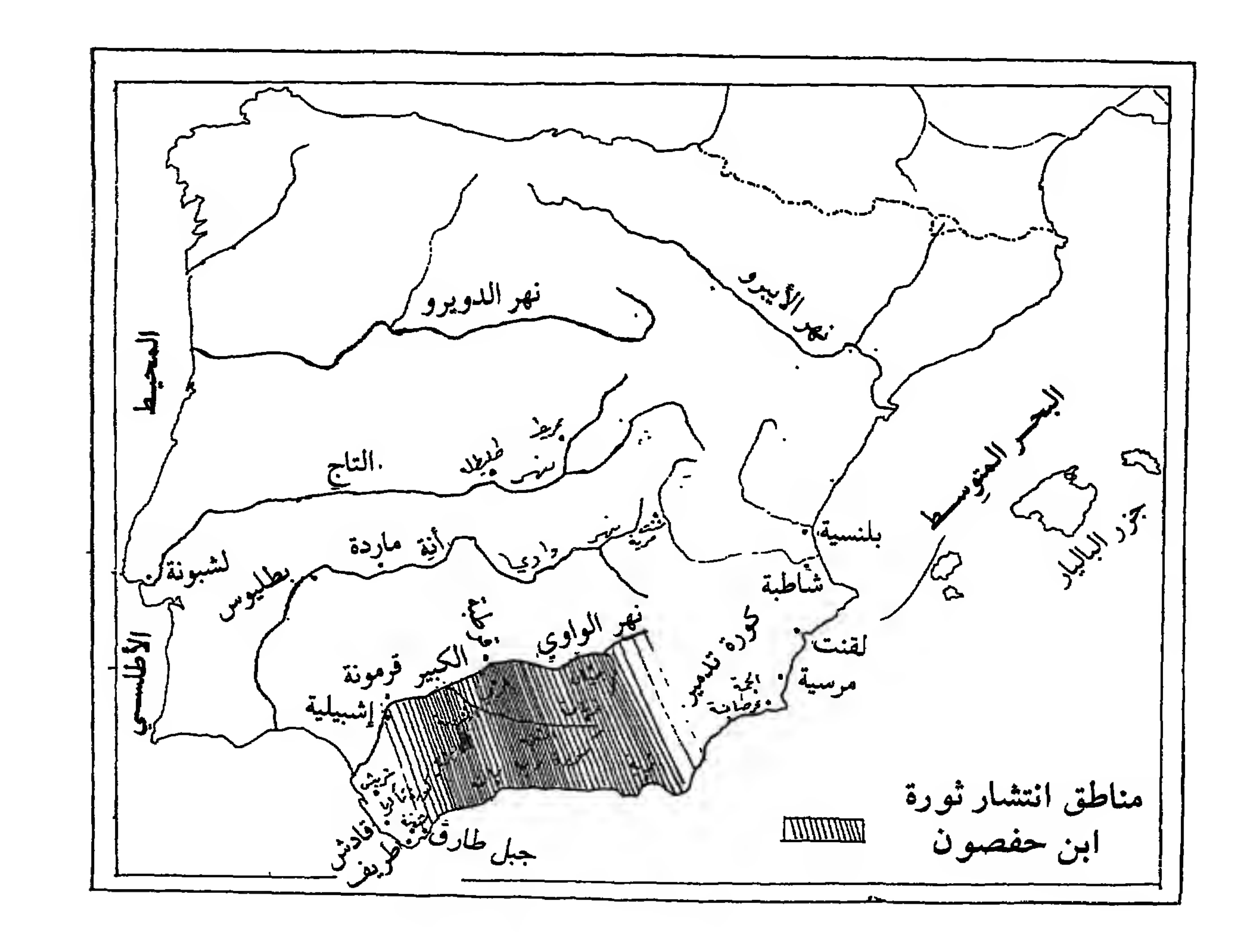
(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٠٦.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٥.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٥.

ابن حفصون. هذا مع العلم ان من سبقت الإشارة إليهم على انهم قد خرجوا على سلطان بني أمية في مناطق الثغور مثل بني قسي في آراغون والجليقي في الغرب (بطليوس) كانوا ما يزالون في أيام الأمير عبد الله على عصيانهم.

ثورة عمر بن حفصون:

اعتبر الأمير عبد الله منذ بداية حكمه وبصورة دائمة ان أخطر ما يتهدد سلطان الدولة الأموية في الأندلس هي ثورة ابن حفصون في جنوبي البلاد. ذلك ان هذا الثائر تميز عن أقرانه الكثر من عصاة وثوار ومتمردين، بكونه عرف كيف يتحول في نظر الإسبان، من مولدين ومستعربين، إلى بطل وطني وثائر قومي يسعى لإعادة الحكم إلى الإسبان، بغض النظر عن انتمائهم الديني، من دخلاء على بلادهم اغتصبوه منهم. ومن هذه الزاوية يمكن التأكيد بان عواطف وأيضاً دعم المستعربين والمولدين له كانا يزدادان بصورة متواصلة. لقد كانت له عيون وأرصاد في كل مدينة وقرية فيها مولدون أو مستعربون. وهو فوق ذلك أظهر كفاءة نادرة في التعامل مع السلطة وأيضاً في اصطناع الأصدقاء والحلفاء من بين الثوار والمتمردين الكثر في أيام الأمير عبد الله. كان بارعاً في استغلال التناقضات السياسية والصراعات القبلية والحساسيات العنصرية، وكل هذه كانت هائجة متوترة في ذلك الوقت. تحالف مع ثوار من العرب، وتحالف مع متمردين من البربر واستخدم لأغراضه أكثر المنتزين من المولدين. والمستعربون كانوا دائماً إلى جانبه.

عند ارتقاء الأمير عبد الله عرش الإمارة في قرطبة أظهر الثائر مرونة كبيرة اقتضتها حاجته إلى التخلص من آثار الهزيمة التي كاد ينزلها به الأمير المنذر وضرورة القضاء على ما تركته في مدنه وقراه من خراب ودمار وفي خزينته من فراغ. كان فعلاً يحتاج لفترة من السلام والهدوء فبادر إلى إرسال بعثة من أصحابه عليها ابنه حفص توجهت إلى قرطبة وقدمت فروض الولاء والطاعة للأمير على أن يقره على الأرض التي هو فيها فأكرمهم الأمير وقبل منهم وأعادهم مكرمين مثقلين


مناطق انتشار ثورة
ابن حفصون
المحيط
الأطلسي
البحر المتوسط
نهر الدويرو
نهر الأيبرو
التاج
لشبونة
بطليوس
ماردة
أنة
إشبيلية
قرمونة
الكبير
نهر الوادي
قادش
طريف
جبل طارق
شاطبة
بلنسية
لقنت
مرسية
كورة تدمير
جزر البليار

بالهدايا والعطايا. وفعلاً «بقي ابن حفصون سامعاً مطيعاً منتهياً عما نهي عنه، واقفاً عند ما أمر به»[١].

مرت أشهر قليلة استعاد فيها الثائر العاصي أنفاسه وقضى على آثار هزيمته، فعاود سيرته الأولى وعاد إلى رفع لواء الفرقة والعصيان وصار يهاجم القرى والمزارع الموالية لحكومة قرطبة مما اضطر الأمير لأن يخرج إليه بنفسه في سنة ٨٨٩ م (٢٧٦ هـ) فاجتاح كورة رية وهدم بعض قلاعها وحصونها وعاد بعد أربعين يوماً إلى عاصمته دون أن يحقق نصراً فعلياً أو تقدماً عسكرياً على خصمه الثائر ابن حفصون. بل أكثر من ذلك ما تردد الثائر في ملاحقة جيوش الأمير واحتل مدينة أستجة متقدماً حوالي ثلاثين كيلومتراً على طريق العاصمة. وازدادت جرأة الثائر على الدولة وأميرها منذ أن صار تحت سيادته حصن بولاي Poley الهام، الذي ما كان يبعد عن العاصمة أكثر من خمسين كيلومتراً، والذي كان يشرف على ريفها. ومن هذا الحصن الذي شحنه بالمقاتلة والسلاح صار يخرج ليلاً هو وأنصاره يصول ويجول في قرى السهل المحيط بالعاصمة يسرق وينهب وينشر الرعب متحدياً سلطان الأمير وحكومته. وكثيراً ما تجرأ فوصل في غاراته إلى شقندة المقابلة لدار الإمارة على الضفة الثانية لنهر الوادي الكبير.

لقد شعر الأمير ان خطر ابن حفصون بات شديد الوطأة وانه صار يتهدد القرطبيين في عقر دارهم وأيضاً في كرامتهم وفي عزتهم. لقد باتت قضية ابن حفصون مسألة حياة أو موت بالنسبة للأمير ولدولة الإسلام في إسبانيا بعد أن بات من بين كل ثوار الأندلس، يتفرد بالسيطرة الفعلية على ثلاثة من أهم أقاليم الأندلس: أقليم رية، أقليم البيرة، وأقليم جيان من فوق من في هذه المناطق من ثائرين وعصاة ثانويين.

في سنة ٨٩١ م (٢٨٧ هـ) استمد الأمير عبد الله من إيمانه القوي بالإسلام

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٤.

ومن حرصه على دولته عزماً وسنداً، وأيضاً استمد من ضعفه قوة، وصمم على أن يوجه للثائر ضربة قاضية. جمع جيشاً كبيراً من أربعة عشر ألف مقاتل عشرة آلاف منهم من متطوعة أهل العاصمة لبوا نداء الأمير للدفاع عن دولتهم ووجودهم. توجه الجيش نحو حصن بولاي مقر الثائر ابن حفصون الذي كان قد جمع حوله حوالي ثلاثين ألف مقاتل[1]. عسكر على بعد ميلين تقريباً من الحصن ثم كانت مواجهة حاسمة بين الفريقين انتهت بهزيمة الثائر وهربه مع بعض أتباعه إلى داخل الحصن بينما أعمل جنود الأمير القتل في أتباع ابن حفصون وأسروا منهم حوالي ألف رجل، أمر عبد الله فقتلوا صبراً بين يديه. وتمكن ابن حفصون في الليل من الهرب من الحصن المحاصر مع بعض أتباعه. بعد استيلائه على حصن بولاي سار الأمير إلى حصن استجة فحاصره إلى أن استسلم أهله فعفا عنهم.

وتوجه بعد ذلك إلى حصن ببشتر إنما دون أن يباشر فعلاً حصاره أو حتى يحاول الاستيلاء عليه. كانت معركة بلاي فاصلة في تاريخ دولة الإسلام في الأندلس. لقد أزاحت نهائياً التهديد بالفناء الذي طالما لوح به ابن حفصون بوجه بني أمية وأزاحت من فوق رؤوس القرطبيين المسلمين ذلك السيف الذي طالما رفعه فوق رؤوسهم. لقد كانت هزيمة حاسمة ما حلت بابن حفصون واحدة مثلها وما تمكن من أن يتخلص من آثارها حتى نهاية حياته. وفي الصيف التالي توجه الأمير عبد الله إلى أرشذونة حيث تحصنت قوات للثائر المهزوم فاستولى عليها، وفي الطريق كان قد عرج على مناطق ألبيرة وجيان الموالية لابن حفصون فاجتاحها وأخذ منها رهائن.

وفي سنة ٨٩٤ م (٢٨١ هـ) أرسل عبد الله ابنه مطرف[2] على رأس صائفة لإلقاء الحصار على قاعدة ابن حفصون الأساسية حصن ببشتر فخرب ضواحيه

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٦ ـ العقد الفريد، ابن عبد ربه، جزء ٤، صفحة ٤٩٨.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٧.

وضرب قواعد الثائريـن القريبة منه، وما حاول البقاء طويلاً عند أسواره لأن الثائر كان يعتصم مع من بقي له من أتباعه في الجبال المرتفعة القريبة من العاصمة. وحتى سنة ٨٩٩ (٢٨٦ هـ) بقي الصراع مستمراً بين الرجلين والأمير يرسل له الحملات باستمرار ويتبادلان النصر والهزيمة وأيضاً المدن والحصون والقلاع.

وفي هذه السنة أقدم عمر بن حفصون على خطوة جريئة في مسيرته في دروب الثورة والرفض لدولة الإسلام في الأندلس. ذلك انه بعد أن كان في بداية الأمر يرفض وجود دولة لبني أمية في شبه الجزيرة الإيبرية غير موقفه في تلك السنة. بعد أن اطمأن إلى قوته العسكرية، بالرغم من هزيمة حصن بولاي، وإلى تأييد مختلف عناصر الإسبان لحركته، أعلن ارتداده عن الإسلام وتعمد وتسمى باسم صموئيل. هذا التحول المفاجيء أعطى نتائج معاكسة لما قدره ولما كان يتمناه الزعيم الثائر. فالدولة ما عادت تنظر إليه على أنه مواطن متمرد أو زعيم عاص على سلطان حكومته، وإنما بات في منزلة من تجب محاربته بسبب ارتداده عن الإسلام. بل أكثر من هذا باتت محاربته تدخل في مراتب الجهاد ضد الكافرين وصارت الدولة ترسل إليه الصوائف والشواتي التي طالما كانت ترسلها إلى أراضي النصارى في الشمال، وترفض أية محاولة للمهادنة أو الصلح معه. ومن هنا صار ابن حفصون أمام الأندلسيين عموماً عدواً لدين الإسلام بعد أن كان عاصياً على الدولة الأموية مما طرح إشكالات وتعقيدات أمام حلفائه ومن تعاونوا معه بصورة دائمة أو مرحلية من عرب أو بربر أو مولدين. بدأ يعاني فعلاً على صعيد علاقاته مع الأمراء المسلمين في أفريقيا كما مع العصاة والثائرين في الأندلس، من عزلة متزايدة. وليس أدل على صعوبة الموقف الذي وضع نفسه فيه من ان اثنين من أخلص حلفائه ومساعديه، عوسجة بن الخليع ويحي [1] بن (أناتوليو) وهو مولد حديث العهد بالإسلام، ليس فقط تخليا عنه وإنما وجها ما عندهما من رجال وسلاح ضده

---

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 238.

أما بالنسبة للمولدين، الذين كانوا أصدق مؤيديه وأشدهم حماساً وولاءً له، فقد طرح عليهم بتحوله عن الإسلام مشكلة شديدة التعقيد. فهم كانوا يعتبرون أنفسهم في خلاف مع حكومة قرطبة بالذات، وعصاة على أميرها. أما بالنسبة لدولة الإسلام في إسبانيا ولدين الإسلام بالذات فما كانت مواقفهم لتنسجم مع الموقف الجديد للثائر ابن حفصون مما كان بمثابة نقطة تحول أساسية في مسار ثورة المولدين. لقد أنفض من حوله عدد كبير من مؤيديه وأنصاره من المولدين الذين أثبت هذا الحادث عمق تحولهم نحو الإسلام وقبولهم لهذا الدين عن قناعة وبعاطفة لا حدود لها. لقد ثاروا ولكن ثورتهم، كما ظهرت بعد هذا الحادث، كانت من ضمن دولة الإسلام وبوجه حكام منها، لإصلاح أوضاعها وما كانت أبداً ضدها أو للقضاء عليها كما اعتقد ابن حفصون.

حادثان هامان، هزيمة ابن حفصون الحاسمة في سنة ٨٩١ م (٢٧٨ هـ) وتحوله عن الإسلام، كانا بداية لتراجع تلك الحركة بصورة متزايدة بعد أن بلغت قمة ازدهارها بالاستيلاء على حصن بولاي. بل من المؤكد ان ابن حفصون وإن لم يستسلم ولم ييأس، فإنه لم يسجل انتصاراً واحداً على الأمير عبد الله في السنوات الأخيرة من حكمه أي منذ مطلع القرن العاشر للميلاد. لقد صارت ثورة ابن حفصون في تراجع مستمر على الأرض كما في عيون وقلوب المعارضين لبني أمية في الأندلس. ففي الصوائف التي توالت بقيادة ابني الأمير أبان والعاصي كانت السلطة الشرعية تحقق تقدماً هاماً على الأرض على حساب الثائر ابن حفصون. وما استطاع المتمرد خلال هذه الفترة أن يبادر الدولة في حرب واحدة جدية، كما كان يفعل في السابق، مكتفياً بغارات وغزوات محدودة ما كانت نتائجها إلا سلبية في أكثر الحالات وما أسفرت إلا عن فقدان قواعد وحصون خضعت لسلطانه فترات طويلة.

الثوار البربر:

- **بنو موسى بن ذي النون**: استقرت عائلة بني ذي النون البربرية منذ بداية الفتح

الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبرية، في كورة شنت برية واتخذت من مدينة شنت برية[1] Santaver بالذات مقراً لها. ولعبت العائلة دوراً مميزاً في حماية منطقة الثغور من هجمات النصارى الإسبان. ومع مجيء الأمير عبد الله وما رافق عهده من خروج وانتزاء حاول موسى بن ذي النون استغلال أوضاع البلاد السيئة وضم مدينة طليطلة الهامة إلى مناطق نفوذه، ونجح في ذلك وبقيت تحت سلطانه حتى سنة ٨٩٧ م (٢٨٤ هـ). وفي هذه الفترة بالذات اتسع نفوذ موسى كثيراً وعمرت كورة شنت برية بالحصون والقلاع وازدهرت تجارتها وزراعتها وكثرت ثرواتها. وبوفاته في سنة ٩٠٨ م (٢٩٥ هـ) توزع الزعامة في الكورة أبناؤه يحي والفتح ومطرف[2]. وبقي بنو ذي النون يرفعون لواء الخروج على سلطان قرطبة حتى مجيء الأمير الناصر الذي استنزل يحي ومطرف وأدخلهما في خدمته. أما الفتح فكان قد قتل منذ سنة ٩١٥ (٣٠٣ هـ).

- **عمر البنزوتي (المعروف بالملاحي)**: ثار في كورة جيان وكان في الأصل جندياً من جنود عامل المدينة فانتزى عليه وغدر به واستقل بحكم قصبة المدينة[3]. أرسل الأمير عبد الله له قائده محمد بن أبي عبدة الذي تمكن من هزيمته وأسره وحمله إلى قرطبة.

- **خليل وسعيد ابنا مهلب**: وكانا من وجوه ومقدمي البربر في كورة ألبيرة. تأثرا بالجو العام الشديد الاضطراب[4] في منطقتهما بسبب الصراع بين العرب والمولدين واستقلا كل منهما في حصن له دون أن يخلعا طاعة الأمير عبد الله. قاتلا ابن حفصون أكثر من مرة فأقرهما الأمير على ما بيدهما. توفي خليل في أيام الأمير عبد الله واستنزل الأمير عبد الرحمن الناصر سعيداً[5].

---

(١) (٢) Los Banu, Di-L-Nun en Toledo, A. Nanai, p. 43.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٠٦.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٠٨.

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، صفحة ٢٥٩.

الثوار العرب :

- **عمر بن أضحى الهمذاني** : كان من وجهاء العرب ومقدميهم في كورة البيرة تزعم واستقل برضى وموافقة الأمير عبد الله ، وبقي كذلك حتى أيام الأمير عبد الرحمن الناصر.

- **ابن عطاف العقيلي**(١) : واسمه الكامل إسحق بن إبراهيم بن صخر بن عَطَّاف بن الحصين بن الدجن العقيلي(١). عاصر ثلاثة من أمراء بني أمية. كان من المقربين من الأمير محمد ورافقه في أكثر من صائفة من صوائفه. كان أديباً، شاعراً، بليغاً يخطب في الأعياد ومجالس المحافل وأيام التبريز للمغازي(٢) على زمن الأمير محمد وابنه المنذر. وفي أيام الفتنة على زمن الأمير عبد الله حل في حصن منتيشة Mentesa بكورة جيان فحصنه ورمم أسواره وأبراجه وامتنع به من ابن حفصون وأهل الخلاف معترفاً بسلطان أمير قرطبة. وبقي كذلك حتى أيام الأمير عبد الرحمن الناصر الذي استنزله إلى قرطبة(٣).

- **أبو يحي محمد التجيبي** : المعروف بالأنقر، حل في مدينة سرغوسة وغدر بعاملها، من قبل الأمير عبد الله أحمد بن البراء القرشي، وقتله ونصب نفسه مكانه. أظهر الطاعة للأمير والولاء لحكومته. تظاهر هذا بتصديقه، إذ ما كان قادراً آنذاك على أن يفعل ما يريد، من الثأر لمقتل عامله، وأقره على ولاية المدينة التي بقي يدبر أمورها حتى استنزله عبد الرحمن الناصر.

بنو حجاج في أشبيلية :

ما شذت أشبيلية، ثاني أكبر مدن دولة الإسلام في إسبانيا بعد العاصمة قرطبة عن خط الفتنة والفرقة فانزلقت منذ بداية عصر الأمير عبد الله نحو صراع

---

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ٢ ، صفحة ٣٧٦.

(٢) (٣) الحلة السيراء، ابن الابار، جرء ٢ ، صفحة ٣٧٦.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢ ، صفحة ٢٠٨ .

دموي بين أبنائها تواجه فيه بشراسة وحقد ولسنوات طويلة فريقان من أبنائها. في أواخر القرن التاسع للميلاد كانت الحاضرة الرومانية الكبرى قد صارت مدينة أشبيلية الأندلسية المسلمة بأكثرية القاطنين فيها. ذلك إن جل سكان المدينة وأحوازها كانوا قد تحولوا إلى الإسلام وصاروا من طبقة المولدين. وإلى جانب هؤلاء كان يعيش في المدينة نصارى إسبان استعربوا وقبلوا سيادة دولة الإسلام وتعايشوا مع المسلمين في توافق ورضى تامين. إنما لا بد من الإشارة هنا ان المدينة وما كان لها من أمجاد قديمة ومن تقاليد رومانية وقوطية عريقة جعلت أهلها يحتفظون بشعور وطني مرهف وظل حبهم لإسبانيا ولقوميتهم عاملاً بارزاً في مختلف مظاهر حياة الأشبيليين. وإلى جانب هؤلاء انتشرت أعداد كبيرة من البربر يعملون داخل المدينة وفي أحوازها وسهولها الواسعة الغنية جداً بمياهها وثرواتها الزراعية. وأيضاً نزل في أشبيلية عدد من السكان العرب توزعوا في داخل المدينة وفي أريافها حيث شكلوا طبقة غنية مترفة امتلكت المزارع الخصبة الواسعة وأقامت عشرات الحصون والقلاع والقصور الفخمة في المناطق الزراعية الخصبة الممتدة على جانبي نهر الوادي الكبير أو في المرتفعات القريبة من المدينة. وكانت الزعامة والريادة بين عرب إشبيلية لعائلتين من عرب اليمن: بنى حجاج اللخميين وبني خلدون الذين يعودون إلى أصول حضرمية[1]. ولو عدنا إلى دراسة الوضع السياسي لعرب إشبيلية لما وجدنا عندهم ما يمكن أن يشتكوا منه. إذ كانت لهم ثروات ضخمة وكان لهم وضع اجتماعي وسياسي مميز في أشبيلية، كما في العاصمة التي كانت سلطاتها تحرص دائماً على الدفاع عن مصالحهم وعلى مراعاة مكانتهم وأصلهم العربي. ومن جهة ثانية كانوا على صلات وثيقة وتوافق دائم مع المسلمين الإسبان يتعاملون معهم ويتزاوجون منهم. نذكر على سبيل المثال إن بني حجاج كانوا من جهة أمهم من أصل قوطي نبيل يصل بهم إلى الأميرة سارة حفيدة غيطشة أحد أواخر ملوك القوط.

(١) نسبة إلى حضرموت.

ومع هذا احتدم صراع عنيف بين العرب والمولدين سرعان ما شاركت فيه عناصر أخرى منساقة وراء سائر الحساسيات والانقسامات التي وفدت على إسبانيا مع المسلمين أو استجدت مع قيام دولة الإسلام في الأندلس. لم يكن هناك سبب حقيقي يبرر ذلك الصراع الطويل والدامي غير الطموح الشخصي عند كريب بن عثمان بن خلدون والرغبة في تحقيق الأمجاد والحصول على المكاسب. بالطبع كانت هناك أسباب أخرى يوردها بعض المؤرخين على انها أساسية، إنما في الواقع ما كانت إلا فرعية ومساندة. هناك الصراع داخل أشبيلية على الوجاهة والرئاسة بين العائلات الكبيرة المولدة وبين الزعماء العرب وخاصة بني خلدون وبني حجاج، وهناك ما كان يأخذه على الدولة بعض العرب في كورة أشبيلية من تفضيل وتقديم أمراء بني أمية لمواليهم على حساب باقي العرب، وهناك الحساسية بين القيسية واليمنية وجل عرب أشبيلية من اليمنية. إنما في الواقع هذه الاعتبارات ما عرقلت في يوم من الأيام مصالح عرب أشبيلية ولا جعلتهم موضع ظلم أو حتى إهمال سلطات قرطبة. كان كريب بن خلدون أول من حاول أن يشق الوحدة في أشبيلية ويخرج على سلطان العاصمة، دون أن يعلن ذلك جهراً، إذ بدأ منذ سنة ٨٨٦ م (٢٧٦ هـ) يجمع حوله بعض العرب اليمنيين فيثير عندهم النعرات القيسية اليمنية ويحرضهم على السلطات الأموية في العاصمة. اتخذ قاعدة له ومنطلقاً لتحركاته حصناً، يعرف باسم برج ابن خلدون في منطقة الشرف المطلة على أشبيلية. وأيضاً التحق به عدد من البربر البرانس بسبب كرههم للبتر الذين كانوا يشكلونْ أغلبية البربر المنتشرين في المنطقة والذين كانوا آنذاك يوالون الدولة والأمير. وكانت تحركات هذا التحالف، غير المتجانس أصلاً، والذي اعتمد العنف ومارس العدوان وقطع الطرق وأعمال السلب والنهب في كل مناطق غرب الأندلس، موجهة بصورة مباشرة ضد المولدين. لذا كان من الطبيعي وبدافع المحافظة على البقاء وحماية الأنفس والأموال، وبسبب ضعف السلطة المركزية

---

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 230.

وغياب فعاليتها، أن يقوم تحالف مقابل يضم الإسبان من مولدين ومستعربين وبعض البربر البتر. وأمام التدهور المتزايد للأوضاع الأمنية في أحواز أشبيلية وعلى دروبها ومسالكها وبصورة خاصة على طريق قرطبة الهامة والأساسية اعتمد المولدون والمستعربون وأصدقاؤهم البربر على أنفسهم، وبموافقة الأمير، فأخذوا على عاتقهم أمر حماية أمن هذه الطريق الرئيسية. تصدى للقيام بهذه المهمة واحد من شجعان المولدين يدعى محمد بن غالب. نجح هذا الرجل نجاحاً باهراً في مهمته وذاع صيته في كل كورة أشبيلية، مما أغضب كريب بن خلدون وأيضاً بني حجاج الذين كانو ينزلقون تدريجياً، بدافع العصبية القبلية وأيضاً المصالح نحو التعاون والتحالف المكشوف مع بني خلدون. خرج هؤلاء للتصدي له فقاتلهم بشجاعة وردهم وقتل واحداً من بني حجاج. هذا الحادث الصغير أهاج الحساسيات بين العرب والمولدين وانتشرت الفتنة وعمت الفوضى في المنطقة بشكل لا سابق له. ومما زاد في تعقيد الوضع فشل أمية بن عبد الغافر والي أشبيلية من قبل الأمير عبد الله في التصدي للفتنة والمحافظة على الأمن، مع ان الأمير كان قد أرسل له ابنه الأمير محمد وكان ولداً صغيراً، ليشد من أزره وليدعمه بوجه أخصامه. وقد عمد ابن أمية أخيراً إلى تحريض أحد حلفاء بني حجاج ويدعى ابن وهب القرموني على حليفه عبد الله بن حجاج زعيم بني حجاج فقتله وأرسل رأسه إلى أشبيلية لاسترضاء عاملها. هذا الحادث زاد في قوة التحالف المعادي للمولدين وللسلطة المركزية والذي يقوده بنو حجاج وبنو خلدون. وقد انتهى الأمر بزعيم بني حجاج الجديد إبراهيم وحليفه كريب بن خلدون بأن احتالا على عامل أشبيلية وهاجما قصره وقتلاه ثأراً لعبد الله بن حجاج.

أمام تطور الصراع بين المولدين والعرب في أشبيلية وانتشاره إلى سائر مناطق غرب الأندلس وأمام تكاثر الاصطدامات الدموية بين الفريقين في شوارع المدينة وأحيائها كما في سائر ضواحيها رأى الأمير عبد الله رغم كثرة مشاغله ورغم ما كان يعطيه من أهمية ومن أولوية للقضاء على ثورة ابن حفصون أن يبادر إلى

إرسال حملة عسكرية كبيرة بقيادة ابنه المطرف في سنة ٨٩٥ م (٢٨٢ هـ). وقد أرسل معه وزيره وقائده المجرب عبد الملك بن أمية. ولأسباب ليست كثيرة الوضوح أقدم المطرف، عندما صار أمام أبواب أشبيلية على اغتيال قائد ووزير أبيه وقدم على قيادة العسكر أحمد بن هاشم[1]. هذا الحادث ما استساغه الأمير عبد الله كثيراً مما سيؤدي به فيما بعد إلى جعل ابنه المطرف يدفع حياته ثمناً لجريمته. نجح المطرف في إخضاع الثائرين بعد معركة عنيفة جرت عند أسوار المدينة قتل فيها منهم خلقاً كثيراً وأسر كثيرين من زعماء الفتنة العرب، منهم إبراهيم بن حجاج نفسه وخالد بن كريب بن خلدون. وفعلاً خضعت مدينة أشبيلية لمطالب السلطة المركزية وسلم زعماؤها الضرائب المتأخرة عليهم مما جعل الأمير عبد الله يطلق سراح رهائنه.

وبعودة زعماء الفتنة من العرب إلى أشبيلية، عادوا عن العهود التي سبق أن قدموها إلى الأمير واتفقوا على أن يحكم أشبيلية ومنطقتها مناصفة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون[2]. والواقع أن الأمير عبد الله ما كان راضياً عن هكذا اتفاق يخرج منطقة أشبيلية بكاملها عن سيادته وسلطانه ويؤكد في نفس الوقت تسلط زعماء الفتنة من العرب المتشددين على سائر السكان من مولدين وقيسيين ومستعربين هم أولاً وأخيراً من رعايا الأمير وممن يلتزم بحمايتهم والدفاع عنهم. ولما كان عاجزاً عن التخلص منهما أو إخضاعهما فقد راهن على عامل الوقت يستغل خلاله تناقض مصالحهما وتنافسهما على الزعامة. صار الأمير يضرب بينهما «ويكاتب كل واحد منهما بما يراه من صاحبه»[3]. وعمد في أكثر من مناسبة إلى إطلاع كل واحد منهما على رسائل الآخر وعلى ما يضمره له مما أدى إلى فقدان ثقة كل واحد منهما بالآخر وحقده عليه وانتهى الأمر بأن صمم إبراهيم بن حجاج

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٧.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٨.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٨.

على التخلص من زعماء بني خلدون فدعاهم إلى وليمة في قصره انتهت بمقتل كريب بن خلدون وأخيه ومساعده خالد. وبذلك خلا له الجو وانقاد له جميع أهل الكور الملاصقة لأشبيلية. وكتب بذلك إلى الأمير عبد الله مدعياً انه ما فعل ذلك إلا لكونهم كانوا يحرضونه على الأمير وطلب منه ولاية أشبيلية، وذلك في سنة ٨٩٩ م (٢٨٦ هـ)[1]. وقد أجابه الأمير إلى ذلك وانفرد إبراهيم بن حجاج بحكم أشبيلية وقرمونة وأحوازهما بموافقة الأمير عبد الله وبعهد خطي منه.

كما نجح إبراهيم كثائر ومتمرد، وفرض نفسه على الأمير عبد الله كعامل يحكم باسمه كورة أشبيلية بكاملها، كذلك برع وظهر كإداري ممتاز وكحاكم قدير في زمن السلم وفي ظل الشرعية. لقد جعل من مقاطعته دويلة شبه مستقلة، نصب نفسه شبه ملك عليها. لقد جعل من نفسه فعلاً أكثر من حاكم عادي فكان له بلاط أشبه ببلاط ملك واتخذ لنفسه حرساً خاصاً بلغ تعداد فرسانه خمسمائة[1]. وإذا كان لم يجاهر في أكثر أوقاته بمعصية الأمير والخروج على سلطانه فإنه كان يتصرف داخل كورة أشبيلية تصرف السلطان، فكان له قاضٍ يعينه هو يقوم بالحكم وكان له صاحب مدينة يقيم الحدود. وأقام لنفسه داراً للطراز تتولى حياكة لوازم القصر من الملابس والستائر يطرز فيها على اسمه كما يفعل السلطان. وكذلك نظم الضرائب وأحسن جبايتها. وكان يغدق الهدايا باستمرار على الأمير عبد الله إظهاراً منه لاستمرار خضوعه وولائه. وكان أيضاً أديباً، شاعراً محباً للعلم، وأهله، «يرتاح للثناء ويعطي الشعراء عداد الأموال». نزل في رحابه وأفاد من جوده وكرمه أكثر من شاعر وأديب. ولعل أشعر هؤلاء وأشهرهم أبو عمر بن عبد ربه الذي أفضل عليه وعرف له حقه فمدحه بأماديح مشهورة[2]. وما كان أكثر اهتماماً بالشعر والأدب منه بالفن والطرب. فقد سمع بجارية بغدادية اسمها قمر

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨٩.
(٢) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ٢، صفحة ٣٧٦ ـ البيان المغرب، جزء ٢، صفحة ١٩٠.
(٣) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ٢، صفحة ٣٧٧.

كانت ذات بيان وفصاحة ومعرفة بالألحان والغناء «فوجه بأموال عظيمة إلى المشرق في ابتياع هذه الجارية إلى أن استقرت بدار مملكته بأشبيلية».

وقد ظل يحكم حتى وفاته سنة ٩٠١ م (٢٨٨ هـ) فخلفه ابنه عبد الرحمن على أشبيليه وابنه محمد على قرمونة. وبقيا على ذلك حتى مجيء الأمير عبد الرحمن الناصر.

عصيان العرب في ألبيرة:

كورة ألبيرة في القرن التاسع للميلاد تقابل تقريباً، من ناحية حدودها ومناطقها الجغرافية، أقليم غرناطة الحالي في جنوب مملكة إسبانيا. كانت مدينة ألبيرة القديمة البناء، العريقة الماضي، أهم حواضر الكورة وقاعدتها ومقر حاكمها قبل وصول الإسلام إلى تلك الديار، وفي السنوات الأولى من قيام دولة الإسلام في شبه الجزيرة الإيبرية. وللكورة وعاصمتها بالذات تقاليد عريقة في النصرانية. فمن الشائع ان أوائل دعاة المسيحية حلوا فيها فسبقت سائر مناطق شبه الجزيرة إلى اعتناق عقيدة السيد المسيح. وبسرعة تأصلت فيها المسيحية ورسخت قواعدها فكانت مقراً لأول مجمع مقدس أقامته الكنيسة المسيحية في سنة ٣٠٠ ميلادية[١] في إسبانيا. دخلها المسلمون، فما تعرضوا، على عادتهم ووفقاً لتعاليم دينهم، لمعتقدات أهلها الذين ظلوا على عقيدتهم بالرغم من تواجد دين الإسلام في المدينة كما في سائر أنحاء الكورة. ومع ان حنشاً الصنعاني[٢] أرسى في المدينة دعائم واحد من أوائل مساجد الأندلس فإن عدد كنائس ألبيرة ظل كبيراً وبقيت هذه تعمر كل يوم بروادها الكثر من المؤمنين لأن سكان المدينة، كما سائر سكان الأقليم ظلوا في جلهم، أوفياء للكنيسة المسيحية متعلقين بديانة المسيح حتى مجيء عصر الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط)[٣]. مع هذا الأمير، وما بدا

---

(١) Historia de Los Musulmanes de Espana, Dozy, TI, p. 314.

(٢) (٣) Historia de Los Musulmanes de Espana, Dozy, TI, p. 315.

في عهده من انتشار دين الإسلام في شبه الجزيرة الإيبرية ورسوخ دعائم دولتـه فيها، وأيضاً مع ما أخذ يسطع في سمائها من الأنوار الباهرة للحضارة الأندلسية الجديدة، بدأ تحول ناشط بين سكان الكورة والمدينة نحو اعتناق الإسلام. ومع إطلالة النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد كانت الخريطة السكانية للأقليم قد اتخـذت شكلاً جديداً ومغـايراً لمـا طالمـا كان عليه. هذا التغير في التركيبـة السكانية، ما حدث فقط بسبب من تحولوا من الإسبان نحو الإسلام وإنما أيضاً بسبب كثرة من وفدوا إلى الأقليم من عرب وبربر انتشروا في قراه ومزارعه وعمروا حصونه وقلاعه. فإلى جانب عنصر المولدين الذي بات يشكل أغلبية في التركيبة السكانية الجديدة، صارت هناك عناصر من البربر، وبعض العرب البلديين أبناء الطالعات العربية الأولى، وكذلك بعض الشاميين. ويجب أن لا ننسـى اليهـود الذين كانوا ومنذ عصور قديمة يتواجدون في المنطقة بأعداد وفيرة خاصة في مدينة غرناطة التي كان اسمها آنذاك، نسبة لهم، «أغرناطة اليهود». هذا التغيير الذي طرأ على تركيبة الأقليم السكانية، مع وجود أغلبية كبيرة من المولدين، أعطاها طابعاً قلقاً أبعدها عن التجانس القومي والعنصري، مما لم يعد يسهل الحياة فيها على العموم. كان مصدر عدم التجـانس عاملين رئيسيين: فالمولـدون، بالرغـم من صدق إسلامهم ومن كونهم تعاملوا بإخلاص وصـدق مع سلطـات قرطبـة التـي أعطتهم دوماً الرعاية والحماية من أي ظلم أو عدوان، ما نسوا في يوم من الأيام ماضيهم العريق وأمجاد بلدهم في ظل النصـرانية، وعـظيم مكانتهـا أيام القـوط القدماء. ثم إن العرب في تلك المنطقة شكلوا أقلية، غنية، مترفة، واسعة الثراء تسيطر عليها عقدة العظمة والتعالي على باقي السكان مما لم يقربهـم أبـداً من المولدين أو المستعربين أو حتى من البربر واليهود. فهم ما أقاموا، إلا قليلاً في مدينة ألبيرة، واختاروا السكن في قلاع وقصور وأبراج في المنطقة المحيطة بها وسط سهول غنية يستغلونها بواسطة فلاحين أتبـاع لهـم من البربـر أو من أبنـاء

---

(١) Levi-Provencal, Historia de Espana, T IV, p. 222.

البلاد الأصليين، نصارى ومسلمين، بشروط وظروف أبعد ما يكون عما يأمر به الإسلام من رحمة ومودة وإنصاف. وبصورة عامة ما كانت العلاقة بين أبناء العصبيتين في يوم من الأيام، في كورة ألبيرة حسنة، والمولدون ما استساغوا أبداً تعالى العرب عليهم وغطرسة رؤسائهم وأشرافهم.

ومنذ ما قبل ارتقاء الأمير عبد الله سدة الحكم في قرطبة وبسبب هذه الحساسية وأيضاً للأسباب التي من أجلها انتزى عرب أشبيلية ورفعوا لواء الفرقة والعصيان بوجه السلطة المركزية، كان عرب ألبيرة قد تمردوا في منطقة البراجلة وزعموا عليهم واحداً منهم له مال ووجاهة وإقدام هو يحي بن صقالة القيسي[١]. اتخذت هذه الحركة منذ قيامها وجهاً معادياً للمولدين مما أسفر عن وقوع أكثر من صدام دموي بين الفريقين. كان أوقع هذه الاصطدامات أثراً وأشدها إيلاماً حين نجح المولدون بالتعاون مع عناصر مستعربة في إلقاء حصار على قلعة منت شاقر Montejicar، في شمال شرق غرناطة والتي كان ابن صقالة يتخذها قاعدة لحكمه ومنطلقاً لغاراته وغزواته. انتهى الحصار بنصر كبير للمولدين واستسلام المقاتلة العرب وهرب ابن صقالة. إلا ان هذا ما لبث أن وقع بأيدي أعدائه المولدين فغدروا به[٢] وذبحوه مع جمع من أقربائه ومؤيديه مما زاد في عمق الهوة بين العرب والإسبان من مولدين ومستعربين.

بعد مقتل يحي بن صقالة آلت زعامة العاصين من العرب، على سلطان قرطبة، إلى فارس من شجعانهم امتاز بالجرأة والإقدام وأيضاً عرف بالدهاء

---

(١) عرف به ابن الأبار في كتابه الحلة السيراء جزء ١، صفحة ١٤٨، على إنه: «يحي بن صقالة ـ أول الخارجين بالبراجلة بهذه الدعوة (العصبية) ـ عن استبصار شديد وحمية، فصب على المولدين والعجم منه ومن أصحابه أعظم آفة إلى أن أصابوا منه غرة فثاروا به بغتة وقتلوه».

(٢) كان يحي بن صقالة القيسي قد «وادع أهل حاضرة ألبيرة الذين دعوتهم للمولدين والمسالمة وعقد بينه وبينهم أماناً مؤكداً، حلفوا عليه إيماناً مغلظة توثق بها منهم، واطمأن إليهم فجعل يأتي حاضرتهم ينزل فيها ويقيم الأيام، وهم يرصدون منه غرة في بعض قدماته إليهم، فثاروا به بغتة وقتلوه» المقتبس، ابن حيان، تحقيق انطونيا، صفحة ٥٥.

والخبرة في التعامل مع الناس فتجمعت حوله العرب على ما بينها من حساسيات قبلية وانقسامات بين شامية وبلدية. وكان على هذا الزعيم ويدعى سوار بن حمدون القيسي أن يثأر فوراً لمقتل سلفه وأيضاً لمقتل ابنه البكر في نفس الظروف، فهاجم حصوناً وقلاعاً للمولدين وانتقم من أهلها ووصل بغاراته الدموية حتى مدينة قلعة رباح مما جعل المولدين يستنجدون بعامل مدينة ألبيرة طالبين الحماية من الدولة التي طالما منحتهم إياها. حاول جعد بن عبد الغافر الخالدي عامل الأمير على كورة ألبيرة أن يتصدى لسوار وأنصاره فهزم وقتل كثير ممن كانوا معه في سنة ٨٨٩ م (٢٧٦ هـ) ووقع هو أسيراً بيد خصمه الثائر[١]. هذه المعركة كرست انتصار الثائر سوار على حاكم المدينة ومن معه من مولدين ومستعربين وعممت سيادة العرب على حصون المنطقة وقلاعها بما في ذلك مدينة غرناطة التي اتخذ منها الثائر قاعدة له. ومن هناك قاد أكثر من حملة ضد ابن حفصون الذي انقلب في أحداها «مهزوماً وتولى ملوماً مذموماً، قد أثقل بالجراح وقتل قواده في ذلك الكفاح»[٢]. إلا أن سوار ما لبث بعد ذلك أن وقع في كمين نصبه له بعض حلفاء وأتباع عمر بن حفصون فقتلوه بالقرب من غرناطة ومثلوا بجثته[٣]. ومذ ناصب سوار بن حمدون[٤] ومن معه من العرب، عمر بن حفصون العداء وجد مولدو كورة ألبيرة أنفسهم في خندق واحد مع سيد ببشتر وتشابكت بعد ذلك

(١) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٢، صفحة ٢٠٢.

(٢) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٢، صفحة ٢٠٣.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٠٣.

(٤) يعرفه ابن الأبار في كتابه الحلة السيراء صفحة ١٤٧ وما بعدها بانه كان صاحباً ليحي بن صقالة الذي «رأس بعده أصحابه سواراً هذا فاشتد به أمرهم وقام طالباً بثأر صاحبه وكان شجاعاً محرباً فكثر أتباعه، واشتدت شوكته واعتز العرب بمكانه، فلفف جموعها وحمى دمارها، وسعى لادراك ثأرها». ثم قال: «وغلظ أمره فاستبق إلى حصن غرناطة بالقرب من مدينة ألبيرة، وصعد إليه فتبوأه داراً اجتمعت إليه فيه عرب كورة ألبيرة وكاتبته عرب النواحي إلى حدود (قلعة رباح) وغيرها وكانت دار الداخلين إلى الأندلس من بكر وائل فصاروا إلباً معه على المولدين. ونجح سوا ربما تهيأ له على أعدائه، وعلت همته وأملته العرب وعلا فى الناس ذكره، وقال الأشعار الجزلة، وأكثر الفخار بنفسه وقومه». «وقتل فى صدر سنة سبع وسبعين ومائتين، فكان أمده فى رئاسته نحو العام».

الأحداث ودخل الأقليم وأهله من الإسبان ربما دون قصد في إطار ثورة ابن حفصون وتفاعلوا مع أحداثها. قدم العرب عليهم بعد ذلك أحد فرسانهم ممن اشتهروا بالشعر والأدب، أكثر مما عرفوا في ساحات القتال وبرزوا في المعارك الحربية، هو سليمان بن جودي السعدي[1]. ولو انه ما كانت له بالفعل صفات الزعامة والقيادة العسكرية في مثل تلك الأوقات الصعبة فإنه نجح في جمع العرب وكبح جماح انقساماتهم وخلافاتهم وأنزل بابن حفصون، في البداية على الأقل، هزائم مما جعل الأمير عبد الله يقره على ولاية كورة ألبيرة. واستمر في ذلك إلى أن نجح ثائر ببشتر في المكر به وقتله غيلة في دار عشيقة له يهودية في سنة ٨٩٧ م (٢٨٤ هـ).

خلفه في رئاسة عرب ألبيرة، وبموافقة الأمير عبد الله نفسه محمد بن أضحى الهمذاني[2]، الذي ظل صامداً، رغم أكثر من هزيمة مني بها بوجه الثائر ابن حفصون وبوجه المولدين[3] عموماً حتى مجيء عهد الناصر. إلا انه في كل

---

(١) عرف به ابن الأبار في كتابه «الحلة السيراء». الجزء الأول صفحة ١٥٤، وما بعدها قائلاً: «هو سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن أدريس السعدي، هو من هوازن من جند قنسرين. ولما قتل سوار بن حمدون ذلت العرب بمقتله، وكل حدها بما نزل فيه، وكان قد أصيب على يدي بعض أصحاب ابن حفصون. فيقال إن جثته مزقها ثكالى نساء المولدين قطعاً، وأكله كثير منهن حنقاً عليه، لما نالهن به المرة بعد المرة من الثكل في بعولتهن وأهليهن. فنصبت العرب لإمارتها بعده سعيد بن سليمان بن جودي صاحبه، وعلقت آمالها به، فلم يسد مكانه، ولا بلغ مداه في السياسة. على انه كان شجاعاً بطلاً، وفارساً محرباً، قد تصرف مع فروسيته في فنون العلم، وتحقق بضروب الأدب، فأغدى أديباً نحريراً وشاعراً محسناً، تعد له عشر خصال تفرد بها في زمانه لا يدفع عنها: الجود، والشجاعة، والفروسية، والجمال، والشعر، والخطابة، والشدة، والطعن، والضرب، والرماية. وهابه ابن حفصون هيبة لم يهبها أحداً ممن مارسه، إذ لم يلقه قط إلا علاه وهزمه».

(٢) عرف به ابن الأبار في كتابه «الحلة السيراء» جزء ٢، صفحة ٣٧٩، فقال: «من أكابر أبناء العرب بكورة ألبيرة... وكان ابن أضحى هذا ـ مع رجوليته ـ أديباً خطيباً، يقوم بين أيدي الخلفاء في المحافل فيحسن القول ويطيب الثناء.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٠٤.

الحالات ما نجح في إيقاف الحرب الأهلية في كورة ألبيرة والتي استنفذت طاقات العرب والمولدين على السواء.

في سنة ٩١٢ م (٣٠٠ هـ) توفي الأمير عبد الله بعد حكم دام خمساً وعشرين سنة، عمت فيها الفتنة وشاع التمزق والعصيان، وتراجع سلطان قرطبة كما لم يحصل منذ قيام دولة الإسلام في إسبانيا. لقد عمل الأمير بجهد متواصل ومثابرة عظيمة لإنقاذ الدولة وإعادة اللحمة بين مناطقها. وإذا كان لم ينجح في القضاء نهائياً على الفتنة لأنها على ما يظهر كانت أكبر منه فإنه تمكن من الانتصار على عدد كبير من الثائرين واستعاد لمنطقة نفوذ حكمه ولو شكلياً مدناً كبرى مثل أشبيلية وسرقسطة وجيان سلكت في وقت من الأوقات مسالك الفرقة والتمرد. وعلى كل حال فمن المؤكد انه قد تمكن من وقف البلاد عن السير في طريق الانهيار الكامل كما حافظ على الحد الأدنى من هيبة الدولة، وخيال الوحدة، مما سيسمح لخلفه عبد الرحمن الثالث (الناصر) أن يعيد وحدة دولة الإسلام في إسبانيا في ظل عصر جديد هو عهد الخلافة الأموية.

وإذا كانت مشاغل الأمير عبد الله العسكرية قد أبعدته عن الاهتمام بالأمور الحضارية وعن تحقيق المنجزات الكبيرة فلا بد من أن تذكر له مأثرته باحتلال جزر الباليار وإدخالها في حظيرة دولة الإسلام. لقد تبنى الأمير عبد الله على كثرة اهتماماته وقلة موارده المالية مشروعاً قدمه له عصام الخولاني لاحتلال هذه الجزر فأعطاه المال اللازم وزوده بما طلب من سفن فقام في سنة ٩٠٣ م (٢٩٠ هـ) باحتلال جزيرة ميورقة ومنها نشر نفوذه إلى سائر الجزر الصغيرة القريبة منها.

الباب الرابع

الخِلاَفَة الأمويَّة

الفصل الأوّل

الأميرعبدالرّحمن الثّالث النّاصِر
(٩١٢ ـ ٩٦١م) ,(٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ)

مع إطلالة القرن الرابع للهجرة، وفي وقت كان يبدو فيه للناس وكأن دولة الإسلام في الأندلس باتت تلفظ أنفاسها الأخيرة، بعد أن فقدت وحدتها وكثر ثوارها وتفرقت كلمة أهلها، صارت الإمارة الأموية إلى الشاب ابن الثالثة والعشرين ربيعاً عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله. ذلك انه عند وفاة الأمير عبد الله في ربيع الأول من سنة (٣٠٠) للهجرة (٩١٢ م) خلفه حفيده عبد الرحمن، من دون سائر أولاده وإخوته، وما كانوا قليلي العدد آنذاك. ويبدو إن اعتبارات عديدة جعلت أمراء بني أمية ومقدميها يتجاوزون قواعد الوراثة، وحقوق القربى ليضعوا مصير دولة الإسلام في إسبانيا بيد ذلك الشاب، الذي أنسوا فيه قوة ورجولة، وعرفوا عنده الحكمة والشجاعة، وخبروا الإقدام والعزم لديه، في وقت كانت فيه أزمة الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية قد استفحلت وطالت وجاوزت عامها الستين دون أو يوفق أمير أو قائد للقضاء على أسبابها والتخلص من مظاهرها وشرورها.

ولد الأمير عبد الرحمن الثالث في السابع من كانون ثاني سنة ٨٩١ م (٢٢

رمضان ٢٧٧ هـ)[١] وقبل مقتل أبيه محمد على يد عمه المطرف في ظروف شابها الغموض. لقد اختلف الرواة والمؤرخون فذهب بعضهم دون دليل قاطع إلى ان لوالدهما الأمير عبد الله يداً في هذه الجريمة[٢]. وقد انطلق هؤلاء في اتهامهم للأمير عبد الله من كون ابنه قد لحق في يوم من الأيام بعمر بن حفصون في قاعدته ببشتر وصادقه وولاه ومعه مجموعة من أهل الدعارة والفساد[٣]. ذلك إن محمداً كان وثيق الصلة بإسبانيا، فأمه مزنة، جارية من الإسبان البشكنس على الأرجح وجدته لأبيه أتيغا أميرة بشكنسية عريقة في أصلها. كفل عبد الرحمن بعد مقتل أبيه، جده الأمير عبد الله، وأسكنه معه دار الإمارة دون سائر ولده محاولاً بذلك أن يعوضه ما فقده من حنان الأب وعطفه، وأضفى عليه من أسباب الرعاية والاهتمام ما ساعد شخصيته على النمو والتكامل، وما سهل له أسباب الحصول على المعارف والعلوم والخبرات، فبرع في الآداب والعلوم الدينية كما فاق أترابه في فنون الحرب والقتال. والواقع إن إقامته في دار الحكم جعلته قصداً أو بالمصادفة مقدماً على سائر أعمامه، يحضر مجالس الحكم ويشارك في أعمال الدولة، خاصة بعد أن أخذ يظهر الكثير من الذكاء والمقدرة حتى إن جده ما تردد أكثر من مرة في أن «أقعده في بعض الأيام والأعياد مقعد نفسه لتسليم الجند عليه»[٤]. وهذا جعل الناس في الأندلس وفي محيط الحكم والإدارة يعتادون رؤية الأمير الشاب يباشر أمور الحكم والدولة بحزم ومقدرة مما جعلهم ينظرون إليه، وكأنه رجل المستقبل، أو كأن الرجل الكبير سناً ومكانة الأمير عبد الله قد عجم عيدان كنانته واختار أمرها عوداً وأصلبها مكسراً لخلافته في قيادة أمور البلاد. بل أكثر من ذلك يذهب بعضهم إلى ان انتقال السلطة إليه قد حصل بصورة مباشرة ومتعمدة إذ «إن الإمام عبد الله لما مرض برى بخاتمه إليه إبانة منه لاستخلافه»[٥].

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٣٥.
(٢) الكامل فى التاريخ، ابن الأثير، جؤء ٨، صفحة ٧٣ ـ تاريخ افتتاح الأندلس، صفحة ١٢٢.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٢٤.
(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٣٥.
(٥) Cronica Anonima صفحة ٢٩.

والواقع إن الأمير عبد الرحمن ما وجد صعوبة في الحصول على البيعة من أقاربه ومن سائر وجهاء ومقدمي العاصمة قرطبة خاصة بعد أن بادر أعمامه وأصحاب الحق في وراثة الإمارة بلسان كبيرهم أحمد بن عبد الله إلى مبايعته والترحيب بحكمه باعتبار ان ذلك كان بالنسبة لهم ليس فقط منتظراً بل مقبولاً ومسلماً به وكأنه نعمة ساقتها العناية الإلّهية إلى الأندلسيين. والواقع ان جواً من البشر والتفاؤل رافق صيرورة أمور دولة الإسلام في الأندلس إلى الأمير الشاب نظراً لما أبداه في حياة جده من مقدرة وحزم وذكاء ولما كان الأندلسيون ما يزالون يعلقون على سادتهم وحكامهم من بني أمية من آمال عراض في إقالة دولتهم من عثرتها التي استطالت، وفي إعادة وحدة الأمة والأرض بعد أن مزقتهما الثورات وأعمال التمرد والانفصال. وربما إن سائر أمراء بني أمية وخاصة بعض أعمامه ما كانوا صادقين كل الصدق في مبايعتهم لعبد الرحمن ولا تنازلوا عن طيب خاطر عن حق كانت الأعراف والتقاليد تعترف لهم به، مقدمين على الأمير الشاب، وإنما فعلوا ذلك من جهة اعترافاً منهم بكفاءته وتقديراً لفضله، ومن جهة ثانية إدراكاً منهم للأوضاع الصعبة التي كانت تجتازها البلاد والتي كانت تجعل تولي الإمارة في ذلك الحين أكثر من مغامرة غير مأمونة العواقب، وحملاً ثقيلاً بالأعباء لا يحسد عليه صاحبه. فمبايعة بعض أعمامه وإخوته له فور وفاة الأمير عبد الله كانت إلى حد كبير خوفاً وتهرباً من المسؤولية أكثر مما كانت تعففاً واحتراماً لمشيئة الأمير المتوفي. ولعل هذا ما يفسر لنا ما أظهره بعضهم من رغبة في الحكم وميل لاستعادة ما اعتبروه حقاً فقدوه دون مبرر منذ تمكن الأمير الشاب من وضع البلاد في أول دروب الخلاص والإنقاذ.

الاستقرار الداخلي:

لما كان الأمير عبد الرحمن الثالث على خبرة سابقة بأمور الدولة والحكم وعلى معرفة وثيقة بأوضاع الأندلس، التي باعد الخلاف بين أهلها، وشاع الانفصال في كورها، وعم الفساد بين قادتها ومقدميها، وكثر المتمردون في

حصونها ومعاقلها، فإنه ما تردد لحظة في أن يجعل لنفسه نهجاً ولدولته سياسة واضحة المعالم محددة الأهداف. لقد رأى أن يبتعد عن ما درج عليه أسلافه من معالجة الثائرين باللين والمرونة تارة، وبالعنف والقسوة تارة أخرى. بدأ يتصرف على أساس ان أوضاع دولة الإسلام في الأندلس بحاجة ماسة لحسم الأمور بصورة نهائية، والقضاء على كل مظاهر الفتنة والفرقة والانفصال، وبأسرع ما يمكن. كان يرى ان لتحقيق كل ذلك طريقين لا ثالث لهما: تركيز السلطة، كل السلطة، في يد قوية حازمة حكيمة مدبرة هي يده، وتوحيد البلاد، كل البلاد، بالقضاء على كل ثائر ومتمرد فيها لجعل الأندلس تحكم حكاً مركزياً قوياً نافذاً من عاصمتها قرطبة كما كان يحصل أيام عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط.

في نفس الوقت الذي كان فيه الناس في العاصمة يتقاطرون على المسجد الجامع في قرطبة يقدمون فيها بيعتهم أنفذ الأمير الكتب إلى سائر عمال الأقاليم والحواضر الكبرى، حتى في تلك المناطق التي كانت ترفع لواء الثورة والعصيان، معلناً بداية إمارته وطالباً البيعة له والولاء لحكمه ولدولته. وما اكتفى الأمير عبد الرحمن بذلك وإنما أخرج الأمناء إلى سائر أنحاء البلاد لأخذ البيعة له. وكان في رسائله وعبر رسله وموفديه يظهر القوة والحزم، وفي نفس الوقت يترك الباب مشرعاً للصفح والغفران أمام التائبين من العصاة والمتمردين. إنما في كل الحالات كان يظهر تصميماً لا حد له على فرض سلطانه على الجميع وفي كل الأندلس.

والواقع إن البلاد بدت آنذاك وكأنها قد سئمت الفرقة والقتال، وكرهت الحروب الأهلية ومآسيها ونأت عن موالاة المغامرين والطامعين، فتوالت رسائل الكور والمقاطعات وبأسرع مما ظن المتفائلون، تحمل للأمير بيعة حكام المناطق وأهلها. فكان أول جواب وأسرعه ورد على قرطبة بالبيعة جواب سعيد ابن السليم العامل بمارتش من كورة جيان[1]. وفي أسابيع قليلة كانت مدن كبيرة

---

(1) Cronica Anonima صفحة ٣١.

مثل سرغوسة، وكان عليها محمد بن عبد الرحمن التجيبي، قد أعلنت الطاعة والولاء للأمير مما أشاع في كل الأندلس جواً مشحوناً بالتفاؤل بقرب نهاية عصر الفتنة. ذلك ان سنوات الحرب الأهلية الستين قد أظهرت، إلى أي حد من المخاطر قد وصلت البلاد، خاصة والإسبان يحققون في الشمال من المكاسب الأقليمية والعسكرية والسياسية الشيء الكثير، مما ليس في صالح دولة الإسلام في إسبانيا على المدى الطويل. ثم إن تطور الأحداث قد أظهر ان الإسلام كدين وكعقيدة قد بات راسخ الجذور لا تؤثر فيه العواصف الانفصالية والرغبات الشخصية وبالتالي بقي الإسبان المسلمون، مع العرب والبربر، راغبين في الدفاع عن معتقداتهم ومقدساتهم متى لاحت لهم الفرصة. وقد وجدوا فرصتهم هذه في مارافق مقدم الأمير عبد الرحمن من تفاؤل وأمل بمستقبل أفضل.

وإذا كان كثير من الناس قد تجاوبوا مع دعوة الأمير عبد الرحمن للجنوح إلى السلم والاعتراف بسلطة الدولة فإن بعض الثائرين ظلوا على عنادهم، وتمسكوا بما بيدهم رافضين عروض الأمير. وكان في مقدمة هؤلاء زعيم ثوار الأندلس عمر بن حفصون الذي بات يعتبر نفسه وكأنه قد وصل إلى نقطة اللارجوع منذ ارتد عن الإسلام واتخذ النصرانية له ديناً.

في الوقت الذي كان الأمير عبد الرحمن يسعى للحصول على بيعة الأمة كل الأمة، ودون استثناء سلماً وعبر رسائله وموفديه ما كان مهملاً أبداً لاتخاذ كل أسباب القوة لإخضاع من يرفضون ويصرون على العصيان والخروج على سلطان الإمارة. بعد أربعين يوماً فقط من توليه الإمارة حقق وزيره عباس بن عبد العزيز القرشي نصراً مبيناً، هو الأول في عهده، على الفتح بن موسى بن ذي النون الثائر في قلعة رباح. وكان هذا قد بايع الأمير ثم نكث وخرج منتزياً في قلعة رباح وأحوازها[1]. ولو ان هذا الانتصار كان في الواقع وعلى الصعيد العسكري محدود

---

(١) Cronica Anonima صفحة ٣٣ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٣٨.

الأهمية، إلا انه رفع من معنويات الأمير وحكومته ووضع في نفوس الناس الكثير من الأمل والاستبشار بعد أن سئموا كثرة توالي الهزائم أيام أمراء عصر الفتنة.

لم يخطىء الأمير عبد الرحمن في تقدير قيمة هذا الانتصار ولم يعطه أكثر مما يستحق بل ظل يعتبر ان مهمته الأساسية والأولى يجب أن تكون السعي للقضاء على ثورة عمر بن حفصون الذي، يظل الحائل الأول دون تحقيق أهدافه في إقامة حكم مركزي قوي وفي إعادة تكوين وحدة الأمة الأندلسية. ذلك إن حكم ابن حفصون ليس فقط استطال كثيراً، وإنما باتت له جذور وقواعد متينة ثم إنه يحكم مباشرة أو عبر أعوانه وأحلافه تقريباً أهم مدن وقلاع وسط الأندلس الواقعة بين أقليم رية والجزيرة الخضراء من جهة وألبيرة ومشارف قرطبة، العاصمة، من جهة ثانية.

وعلى هذا عول بعد أشهر من بدء إمارته في سنة ٩١٣ م (شعبان ٣٠٠ هـ) وقبل نهاية فصل الشتاء والأمطار، على الخروج بنفسه في غزوته الأولى باتجاه أراضي جنوب شرق الأندلس. استعد لها خير استعداد وأنفذ الكتب إلى عمال الكور والنواحي في الاحتشاد لها والاستعداد. وكان أول من أجاب إلى الطاعة ولبى النداء أهل جند دمشق الذين هم أهل كورة ألبيرة فتبادروا بالمجيء إليه وتخلوا عن حليفهم ابن حفصون وانضموا إلى جيوشه. سار الأمير نحو حصن المنتلونMonteleon وكان يرفع لواء العصيان فيه سعيد بن هذيل فحاصره إلى أن استسلم صاحبه ودخله الأمير[١]. ثم رحل ومن معه إلى حصن الشمنتان قاعدة أحد أهم عصاة الأندلس عبيد الله بن الشالية الذي استسلم دون حرب ولا منازعة ونزل عن جميع معاقله وحصونه وكان عددها يقارب المائة[٢]. ثم رحل إلى حصون بني هابل فاستنزلهم عنها حصناً حصناً[٣]. بعد ذلك اتجه الأمير إلى الحصون التي

---

(١) Cronica Anonima صفحة ٣٦.

(٢) Cronica Anonima صفحة ٣٦ ـ المقتبس، ابن حيان، الجزء الخامس، صفحة ٦٠.

(٣) Cronica Anonima صفحة ٣٦.

كان يحكمها ابن حفصون مباشرة في كورة جيان فافتتحها الواحد بعد الآخر إلى أن استصفى الكورة كلها ولم يبق فيها مخالفاً[1]. ثم هاجم الحصون التي كانت بيد ابن حفصون في كورة ألبيرة فنازلها حصناً حصناً واستولى عليها[2]. وقضى على الثورة فيها وأزال منها قوى الفرقة والعصيان. وكان قبل ذلك قد أرسل بعض جيوشه إلى مدينة مالقة الهامة لموقعها البحري الممتاز ولكونها أداة اتصال ابن حفصون مع بلدان شمال أفريقيا. وكانت هذه الغزوة على درجة كبيرة من النجاح والتوفيق. انتهت فتوح عبد الرحمن الثالث فيها إلى الاستيلاء عنوة على «سبعين حصناً من أمهات الحصون، سوى ما فتح بفتحها من بناتها وذواتها وقصباتها ومراتبها مما قارب الثلاثمائة بين حصن وبرج»[3].

عاد الأمير عبد الرحمن من غزوته هذه، بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام على خروجه من عاصمته، محققاً إنجازات عظيمة. لقد أعاد سيادة دولة بني أمية إلى مدن ومقاطعات افتقدتها منذ أمد طويل وأرجعها إلى حظيرة الخضوع لسلطان العاصمة وسيدها بعد طول خروج وعصيان. وتعرف هذه الغزوة باسم غزوة المنتلون نظراً لأهمية الحصن المعروف بهذا الاسم. إنما في كل الحالات هذا النصر على أهميته ما كان سوى جولة واحدة في ذلك الصراع الذي سيكون طويلاً ومريراً بين الأمير والثائر ابن حفصون.

وفي السنة الثانية لحكمه لاحت للأمير عبد الرحمن إمكانية القضاء على الدويلة التي أقامها بنو حجاج في أشبيلية. وكان هؤلاء رغم أصلهم العربي تشدهم إلى المولدين والإسبان رابطة قرابة من جهات الأمهات مما كان يؤمن لهم دعماً قوياً ودائماً من بعض عناصر المولدين والمستعربين بوجه سلطان قرطبة. في سنة ٩١٣ م (محرم ٣٠١ هـ) توفي في ظروف شابتها الشكوك عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج سيد أشبيلية والثائر فيها. قدم أهل المدينة وزعماؤها عليهم أحمد بن

---

(١) (٢) Cronica Anonima صفحة ٣٧ ـ المقتبس ابن حيان جزء ٥، صفحة ٦١.

(٣) Cronica Anonima صفحة ٣٨.

مسلمة بن حجاج وجعلوه سيداً جديداً لدويلة أشبيلية[1]. لم يرق هذا الاختيار لمحمد بن حجاج شقيق القائد المتوفي وحاكم مدينة قرمونة، والذي طالما كان يسعى للسيطرة على أشبيلية درة حواضر الأندلس وأعظم مدنها بعد العاصمة قرطبة. راسل الأمير عبد الرحمن وأظهر له الرغبة في الطاعة والاستكانة وأبدى استعداده لمحاصرة أشبيلية وإخضاعها لحساب الأمير الأموي. وفعلاً أرسل الأمير عبد الرحمن الثالث عسكراً إلى ناحية أشبيلية تعاونوا مع محمد ابن حجاج فحاصروا المدينة وضيقوا عليها واستولوا على الأقاليم المحيطة بها وهي: الشرف، وطالقة وألبة. ولما ضاقت السبل بأحمد بن مسلمة المحاصر داخل أشبيلية ما تردد بالاستنجاد بالثائر ابن حفصون الذي جاء لمساعدته بنفسه وخرجا سوية لرد المحاصرين فكانت معركة دموية رهيبة هزم فيها ابن حفصون شر هزيمة. وما بقي أمام الثائر ابن مسلمة من مخرج سوى مراسلة الأمير عبد الرحمن والسعي لإصلاح ما بينه وبين حكومة قرطبة على أن يسلم المدينة لمن تنتدبه.

تعقد الأمور على هذه الصورة وهزيمة ابن حفصون وتسابق بني حجاج على استرضاء الأمير ترك أمام هذا الأخير فرصة عظيمة لإنهاء تمرد هذه العائلة العربية العريقة الذي طال أمده. وبذكاء وحنكة استغل الأمير عبد الرحمن هذه التناقضات فأوفد حاجبه بدراً على رأس جيش كبير حاصر المدينة ثم دخلها في كانون أول سنة ٩١٣ م (جمادى الأولى ٣٠١ هـ)[2] دون إراقة دم ولا قتال. أقام الحاجب بدر في المدينة أياماً أصلح فيها أمورها واسترضى باسم السلطان، أهلها ووعدهم بالخير وحسن المعاملة وعين سعيد بن المنذر القرشي عاملاً على كورة أشبيلية، وأسلم إليه عمله وأقام معيناً له أياماً. وقبل مغادرة المدينة هدم الحاجب أسوارها التي بناها عبد الرحمن الأوسط، على كره من بعض أهلها لكونها بزعمهم مدينة ساحلية لا يؤمن عليها من قبل البحر[3]. تسمية سعيد ابن المنذر عاملاً على

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٩٦ ـ Cronica Anonima صفحة ٤١.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٣) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٨٠.

كورة أشبيلية أغضب محمد بن حجاج الذي طالما سعى لهذا المنصب والذي تعاون مع الأمير في الاستيلاء على المدينة فغادر مع صحبه إلى قرمونة حيث تحصن، وامتنع على سلطان الأمير عبد الرحمن وأثار بوجهه المتاعب مدة من الزمن. بعد ذلك أرسل إليه أمير قرطبة صديقه ابن وليد يطلب منه العودة إلى الطاعة فعاد فعلاً وتنازل عن قرمونة وبقي في قرطبة مقرباً من أميرها حتى وفاته في السنة التالية.

وبذا انتهت ثورة أشبيلية التي كانت في قاعدتها للمولدين وفي قمتها وظاهرها عربية. وعادت الحاضرة الأندلسية الكبيرة لتعترف بسلطان قرطبة مما اعتبر إنجازاً عظيماً للأمير في سنة حكمه الثانية.

وبعد أشهر قليلة وفي أيار سنة ٩١٤ م (شوّال ٣٠ هـ) خرج الأمير عبد الرحمن في غزوته الثانية على رأس جيش كبير لاستئناف القتال ضد عمر بن حفصون الذي كان قد استعاد بعض نفوذه وعدداً من القلاع والحصون فقدها في العام السابق، وخاصة في المناطق الممتدة بين رية والجزيرة الخضراء. مني الزعيم الثائر بهزيمة شنيعة قرب قلعة طرش فقد فيها حلفاؤه من نصارى الإسبان جل جنودهم، إلا انه هو نجح في الهرب إلى مناطق غرب الأندلس. استغل الأمير انتصاره ولو بصورة جزئية فانتقل إلى مدينة الجزيرة الخضراء ومنها إلى كورة شذونة ثم إلى كورة مورور[1]. قصد بعد ذلك مدينة قرمونة وكان قد انتزى فيها بعد ذهاب محمد بن حجاج، حبيب بن سوادة فحاصره ونازله حتى اضطره للاستسلام فنقله إلى قرطبة مع أهله وعياله[2]. عاد إلى عاصمته بعد غياب دام اثنين وثمانين يوماً وجه خلالها لخصمه ابن حفصون ضربة موجعة ولو انها لم تنه تمرده.

وما لبثت أزمة اقتصادية شديدة أن بدأت في سنة ٩١٤ م (٣٠٢ هـ) تأخذ

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٤٧.
(٢) Cronica Anonima صفحة ٤٢.

بخناق الأندلسيين نتيجة قحط عام عرفته بلادهم هذا العام[1] بسبب الجفاف المتواصل مما شغل الأمير عبد الرحمن عن متابعة أعماله العسكرية لفترة طويلة. امتدت آثار الأزمة حتى العام التالي بصورة أقوى فعم الجوع وعز الغذاء وارتفعت الأسعار، وشاعت الأمراض والأوبئة، ومات من الأندلسيين خلق عظيم بالرغم من كثرة صدقات الأمير عبد الرحمن على الفقراء والمساكين وصدقات أهل الحسبة من رجاله[2].

في هذا الوقت كانت حركة ابن حفصون في تراجع متزايد وكانت الضربات الموجعة التي أنزلها به الأمير عبد الرحمن قد أفقدته عدداً كبيراً من أهم حصونه وقلاعه، وأخرجت عن سيادته مدناً هامة مثل مالقة والجزيرة الخضراء، وأبعدت عنه جل حلفائه وأنصاره. يضاف إلى ذلك انه هو شخصياً كان قد تقدمت به السنون وهرم، بعد أن أتعبه طول النضال والقتال وما عاد ذلك الثائر الخطر المهاب وصاحب الانتصارات الكثيرة. ومن هنا بات ابن حفصون أكثر جنوحاً نحو المسالمة وأشد ميلاً لقضاء ما قد يكون بقي له من عمر في هدؤ وسلام[3]. ويذكر ابن حيان نقلاً عن المؤرخ القريب من عصر الأمير عبد الرحمن، والموثوق، الرازي إنه مال نحو مهادنة الأمير وطلب أمانه. وقد ساهم بصورة خاصة في دفعه في هذا الطريق بعض أكابر أتباعه من النصارى، مثل جعفر بن مقسم أسقف ببشتر وعبد الله بن أصبغ[4]، الذين رأوا بنظرهم الثاقب طلوع نجم الأمير وميل الأحداث في الأندلس لصالح بني أمية وحكومة قرطبة، فآثروا الحصول على السلامة قبل فوات الأوان. وذكر الرازي ان الأمير عبد الرحمن أجاب رسائل ابن حفصون المسالمة بالقبول والترحيب ووافق على إعطائه الأمان عرفاناً منه بجميل قدمد لأبيه

(١) Cronica Anonima صفحة ٤٩.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٥١.

(٣) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ١١٢.

(٤) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ١١٣.

محمد حين لجأ إليه مستجيراً أيام الأمير عبد الله . وفعلاً وبعد مراسلات كثيرة تم الصلح بين الأمير عبد الرحمن والثائر ابن حفصون وحصل هذا على عهد أمان مفصل ورد فيه ذكر مائة واثنين وستين حصناً له[1] يشملها الصلح الذي وقع بخط يد الأمير نفسه في سنة ٩١٥ م (٣٠٣ هـ) . ويذكر ابن حيان أن عمر بن حفصون حافظ على العهد وتمسك بالسلام حتى انه ما تردد حين أغار ابنه سليمان على مدينة أبذة من كورة جيان ، وكانت على طاعة أمير قرطبة واستولى عليها ، في أن يعرض على الأمير مساعدته . وفعلاً أنكر على ابنه سليمان فعلته وخرج بنفسه لمساعدة الجيش الذي أرسله الأمير من قرطبة في محاصرة المدينة حتى استسلم ابنه سليمان وأرسله أسيراً إلى ببشتر وأعاد مدينة أبذة إلى عمال الأمير مدللاً على صدق صلحه واحترامه لعهوده[2] .

وبعد ذلك بحوالي العام الواحد في سنة ٩١٧ م (٣٠٥ هـ) توفي بعد مرض طويل ، عمر بن حفصون ، في مدينة ببشتر قاعدته[3] . وكانت سنه آنذاك اثنين وسبعين عاماً[4] . بعد وفاته جهز ودفن وفق التقاليد والطقوس الأندلسية النصرانية[5] .

كانت وفاته ضربة أليمة لثورة المولدين والمستعربين على سلطان بني أمية التي طال أمدها وكثرت شرورها ، والتي صيرها الأمير عبد الرحمن الثالث بانتصاراته ، عشية موت الثائر الكبير في دور الاحتضار. حاول أولاده بعد وفاته حمل لواء القيادة ومتابعة العصيان والتمرد إلا انهم ما استطاعوا ذلك بنجاح لكثرة خلافاتهم فيما بينهم . لقد آلت قاعدة الثورة ببشتر، إلى جعفر بتسمية من والده

---

(١) المقتبس ، ابن حيان ، جزء ٥ ، صفحة ١١٥ .

(٢) المقتبس ، ابن حيان ، جزء ٥ ، صفحة ١٣١ .

(٣) المقتبس ، ابن حيان ، جزء ٥ ، صفحة ١٣٨ ـ البيان المغرب ، ابن عذاري ، جزء ٢ ، صفحة ٢٥٦ .

(٤) (٥) المقتبس ، ابن حيان ، جزء ٥ ، صفحة ١٣٨ .

قبل وفاته ، وكان وحده من دون باقي إخوته سليمان ، وعبد الرحمن وحفص ، قد تحول إلى النصرانية . وتوزع هؤلاء باقي أملاك عمر بن حفصون دون اتفاق جدي ودون اعتراف صادق بزعامة أخيهم جعفر.

تنازع ابناء ابن حفصون مع بعضهم البعض حول الزعامة والريادة، وأيضاً اختلفوا حول مكاسب ومنافع مادية ، مما قسم صفوفهم وأزال وحدتهم . وقد عرف الأمير عبد الرحمن الثالث بذكائه ودهائه كيف يفيد من هذا الانقسام فما تردد يوماً في تحريض واحدهم ضد الآخرين ودفعهم للتآمر على بعضهم البعض والتقاتل فيما بينهم . تعاون بعضهم مع الأمير طمعاً بالإفادة من مغريات لوح لهم بها ، وحل بعضهم في قرطبة في حماية الدولة . ولما لم يكن بينهم واحد يمتلك ما كان لأبيهم من خصائص الريادة والقيادة تساقطوا الواحد تلو الآخر.

كل هذا جعل طوائف المولدين وحتى المستعربين ينفضون من حول أبناء عمر بن حفصون بصورة متزايدة ويلحقون بركب الولاء للسلطة الشرعية عن قناعة أو عن يأس من إمكانية استمرار الثورة والثائرين . ثم إن المدن والحصون والقلاع التي كانت حتى وفاة عمر بن حفصون ما تزال ترفع لواء العصيان والثورة صارت تؤول إلى الحكومة المركزية بالقوة حيناً والمصالحة والتراضي حيناً آخر. والأمير عبد الرحمن الثالث بقي مستمراً في تصميمه على إنهاء هذا العصيان وإعادة وحدة الأمة الأندلسية ماسكاً بيده اليمنى عصاً غليظة تقاتل وتقارع من كان يريد القتال فترسل الصوائف والشواتي دون كلل أو ملل إلى أراضي الجنوب المتمردة ، وباليد اليسرى يلوح لمن يرغب بالسلام بالأمن والعفو والمكاسب العريضة متى ترك السلاح وأسلم ما بيده من أراض ومدن وحصون.

وحين شعر أمير قرطبة ان ثورة المولدين والمستعربين ، قد شاخت، وكفر بها أشد أنصارها ومؤيديها إيماناً بها فأنفضوا عنها ، وافتقرت إلى القيادة الحكيمة القادرة على الصمود والمقاومة قرر أن يضرب ضربته القاضية. في هذا الوقت كانت زعامة مدينة ببشتر قد آلت إلى حفص ابن حفصون بعد أن كان جعفر قد مات

مقتولاً في سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) على يد بعض أهل المدينة فخلفه شقيقه سليمان الذي نجح الأمير عبد الرحمن الثالث في أسره وقطع رأسه في سنة ٩٢٧ م (٣١٤ هـ).

في ربيع سنة ٩٢٧ م (٣١٥ هـ)(١) قام الأمير عبد الرحمن الناصر بنفسه على رأس جيوشه يرافقه ولي عهده الأمير الحكم بغزوة إلى مدينة ببشتر لإخضاع حفص، سيدها، وآخر من بقي مقاوماً من أبناء عمر بن حفصون. نزل الأمير بجموعه على أبواب المدينة وفي ما حولها. ضيق على المحاصرين فيها واحتل الحصون والقلاع المحيطة بها واحداً واحداً(٢)، وما تردد في نشر الخراب والدمار في سائر المنطقة بقطع الأشجار وإتلاف الزرع وتهديم القرى والقلاع. ليس هذا فقط وإنما أمر رجاله ببناء حصون حولها أهمها حصن طلجيرة(٣) وكأنه يريد أن يفهم المتمردين انه باق على حصارهم حتى يستسلموا أو يفنوا. بعد أن تأكد الأمير من ان حصار المدينة قد استكمل أسباب نجاحه ترك جنوده حول ببشتر وذهب هو إلى مدينة الحنش فاستولى عليها وهدم أسوارها ثم تابع سيره إلى مالقة، محتلاً في طريقه العديد من الحصون والقلاع، فعين عليها أحد ثقاته عبد الملك بن العاصي(٤) وأمره بمنازلة ما بقي عاصياً من مواقع في أحوازها. عاد بعد ذلك إلى قرطبة ينتظر أخبار سقوط ببشتر من قائده المشرف على الحصار سعيد بن المنذر. أمام اشتداد حدة الحصار وفقدان الأغذية والمؤن وارتفاع البنيان عليه من كل جانب أخذ حفص يشعر باستحالة الصمود ومال إلى المسالمة فكتب إلى الأمير عبد الرحمن يسأله تأمينه والصفح عنه على أن يخرج عن الجبل مستسلماً لأمره راضياً بحكمه(٥).

---

(١) Cronica Anonima صفحة ٧٤.

(٢) (٣) Cronica Anonima صفحة ٧٤.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٩٠.

(٥) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٩٢.

وفي ١٩ كانون ثاني سنة ٩٢٨ م (٢٣ ذي القعدة ٣١٥ هـ) دخل الوزير أحمد بن محمد بن حدير مكلفاً من قبل أمير قرطبة مدينة ببشتر ومعه سعيد بن المنذر وتسلم أمورها وتسلم حفصاً وأهل بيته ومن كانوا معه من أواخر المستعربين وأرسلهم إلى قرطبة حيث حل حفص معززاً مكرماً في ضيافة الأمير متمتعاً برحمته وغفرانه. وبقي سعيد بن المنذر في ببشتر يضبط أمورها، وينظم شؤونها، ويزيل آثار العصيان منها، بعد أن رفع لواء بني أمية على أبراج المدينة وأسوارها.

وفي السنة التالية حضر الأمير عبد الرحمن بنفسه ليعاين تلك المدينة التي أقضت مضاجع سلطات قرطبة حوالي الستين سنة، والتي رفعت بقوة وعناد راية معارضة طوائف المولدين والمستعربين لسطان العرب عموماً، وبني أمية بصورة خاصة. لقد تأكد من حصانة المدينة «وعلو مرتقاها وانقطاع جبلها من جميع جهاته ما أيقن معه ألا نظير لها في الأرض حصانة ومنعة واتساع قرارة»[1]. وليقضي نهائياً على أسباب قوتها بحيث لا تعود قادرة على العودة إلى الخروج أمر بهدم جميع الحصون والأبراج المحيطة بها ودبر بنيان قصبتها على أفضل وجه لتكون مقراً لعاملها ولرجال السلطة المركزية فيها. أخرج بقايا عمر بن حفصون وابنه جعفر وتأكد من كونهما لم يموتا على الإسلام وأرسل الجثتين لترفعا على باب السدة في قرطبة ثم أقام الصلاة في المسجد الجامع الذي عطله ابن حفصون واتصلت فيه الصلوات والخطب ودعي من على منبره للأمير عبد الرحمن الثالث[2] كما أعيد فتح سائر المساجد المعطلة وعاد الناس لإعمارها والصلاة فيها. وعمد الأمير عبد الرحمن أيضاً إلى الى النظر في سائر مصالح المدينة فأخرج عنها من لا يثق به من سكانها، وعمر قصبتها بمن يثق بهم، وعين الوزير سعيد بن المنذر القرشي عاملاً عليها ألزمه بالمقام فيها والضبط لها وإكمال ما رسمه من البنيان

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٩٤.
(٢) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٢١٧.

فيها[1] . وقبل أن يغادر ببشتر عائداً إلى قرطبة وجه الرسائل بعظيم ما أنجز إلى جميع عماله في الأندلس كما أخرج القواد إلى جميع ما بقي عاصياً من حصون كورة رية وأمرهم بتخريبها وتهديم أسوارها وإخضاع سكانها، وهو ما أنجزوه فعلاً على أفضل وجه وأكمل صورة.

وبذا يكون الأمير قد حقق، ربما أعظم انتصارات حكمه على الإطلاق، باعتبار ان انتصاره في ببشتر أزال من وجهه آخر عقبة كانت تحول بينه وبين إعادة وحدة الأمة الأندلسية، حول أميرها، بعد زمن طويل من الفتنة والتمزق. قبل هذا الإنتصار كان الناصر قد حقق انتصارات كثيرة وعظيمة، وسيبقى عليه بعده الانتصار على جيوش عديدة للعصيان والتمرد ربما أهمها بطليوس وآل الجليقي فيها، وهو ما سيفعله، إنما يبقى الاستيلاء على ببشتر هو الأهم والأعظم في سلسلة انتصاراته لما مثله تمرد المولدين والمستعربين فيها من تهديد خطير لدولة الإسلام، ولدين الإسلام في بعض الحالات، ولما أثاره من شكوك حول قدرة العرب والمسلمين على البقاء والصمود في القارة الأوروبية. ولعل هذه الاعتبارات بالذات هي التي جعلت الناس تستشعر أهمية هذا الانتصار وتسمع أصداءه في سائر أنحاء العالم الإسلامي، في المشرق كما في شمال أفريقيا، وأيضاً في إسبانيا المسيحية، كما فيما وراء البيرينيه، مما رفع من معنويات وقدر الأمير عبد الرحمن الناصر إلى درجة كبيرة ووضعه في مصاف أبطال الإسلام في أوروبا.

في سنة ٩٢٩ م (٣١٧ هـ) وبعد أن اطمأن إلى نجاحه في إعادة جميع مناطق جنوب وشرق الأندلس إلى سيادة قرطبة وسلطان أميرها وجه أنظاره نحو مناطق الغرب. ومع ان المخالفين والخارجين على سلطان العاصمة ما كانوا قليلي

---

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٢١٨ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٩٤.

(٢) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٢١٩ ـ ٢٢٠.

العدد والأهمية إلا ان الأمير اعتبرهم أقل خطراً بالنسبة لابن حفصون ومن هنا كان إغضاؤه عنهم طوال هذه المدة من حكمه، بل أكثر من ذلك ربما كان في بعض الحلات على اتصال وربما على علاقة حسنة مع بعضهم مثل آل الجليقي في بطليوس. ذلك ان أحداً من المخالفين في هذه المناطق ما تجرأ على ما أقدم عليه ابن حفصون من تصديع لوحدة الأمة الأندلسية، ومن تخريب لتركيبتها السكانية، ومن خروج على دين الإسلام مبرر وجود الدولة الأندلسية الوحيد في تلك الأرض من أوروبا.

مع بداية فصل الربيع وفي شهر نيسان من هذا العام خرج الأمير عبد الرحمن الثالث الناصر على رأس حملة كبيرة قاصداً مناطق الغرب. اتجه أولاً نحو كبير المتمردين هناك عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن مروان الجليقي، وهو رابع أربعة من هذه العائلة تولوا زعامة الثورة فيها. ألقى الناصر حصاراً قوياً على المدينة كما أشاع الخراب والدمار والموت في المناطق المحيطة بها. بعد ذلك ترك لمتابعة حصارها، قائده أحمد بن إسحق القرشي[١]، واتجه هو مع بعض جيشه إلى مدينة ماردة، وكانت على الطاعة، فنظر في أمور أهلها وأصلح بعضها وعين لها عاملاً جديداً[٢]. نهض بعد ذلك إلى مدينة باجة، التي كان يرفع لواء العصيان والمخالفة فيها عبد الرحمن بن سعيد بن مالك[٣]، فحاصرها، وضربها بالمجانيق، وقتل خلقاً كثيراً من أهلها حتى استسلموا واستأمن زعيمهم فأمنه وأرسله مع أهله وعياله إلى قرطبة. نظر في أمر المدينة وأهلها فرفع على سواريها علم بني أمية، وعين عليها عاملاً موثوقاً من قبله، وبنى فيها قصبة عظيمة التحصين ثم غادرها بعد إقامة فيها دامت حوالي أسبوعين[٤]. منها سار الى مدينة أكشونبة Ocsonoba القريبة من الساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيبرية. أخضع

---

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٢٤٧ ـ Cronica Anonima, p. 81

(٢) (٣) المقتبس ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٢٤٨.

(٤) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٢٤٩ ـ Cronica Anonica, p. 81

خلف بن بكر الثائر فيها دون قتال بعد أن قبل الاستسلام والطاعة، فأبقاه على ولايته لحسن إدارته ولتعلق السكان به[1].

أنهى الأمير عبد الرحمن في غزوته التي دامت ثلاثة وستين يوماً إخضاع سائر مناطق الغرب وقضى على كل المخالفين فيه ما عدا الجليقي المحاصر في بطليوس. عاد الأمير إلى قرطبة، مدلاً بما أنجز فخوراً بما حقق، وقعد ينتظر ان يوافيه قواده بأخبار استسلام كبرى حواضر الغرب. بعد عدة أشهر من ذلك، وبعد أن اشتد قواد أمير قرطبة على الجليقي بالتضييق والمحاصرة، وبعد أن قتل خلق كثير من المحاصرين في أكثر من مواجهة مع الجيش الأموي خارج أسوار المدينة، وبعد أن استبيحت نعمهم وقطعت أشجارهم «ورأوا عزماً لا فترة فيه وجداً لا بقاء لهم عليه»[2] مال عبد الرحمن بن مروان إلى المهادنة وجنح للطاعة فاستأمن الناصر وعاذ بصفحه ومغفرته فحصل عليهما وانتقل مع أهله وذويه إلى حضرة قرطبة. ودخلت جيوش الأمير بطليوس في سنة ٩٣٠ م (٣١٨ هـ)[3] وأخضعتها لسلطان العاصمة وأعادتها إلى الوحدة مع الجماعة.

ولكي ينجز الأمير عبد الرحمن الثالث مهمته في استئصال شأفة الفرقة والعصيان من كل الأندلس وليعيد الأندلسيين كل الأندلسيين دون استثناء إلى حظيرة الطاعة والولاء لسلطانه بات عليه أن يخضع مناطق الثغر الأوسط وبصورة خاصة عاصمة القوط القدماء طليطلة. من المعروف إن هذه المدينة ما استكانت لوال أو أمير أندلسي إلا مرغمة، ولا خضعت إلا صاغرة. وما من أمير أموي إلا واضطر لحمل السلاح لإخضاعها، وإعادة أهلها إلى صواب الطاعة ورشاد الانضباط مرة، وأحياناً مرات. وقد رأينا بعضهم يلجأون إلى وسائل غاية في القسوة كما حصل في زمن الأمير محمد. ولما كان الأمير عبد الرحمن يدرك

---

(١) Cronica Anonima, p. 81.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٠٣.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٠٣ ـ المقتبس، جزء ٥، صفحة ٢٧١.

صعوبة هذا الإنجاز لكون طليطلة هي في الواقع «أم المعاقل، وقاعدة المدائن التي عظم في الأوائل خطرها، وأعجز ملوك الأمم مرامها»[1]، فقد رام أول الأمر مسايرة أهلها والتقرب منهم في مسعى لإعادتهم إلى طاعته صلحاً وبرضاهم. أرسل لهم وفداً من وجوه أهل قرطبة ومن علمائها وفقهائها، دعاهم إلى الطاعة والانتظام في الجماعة، ونصحهم بمسالمة الأمير والبعد عن الفرقة والعصيان، فما وجد منهم إلا الرفض والمكابرة والعناد. وعلى هذا عزم الأمير على اللجؤ إلى القوة والعنف في التعامل مع الطليطليين فأرسل في ربيع سنة ٩٣٠ م (٣١٨ هـ)[2] جيشاً بقيادة وزيره سعيد بن المنذر القرشي، الذي طالما برع في تحقيق الصعب من المنجزات، وكلفه مباشرة حصار المدينة والتضييق على سكانها. وبعد أسابيع خرج عبد الرحمن ومعه ولي عهده الحكم على رأس جيش آخر فمر بحصن مورة Mora وكان يحكمه واحد من متمردي طليطلة مطرف بن عبد الرحمن بن حبيب[3]، فأخضعه وحصل على استسلامه، وتسلم الحصن وضبط أموره، ثم نهض بجيوشه نحو طليطلة ناشراً الخراب والدمار في كل ما يحيط بها. نزل في مرتفع يدعى حرنكس Chalencas عند أبواب المدينة لجهة نهر التاج. ثم نقل معسكره في اليوم الثاني لمكان أفضل وأكثر إيلاماً للمحاصرين من أهل المدينة هو محلة المقبرة حيث نشر جنوده وأقام سبعة وثلاثين يوماً يخطط لحصار طويل للمدينة. وإدراكاً منه لاستعداد الطليطليين، نظراً لقدرة مدينتهم ووفرة احتياطيها من الأغذية، لحصار طويل أمر ببناء تجمع، أسماه مدينة الفتح، على جبل حرنكس المطل على طليطلة. كلف بإنجاز هذه المهمة وزيره وقائد الحصار سعيد بن المنذر القرشي. وأثناء إقامته هناك تلقى طاعة سادة بعض حصون المنطقة وجهز قائده ابن المنذر بكل ما يلزمه من العدة والمال والرجال وعاد إلى قرطبة

(١) المقتبس، جزء ٥، صفحة ٢٨٠.

(٢) المقتبس، جزء ٥، صفحة ٢٨١.

(٣) المقتبس، جزء ٥، صفحة ٢٨٢.

ينتظر استسلام المحاصرين. حاول في السنة التالية ٩٣١ م (٣١٩ هـ) الخروج لاستعجال نهاية الحصار إلا انه اكتفى بإرسال حملة بقيادة وزيره أحمد بن حدير إلى مناطق الثغر لرد عدوان كان يعده نصارى الشمال دعماً لأهالي طليطلة واستغلالاً لمشاغل الدولة الأموية هناك[١]. جال ابن حدير في مناطق الثغور فأخضع حصوناً كانت ما تزال على العصيان وأشاع الأمن والطمأنينة عند سائر السكان إذ بمجرد وصوله إلى هناك عدل الإسبان عن حربهم وتراجعوا إلى ديارهم. وانتهى القائد ابن حدير فيمن معه من الجنود، بعد أن حقق إنجازات كثيرة، إلى مدينة طليطلة لدعم الحصار عليها وشد أزر جند سيد قرطبة المحاصرين لها.

وفي شهر حزيران من سنة ٩٣٢ م (٣٢٠ هـ)، وبعد حصار دام حوالي السنتين خرج عبد الرحمن الثالث على رأس صائفة إلى طليطلة[٢] بعد أن شاع اليأس بين أهلها، وعم الفقر والجوع كل بيت وحي فيها. وفي هذا الوقت كان أهلها قد جنحوا فعلاً إلى السلم والاستسلام خاصة بعد أن نجح قادة الجيش الأموي في إنزال هزيمة ساحقة بجيش إسباني أتى لنجدتهم، وأيضاً منعوا عنهم كل اتصال مع أصدقاء أو حلفاء لهم. وبوصول عبد الرحمن الثالث إلى مدينة الفتح، خرج زعيم المتمردين ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث لمقابلته عارضاً رغبة أهل المدينة في الحصول على الأمان وفي تقديم فروض الطاعة والولاء له ولدولته[٣]. قبل منه وأمنه وأعطاه الأمان لسائر أهل البلدة، ودخلها وجال في أطرافها وتعرف إلى مواطن القوة والحصانة فيها واتخذ كل ما يلزم لكي لا تعود قادرة على الخروج على سلطان قرطبة. ولعل أهم ما أنجزه في هذا المجال هو إعادة ترميم قنطرتها الشهيرة، وأيضاً إعادة تحصين الدار المقابلة لها والتي جعلها

---

(١) المقتبس، جزء ٥، صفحة ٢٨٨، ابن حيان.

(٢) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٣١٨.

مقراً لعمال الدولة وموظفيها. ونظم باب قصرها بباب جسرها كيما يختص قواده وعماله النازلون بالقصر بملك القنطرة والباب دون أهلها[1]. وبذلك ضمن سيطرة الدولة وموظفيها الدائمة على المدخل والمخرج الوحيدين لها، وبات أهلها منذ ذلك الوقت عملياً، أسرى السلطة والجيش في غدواتهم وروحاتهم مما جعله يطمئن إلى طول خضوعها واستكانتها.

عاد إلى قرطبة بعد ذلك ليهيء للقضاء على الدويلة التي أقامها التجيبيون في سرغوسة، والتي وإن لم ترفع راية العصيان بصورة دائمة فإنها كانت ومنذ أمد طويل تتردد بين الطاعة والخروج فلا تستقر على أحدهما ولا تتمسك بالآخر. والواقع إن عبد الرحمن الثالث تعامل منذ وصوله إلى العرش بكثير من الحكمة واللباقة مع القوى الفاعلة في مناطق الثغر الأعلى وقبل منها دائماً الحد الأدنى من صدق الطاعة والولاء. فهذه المناطق مجاورة لنصارى الشمال وعلى حكامها يقع العبء الدائم لمدافعة هؤلاء وحماية حدود دولة الإسلام من جيوشهم ومن غزواتهم المستمرة. يضاف إلى ذلك ان جل سكان مناطق الثغور هم من المولدين والمستعربين، وبعض حكامها من الإسبان المسلمين، وكل هؤلاء ما كانوا في كثير من الحالات يجدون كبير حرج في التعامل وحتى التحالف مع جيرانهم النصارى. ومن هنا كان حذر عبد الرحمن الشديد في أن لا يحرج حكام هذه المناطق حتى لا يخرجهم. إنما هذا لا يعني انه كان يسمح باستقلال هؤلاء الحكام الفعلي والدائم عن سلطان قرطبة ولا مر بخاطره أن يخرجهم من إطار الخطة التي وضعها في بداية عهده لحكم الأندلس كل الأندلس حكماً مركزياً وقوياً.

بمرونة وبصبر أدخل أراضي بني قسي وبني ذي النون في إطار سلطات قرطبة وقبل من التجيبيين حكام سرغوسة، وكانوا قد بادروه بإعلان الطاعة له بعد أسابيع قليلة من بدء إمارته، طاعة تتردد بين القوة والضعف، بين الظهور

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٣٢٠.

والغياب، إلى أن خرج نهائياً عن سلطانه سيدها محمد بن هاشم التجيبي في سنة ٩٣٤ م (٣٢٢ هـ) ومال للتعاون مع ملك جليقية راميرو الثاني. وهذا يعني ان التجيبي قد وصل إلى الحد الذي لا يمكن لمرونة سيد قرطبة، أن تحتويه أو تقبل به، وبالتالي بات عليه أن يسعى لإخضاع سرغوسة. وإدخالها في إطار سلطانه بصورة نهائية ومباشرة وواضحة الطاعة والولاء.

في ربيع سنة ٩٣٧ م (٣٢٥ هـ) كانت غزوة الخليفة عبد الرحمن الناصر لمدينة سرغوسة لمناجزة المتمرد بها محمد بن هاشم التجيبي. عاج أمير المؤمنين بجنوده على مدينة طليطلة، نزلها وأقام فيها بعض الوقت ضبط خلاله أمور منطقتها، وأرسل بعض قادته في حملات صغيرة متفرقة لإخضاع حصون عصى أهلها، ولإشاعة الثقة والاطمئنان بين الناس. بعد ذلك سار الأمير بالقسم الأكبر من جيوشه نحو منطقة الثغر الأعلى، فمر على حصن قلعة أيوب وكان عليه مطرف بن منذر التجيبي، قريب محمد بن هاشم وشريكه وحليفه في التمرد والعصيان. دخل الأمير قلعة أيوب بعد حصار طويل ومضن قتل فيه خلق كثير منهم زعيم المتمردين مطرف[1]. بعد الاستيلاء على قلعة أيوب وحصون أخرى كثيرة في أحوازها اتجه الأمير وعلى مقدمته قائده أحمد بن إلياس مع ألف وخمسمائة من خيرة فرسان الأندلس نحو أراضي بنبلونة[2]. في هذا الوقت كان بعض قادة الأمير يشددون الحصار على مدينة سرغوسة. دخل أمير المؤمنين بسيط بنبلونة ووادي آراغون، لخروج طوطة ملكة البشكنس على عهد يربطها به ولتعاونها مع الثائر التجيبي. احتل المسلمون وسط بلاد طوطة واستولوا على حصون وقلاع كثيرة، فهدموها وقتلوا كثيرين من أهلها، وقضى الأمير عيد الفطر من ذلك العام في أحواز بنبلونة وعاد مثقلاً بالأسرى والغنائم لتشديد الحصار على سرغوسة. ولما

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٣٩٩.
(٢) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٤٠٠.
(٣) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٤٠١.

كان الحصار قد استطال كثيراً وامتد على مدى ثمانية أشهر أدرك بعدها محمد بن هاشم التجيبي استحالة الصمود والمقاومة فطلب الأمان وعرض الطاعة فقبل منه أمير المؤمنين ذلك وعفا عنه وغفر له ولأبنائه وإخوته ودخل المدينة منهياً بذلك آخر فصل من فصول ما أطلقنا عليه في السابق «عصر الفتنة والتمزق» معيداً للأندلس وحدتها، قوية صامدة متماسكة، ومزيلاً كل ما تهدد دولة الإسلام في الأندلس من أخطار على يد أمراء وحكام مغامرين من أبناء الإسلام. وقد أوجز لنا صاحب «أخبار مجموعة» والذي ما كان يحب عبد الرحمن الثالث كثيراً على ما يبدو، منجزاته على صعيد إعادة توحيد الأمة الأندلسية بقوله: «وأما عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأمير فإنه ولي الخلافة والفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحداً ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه فافتتح الأندلس مدينة مدينة وقتل حماتها واستذل رجالها وهدم معاقلها وضرب المغارم الثقيلة على من استبقى من أهلها وأذلهم بعسف العمال غاية الإذلال حتى دانت له البلاد وانقاد له أهل العناد... واتصل ملك عبد الرحمن خمسين سنة في عز منيع وسلطان قاهر»[1].

العلاقات مع إسبانيا المسيحية:

ذكرنا في الحديث عن الفتوح الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبرية أنها ما شملت كل مناطقها. ذلك ان رواد هذه الفتوح وقادتها ما احتلوا تلك المرتفعات من جبال أستورياس، في أراضي جليقية في الشمال الغربي من شبه الجزيرة. وهذا سمح كما رأينا سابقاً بتكوين نواة لمعارضة إسبانية مسيحية لدولة الإسلام في الأندلس ما لبثت أن تحولت إلى مملكة صغيرة.

في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد كان يملك على هذه المملكة النصرانية الصغيرة ألفونسو الثالث الذي دفع حدوده جنوباً واستولى على كل تلك

---

(١) أخبار مجموعة، صفحة ١٥٤.

الأراضي التي سبق أن هجرها البربر بعد فشل ثورتهم. وقد نجح في ذلك إلى الحد الذي جعل فيه نهر الدويرو حداً طبيعياً فاصلاً بين دولتي الإسلام والنصرانية في شبه الجزيرة الإيبرية[1]. وفي بعض الأراضي التي استولى عليها أقام سلسلة من القلاع والحصون المتقدمة للدفاع عن حدود مملكته، التي صارت تعرف باسم مملكة ليون نسبة لمدينة ليون Leon التي جعلها هذا الملك في أيامه قاعدة لحكمه وعاصمة لدولته. أتم الملك ألفونسو الثالث هذه الإنجازات في الفترة التي أطلقنا عليها اسم «عصر الفتنة والتمزق» والتي كانت خلالها مشاكل الأندلس الداخلية أقوى من أن تترك لحكامها أية فرصة لمواجهة الأعداء الخارجين. وهكذا في مدة قرنين تقريباً تحولت تلك الزمرة من المقاومين الإسبان بزعامة بلايو والتي تكونت في واحدة من أودية جبال أستورياس إلى مملكة موحدة ذات حدود جغرافية وقومية واضحة صار على الأمير عبد الرحمن الثالث في مطلع القرن العاشر للميلاد أن يقيم لها وزناً. بل أكثر من ذلك إن تلك القلاع المتقدمة التي أقامها ألفونسو الثالث ما لبثت أن تكاثرت في مناطق الحدود مع المسلمين وعلى حساب أراضيهم لتكون فيما بعد مقاطعة إسبانية مسيحية جديدة سميت باسم أرض القلاع أو قشتالة Castilla .

وفي جبال البيرينيه أيضاً فإن الرواد المسلمين الأوائل اكتفوا بالسيطرة على سفوحها ومنحدراتها بما يكفي لتأمين طرقهم إلى بلاد غالة. ما حاول المسلمون سكنى هذه المناطق وإعمارها بالناس والمدن ربما لنفس الأسباب المتعلقة بالمناخ والطبيعة وحدة التضاريس التي من أجلها عفوا عن فتح أستورياس. أهملوا عن قصد بعض المرتفعات الغنية الخصبة وذات القيمة الاستراتيجية، دون مبرر واضح إلا ما سبق أن أشرنا إليه أكثر من مرة، في كتالونيا وآراغون ونبرة. وفي هذه المناطق ما لبثت أن تكونت خلايا ناشطة للمقاومة المسيحية الإسبانية كانت أكثرها فعالية في نبرة Navarra حيث كانت تنزل قبائل البشكنس Vascones

---

(١) Historia de Espana, Asian Pena, p. 98.

المشاكسة والتي وفقت في وقت غير محدد تماماً إلى جعل مدينة بانبلونة الهامة Pamplona. قاعدة لها بعد أن خرجت من سلطان المسلمين. وكان هذا التطور حوالي منتصف القرن التاسع للميلاد.

في مطلع القرن العاشر للميلاد وأيام الأمير عبد الرحمن الثالث كان يملك على هذه الأراضي غرسية سانشو الأول من عاصمته بانبلونه. وقد أمكن لهذا الملك عن طريق الزواج أن يوسع حدود مملكته وأن يضم إلى سيادته أراضي كونتية آراغون Aragon المجاورة. وما لبثت هذه المملكة، في سنوات حكم الأمير عبد الرحمن الأولى وانشغاله بالقضاء على الفتن الداخلية، أن أخذت تدفع حدودها باتجاه أراضي المسلمين حتى أشرفت على مجرى نهر الأيبرو وجعلته في بعض أجزائه العليا حداً طبيعياً فاصلاً بين أراضيها وأراضي المسلمين[١]

يبدو ان سياسة الأمير عبد الرحمن الثالث في سنوات حكمه الأولى كانت تميل إلى تفادي الدخول في صراع مسلح بل حتى إلى مجرد توتير العلاقات مع نصارى الشمال. إنما دولتا إسبانيا المسيحيتان في الشمال على كثرة خلافاتهما مع بعضهما كانتا دوماً على تحالف ضد الدولة الأموية وما كان حكامهما يرغبون في إعطاء الأمير الأموي السلام الذي كان يحتاجه على حدوده وفي مناطق ثغوره. فأمير قرطبة جاء إلى الحكم بخطة ثابتة وواضحة المعالم. كان يريد أن يقيم سلطانه على أسس مركزية قوية تضع كل السلطات بين يديه وتفرض سيادته على كل أراضي دولة الإسلام في إسبانيا. كان يريد إزالة كل القوى الثائرة والمتمردة والانفصالية ليعيد للأمة الأندلسية وحدتها بعد طول تمزق وفرقة. وهو لهذا رأى إن عليه أن يجعل جيرانه النصارى يعطونه الفرصة لتصفية أعدائه الداخليين وإذا لم يفعلوا فلا بد من إهمال الحدود بعض الشيء ولو مؤقتاً. والإسبان النصارى، عن معرفة أو دون معرفة بحقيقة موقف الأمير عبد الرحمن أفادوا منه إلى أقصى حد

---

(١) Asian Pena Historia de Espana, p. 105.

ممكن وأخذوا منه كل مكسب ممكن وما كان قليلاً ما حصلوا عليه كما رأينا.

في السنة التالية لتولي الأمير عبد الرحمن الثالث إمارة قرطبة بادره أردونيو الثاني ملك ليون في صيف سنة ٩١٣ م (٣٠١ هـ) مع ثلاثين ألفاً من جنوده بهجوم على مدينة يابرة Evora[١] في الغرب وعليها يومئذ مروان بن عبد الملك. حاصر الإسبان المدينة حصاراً شديداً وضيقوا على أهلها الذين صمدوا وقاوموا إلا انهم اضطروا في النهاية للتراجع أمام كثيرة عدد أعدائهم. دخل أردونيو وجنوده مدينة يابرة، مستغلين، ضعف أسوارها، وقلة حصانتها، فاستباحوا المدينة وأعملوا سيوفهم في رقاب أهلها وقتلوا سبعمائة من المدافعين عنها وسبوا أربعة آلاف إمرأة وطفل[٢]. هذه الغزوة أشاعت الذعر والخوف في سائر مناطق غرب الأندلس فبادر حكامها إلى إعادة تحصين مدنهم وقلاعهم واتخاذ ما يلزم من أسباب الدفاع. وكان الأنشط في هذا المجال أهالي مدينة بطليوس كبرى[٣] حواضر الغرب.

وفي السنة التالية ٩١٤ م (٣٠٢ هـ)، معتزاً بما سجل من انتصار ومطمئناً إلى انشغال الأندلسيين في مشاكلهم الداخلية، توجه على رأس جيش كبير من جموع النصارى من كل الشمال الإسباني، قاصداً مدينة ماردة كبرى مدن غربي الأندلس وأقاليمها. وصل أردونيو الثاني إلى حصن الحنش وكان به قوم من بربر البرانس من قبيلة كتامة بزعامة رجل يدعى ابن رشاد فهزمهم لقلة عددهم وقتل رجالهم عن آخرهم وسبى نساءهم وذراريهم وهدم الحصن[٤]. رحل بعد ذلك إلى ماردة فوقف متعجباً من اتقان بنيان قصبتها وعظيم أمرها فما تجرأ على مهاجمتها. فاوض أهلها وقبل هدايا قدموها له ورحل قافلاً عن المدينة دون

---

(١) في بلاد البرتغال الحالية.

(٢) المقتبس ابن حيان جزء ٥ صفحة ٩٥. Cronica Anonima p. 43.

(٣) المقتبس ابن حيان جزء ٥ صفحة ٩٦. Cronica Anonima p. 46.

(٤) المقتبس ابن حيان جزء ٥ صفحة ١٢٢.

قتال[1] مكتفياً بما حصل له من مغانم وأموال من الحصون التي مر عليها.

بالرغم من وفرة مشاكل الأمير عبد الرحمن الثالث وكثرة مشاغله فإنه ما استطاع أن يمضي بعيداً في سياسة إهمال أمر حدوده مع الشمال المسيحي ولا تمكن من أن يصم آذانه عن سماع صرخات الاستغاثة من سكان مناطق الثغور المجاورين للإسبان وهو الساعي لوحدة البلاد والداعي لمركزية السلطة والسلطان.

في سنة ٩١٦ م (٣٠٤ هـ) أرسل قائده أحمد بن أبي عبدة بصائفة هي أول غزاة كانت لقواده إلى أراضي الشمال. هاجم القائد الأندلسي مناطق الحدود مع الإسبان في مملكة ليون حيث عاث في بعض مدنها وربوعها وخرب معاقل كثيرة فيها، «وغنم وسبى وخرج من أرض العدو بالمسلمين سالمين غانمين»[2]. هذه الغزوة، التي ما حققت إنجازات كبيرة على الصعيدين الأقليمي والعسكري، كان الهدف الحقيقي منها على ما يبدو رفع معنويات سكان مناطق الحدود المسلمين وإشعارهم وإشعار جيرانهم الإسبان أيضاً بأن حكومة قرطبة ما زالت قادرة ومصممة على حماية مواطنيها ورعاياها مهما صعبت ظروفها الداخلية.

وفي السنة التالية ٩١٧ م (٣٠٥ هـ) أرسل الأمير عبد الرحمن الثالث قائده أحمد بن أبي عبده في صائفة حشد لها جيشاً كبيراً من الأندلسيين والبربر والمرتزقة، وأرادها أن تكون قوية وفاعلة. قصد القائد الأندلسي أراضي قشتالة. وقبل وصوله إليها انضمت إليه حشود كبيرة من سكان مناطق الثغور في غير ترتيب ونظام. هاجم القائد الأندلسي أحد أهم حصون المنطقة كاسترو موروس Castro Moros وكان يدافع عنه حشد كبير من أهالي قشتالة ومن سائر مناطق إسبانيا المسيحية. اشتد القتال بين الفريقين واستمات القشتاليون في الصمود بينما

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ١٢٣.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٥٣.

وهنت صفوف أهل الثغور وهرب بعضهم مما أدى إلى إنزال هزيمة قوية بالأندلسيين ومقتل قائدهم فعادوا إلى بلادهم بالخيبة والفشل[1].

ما استطاع عبد الرحمن الثالث أن يقبل هذه الهزيمة في وقت كان قد بدأ يقطف فيه ثمار انتصاراته في الداخل على حساب الثائرين والمتمردين. ثم إن ملك ليون ما ترك له فرصة للمهادنة إذ أتبع انتصاره على المسلمين بعد عدة أشهر بمهاجمة أراضيهم في مناطق الثغر الأعلى. في صيف سنة ٩١٨ م (٣٠٦ هـ) أرسل حاجبه بدراً على رأس صائفة كبيرة لمواجهة تحالف ملكي ليون ونبرة. هاجم الحاجب أراضي مملكة ليون وأنزل بتحالف الإسبان أكثر من هزيمة وقتل منهم كثيرين وعاد إلى الأندلس بغنائم وافرة. وقد احتفل الأندلسيون بهذا الانتصار وكتبوا به إلى الحواضر والأطراف[2].

وفي شهر حزيران من سنة ٩٢٠ م (٣٠٨ هـ) عزم الأمير عبد الرحمن الثالث أن يخرج بنفسه ولأول مرة بصائفة كبيرة إلى أراضي الشمال ليرد عن سكان مناطق الثغور أذى تحالف ملكي ليون ونبرة الذي طال وكثرت شروره واشتد ضرره على الأندلسيين عموماً. وقد كتب إلى المناطق بما عزم عليه فوافته الحشود والعساكر من سائر جهات البلاد. وحين اكتملت استعداداته سار نحو طليطلة، فقابله صاحبها لب بن طربيشة على ضعف ولائه للسلطة وخرج معه راغباً في الغزو، ثم قصد مدينة سالم ومنها إلى مناطق ألبة والقلاع (قشتالة) فعبر نهر الدويرو الفاصل بين مناطق المسلمين والنصارى وهاجم مدينة وخشمة Osma[3]. دخلها المسلمون عنوة وأضرموا النار فيها بعد أن غنموا منها الشيء الكثير. ثم ثأروا لهزيمتهم السابقة في حصن كاسترو موروس فاستولوا عليه وهدموه[4]. عاث عبد

---

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ١٣٦ ـ Cronica Anonima, p. 55.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٥٩.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٦٧.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٦٧ ـ Cronica Anonima, p. 63.

الرحمن بعد ذلك طويلاً في أراضي مملكة ليون وخرب الكثير من قلاعها وحصونها. ثم اتجه إلى أراضي مملكة نبرة لمواجهة الحشود الضخمة لسائر القوى النصرانية الإسبانية. وكانت هناك معركة بين الفريقين، عند واد تسميه الرواية الإسبانية خونكيرا Junquera (1)، مني فيها الإسبان بهزيمة ما عرفوا لها مثيلاً منذ دخل العرب شبه الجزيرة الإيبرية. قتل المسلمون منهم أعداداً وافرة وهرب حوالي ألف من قادتهم ووجهائهم فاختبأوا في حصن مويش فأمر عبد الرحمن بتهديمة ثم جيء إليه بمن كانوا فيه فأمر بقتل حوالي خمسمائة من مقدمي ووجوه الإسبان(2). وقد عاد الأمير عبد الرحمن الثالث بعد هذا النصر الباهر إلى عاصمته قرطبة مستعيداً ثقة سكان الثغور بدولتهم وأميرهم وبعد أن أعاد تجهيز وتقوية القلاع والحصون المتقدمة وشحنها بكل ما يلزم من الأغذية والسلاح والمقاتلة للدفاع عن حدود الدولة الأموية. إلا أن الإسبان ما لبثوا أن استعادوا أنفاسهم وعادوا لمهاجمة الثغور الإسلامية مما جعل الأمير يعزم على معاودة الخروج بنفسه، في صائفة جديدة، بعد أربع سنوات تقريباً من انتصاره الكبير. ذلك ان أهالي بنبلونة أقدموا في سنة ٩٢٣ م (٣١١ هـ) على محاصرة عبد الله بن محمد بن لب من بني قسي في حصن بقيرة وكان معه مطرف بن ذي النون وكانا من زعماء وحماة الثغور. استولى الإسبان على الحصن وقضوا على كل من كان فيه من المقاتلة مما أحرج عبد الرحمن الثالث وجعله يخرج بسرعة قائده عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى بجيوش كثيفة نجحت في استعادة ما فقد من أرض واستقر في مدينة تطيلة مع جنده(3).

ثم خرج عبد الرحمن الثالث بنفسه على رأس صائفة كبيرة في سنة ٩٢٤ م (٣١٢هـ) قاصداً أراضي مملكة نبرة مباشرة للانتقام من ملكها. أخذ هذه المرة

---

(1) Cronica p. 63, Historia de Espana, T IV, p. 283.

(2) Cronica Anonima, p. 64.

(3) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٧٧.

طريقاً جديدة. إذ قصد أول الأمر، إلى مناطق شرق الأندلس فدخل كورتي تدمير وبلنسية فاستصلح أمورهما ونظر في مطالب أهلهما وأبعد غير الكفاة من عمال وموظفي المنطقتين. توجه بعد ذلك الأمير عبد الرحمن الثالث إلى منطقة مدينة طليطلة «في عساكر كعدد الحصى»[1] حيث انضم إليه قادة الثغور وأهاليها. وكان أول نصر له حين استولى على حصن قلهرة وهدمه. ثم استولى على حصون وقلاع كثيرة وهو في طريقه إلى بنبلونة في قلب المملكة في وقت كانت قوى المملكة الإسبانية تتراجع أمامه متفادية مواجهته لكثرة من معه من العساكر. احتل العاصمة بنبلونة بعد أن فر منها أهلها فدمرها وهدم أسوارها وأبراجها وأحرق دورها وعمائرها. ثم واجه بعد ذلك جيوش مملكة نبرة ومن وافوهم من المناطق الإسبانية الأخرى منجدين فانتصر عليهم في معركتين وعاد إلى قرطبة بعد أن تأكد من القضاء على قوى وفعالية هذه المملكة الإسبانية ولفترة طويلة.

ثم إن الأقدار قيضت لسيد قرطبة بعد ذلك فرصة ارتاح فيها من مقاومة الإسبان وتعدياتهم المستمرة على ثغور دولته. ذلك إن ملك ليون أردونيو الثاني توفي سنة ٩٢٥ م وتنازع أهله فيما بينهم ولعدة سنوات عرشه وشغلوا عن مقارعة الأندلسيين بحروب أهلية طويلة ومضنية قبل أن يصير العرش نهائياً في سنة ٩٣٢ لراميرو الثاني. ومعه عاد الصراع بين المسلمين ومملكة ليون وعادت الحملات المتبادلة مع ذهاب كل موسم أمطار وثلوج، وإطلالة كل صيف ليشيع مع الشمس المشرقة والمحرقة أحياناً في مناطق حدود الفريقين الخراب والموت.

وفي سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) عزم عبد الرحمن الثالث، وكان قبل ذلك قد انتصر على أهالي نبرة واحتل عاصمتهم بامبلونة وأخضع ملكتهم طوطة، على ضرب راميرو الثاني، ملك مملكة ليون، ضربة قاضية ينهي بها فعالية مقاومة الإسبان النصارى بصورة حاسمة ويكرسه زعيماً لكل شبه الجزيرة الإيبرية بشقيها المسيحي والمسلم بعد أن أكد زعامته المطلقة لهذا الشق الأخير. عمل على إعداد

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٧٨.

صائفته هذه بشكل ممتاز واستعد لها كما لم يفعل في أية غزوة سابقة، وأسماها غزوة «القدرة» لما أراد لها من عظمة وفعالية ومردود.

والواقع إنه كان قد «تقدم في الاستعداد لها قبل أوانها، فجبى وبالغ في حشد أهل الأندلس وتخطاهم إلى أهل ولايته من أهل الحضر منهم، وقبائل البربر البادية»[١]. شدد على عماله في الأندلس في ابتعاث من قبلهم وكان ينهي رسائله إلى كل واحد منهم بقوله: «وليكن حشدك حشراً لا حشداً»[٢]. وما اكتفى بمن في الأندلس من الناس بل استحضر كثيرين من بربر المغرب موسعاً لهم في الوعود والمغريات. وجهز صائفته هذه بالوافر من الأغذية وأدوات الحصار والسلاح كما لم يفعل قبل ذلك أبداً. أوكل قيادة هذا الجيش إلى رجل ثقته، نجدة الصقلبي، وخرج معه بنفسه. أخذت هذه الجموع أولاً طريق طليطلة التي وصلتها في شهر رمضان من العام. ومن هذه المدينة مشى جيش الأندلسيين نحو أراضي راميرو الثاني فعبر نهر الدويرو الفاصل بين أراضي الإسلام وأراضي النصرانية واتجه نحو حصن شنت منكش Simancas. وكان محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرغوسة، قد سبق الجيش الأندلسي، ملبياً نداء عبد الرحمن الناصر، ومعه جموع أهل الثغور قد هاجموا الحصن وانتصروا في معركة جانبية إلا انهم في النهاية هزموا هزيمة منكرة ووقع القائد التجيبي نفسه في أسر ملك ليون. بعد عدة أيام من هذا الحدث وصلت جموع الأندلسيين إلى شنت منكش حيث جرت مع الإسبان النصارى في يوم الخميس الأول من شهر آب سنة ٩٣٩ م (١١ شوال ٩٢٧ هـ) المعركة التي طالما استعد لها الناصر وحشد لها حشوداً ضخمة من أهل الثغور ومن المرتزقة ومن بربر العدوة ومن سائر أهل الأندلس بما قدر بمائة ألف رجل[٣]. دام القتال عدة أيام مما أرهق جيش المسلمين وكشف بعض نقاط ضعفه وخاصة قلة التنظيم وفقدان الانضباط لكثرة الحشود التي انضمت الى الجيش

(١) (٢) المقتبس، جزء ٥، صفحة ٤٣٣، ابن حيان.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٥٥.

النظامي. ركز راميرو الثاني وحلفاؤه من أهل نبرة ومن القشتاليين ضغطهم على الجيش النظامي فتراجع إلى خندق، كان النصارى قد حفروه مسبقاً ليمنعوا تراجع المسلمين في حال هزيمتهم، فتردى فيه خلق كثير وداس بعضهم بعضاً وكان ذلك بداية الهزيمة الساحقة[1]، فهرب الناصر بجنوده النظاميين، الذين سلموا من المذبحة، وترك سائر الحشود تحت رحمة سيوف الإسبان فسحقوها وقتلوا منها ما لا يقل عن أربعين ألف شخص.

لقد كانت معركة «الخندق» هزيمة شنيعة أصيب بها الأندلسيون، وكادت تذهب ببريق الانتصار السابق في معركة خونكيرا. أسرع عبد الرحمن الناصر في الوصول إلى قرطبة ليمنع أية ردود فعل سلبية قد تحدث فيها إذا ما وصلتها الأخبار الحقيقية للهزيمة. لقد كانت بالنسبة للأمير أكثر من هزيمة عادية إذ يصفها لنا ابن حيان بقوله: «ونالت السلطان والمسلمين فيها حطمة عظيمة، قتل فيها خلق وأسر كثير، وملك سواد العسكر وعدة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية، وفيها مصحفه الخاص به ودرعه الأثيرة لديه. . . واستمرت الهزيمة بالكافة فلم ينج من نجا منها إلا على متون الدواب»[2]. والواقع إن المراجع الأندلسية، وإن اعترفت بهذه الهزيمة فإنها تمر عليها بكثير من الصمت ولا تمدنا إلا بالقليل من التفاصيل والمعلومات. ولولا بعض الروايات الموجزة التي أمدنا بها ابن حيان، عن مؤرخين غير أندلسيين، عما جرى يوم «الخندق» وقبله وبعده لكان ما وصلنا من أخبار يسيراً للغاية. إلا انه على كل حال هذا القليل الذي نقله إلينا المؤرخون المسلمون لا يناقض بحال من الأحوال المعلومات الوفيرة الواردة في المصادر الإسبانية مما يثبت صحة الأخيرة من كون «الخندق» كانت كارثة ولم تكن هزيمة عادية. لقد كانت كارثة فعلاً، لنفوذ وهيبة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر في الأندلس كما في خارجها، إذ قتل فيها قائده نجدة الصقلبي وأسر محمد بن هاشم

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٤٣٥.

(٢) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٤٣٦.

حاكم سرغوسة وجرح الأمير نفسه وفر حتى لا يقع أسيراً بيد أعدائه. ويبدو إن الذي أنقذ ما بقي من جيش المسلمين، ومن سمعتهم العسكرية ومن سلامة حدودهم، كون الإسبان بزعامة راميرو الثاني ما أقدموا على ملاحقة المسلمين، عبر أراضيهم وقطف ثمار انتصارهم كاملة، خوفاً من كمائن قد يكون نصبها لهم المسلمون وراء صفوفهم، وربما أيضاً لانشغالهم في جمع الأسلاب والغنائم والثروات المتروكة من المهزومين[1].

والواقع إن هذه الهزيمة كشفت ناحية هامة من سياسة عبد الرحمن الثالث. ذلك انه كان منذ مدة قد درج على استبعاد العناصر العربية القوية عن مراكز الحكم والنفوذ والقيادة خوفاً من أطماعها وانقساماتها. ثم إنه اعتقد بعد كل ما عاناه في القضاء على رواسب عصر الفتنة، من ثورات وحركات انفصالية وأعمال تمرد، كان للعنصر العربي فيها دور أساسي وبارز، انه قد يكون من الأفضل له لو اعتمد في إدارته على عناصر وضيعة تدين له وحده بمراكزها، فتظل بدافع الرغبة في المحافظة على مكتسباتها ومصالحها شديدة الولاء لشخصة ولحكمه. وأيضاً رأى من المناسب أن يعتمد وإلى درجة كبيرة في جيشه على عناصر من الصقالبة الذين يشتريهم بماله ويرفعهم إلى المناصب الكبيرة فيضمن دوماً ولاءهم إذ ليست لهم روابط بأية تجمعات عنصرية، أو قبلية، أو دينية، أو حضارية من تلك التي تشكل الأمة الأندلسية. إلا أن هذه السياسة التي طبقها في جيشه على نطاق واسع كان لها وجه آخر إذ أغضبت عناصر العرب وزعماء بيوتهم العريقة بصورة خاصة وأيضاً البربر والمولدين فأشاعت في الجيش الفرقة والحسد وأكثرت من الدسائس. فما كان من المعقول أن يقبل مقدمو العرب وسادة قبائلهم، وأيضاً البربر ممن اعتبروا أنفسهم دوماً سادة الأندلس وصانعي أمجاد دولة الإسلام فيه، العسكرية والسياسية، ريادة وقيادة عناصر الصقالبة الأعاجم الدخلاء. ويعزو أكثر المؤرخين هزيمة معركة «الخندق» لتردد عناصر العرب في الجيش وإحجامهم عن

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٥٥.

القتال بصدق في ظل قادة جلهم من الأرقاء الصقالبة. وقد أشار إلى ذلك ابن حيان بقوله: «وبدا من قوم من وجوه الجند في هذا اليوم النفاق لأضغان احتملوها على السلطان ففتقوا الصفوف وشارعوا في الهرب، وجروا على المسلمين الهزيمة، وأوبقوهم»[1]. وقد أكد هذه الواقعة وأوضحها صاحب كتاب «أخبار مجموعة» بقوله: «ولكنه عفى الله عنه... استمد بغير الكفاة وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال كنجدة الحيري وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره وفوض إليه جليل أموره وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام عشرين وثلثمائة وسماها غزوة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها»[2].

إلا ان أبرز ما تمخضت عنه هذه الصائفة الكارثة هو ان أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث، إما خوفاً ورهبة، أو بسبب تقدمه في السن ما خرج بعدها بنفسه على رأس غزوة إلى بلاد إسبانيا المسيحية. إنما بالمقابل أفاد من هزيمته هذه فأعاد تنظيم جيشه، وعاقب القادة والضباط الذين اعتبرهم مسؤولين عن الكارثة، فأعدم المئات منهم، مما أعاد له هيبته وأرجع لجيشه سمعته العسكرية. وللدفاع عن مناطق الثغور اعتمد نظاماً عسكرياً جديداً. فقد تخلى بعض الشيء عن السياسة التي مارسها تجاه المناطق والأقاليم والقائمة على مركزية القرار والسلطة إذ اعتمد تقليد مدن الثغر الأعلى أكابر سكانها ووراثها عن الأجداد والآباء مثل آل تجيب وآل ذي النون وآل زروال وآل غزوان وآل الطويل وغيرهم، فقسم البلاد بينهم وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم[3]. وهذا يعني انه أعاد مراكز القوى

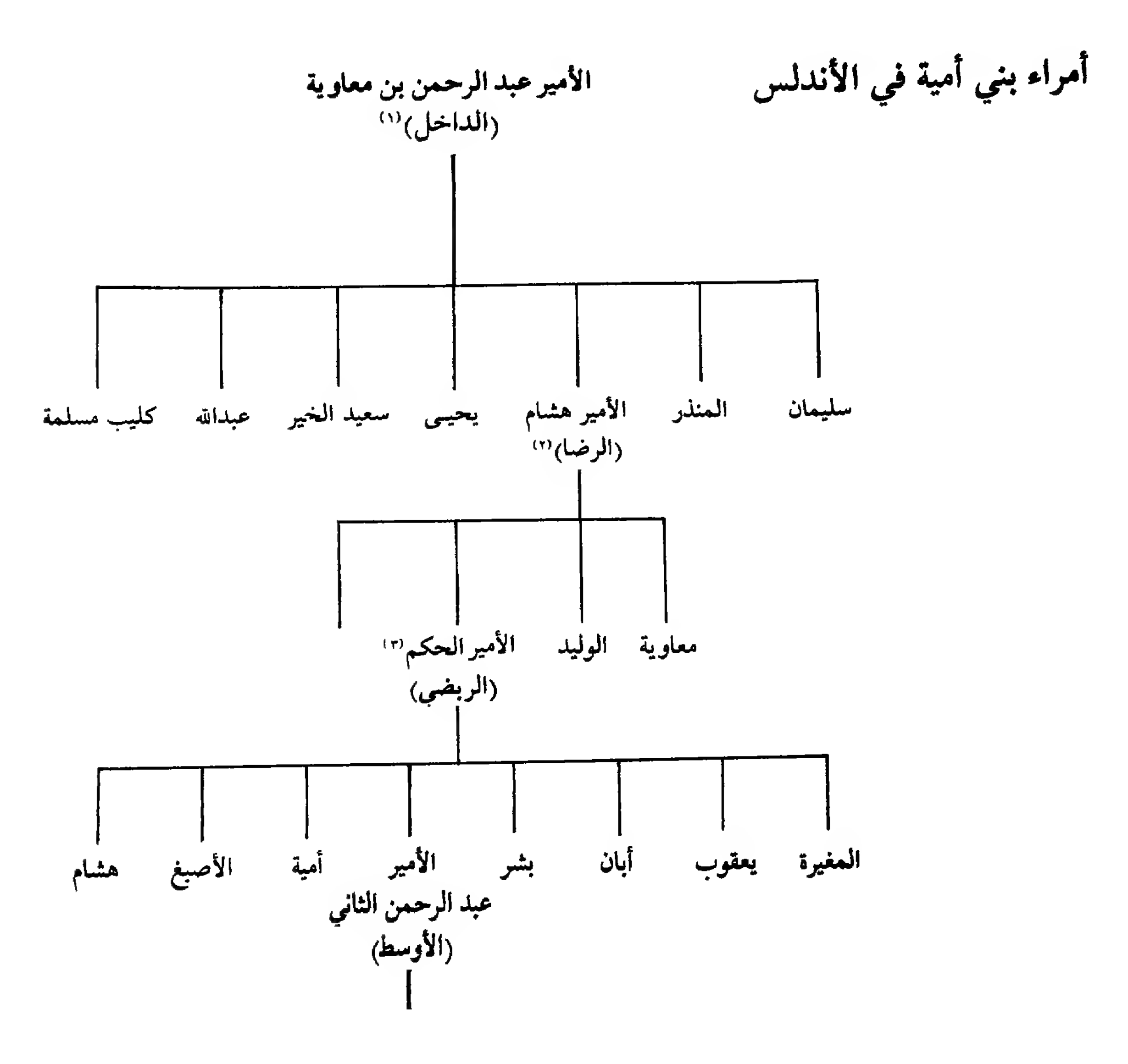
---

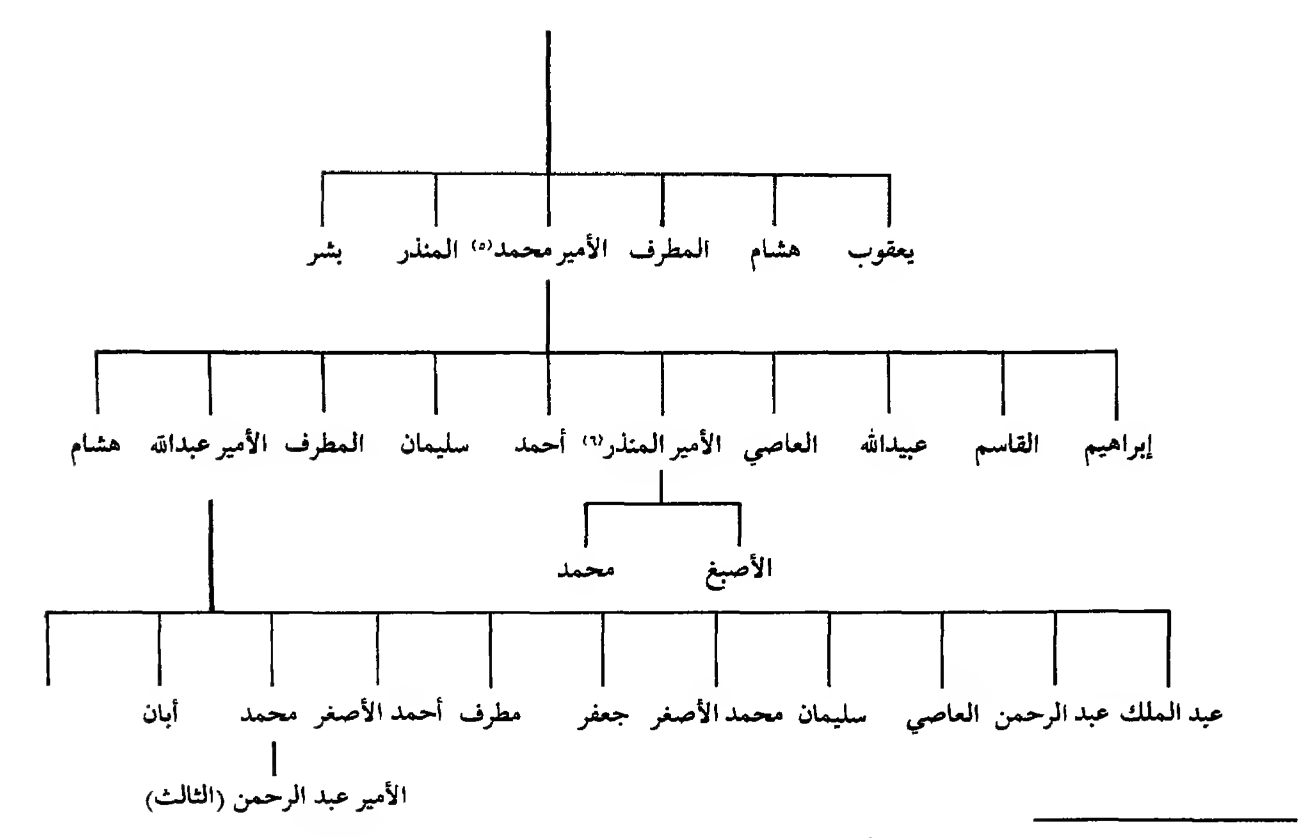
(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٤٣٦.

(٢) أخبار مجموعة، صفحة ١٥٦.

(٣) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٤٣٨.

أمراء بني أمية في الأندلس





(١) ذكر ابن عذاري أن لعبد الرحمن أحد عشر ولداً لم يذكر أسماءهم وسمى منهم ابن حزم في جمهرة أنساب العرب سبعة.

(٢) ذكر ابن عذاري أن لهشام ستة أولاد سمى منهم ابن حزم أربعة فقط.

(٣) ذكر ابن عذاري أن للحكم تسعة عشر ولداً وقال ابن حزم ثمانية عشر ولداً سمى منهم ثمانية وأورد ليڤي بروڤنسال عن مصادر عربية مختلفة أسماء أخرى منها عثمان وعبد العزيز والوليد.

(٤) قال ابن عذاري أن له خمسة وأربعين ولداً وذكر ابن حزم أنه أنجب خمسين ولداً سمى منهم أربعة فقط وأورد ابن الآبار في الحلة السيراء اسمي اثنين منهم.

(٥) قال ابن عذاري أنه أنجب ثلاثة وثلاثين ولداً وذكر ابن حزم أنهم نيفاً وثلاثين ذكراً سمى منهم ثمانية.

(٦) ذكر ابن عذاري أنه أنجب خمسة أولاد سمى ابن حزم واحداً منهم وسمى ابن الآبار آخراً.

القديمة في هذه المناطق، والتي اجتهد كثيراً في السابق في إخضاعها، إلى سالف مكانتها وإنما هذه المرة بالتعاون مع الدولة وفي ظل سيادة الأمير وسلطانه وفي إطار الولاء والطاعة، وألقى عليها مهمة مراقبة الحدود والدفاع عنها.

وليرفع من معنويات الأندلسيين وليقضي على آثار الهزيمة في نفوسهم أرسل صائفة إلى مملكة ليون في سنة ٩٤١ م (٣٢٩ هـ) بقيادة أحمد بن يعلي حققت فيها أكثر من نصر على راميرو الثاني وعاد القائد المسلم بالغنائم وبمائتي أسير من وجوه الإسبان. توالت بعد ذلك الصوائف سنوياً إلى الشمال الإسباني وتوالت الانتصارات. وقد قوي موقف المسلمين بصورة خاصة حين توفي راميرو الثاني في سنة ٩٥٠ م ودب الخلاف بين ولديه، فتدخل الخليفة الناصر بينهما حكماً ومصلحاً، فحقق بذلك مكاسب هامة ليس أقلها الحصول دون قتال على قلاع وحصون كثيرة في مناطق الحدود.

إنما وفي كل الأحوال فالشيء البارز في موقف الخليفة عبد الرحمن الناصر من إسبان الشمال انه ما كان منبعثاً من خطة ثابتة واضحة المعالم. فمنذ تسلمه إمارة قرطبة حتى وفاته ظلت الصوائف تذهب في الاتجاهين سنوياً، نحو أراضي البشكنس في نبرة، كما إلى بلاد الجلالقة في مملكتهم ليون، إلا في مرات قليلة، فتعيث هنا وهناك الفساد وتخرب الزروع وتهدم القلاع وتسبي الناس ويعود كل فريق من حيث أتى. ومع ان المسلمين أيام عبد الرحمن الثالث دخلوا بنبلونة عاصمة نبرة وفرضوا سيادتهم ونفوذهم العسكري أكثر من مرة على مملكة ليون إلا ان حدودهم مع المملكتين بقيت هي هي دون تعديل لصالح المسلمين وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على ان هذه الحروب كانت آنية ومرتجلة تستهدف تحقيق المكاسب الفورية أكثر مما كانت فتوح توسع وغزو. ومن هذه الزاوية فإن سياسة عبد الرحمن الثالث تجاه إسبانيا المسيحية على ما كان لها من ثمن غال مالياً وبشرياً ما أفادت الأندلسيين ولا ردت عن أحفادهم أخطاراً مستقبلية.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣١٥.

الفصل الثاني

أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر

ذكرنا فيما سلف ان أمراء بني أمية، منذ أقام دولتهم في شبه الجزيرة الإيبرية عبد الرحمن الأول المعروف بالداخل، ما تجرأ أحد منهم على حمل ألقاب الخلافة مكتفين بلقب الإمارة. لم يحمل أحد منهم لقب «خليفة» أو «أمير المؤمنين» احتراماً ولو بصورة لا شعورية لوحدة المسلمين ومهابة لمنصب الخلافة رغم عدائهم الشديد لخلفاء بني العباس في بغداد. بل أكثر من ذلك نجد الأمير عبد الرحمن الأول، رغم ما كان بين عائلته وبين العباسيين من عداء ورغم ما أنزله هؤلاء به شخصياً وبأهله وإخوته من ضر وأذى، ما تجرأ عند إعلانه الإمارة الأموية في قرطبة على قطع الدعاء للخليفة العباسي من على منابر الأندلس مما اعتبر بمثابة استمرار في الخضوع والولاء له ولو شكلياً. واستمرت عدة أشهر، على أيامه الدعوة للمنصور في مساجد الأندلس، وما قطع الدعوة لآل العباس إلا بعد أن هدده ابن عمه عبد الملك بن عمر المرواني بالانتحار إذا استمر في نهجه[1].

---

(١) النفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ٥٩.

والأمويون في بداية أمرهم، ومع اقتناعهم بان الخلافة هي حق لهم، وتراث في بيتهم، سلبوه بالعنف ودون وجه حق أو شرع كانوا يشعرون «بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية» ذلك ان مسلمي إسبانيا آنذاك، كما سائر المسلمين ما كانوا يتصورون إمكان قيام خلافة لا تملك على بلاد الحجاز، حيث أماكن الإسلام المقدسة في مكة والمدينة، ولا تخيلوا إمكان قيامها في أرض ليس فيها العرب، وقريش خاصة، حماة الإسلام وحملته إلى العالم في ذلك الوقت.

والخلافة، كما فهمها المسلمون آنذاك وكما عرفها فقهاؤهم، ذات مكانة عظيمة والتزامات لا حدود لها. فهي عند الفقيه عبد السلام «رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ»[1] وهي عند ناصر الدين البيضاوي «عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول عليه السلام في إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة»[2]. وما كان معقولاً ولا مقبولاً أن يتصدى شخص لهذه المهمة العظيمة وينوب عن الرسول في أرض هي أبعد ما يكون عن مهده وموطنه ومستوطن تراثه ومخلفاته. وما كان أحد يتصور إمكانية العمل على حفظ حوز الملة في أرض بعيدة عن قلب موطن الأمة، قائمة في أحد أبعد أطرافه. ثم إذا أخذنا بعين الاعتبار اشتراط بعضهم انتماء الخليفة لقريش[3] فكيف تكون لقرشي لا صلة له ولا اتصال بسائر بني قومه وهو وجل من معه من أمويين أنصاف قرشيين لغربة الأمهات.

وعلى هذا وحتى مطلع القرن العاشر للميلاد اكتفى أمراء بني أمية في قرطبة من شارات الحكم بلقب الأمير، ولو انهم قطعوا الدعاء في مساجدهم لخلفاء بني العباس وناصبوا حكوماتهم العداء. إنما بالمقابل درجوا على استعمال لقب «أبناء

(١) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرزاق، صفحة ١٣٨.
(٢) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرزاق، صفحة ١٣٨.
(٣) الأحكام السلطانية، الماوردي، طبعة المطبعة المحمودية، صفحة ٤.

الخلائف» إشارة إلى تمسكهم بحق ما زالوا يعتبرون أنفسهم أصحابه دون غيرهم.

ومع مجيء الأمير عبد الرحمن الثالث، بعد عصر طويل من الفتنة والتمزق، وغياب وحدة الأمة ظهرت بين الأندلسيين مفاهيم جديدة للخلافة ونظرة مستجدة لنظام الحكم. فمع إنجازات هذا الأمير العظيمة في مجال إعادة وحدة الأمة، واستعادة هيبة الدولة، والقضاء على الثوار والمنتزين، وخاصة الكبار منهم مثل بني حفصون، وبني حجاج، وبني ذي النون، ارتفعت مكانته وسما قدره بدرجة كبيرة في عيون مواطنيه. وأيضاً كثر مؤيدوه بعد سلسلة انتصاراته الباهرة على إسبان الشمال، وخاصة بعد معركة خونكيرا والاستيلاء على بانبلونة وتدميرها، وهي أمور افتقدها الأندلسيون أيام الأمراء الثلاثة الذين سبقوه.

بعد كل هذه الإنجازات العظيمة صار الأمير عبد الرحمن الثالث يبدو في عيون الأندلسيين وكأنه الضمانة الوحيدة لاستمرار هذه الانتصارات بل ولتزايدها. أكثر من هذا ظهر في عيونهم وكأنه أعاد لدولة الإسلام في إسبانيا قوتها وصمودها في وقت كان يخيل للكثيرين ان نهاية الإسلام في تلك الأصقاع آتية في مستقبل قريب، إن لم يكن بفعل نصارى الشمال فبعوامل الفرقة والانفصال المستشرية من الداخل. ومن هنا أخذ الناس ينظرون إلى أميرهم نظرة بطل منقذ حقق لهم ولبلدهم ما لم يعمله قبله أي واحد من الأمراء الأمويين. وهذا قد يفسر لنا رواية مؤلف كتاب الحلل الموشية[1] من ان الناس هم الذين رغبوا في رفع الأمير إلى سدة الخلافة. بل ربما ناداه الناس بلقب الخليفة، أمير المؤمنين تكريماً له، وإجلالاً لمكانته حتى قبل أن يقدم هو على إعلان نفسه خليفة للمسلمين.

وفي الوقت الذي كان فيه الأمير عبد الرحمن الثالث يقطف ثمار انتصاراته المتوالية في الداخل وعلى الحدود من حب مواطنيه، وعطفهم عليه، وتأييدهم له بادر في سنة ٩٢٩ م (٣١٦ هـ) إلى إرسال كتاب إلى عماله في الكور والحواضر الكبرى جاء فيه: «أما بعد فأنا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه،

(١) تاريخ المغرب والأندلس العبادي صفحة ١٦٩.

ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا به، وأظهر أثر تنافيه ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا دركه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا، والحمد لله ولي الأنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا ان التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله، والله المستعان»[1].

وإذا كان المسلمون في الأندلس قد قبلوا هذه الخلافة في القرن العاشر للميلاد، وما استغربوا إقدام أميرهم على خطوة كانت فيما سبق مرفوضة وغير مستساغة، فإنه في الواقع كانت هناك تطورات حدثت في قلب العالم الإسلامي هيأت النفوس لقبول مثل هذا التحول الخطير. ذلك ان علماء المسلمين وفقهائهم، مع اتساع رقعة أرض الإسلام وامتدادها الواسع في القارات الثلاث المعروفة في العصور الوسطى ما عادوا يصرون على ضرورة المحافظة على خلافة واحدة لاستحالة فرض سلطانها المركزي في دولة باتت حدودها بالغة الاتساع وشعوبها لا حصر لتعدادها، ومشاكلها أكثر من أن تحلها أو تضبطها سلطة واحدة. وعلى هذا تكون الاعتبارات التي منعت عبد الرحمن الأول من تجاوز وحدة خلافة المسلمين قد أزالها تطور نظريات الفقهاء ورجال الدين في المشرق بتغير أحوال العالم الإسلامي.

ثم إنه مع انتقال مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد وطغيان الفرس، عنصراً وفكراً وثقافة على الحياة العامة، وبصورة خاصة السياسية، في بغداد صار

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٢٩٨.

للخلافة فيها طابع أفقد شرط قرشية الخليفة مضمونه، ولو انه بقي قائماً شكلاً. ثم إن ما بدا من ضعف الخلافة العباسية في المشرق بعد أيام الخليفة المعتصم، وتسلط عناصر الموالي الترك على مراكز القوة فيها وتحكمهم بسياسة الخلفاء، ذهب بالكثير من مهابة كرسي الخلافة وقدسيته مما أخذ يطمع الآخرين فيه. ومنذ ذلك الوقت ما عاد الخليفة العباسي في بغداد يقدر أن يجسد وحدة العالم الإسلامي وتضامن المسلمين في ظل دولة واحدة للإسلام، ما عادت قائمة أصلاً منذ أمد طويل. ويذهب كثيرون من المؤرخين المسلمين أبعد من ذلك فيرون بأن الخلافة بالمفهوم المتعارف عليه والذي أشرنا إليه سابقاً كانت في صدر الإسلام إلى آخر عهد علي «ثم صار الأمر إلى الملك، وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه، والجري على منهاج الحق، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها، وصار الأمر ملكاً بحتاً»[1].

ومن الضروري الإشارة هنا إلى ان قيام الفاطميين بإعلان خلافة شيعية في بلاد المغرب تجاوز وحدة خلافة بني العباس. والواقع إن قيام الخلافة الفاطمية في القيروان أوجد وضعاً جديداً وخطيراً بالنسبة لدولة الإسلام في إسبانيا. فالأندلسيون كانوا شديدي التمسك بالمذهب السني، متعلقين بتقاليد وأعراف ورثوها عن الدولة الأموية في بلاد الشام. وسيطرة الخلافة الفاطمية الشيعية على شمال أفريقيا يعزلهم عن سنة المشرق. ثم إن وجود هذه الخلافة الجديدة يهدد مذهبهم الديني لكونها أظهرت منذ البداية رغبة واضحة في التبشير بالمذهب الشيعي وحمل سكان المغرب الإسلامي والأندلس من ضمنه بالطبع، على اعتناقه. ومما أثار خوف السلطات الأموية في قرطبة كون أوائل الدعاة والمبشرين الشيعة الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس بصفة تجار، أو علماء أو رحالة حققوا

---

(١) المقدمة، ابن خلدون، طبعة البيان العربي، جزء ٢، صفحة ٧١٨.

نجاحاً لا بأس به في مجال التبشير بمذهبهم. من هنا كانت ضرورة إقامة خلافة أموية سنية في الأندلس تكون حتماً أقدر من الإمارة على مجابهة المد العقائدي الآتي من قبل الخلافة الفاطمية في شمال أفريقيا.

هذه الاعتبارات كلها سهلت أمام الأمير عبد الرحمن الثالث إعلان نفسه أميراً للمؤمنين إشارة إلى قيام خلافة أموية في قرطبة لا تكون أول من يخرج على وحدة الخلافة العباسية في بغداد، ولا تتهم بانها قد قسمت المسلمين وذهبت بوحدتهم. وربما كون هذه الخلافة قد انبعثت من حاجات سياسية وضرورات مذهبية فقد أتت بنظامها وتكوينها أقرب إلى ملكيات أواخر العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة في أوروبا. فخلافة بني أمية في قرطبة ما كانت ترتكز إلى حق إلّهي في السلطة، ولا ادعت أنها تستمد سلطانها من الله كما يعتقد العباسيون. وكما كانوا يعلنون. وقد عبر المنصور عن هذه الدعوى صراحة في خطبة له في مكة قال فيها: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه»[1] ولا كانت إمامة معصومة كما اعتبر الشيعة خليفتهم أو كما أرادوه. فخلافة عبد الرحمن الناصر انبثقت من إرادة الأمة ورغبتها بجعل أميرها خليفة يحكمها حكماً وراثياً، كما كانت الملكيات، وبتفويض منها. وعلى هذا فقد أتت خلافة بني أمية فريدة في نظمها ومرتكزاتها العقائدية مما ميزها دوماً عن ما عرفه العالم الإسلامي في العصور الوسطى من نظم الحكم.

والواقع إن الخليفة عبد الرحمن الناصر، مؤسس هذه الخلافة حاول كلما أمكنه ذلك، وكلما كان لا يتعارض مع جوهر سلطانه، أن يظهر احترامه لبعض المؤسسات التي كانت تمثل سلطان الأمة. فهو مثلاً كان يحمل احتراماً كبيراً للقضاء، من ناحية لكون قضاة ذلك الزمن كانوا يتولون تنفيذ أحكام الإسلام في

---

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه، جزء ٤، صفحة ٩٩.

دولة دستورها القرآن، ومن ناحية أخرى لكونه إحدى السلطات التي تعبر عن إرادة الأمة وسلطانها. نسوق هنا مثالاً لتعامله مع القضاء وكيف تقبل نقداً علنياً وجهه له قاضي قرطبة منذر البلوطي لإسرافه في الإنفاق على أبنية مدينة الزهراء. لقد سمع من هذا القاضي في خطبة الجمعة نقداً جارحاً تألم منه كثيراً فأسر لابنه «والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي وتفزيعي، ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني»[1]. وكل ما فعله الخليفة حيال ذلك هو انه أقلع عن الصلاة وراء هذا القاضي، وما استطاع أو ما أراد أن ينزل به أي أذى أو عقاب. وكأنه بذلك يحاول أن ينسجم مع كون خلافته قد انبثقت من إرادة الأمة وبالتالي من حق هذه الأمة ممثلة بعلمائها وقضاتها في محاسبة الحكام ومراقبة أعمالهم. بل أكثر من ذلك ما تردد في قبول بعض النقد وجهه له مواطنون لكثرة إسرافه ولتبذيره وبذخه في الصرف على أعمال البناء والعمران. وفي هذا كان متميزاً عن حكام المسلمين في عصره وكذلك عن ملوك وأباطرة أوروبا المسيحية في العصور الوسطى.

إنما في كل الأحوال ما أعنيه هو انه كان متميزاً عن خلفاء المسلمين في نظرته لأصل سلطانه ومنبت سيادته دون أن يصل إلى أن يكون ولو من بعيد ملكاً دستورياً، بالمعنى الحديث للكلمة. فهو في إصراره على حصر كل السلطات بين يديه وسعيه الدائم لجعل إسبانيا الإسلامية تحكم من دار الخلافة في قرطبة حكماً مركزياً قوياً لا يبقي مجالاً لثائر أو طامع أو متسلط على بعض سلطان الدولة كان رائداً وسباقاً لملوك أوروبا في مطلع العصور الحديثة.

وربما من هذا المنطلق بالذات ما أحب عبد الرحمن الناصر الأرستقراطية العربية ولا وثق بزعماء القبائل. فهؤلاء الذين كانوا دوماً يستمدون من عراقتهم ومن سابقتهم في الإسلام قوة ونفوذاً، ما استعملوهما كما يدل على ذلك تاريخ

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٥٧١.

الإمارة الأموية في الأندلس إلا لجر المكاسب الشخصية والعائلية والتعدي على سلطات الدولة واستلاب بعض سلطان الأمير. لذا، فلو أنه في بداية عهده اعتمد على بعضهم ممن كانت لهم خبرة ودراية في شؤون الحكم والدولة من أمثال الحاجب بدر بن أحمد وأولاده والقائد العسكري أحمد بن محمد بن أبي عبدة، فإنه ما لبث، بعد أن وطد سلطانه، أن صار ،يصطفي كبار موظفيه ومعاونيه والمقربين منه من غير العرب. وقد أكثر بصورة خاصة من اعتماد طبقة العبيد الصقالبة الذين كان يعتقهم ويوكل إليهم مهمات الدولة ووظائفها. كان يعتقد أن هذه الفئة التي لا صلة لها بالبلاد ولا جذور لها في مجتمعها ستكون دوماً مخلصة وموالية للخليفة فلا تزاحمه في سلطته ولا تسعى إلى مشاركته في سلطانه. فالصقالبة يدينون له بكل شيء وتربطهم به مصلحة أساسية باعتباره حاميهم وضامن استمرار مكاسبهم ونفوذهم ووظائفهم. بلغ بعض هؤلاء الصقالبة أحياناً مراكز أساسية في الدولة فكان منهم الفتى نجدة الصقلبي قائد الجيش وأفلح صاحب الخيل ودري صاحب الشرطة. ليس هذا فقط بل أنه جعل منهم بطانته وحرسه الخاص وسكان قصوره فبلغ كما يروي المؤرخون عدد من ضمته القصور الخليفية عند وفاة الناصر ٣٧٥٠ فتى وعدد النساء والجواري ٦٧٥٠. والواقع ان هذه السياسة ولو انها في المدى القصير دعمت نفوذ الناصر وحققت أغراضه بقيام الحكم المركزي القوي إلا أنها أوجدت نقمة رهيبة عند زعماء العرب وصدعت وحدة الجيش الأندلسي وتماسكه مما ساهم في تلك الكارثة التي حلت بالمسلمين في معركة الخندق كما رأينا سابقاً.

العلاقات الأموية ـ الفاطمية:

في أواخر القرن التاسع للميلاد (سنة ٢٨٠ هـ) حل في بلدان شمال أفريقيا أحد أنشط وأقوى دعاة المذهب الشيعي الإسماعيلي، أبو عبد الله الشيعي. نزل في ضيافة وحماية قبائل كتامة البربرية التي كان ابناؤها ينتشرون في الأراضي الواقعة بين منخدرات جبال أوراس والشواطىء الشرقية لبلاد الجزائر مما

يعرف في يومنا هذا باسم بلاد القبيل[1]. اختار هذه القبائل دون غيرها لأنه سبق أن عرف بعض أبنائها، التقاهم في مكة أثناء موسم الحج، وأقام معهم صلات حسنة بعد أن لاقت أفكاره هوى في نفوسهم. وبالفعل ومذ بدأ ينشر الدعوة الشيعية بين مضيفيه لقيت أفكاره حول المهدي المنتظر والإمام المعصوم استجابة قوية، ليس فقط في نفوس ابناء قبائل كتامة، وإنما وجد استجابة أيضاً لدعوته لاعتناق المذهب الشيعي الإسماعيلي في أوساط القبائل البربرية الصغيرة الأخرى المجاورة لها أو المتصلة بها. وفي فترة زمنية قصيرة، وقبل نهاية القرن الثالث للهجرة بات له أتباع كثيرون، وتجمعت لديه من تبرعاتهم وعطاياهم أموال لا حصر لها. نجاحه السريع جعله يعتقد انه صار بإمكانه أن يتحول عن التبشير بالكلمة والدعوة بالحسنى لأفكاره، لينطلق في حملات مسلحة تهدف إلى فرض آرائه ومعتقداته على القوى السياسية المهيمنة في بلدان شمال أفريقيا. والواقع ان الوضع السياسي في هذه البلدان كان آنذاك على درجة كبيرة من التمزق والاضطراب. لم تكن هناك في ذلك الوقت قوة عسكرية متماسكة، ولا كانت توجد في هذه المناطق دولة كبيرة لها نفوذ سياسي فاعل يمكنه أن يقف بوجه رجل له من الطاقات والذكاء ما لأبي عبد الله الشيعي. كانت تتوزع الزعامة السياسية في شمال أفريقيا مجموعة متنافرة من القبائل والدويلات الصغيرة:

١ ـ في المغرب الأدنى وهو ما يعرف باسم ولاية «أفريقية» كان يحكم أمراء بني الأغلب من عاصمتهم القيروان باسم الخلافة العباسية في المشرق، ولو إنهم فعلياً كانوا يكتفون من مظاهر الولاء للعباسيين بالدعاء لخليفة بغداد من على منابر مساجدهم. كانت دولة الأغالبة آنذاك تمر بفترة من الضعف والتفكك سريا بقوة في إدارتها وجيشها وأجهزتها مما جعلها قابلة للزوال أمام أية عاصفة. وظاهرة الحياة الوحيدة في دولة الأغالبة آنذاك كانت تتمثل في ما كانت تملكه من أسطول بحري قوي كان له دور فاعل في البحر المتوسط الغربي بما اتخذ له من قواعد في

(١) تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادي، صفحة ١٧٤.

جزيرتي صقلية ومالطة وبما كان له من نفوذ شمل حتى بعض سواحل جنوب إيطاليا. ولم تكن لدولة الأغالبة علاقات حسنة مع جيرانها وبصورة خاصة الرستميين الذين كانت تفرقها عنهم صراعات دموية مستمرة.

٢ ـ في بلاد المغرب الأوسط كانت تقوم دولة الرستميين الذين كانوا يحكمون من عاصمتهم مدينة تاهرت. وكان هؤلاء يدينون بالمذهب الخارجي الأباضي.

٣ ـ في المغرب الأقصى كان الأدارسة منذ أوائل القرن التاسع للميلاد يقيمون لأنفسهم، في قلبه وحول كبرى حواضره مدينة فاس، عدداً من الدويلات الصغيرة المتنافرة والتي تشكو من الضعف وعدم الاستقرار. وأبرز ما يميز الأدارسة كونهم رغم انتسابهم لعلي بن أبي طالب ما كانوا يدينون بالمذهب الشيعي.

وفي مناطق جنوب المغرب الأقصى كانت تقوم دولة بني واسول أو الدولة المدرارية التي كان أهلها يأخذون بالمذهب الخارجي الصفري المتصف بالاعتدال. وكانت مدينة سجلماسة الهامة عاصمة هذه الدولة.

وعلى سواحل المغرب الأقصى وفي الجهة المقابلة لشواطىء إسبانيا الجنوبية الشرقية كان يملك بنو صالح، أصدقاء الأمويين في الأندلس، إمارة نكور الصغيرة والتي كان جل سكانها على المذهب السني. وكانت هناك إلى جانب هذه الدويلات تجمعات بربرية هامة تشكل مراكز قوى عسكرية تعمل بصورة أساسية وفق مصالح أبنائها وتطلعات رؤساء القبائل فيها وهو الأمر الذي كان يزيد في تعقيد الوضع السياسي في بلاد المغرب الأقصى بصورة خاصة.

اتخذ أبو عبد الله الشيعي منطقة قسنطينة، على أطراف دولة الأغالبة، منطلقاً لتحركه العسكري، فأخضعها لسلطانه ثم أخذ يتقدم منها، مع أتباعه من بربر كتامة، في عمق أراضي هذه الدولة. فشلت جميع الجهود التي بذلها زيادة الله الثالث الأغلبي لاحتواء هذا التحرك العسكري والقضاء عليه. وفي سنة ٩٠٩ م (٢٩٦ هـ) دخل أبو عبد الله الشيعي وأتباعه، مدينة رقادة الصغيرة حيث كانت

قصور الأمراء الأغالبة، وبعد أيام قليلة استولى على عاصمتهم القيروان وأزال دولتهم من الخريطة السياسية للعالم الإسلامي.

لم يكن أبو عبد الله الشيعي يعمل لنفسه، ولذا فإنه منذ استشعر إمكانية نجاح دعوته كتب لسيده وزعيمه الإمام عبيد الله يخبره بما أنجز ويدعوه للمجيء إلى بلدان المغرب حيث سيصير بإمكانه إعلان دولته الشيعية بعد أن تم التمهيد لذلك عقائدياً وعسكرياً. لم يكن انتقال الإمام عبيد الله إلى شمال أفريقيا سهلاً، إذ كان الخليفة العباسي المقتدر يرصد تحركاته مما اضطره لخوض سلسلة من المغامرات أوصلته إلى مصر. ومن هناك كان عليه أن يدفع الأموال الطائلة كرشاوى ومصاريف لتفادي أذى عمال وجواسيس الأغالبة الذين كانوا يلاحقونه. وفي نهاية رحلته وقبل أن يلتقي صاحبه وداعيته وقع أسيراً بيد عمال اليسع بن مدرار فساقوه إليه حيث ألقى به في سجون سجلماسة[1].

لم يتوقف أبو عبد الله الشيعي عند انتصاره على الأغالبة ودخوله القيروان وإنما بادر إلى مهاجمة أراضي دولة الرستميين في المغرب الأوسط، وهي كانت على تحالف قديم مع الأمويين في الأندلس، فقضى عليها واستولى على عاصمتها تاهرت. اتجه بعد ذلك نحو الدولة المدرارية، حيث كان يسجن سيده وإمامه عبيد الله فهزم صاحبها، واستولى على عاصمتها سجلماسة، وأطلق الإمام الآتي من الشرق وقدمه لأتباعه على انه إمامهم. توقف زحف أبو عبد الله وأسرع مع صاحبه عائداً إلى رقادة بالقرب من القيروان، حيث قصور الأغالبة، فاتخذها الإمام عاصمة له وتقبل فيها في سنة ٩٠٩ م (٢٩٧ هـ) بيعة أتباعه ومعهم أهل القيروان، على المذهب الشيعي الإسماعيلي وتسمى بالخليفة «المهدي» أمير المؤمنين. ومن هناك وجه الرسل إلى جميع مناطق شمال أفريقيا وصقلية يعلن للناس قيام الدولة الفاطمية والخلافة الشيعية الجديدة.

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن، جزء ٣، صفحة ١٤٤.

أراد الخليفة المهدي منذ البداية أن تكون لدولته، وله هو، سياسة كبيرة واضحة المعالم، ثابتة، مستقرة، أساسها العمل على نشر الدعوة الفاطمية الشيعية باتجاه الشرق والغرب معتبراً ان خلافته يجب أن تكون خلافة فتح وتبشير ودعوة لا خلافة حكم وإدارة. وليكون قادراً على تنفيذ هذه السياسة وأيضاً ليكون بمأمن من أي عدوان أو اعتداء على نفسه وأهله، إذ ما كان يشعر بالاطمئنان وهو يعيش في محيط غريب عنه، أراد أن تكون له عاصمته الخاصة. اختار مكاناً ملائماً جنوبي القيروان على شاطىء البحر، قريباً من مدينة تونس الحالية، وباشر بناء مدينة جديدة أسماها المهدية أشرف بنفسه على عمارتها. أقام على ساحلها مرفأ عسكرياً حصيناً وداراً كبيرة لصناعة السفن كما أسس فيها مسجداً جامعاً، وقصراً لإقامته، ودوراً للحكم، ومساكن لموظفيه وجنوده، وجعل لها من ناحية البر سوراً عظيماً وأبراجاً حصينة ومشرفة. مع إطلالة القرن الرابع للهجرة كانت مدينة المهدية جاهزة لاستقبال الخليفة ومن معه من أهل ورجال دولة.

السياسة الكبيرة التي أرادها لدولته اقتضت برأيه أن يكون حكمه مركزياً، قوياً، منفرداً واستبدادياً لا يشاركه فيه أحد ولا ينازعه عليه منازع. وربما من هذا المنطلق، وبأنانية لا حدود لها وبنكران للجميل طالما امتاز به ملوك وسلاطين العصور الوسطى، أقدم على التخلص من صديقه وداعيته مؤسس الدولة الفاطمية فدس من وضع السم لأبي عبد الله الشيعي وقتله.

حين كانت تجري هذه الأحداث في بلاد المغرب، وبصورة خاصة منذ حل عبيد الله المهدي في أراضي دولة الأغالبة وأثناء قيامه بالأعمال التأسيسية لدولته الفاطمية الشيعية، كان عبد الرحمن الناصر كولي للعهد غير معلن أولاً، ثم كأمير للدولة الأموية في إسبانيا بعد ذلك، يرقب هذه الأحداث بكثير من الاهتمام وأيضاً بكثير من الخوف والحذر. ذلك إن الأندلس وبلدان شمال أفريقيا، مذ دخلتا في إطار دولة الإسلام ترابطت مصالحهما وتشابكت الأحداث فيهما بحيث اعتاد الناس أن يروا ما يحدث في واحدة يؤثر حتماً في الأخرى، وما كان بإمكان أمير

أموي يتصف بالدهاء والحصافة ويعرف جيداً تاريخ بني أمية إلا أن ينظر بعين الخوف والحذر من قيام خلافة شيعية على الشواطىء الأفريقية المقابلة للبلاد الأندلسية. وأكثر ما أثار شكوك الأمير ومخاوفه كون هذه الدولة الشيعية بدت منذ أيامها الأولى، في أقوال سيدها كما في أفعاله، دولة تبشير بمذهبها الإسماعيلي. بل أكثر من هذا كان واضحاً في أقوال عبيد الله المهدي انه يريد نشر نفوذه السياسي ومفاهيمه المذهبية في كل الغرب الإسلامي وليست الأندلس إلا قطراً من أقطار هذا الغرب.

هكذا بدا للجميع في الأندلس وخارجه، منذ قيام الخلافة الفاطمية، ان بلدان المغرب الإسلامي قد باتت على أبواب صراع دموي رهيب بين قوتين سياستين تتعارضان في كل شيء. وكان من المعروف ان مضاعفات مذهبية وحساسيات قديمة ستزيد هذا الصراع حدة وعنفاً. فالأندلسيون، سنيون يدين جلهم بالمذهب المالكي، شديدو التعلق بالنهج السني وبعيدون عن التأثر بأية أفكار جديدة أو مخالفة وبصورة خاصة إذا كانت شيعية. يضاف إلى ذلك ان حكام الأندلس يبعدهم عن العلويين على اختلاف مذاهبهم وفرقهم، عداء قديم وتفرقهم عنهم ذكريات دموية أليمة تعود إلى أيام الدولة الأموية في الشام.

شغل الفاطميون في بداية أمرهم بتثبيت أركان نظامهم في الداخل بوجه معارضة سياسية وعقائدية متزايدة الشدة من جانب الخوارج، واهتموا أيضاً وفي نفس الوقت بمهاجمة مصر فوصلوا حتى الإسكندرية في إحدى غزواتهم دون أن يتركهم الخليفة العباسي المقتدر هناك. إنما هذه الطموحات الكثيرة والمعقدة ما شغلتهم عن الاهتمام بشؤون دولة الإسلام في الأندلس، فبادروها بسياسة توسعية أبعد ما تكون عن المهادنة والمرونة، مما جعل شكوك الأمير عبد الرحمن ومخاوفه تتأكد وتزداد بحيث يصل إلى حد جعل الحذر والعداء للخلافة الفاطمية حجر الأساس في السياسة الخارجية لدولته والتي اتبعت طيلة أيام حكمه الطويل. بل أكثر من هذا نلاحظ ان هذا الأمير وطيلة الخمسين سنة التي حكم فيها بلاد

الأندلس وبالرغم من مشاغله الكثيرة وهموم سياسته الداخلية، وشدة الأنواء التي كانت تهب على دولته من قبل إسبانيا المسيحية، فإنه ما أهمل يوماً التصدي للأخطار التي كانت تتهدد إسبانيا الإسلامية من المغرب. بل في الواقع إنه ما كان يكتفي بمواجهة هذه الأخطار بوسائل دفاعية، وإنما ما تردد في مرات كثيرة في اللجؤ إلى مبادرات هجومية اقتضتها طبيعة الصراع مع الفاطميين والذي اتخذ بالنسبة له طابع صراع الموت والحياة.

ومما كان يزيد في مخاوف الأمويين من الفاطميين كون هؤلاء ما ترددوا لحظة في محاولة الاستفادة من بعض الحركات الثورية والانفصالية التي كانت تهدد وحدة الأندلس. لقد آلم الناصر كثيراً وأخافه رؤية هؤلاء يقدمون على التعامل مع المتمرد ابن حفصون مع ان ثورته ما كانت عصياناً عادياً وإنما كانت تستهدف فيما تستهدف الإسلام في إسبانيا كدولة وكعقيدة.

كان أساس سياسة عبد الرحمن الناصر تجاه الفاطميين، بعد أن وصلوا في موجة توسعهم الأولى حتى بلدان المغرب الأوسط وتجاوزوا مدينة تاهرت، القبول أو التسليم بوجودهم في المغربين الأدنى والأوسط كأمر واقع لا يمكن إزالته أو تجاوزه. إنما بالمقابل يجب عدم السماح لهم بأي شكل من الأشكال بتجاوز نهر ملوية الفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى بحيث يبقى هذا الأخير منطقة نفوذ أموية أو على الأقل منطقة حياد بين دولة الإسلام في إسبانيا وبين المغرب الشيعي الفاطمي. كان لا يريد بحال من الأحوال أن يمتد النفوذ الفاطمي إلى المغرب الأقصى إذ لو حصل ذلك لما عاد يفصله عن الأندلسيين سوى معبر جبل طارق البحري الضيق. إنما هذه السياسة المناقضة بصورة أساسية لتطلعات الفاطميين السياسية والتبشيرية جعلت من المغرب الأقصى ولمدة تزيد عن نصف القرن ساحة صراع سياسي وعسكري رهيب بين الفريقين.

وكخطوة أولى في طريق تحقيق هذه السياسة رأيناه على كثرة مشاغله

وهمومه يقدم في سنة ٩١٣ م (٣٠١ هـ)[1] على زيارة مرفأ الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب الأندلسي، المواجه للشوطىء المغربية ويقيم فيه أياماً يضبط أمور أهله. وكان في بحر الجزيرة وأمام سواحلها عدة من المراكب البحرية تعود لعمر بن حفصون وتؤمن مواصلاته وتجارته مع بلدان شمال أفريقيا فصادرها وأحرقها ليقضي على أية إمكانية اتصال بين الفاطميين والثائر الأندلسي. ولحماية شواطىء جنوب وجنوب شرق الأندلس، استدعى مراكب عديدة من مدن الطاعة مثل مالقة وأشبيلية وزودها بالسلاح والرجال وأمرها بالتجول على طول الساحل الممتد من الجزيرة الخضراء حتى مرسية (تدمير)[2] في شرق الأندلس. كما أمر بتقوية الأسطول الأندلسي وجهز المال والرجال لبناء قطع بحرية حربية جديدة تلتحق به وتؤمن المزيد من الحماية لشواطىء إسبانيا الإسلامية. لقد أراد وأمر بأن يكون لدولته أسطول كبير وفعال يتناسب مع أمانيه وطموحاته الكبيرة.

ومما دفع عبد الرحمن الناصر لاستعجال تنظيم أمور دولته البحرية معرفته بان أعداءه الفاطميين قد ورثوا عن دولة الأغالبة أسطولاً بحرياً هاماً عملوا هم على تطويره وزيادة عدد قطعه بحيث بات في القرن العاشر للميلاد أقوى قوة بحرية في الشطر الغربي من البحر الأبيض المتوسط، يعتمد على عدد من المواقع البحرية الهامة تقوم في بعض الجزر الإسلامية كصقلية ومالطة. وما كان عبد الرحمن يستطيع أن يرى في هذا الأسطول إلا قوة معادية له ولدولته تتهددها في سواحلها الشرقية وأيضاً في مواصلاتها مع بلدان العالم الإسلامي في المشرق وأيضاً مع المرافىء البيزنطية.

وبالنسبة لأهل المغرب الأقصى، الذين تتوزع ولاءهم مجموعة من مراكز القوى السياسية، بعضها للأدارسة وأخرى للبربر، فقد رأى ضرورة المحافظة

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٨٧.
(٢) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٨٨.

على تحالفات قديمة كانت تربط بعض سادتها ومنذ زمن طويل، بالأمـويين في الأندلس. بل أكثر من ذلك رأى ضرورة استحداث تحالفات أخرى كلما أمكن ذلك. إنما مما عقد مهمته في البداية كون الأمراء الأدارسـة، رغـم كونهـم من السنة، مال أكثرهم بتأثير العصبيتين العائلية والقبلية إلى تأييد الفـاطميين[1] أبناء عمومتهم.

ولم يكتف الأمير عبد الرحمن الثالث بالسعي لإقامة تحالفـات مع سكان المغرب الأقصى وإنما سعى أيضاً لإحياء صلات قديمة لعائلتـه الأمـوية ببعض قبائل المغرب الأوسط. اتجه نحو قبائل مغراوة، من تجمع قبائل بربر زناتة الكبير، والتي كانت بزعامة محمد بن خزر الرجل القوي وذلك بصورة خاصـة لموازنـة ومواجهة تحالف الفاطميين مع قبائل كتامة وقبائل مكناسة القوية. ولم يجد الأمير الأموي كبير صعوبة في إحياء تحالف قديم وتوثيقه مع محمد بن خزر، الذي لم يكن أصلاً يميل للفاطميين الذين كانت تبعده عنهم علاقة سيئـة بحلفائهـم من قبائل مكناسة وبصورة خاصة بكبير زعمائها ابن حبوس.

في هذا الوقت ما كان الفـاطميون بغـافلين عمـا أعـد ويعـد لهـم الأمير الأندلسي. حين شعروا بان سلطان خليفتهم عبيد الله المهدي قد توطد بما فيه الكفاية في المغربين الأدنى والأوسط وبعد أن يئسوا من إمكانية التوسع شرقاً باتجاه مصر، أمروا أحد أنصارهم ابن حبوس من زعماء قبائل مكناسة بمهاجمة سعيد بن صالح أمير منطقة نكور على الساحل المغربي وحليف الأمويين القـديم. وفـي صيف سنة ٩١٧ م (٣٠٤ هـ) تمكن ابن حبوس من احتلال الإمارة الصغيرة وقتل ابن صالح وتعيين أحد أبناء قبيلة كتامة الموالية للفاطميين حاكمـاً عليهـا. هذا العدوان أثار غضب عبد الرحمن الناصر، وأيضاً مخاوفه بدرجة لا توصف، أولاً لما طالما أظهره بنو صالح من ولاء للأمويين ثم لكون أراضي هذه الإمارة تمتد بين

---

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٢٦٢.

مرفأي مليلة وسبتة المغربيين الهامين وتطلان عن قرب على شواطىء ومرافىء الأندلس الجنوبية. لذا استضاف الأمير الأندلسي أبناء سعيد بن صالح المقتول، وبالغ في إكرامهم ومدهم بالعون والمساعدة القيمة، مما مكن أحدهم صالح بن سعيد من استعادة إمارة أبيه وهذا اعتبره الأمويون نصراً لهم وثأراً من أعدائهم الفاطميين. إنما هذه الهزيمة ما أوقفت مساعي الفاطميين للتوسع في المغرب الأقصى. فأقدموا سنة ٩٢٢ م (٣٠٨) هـ على إرسال ابن حبوس لاحتلال مدينة فاس وإرسال من فيها وحولها من الأمراء الأدارسة ليعيشوا مع إخوتهم وأبناء عمومتهم الآخرين في جبال الريف، وأوكل إدارة ممتلكاتهم إلى أحد زعماء قبائل مكناسة ويعرف باسم موسى بن أبي العافية.

مع نجاح الفاطميين في إزاحة الأدارسة، مع انهم كانوا متعاطفين معهم بعض الشيء، وإقامة حاكم في فاس أكثر ارتباطاً بالمهدية، وأشد ولاءً لها تجاوز هؤلاء نهر الملوية بشكل مباشر وهو الأمر الذي اعتبره عبد الرحمن الناصر غير مقبول وغير مسموح به لسلامة دولته في الأندلس. وهذا اقتضى منه القيام بمبادرات أكبر مما فعل حتى الآن في المغرب الأقصى. وبالفعل كان هذا ضرورياً ليجعل نفوذه في هذه المناطق أقوى وأفعل وليجعل حلفاءه هناك أشد صلة به وأكثر ثقة بسياسته وبحمايته لهم. أقدم عبد الرحمن الناصر في سنة ٩٢٧ م (٣١٤ هـ)[1] على احتلال مرفأ مليلة الهام وأقام عليه من قبله حاكماً بربرياً من قبائل مكناسة، كان معروفاً بصلته بالأمويين وولائه لأمرائهم. وجعل قطعاً من أسطوله البحري ترابط أمام شواطئه رافعة علم الأمويين لأول مرة على شواطىء المغرب. ثم عاد في سنة ٩٣٣ م (٣١٩ هـ) فأرسل أسطولاً كبيراً رابط أمام سواحل مدينة سبتة المغربية وأقدم جنود أمويون على دخول المدينة سلماً برضا أهلها وبطلب منهم، ذلك ان أهل المدينة، كرهاً منهم لسياسة بقايا الأدارسة المستقرين في جبال الريف ولعجز هؤلاء عن ضبط أمور الناس بسبب كثرة

(١) Historia de Espana, Levi.Provincal, T IV, p. 311.

انقساماتهم، «أرسلوا وفدهم إلى الأندلس لائذين منهم بالناصر لدين الله، ماقين إليه بأنفسهم، مستدعين منه إنفاذ عامله وقوته إلى بلدهم، عن إجماع منهم»[1]. قبل منهم الناصر، ولبى دعوتهم، وعين عليهم أمية بن إسحق القرشي صاحب الجزيرة الخضراء يحكم المدينتين معاً. لقد كان دخول مدينة سبتة وإقامة حكم أموي فيها إنجازاً عظيماً لعبد الرحمن الناصر، ذلك إن المدينة المذكورة يحكمها للمرة الأولى، ومنذ ارتفع في سمائها علم دولة الإسلام، أندلسي. يضاف إلى ذلك إن وجود الأمويين في سبتة يؤمن لهم سيطرة مباشرة على ضفتي جبل طارق، ويجعل هذا الممر المائي الهام تحت السيطرة الكاملة للأندلسيين. ثم فوق هذا وذاك فإن وجود عمال الناصر وموظفيه وجنوده في سبتة وجوارها يجعله أقدر على الاتصال بالقبائل البربرية، من مؤيدة له ومن ساع للحصول على تأييدها، ومن معارضة، كما يسمح له بمراقبة كل ما يجري في تلك الأرض بما فيها تحركات الفاطميين الكثيرة والمريبة. ومقدراً لعظيم ما أنجز، بادر إلى الكتابة بذلك لحلفائه من البربر مثل، محمد بن خزر زعيم زناتة، ومنصور بن سنان، وزاكلة بن سنان زعيم القبائل الضاربة في منطقة طنجة، وأيضاً إلى موسى بن أبي العافية الذي كان يوالي أعداءه ليلقي الخوف في قلبه. وليكمل سيطرته على الشواطىء المغربية المطلة على منطقة جبل طارق أقدم على احتلال مدينة طنجة وأحسن تحصينها وأقام فيها قوة عسكرية أموية.

وبذلك يكون الناصر قد أقام لدولته قواعد هامة في مناطق عدة من المغرب الأقصى، وأقام صلات وثيقة مع عدة من القبائل البربرية الهامة. وليجعل هذه البلاد تحت سيطرته الفعلية وشبه الكاملة، بقي عليه أن يخضع أمراء الأدارسة المتجمعين قريباً من مناطق نفوذه في جبال الريف، لما لذلك من قيمة معنوية، نظراً لما لهؤلاء من مكانة بين المسلمين. وكان عليه أيضاً أن يحصل على ولاء أبي العافية سيد فاس قلب المغرب. والواقع إن أولى ثمار انتصاره في سبتة وطنجة،

---

(١) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٢٨٩.

تحول موسى بن أبي العافية عن ولائه للفاطميين ولقبائل مكناسة في المغرب الأوسط المتحالفة معهم وتقديم فروض الطاعة والولاء لخليفة قرطبة ولو ظاهرياً ولفترة غير طويلة.

بعد ذلك أكثر من غاراته على ما بقي بأيدي الأدارسة من أراض وتمكن في أكثر من مناسبة من إجبارهم على مصالحته وتقديم فروض الولاء له والدعاء باسمه على منابر بعض مساجدهم.

بوصوله إلى إنجاز ذلك يكون الناصر قد حقق جل مبتغاه في بلاد المغرب الأقصى وقطف ثمار جهود مالية وسياسية وعسكرية شغلته عشرات السنين. إنما لو حاولنا في الواقع تقويم سياسته في شمال أفريقيا، وما أنجز فيها خلال نصف قرن، نجد انها كانت محدودة المردود. فإذا كان الأمير عبد الرحمن الناصر قد نجح في منع النفوذ الفاطمي والمعتقدات الشيعية من الوصول إلى الأندلس، فإنه ما استطاع أن يترك عند وفاته لابنه وخليفته الحكم المستنصر، من كل تلك المواقع السياسية والعسكرية التي أقامها في المغرب الأقصى، غير القاعدتين العسكريتين في طنجة وسبتة. ثم إن كل جهوده لبناء أسطول أندلسي كبير، على نجاحها في حماية الشواطىء الأندلسية، ما استطاعت أن تقضي أو تحد من تسلط الأسطول الفاطمي الذي صار منذ منتصف القرن العاشر للميلاد سيد القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

سفارات في بلاط الناصر:

بدت العاصمة الأندلسية في أواخر سنوات حكم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وكأنها قاعدة أساسية للسياسة الدولية في غربي البحر الأبيض المتوسط. تجلت هذه المكانة الممتازة في تلك الوفود التي لا تنقطع من الرسل والديبلوماسيين يفدون على بلاط قرطبة لمقابلة سيدها. وفود لا تحصى من الإمارات والدويلات البربرية في شمال أفريقيا، شيوخ قبائل وزعماء يفدون من المغرب بمناسبة، وبغير مناسبة، يقدمون للناصر الطاعة والولاء ويعودون مثقلين

برضاه ومحبته وأيضاً بهداياه وعطاياه التي لا حصر لها. ومن الممالك المسيحية في شمال إسبانيا كانت الوفود تروح وتغدو، بعضها كان يرأسها الملوك أنفسهم. ومن الدول الأوروبية، كبيرها وصغيرها، كانت الوفود والبعثات تتوالى على قرطبة، من بينها لدول عظمى مثل الأمبراطورية البيزنطية والأمبراطورية الرومانية المقدسة.

من المعروف ان اتصالات كانت قامت، في القرن التاسع ميلادي (الثالث هجري) بين الأمير عبد الرحمن الأوسط وأمبراطور بيزنطية، وان سفارات تبودلت بينهما تتعلق بشكل أو آخر بنشاط جماعات الأندلسيين الذين أقاموا لأنفسهم إمارة صغيرة في جزيرة كريت التي كانت أساساً تخص الدولة البيزنطية. ثم توقفت هذه الاتصالات ربما لكونها ظلت في إطار المجاملات الديبلوماسية وما أثمرت أية فائدة للفريقين. وربما أيضاً، ان ما تلى عهد عبد الرحمن الأوسط من متاعب داخلية حال بين الأندلسيين وبين متابعة الاتصال بالعالم الخارجي.

استؤنفت هذه الاتصالات عبر سفارات تحركت في منتصف القرن العاشر للميلاد في أواخر خلافة الناصر. إلا انه ليس بوسعنا الإشارة بالتأكيد إلى الجهة التي صدرت عنها المبادرة في هذا المجال وذلك بسبب اختلاف المصادر الإسلامية والمسيحية حول هذا الموضوع. فالمصادر البيزنطية تشير إلى وجود بعثة من قبل الخليفة الناصر في القسطنطينية في تشرين أول من سنة ٩٤٩ م[١]. إنما بالمقابل لا نجد أية إشارة إلى وجود مثل هذه السفارة في كتابات المؤرخين الأندلسيين أو المشارقة.

وكما يلف الغموض، مسألة بداية الاتصالات وتحديد الطرف المبادر، فإن اضطراباً آخر يرافق عدد السفارات المتبادلة بين الدولتين ومواعيد قيامها. فالمؤرخون المسلمون يشيرون إلى أكثر من سفارة وفدت على قرطبة من

(١) Historia de Espana, T Iv, Levi Provencal, p. 350.

القسطنطينية، إنما ليس هناك تحديد دقيق لعدد هذه السفارات ولمواعيد حضورها بحيث ان بعضها ورد ذكره في تواريخ مختلفة عند هؤلاء مما أدى إلى إشكالات كثيرة، وربما إلى زيادة غير حقيقية في عدد البعثات.

يشير ابن عذاري، بالمقابل، إلى وصول بعثة إلى قرطبة في سنة ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ) تضم «رسل ملك الروم الأكبر قسطنطين ابن ليون، صاحب القسطنطينية العظمى، بكتب من ملكهم إلى الناصر»[١]. والواقع إن المؤرخ ابن عذاري ينفرد وحده بالإشارة إلى مثل هذه السفارة كما انه لا يقدم أي تفسير أو تبرير لأسباب حدوثها ولما تم فيها أو نتج عنها.

وتبقى السفارة الأهم والتي استحوذت على عناية واهتمام المؤرخين تلك التي حلت في قرطبة في سنة ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ). في شهر آب من هذا العام حلت في مرفأ بجاية، بشرق الأندلس، سفارة تضم عدداً من المبعوثين البيزنطيين، قادمة من قبل الأمبراطور قسطنطين السابع ومعها هدايا نفيسة لخليفة قرطبة. استقبلت هذه السفارة في المرفأ المذكور بمراسم ملوكية باهرة إذ «تأهب الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه وأحسن قبول وأكرمه»[٢]. كما ندب مبعوثين خاصين من العاصمة أتوا بجاية للقائهم ولخدمة أسباب الطريق. وكانت البعثة المرافقة برئاسة يحي بن محمد بن الليث[٣]. «فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج إلى لقائهم القواد في العدد والعدد... وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسراً وتماماً... فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه لأن الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة»[٤]. وفي قرطبة استقبلهم الناصر بمراسم غاية في العظمة والإسراف، ربما

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣١٩.
(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٦.
(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٦.
(٤) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٧.

قصد منها إظهار غنى الدولة الأندلسية وكثرة إمكاناتها وعظمة خليفتها. وقد نقل لنا المقري في كتابه «نفح الطيب» وصفاً مسهباً لذلك الاستقبال لا يخلو من المبالغة التي تقرب من أسلوب الرواية الأسطورية[1].

رجعت البعثة البيزنطية ومعها رسول من قبل خليفة قرطبة، وهو المستعرب هشام ابن هذيل، يحمل هدايا ثمينة للأمبراطور تعبيراً عن المودة والصداقة ودليلاً على الرغبة في التفاهم. وكان من أهم ما هادى به امبراطور بيزنطية الخليفة الأندلسي نسخة أصلية من «كتاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب». وكان الكتاب مكتوباً باللغة الإغريقية، وكذلك كتاب هروسيوس[2] Paulos Orosius «وهو تاريخ للروم عجيب، فيه أخبار الدهور، وقصص الملوك الأول، وفوائد عظيمة» كتب باللغة اللاتينية. وكان وصول كتاب ديسقوريدس، بالنص الإغريقي حدثاً هاماً. ذلك ان اهتمام الأندلسيين بترجمته بكامل نصه إلى العربية، ووصول راهب من بيزنطية يدعى نيقولا تعاون مع مجموعة من الأطباء الباحثين، في مقدمته طبيب الخليفة حسداي بن شبروط، دفع الدراسات الطبية وعلوم النبات دفعة كبيرة إلى الأمام وساعد على استخراج عقاقير كثيرة من كتاب ديسقوريدس لعدم مقدرتهم قبل ذلك على ترجمة أسمائها اليونانية إلى العربية. ذلك إن النسخة القديمة المعروفة والمتداولة في الأندلس، كانت قد ترجمت في بغداد بإشراف حنين بن إسحق وتعرف باسم ترجمة (أسطفن)، كان فيها كثير من أسماء النباتات أبقيت بلفظها الإغريقي «اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي»[3] مما حد من قدرة الأندلسيين على الإفادة مما ورد فيها من معلومات.

إنما تبقى النقطة الأهم في هذه السفارة وهي الهدف منها. فالمؤرخون

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٧.

(٢) مؤرخ إسباني عاش بين القرنين والرابع والخامس للميلاد.

(٣) عيون الأنباء، ابن أبي أصيبعة، جزء ٣، صفحة ٧٥.

المسلمون ما تركوا لنا في كتاباتهم أية إشارة واضحة يمكن أن ترشدنا إلى الغرض السياسي من هذه البعثة. إذ لا يعقل أن يكون الهدف منها فقط تبادل الهدايا بين عظيمي البلدين وحتى استئناف علاقة ديبلوماسية كانت قائمة قبل قرن من الزمان تقريباً. وإذا نحن الآن أخذنا بعين الاعتبار الوضع الدولي في ذلك الوقت والصراعات على الأرض والنفوذ في البحر المتوسط وفي الشرق، وأيضاً في شمال أفريقيا، أدركنا إن هذه السفارات ما كانت خارجة عن تأثيرات الصراع بين بيزنطية والخلافة العباسية في الشرق، وأيضاً بين بيزنطية والدولة الفاطمية في المتوسط الغربي، والأمويون في الأندلس ما كانوا على وفاق مع القوتين الإسلاميتين المذكورتين. وربما كان في هذا بعض ما كان يشد البيزنطيين، إلى الأندلسيين، إنما دون أن يتمخض ذلك عن تحالف حقيقي باعتبار ان الأندلسيين ما كان بإمكانهم، رغم كل الظروف تجاوز مبدأ الالتزام برباط الولاء للإسلام، والتحالف مع أمة عريقة في نصرانيتها ضد بلدين مسلمين على رأس كل واحد منهما أمير للمؤمنين.

ويشير ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء»[1]، إلى سفارة وتبادل هدايا من بينها كتاب ديسقوريدس[2] الشهير بين بيزنطية وقرطبة حدثت في سنة ٩٤٨ م (٣٣٧ هـ). لا نستطيع أن نؤكد هل حدثت هذه السفارة فعلاً. وفي هذه الحالة لا بد أن تكون تمت في موعد آخر باعتبار انه لا يعقل أن تصل في وقت متقارب جداً سفارتين من بلد واحد. ويحتمل أن يكون ابن أبي أصيبعة يتحدث عن نفس السفارة الكبيرة التي تحدثنا عنها خاصة وإنها هي التي حملت إلى الخليفة الناصر كتاب ديسقوريدس.

ولا بد من الإشارة إلى ان ابن خلدون يحدثنا عن سفارة أخرى بيزنطية

(١) عيون الأنباء، ابن أبي أصيبعة، صفحة ٧٥، جزء ٣.

(٢) ديسقوريدس، طبيب وعالم وكيميائي يوناني عاش في القرن الأول للميلاد.

حلت في قرطبة في سنة ٣٣٨ هـ ومعها إسباني مستعرب يدعى هشام بن هذيل. قابل رسل بيزنطية الخليفة الناصر وقدموا له هدايا مرسلة من سيدهم وعادوا ومعهم هدايا نفيسة للامبراطور[١]، ويبدو ان هناك التباساً حول موعد هذه السفارة. فهي يجب أن تكون قد حدثت، إذا صح وجود هكذا سفارة، بعد التاريخ المذكور باعتبار ان من المجمع عليه عند المؤرخين الأندلسيين وغيرهم ان هشام بن هذيل قد غادر قرطبة إلى القسطنطينية في العام المذكور وان رحلته هذه استغرقت عامين. وعلى هذا لا يعقل ولا يمكن الافتراض مع ابن خلدون انه قد حل مع سفارة بيزنطية في قرطبة سنة ٣٣٨ هـ.

وما كانت السفارات والاتصالات الديبوماسية، من قرطبة وإليها مع العالم المسيحي مقتصرة على القسطنطينية فقط. بل إن سفارات كثيرة مع دول هذا العالم تمت، وبعضها في أوقات مبكرة. على سبيل المثال يحدثنا ابن حيان عن سفارة لصاحب سردينيا، كانت ذات أغراض سياسية وتجارية أيضاً، حلت في العاصمة الأندلسية في سنة ٩٤٢ م (٣٣٠ هـ). يقول في المقتبس «قدم إلى باب الناصر لدين الله رسول لصاحب سردانية، يخطب الصلح والألفة، وقدم معه تجار. . . بضروب من تجاراتهم النفيسة من سبائك الفضة الخالصة، والديباج وغير ذلك، مما أحرزت منه الفائدة، وحسنت به المنفعة»[٢].

وتتوافق المصادر الإسلامية والمسيحية الغربية على ان سفارة هامة وفدت سنة ٩٥٦ م (٣٤٤ هـ) على مدينة قرطبة من قبل الأمبراطور أوتون الأول الكبير، أمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة وزعيم الشعوب الكاثوليكية في غرب أوروبا. وربما كانت الاتصالات بينه وبين الناصر، كما تشير المراجع النصرانية، قد حصلت قبل ذلك بعدة سنوات حين وجه الزعيم الجرماني رسالة عنيفة لخليفة الأندلس يحتج فيها على غارات وغزوات كان يقوم بها قراصنة ومغامرون

(١) Historia de Espana, T IV, p. 350.

(٢) المقتبس، ابن حيان، جزء ٥، صفحة ٤٨٥.

مسلمون، يتخذون لهم قواعد في مقاطعة البروفانس الفرنسية، على طول الشواطىء الجنوبية الفرنسية وفي أراضي وادي نهر الرون[1]. وقد أجاب الناصر برسالة لا تقل عما تسلم حدة وعنفاً. ويبدو أن المكاتبات بين الرجلين تناولت أسس الديانتين المسيحية والإسلامية والمفاضلة بينهما مما كان شائعاً بدرجة كبيرة في عالم العصور الوسطى. وكانت سفارة سنة ٩٥٦ م ممثلة براهب على درجة كبيرة من العلم والثقافة، وأيضاً من المكانة في المجتمع المسيحي، يدعى حنا الجورزيني. كان الراهب المذكور من المهتمين جداً بالنقاش العقائدي وكان يرغب، إلى جانب مهمته السياسية، بإقامة حوار عقائدي مع الخليفة أو من يمثله. إنما في كل الحالات وكما تؤكد المراجع المسيحية، كان هدف السفارة الحقيقي الشكوى مجدداً من توغل المغامرين المسلمين المتزايد في وادي نهر الرون ووصولهم في غاراتهم حتى قلب الجبال السويسرية. وسيد الأمبراطورية الرومانية المقدسة كان يحمل خليفة قرطبة مسؤولية هذه الممارسات باعتباره زعيم الإسلام الأوروبي. تأخر الناصر في استقبال السفير الجورزيني، إذ أصر، بعد إطلاعه على رغباته وعلى ما يحمل من رسائل، على استبقاء الجانب الديني من مهمته بعيداً عن المباحثات وحصر مهمته بقضية العلاقات بين البلدين. وقد اقتضى حل هذا الإشكال، إرسال الأسقف المستعرب ربيع بن زيد[2] إلى عاصمة الامبراطورية الرومانية حيث أقنع الأمبراطور باستبعاد القضايا الدينية عن المباحثات مع الخليفة الأندلسي. عند عودة الأسقف بن زيد، بعد عامين، وافق الناصر على استقبال المبعوث الجرماني وتسلم رسالة سيده وهداياه. والواقع إننا لا ندري ما تمخضت عنه هذه السفارة من نتائج، إنما على الأرجح ما أثمرت كثيراً باعتبار ان تلك المجموعات الإسلامية التي كانت تعمل في القرن العاشر للميلاد على شواطىء فرنسا الجنوبية وفي وادي الرون ما كانت تخضع لسلطة أو ولاية أية

---

(١) Historia de Espana, T IV, p. 352.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٥.

حكومة شرعية . وهي إذا كانت تحوذ على الرعاية المعنوية للخليفة الناصر فما كان له بالفعل أي سلطان على تحركاتها وممارستها.

ويشير المقري بعد ذلك، اعتماداً على ابن خلدون، إلى سفارات أخرى كثيرة لا يحددها بصورة دقيقة ولا نجد تأكيداً لها في المصادر الأندلسية ولا حتى في المصادر المسيحية. فهو يحدثنا عن سفارة جاءت من قبل «ملك الأفرنجة وراء البرت ـ وهو يومئذ أوته[1] ـ». وإذا صحت أخبار هذه السفارة فيجب أن تكون قد مثلت سيد بلاد البروفانس هوج دارل Hugues d'Arles. وهناك أيضاً حديث عن «رسول آخر من ملك الأفرنجة بقاصية المشرق ـ وهو يومئذ كلدة»[2]. ويفترض بهذه البعثة، إذا وجدت، انها كانت تمثل غيدو.Guido سيد توسكانة. وأيضاً يشير المصدر نفسه إلى بعثة وردت إلى قرطبة، إذا صحت الرواية، تمثل «صاحب رومة يخطب المودة»[3] وكان آنذاك البابا. حنا الثاني عشر فاستقبلت استقبالاً لائقاً وأجيب طلبها.

وفي سنوات حكم عبد الرحمن الناصر الأخيرة، وبصورة خاصة منذ بداية النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد، كان زعماء الممالك والدويلات الإسبانية المسيحية قد فقدوا التفوق العسكري الذي حصلوا عليه باتحادهم وتعاونهم في معركة الخندق الشهيرة. ذلك إن انقسامات عديدة جاءت بعد ذلك تفرق صفوفهم وتمزق وحدتهم، مصدرها في أكثر الحالات الخلاف حول وراثة العرش. وعلى هذا فإنه في مطلع النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد بدا الناصر على انه سيد شبه الجزيرة الإيبرية بشقيها المسلم والمسيحي، دون منازع وصار حكماً وفصلاً في كل شؤونها السياسية والعسكرية. وأكثر ما ظهر هذا التفوق

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٤.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٤.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٦.

بتوالي السفارات الإسبانية على بلاط قرطبة سعياً وراء عون أو مساعدة من الجالس على سدة الخلافة الأندلسية. في سنة ٩٥٥ م (٣٤٤ هـ) أوفدت مملكة ليون، التي طالما تزعمت المعارضة العسكرية لدولة الإسلام في الأندلس، بعثة من قبل سيدها أردونيو الثالث يطلب السلم[1] ويرجو إقامة علاقة ود وصداقة مع الناصر. استقبل سيد قرطبة البعثة وأكرمها وأعادها مع سفير من قبله هو محمد بن حسين ومعه حسداي بن شبروط حملا إلى ملك جليقية شروطه للصلح[2]. وانتهت البعثتان باتفاق سلام وصداقة. وما لبث أن انضم إلى هذا الصلح سيد قشتالة بناء لطلب حليفه وصديقه ملك ليون.

وفي سنة ٩٥٨ م حلت في قرطبة طوطة ملكة مملكة نبرة ومعها ولي عهدها غرسية ورهط من وجهاء البشكنس وأحبارهم فاستقبلوا أعظم استقبال واستضافهم الناصر في قصور مدينة الزهراء. وقد أقر الناصر طوطة وولي عهدها على عرش نبرة. وأيضاً وعدها بإرسال صائفة تعيد حفيدها سانشو إلى عرشه في مملكة ليون بعد أن أبعد عنه واستولى عليه دون وجه حق أردونيو الرابع. وفعلاً أعاد ملك ليون إلى عرشه فبعث إلى الناصر يشكره على صنيعه وحكم تحت اسم سانشو الأول.

قرطبة في عصر الناصر:

امتداد أيام حكم عبد الرحمن الناصر واستطالتها على حدى خمسين عاماً، وما رافق ذلك من قضاء على الفتن الداخلية، وإعادة وحدة الأندلس في سنوات حكمه الأولى، ثم ما حققه من انتصارات عسكرية خارجية أوقفت حركة الاسترداد المسيحي، أعطى إسبانيا الإسلامية فترة طويلة من الأمن والاستقرار السياسي والعسكري أثمرت نهضة اقتصادية وعمرانية ما عرفت لها مثيلاً قبل ذلك. ازدهرت

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٥.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٣٠.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٦٦.

في هذه الفترة التجارة والصناعة والزراعة كما لم يحصل في أي وقت منذ قامت دولة الإسلام في الأندلس. وكان لذلك نتائج إيجابية على خزانة الدولة في قرطبة فعمرت بالأموال بعد أن كانت تشكو فراغاً مزمناً يعود إلى أيام الفتنة والتمزق. ويذكر المؤرخون إن واردات الدولة كانت في سنوات حكم الناصر الأخيرة تصل إلى خمسة ملايين وأربعماية وثمانين ألف دينار من ضرائب الكور والمناطق، يضاف إليها سبعماية وخمسة وستين ألف دينار من واردات الأسواق[1]. وأما «أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان»[2] لكثرة ما غزا الناصر وأغزى، ولوفرة ما عادت عليه انتصاراته من مكاسب. ويبدو ان واردات الخزينة كانت تفيض كثيراً عن مصاريف الدولة فجعلها الأمير أقساماً ثلاثة: ثلث للبناء وللمصاريف الحكومية، وثلث للجيش، وثلث يدخر لتحقيق احتياطي مالي لمواجهة النوائب والنفقات الاستثنائية. ويروي ابن خلدون انه كان قد تجمع في خزانة الدولة من مال الاحتياط عند وفاة الخليفة الناصر ما لا حصر له من المال مما جعل ابن خلدون يذهب إلى حد تبني رقم لا نستطيع إلا أن نصفه بانه مبالغ فيه بشكل خيالي وأسطوري إذ يقول: «خلف الناصر في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات»[3].

وقد أفادت العاصمة بصورة خاصة من الرخاء العام الحاصل في البلاد، وأيضاً مما تتدفق على خزينة الدولة من واردات الضرائب. نمت قرطبة في هذه الفترة بصورة مدهشة وسريعة وبلغ تعداد سكانها حوالي النصف مليون، وهو رقم استثنائي بالنسبة لعالم العصور الوسطى. وكثرت الضواحي المنتشرة حولها فبلغ تعدادها ثمانية وعشرين ربضاً[4] تعمر بالناس والأسواق، توزعت في أحواز

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٤٥ ـ نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٧٩.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٧٩.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٧٩.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٤٦.

العاصمة التي امتدت على مدى ستين ميلاً من على جوانب المدينة فاتصلت بحدود أشبيلية وجيان[1]. وأيضاً عمرت العاصمة بالمساكن التي بلغ تعدادها مئة وثلاثة عشر ألف دار للعامة وأربعماية دار وسط مدينة الزهراء لأهل الحكم وصار عدد مساجدها ثلاثة آلاف وحماماتها ثلاثماية.

وما كان الناصر إلا مشجعاً لهذا النمو ومبادراً في أكثر من مناسبة في مباشرة المشاريع العمرانية في كل مدن الأندلس، إنما بصورة خاصة في العاصمة. فالأمير عبد الرحمن الثالث منذ أعلن نفسه خليفة وأميراً للمؤمنين أدرك انه شاء أم أبى عليه أن يدخل في منافسة حادة، ليس فقط في المجالات السياسية وأحياناً العسكرية وإنما أيضاً في ميادين العمران والحضارة، مع خلافة شرقية عريقة في حضارتها غنية بما ورثته من مدنيات الشرق القديمة وأخرى فتية ناشئة قامت على مقربة من سواحل بلاده، قوية ناشطة مسيطرة على البحر المتوسط الغربي بتجارته العظيمة. وعلى هذا رأى ان عليه أن يعطي عاصمته الخلافية قرطبة، من المنشآت العمرانية والدفع الحضاري ما يجعلها قادرة إن لم يكن على منافسة بغداد والمهدية فعلى الأقل على مجاراتهما.

لقد وجد ان دار الحكم والقصر الأموي في قرطبة هما من منجزات أسلافه الأمراء الأمويين، وهما إذا كانا قد استضافا ولفترة طويلة سادة قرطبة وحكوماتها فإن ذلك كان معقولاً ومقبولاً حين كانت دولة الأندلس إمارة عادية. أما وقد صارت الآن خلافة يتربع على سدتها. عبد الرحمن الناصر، الذي حقق من الإنجازات أكثر مما فعل أي واحد من أسلافه فمن حق البلاد عليه أن يعطيها داراً للخلافة ومنزلاً للخليفة أفضل مما كان لها حتى ذلك الوقت. وعلى هذا عزم على أن يقيم في قرطبة مدينة خلافية جديدة تمثل بالفعل كل ما كان يعتقد أنه قد تحقق على يديه من أمجاد وانتصارات ومنجزات اقتصادية. والواقع إننا لا نعلم ما إذا

---

(١) الروض المعطار، الحميرى، صفحة ١٥٨.

كان هذا وحده ما كان يدفع الناصر لبذل ما بذل من مال وجهد في بناء مدينته الجديدة. والأرجح إننا لا نستطيع في هذا المقام أن نستبعد الاعتبارات الشخصية الصرفة. ذلك إن ملوك وأباطرة العصور الوسطى، كما أسلافهم في العصور القديمة، درجوا على أن يتركوا بعدهم منشآت عمرانية تخلد ذكرهم. أعتقد ان هذه النزعة ما كانت بعيدة عن دوافع الناصر لبناء مدينته الجديدة. ثم فوق هذا وذاك، فالاعتبارات الأمنية، وضرورات السلامة الشخصية واستمرار النظام، ربما كل ذلك ساهم في دفع الناصر في هذا الطريق. فقرطبة كانت تعج برؤساء القبائل العربية وبسادة العرب وأغنيائهم وهو ما أحب هذه الطبقة ولا اطمأن إلى مواقفها لما طالما ألحقته انقساماتها وأنانياتها ومطامعها من أذى بالبلاد والدولة فأبعدها عن محيط حكمه ونفوذه. ولمزيد من البعد عن هذه الفئة أراد أن تكون له مدينته الخاصة. ولهذا الاعتبار بالذات اختار لها موقعاً عند منحدر جبل العروس على بعد حوالي ستة أميال من قرطبة.

ويرفق المؤرخون المسلمون بناء هذه المدينة بحكاية تقرب من الأسطورة. قالوا إن الناصر قد ورث عن إحدى محظياته ثروة طائلة ما عرف ما يفعل بها لكثرة ما كان يتدفق آنذاك على بيت المال من واردات الضرائب، ومن فوائض الغزو والحرب، فقبل اقتراحاً قدمته له محظية أخرى عزيزة على قلبه بأن يبني ضاحية لسكناها تسمى باسمها «الزهراء»[1].

في سنة ٩٣٦ م (٣٢٥ هـ)[2] بدأ العمل في المكان الذي اختاره جنوب غرب قرطبة، على إقامة مدينة جديدة بإشراف ولده وولي عهده الأمير الحكم، وبتصميم المهندس مسلمة بن عبد الله. أراد الناصر أن تكون مدينة «الزهراء» على صورة عهده، عظيمة السناء، باهرة، منيرة، فحشد لها العمال والفنانين والصناع المهرة من كل أنحاء إسبانيا الإسلامية، واستقدم بعضهم من العراق. ومن

(١) نفح الطيب، جزء ١، صفحة ٥٢٣.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٤٤.

القسطنطنية استقدم أعداداً كبيرة من الفنيين المهرة مما جعل التأثير البيزنطي حتى يومنا هذا بارزاً في بعض أجنحة القصر الأساسية. آلاف العمال والفعلة والحرفيين عملوا فيها دون انقطاع سنوات كثيرة. ولو ان العمل في بعض أقسام «الزهراء» قد أنجز في سنوات قليلة مما سمح للناصر بالإقامة فيها ابتداء من سنة ٩٤٠ م (٣٢٩) هـ إلا ان إنجاز سائر منشآت المدينة استمر طيلة أيام عبد الرحمن وفي بعض أيام حكم ولده الحكم المستنصر.

الرحالة والمؤرخون الذين زاروا القصر وشاهدوا محتوياته، بعد أن اكتمل بنيانه سواء في أيام المستنصر أو بعده بقليل، بالغوا في وصف منشآته وما فيها من بذخ وترف وما صرف فيها من أموال. وينقل لنا المقري في كتابه نفح الطيب عن المؤرخ الأندلسي ابن حيان وهو المعروف باتزانه، ودقة رواياته، وشدة تحريه للحقيقة، تفاصيل وافية عن بعض ما في «الزهراء». يقول ابن حيان: «وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية، والمجزع من رية، والوردي والأخضر من أفريقية من أسفاقس وقرطاجنة، والحوض المنقوش المذهب من الشام، وقيل من القسطنطينية، وفيه نقوش وتماثيل على صور الإنسان، وليس له قيمة. . . وبنى في قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه الصافي لونه المتلونة أجناسه، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك. . . وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة. . . وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي. . . وكان بناء الزهراء في غاية الاتقان والحسن»[1].

أقيمت مدينة الزهراء، كما يبدو من بقاياها اليوم، على امتداد ألف وخمسمائة متر طولاً وسبعمائة وخمسين متر عرضاً. ونقلت إليها المياه في قناة

---

(١) نفح الطيب، جزء ١، صفحة ٥٢٧.

امتدت على بعد ثمانين كليومتراً حفرت في عمق الجبل المطل على الزهـراء. كانت المدينة بشكل مدرج من ثلاث طبقات «وهي مدينـة فوق مدينـة، سطـح الثلث الأعلى على الحد الأوسط، وسطح الثلث الأوسط على الثلث الأسفل وكل ثلث منها له سور»[1]. وأمر الناصر ببناء مسجد في الزهراء جاء غاية في الاتقان والبهاء. ضم الجامع خمسة أبهاء «عجيبة الصنعة... وجميعه مفروش بالرخام الخمري»[2]. وله صومعة ارتفاعها أربعون ذراعاً ومنبر هو نهاية من الحسن.

ويذكر ابن حيان إنه لما تم بناء سائر مباني مدينة «الزهـراء» كانـت تضـم حوالي أربعة آلاف سارية منها ما جلب من مدينة روما، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية، ومنها ما نقل إليها من قرطاجة في أفريقية، وإن «مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب وكلها ملبسـة بالحـديد والنحاس المموه»[3].

ويؤكد المقري ان تكاليف بناء هذه المدينـة قد أتـت علـى جزء كبير من واردات الدولة على امتداد ربع القرن الأخير من حكم الخليفة الناصر إذ كانت تبلغ سنوياً حوالي ثلاثماية ألف دينار[4].

على عادة أسلافه درج الناصر على الاهتمام بمسجد قرطبة، الذي كان يعتبر آنذاك أول وأهم أماكن المسلمين المقدسة في بلدان المغرب الإسلامي. في سنة ٩٥١ م (٣٤٠ هـ) هدم منارته القديمة وأقام مكانها منارة أخرى أكثر ارتفاعاً، إذ ترتفع حوالي ثلاثة وسبعين ذراعاً، وعرض قاعدتها في كل تربيع منها ثمانية عشر ذراعاً، وفي «أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها رمانات ملصقـة في السفـود البارز في أعلاها من النحاس: اثنتان منها ذهب أبريز، والثالثة منها وسطى بينهما

---

(١) الروض المعطار، صفحة ٩٥.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٥٦٤.

(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٥٦٦.

(٤) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٥٦٨.

من فضة أكسير. . . وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة»[1].

كما جدد واجهة المسجد الجامع وزاد في مساحته ليتسع لذلك العدد الكبير من المصلين الذين كانوا يؤمونه بعد ذلك النمو العظيم الذي عرفته قرطبة وذلك التضخم المدهش في عدد سكانها والنازلين فيها. وإليه يرجع الفضل في إعادة بناء وتحصين مدينة سالم[2].Medina Celi بعد أن تخربت معظم أبنيتها في عصر الفتنة والتمزق. قصد من ذلك أن يجعلها موقعاً متقدماً بالنسبة للمسلمين فترد عنهم هجمات الإسبان المفاجئة، بما أنزل بها من ناس وما أقام في أبراجها من مقاتلة، وتحمي الحدود في منطقة الثغر الأوسط إذ جعلها قاعدة له.

---

(1) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٥٦٣.

(2) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٢٠.

الفصل الثالث

الحَكَمُ المُستَنصِرُ بِاللّهِ

في ثاني أيام شهر رمضان من سنة (٣٥٠ هـ) تشرين أول سنة ٩٦١ م توفي الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله في قصره بمدينة «الزهراء» تاركاً الخلافة لابنه وولي عهده الحكم المستنصر. في ذلك اليوم طوى الموت صفحة من أجمل وأبهى صفحات تاريخ إسبانيا الإسلامية وأيضاً من أحفلها بالأحداث الجسام والمنجزات الكبيرة، وربما أيضاً بالنكسات والأخطاء. وهذا طبيعي جداً بالنسبة لرجل حكم شعبه مدة نصف قرن تقريباً، وفي ظروف صعبة ومعقدة. لقد أعاد للأندلسيين وحدتهم، وقضى على مخلفات عصر الفتنة والتمزق، وسحق كل الثائرين والمتمردين. ومع جيرانه النصارى صان حدود بلاده، وأوقف مد الاسترداد الذي كانوا قد قطعوا به شوطاً بعيداً في أواخر القرن التاسع للميلاد، ونقلهم من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع والتبعية، بما حققه من انتصارات وبما رفع في بلادهم من ألوية متفوقة جعلت ملوكهم أتباعاً لسيد قرطبة ومحميين منه. بل أكثر من ذلك جعل أسطول الأندلس قوة فاعلة في المتوسط الغربي وفي المحيط الأطلسي، يقف موقف الند للأسطولين الفاطمي والبيزنطي ولو انه لم يتفوق على

أحدهما. وفوق هذا وذاك ما أدخر وسعاً في دفع عملية التطور الاقتصادي والحضاري بقوة وفعالية أدخلتا قرطبة عصرها الزاهي البراق والذي جعلها مهيأة لاستضافة ورعاية تلك النهضة العلمية الباهرة التي ستعرفها الأندلس أيام خليفته الحكم المستنصر، ثم على زمن ملوك الطوائف بعد ذلك.

وما كان الحكم المستنصر جديداً على شؤون الخلافة وهمومها، ولا كان غريباً عن قضايا الحكم ومشاكله. ذلك انه حين خلف أباه في إدارة دولة الأندلس كان قد تخطى مرحلة الشباب، وجاوز السابعة والأربعين من العمر، كما ان الخليفة الناصر كان قد أعده منذ صغره لولاية عهده فدربه على أساليب الحكم، وكان يفوض إليه من آن لآخر بعض سلطانه، وسمح له بتدبير العديد من أمور البلاد وشؤون العباد. ويجمع المؤرخون على انه تسلم الخلافة دون معارضة من أية جهة كانت إذ ما كان الناصر قد ترك لمعارض لحكمه ولنظامه أي قدرة على التمرد. والمعارض الوحيد للحكم، شقيقه عبد الله منافسه في العلم والمعرفة ومزاحمه على ولاية العهد، كان قد قتل قبل ذلك بزمن طويل بتدبير من الناصر وفي ظروف يشوبها بعض الغموض.

اعتلى الحكم سرير الملك ثاني يوم وفاة أبيه، فكانت مبادراته الأولى ثابتة هادفة صادرة عن خبير بأوضاع البلاد ورجالها. أنفذ الكتب إلى عمال الكور والحواضر الكبرى بصيرورة الخلافة إليه، ودعا الناس إلى بيعته، وباشر من يومه العمل على ترسيخ سلطانه، وضبط قصوره، وترتيب أجناده. وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان[1] المعروفين آنذاك بالخلفاء الأكابر وفي مقدمتهم أحد عظمائهم صاحب الخيل والطراز جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي والذي سيصبح سيف دولته[2] وأحد اثنين يليان خطة الحجابة في عهده. أدخل بعد ذلك إلى قصره من دون هؤلاء من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء فبايعوه. ثم أرسل

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٨٢.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣.

الرسل يدعو الإخوة للمبايعة، وكانوا ثمانية، وأبناء العمومة وسائر بني أمية ووجهاء العرب والوزراء وكبار موظفي الدولة، وقعد بنفسه لتلقيها منهم. وتولى عيسى بن فطيس أخذ البيعة من سائر الناس المتوافدين من قرطبة على القصر.

والواقع إن احتفالات المبايعة هذه كشفت ظاهرة هامة ستميز مجتمع العهد الخلافي بصورة عامة وعهد المستنصر بصورة خاصة وهي أهمية الدور الذي صار للصقالبة في المجتمع الأندلسي. فهم باتوا مع الخليفة في قصره ومن حوله يتقدمون سائر فئات المجتمع بما في ذلك أمراء بني أمية والأرستوقراطية العربية في تقديم البيعة له. ونرى أحدهم جعفر الصقلبي يجمع في يديه اثنين من أهم المراكز القيادية في الدولة فكان صاحب الخيل وصاحب الطراز وأضاف إليهما بعد ذلك وظيفة الحجابة. وهذا يعني بصورة واضحة ان الحكم قد تبنى سياسة أبيه في استبعاد الأرستوقراطية العربية عن أمور الدولة والحكم لعدم ثقته بها. وقد تجاوز الحكم أباه في هذا الخط إذ أعطى الحجابة في عهده لاثنين: صقلبي هو جعفر المذكور، وبربري هو جعفر بن عثمان المصحفي[٢].

إنما الواقع ان الأندلسيين، ما توقفوا كثيراً عند هذه الظاهرة مع انه ستكون لها نتائج سيئة فيما بعد، نظراً لما كان للخلافة من عظمة وسناء ولما كان للخليفة الجديد من سمعة ومكانة ولما كان له أيضاً من مهابة وسطوة. وتوالت طيلة أيام تلك السنة وفود المناطق والحواضر الكبرى تقدم البيعة وتلتمس المطالب والمساعدات وأيضاً رضى الحكم المستنصر ورعايته.

ويجمع مؤرخو ورواة عصره على انه قد أثبت فعلاً، حتى من خلال احتفالات المبايعة على انه رجل دولة من طراز ممتاز. فقد ظهر قوياً، حازماً، حكيماً، عالماً، أديباً. إنما الملاحظ وبالرغم مما كان له من إنجازات عظيمة في جميع

---

(١) نفح الطيب، جزء ١، صفحة ٣٨٧.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٧٩.

مجالات الحكم والإدارة، تجعله في مكانة مساوية لأعظم حكام بني أمية مثل عبد الرحمن الداخل والخليفة الناصر، انه طغت على شهرته صفته كعالم وأديب وكجماع للكتب وراع للمفكرين والعلماء. ولعل مرد ذلك بالدرجة الأولى لكون شهرة أبيه الناصر كانت طاغية في ذلك العصر وأيضاً لكون عهد المستنصر كان بالدرجة الأولى عصر سلام وأمن ورخاء ما عرف الكثير من المنجزات العسكرية الباهرة وهي أكثر ما كان يشد انتباه المؤرخين والرواة.

الصقالبة أيام الخلافة:

لعب الصقالبة أيام الخلافة عموماً دوراً متزايد الأهمية في تكوين المجتمع الأندلسي ولو ان هذا الدور كان يبدو أحياناً على شيء من الغموض ولا يسهل تحديد ماهيته وطبيعته على وجه دقيق. فمن هم هؤلاء الصقالبة الذين ظلوا يتوافدون على الأندلس فترة طويلة من الزمن؟

اعتاد المؤرخون العرب القدماء إطلاق اسم الصقالبة على تلك الشعوب المنتشرة على شواطىء بحر الخزر بين القسطنطينية ومواطن البلغار. ثم اتخذ هذا اللفظ في إسبانيا الإسلامية معاني جديدة فصار يطلق على العبيد الأرقاء الذين يكسبهم الجرمان في حروبهم ويبيعونهم لتجار الرقيق الذين يرسلونهم على دفعات إلى إسبانيا الإسلامية. ومع الوقت، ومع تنوع مصادر الرقيق، شمل لفظ الصقالبة جميع الأرقاء الذين يأتي بهم التجار من بلدان وسط أوروبا وجنوبيها وشواطىء البحر الأسود وبلاد كالابريا ولومبارديا في إيطاليا. وقد ازداد الإقبال على الرقيق ذي المصدر الأوروبي بصورة خاصة منذ أيام الحكم الأول. وصار هؤلاء يستخدمون بكثرة متزايدة في بلاط الخلفاء وقصور الحريم وعند كبار الموسرين أو كانوا يلحقون بالجيش. كان الصقالبة عند قدومهم للبلاد يدربون على آداب المجتمع ويتعلمون اللغة العربية وفنون الفروسية. وكان التجار اليهود هم الذين يتولون عملية استيراد هؤلاء الأرقاء وتدريبهم وتعليمهم وبيعهم فيما بعد بأسعار باهظة في المجتمع.

وكان الأندلسيون يقبلون بصورة خاصة على شراء الخصيان من الصقالبة وذلك لإلحاقهم بقصور الحريم. لذ أقام التجار اليهود مراكز خاصة في جهات فردان في فرنسا لإجراء عمليات الخصي للغلمان الصغار منهم. كما ان بعض التجار الأندلسيين أقاموا مراكز مماثلة على الحدود الإسبانية الفرنسية. ونظراً لما كان يكتنف هذه العملية غير الإنسانية من مخاطر كانت تودي في كثير من الأحيان بحياة الشخص المخصي فقد كان الخصيان يباعون بأسعار مرتفعة جداً قد تصل إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف ثمن الرقيق العادي.

كثر عدد الصقالبة بصورة واضحة أيام الخليفة الناصر الذي عهد لهم بالكثير من الوظائف الإدارية والعسكرية في بلاطه كما أوصل أحدهم نجدة الصقلبي إلى منصب قائد جيوشه. وكان يطلق على من يصل منهم إلى مراتب عالية في البلاط لقب فتى (جمعها فتيان). وكثيراً ما اختار الناصر منهم أشخاصاً عينهم في مجلسه أو انتدبهم في مهمات خاصة أو في سفارات لدى ملوك أوروبا. وقد ترك الناصر في بلاطه عند وفاته حولي ١٣٧٥٠ صقلبياً. وما شذ الحكم عن سياسة أبيه في استعمال الصقالبة وإنما سار على نهجه وتجاوزه عندما أوصل أحدهم كما رأينا إلى خطة الحجابة. وتأكيداً لما يقال عادة من ان الناس على دين ملوكها فقد صار الصقالبة أيام الخلافة عموماً وفي زمن الحكم بصورة خاصة عنصراً هاماً من عناصر المجتمع الأندلسي.

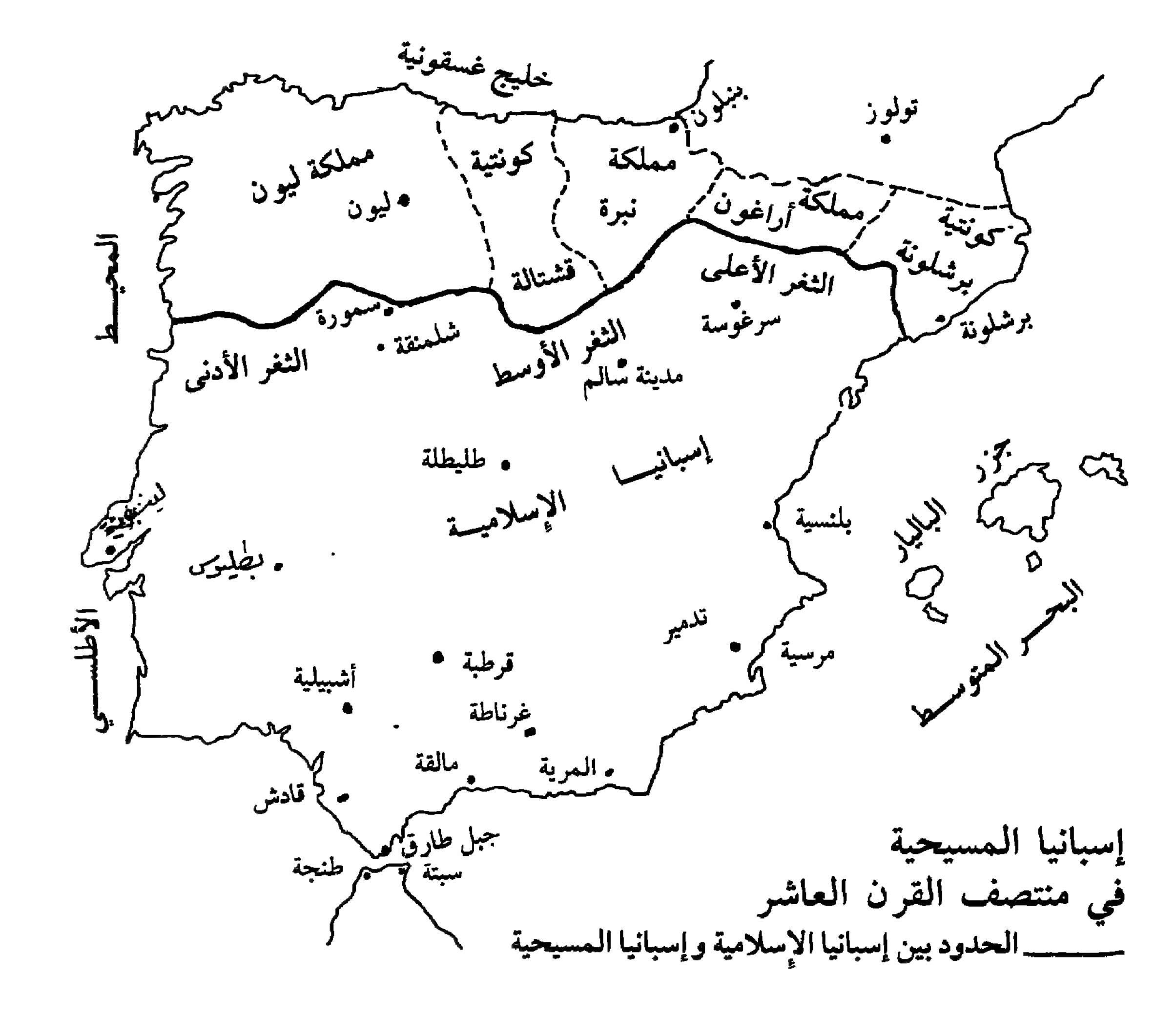
وكانت العادة تقضي بأن يطلق الخليفة أو الأمير أو أي زعيم أو مقدم في قومه حرية صقالبته على حياته أو قد يوصي بأن يتم ذلك كلياً أو جزئياً بعد وفاته. ونظراً لكثرة هؤلاء فإنهم صاروا مع الوقت يشكلون طبقة خاصة في مجتمعات الحواضر الكبرى والعاصمة بصورة أوضح. وإذا علمنا بأن كثيرين من هؤلاء وخاصة الذين عاشوا في بلاطات الخلفاء أو في قصور الوزراء وكبار الموسرين جمعوا ثروات ضخمة وبعضهم تميز بما حصل عليه من ثقافة وعلم وأدب أدركنا أهمية ما كانت تمثله طبقتهم في المجتمع الأندلسي. وهم ظلوا يشكلون طبقة متميزة متكاتفة

للدفاع عن مصالح أبنائها ومكتسباتهم. وسنرى هذه الفئة تلعب دوراً هاماً زمن الاضطرابات التي ستسود الأندلس قبل سقوط الخلافة الأموية. لقد وقف الصقالبة بقوة وفعالية أكثر من مرة بوجه مطامع الحزب العربي الأندلسي وكذلك بوجه الحزب البربري مما أكد تماسكهم العنصري. وعلى الرغم من ان هؤلاء قد دخلوا البلاد كعبيد أرقاء، إلا انهم حملوا معهم للحضارة الأندلسية ولو القليل مما كان لدى شعوبهم من تراث وفنون.

العلاقات مع إسبانيا المسيحية:

كان عليه في مطلع خلافته أن يتواجه مع مصاعب رفعها بوجهه ملوك الممالك المسيحية الإسبانية في الشمال الذين على ما يبدو كانوا قد سئموا كثرة تدخل أبيه الناصر في شؤونهم وهيمنته عليهم. ثم هم أساساً ما كانوا صادقين في ما قدموه له من ولاء ولا كانوا مخلصين في ما ارتبطوا به تجاهه من عهود ومواثيق. ثم إنهم ربما رأوا ان الخليفة الجديد، وما كان معروفاً به من شغف بالكتب وبالحياة العلمية، ومن ميل لمخالطة العلماء والأدباء والشعراء، هو أقل من أبيه قدرة على حمل السلاح، وأبعد عن معايشة الجند والقادة والتعامل مع السيوف والرماح. وربما أيضاً ما كان قد أظهره الحكم في أيام حكمه الأولى من ميل نحو مسالمة جيرانه نصارى الشمال جعل ملوكهم لا يبطؤون كثيراً في المجاهرة برغبتهم في التحرر من قيود ومواثيق التزموا بها أو أجبروا على الالتزام بها أيام الناصر.

لقد ذكرنا سابقاً ان الخليفة الناصر قد أفاد كثيراً من الخلاف الذي دب بين ولدي عدوه الرئيسي، راميرو الثاني ملك ليون، بعد وفاته سنة ٩٥٠ م فتدخل بينهما وأرسل إلى الشمال الإسباني أكثر من غزوة خربت عمران أرضها، واستولت على حصون وقلاع كثيرة، في مناطق الحدود كانت ذات أهمية عسكرية بالغة. ذلك إنه وفق تقاليد الوراثة المتبعة في بلاط مملكة ليون صار العرش إلى أردونيو الثالث إلا انه قوبل بمعارضة شديدة من قبل شقيقه من زواج ثان سانشو الأول ابن



إسبانيا المسيحية
في منتصف القرن العاشر
——— الحدود بين إسبانيا الإسلامية و إسبانيا المسيحية

الأميرة أوراكا ابنه سانشو غرسية الأول وطوطة ملكي نبرة. وما تمكن أردونيو الثالث من الحصول على مهادنة الناصر للتفرغ لمقارعة شقيقه وحلفائه النباريين إلا بتوقيع معاهدة سلام مع المسلمين يعطيهم بموجبها قلاعاً وحصوناً هامة في مناطق الحدود. وعند وفاته، بصورة غير منتظرة في سنة ٩٥٦ آل عرش ليون إلى سانشو الأول الذي رفض تنفيذ أحكام المعاهدة التي وقعها سابقاً الملك المتوفي مع الأندلسيين. ولما كان الناصر آنذاك في أوج قوته العسكرية، ومعتبراً إسبانيا المسيحية من ضمن مناطق نفوذه وسيطرته، فما تساهل في مواجهة هذا التمرد. أرسل قائده أحمد بن يعلي في السنة التالية، إلى الشمال الإسباني، على رأس حملة عسكرية لإعادة الملك المتمرد إلى رشاد الطاعة. أشاعت هذه الحملة خراباً ودماراً وأهرقت دماءً كثيرة في أراضي ليون وهزمت جيوش سيدها. ولما كان الملك المذكور، أصلاً، مكروهاً بين رعاياه فقد استغل أبناء النبلاء والنافذون في المملكة هذه المناسبة، فخلعوا ملكهم المهزوم، ونصبوا على عرش بلادهم قريبه أردونيو الرابع. لجأ الملك المخلوع سانشو الأول إلى جدته طوطة والدة غرسية الأول ملك نبرة، والمرأة القوية النافذة الكلمة طالباً منها العون والحماية، فذهبت معه في سفارة كبيرة إلى بلاط قرطبة طالبة من الناصر مساعدة حفيدها على استعادة عرشه. وبالفعل ما تردد الناصر في إرسال صائفة إلى أراضي ليون في ربيع سنة ٩٥٩ م (٣٤٧ هـ) أعادت سانشو الأول إلى عرشه المسلوب، كما أعادت له جل ممتلكاته. وكان ثمن تلك المساعدة معاهدة مع الأندلسيين تعطيهم عدة من القلاع والحصون الهامة في إسبانيا المسيحية تسلم إلى جنود الخليفة.

مات الخليفة الناصر بعد ذلك بزمن يسير فاعتبر سانشو الأول، ملك ليون، انه ما عاد ملزماً بتنفيذ أحكام المعاهدة الموقعة فماطل كثيراً وسوف وتهرب رغم مطالبة الخليفة الحكم المستمرة بتسليمه القلاع والحصون الواردة في نصوص المعاهدة الموقعة مع أبيه. ثم فوق هذا وذاك فإن فرنان غونزاليس كونت أراضي قشتالة، التابعة اسمياً لمملكة ليون، ما اعتبر نفسه مقيداً مع المسلمين بمعاهدات سلام كما كان الأمر مع مملكتي نبرة وليون، فانطلق يهاجم أراضي

المسلمين في مناطق الثغور مستفيداً من فترة الانتقال في قرطبة. والواقع إن تردد الحكم في مجابهة ممارسات كونت قشتالة العدوانية، بسبب ميوله المسالمة أولاً ولانشغاله بتنظيم أمور حكومته، شجعت الاتجاهات العدائية عند جيرانه الإسبان وتكاثر من تحلق من مقدميهم وفرسانهم حول كونت قشتالة يشجعونه ويقاتلون إلى جواره.

في سنة ٩٦٢ م (٣٥١ هـ) حضر إلى قرطبة، برفقة كبير فرسان مناطق الثغور غالب الناصري حاكم مدينة سالم، أردونيو الرابع المطالب بعرش ليون يطلب حماية الخليفة الجديد ومساعدته على استرداد عرشه[1]. استقبل الملك الإسباني في قرطبة بمظاهر عظيمة من الفخامة والبذخ، ربما قصد منها الحكم آنذاك، إظهار دولة الإسلام في إسبانيا على انها رغم تغير سيدها ووفاة عظيمها الناصر، لا تزال غنية قوية فاعلة كما كانت. وقد وعد الملك الإسباني الخليفة الحكم بمصادقة حكومة قرطبة وعدم التعاون مع أخصامها من الإسبان وخاصة كونت قشتالة. وكضمان لتنفيذ ما تعهد به يبقى ولده غرسية رهينة في العاصمة الأندلسية. وبالمقابل وعده الحكم بالعمل على إعادته إلى عرش ليون. هذا الاتفاق وما نتج عنه أخافا سانشو الأول فبادر لإرسال سفارة ضمت عدداً من كبار رجال الدين ومقدمي دولته قدمت فروض الطاعة للحكم وتعهدت باسم سيدها بتنفيذ مضمون المعاهدة القديمة[1]. إلا ان وفاة أردونيو الرابع المفاجئة في هذه السنة أذهبت بمخاوف خصمه وجعلته يقلع عما تعهد به عبر سفارته.

والواقع إن ممارسات الإسبان تجاه الأندلس وتذبذب سياساتهم، منذ أن تسلم الخلافة، جعلاه لا يطمئن كثيراً لنواياهم على المدى الطويل. وحتى أولائك الذين كانت تربطهم. بحكومته معاهدات مخطوطة وعلاقات ودية، في الظاهر على الأقل النابارييـن، ما كان يرتاح كثيراً إلى حسن نواياهم لأنه كان يشعر

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥١.

في أعماقه ان الصراع بين إسبانيا المسيحية ودولة الأندلس هو صراع حياة وبقاء، وبالتالي لا يقبل المهادنات والتسويات وانصاف الحلول. مع مشاغله الكثيرة، ومتجاوزاً ميوله المسالمة والمهادنة، رأى أن يتخذ التدابير الضرورية للقيام بعمل عسكري كبير وحاسم. وقد سارع خطاه في هذا الطريق منذ أن تجمع أخصامه النصارى في الشمال في تحالف كبير ضده ضم من فوق كل الخلافات الأقليمية والحزازات العائلية والصراع على الزعامة مملكة ليون ومملكة نبرة وكونتية قشتالة وكونتية برشلونة.

في صيف سنة ٩٦٣ م (٣٥٢ هـ) خرج الخليفة الحكم بنفسه على رأس صائفة كبيرة نحو الشمال. جعل من مدينة طليطلة ملتقى الجيوش المتطوعة التي وفدت إليه من سائر مناطق الأندلس. هاجمت جيوش الحكم أراضي قشتالة فهزمت صاحبها فرنان غونزاليس وسحقت جيوشه واستولت على أكبر حصونه شانت أشتيبن.San Esteban وأجبرته على طلب الصلح[١]. وفي نفس الوقت أمر يحي التجيبي حاكم سرغوسة بالتوجه نحو أراضي مملكة نبرة بعد أن تمرد صاحبها ونقض عهوده مع سيد قرطبة. وكانت هزيمة منكرة أنزلها التجيبي بالنابارييـن والجلالقة الذين أتوا لنجدتهم في معركة قورية[٢] بالقرب من مدينة ماردة. هذا الانتصار الكبير على جموع الإسبان الأساسية سمح للقائد غالب الناصري بالاستيلاء على أعظم حصون مملكة نبرة في قلهرة والاستيلاء على الأراضي المحيطة به وإعمارها بالناس[٣] والمقاتلة. وأيضاً أرسل قائده هذيل بن هاشم إلى مناطق الغرب فأخضع قومسها كما بعث بالقائد بن يعلي ويحي بن محمد التجيبي إلى كونتية برشلونة حيث حاربا ودمرا وانتصرا.

وهكذا وبسرعة مذهلة سحق جموع قوى أخصامه العسكرية مرة واحدة وغزا كل واحد من ملوكهم ومقدميهم في عقر داره فأظهر لكل الإسبان، وأيضاً في

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٨٢.

(٢) (٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٢٨٣.

نفس الوقت للطامعين بعرشه من أهل مملكته انه وإن كان مولعاً بالثقافة والعلوم فإنه في ساحات القتال وفي مجال الدفاع عن حدود بلاده وسلطان عرشها فارس لا يجارى. هذه الانتصارات السريعة حسمت الموقف لصالحه وجعلت ملوك الإسبان يتوالون على قرطبة سعياً لمسالمته، وطلباً لحمايته. وبذا رأينا ملك ليون سانشو الأول يطلب السلام ويتعهد مجدداً بتنفيذ ما ورد في المعاهدة القديمةثم سارعت كونتية برشلونة بعد سلسلة من الهزائم العسكرية منيت بها في أراضيها لتوقيع معاهدة للسلام وللتعهد بتقديم عدة من الحصون والقلاع الهامة قريبة من أراضي المسلمين. وكذلك أوفد ملك نبرة بعثة تضم أساقفة ومقدمين من البشكنس يسألون الصلح والمهادنة من سيد قرطبة[1]. وكانت في البعثة طوطة والدة الملك التي بالغ الحكم في حسن استقبالها وإكرام وفادتها كما أغدق عليها الهدايا والمنح.

والواقع إن انتصارات الخليفة الحكم العسكرية على جيرانه الإسبان كانت سريعة ومتلاحقة وحاسمة بحيث أقامت سلاماً على الحدود بين المسلمين والنصارى استمر طيلة أيام حكمه رغم ما كان يعكره أحياناً من تجاوزات وممارسات عنيفة ظلت تصدر عن كونت قشتالة المشاكس بطبعه حتى وفاته سنة ٩٧٠ م[2]. كان الخليفة الحكم، رغم ما أظهره من المقدرة والحزم في ساحات القتال مسالماً بما يكفي لكي لا يجعله يبادر من صالحهم وهادنهم بحروب عدوانية أو توسعية[3]. أخصامه الأساسيون كانت هزائمهم قوية وشنيعة بحيث كانوا بحاجة لفترة طويلة من السلام قبل أن يزيلوا آثارها ويتخلصوا من نتائجها. ثم إن خلافات كثيرة عائلية وأقليمية ما لبثت أن شغلت الإسبان بصراعات وحروب أهلية كثيرة ولفترة طويلة. هذا كله جعل الخلافة الأموية في الأندلس تبدو في أوج قوتها،

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٨٥.

(٢) Historia de Espana Levi Provencal, T IV, p. 382.

(٣) Historia de los Musulmanes de Espania, Dozy, TII p. 58.

وعظيم سنائها، ووافر قوتها، مسيطرة وبصورة غير منازعة على كل شبه الجزيرة الإيبرية، كما لم يحدث إلا في فترات قليلة من تاريخ المسلمين في هذه الأراضي. وأكثر ما ظهر ذلك في السيل من السفارات الذي ظل يتوافد على قرطبة حتى آخر أيام الخليفة الحكم من ملوك ومقدمي إسبانيا المسيحية.

العلاقات مع الفاطميين والبربر:

في السنوات الأخيرة من خلافة الناصر بدا واضحاً ان نفوذ الأمويين في شمال أفريقيا ما كان قوياً ومستقراً وفاعلاً كما أراده سيد قرطبة وبما يتناسب مع الجهود التي بذلها والأموال التي صرفها طوال أيام ملكه الطويل. فتقلبات البربر، وانقساماتهم القبلية، وعدم استقرار مواقفهم، وقلة تجاوبهم مع السياسة الأندلسية، جعل نفوذ الأمويين في شمال أفريقيا ضعيفاً واهياً. وحتى تلك القبائل البربرية التي طالما اعتبرت ركيزة النفوذ الأموي في المغرب، مثل تجمع قبائل زناته، ما كان تحالفها مستقراً ولا كان دائماً بعيداً عن الشبهات. في هذه الفترة احتدمت الخلافات القبلية بين بعض قبائل زناتة المنتشرة في بلاد المغرب الأوسط مما لم يكن إطلاقاً في صالح الأمويين. ثم نجد بعد ذلك محمد بن خزر، زعيم قبائل مغراوة والذي طالما كان ركيزة أساسية للنفوذ الأموي، يلتحق بالفاطميين ويرفع لواء الولاء لهم بعد قليل من وصول الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى العرش، وذلك لأنه ساءه أن يرى الخليفة الأندلسي يقرب إليه قبائل أفران. والأدارسة، الذين اجتهد الناصر كثيراً في إخضاعهم، كانوا سباقين في التمرد عليه مما اضطره في أواخر أيام حكمه لإرسال أكثر من حملة لإعادتهم إلى الحظيرة الأموية. هذه التطورات كان من نتيجتها وصول النفوذ الشيعي إلى مناطق واسعة من بلاد المغرب الأقصى طالما كان الأمويون يحرصون على أن لا يصل إليها. وهذا ما شجع الخليفة الفاطمي على أن يرسل في سنة ٩٥٨ ـ ٩٥٩ م (٣٤٧ هـ) قائده العظيم جوهر الصقلي على رأس حملة كبيرة اجتازت بسهولة ويسر أراضي المغربين الأوسط والأقصى ورفعت عليهما العلم الفاطمي. ومما سهل مهمة

القائد الصقلي كون بعض مراكز القوة الأموية التقليدية وبصورة خاصة بنو مغراوة ما تخلفوا عن مده بالعون والمساعدة. هكذا بسهولة وبساطة إنهار ذلك البناء، الذي أراده عظيماً صامداً، والذي أقامه الخليفة الناصر في بلاد المغرب. ولما صار الخليفة الناصر في أيامه الأخيرة كانت تلك القواعد التي أقامها لجيشه ولأسطوله على طول الساحل المغربي المواجه للشواطىء الإسبانية ما بقي منها تحت السيادة الأموية سوى مرفأي سبتة وطنجة.

حين صارت خلافة الأندلس للخليفة الحكم المستنصر، فإنه انطلاقاً من موقف العداء المبدئي للفاطميين الشيعة تبنى سياسة أبيه الناصر تجاه بلدان شمال أفريقيا دون أي تعديل ولسنوات عديدة. اعتبر دوماً كأبيه، ان وجود الفاطميين على سواحل المغرب المقابلة لإسبانيا لا يمكن إلا أن يكون مصدر خطر وتهديد لسلامة دولة الإسلام في إسبانيا. كان يرسل دوماً الرسل والجواسيس ينتشرون بين البربر فيتعرفون إلى أحوالهم وأخبارهم ويوزعون عليهم الأموال والرشاوى لاصطناع العمال والحلفاء ولاستعادة تحالفات فقدت. وكتأكيد على سياسته هذه نرى المستنصر في السنة الثالثة لخلافته يزور مرفأ المرية «توقعاً لما يصدر من صاحب أفريقية المحاد لأهل الأندلس ولمعاينة ما استكمله بها من الحصانة... ومشارفة حال الرعايا بتلك الجهة»[1]. أراد أن يتأكد بنفسه من صمود قاعدة أسطوله الأساسية في المتوسط الغربي وقدرتها على رد عدوان فاطمي كان ينتظر حصوله في أي وقت خاصة وإن الجالس على عرش الفاطميين هو المعز المعروف بسياسته التوسعية الناشطة.

لم يجد الحكم، بما بذل من مال، كبير صعوبة في استعادة ولاء بني مغراوة من قبائل زناتة ذلك ان زعيمهم محمد بن خزر الذي اختلف مع الناصر وصادق الفاطميين كان قد توفي في نفس السنة التي مات فيها الخليفة الأموي وخلفه

---

(1) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥٣.

محمد بن الخير. وكان هذا شديد الكره للصنهاجيين مما أبعده عن أصدقائهم الفاطميين وبالتالي سهل تلاقيه وتفاهمه مع عمال الحكم المستنصر وعودته إلى التحالف مع الأمويين. وقد نجح الأمويون أيضاً في الحصول على ولاء جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي الذي كان يحكم من مدينة مسيلة مناطق جنوب شرق قسنطينة لحساب الفاطميين. ذلك ان ابن حمدون هذا كان شديد الكره للصنهاجيين ولذا فإنه حين رأى تزايد نفوذهم أيام الخليفة المعز تحالف مع زناتة وهذا قاده في سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) إلى التلاقي والتفاهم مع الأمويين في الأندلس.

إلا إن تحولاً أساسياً طرأ، أيام الخليفة الحكم، على سياسة الفاطميين تجاه العالم الإسلامي عموماً غير معادلات سياستهم الخارجية وغير في طبيعة صراعهم مع الأندلسيين في المغرب وكذلك بدل في مواقف بعض البربر مما اقتضى من حكام قرطبة مزيداً من التدخل في الشؤون الأفريقية. ذلك ان الخلافة الفاطمية شعرت مع الوقت ان وجودها في أفريقيا، بعيداً عن مواطن الإسلام الأساسية في المشرق وعن أماكنه المقدسة، سيبقي المعتقدات الشيعية محدودة الانتشار وبعيدة عن قلب العالم الإسلامي وتجمعات شعوبه الرئيسية. ومن هنا أحدث الخليفة المعز تغييراً جذرياً في سياسته التوسعية فحول أنظاره عن بلدان المغرب الأقصى والأندلس وأرسل قائده جوهر الصقلي لعبور الصحراء الغربية وافتتاح مصر. نجح القائد الفاطمي في سنة ٩٦٩ م (٣٥٨ هـ) في اقتحام هذا القطر واحتل مدينة الفسطاط، وشرع بتأسيس مدينة القاهرة لتكون عاصمة جديدة للدولة الفاطمية الشيعية. وبعد ثلاث سنوات من هذا الإنجاز انتقل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله مع أهله وأمواله وموظفيه إلى العاصمة الجديدة تاركاً بلاد تونس. وقد أوكل إدارة شؤون دولته في المغرب إلى بلقين بن زيري بن مناد أكبر زعماء قبائل صنهاجة البربرية الموالية له. ومنذ ذلك الوقت صارت الدعوة الشيعية في شمال أفريقيا على عاتق بربر صنهاجة نيابة عن خليفة القاهرة، وبهذا بعد الخطر الفاطمي المباشر عن الأندلسيين وحلفائهم في المغرب. حل بعد ذلك في بلدان

شمال أفريقيا لون جديد من ألوان الصراع الفاطمي ـ الأموي يقوم عبر صراع بين قبائل صنهاجة الموالية لمصر وقبائل زناتة التي ما كان أمامها بسبب الخلافات القديمة بين زناتة وصنهاجة إلا أن تأخذ جانب الأندلسيين بشكل أو بآخر. هذا مع الإشارة إلى أن الصراع العقائدي السني ـ الشيعي تداخل مع الصراعات البربرية التقليدية بحيث بات من الصعب معرفة أين يبدأ الجانب العقائدي وأين ينتهي الجانب القبلي. هذا مع التأكيد ان ولاء القبائل البربرية للخلافتين المصرية والأندلسية ما كان دائماً فوق الشبهات.

لم يطل تحالف، أو على الأصح ارتباط قبائل زناتة وسائر حلفائها ومنهم الأدارسة بالسياسة الأموية. ذلك أنه مع التغير الذي حصل في السياسة الفاطمية وتقلص الاهتمام الفاطمي بالشؤون المغربية تمركزت قبائل صنهاجة في المغربين الأدنى والأوسط وأهملت شؤون المغرب الأقصى وبالتالي ما عاد أهله يشعرون بالحاجة الماسة للتحالف مع الأمويين. ومن هنا أخذنا نشهد ميلاً متزايداً عند زعماء زناتة وعند بعض الأدارسة للتحرر من ولائهم لخليفة قرطبة وللتخلص من وطأة الاحتلال العسكري الأندلسي لبعض المواقع في أراضيهم.

بالمقابل كان الأندلسيون يرون ان تمركز صنهاجة في المغربين الأدنى والأوسط هو فرصتهم الكبيرة لتأكيد وجودهم العسكري في المغرب الأقصى فعملوا على التوسع انطلاقاً من سبتة وطنجة باتجاه مليلة ومناطق أخرى في الداخل. وكان رد فعل الزناتيين والأدارسة عنيفاً إذ ثاروا بوجه الأندلسيين وطردوهم من بعض المواقع، كما أقدم، كبير الأمراء الأدارسة، حسن بن جنون على احتلال طنجة بصورة خاصة. عندها صمم الحكم المستنصر على مباشرة غزو واسع لبلاد المغرب الأقصى يؤكد وجود نفوذ دولته الدائم هناك ويقضي على زعيم الأدارسة الحسن بن جنون الذي طالما أزعج قرطبة بمواقفه المتقلبة، وبولائه المضطرب. كلف قائده محمد بن طملس في ٩٧٢ م (٣٦١ هـ) بالعبور إلى مدينة سبتة والانطلاق منها نحو معاقل الأدارسة في جبال الريف وخاصة حصنهم العظيم

«حجر النسر». وكذلك أمر قائد أسطوله بمحاصرة الشواطىء المغربية لمنع أي مدد قد يأتي للأدارسة من مصر خاصة بعد أن أعلن زعيمهم أثر تحركه ولاءه للخليفة الفاطمي. وبفعل حصار قوي من البر كما من البحر لمدينة طنجة التي كان يعتصم فيها الحسن بن جنون استسلمت المدينة لقائد الأسطول الأندلسي وفر الزعيم الأدريسي. وهناك بين سبتة وتطوان جرت معركة بين محمد بن طملس القائد الأندلسي وفلول الأدارسة انتصر فيها الأندلسيون وهزم حسن بن جنون «وقتل كثير من شيعته وفر فيمن بقي معه إلى جبل حصين»[1] ووقعت مدينة أصيلا الهامة بيد الأمويين. دخل القائد الأندلسي جامع المدينة «فوجد فيه منبراً جديداً موسوماً باسم الشيعي. . . فأمر باقتلاعه وأرسله مع كتاب الفتح إلى المستنصر»[2].

إلا أنه في النهاية تمكن الزعيم الأدريسي بعد أن جمع فلوله وحصل على بعض المدد من إنزال هزيمة ساحقة بجيوش الأندلس وقتل قائدها محمد بن قاسم بن طملس في سنة ٩٧٢ م (٣٦٢ هـ) في معركة جرت قرب مدينة طنجة عرفت باسم «فحص مهران». كانت هزيمة شنيعة للأمويين ولقائدهم إذ «قتل في ذلك اليوم جملة من الجند الذين كانوا معه نحو الخمس مائة من الفرسان الأندلسيين الأنجاد ومن الرجالة نحو الألف»[3] واعتصم من بقي حياً منهم في مدينة سبتة ينتظرون النجدة من الخليفة الأندلسي.

تأثر الخليفة الحكم المستنصر كثيراً لأحداث المغرب وخاصة لمقتل قائده في وقت كان يعتقد انه على أبواب السيطرة على كل المغرب الأقصى وما استطاع أن يقبل انتصار زعيم الأدارسة حسن بن جنون نظراً لما كان لدولته من مهابة ونفوذ في عيون نصارى الشمال كما في نظر الفاطميين. استدعى قائده الشهير غالب الناصري، والمشهور بانه سيد فرسان الأندلس، وأمره بقيادة جيش ضخم وافر العتاد كثير الرجال يعبر البحر إلى المغرب. زوده بكل ما يلزم لتحقيق غرضه وإنهاء

---

(١) (٢) (٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٦٦.

تمرد ابن جنون وأوصاه عند سفره قائلاً: «سر سير من لا أذن له في الرجوع حياً إلا منصوراً، أو ميتاً فمعذوراً. وابسط يدك في الإنفاق، فإن أردت نظمت لك الطريق بيننا قنطار مال». ولما كان الحكم عارفاً بعادات زعماء البربر واستعدادهم لقبول المال والرشاوى فقد خاطب غالب بعد ذلك «بانه بعث إليه بعشرة آلاف دينار لصلات الخارجين إليه من أصحاب حسن بن قنون، يوزعها عليهم بحسب مقاديرهم وقرن بها من فاخر الكسوة والسيوف المحلاة عدد كثير للخلع عليهم»[1]. وما اكتفى بذلك وإنما ندب عدداً من رجال الشعر والأدب ومن الفقهاء ورجال الدين من العارفين بقبائل البربر المتصلين بهم للانتشار بينهم لتحريضهم على الأدارسة ولأعداد أسباب النصر للجيوش الأندلسية.

وعلى الصعيد العسكري كتب إلى عامله على مدينة سرغوسة الوزير يحي بن محمد التجيبي يأمره بالتوجه «إلى الغرب بعسكر مدداً للقائد غالب، وجامعاً اليد معه على الخالع للطاعة حسن بن قنون»[2].

عندما كانت تتخذ هذه الاستعدادات العسكرية الكبيرة كان حس بن جنون يجمع أيضاً أنصاره ويستعد في مدينة البصرة الواقعة جنوبي أراضيه لملاقاة الأندلسيين. ومع الوقت أدرك ان ما حشد له الحكم من جنود لا طاقة له على مواجهتهم. ثم إن ما نثره رجال الخليفة الأندلسي من مال بين زعماء البربر وما أثاره دعاته ومرسلوه بين هؤلاء من جو معاد للأدارسة أقعد أكثر قبائل البربر عن السعي لمعاونته وهذا جعله يتخلى عن فكرة الصمود في مدينة البصرة وذهب مع أهله وجيوشه إلى حجر النسر مدينته الجبلية الحصينة ذات الطرق الوعرة ليعتصم فيها. بسرعة مذهلة استولى غالب بن عبد الرحمن على الأراضي الممتدة من الساحل قرب طنجة حتى «حجر النسر» التي ألقى حصاراً قوياً على من فيها. وما لبث أن قوي الحصار واشتد فعله بما حمله من مال ومدد إلى غالب القائد

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٦٧.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٦٨.

التجيبي. وفي نفس الوقت كانت بعض قوات غالب تعمل على مطاردة الحاميات العسكرية الموالية لابن جنون والموزعة في مدن المغرب وحصونه. هذه المعارك الجانبية مع الحسنيين وحلفائهم من بعض قبائل البربر «انجلت عن مقتل خلق كثير من أصحاب حسن بن قنون الحسني، وخسر من رؤوس مشاهيرهم مائة رأس»[1].

وفي سنة ٩٧٣ م (محرم ٣٦٣ هـ) «افتتح غالب بن عبد الرحمن مدينة البصرة بعد أن كان أهلها قد ثاروا على عامل ابن جنون عليهم وقتلوه وابتدر أهل البصرة مخاطبة الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن يستجلبونه إلى ما قبلهم»[2]. دخل القائد الأموي المدينة وخاطب الخليفة بخبرها ثم غادرها بعد أن اصطحب معه بعض أهلها ضماناً لحسن ولائهم.

تعب الحسن بن جنون من وطأة الحصار وصار بعض أنصاره ينفضون عنه بعد أن يئس هو ويئسوا معه من الحصول على عون أو مدد يساعدهم على مزيد من الصمود. عرض الأمير الأدريسي رغبته في أعلان طاعته للخليفة، وفي سنة ٩٧٤ م (جمادى الثاني ٣٦٣ هـ) قامت الخطبة «لأمير المؤمنين في الحجر قلعة الفاسق»[3] بعد أن دخلها غالب بن عبد الرحمن منتصراً. عمل القائد الأموي بعد ذلك مباشرة على الإفادة من انتصاره العظيم فتابع الحرب لاحتلال سائر مناطق البلاد ووصل حتى مدينة فاس في قلب المغرب الأقصى. وقد تمكنت هذه الحملة من تثبيت سلطان الخليفة الحكم المستنصر على بلاد المغرب الأقصى جاعلة منها حاجزاً يحمي الأندلس من هجمات البربر الصنهاجيين أتباع الفاطميين الشيعة. ونجح القائد غالب بن عبد الرحمن في أن يجعل مضيق جبل طارق الهام تحت السيادة الأندلسية أكثر من أي وقت مضى.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٦٨.

(٢) المقتبس، ابن حيان، تحقيق الحججي، صفحة ١٤٢.

(٣) المقتبس، ابن حيان، تحقيق الحجمي، صفحة ١٥١.

وعندما عاد غالب وجيوشه إلى قرطبة، ومعهم الحسن بن جنون وأهله، كان يوماً من أبهى وأجمل ما شهدت قرطبة. فقد ارتفعت رايات النصر في كل مكان وخرج الناس لاستقبال الجيوش المنتصرة. أنزل الحكم، خصمه القديم وعياله في منازل أعدت لهم سلفاً وعاملهم بالحسنى مترفعاً عن الثأر والانتقام. ثم ترك الحسن وشيعته فيما بعد وقبل وفاته بقليل يهاجرون إلى مصر. أما غالب فقد نال تكريماً لا مثيل له بحصوله على لقب «ذي السيفين».

ولمزيد من الاطمئنان إلى سلامة الوجود الأندلسي في المغرب الأقصى وديمومته أوكل ولاية هذه البلاد للأمير جعفر بن حمدون الأندلسي الذي أظهر صدقاً وإخلاصاً للأمويين مذ تحول عنْ موالاة الفاطميين الشيعة. ومما كان يجعل الحكم يطمئن إلى حسن ولاء هذا الرجل معرفته بما يحمل في صدره من عداء للصنهاجيين. وكان هذا آخر الإنجازات العظيمة لهذا الخليفة العظيم الذي ما لبث بعد ذلك بأسابيع أن أقعده عن ممارسة شؤون الحكم فالج أصيب به.

غزوات النورمانديين:

ذكرنا سابقاً ان شواطىء إسبانيا الغربية تعرضت في منتصف القرن التاسع للميلاد لغزوات النورمان الشماليين الذين عبروا نهر الوادي الكبير وهاجموا مدينة أشبيلية في سنة ٨٤٣ م. هذه الواقعة كانت نقطة تحول في سياسة الدولة الأندلسية الدفاعية، من حيث انها أخذت بعين الاعتبار من ذلك الوقت كون البلاد محاطة بالبحار من جهات ثلاث، فأولت الأسطول وشؤون الدفاع البحري اهتماماً كبيراً. ومنذ أيام عبد الرحمن الأوسط الذي باشر بتأسيس الأسطول الأندلسي والذي أقام المحارس، والرباطات، والقواعد البحرية، على طول شواطىء إسبانيا الإسلامية ما أهمل أمير أندلسي شؤون البحر والأسطول. وهذا أدى إلى فشل الغزوات المتوالية التي قام بها النورمانديون في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد.

---

(١) Historia de Espana, Levi-Provencal, T IV, p. 395.

في مطلع القرن العاشر للميلاد حدث تحول أساسي في وضع النورمانديين في أوروبا. ففي سنة ٩١١ وقع الملك الكارولانجي معاهدة سان كلير التي أعطت هؤلاء بزعامة رولون الحق في الإقامة الدائمة على سواحل فرنسا الغربية في الأرض التي صارت تعرف بعد ذلك باسم نورمانديا نسبة لهم. هذا التحول الخطير أعطى هؤلاء موطىء قدم دائم في غرب أوروبا ولم يعودوا مضطرين للعودة، كلما انتهوا من أعمالهم الحربية وقرصنتهم، إلى مواطنهم الأصلية في الدانمرك، وبالتالي صار تحركهم في أوروبا وعلى شواطئها أيسر وبات خطرهم على شعوبها أقرب وأكثر.

هذا الواقع الجديد أخذه الحكم المستنصر بعين الاعتبار منذ توليه شؤون الحكم إذ ما عاد يكتفي بنقاط المراقبة البحرية التي كانت تقوم بوظائفها بشكل فعال في رصد أية تحركات مشبوهة تقوم قريباً من شواطىء إسبانيا وإنما كان يرسل من آن لآخر الجواسيس والرسل إلى شواطىء جليقية، في أقصى شمال غرب إسبانيا في أراضي النصارى الإسبان، يتقصون أخبار النورمانديين ويتعرفون إلى تحركاتهم[١]. وكذلك أقام صلات تعاون مع بعض أمراء ومقدمي النصارى الإسبان بهدف مراقبة تحركاتهم حتى في أراضي وعلى شواطىء إسبانيا المسيحية البعيدة عنه تحسباً لكل خطر محتمل[٢].

وعلى هذا فحين تجرأ المجوس[٣] النورمانديون على مهاجمة شواطىء إسبانيا الإسلامية، في ثمانية وعشرين مركباً عند بلدة قصر أبي دانس قرب ليشبونة في بلاد البرتغال اليوم، في سنة ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) أثاروا هلع المسلمين في تلك الأنحاء لما كانوا يعرفونه من وحشيتهم وميلهم لسفك الدماء. فتك النورمانديون كثيراً بسكان تلك السواحل وأضروا بالممتلكات والمزارع ووصلوا إلى سهل

(١) المقتبس، ابن حيان، الحجي، صفحة ٩٣.

(٢) المقتبس، ابن حيان، الحجي، صفحة ٢٧.

(٣) يطلق على النورمان أو النورمانديين ابن حيان دائماً اسم المجوس.

ليشبونة «فخرج إليهم المسلمون ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين، وقتل فيها من الكافرين»[1]. ووقع عدد من المسلمين أسرى في سفن النورمانديين، سارع الأسطول الأندلسي المرابط في أشبيلية لنجدة السكان المهاجمين فتصدى للسفن المعادية عند مصب نهر وادي شلب وحطم عدة من مراكبهم. وبسرعة مدهشة نجح عبد الرحمن ابن الرماحس، أمير البحر الأندلسي ليس فقط في إنزال هزيمة حاسمة في أسطول النورمانديين وإبعادهم عن سواحل إسبانيا الغربية وإنما في إنقاذ جميع المسلمين الذين وقعوا في أسرهم. وكانت العاصمة قرطبة ترصد باهتمام كبير تطور الأوضاع فكانت «أخبار المجوس تصل إلى قرطبة في كل وقت من ساحل الغرب إلى أن صرفهم الله تعالى»[2].

وفي صدر رمضان سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) «وقع الإرجاف بتحرك المجوس الأردمانيين، لعنهم الله، وظهورهم في البحر وروِمهم سواحل الأندلس الغربية على عادتهم» وتوالت رسل أهالي الغرب على قرطبة لطلب النجدة من الخليفة. اضطرب الحكم كثيراً لهذه الأخبار وبادر لاتخاذ تدابير أرادها أن تكون قوية ورادعة لهؤلاء بحيث يقلعون حتى عن مجرد التفكير بمهاجمة أراضيه. استدعى الرماحس، أمير البحر، وكان حاضراً بقرطبة آنذاك فأمره بالتوجه إلى المرية، قاعدة الأسطول الرئيسية[3]، واستنفار كل القطع البحرية العاملة في المتوسط كما في الأطلسي والخروج لملاقاة النورمانديين عند سواحل إسبانيا الغربية. وفي نفس الوقت استدعى القائد غالب بن عبد الرحمن وأمره بتحويل صائفة ذلك العام عن أراضي الإسبان في الشمال والتوجه بها فوراً إلى الغرب لتقوية ودعم الحاميات العسكرية الأندلسية هناك. وليطمئن إلى حسن استعداداته العسكرية أرسل الفتيان مبارك ومبشر إلى كورة رية وشذونة[4] للإشراف على شحن الأطعمة

---

(١) (٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥٦.
(٣) المقتبس، ابن حيان، الحجي، صفحة ٢٤.
(٤) المقتبس، ابن حيان، الحجي، صفحة ٢٨.

والأغذية والسلاح إلى الأسطول المجهز إلى ساحل الغرب.

ويبدو ان استعدادات الأندلسيين في البر كما في البحر أخافت النورمانديين فهربوا دون أن يحاولوا حتى مجرد النزول على الشواطىء الأندلسية «إذ اتصل بهم وصح لديهم صمد الخليفة المستنصر بالله لحربهم، ونصبه التدبير عليهم، وتجريده القائد الوزير غالب بن عبد الرحمن، مدبر حروبه، نحوهم وقصدهم في البر ونهوض القواد بالأساطيل إلى ناحيته وتحريكه نحوهم الجنود الحسنة والأساطيل الثقيلة... فولوا على أعقابهم ناكصين... وكفى الله المؤمنين القتال»[1]. ورجع الرماحس بأسطوله الكبير إلى قاعدته في مدينة المرية دون أن يخوض معركة وحتى قبل أن يصل إلى السواحل التي ظهر أمامها النورمانديون.

ومع إطلالة صيف العام التالي، استدعى الخليفة الحكم في شهر رمضان (٣٦١ هـ) من سنة ٩٧١ م صاحب الشرطة هشام بن محمد بن عثمان ومولاه زياد بن أفلح وأمرهما بالتوجه على رأس صائفة إلى جهات الغرب على سبيل الحذر ولما لا يزال يتوقع من عادية النورمانديين الذين اعتادوا غزو تلك الديار. وقبل نهاية الشهر المذكور كان القائدان قد اتخذا أهبتهما للرحيل وأعدا جيشاً كامل العدة والعدد «فركبا... إلى قصر قرطبة والخليفة مقيم به فتوصلا إليه وعرفاه بتمام أهبتهما فأصغيا لوصاته وتزودا من دعائه وأمر بمسرتهما بما أعده لهما من الخلع الفاخرة والعمائم السرية والسيوف الحالية»[2] وخرجا لحالهما من قرطبة إلى بلاد الغرب.

تجولت الحملة في كل مدن وقرى الغرب ووصلت حتى مدينة شنترين، في قاصية ذلك الصقع، مما أشاع الثقة والمطمأنينة في نفوس الناس. وقد تأكد خلال ذلك للقائدين الأندلسيين بأن النورمانديين «نكصوا عن الإقدام على المسلمين

---

(١) المقتبس، ابن حيان، الحجي، صفحة ٥٨.

(٢) المقتبس، ابن حيان، تحقيق الحجي، صفحة ٧٨.

عند تسمعهم بخبر الدلوف إليهم والاستعداد لهم براً وبحراً»[٢]. ثم إن الجواسيس الذين أرسلوا يستكشفون أخبارهم عبر أراضي الإسبان النصارى وصلوا إلى قاصيتها وبلغوا مدينة شانت ياقوب لم يأتوا بما يخالف ذلك من المعلومات. بعد غياب دام خمسين يوماً حل زياد بن أفلح وهشام بن محمد في قرطبة، عائدين ومن معهما من الجنود بعد إنجاز المهمة التي كلفا بها. هذه السياسة القائمة على الحذر الدائم والمراقبة الدقيقة لسواحل شبه الجزيرة الإيبرية مع الاستعداد العسكري الدائم في البر والبحر كما في مجاري الأنهار الكبيرة كانت حجر الأساس في النظام الدفاعي الأندلسي طيلة أيام الحكم المستنصر. وهذا جعل أهل شبه الجزيرة من مسلمين ونصارى يطمئنون إلى سلامة أرواحهم وممتلكاتهم وخطوط تجارتهم البحرية خاصة وان النورمانديين اتجهوا ولفترة طويلة في تحركاتهم بعيداً عن شواطىء إسبانيا.

العلوم والثقافة أيام المستنصر:

على الرغم مما أظهره الحكم المستنصر، كما رأينا، من مقدرة في إدراة أمور الدولة وضبط أمنها، ومن براعة في فنون الحرب والقتال، ومن مهارة ودهاء في معالجة سياسة دولته الخارجية، كل ذلك بدرجة جعلته لا يتخلف عن مساواة والده العظيم الناصر أو أي من عظماء بني أمية في مغرب العالم الإسلامي أو في مشرقه، فإن الصفة التي ألصقها به المؤرخون بالدرجة الأولى هي صفة العالم والأديب والشاعر والمفكر. يعود ذلك لكون الحضارة الأندلسية قد ازدهرت في ظل دولته وعلى أيام خلافته كما لم تزدهر في أي يوم من تاريخ الأندلس أو في أية بقعة من بقاع أوروبا الغربية على امتداد العصور الوسطى في قرونها العشرة، وأيضاً لما كان له من باع طويلة، ومن مبادرات جليلة في رعاية هذه النهضة وحمايتها والمشاركة بشخصه وماله في مسيرتها. وقد لا أكون مبالغاً لو رددت مع

---

(١) المقتبس، ابن حيان، تحقيق الحجي، صفحة ٧٨.

المستشرق دوزي «ما عرفت إسبانيا في يوم من أيام تاريخها ملكاً عالماً كالحكم المستنصر»[1] . لم يكن الحكم في خطه هذا استثناء أو ظاهرة فريدة بين حكام بني أمية في أوروبا. ذلك إن هؤلاء منذ أسس دولتهم عبد الرحمن الأول درجوا على الاهتمام بالعلوم والآداب واجتهدوا دائماً في إحاطة أنفسهم، وإغناء مجالسهم بأفاضل الناس، وعلمائهم ومحدثيهم. وما قصر واحد منهم في إغناء قصره بالكتب والمصنفات. ولم يتخلف واحد منهم مهما كانت مشاغله السياسية والاقتصادية عن رعاية العلوم والآداب، وعن السعي لإثراء المكتبة الأموية في القصر الأميري بأفضل المؤلفات يؤتى بها من المشرق كما من سائر المناطق الأندلسية.

وإذا كان هذا الاهتمام قد أعطى ثماره بصورة متميزة في عهد الحكم المستنصر فذلك يعود قطعاً لكون أيام حكم الناصر الطويلة وما رافقها من منجزات عسكرية أعطت الأندلس مرحلة طويلة من السلام والرخاء امتدت حتى ما بعد نهاية حياة الحكم وأيضاً لما تميز به هذا الخليفة من كثرة مبادراته ذات الطابع الحضاري.

ويجمع المؤرخون المسلمون على تأكيد علم هذا الرجل وبراعته في الشعر والأدب والرواية فيصفه ابن الأبار بقوله: «كان حسن السيرة، فاضلاً، عادلاً، مشغوفاً بالعلوم، حريصاً على اقتناء دواوينها»[2]. وذكر كبير مؤرخي الأندلس ابن حيان الحكم المستنصر بقوله: «كان من أهل الدين والعلم راغباً في جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم، باحثاً عن الأنساب. . . مستجلباً للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروي عنهم. . . ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها، والتهمم بها. أفاء على العلم، ونوه بأهله، ورغب

---

(١) Historia de Los Musulmanes de Espana, Dozy, T II, p. 59.

(٢) الحلة السيراء ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٠٠.

الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية. . .»[1].

وقد كان له اهتمام خاص بإثراء المكتبة الأموية الكبرى في قرطبة. فهو منذ كان فتى في مطلع حياته عمل على تكوين مكتبة خاصة به لم تلبث أن تضاعفت مقتنياتها، بما ورث من مكتبة غنية عن أخيه عبد الله الذي كان مثله محباً للعلم والعلماء والرواية[2]. وحين صارت إليه خلافة قرطبة حمل إلى مكتبة قصرها الكبرى كل ما كان قد تجمع لديه من الكتب والمصنفات ولم يكن ولعه باقتناء الكتب النفيسة يقف عند حد. اتخذ له رسلاً ومندوبين في دمشق، كما في بغداد، وفي خراسان كما في الإسكندرية، يتصيدون له أنفس الكتب وأندر المخطوطات. وأيضاً كانوا يعملون على نسخ ما لا يستطيعون شراءه من المؤلفات. أما القصر الخلافي فقد تحول على زمنه إلى ورشة عمل تضج بالناسخين والخطاطين والرسامين والمجلدين حتى ضاقت القاعات والممرات بأكداس الكتب والمصنفات. ويروي تليد المشرف على خزانة العلوم بالقصر الخلافي في قرطبة، «أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة[3] ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط»[4].

واهتمامه بالكتب ما كان يقف عند حد اقتنائها وحفظها وإنما يروي معاصروه انه كان يقدم على قراءة الكثير منها. وفي حالات كثيرة شاهد رواد مكتبته على بعض الكتب تعليقات وحواشي وملاحظات حول الكتاب والمؤلف بخط يد الخليفة الحكم مما يثبت طول باعه في مجالات علمية متنوعة.

أما رعايته المعنوية للعلماء والأدباء فكانت لا تقف عند حد. ففي مجالسه وقاعات قصره كان لهؤلاء المركز المتقدم والمكانة المرموقة، يجالسونه ويناقشونه ويحصلون على الكثير من ماله، كما من حدبه ورعايته. وكثيراً ما امتدت هذه

---

(١) (٢) الحلة السيراء ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٠١.

(٣) وردت في نفح الطيب، المقري، صفحة ٣٨٦، عشرون ورقة.

(٢) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٠٣.

المساعدات إلى علماء يقيمون بعيداً عن الأندلس. فحين علم بإن أبا الفرج الأصفهاني يعد كتابه الشهير «الأغاني» أرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق[1]. وكذلك أمده بصلة أخرى جزيلة حين أرسل له كتاباً في أنساب قومه بني أمية. ووصل أيضاً القاضي أبا بكر الأبهري المالكي بمنحة سخية نظير الحصول على نسخة من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم[2]. وكذلك شملت عطاياه فقهاء الأمصار النائية عنه، وبصورة خاصة رجال المالكية، مثل محمد بن القاسم بن شعبان المقيم في مصر ومحمد بن يوسف الكندي[3].

وفي عاصمته وحول قصره تألق عدد من أعظم علماء عصره يستظلون برعايته، ويفيدون من عطاياه. فكان هناك العالم اللغوي «أبو علي القالي» الذي وفد من العراق وحل على أبيه الخليفة الناصر ثم شمله برعايته الحكم «فأكرم مثواه، وحسنت منزلته عنده»[4]. حاضر «القالي» ودرس في أروقة جامع قرطبة في تاريخ العرب، ولغتهم، وأنسابهم، وآدابهم، وشعرهم وهي المحاضرات التي جمعها طلابه من بعده في الكتاب المشهور باسم «الأمالي». وأيضاً عاش في ظله ودرس في جامع قرطبة العالم الأندلسي «ابن القوطية» الذي وضع كتاب «الأفعال» في النحو وكتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» جمع فيه أخبار المسلمين في إسبانيا من بداية الفتح وحتى وفاة الأمير عبد الله في أوائل القرن العاشر للميلاد، ويعتبر هذا الكتاب اليوم من أهم وأول المصادر لدراسة تاريخ بني أمية في الأندلس.

ونظراً لما أظهره من ولع بالعلم والعلماء صار المؤلفون يتسابقون، على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم، في إهداء مؤلفاتهم إليه لكونه ملماً بالعلوم عارفاً

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٨٦.
(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٨٦.
(٣) الحلة السيراء، جزء ١، صفحة ٢٠١.
(٤) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٨٦.

بالشعر والأدب وأيضاً طمعاً بهباته السخية. وما أوقف رعايته للعلم والعلماء على الإسلام والمسلمين بل شمل برعايته أيضاً غيرهم. فالأسقف المستعرب ربيع بن زيد المتبحر في علوم الفلك والرياضيات، كما في الفلسفة واللاهوت، كان من أقرب الناس إليه وألصقهم بحكمه يندبه في السفارات الهامة، ويعتمد عليه في اتصالاته الخارجية، ويشاركه في مجالس علمه يستمع إلى شروحاته ويأنس لآرائه. وكذلك أكرم الحكم ووصل بسخاء أسقفاً لمدينة قرطبة وضع في القرن العاشر للميلاد كتاباً في تقويم وتحديد الأعياد النصرانية[1]. والكتاب ما يزال معروفاً ومتداولاً في إسبانيا حتى أيامنا الحاضرة. والواقع إن كثيرين من نصارى الأندلس ويهودها ما ترددوا أمام ما أبداه الخليفة الحكم من تسامح تجاههم ومن اهتمام بحماية علمائهم وأدبائهم في المشاركة بقوة وفعالية في النهضة الأندلسية، فألفوا وكتبوا في مختلف العلوم وباللغة العربية كما بلغاتهم الخاصة. فكان لهم نصيب وافر من التراث العظيم الذي خلفة لنا عهد الخليفة الحكم. يكفي أن نورد من ذلك على سبيل المثال ما كتبه طبيب الحكم، اليهودي حسداي وتلك المكتبة العظيمة التي كانت لعائلة النغرلة والتي صارت في مطلع القرن الحادي عشر للوزير الغرناطي اليهودي بن النغرلة. ذلك إن الحكم المستنصر أطلق للعلماء والباحثين في عصره من الحرية ما لا حدود له، فسمح لهم دون تمييز في الدين أو الجنس بدراسة علوم كانت مهجورة عند أسلافهم، مذمومة بألسنة رؤسائهم، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج من الملة ومظنوناً به الإلحاد في الشريعة.

والواقع إن الإقبال على دراسة العلوم، والولع بالشعر والأدب، ما وقف عند حدود طبقة الخاصة من الناس، بل شاركت في هذه المجالات عامة الناس من مسلمين ونصارى ويهود فشاعت بينهم المعرفة وتعرف جل الناس إلى القراءة

---

(١) Disertaciones y Opusculos, Julian Ribera, T. I, p. 194.

(٢) طبقات الأمم، صاعد الطليطلي، صفحة ٧٦.

والكتابة في وقت كانت الأمية والجهل هما القاعدة بين الجماهير في سائر بلدان أوروبا خلا بعض أوساط الأكليروس[1]. بل ذهب الحكم المستنصر في سعيه لنشر العلم بين رعاياه إلى حد افتتاح المدارس المجانية في العاصمة وحولها لتعليم أولاد الفقراء والمساكين. أقام لذلك سبعاً وعشرين مدرسة ندب لها المعلمين والمؤدبين وأجرى عليهم المرتبات[2]. كانت ثلاث منها متحلقة حول المسجد الجامع في قرطبة وباقيها وزعها في كل ربض من الأرباض الكثيرة المحيطة بالعاصمة والتي كانت تعج بأبناء الطبقات العاملة والفقيرة، وهو أمر ما سبقه إليه أمير أو حاكم في أوروبا العصور الوسطى. وليضمن بقاء هذه المدارس وديمومة عملها لصالح أهل العلم وطلابه من الفقراء عمد إلى إقامة وقفية دائمة ضمت جميع حوانيت السراجين في قرطبة تحبس وارداتها أبد الدهر لدفع أجور المعلمين الذين يدرسون في المدارس المجانية التي أقامها الحكم[3].

وما تخلفت المرأة عن مسايرة هذه النهضة فأقبلت بنهم على دراسة العلوم والآداب فكثر قول الشعر وحفظه بين نساء الطبقات العليا، وحتى بين بعض نساء العامة إذ تعلمت كثيرات منهن وبرعن في نسخ الكتب وتزيينها وتجليدها. وقد تكونت أكثر من مكتبة هامة في دور بعض السيدات الثريات. وحتى أولائك العبيد الأرقاء من صقالبة ولاتين وفرنج ممن ألحقوا بالخدمة في قصور الأمويين كما في دور بعض الأثرياء وأبناء العائلات الكبيرة فقد تعلموا اللغة العربية وبرع منهم كثيرون في بعض مجالات العلم والأدب فتركوا في التراث الكثير من مخلفاتهم ونتاجهم.

أما التعليم العالي فقد عهد الحكم بالإشراف عليه لأخيه عبد العزيز الذي كان أديباً وشاعراً ظهرت منه نجابة منذ صغره فقربه منه الخليفة وشمله برعايته.

---

(١) Historia de los musulmanes de Espana, Dozy, T II, p. 60.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥٨.

(٣) البيان المغرب، ابن اداري، جزء ٢، صفحة ٣٧٠.

كان مسجد قرطبة الجامع مقر جامعة الأندلس الأولى يدرس في أروقته يومياً علماء وفدوا من كل أنحاء العالم الإسلامي، على آلاف من طلبة العلم أتوا من الأندلس كما من أفريقيا الشمالية وربما من بعض مناطق إسبانيا المسيحية. فكانت هذه الجامعة منارة في القرن العاشر للميلاد في غرب أوروبا تشع علماً ومعرفة من فوق ما كان يغلف القارة من جهل وأمية وتخلف.

الزيادة في مسجد قرطبة:

ولعل مما ساعد مسجد قرطبة على احتواء أعمال الجامعة العظيمة، وإفساح المجال لتلك الجموع من الأساتذة والطلبة للالتقاء، تلك الزيادة التي حققها الخليفة الحكم في رقعة المسجد في أوائل حكمه والتي تعتبر أعظم وأبقى منجزاته العمرانية. تزايد عدد سكان قرطبة بصورة مدهشة أيام الناصر بمن وفد إليها من المناطق ومن المغرب بسبب السياسة الكبيرة التي مارسها وما رافق ذلك من رخاء وازدهار في الأندلس عموماً وفي العاصمة بصورة خاصة. لذا ضاقت ردهات المسجد وما عادت تستوعب الأعداد المتزايدة من المصلين. وقد شعر الحكم منذ تسلم الخلافة، وهو أصلاً ما كان بعيداً قبل ذلك عن هموم البلاد ومشاكلها، بالحاجة الماسة لتوسيع الجامع بعد أن اشتد «ازدحام الناس بالمسجد الجامع بقرطبة وتضاغطهم حتى كادت النفوس تتلف»[1]. وكان أول أمر صدر عنه كخليفة للمسلمين تكليفه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي النظر بالزيادة في المسجد وكان أن أحضر الأشياخ والمهندسين لتقدير مكان الزيادة وحجمها فحدوها لجهة القبلة وقرروا أن تكون بمقدار مساحته مما يؤدي إلى مضاعفة هذه المساحة عند انتهاء الأعمال. وقد بدأ العمل فعلاً، كما يؤكد ذلك تقرير وجد بخط الحكم المستنصر، «يوم الأحد لأربع خلون من جمادي الآخرة سنة ٣٥١ هـ»[2]. استمرت أعمال البنيان مدة أربع سنوات إذ اكتملت كما يقول

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥٢.

(٢) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٢، صفحة ٣٥٩.

التقرير المذكور في سنة ٣٥٥ هـ. وكانت هذه الزيادة من أحسن ما زيد في الجامع لكونها ضاعفت مساحته وأيضاً لكونها أتت تحفة في فن البناء والعمران لما صرف فيها الحكم من أموال، وصلت «إلى مائتي ألف وواحد وستين ألفاً وخمس مائة وسبعة وثلاثين ديناراً ودرهم ونصف»[١]، وأيضاً لما حشد لها من البنائين والمهندسين المهرة.

أبدع البناؤون في تصميم وإقامة المحراب الجديد واقتضى إنجاز قبته الرائعة ثلاث سنوات. وقد تولى خبير في تنزيل الفسيفساء، جاء من بيزنطية بناء لطلب الخليفة الحكم ومعه منها مائة وعشرين قنطاراً بعث بها ملك الروم هدية، للمسجد الجامع فزين وجه المحراب والعقدين الملاصقين له كما زين بطن القبة الوسطى التي تعلو المحراب[٢]. وقد أفاد المسلمون كثيراً من وجود هذا الخبير الرومي الماهر في صناعة الفسيفساء فحشد الحكم بعض مماليكه معه لتعلم الصناعة فأبدعوا وأربوا عليه[٣]. وبنى في الزيادة مقصورة ملكية خاصة من الخشب منقوشة الظاهر والباطن، مشرفة الذروة[٤] أتت على الطراز البيزنطي. وأقام إلى جانب المحراب المنبر الذي صنعه «مدخلاً من عود الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعاج والعود الهندي»[٥]. وكذلك جلب الماء إلى سقايات الجامع والميضأتين من عين بجبل قرطبة وفي أقنية متقنة البناء محكمة الهندسة أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس.

ولاية العهد:

عندما صارت الخلافة إلى الحكم المستنصر كانت تشغل باله، وبصورة

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري جزء ٢، صفحة ٣٥٩.

(٢) قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس. عبد العزيز سالم صفحة ٣٤٠.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥٩.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٥٥.

(٥) البيان المغرب، جزء ٢، صفحة ٣٧٢.

ملحة قضية شخصية. ذلك إنه كان يسرع الخطى نحو الخمسين وما كان بعد قد أنجب ولداً ذكراً يمكن أن يخلفه. إلا أن القدر شاء أن لا يحرمه نعمة الأبوة وأن لا يفجعه في آماله، في أن يكون له من صلبه من يرث سلطانه، فولدت له جارية إسبانية من البشكنس في سنة ٩٦٢ م (٣٥١ هـ) ولداً ذكراً أسماه عبد الرحمن على اسم جده الناصر كان عمره قصيراً. فمات في سن الطفولة. وأيضاً عادت بعد سنوات ثلاث هذه الجارية، المعروفة باسم صبح وهو الترجمة العربية لاسمها الأصلي 'Aurora. فأعطته غلاماً آخر أسماه هشاماً قدر له أن يعيش ليصبح ولياً للعهد ثم خليفة باسم هشام المؤيد.

على ان ذلك الحدث الكبير بالنسبة للحكم المستنصر، والذي كان مناسبة عظيمة خلدها شعراء وأدباء كثيرون كانوا يعيشون في محيط البلاط في قرطبة، ما أنهى متاعب الرجل الكبير، وإنما ربما زاد في همومه، وهو يرى نفسه تتقدم به السنون وينوء جسده بحمل أثقال الحكم والعمر، إذ شغله هاجس تأمين الخلافة لولي العهد بعد أن كان في الماضي يشغل نفسه بانتظار ذلك الوريث. كان وهو يحث الخطى نحو نهاية العمر ويرى ولي العهد ما يزال في مراحل الطفولة يسائل نفسه عما إذا كان الأندلسيون سيورثون الخلافة الأموية لولد صغير دون مرحلة الحلم بسنوات عديدة، متجاوزين عقال وأكابر بني أمية، وما كانوا آنذاك قلة. وكان يتذكر دوماً، وبمرارة، انه ما ارتقى عرش بني أمية طفل قبل ذلك في ظل دولة الإسلام في مشرقها كما في مغربها، ولا عرف العرب مجالس الوصاية، والأوصياء كما كان شائعاً عند الأمم الأخرى كالبيزنطيين والفرنج في ذلك الزمان. ثم ولو قبل الأندلسيون بمبدأ الوصاية فهل كانوا يقبلون بأن تحكمهم أم ولي العهد، أحق الناس بالوصاية على ابنها، وهي جارية من أصل إسباني ومن قبائل البشكنس المعروفة سوابقها في محاربة دين الإسلام في الأندلس وفي مناوأة دولته والاعتداء على أراضيها وحدودها وناسها؟.

ولما كان مصراً على إبقاء الخلافة في نسله وفي بيته، ومع شعوره بقرب

منيته، سعى بأنانية مفرطة، لتأمين ولاية العهد لابنه هشام. دعا أكابر الدولة ومقدميها فأخذ منهم البيعة لولي عهده على حياته في سنة ٩٧٦ م (٣٦٥ هـ). والواقع إن ذلك التصرف، على ما عرف به الحكم المستنصر من رجاحة عقل، وبعد نظر وغيرة على مصالح الدولة والبلاد، ما كان حكيماً ولا أخذ بعين الاعتبار أوضاع الأندلس وما كان يحيق بها من أخطار. وإذا كان عقال الناس ما جاهروه بمعارضتهم، لما كان للخلافة آنذاك من مهابة وسلطان ولما كانت عليه دولة بني أمية آنذاك من قوة وسطوة، فإن كثيرين ممن عرفوا ببعد النظر والنزاهة والحياد ما رحبوا بخطوة الحكم ولا استبشروا بها. وقد علق كبير مؤرخي الأندلس ابن حيان على هذا الحادث بقوله: «انتهت خلافة بني مروان إلى الحكم تاسع الأئمة فيها فتناهت في السرو والجلالة والكمال والأبهة، إلا انه ـ تغمد الله ـ خطاياه مع ما وصف به من رجاحته كان ممن استهواه حب الولد وأفرط فيه، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا، دون مشيخة الأخوة وفتيان العشيرة ومن يكمل للإمامة بلا محاباة، فرط هوى ووهلة انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته. وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله. فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله. وذلك إنه نفس بسلطانه على ثلاثة رجال من إخوته ولد الناصر: عبد العزيز شقيقه والأصبغ والمغيرة، مع جماعة من ولد الخلفاء كهول وشبان، ما فيهم إلا مضطلع للأمر قوي عليه. فتخطى جماعتهم إلى ابنه هشام وهو في الوقت طفل ما بلغ الحلم»[1].

مع ولادة عبد الرحمن وهشام سمت مكانة أمهما «صبح» الجارية الإسبانية سابقاً والباهرة الجمال في نفس سيدها الحكم، وارتفع قدرها، وعظم نفوذها، وتقدمت على سائر نساء البلاط من أماء وحرائر. ومع انه ليس في المصادر الإسلامية ما يشير لكونها قد صارت زوجة للخليفة، وتحررت من مرتبة العبودية، إلا انها باتت منذ ذلك الوقت تعامل وكأنها «الملكة الأم». وكثيراً ما ورد ذكرها عند

(١) الذخيرة، ابن بسام، قسم رابع، مجلد أول، صفحة ٥٧.

المؤرخين الأندلسيين على انها «السيدة أم هشام»[1]. كانت هذه المرأة إلى جانب جمالها على درجة كبيرة من الذكاء والفطنة والموهبة فعرفت كيف تستفيد من حب الخليفة العجوز لها ومما أوسعه لها في النفوذ والسلطان فصارت في سنوات حكمه الأخيرة سيدة البلاط القوية النافذة، لرأيها وقولها مكان مرموق في الشؤون العامة من سياسية وغير سياسية. وكثيراً ما تدخلت في اختيار الوزراء والقادة كما في تسمية كبار الموظفين. وصار لها في القصر والحكم عمال وأنصار، وتسابق الأقوياء والنافذون في الدولة لاسترضائها والتقرب منها، فأفادت من ذلك بجمع ثروة طائلة وتكوين نفوذ كان في تزايد مستمر. وما تردد الرجل القوي في الدولة آنذاك الوزير الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي في استرضائها والتقرب منها وتحقيق رغباتها، معرفة منه بمكانتها الفريدة عند الخليفة وذلك ليحافظ على مكانته هو ونفوذه هو.

ومع هذه المرأة النابهة ذات الطموح العريض أطل على الحياة السياسية في الأندلس ودخل محيط الإدارة والحكم شاب مغمور يدعى محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري. لم يلبث هذا أن تقدم بخطى ثابتة وسريعة فبات في أواخر أيام الحكم، وبرعاية أم أولاده الجارية «صبح»، أحد النجوم الساطعة في سماء الحياة السياسية في الأندلس مما هيأ له دوراً كبيراً سيلعبه في الثلث الأخير من القرن العاشر للميلاد سيجعل منه، سيد شبه الجزيرة المطلق، ورجلها القوي كما لم قوياً أي واحد ممن حكموا الأندلس منذ أن ارتفع لواء الإسلام في سماء إسبانيا وحتى نزوله عن سارية قصر الحمراء في غرناطة.

---

(١) المعجب في أخبار المغرب، المراكشي، صفحة ٢٩.

الفصل الرابع

هشام الثاني المؤيد بالله

توفي الخليفة الحكم المستنصر بالله في سنة ٩٧٦ م (٣٦٦ هـ) بعد مرض عضال استطال أشهراً عدة. وقد كشفت وفاة أمير المؤمنين ساعة حصولها وجود مراكز قوى في الحكم والدولة لا ترى كلها رأي الخليفة المتوفي بضرورة انتقال الحكم إلى ابنه الطفل الصغير عملاً بإرادته ونزولاً عند متطلبات البيعة بولاية العهد التي أخذت له على حياة أبيه. كان هناك فريق الصقالبة من العسكريين ومن كبار رجال القصر والحاشية والمقربين إليه ما رأوا مصالح الحكم والناس تتأمن، وحدود دولة الإسلام التي تعبوا في الدفاع عنها طيلة أيام الناصر وابنه المستنصر باعتبارهم قادة جيش الأندلس وصفوة رجاله، تصان بوجود خليفة ولد، لا حول له ولا قوة، أمره بيد جارية إسبانية هي نفسها باتت أسيرة مصالح بعض رجال الحكم وخاصة رجل الأندلس القوي الحاجب المصحفي وصديقها المغامر الطموح ابن أبي عامر. والصقالبة آنذاك كانوا قد باتوا يشكلون في المجتمع الأندلسي طبقة كبيرة النفوذ وافرة الثراء كثيرة المصالح. وفي القصر الخلافي كان تعدادهم ينوف على الألف مضافاً إليهم من يتبعهم ويلوذ بهم يظنون ان لا غالب لهم وان الملك

بأيديهم[1] ويحرصون على أن لا يفقدوه. وفي الواقع ما كان الصالح العام وحده دافع الصقالبة لمعارضة ولي العهد وإنما أيضاً رغبتهم في حمل من يثقون به ويطمئنون إلى مستقبل نفوذهم وامتيازاتهم في ظله، إلى كرسي الخلافة. وهم بالذات كانوا يريدون شخصاً، أي شخص لا يكون أداة طيعة بيد الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي رجل الأندلس الأول والقوي وصديقه الجديد ابن أبي عامر. وبالمقابل رأى كبار رجال الدولة وبعض وزرائها، وخاصة كبيرهم المصحفي وزير الحكم وموضع ثقته، صاحب النقود الواسع والجاه العريض، وابن أبي عامر صاحب الشرطة ان مصالحهم هم، بالدرجة الأولى، تتأمن فقط إذا آلت الخلافة إلى هشام الولد. وقد عبر المصحفي عن هذا المنحى حين قال لأصحابه ومستشاريه: «إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة لنا، وإن بدلنا استبدل بنا»[2]. وعلى هذا تذرع هؤلاء بالشرعية ولاذوا بقسم البيعة واحتموا بحجة الدفاع عن مصالح الأمير الصغير فحملوا راية هشام الثاني المؤيد بالله.

ساعة وفاة الحكم بادر المخصيان الصقلبيان فائق وجؤذر المقربان منه والمتسلطان على شؤون القصر والحشم والحرس الخليفي إلى إخفاء الخبر عن الجميع حتى عن نساء الخليفة وأولاده. ذلك ان الصقالبة كانوا يرون أن لا تؤول الخلافة إلى ولي العهد هشام وإنما إلى عمه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر المعروف بقوته ورجولته وكرمه[3]. اعتقدا إنهما بذلك يضمنان بقاء نفوذ الصقالبة واستمرار قوتهم وامتيازاتهم باعتبار ان المغيرة سيكون دوماً حليفاً لهم مديناً بخلافته لقوتهم ولمبادرتهم. اتخذا للأمر عدته واستدعيا كبير وزراء الحكم، جعفر المصحفي فأبلغاه بنبأ وفاة الخليفة وأعلماه بما عزما عليه فوعدهما خيراً وتظاهر بالموافقة. أسرع المصحفي إلى دعوة كبار رجال الدولة من عرب وبربر ونقل

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٨٧.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ٨٦.

(٣) الذخيرة، ابن بسام، الجزء الرابع، القسم الأول، صفحة ٥٩.

إليهم قرار الصقالبة بما يمثله ذلك من تهديد لمصالحهم ومن إثارة لحساسيات عنصرية كانت شديدة الحدة، فقر رأيهم جميعاً على تفادي وقوع السلطان بأيدي الصقالبة ومن يواليهم والإسراع في العمل فتكفل محمد بن أبي عامر بالتصدي للصقالبة بصورة جذرية ومباشرة، وتعهد بقتل رجلهم المغيرة. وفعلاً قتله بوحشية لا مبرر لها. وحتى لو أخذنا بما أشار إليه ابن بسام من إن الأنظار كانت تتجه منذ أمد نحو المغيرة وإنه كان «ممن أشير نحوه بالأمر بأسباب باطنة، فأخذ له أهبته»[1] فمن الثابت والمؤكد ان الرجل كان حتى ساعة مقتله بعيداً عما يجري، وجاهلاً بما كان يراد له ويدبر للبلاد في القصر. مقتل المغيرة كان ضربة موجعة لنفوذ الصقالبة العريض وقاضياً على مبادرة فائق وجؤذر اللذين سرعان ما أدركا الأبعاد الحقيقية لما حدث فتراجعا عما أراداه وتم نقل الخلافة إلى الصبي هشام في سنة ٩٧٦ م (٣ صفر ٣٦٦ هـ) وما كان قد جاوز الثانية عشرة من عمره. قام بأخذ البيعة له وزير أبيه جعفر المصحفي ومعه صاحب الشرطة محمد بن أبي عامر دون أية معارضة جدية، إذ بعد مقتل المغيرة المفاجىء ما تجاسر أمير أموي، على كثرة عددهم ووفرة مؤهلات بعضهم، على الظهور على مسرح الأحداث مخافة بطش الفريق المسيطر في دار الحكم.

بلاد الأندلس كانت آنذاك في أحسن أحوالها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. أوجز صورتها آنذاك المؤرخ ابن الخطيب بقوله: «بويع ولي عهده هشام المؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى، وأدركت الجنى، وبلغ طورها وانتهى دورها، فكانت كمامة ثم زهرة بسامة، ثم ثمرة بهية، ثم فاكهة شهية... فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه... والمباني قد بلغت السماء سمواً، وزاحمت الكواكب علواً، والبلاد قد بلغ فيها إلى أقاصي الاهتمام، وفرغت بناتها من لبنات التمام، والآثار الصالحة قد تخلدت والمآثر

---

(١) الذخيرة ابن بسام الجزء الرابع القسم الأول صفحة ٥٩.

الواضحة قد تعددت»[1]. أما هشام الثاني المؤيد بالله الذي صارت إليه خلافة الأندلس فما كان على صورة البلاد من النضوج والكمال والمقدرة ولا كان رجل تلك المرحلة. بل في الواقع كان دون المهمة وأقل مما يفترض في الجالس على عرش الخلافة من كفاءة وخبرة ورجولة. ويصفه لنا ابن الخطيب بقوله: «إذ كان في نفسه وأصل تركيبه، مضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر مجالسة النساء ومحادثة الأماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات، فكم ألقى بخزائنه من ألواح منسوبة إلى سفينة نوح، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحق، ومن خفاف منسوبة إلى ناقة صالح»[2].

وعلى هذا بات واضحاً ان السلطان الحقيقي قد آل منذ ساعة إعلان خلافة هشام المؤيد إلى الرجلين القويين جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر المختلفين في المزاج والخلق والعقلية، والمتفقين على التعاون ولو مرحلياً لصيانة مصالحهما الخاصة. وكانت من وراء ستار، وبغباء وقصر نظر لا حدود لهما، تدعم هذا الحلف الثنائي وتباركه وتمده بأسباب القوة والبقاء، السيدة الكبرى «صبح» أم هشام.

والواقع إنه منذ صارت الخلافة إلى هشام الثاني بدأت مرحلة جديدة في تاريخ دولة الإسلام في الأندلس وفي حياة البيت الأموي في تلك الديار. لقد صار السلطان الفعلي إلى محمد بن أبي عامر الذي سيسيطر على الحياة السياسية خلال كل الفترة المتبقية من القرن العاشر للميلاد بحيث يمكن أن نطلق على هذه الحقبة أيام العامريين أو الدولة العامرية. أما الخلافة فقد صارت رمزاً للدولة وصورة للحكم والسلطان لا فعالية لها، ولا كلمة مسموعة للجالس على سدتها.

محمد بن أبي عامر المعافري:

من هو ابن أبي عامر هذا الذي أكثرنا من ذكره وترداد اسمه؟ جده عبد الملك

---

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٤٣.

(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٥٨.

بن عامر المعافري من أوائل الداخلين إلى شبه الجزيرة الإيبرية ومن رواد الإسلام في تلك الديار. نزلها مع القلائل من العرب الذين رافقوا طارق بن زياد[1] وأبلوا بلاءً حسناً في أعمال الفتوح. ومع استقرار المسلمين هناك نزل عبد الملك هذا وأهله في منطقة الجزيرة الخضراء، واقتطع لنفسه حصن طرش والأراضي المحيطة به والتابعة له قريباً من مضيق جبل طارق. ساد عبد الملك في تلك النواحي واستقر أولاده فيها، وتكاثروا وتكررت فيهم النباهة والوجاهة[2]، وصاروا مع الوقت يعرفون ببني أبي عامر نسبة إلى أحدهم أبي عامر محمد بن الوليد. مال جلهم في أول الأمر إلى العيش في أراضيهم ومن وارداتها إلى أن حل بعضهم في قرطبة يخالطون أوساط العلم والقضاء فبرع منهم كثيرون كمحدثين وقضاة وفقهاء، ونادراً ما اهتموا بالسياسة. وكان من هؤلاء عبد الله والد محمد بن أبي عامر. وقد اشتهر بانه من أهل الدين والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان[3]. سمع الحديث ورواه وكان عبد الله هذا متزوجاً من امرأة، من بني تميم المعروفين بأصالتهم وعراقة محتدهم، تدعى بريهة.

فمحمد بن أبي عامر إذاً عربي أصيل الجدين، من قبيلة معافر اليمنية القديمة العهد بالأندلس ومن بيت عرف بالعلم والفضل وإن لم يشتهر بالغنى والمنجزات العسكرية الباهرة. ولد سنة ٩٤٠ م (٣٢٧ هـ)[4] وكان حسن النشأة ظاهر النجابة. درس الأدب والفقه والحديث في قرطبة واستمع إلى أفضل أساتذتها آنذاك مثل اللغوي أبي علي القالي البغدادي والمحدث أبي بكر القرشي والمؤرخ أبي بكر ابن القوطية. أظهر خلال دراسته مواهب متميزة وذكاءً نادراً، كما عرف بين أقرانه بطموحه الواسع وهمته العالية. وقد أشار الرواة والمؤرخون إلى

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٧٥.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٨٣.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٨٣.
(٤) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ١، صفحة ٢٧٢.

انه كان منذ فتوته يحلم بالمناصب العليا والقيادة والريادة وأسر بذلك وفي أكثر من مناسبة إلى بعض أصدقائه وخلانه.

وفي مطلع شبابه وليعتاش افتتح دكاناً عند أبواب القصر الخلافي يكتب الرسائل والعرائض لأصحاب المصالح فلفت نظر من في القصر بأسلوبه الرشيق، وأدبه الرفيع، وعبارته الأنيقة الرقيقة. واختلف الرواة في التعريف بكيفية اتصاله لأول مرة بأوساط الحكم. قيل إن الخليفة الحكم استخلفه على قضاء كورة رية ثم تصرف في وكالة صبح أم هشام[1]. وقيل إن بعض فتيان القصر ممن كانوا يأنسون إليه قدموه إلى صبح فترقى إلى أن كتب عنها فاستحسنته ونبهت الخليفة إليه فولاه قضاء بعض المواقع[2]. وقيل إن اتصال ابن أبي عامر الأول بالحكم بدأ حين رشحه الحاجب المصحفي ليكون وكيلاً لولي العهد يقوم بخدمته وخدمة أمه «صبح»[3]. إنما في كل الحالات كان منذ سنة ٩٦٧ م (٣٥٦ هـ) يقوم بوظيفة مدبر أملاك الطفل الصغير عبد الرحمن بن الحكم بمرتب متواضع قدره خمسة عشر ديناراً. وكانت وظيفته الصغيرة هذه مدخلاً لتلك الصلة بينه وبين «صبح» أم الأمير والتي ستتحول إلى إعجاب متبادل وعلاقة وثيقة تفتح له دروب التقدم والعلى. كان آنذاك شاباً في السابعة والعشرين من العمر فعرف كيف يستحوذ على رضا هذه المرأة وإعجابها فعملت على رفعه بعد سبعة أشهر إلى مدبر خطة السكة، ثم أضيفت إليه مهمة الإشراف على الخزانة العامة، ثم تبوأ في سنة ٩٦٩ م (٣٥٨ هـ) وظيفة قاضي المواريث، وهي من أهم وظائف الدولة، أضيف إليها بعد ذلك قضاء أشبيلية ولبلة. وأخيراً عند وفاة الأمير عبد الرحمن صار مدبر أملاك أخيه هشام الذي سيصبح خليفة فيما بعد. وهكذا وفي سنوات قليلة وبفضل ذكائه ومواهبه وحسن تدبيره قطعاً، ولكن أيضاً بفضل ما كانت تمده به والدة الأمير من

---

(١) الذخيرة، ابن بسام، القسم الرابع، المجلد الأول، صفحة ٦٠.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٩٩.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء٢، صفحة ٣٧٣.

عطف وتأييد ودعم عند الخليفة، صارت إليه عدة من أعظم وظائف الدولة مرتبة وأجلبها للنفوذ وأقصرها طريقاً للثروة والغنى خاصة لمن كان مثله راغباً بالثروة عارفاً بأساليب الوصول إليها. والواقع إن ما أسبغته هذه المرأة على محمد بن أبي عامر، الشاب النضر الوسيم الطلعة الباهر الصفات، أثار شكوك المؤرخين قدمائهم كما محدثيهم بأن علاقة حميمة شدتها إليه إن لم يكن في حياة الخليفة الحكم فعلى الأقل بعد مماته[1] خاصة وانه كان يتفنن في إرضائها بما كان يقدمه لها من خدمات وما كان يتحفها به من نادر الهدايا والتقدمات. وقد لفتت كثرة هدايا وخدمات ابن أبي عامر إلى محظية الخليفة، كما إلى سائر نسائه وما كن يحطنه به من رعاية واهتمام، نظر الحكم الذي قال ذات يوم لبعض جلسائه: «ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه، ولا يرضين إلا ما أتاه، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب وإني خائف على ما بيده»[2]. ومع هذا فإن الخليفة إما انه ما استطاع الذهاب في شكوكه إلى حد الارتياب بطهارة محظيته الأثيرة عنده «صبح» أو انه كان قد أصبح ضعيفاً لتقدم العمر به فبات مضطراً للتغاضي عما كره والسكوت عما لا يستطيع دفعه.

الوزير محمد بن أبي عامر:

في اليوم السادس لجلوس هشام الثاني على سدة الخلافة أمر بتقليد وزير أبيه ومستشاره الأقرب جعفر بن عثمان المصحفي منصب الحجابة كما أمر بترفيع محمد بن أبي عامر من مركز صاحب الشرطة إلى منصب الوزارة وجعله رسيلاً لحاجبه جعفر في تدبير دولته[3]. والواقع إن هذا الترفيع الأخير كان ضربة موجعة

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١٨.

(١) Historia de Espana, Levi-Provencal, T IV, p. 400.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء٢، صفحة ٣٧٥.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٧٨.

للتحالف الثنائي، إذ ساء المصحفي أن يرتفع ابن أبي عامر وهو الحديث العهد بخدمة الدولة وخليفتها، والصغير السن، إلى رتبة الوزارة وفي مكانة تداني منزلته يشاركه السلطان الفعلي والنفوذ وهو الذي أفنى عمره في حمل أعباء هذه الدولة وهمومها ومشاكلها منذ أيام الناصر وعلى زمن ابنه الحكم. إنما بالمقابل ما كان ابن أبي عامر ليتوقف عند هكذا اعتبارات أو ليأخذ بالحسبان هكذا حساسيات. بل إنه بثقة لا حدود لها بنفسه وثبات ورباطة جأش جعل من قرار الخليفة هشام الثاني الخطوة الأولى في طريق اختطها لنفسه تؤدي إلى الاستئثار بالسلطان في الأندلس والتفرد بحكم هذه البلاد والتغلب على خليفتها، رأس السلطة فيها. كان يعرف إن طريقه هذه ما كانت سالكة تماماً ولا كانت خالية من العقبات والمحاذير. كان يعرف بنظره الثاقب، وعقله الراجح، ان عليه في مساره الطويل نحو هدفه أن يتجاوز الكثير من الصعاب وأن يسحق العديد من مراكز القوى. كان راغباً ومصمماً على أن يفعل ذلك. كان يعرف ان عليه أن يمكر بأهل الدولة ويقتل بعض رجالها وأن يضرب بعضاً ببعض، يستعين بالأقل خطراً على الأخطر ويشغل أعداءه ببعضهم البعض. كان يعرف انه سيكون عليه، ليصل إلى هدفه، أن يكون وصولياً بلا قيود، وأن يكون مكيافيلياً قبل أن يولد مكيافيل بقرون. كان يدرك تماماً انه في مساره عليه أن لا يدع ضميراً يعرقله أو وازعاً من أخلاق يغير دربه. كان يعرف انه سيرتكب من الجرائم ما لا حصر له ومن الموبقات ما لا عدد لها، بعيداً عن التأثر بأية مناقبية أو خلق كريم. كان يعرف منذ البداية كل ما كان عليه أن يفعل. وأيضاً كان واثقاً من انه سينجز ذلك بنجاح تشد أزره وترفع من مقدرته وترد عنه كيد أعدائه السيدة «صبح» بمحبة عميقة وبثقة لا حد لها ولو على حساب ابنها الخليفة.

كان يعرف ان أهم مراكز القوى المعارضة له والمعادية لنفوذه كانت تتمثل في صقالبة القصر والحرس الخلافي فقرر ضربهم والتخلص من نفوذهم، معتمداً على تأييد الحاجب جعفر، على ما بدأ يعتري العلاقة بينهما من جفاء، مستغلاً ما كان بين الصقالبة والحاجب المصحفي من وحشة تعود إلى حادثة مقتل المغيرة. نشر

عملاءه وجواسيسه بين صقالبة الحرس الخلافي، فاستمال كثيرين منهم بكرمه الذي ما كانت له حدود حتى بلغ تعداد هؤلاء خمس مائة غلام «فاشتد بهم أزره وفخم أمره وقدمهم في الإنزال والعطاء»[1]. وكذلك عمل على استمالة بعض البربر، وبنفس الأسلوب، فانضم إليه بنو برزال بجمعهم وصاروا من جنده. ومن الفريقين اتخذ حرساً خاصاً به استعمله في قهر أعدائه وتحقيق أغراضه والدفاع عن قصره ونفوذه. وأيضاً حرض الحاجب المصحفي ضدهم وسلطه عليهم فأعمل في كبارهم وفي كتابهم نفياً، وقتلاً، وعزلاً، كما استأثر بجل أموالهم وثرواتهم[2]. كل هذا أضعف صقالبة القصر، وأنفض من حولهم كثيرون، ودفع كبيريهما فائق وجؤذر الى عزلة مخيفة جعلت أكبرهما جؤذر يؤثر الاستقالة طمعاً بالنجاة بنفسه. قبلت استقالته، وهو يظن انه لا يجاب إلى ذلك، لعلو مكانته ثم عمد البربر من بني برزال الموالين لابن أبي عامر إلى اغتياله في الليلة ذاتها وهو في داره. أما زميله فائق فقد أبعد إلى ميورقة في الجزائر الشرقية حيث بقي منفياً حتى وفاته. بعد ذلك عمل ابن أبي عامر على مصادرة أموال وممتلكات من بقي صامداً من أكابرهم وأعمل القتل والاغتيال بمن استشعر خطرهم إلى أن كسرت شوكة الصقالبة عموماً وفل حدهم. وتقرباً من المصحفي، لحاجته لعونه ومساعدته، وثمناً لدوره الأساسي في نكبة الصقالبة، جعله يتقلد أمر القصر والخدم والحريم. وقد يبدو هذا التصرف من ابن أبي عامر غير منطقي وغير متوافق مع آماله وخططه المستقبلية إلا انه في الواقع كان مطمئناً على نفوذه في أوساط الخليفة بما يكفي لما كان يعرفه من عظم حب أم الخليفة له وتأييدها لنفوذه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نكبة صقالبة القصر رفعت من قدر ابن أبي عامر في نظر الأندلسيين عموماً، وأهالي قرطبة بصورة خاصة، الذين ما أحبوا هذه الفئة الغريبة، الدخيلة، المتغلبة على شؤون القصر والبلاط ولا استساغوا كثيراً ما رأوهم فيه من عز وثروة وجاه.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٩١.

(٢) الذخيرة، ابن بسام، المجلد الرابع، القسم الأول، صفحة ٦٠.

إنما مع هذه الانتصارات المحلية وذات الطابع الداخلي، كان ابن أبي عامر يرى إنه إذا كان يريد فعلاً مواصلة التقدم والارتقاء في طريق النفوذ والسلطة فما من شيء يساعده أكثر من انتصارات يحققها على الإسبان في الشمال وفي ساحات القتال بالذات، خاصة وانه كان حتى ذلك الحين قد أبدى مواهب مدهشة في كل الميادين إلا العسكرية منها. وبذكائه المعهود وخبرته في اقتناص الفرص انقض على مناسبة عظيمة لاحت له. ذلك ان النصارى الإسبان بعد وفاة الحكم المستنصر مباشرة، اعتقدوا ان مرحلة انتقال الحكم عند الأندلسيين وما يرافقها عادة من اضطراب في قرطبة ربما شغلت سادتها والقوى الفاعلة فيها عن حماية الحدود معهم. وعلى هذا أخذ بعض سادة وفرسان جليقية يغيرون على الحدود في بعض مناطق ضعفها، في النواحي الشمالية والشرقية، بين نهري التاج والدويرو. وأكثر ما تعرضت لهذه الغارات قلعة رباح وأحوازها التي استنجد أهلها بالحاجب المصحفي فما وجدوا عنده «غناء ولا نصرة... مع وفور جيش السلطان يومئذٍ وجموم أمواله»[1]. إهمال الحدود من قبل رجل الدولة الأول المصحفي، لانشغاله بأمور الحكم الداخلية وبالصراعات بين مراكز القوى، ما كان مستساغاً لدى الأندلسيين وفي نفس الوقت أثار مخاوف الأوساط الحاكمة في قرطبة وخاصة السيدة «صبح» والدة الخليفة. وأمام تردد الحاجب، وجل أكابر الدولة عن مجابهة الخطر المتزايد عرض ابن أبي عامر أن يذهب هو على رأس حملة شرط إطلاق يده في أن يختار من يشاء من الرجال ليخرج معه وأن يتجهز للغزوة بمائة ألف دينار. في شباط سنة ٩٧٧ م (رجب ٣٦٦ هـ) كان له ما أراد فخرج من العاصمة وسار شمالاً إلى أراضي قشتالة ثم إلى ناحية شلمنقة حيث ألقى حصاراً شديداً على حصن الحامة (Los Banos اليوم) وأخذ ربضه وغنم

---

(١) الذخيرة، ابن بسام، المجلد الرابع، القسم الأول، صفحة ٦٢.

(٢) الذخيرة، ابن بسام، المجلد الرابع، القسم الأول، صفحة ٦٢ ـ ابن عذاري البيان المغرب، جزء ٢، صفحة ٣٩٤.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٩٤.

وسبى وقفل راجعاً إلى قرطبة بعد ثلاثة وخمسين يوماً من خروجه منها، تجلله آيات النصر والفخار.

هذه الغزوة، على ضآلة ما أنجز خلالها على الأرض، كانت محطة هامة على دروب تقدم ابن أبي عامر نحو الاستئثار بالسلطان. ذلك إنها أبرزت كفاءته النادرة كقائد عسكري وأظهرته أمام الأندلسيين بمظهر القادر الوحيد في الدولة على متابعة سياسة الناصر والحكم المستنصر في ممارسة القوة والحزم بوجه الممالك الإسبانية في الشمال، في ظل خلافة هشام الثاني الصغير سناً ومقدرة وكفاءة. وأيضاً أتاحت له إقامة أول اتصال مباشر بينه وبين العسكريين، والجنود منهم خاصة، الذين أسرهم بجوده «وكرم عشيرته وسعة مائدته، فأحبوه والتفوا به وكثر إحسانه إليهم وأفضاله عليهم»[1].

وبذكاء وشجاعة استغل انتصاره هذا إلى أبعد الحدود وبسرعة مدهشة. لقد صمم على أن يضرب ضربته الكبرى، فيقضي على من أحسن إليه سابقاً وكان طريقه إلى داخل محيط الحكم والسلطان، جعفر المصحفي، الذي صار يرى فيه الحاجز الأهم والأقوى دون تفرده بالسلطان. كان يعرف قوة الحاجب ورسوخ جذوره في أجهزة الدولة ومؤسساتها فاعتقد ان عليه أن يتحالف مع قوة عسكرية كبيرة يوازن بواسطتها قوة خصمه، كما فعل حين استعان بالمصحفي للقضاء على الصقالبة. على هذا تقرب من غالب بن عبد الرحن الناصري والي مدينة سالم، سيد فرسان الأندلس في عصره وأشجع قادتها والرجل الذي ربض دوماً عند حدودها الشمالية يرد بشجاعة نادرة عدوان الإسبان عن ثغور دولة الإسلام. استغل ما كان بين غالب والمصحفي من عداوة ومنافسة، زاد في حدتهما ما كان الحاجب يتهم به سيد مدينة سالم من تقصير وتهاون في مدافعة النصارى بعد وفاة الخليفة الحكم، وأخذ يهتم بشؤون غالب ويرعى مصالحه داخل القصر الخليفي. نجح

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٩٤.

ابن أبي عامر في رد التهم عن القائد الناصري وانتزع له من وراء ظهر الحاجب لقب ذي الوزارتين، منحه إياه الخليفة[1]. ليس هذا فقط وإنما صارت إليه قيادة كل جيوش الثغور بينما صيرت قيادة جيوش الداخل، أو جيش الحضرة، إلى ابن أبي عامر نفسه . ذلك ان هذا الأخير كان قد كون لنفسه نواة جيش كبير ممن استمالهم من بقايا الصقالبة بماله وكرمه ومن مرتزقة من شجعان البربر استقدمهم من عدوة المغرب من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة[3]. وهكذا يكون ابن أبي عامر وهو يعمل لاسترضاء واستمالة القائد غالب بن عبد الرحمن ما نسي نفسه فعمل على زيادة نفوذه في الداخل بجعل الخليفة يوكل إليه أمر قيادة جيوش الحضرة مما أضفى على الجيش الخاص الذي كونه لتحقيق أغراضه طابع الشرعية وجعله جزءاً من جيش الدولة يأتمر بأمره هو وينفذ أغراضه هو.

دشن ابن أبي عامر تقاربه مع غالب سيد مدينة سالم بخروجه في ثاني غزواته في شهر أيار من سنة ٩٧٧ م (في يوم عيد الفطر من سنة ٣٦٦ هـ) قاصداً حصن مجريط حيث لاقى صديقه الجديد وجيوشه وسارا معاً نحو أراضي قشتالة فاستوليا على حصن موله وحصلا على سبي كثير وغنائم واسعة[4]. وهناك توثق التحالف بين الرجلين وبرزت الرغبة في التخلص من الخصم المشترك المصحفي. وبعودة ابن أبي عامر إلى قرطبة منتصراً على إسبان الشمال للمرة الثانية خلال عدة أشهر زادت مكانته كثيراً عند أهل القصر، واستمال قلوب العامة، وزادت شهرته في البلاد مما جعل الخليفة يصير إليه حاكمية العاصمة التي كانت لمحمد ابن الحاجب المصحفي دون أن يكون لهذا علم بذلك. جاء هذا التعيين الجديد ضربة موجعة لنفوذ الحاجب المصحفي إذ صير لخصمه حاكمية

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٩٥.
(٢) الذخيرة، ابن بسام، المجلد الرابع، القسم الأول، صفحة ٦٥
(٣) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٩٧.
(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٩٧.

قرطبة مما يعني مزيداً من النفوذ ومزيداً من الهيمنة . وبذكاء مدهش عمل ابن أبي عامر على استغلال هذه الخطوة لمصلحته. فالوضع الأمني ما كان في العاصمة مستقراً إذ كان الناس في بلاء عظيم «يتحارسون الليل كله ويكابدون من روعات طراقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو»[1]. وبسرعة مدهشة سد باب الشفاعات ونشر الاطمئنان وقمع أهل الفسق والزعارات ورفع البأس عن الناس فأمنوا عادية المتجرمين[2].

ولتأكيد تحالفه مع غالب بن عبد الرحمن، سيد مدينة سالم تزوج ابنته أسماء، أجمل نساء الأندلس في عصرها، وكان لهما أعظم عرس في الأندلس جهزت فيه العروس في قصر الخليفة وبإشراف عائلته وبصورة خاصة أمه «صبح» مما أعطى هذه المناسبة بهاءً وسناءً فكان لها مردود سياسي هام. وبزواجه هذا ضمن تأييد أقوى زعماء البلاد العسكريين وحامي حمى الثغور. ثم سارا سوية في غزوة جديدة إلى أراضي طليطلة في سنة ٩٧٨ م (٣٦٧ هـ) افتتحا بعض الحصون في أحواز المدينة وهاجما بعد ذلك مدينة شلمنقة واستوليا على أحوازها وأرباضها وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بالسبي والغنائم وبعدد عظيم من رؤوس الإسبان «فزاد له السلطان في التنويه وأنهضه إلى خطة الوزارتين سوى فيها بينه وبين غالب ورفع راتبه إلى الثمانين ديناراً في الشهر»[1].

وكان من نتيجة هذا التعاون بين الوزير ابن أبي عامر وغالب قائد الثغور أن أكرم الخليفة، ربما بتدبير من الأول، غالباً ورفعه إلى رتبة حاجب في مكانة مساوية لمكانة جعفر المصحفي الذي كان يرى شمسه تذبل ونفوذه يهزل وسلطانه يضعف وهو لا يستطيع أن يرد الضربات المتوالية عليه. وهكذا في خلال أقل من سنتين رأى صديقه القديم ومنافسه المتآمر عليه ابن أبي عامر يجمع في

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٩٧.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٩٨.

يديه فوق ما آل إليه من وظائف رفيعة أيام الحكم بموافقته وربما بتدبير منه، رتبة الوزارة، وقيادة جيوش الداخل، وحاكمية العاصمة قرطبة، ورتبة ذي الوزارتين. وفوق ذلك تجمعت عنده محبة الناس والتفاف القادة وعطف الخليفة ورعاية أمه وتأييد غير محدود من قائد جيوش الثغور وسيد فرسان الأندلس غالب بن عبد الرحمن الناصري.

والواقع إن الحاجب المصحفي، بخبرته بالحكم وأهله، ما كان يجهل كيف تتطور الأمور ولا كان يتعامى عن رؤية ما يحدق به من أخطار متزايدة وإنما بدا في أواخر أيام سعده كما لو ان الأحداث تجاوزته أو كمن فقد مرونته وعجز عن التكيف مع المستجدات أو على الأقل التعامل معها بحيث يسعى لرد أذاها عن نفسه وأهله. بل قعد مذهولاً عاجزاً عن التحرك ينتظر ما تسوقه إليه الأقدار، وما يرميه به الزمن من مصير وكأنه قدر لا مرد له ولا مهرب منه. فهو ما فوجيء كثيراً حين صدرت إرادة الخليفة هشام الثاني في تلك السنة بصرفه عن خطة الحجابة والقبض عليه وعلى ولده وأسبابه وابن أخيه هشام. وما تردد ابن أبي عامر في استغلال محنة الرجل بحقد غير مبرر وأبعد ما يكون عن الشهامة والرجولة حيال رجل له عليه أفضال كثيرة، ليس أقلها انه هو الذي قدمه للحكم وأهله وهو الذي قاد خطواته الأولى نحو التقدم والعلى. بل أكثر من ذلك طالما عبر تجاهه في محنته عن كراهية أبعد ما تكون عن الإنسانية. استصفى أموال آل المصحفي وانتهك حرمهم وأورد إليهم النكبات المتكررة وما تردد في قتل هشام، ابن شقيق الحاجب، وطارد سائر أقربائه. وأمعن في إذلال جعفر وتعذيبه سنوات عديدة يحبسه مرة ويطلق سراحه أخرى حتى لقي حتفه في سجون ابن أبي عامر وبتدبير منه على الأرجح[1].

وقد اتبع الخليفة هشام المؤيد بالله الأمر بالقضاء على الحاجب المصحفي

---

(١) الذخيرة، ابن بسام، مجلد ٤، قسم ١، صفحة ٦٢ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٠٣.

قراراً. بترفيع الوزير ابن أبي عامر إلى رتبة الحجابة مما جعله على الصعيد الرسمي الرجل الثاني في دولة الأندلس بعد الخليفة. إلا انه عملياً صار رجل البلاد القوي وسيدها دون منازع، يقبض بقوة وحزم على سياسة الدولة، ويتولى قيادة جيش أحسن تدبيره واختار رجاله من شجعان البربر الموالين له شخصياً ومن مرتزقة الصقالبة والإسبان النصارى يوالونه وحده دون سواه لما كان يجود به عليهم من مرتبات ثابتة ولما كان يغدق عليهم من عطايا وهبات.

كانت نكبة المصحفي إنجازاً رئيسياً في مسار ابن أبي عامر في طريق التفرد بالحكم، إذ بها أزال آخر مراكز القوى السياسية في العاصمة التي كانت تحول دونه والاستئثار بالسلطان. ذلك ان الخليفة هشام الثاني المالك الشرعي للسلطان، ما كان يظهر وهو يقترب من سن الرشد أية بادرة تنم عن نضوج فكري وعن ذكاء ورغبة في ممارسة بعض أمور الحكم. بل على العكس من ذلك فإن عزلته داخل القصر، بتواطؤ من أمه، ومعاشرة القيان والجواري والخدم أفسدت خلقه وأضعفت رجولته وحدت من قدراته العقلية. والغريب أن «صبح» على ذكائها ودهائها كانت حتى ذلك الوقت ما تزال دعامة ابن أبي عامر الأساسية داخل القصر، غافلة عن إدراك أبعاد الجريمة التي تشارك في ارتكابها بحق ولدها أمير المؤمنين.

منذ ذلك الوقت جنح ابن أبي عامر وبصورة واضحة ومتزايدة نحو التفرد في الحكم و «ضبط السلطان والحجر عليه والاستبداد بالمملكة وأمور الدولة، جرى في ذلك مجرى المتغلبين على سلطان بني العباس بالمشرق من أمراء الديلم... فأخذ ابن أبي عامر في تغيير سير الخلفاء المروانية في استجرار الأمر لنفسه وسبك الدولة على قالبه»[1]. وتأكيداً لاستقلاليته، حتى عن دار الخلافة، بدأ في سنة ٩٧٩ م (٣٦٨ هـ) ببناء مدينة خاصة به على مثال مدينة الزهراء التي بناها الناصر

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٠٧.

فجعلها على ضفاف نهر الوادي الكبير وأسماها المدينة الزاهرة وأقام فيها داراً لسكناه ومقراً لحكمه ومراكز للوزراء والقادة وكبار الموظفين. وحين أنجز بناؤها في سنة ٩٨١ م (٣٨٠ هـ) انتقل إليها «ونزلها بخاصته وعامته، وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل بداخلها الأهراء، وأطلق بساحتها الأرحاء. . . وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج»[1].

«المنصور» ابن أبي عامر:

مع انتقال الوزير ابن أبي عامر إلى «الزاهرة» مدينته الجديدة بدأت مرحلة مختلفة في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس وفي سيرة حياة محمد ابن أبي عامر «مَلَكَ» خلالها على البلاد، وساد على العباد، وصار أشبه ما يكون بأمير الأمراء في بغداد حين ضعفت خلافة بني العباس كما وصفه المؤرخ الأندلسي ابن عذاري. ذلك ان ابن أبي عامر استأثر منذ ذلك الوقت لنفسه بكل سلطان الخليفة وما عاد حتى يكلف نفسه عناء استشارته وإطلاعه على الهام من أمور الدولة، ولو على سبيل العلم بالشيء، وكما اعتاد أن يفعل في سنوات حكم هشام المؤيد الأولى. فقد «عطل قصر الخليفة من جميعه وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجد في خبر ألا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهي والأمر، ويشرف منه على كل داخل، ويمنع ما يحذره من الدواخل، ورتب عليه الحراس والبوابين، والسمار والمنتابين، يلازمون حراسة من فيه ليلاً ونهاراً. . . وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء، محجور الغناء، خفي الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص ولا عام. . . ولا يعهد منه إلا الاسم السلطاني في السكة والدعوة، وقد

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١١ ـ ٤١٢.

نسخه ولبس أبهته، وطمس بهجته، وأغنى النـاس عنـه، وأزال أطماعهـم منـه وصيرهـم لا يعرفونه»[1].

سياسة ابن أبي عامر في الاستيلاء على السلطـان، كل السلطـان، وفـي الاستبداد بشؤون إدارة الأندلس والحجر على الخليفة، وهو سيد البلاد الشرعي، أخـذت مع الوقت تثير شكوك غالب بن عبد الرحمن الناصري سيد مدينة سالم في حسن نوايا صديقه تجاه الخليفة، وبالتالي فإن نفوراً متزايداً أخذ يشوب علاقات الحليفين القريبين. بل أكثر من ذلك فإن مغالاة وتمادي ابن أبي عامر في التخلص من مراكز القوى ومن منافسيه عموماً بصورة لا أخـلاقية ما كانـت إلا لتـزيد في شكوك وحذر قائد الثغور من أن يأتي دوره في يوم من الأيام. يضاف إلى كل ذلك ان القائد غالب كان دوماً يحمل في أعماقه حباً كبيراً للأمويين ويعترف لهم بجميل صنائعهم معه وبما أوصلوه إليه من مركز ومكانة، وبالتالي فإنه ما كان يستسيغ كثيراً العزلة التي فرضها صهره على رأس الأمويين وسيدهم هشام المؤيد. ويبدو ان ابن أبي عامر ما كان غافلاً عن تغير عواطف حليفه تجاهه ولا كان جاهلاً بما يشد هذا الرجل إلى الأمويين عموماً من محبة وولاء مما لا يمكن أن يكون في مصلحته في المدى الطويل. ثم إن جنوح الوزير المتزايد نحو الاستبداد والتفرد في السلطان، ما كان يتعايش مع وجود غالب الناصري كقوة عسكرية كبرى تربض على الحدود الشمالية ولها في قلوب الأندلسيين عموماً من التقـدير والاحتـرام الشـيء الـكثير. إلا ان التخلص من هذا الخصـم الجـديد ما كان أمـراً سهـلاً وميسوراً. فغالب يقيم بعيداً عن العاصمة متحصناً في مدينة سالم الشديدة الولاء له، وسط جيش الثغور القوي جداً، والشديد الارتباط بقائده. ثم فوق هذا فقائد الثغور فارس لا يبارى في ساحات القتـال، وسياسـي حكيم، لا يمـكن إلا أن يحسب لمكانته وخبرته ألف حساب. ومن هنا عمد ابن أبي عامر إلى أسلوبه الأثير لديه القائم على استغـلال التناقضـات بين الرجـال وضـرب الأضـداد ببعضهـم

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١١ - ٤١٢.

البعض. استدعى من شمال أفريقيا قائداً عظيماً هو جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي، أحد أشهر فرسان عصره وصاحب المكانة الكبيرة والنفوذ الواسع في أوساط البربر عموماً والزناتيين خاصة، فنزل الأندلس ومعه جمع كبير من شجعان جنود البربر انضموا كلهم إلى جيوش ابن أبي عامر. بالغ ابن أبي عامر في إكرام حليفه الجديد وأنزله في قصر العقاب، أحد أفخم منازل قرطبة، وأوسع له في الصلات والعطايا ولمرافقيه أيضاً كما رفعه إلى مرتبة الوزارة[1]. وتقاطرت أثر ذلك وفود الفرسان والمقاتلة البربر من مختلف قبائلهم ينضمون لجيوش ابن أبي عامر القوية ويؤكدون الهيمنة البربرية على تركيبتها.

توافد جنود العدوة على العاصمة، وإبراز جعفر بن حمدون على مسرح الحياة السياسية في الأندلس، فهم غالب مدلولهما الحقيقي مما زاد في حذره تجاه صهره وأكثر من نفوره من سياسته عموماً.

وفي طريق ذهاب ابن أبي عامر على رأس جيوش الداخل في صائفة إلى أراضي الشمال الإسباني التقى الرجلان القويان وجهاً لوجه عند مدينة أنتيسة Antesa حيث دعا غالب صهره إلى وليمة في قلعتها دار خلالها بينهما عتاب تحول إلى نقاش حاد فخلاف هرب ابن أبي عامر على أثره من القلعة ناجياً بنفسه[2]. وأثر هذا الحادث باتت المواجهة العسكرية بين الرجلين هي الطريق الوحيد لحسم الموقف بين الأثنين. ولما كان غالب يعرف كثرة جنود خصمه، خاصة بعد أن انضمت إليهم جموع من البربر ومعها الفارس الشجاع جعفر بن حمدون الأندلسي رأى أن يتحالف مع بعض جيرانه من ملوك إسبانيا النصرانية، يستقوي بهم على خصمه، الذين ما ترددوا في تأييده للتخلص من سطوة ابن أبي عامر التي طالما نالهم أذاها. وفي المعركة الفاصلة التي دارت بين جيوش الحضرة بقيادة ابن أبي عامر نفسه وجيوش الثغور بقيادة غالب بن عبد الرحمن تؤيدها وتشد أزرها

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، حزء ٢، صفحة ٤١٦.
(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٦٢.

بعض جيوش نصارى الشمال في سنة ٩٨١ م (محرم ٣٧١ هـ) بالقرب من حصن شنت بجنت.San Vicente كادت الدائرة تدور على جيوش ابن أبي عامر لما أظهره خصمه غالب من شجاعة في القتال وبراعة في القيادة، لولا إن غالباً سقط فجأة عن جواده ميتاً دون أن يجرح أو يصاب مما أوقع الرعب في صفوف جيوشه فدارت الدائرة عليها[1]. وقد سقط في هذه المعركة كثيرون من كبارة القادة والفرسان المؤيدين لبني أمية والمعارضين لحكم ابن أبي عامر بعد أن بالغت جيوشه في التنكيل بالعساكر المهزومة. وقتل أيضاً بعض أكابر السادة الإسبان ومقدميهم ومنهم راميرو سيد نبرة.

والواقع إن معركة شنت بجنت أزاحت من طريق ابن أبي عامر آخر ما ظن انه قد يعرقل طموحه ويؤخر استبداده الكامل بالحكم والسلطان. لذا قرر التشبه بالملوك والارتفاع عن سائر أقرانه من الوزراء والقادة والحجاب فسمى نفسه «المنصور» ودعي له على المنابر بعد اسم الخليفة مباشرة. «فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده، وينحنون له عند كلامه ومخاطبته، فانقاد لذلك كبيرهم وصغيرهم... فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب وشاركه في تلك المذاهب حتى تناهت حاله في الجلالة وبلغ غاية العز والقدرة»[2]. ومنذ ذلك الحين صار يعرف باسم الحاجب محمد بن أبي عامر المنصور بالله وبذا حمل لقباً ملوكياً بصورة رسمية وصارت الكتب ترسل من قبله إلى الحكام والملوك مقدمة اسمه على أسمائهم.

ويبدو ان نزعه إلى الاستبداد وميله إلى التفرد في الحكم والسلطان جعلاه يضيق ذرعاً بأي نافذ أو كبير في الأندلس يمارس بعض نفوذ، أو بعض سلطان، حتى ولو كان قريباً منه وحليفاً له ومفضلاً عليه بالعون والمساعدة. ومن هنا ما

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ٩٢ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١٧.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ١٨.

تحمل كثيراً وجود جعفر بن حمدون الأندلسي إلى جانبه في قرطبة رغم ما حمل إليه من تأييد واسع لقبائل البربر له ولحكمه، ورغم ما لعبه من دور أساسي في إزالة خصمه القوي غالب بن عبد الرحمن. دعاه إلى وليمة في قصره، وهو يضمر المكر والحيلة لقتله، وجعله يكثر من الشراب حتى فقد وعيه. ولما انصرف في جوف الليل مع بعض أصحابه وغلمانه دس له من قتله في الطريق غيلة، وهو لسكره عاجز عن المقاومة والدفاع عن نفسه، وكان ذلك في سنة ٩٨٣ م لثلاث خلون من شعبان من سنة (٣٧٢ هـ)[١]. ومع ان المنصور تظاهر بالأسى عليه والحزن الشديد لفقده إلا ان الناس، كل الناس في الأندلس، عرفوا أية جريمة أقترفها سيدهم وأي نكران للجميل حل بالفارس المغدور، إلا انها طريقة ابن أبي عامر في التخلص من أعدائه وربما أحياناً في مكافأة أصدقائه ومن يحسنون إليه، مما ألفه معاصروه وما عادوا يستغربون حدوثه.

بعد سنوات قليلة من هذا الحدث بات المنصور يضيق ذرعاً حتى بما تبقى في البلاد من مراكز قوى ثانوية تعايش معها وقبل بها من سبقوه من حكام أمويين. لقد صار يعتبر مجرد وجودها غير متلائم مع ما طالما سعى إليه من وحدة للحكم والسلطان في يده ومع النظام الذي أقامه في قرطبة على مقاسه ووفق مزاجه الاستبدادي. في سرغوسة وأحوازها من الثغر الأعلى كان بنو هاشم التجيبيون يحكمون منذ أيام الأمير عبد الله باسم سلطات قرطبة، معترفين بسيدها، مقدمين لحكومتها دائماً الطاعة والولاء[٢]. إنما في الواقع كان هؤلاء دوماً، بموافقة قرطبة أو بإغضاء منها يمارسون بعض الاستقلال في الشؤون المحلية، تفرضها طبيعة منطقة الثغر الأعلى من بعد عن العاصمة، ومن اتصال دائم بجيران الشمال من الإسبان النصارى. وما كانت هذه الظاهرة هي الوحيدة في مناطق الثغور إنما كانت هناك مراكز قوى أخرى أقل أهمية تمارس نفس الاستقلال المحلي على

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١٩.

(٢) الدولة العامرية، محمد عبد الله عنان، صفحة ٦٠.

امتداد الحدود مع الإسبان النصارى. وربما كانت قرطبة في أكثر الحالات راضية عن هذا الواقع لحاجتها إلى هذه القوى العائلية لتكون خطاً دفاعياً أولاً تجاه النصارى، ومراكز مراقبة دائمة لحماية الحدود. على أيام المنصور ساد في سرغوسة، من عائلة بني هاشم، عبد الرحمن ابن مطرف التجيبي. تعامل هذا، في البداية على الأقل، مع سلطات قرطبة على طريقة أسلافه فاعترف بسلطانها وأخلص لها الولاء. إنما نهج المنصور الاستبدادي وإصراره على حكم الأندلس حكماً مركزياً قوياً من مقره في «الزاهرة» وتوسله تحقيق ذلك بسلسلة طويلة من أعمال القتل والاغتيال ما راقت كثيراً لمراكز القوى الصغيرة المنتشرة في أراضي الثغور وبصورة خاصة لعبد الرحمن التجيبي الذي شعر ان عليه في يوم أو آخر أن يسلم كل ما بيده من سلطان، على قلته، ورثه عن آبائه إلى حكومة قرطبة. وحين اشتدت ريبته في سياسة المنصور واشتد خوفه منه لجأ إلى إقامة نوع من التحالف اعتقد ان به يشتد ساعده ويصبح أقدر على تفادي السقوط. تحالف مع أمير مرواني كان والياً على طليطلة ينقم هو الآخر على المنصور استبداده ويخشى بأسه. وكذلك استقبل في سرغوسة عبد الله أحد أبناء المنصور، وكان كارهاً لأبيه متمرداً على سلطانه، وذلك محاولة منه للإفادة من دعمه ودعم أعوانه ومن يؤيدونه من المعارضين في قرطبة لنظام المنصور. إلا ان هذا الأخير، وكانت له عيون وآذان في كل مدينة وقرية ترصد تحركات أخصامه ومعارضيه، عرف بما يعده التجيبي فاستدعى ولده عبد الله واستأنف له كثيراً من التقديم والمبرة، خديعة ومغالطة، كما صرف المرواني عن طليطلة صرفاً جميلاً ثم ألزمه داره[1]. وفي تلك السنة ٩٨٩ م (٣٧٩ هـ) خرج على عادته بصائفة إلى الشمال الإسباني فلاقاه التجيبي عند مدينة وادي الحجارة مع رجاله عملاً بالتزامه بطاعة قرطبة وخليفتها، للمشاركة في الصائفة. استغل المنصور شكاوى تقدم بها بعض أهالي الثغر الأعلى، ربما بتدبير منه شخصياً، ضد عبد الرحمن التجيبي فعزله عن ولاية

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة٤٢٣.

سرغوسة ، وعين مكانه ولده لكي لا يفقد ولاء سائر التجيبيين وما كانوا قلة في تلك المناطق . وما لبث بعد ذلك أن أمر بقتله ، بين يديه[1] ، حين عاد إلى قصره «الزاهرة» في قرطبة . وبذلك قضى على ذلك الرجل الذي سولت له نفسه آنذاك انه يستطيع أن يكون قوة حقيقية تعارض المنصور أو على الأقل تشاركه في اليسير من سلطانه . والأشنع من ذلك ان المنصور ما لبث بعد عام من ذلك تقريباً أن دبر اغتيال ابنه عبد الله لاستمراره في الحذر من نواياه تجاهه ولشكه في صدق ولائه لنظامه . وبعد ذلك ، إما لأنه ندم على ما فعل أو لأن القتل والاغتيال صارا عادة وتقليداً دبر مقتل الرجلين اللذين نفذا بأمره اغتيال ولده[2] . وفي كل حال يبدو إن مقتل ولده عبد الله ، على ما كان له من مبررات شرعية بالنسبة إليه ، كان أمراً مريعاً أظهره أمام الأندلسيين بمظهر من لا يتورع عن موبقة مهما كبرت لصيانة حكمه وسلطانه فازداد «هيبة وملئت قلوب الناس منه ذعراً» .

وبعد عشر سنوات على تلقبه بالألقاب الملوكية وحمله لقب «المنصور» وإجبار المتعاملين معه من أكابر الدولة على التقيد بالقوانين والأعراف الملوكية في مكاتبته والتوجه إليه ، أي في سنة ٩٩١ م (٣٨١ هـ) اتبع تصرفه بإجراء لا يقل عن الأول جرأة وخطورة . لقد رشح ولده عبد الملك لولاية عهده ، جاعلاً منصبه وراثياً ، وأقلع هو عن استعمال لقب الحاجب الذي فوضه إلى عبد الملك كما فوض إليه القيادة العليا للجيوش وصير معها سائر خططه إليه[4] . وهذا التصرف كان على درجة كبيرة من الخطورة إذ وضع نفسه من الناحية القانونية في مرتبة أعلى من مرتبة الحجابة وما كان في الأعراف والعادات الأندلسية فوق حاجب الأندلس سوى الأمير (أمير الأندلس أولاً ثم أمير المؤمنين الخليفة) فهل كان يطمع بالاستيلاء قانونياً ورسمياً على الخلافة بعد أن سلب صاحبها كل سلطاته وكل

---

(١) البيان المغرب ، ابن عذاري ، جزء ٢ ، صفحة ٤٢٣ .

(٢) (٣) البيان المغرب ، ابن ذاري ، جزء ٢ ، صفحة ٤٢٥ .

(٤) البيان المغرب ، ابن عذاري ، جزء ٢ ، صفحة ٤٣٨ .

صلاحياته وصيره أسير قصره الخليفي، لا قول له ولا إرادة ولا رأي؟. لقد رأينا في السابق أنه ما كانت لمطامع هذا الرجل حدود ولا كانت لأهدافه وغاياته قيود. لقد جمحت نفسه أحياناً، مأخوذة بنشوة الانتصارات المتلاحقة إلى جعل أنظاره تتجاوز حتى حدود شبه الجزيرة الإيبرية وتعبر البحر الأبيض المتوسط، متجاهلة كل الحواجز الجغرافية والسياسية والعسكرية آنذاك، فتصل إلى التفكير بإعادة وحدة دولة الإسلام في كل أرض الإسلام تحت سيادته وفي ظل نظامه. لقد منى نفسه ذات يوم بملك مصر والحجاز إذ ردد في أكثر من مناسبة:

منع العين أن تذوق المناما حبها أن ترى الصفا والمقاما[1]
لي ديون بالشرق عند أناس قد أحلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأماني، وإلا جعلوا دونها رقاباً وهاما
عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشآما

إلا انه في النهاية لا بد من الاعتراف بان الرجل كان دوماً على درجة عظيمة من الحكمة والتعقل، قادراً في كل الحالات على إقامة موازنة بين أطماعه وآماله وبين الواقع. ولعل مرد ذلك بالدرجة الأولى لمعرفته الوثيقة بأيام العرب وتاريخهم وخلافاتهم وحساسياتهم. ومن هذا الباب ومن باب الحيطة والحذر حافظ دوماً لهشام الثاني المؤيد بالله على اسمه الخلافي وعلى وجوده. لقد كان يدرك تماماً ان الناس في الأندلس كانت ما تزال تحمل الكثير من الحب والولاء لبني أمية، وهم ما كانوا مستعدين لتقبل انتقال الخلافة إلى بيت، على عراقته وكرم محتده، يعتبر بالنسبة للأمويين متواضعاً نسبياً، هو بيت أبي عامر. ثم إن المنصور كان يعلم تماماً ان آل أبي عامر هم من اليمنية وهو لا يريد أن ينكأ جراحاً، كثيراً ما نزفت منها الدماء في الأندلس في صراعات القبائل العربية وانقساماتها بين قيسية ويمنية. وعلى كل فإن بقاء هشام في سدة الخلافة ما كان ليغير شيئاً أو ليحد مما صار لابن

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١٠ ـ نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٤٠٦.

أبي عامر «المنصور» من نفوذ وسلطان. وهو ليبرر تصرفه حيال الخليفة كان يشيع دوماً «إن السلطان فوض إليه النظر في أمر الملك وتخلى له عنه لعبادة ربه» وإنه ما احتوى الملك كأنه له إلا بناءً لرغبة هذا الخليفة نفسه وتحقيقاً لإرادته ولمساعدته على التفرغ لأمور دينه.

ويبدو ان آخر تحد لسلطانه وأخطر عاصفة واجهت نظامه، هبت عليه من حيث ما كان ينتظر وبالذات من المرأة التي طالما أحبته والتي فتحت أمامه طريق النجاح والمجد والتي كانت دعماً له في جل مغامراته. في السنوات الأخيرة من حياته وبعد كل ما صار إليه من مجد ونفوذ وسؤدد ما عادت «صبح» أم الخليفة هشام تجد لنفسها عنده، وفي محيط حياته، المكانة التي تريد والحظوة التي كانت تعتقد انها تستحق بعد كل ما قدمت من خدمات. فالمنصور في السنوات الأخيرة من حياته ما عاد ذلك الشاب الجميل الطلعة، المقبل على الدنيا، الساعي إلى التقدم والمجد، ولا «صبح» بقيت تلك المرأة البارعة الجمال، المتقدة العواطف والأحاسيس، المندفعة وراء أهوائها وغرائزها، وبالتالي فإن ما كان عند الاثنين مما يجمع ذهبت به السنون وأبدلته متغيرات الزمن. بل يمكن القول بانه منذ استقل المنصور بسكن مدينته «الزاهرة» وأقام لنفسه مجتمعاً خاصاً، بقيت صبح خارجه، لإقامتها في القصر الخليفي مع ابنها، بدأت تشعر بشيء من النفور من صديقها القديم ابن أبي عامر. ثم مع إقبال الدنيا عليه وتكاثر النساء في بيته ومن حوله، ومن بينهن من لم تكن أقل منها جمالاً ولا أدنى مرتبة مثل زوجته أم ولده عبد الرحمن التي أهداها له والدها ملك نبرة[1]، افتقدت بصورة متزايدة، أم هشام، المكانة الخاصة التي طالما حظيت بها كامرأة عند رجل حياتها الأول والأخير وهو أمر ما كانت لتغفره بسهولة وما كان إلا ليثير عندها ردود فعل عكسية. ثم مع تقدم العمر بها ومع تغلب العقل والإدراك عندها على العواطف والأحاسيس بصورة متزايدة بدأت تدرك أية جريمة ارتكبت بحق ولدها هشام بمسايرة ابن أبي عامر

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، جزء ٢، صفحة ١٠٤.

على حسابه. بل أكثر من ذلك مع تقدم هشام بالعمر وتجاوزه مرحلة الشباب إلى الرجولة صار يثير نقمتها وحقدها ضد صديقها القديم، ما ترى ابنها فيه من عزلة وبعد عن ممارسة حقوقه. وهذا ما صار يجعل حبها القديم يتحول إلى كره متزايد وإنما بعد فوات الأوان.

انتفضت «صبح» ولكن انتفاضتها جاءت متأخرة جداً. إذ كانت الأحداث قد تجاوزت كل قدرة لها على التحرك والتأثير الفاعل. في منتصف العقد التاسع من القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) وقبل وفاة المنصور بسنوات قليلة سيطرت وحشة على العلاقات بين المنصور والخليفة هشام، تحركه وتدفعه من وراء ستار أمه «صبح». وانتشر بعض عملاء أم الخليفة في أوساط قرطبة يشنعون على المنصور ويتهمونه بانه يريد أن يستبد بالأمر[1]. وأيضاً كثرت الاتصالات السرية بين «صبح» والمعارضين لنظام المنصور، داخل الأندلس كما في الخارج، معتمدة على تلك الأموال الطائلة التي كانت ما تزال منذ أيام الحكم المستنصر موجودة في خزائن قصر الخليفة. ويبدو أن العاملين في قصر الخليفة ساهموا إلى حد كبير في إثارة هذه الوحشة وتدعيمها بسبب ما كان بينهم وبين العاملين في القصر العامري من منافسة وحسد[2]. وما غفل المنصور كثيراً عما كان يجري في قصر هشام، وعما كان يخرج منه من مال لمحاربته، فسارع على عادته إلى حسم الأمور بصورة جذرية وسريعة. أنزل بالعاملين في القصر الخليفي ضربة موجعة ففرق معارضيه منهم، ومزقهم شر ممزق «ولم يدع في خدمة القصر إلا من استشعر له رهبة وهيبة، وأذكى العيون مع ذلك عليهم»[3].

وبسبب بقية من احترام لمقام الخليفة، ومحافظة منه على بعض الحرمات، لم يشأ أن يضرب «صبح» مباشرة وإنما أراد أن يتسلح لمواجهتها بفتوى شرعية

---

(١) الذخيرة، ابن بسام، المجلد ٤، القسم ١، صفحة ٧١.

(٢) نفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ٩٢ ـ الذخيرة، ابن بسام، محلد ٤، قسم ١، صفحة ٧١.

(٣) (٤). الذخيرة ابن بسام، مجلد ٤، قسم ١، صفحة ٧١.

وبرأي صادر عن الجماعة. دعا جمعاً من العلماء والفقهاء ورجال الدين وأعلمهم بما في قصر هشام من ثروات وبان «الخليفة مشغول عن حفظها بانهماكه بالعبادة، وأن في تضييعها على المسلمين وعلى الدولة أعظم الآفة»[1]. ولما أفتت الجماعة بان صيرورة الأموال بيد المنصور أسلم، أمر هذا ابنه عبد الملك في سنة ٩٨٦ م (٣٨٦ هـ) بدخول قصر قرطبة وإخراج ما فيه من مال. رافق عبد الملك في مهمته هذه جمع من الوزراء والفقهاء وبحضورهم أفهم الخليفة، الذي ما كان له بالفعل رأي ولا إرادة، بما عزم عليه فوافقه. وفعلاً أخرج ولد المنصور، وبوجه معارضة شرسة من «صبح» عبرت فيها عما صار في صدرها من كره للمنصور وحقد عليه، خمسة ملايين من الدراهم القاسمية، وسبعمائة ألف جعفرية من الذهب[2].

وبذا قضي على نفوذ «صبح» نهائياً ولم يسمع شيء عنها بعد ذلك سوى أنها ماتت في حياة ابنها. ويبدو أن هذا التحرك المعارض لهيمنة المنصور كان آخر صدمة جدية تلقاها نظامه فصمد لها وأثبت قوته ومقدرته على المقاومة مما جعل هذا الرجل يعيش السنوات القليلة التي بقيت له من حياته مطمئناً إلى أن ابنه عبد الملك سيخلفه في سلطانه دون أية معارضة يحسب لها حساب.

علاقات المنصور مع إسبانيا المسيحية:

هناك ظاهرة ملفتة للنظر في روايات المؤرخين المسلمين، من أندلسيين ومشارقة، الذين حملوا إلينا أخبار حياة المنصور ابن أبي عامر. إنهم في الوقت الذي أحصوا فيه كل كبيرة وصغيرة من أخبار وسيرة هذا الرجل في قرطبة، وما قام به من أعمال ومؤامرات وما ارتكب من موبقات للوصول إلى الحكم، أهملوا الكثير الكثير من إنجازاته العسكرية، التي كانت سبب شهرته، ومحل فخره واعتزازه، ودعامة نظامه لدى جماهير الأندلسيين. بل نراهم يركزون على أخبار

(١) الذخيرة ابن بسام مجلد ٤ قسم ١ صفحة ٧١.
(٢) الذخيرة، ابن بسام، مجلد ٤، قسم ١، صفحة ٧٣.

حياته الخاصة وعلاقاته الشخصية بأدق تفاصيلها مهملين عن قصد أو غير قصد تفاصيل معارك كبرى كان لها أبعاد سياسية وعسكرية فاصلة في إسبانيا بقسميها المسلم والمسيحي. في حين أجمعوا على انه خرج إلى بلاد إسبانيا المسيحية في أيام حكمه في ما يزيد على خمسين حملة بين صائفة وشاتية ما كلف أحد منهم نفسه عناء التدقيق في صحة عدد الحملات، على أهمية ذلك، فالمقري يذكر في نفحه ان عدد حملاته كان ستة وخمسين غزوة وابن الأثير ذكر انها بلغت اثنتين وخمسين صائفة وشاتية[٢]، وغيرهم أهمل مجرد تحديد رقم، وأعتقد ان أربع حملات يقوم بها المنصور تستحق من قبل المؤرخين المسلمين ما هو أكثر من الإهمال أو الإغفال. بل أكثر من ذلك إن الذين أخبرونا بهذه الحملات الكثيرة ما أمدونا بالتفاصيل الوافية عن مواعيد قيامها وتفاصيل ما دار فيها وأسبابها ومنجزاتها وأمكنة المعارك الكبيرة التي قد تكون جرت أثناءها. ويبدو انه حتى نتوصل إلى اكتشاف نسخة من الكتاب الذي وضعه المؤرخ ابن حيان في «أخبار الدولة العامرية» على ما يذكر ابن الأبار[٣]، ستظل تلك الصفحة العسكرية الناشطة من وقائع عهد المنصور ابن أبي عامر غائبة عن أعيننا بكثير من تفاصيلها وانتصاراتها وربما هزائمها. إنما مع ذلك هناك إجماع بين المؤرخين المسلمين على كثرة عدد هذه الحملات وعلى انه ما عاد مقهوراً من واحدة من غزواته. فالمقري يروي انه «ردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا ستاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية، ولا فل له جيش، وما أصيب له بعث، وما هلكت له سرية»[٤].

ويؤكد ابن عذاري ان «من أوضح الدلائل على سعده انه لم ينكب قط في حرب شهدها، وما توجهت قط عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً على

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٩٨.

(٢) تاريخ ابن خلدون، جزء ٤، صفحة ١٤٨، منشورات الأعلمي ١٩٧١.

(٣) الحلة السيراء ابن الأبار جزء ١، صفحة ٢٦٩ - Historia dores y geografos, Hispano-Arabes, Pons Boigues, 1898, p. 153.

(٤) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٣٩٨.

كثرة ما زاول من الحروب، ومارس من الأعداء وواجه من الأمم، وإنها لخاصة ما أحسب شركه فيها أحد من الملوك الإسلامية»[1]. والمصادر الأجنبية المسيحية من إسبانية وفرنجية ما كانت أكثر كرماً في الحديث عن منجزات المنصور العسكرية في أراضي النصارى. وما نقلته إلينا من تفاصيل وروايات لا يختلف كثيراً في النتائج على الأقل إلا في حالات نادرة مما أورده المؤرخون المسلمون.

لقد جعل المنصور منذ وفاة الحكم المستنصر، وصيرورة الكلمة إليه في دولة الإسلام في الأندلس بصورة عملية وقبل أن تؤول إليه رسمياً، سياسة الجهاد في أراضي النصارى الإسبان طريقاً إلى قلوب جماهير المسلمين في إسبانيا ووسيلة يدعم بها طموحاته السياسية، ويؤكد بها سلطانه الشخصي. لقد كانت حملته الأولى، أو بعبارة أصح أول حملة تخرج إلى أراضي الإسبان في الشمال أيام الخليفة هشام الثاني، هي تلك التي قادها في شتاء سنة ٩٧٧ م وكانت العادة قبل ذلك أن لا تذهب الشواتي إلى الشمال البارد، من أولى خطواته الجادة في طريق صعود نجمه في سماء الحياة السياسية والعسكرية. بل نلاحظ ان خطواته الهامة، إن في تصفية بعض خصومه أو في ارتقاء مرتبة أعلى في طريق السلطان، كانت غالباً تسبقها أو تليها غزوة إلى أراضي الأعداء يذهب بريق نصرها بما ربما يكون قد شاب سمعته عند الخاصة والعامة. إنما يجب أن لا يفهم من هذا اننا نذهب إلى حد التشكيك في وطنية المنصور وإخلاصه لدينه ولدولة الإسلام في الأندلس.

بل إنصافاً للرجل نقول من المؤكد إنه، بالرغم من وصوليته وممارساته اللاأخلاقية كان يحمل في أعماقه إيماناً راسخاً بالإسلام وتديناً شديداً كان مبرر غزواته الكثيرة في أراضي الإسبان. ويؤكد أكثر من مؤرخ على انه كان يعتني بجمع ما يعلق بوجهه وذقنه ورأسه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده يحفظه

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٢٧.

خدمه في صرة كبيرة يحملها معه اينما ذهب لتدفن معه في حال وفاته[1]. وكأنه من شدة خوفه من لقاء ربه في يوم الحساب يريد أن يحمل معه ما يشهد بما بذل في سبيل الإسلام ليكون شفيعاً له عند الله. وكثيراً ما تمنى أن يموت فقط في ساحات الجهاد في خدمة الدين الذي أحب، وبه آمن. ويبدو انه كان هناك تناقض واضح في أعماقه بين تعلقه بالدنيا والسعي وراء أمجادها وبين خوفه من الله وإيمانه بدينه. فهو كان يعرف ان ممارساته اللاأخلاقية ما كانت تتوافق مع حبه لله ومن هنا رأيناه «يتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة من أبيه وغزل بناته»[2]. وهو بذلك يعترف بصورة ضمنية ان كل ما جمعه في دنياه ما كان حلالاً ولا كان متوافقاً مع شرائع السماء وبالتالي فهو لا يريد أن يحمل إلى آخرته إلا مع ما لا يشك في طيب مصدره.

وهنا أيضاً نطرح سؤالاً أثرناه أكثر من مرة في غير هذا المكان. هل كانت غزوات ابن أبي عامر تنطلق من سياسة محددة ذات أبعاد واضحة؟ وهل كان المنصور يريد فعلاً من غزواته الوفيرة العدد تحقيق مكاسب على الأرض خاصة وانه كان في أيام دولته دوماً في موقف أقوى من أخصامه ملوك إسبانيا النصرانية. بل أكثر من ذلك كان في أكثر الحالات هو الذي يبادر إلى الحرب، وكان المنتصر دوماً وبالتالي يفترض أن يكون هو الذي يعرف سبب الحرب وهو الذي يحدد لها الغاية والهدف. إذا نحن نظرنا إلى نتائج حملاته فإننا نجد انها ما كانت مختلفة عما مارسه أسلافه مثل عبد الرحمن الثاني والخليفة الناصر من شواتي وصوائف كانت تخرج من أراضي المسلمين فتخرب وتدمر وتسبي وتغنم من أراضي الإسبان النصارى دون أن تحدث تغييراً ولو ضئيلاً في حدود دولة الإسلام في الأندلس لصالحها. ويبدو ان جل ما هدف إليه المنصور هو سحق القوى العسكرية

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٣١ ـ نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٤٠٩.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٣١.

للممالك النصرانية وإخضاع سادتها وهيمنته السياسية دون أن يفكر بالاستيلاء على أراضيها وضم بعضها أو ضمها كلها لدولة الإسلام. ومما يؤيد هذا الزعم هو انه وصل بجيوشه إلى إذلال كل القوى الإسبانية وإخضاعها لنفوذ قرطبة، كما لم يحصل مرة واحدة من قبل، ووصل بجيوشه إلى أقاصي جليقية، موطن المقاومة النصرانية ودخل قلبها النابض مدينة سانتياغو المقدسة التي ما دخلها قائد مسلم قبله أو بعده. حارب المنصور في مختلف الاتجاهات متفوقاً ومنتصراً ومع هذا بقيت حدود دولة الإسلام في الأندلس مع إسبانيا المسيحية بعد المنصور كما كانت قبله دون أي تغيير يذكر. على ان أعظم انتصاراته العسكرية حققها في مناسبات عدة لعل أبرزها:

أ ـ أشرنا فيما سلف إلى ان ملوك إسبانيا النصرانية قد أخذوا جانب غالب بن عبد الرحمن في صراعه على النفوذ مع المنصور بن أبي عامر وشارك بعضهم بنفسه في الحرب ضد سيد قرطبة. بعد انتصار ابن أبي عامر في ساحة القتال وقضائه على خصمه تابع من أيدوه وساعدوه من النصارى الإسبان، بعد أن نالهم قسط وافر من الهزيمة العسكرية، فهاجم أراضي قشتالة وليون وأشاع في أنحائهما الخراب والدمار. وكذلك قام بمحاصرة مدينة سمورة، فامتنعت عليه قصبتها ولكنه دمر سائر نواحيها، ومنها جهة دمر فيها نحو ألف قرية معروفة الأسماء، غنية بالأديرة والمؤسسات الكنسية. وعاد المنصور بعدها إلى قرطبة محملاً بالغنائم والمكاسب ليس أقلها قيمة أربعة آلاف سبية[1]. هذه الهزيمة جعلت نصارى الإسبان يجمعون جموعهم، بعد أسابيع قليلة من ذلك ويعيدون تأكيد تحالف ملوك نبرة وليون وقشتالة بوجه سلطات قرطبة مما جعل المنصور يخرج بنفسه لملاقاتهم في منصف عام ٩٨١ م (٣٧١ هـ) عند مدينة روضةRueda بالقرب من مجرى نهر الدويرو في منطقة بلد الوليدValladolid حيث أنزل بهم هزيمة مدمرة اتبعها باحتلال حصن شنت منكشSimancas العظيم. وربما عاد الفضل في سرعة

---

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار، الجزء ١، صفحة ٢١٦.

انتصار الأندلسيين وما رافق انتصارهم من تدمير، لمشاركة البربر الواسعة في هذه الحملة كما يقول الدكتور مؤنس[1]. حاول بعد ذلك بقليل الإفادة من انتصاره هذا بالإغارة على مملكة ليون واحتلال عاصمتها إلا ان موسم الأمطار والثلوج داهمه واضطره للعودة مسرعاً إلى عاصمته. على ان أبرز ما في انتصارات هذه السنة هو انه هزم دفعة واحدة ثلاث ممالك إسبانية تحالفت عليه واستولى على قلاع وحصون لها من الأهمية العسكرية ما لا حد له.

وكان من نتيجة انتصار الأندلسيين هذا على راميرو الثالث، ملك ليون، وبسبب تكرار هزائمه أمام جيوش المنصور وفقدانه أهم قلاعه وحصونه أن نقم عليه مواطنوه وقويت معارضة الأشراف لحكمه فقامت ضده ثورة عارمة أقدم على أثرها نبلاء المملكة ومقدموها على خلعه وتولية برمودو الثاني، أحد أبناء عمومته، مكانه. وما تمكن برمودو الثاني من أن يقضي على الفريق المناوىء وأن يحكم مملكة ليون إلا بعد أن تفاوض مع المنصور وتعاهد معه على أن يدفع له جعالة سنوية مقابل أن يرسل له الزعيم الأندلسي جيشاً يقيم في عاصمته ليون يخضع أخصامه ويضمن سلامة عرشه وضمانة ديمومة حكمه. وبذا باتت مملكة ليون، أقوى ممالك إسبانيا المسيحية وأقدمها وأعرقها في مقاومة دولة الإسلام في إسبانيا، تحت المظلة السياسية والعسكرية للمنصور بن أبي عامر تستمد أسباب بقاء حكومتها وصمود عرشها من جيش أندلسي ندبه سيد قرطبة لهذه الغاية.

ب ـ كانت غزوة المنصور الثالثة والعشرين واحدة من أبرز منجزاته العسكرية. لقد استهدفت أراضي كتالونيا ومرفأ برشلونة الكبير بالذات. من المعروف ان هذه المدينة كانت قد خرجت من إطار دولة الإسلام في إسبانيا منذ استولى عليها شارلمان في سنة ٨٠١ م وجعل منها ومن بعض أحوازها ما أسمي «الثغر القوطي» والذي بقي ولمدة طويلة بمثابة موقع عسكري متقدم لدولة الفرنج

---

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار، الجزء ١، صفحة ٢١٧.

في أراضي إسبانيا الإسلامية. في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد وعلى أيام المنصور بالذات كان يحكم «الثغر القوطي» الكونت بوريل الثاني.Borrell II تحت حماية شكلية لدولة الفرنج. ذلك ان دولة الفرنج، والتي كان يحكمها الكارولانجيون آنذاك كانت على درجة كبيرة من الضعف والانحلال تسير مسرعة نحو نهايتها وبالتالي كانت أعجز من أن تجعل حمايتها لكونتية برشلونة فعالة ونافذة. ويبدو ان الكونت بوريل كان على درجة من الحكمة والواقعية جعلته يفهم الوضع العسكري في منطقتها فكان يقيم منذ بداية حكمه أحسن العلاقات مع المسلمين. وعلى هذا فليست واضحة الأسباب التي جعلت المنصور يقرر غزو أراضي شمال شرق إسبانيا ومنها «الثغر القوطي» والذي كان يعرف أحياناً باسم كتالونيا. إنما المرجح ان المنصور، حفاظاً منه على سياسة الصوائف والشواتي، وباعتبار ان غزواته السابقة والكثيرة أخضعت سياسياً وعسكرياً ولو بصورة ظاهرية ومؤقتة، الممالك الإسبانية الشمالية، رأى أراضي كتالونيا الوجهة الوحيدة التي يمكنه ذلك العام توجيه جهاده نحوها. ولا بد من الإضافة بان اعتبارات سياسية داخلية ربما ساهمت في توجيه تلك الحملة وجهتها. استعد أفضل استعداد لهذه الغزوة، فجمع لها أفضل فرقه العسكرية وحشد كل ما يلزم من العتاد والسلاح ودعا لمرافقته جمعاً من الوزراء والفقهاء والشعراء والكتاب[1]، ربما ليكونوا شهوداً ورواة لأهل عصرهم وللأجيال التالية على عظمة المنصور وكبير انتصاراته. اتخذ في مساره طريقاً طويلاً فمر بمدن بسطة وألبيرة وتدمير (مرسية) من كبريات الحواضر الإسلامية في شرقي الأندلس «لاستكمال ما هنالك من الأطعمة»[2] لجيوشه في الظاهر، وفي الواقع للقيام بتظاهرة سياسية وعسكرية قصد منها على الأرجح إظهار عظمة دولته وقوة نظامه أمام أهالي هذه المناطق ومقدميها فلا يفكر أحد منهم في الخروج على حكمه أو التمرد على سلطانه. وقد تعمد أن

---

(١) الإحاطة في أخبار عرناطة، ابن الخطيب، جزء ٢، صفحة ١٠٧.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، جزء ٢، صفحة ١٠٦.

يقيم في مدينة مرسية قاعدة كورة تدمير أياماً عديدة بلغت ثلاثة عشر يوماً ـ وقيل على رواية لابن فياض ثلاثةً وعشرون يوماً[1] ـ وهي مدة كافية لاستقبال كل النافذين والولاة والحكام، وأيضاً رؤساء القبائل العربية في شرقي الأندلس. وقد اختار أن يحل في ضيافة واحد من أكبر أثرياء البلاد ليعطي لإقامته السناء المطلوب ولشخصه المهابة المناسبة. وقد تجاوب المضيف وهو أبو عامر أحمد بن خطاب المعروف بالخازن والمشهور بكونه، ذا نعمة ضخمة، وصنيعة واسعة، وهمة عالية، مع أماني المنصور فأكرمه ومن معه بما لا حدود له، بل وربما بما تجاوز الممكن والمعقول. لقد قام ابن خطاب بالمنصور «وبجنده وبخدمته جميعاً على مقاديرهم» وكان «ينفذ إلى باب كل واحد منهم كل يوم وظيفة من الدقيق واللحم والفاكهة والقضيم»[2]. لقد أخذ الجميع بضيافته من الوزير والشرطي فلم ينفق أحد منهم لنفسه طوال هذه المدة مثقال ذرة[4]. وبالغ ابن الخطاب في تكريم المنصور شخصياً فكان يجدد له كل يوم نوعاً من الأطعمة والفاكهة لا يشبه الذي قبله. وذهب المضيف في إكرام ضيفه إلى أن صنع له ماء الحمام من ماء الورد[5] والواقع ان ممارسات مضيفه لاقت صدى حسناً في نفس المنصور لأنها أتت متوافقة مع ما طالما أحب لنفسه وما اعتبر ذاته أهلاً ومحلاً له وأيضاً لأنها جاءت مناسبة ومتطابقة مع ما أراد من إقامته في شرقي الأندلس. وقد حفظ المنصور لهذا الرجل، وطيلة حياته، أفضل ذكرى وأحب الجميل. فكان دوماً يوصي موظفيه وعماله على تدمير، بحفظ ابن خطاب وتحري موافقته في كل ما يرغبه. وكثيراً ما ردد فيما بعد في مجالسه إن «نعمة ابن خطاب أحق نعمة بالحفظ، وأحرها على التغيير، وأولاها بالزيادة والتثمير»[5].

---

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ٢، صفحة ٣١٣.

(٢) القضيم: شعير الدابة.

(٣) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ٢، صفحة ٣١٢.

(٤) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ٢، صفحة ٣١٣.

(٥) الحلة السيراء، ابن الأبار، جزء ٢، صفحة ٣١٣.

في تموز سنة ٩٨٥ م (صفر ٣٧٥ هـ) ألقت جيوش المنصور ابن أبي عامر الحصار حول أسوار برشلونة[١]، في وقت كان أسطول أندلسي يحاصر مرفأها من جهة البحر. أمام هذا الحشد العسكري الضخم ما تجرأ بوريل الثاني على مجرد محاولة الدفاع عن مدينته بل غادرها وتركها لمصيرها فاجتاحتها الجيوش الأندلسية، بعد أيام قليلة ودمرتها وهدمت عمائرها وقتلت خلقاً كثيراً من أهلها كما سبت كثيرين[٢]. بعد أشهر قليلة عادت جيوش المسلمين إلى داخل الأندلس، تاركة مدينة برشلونة تنعق فيها الغربان. إنما هنا أيضاً لا يستطيع الإنسان إلا أن يتساءل عن الحكمة من حملات الصوائف والشواتي والفائدة منها. فالمنصور دخل برشلونة وأقام فيها، بعد أن أخضعها، ولو شاء أن يضمها لدولته لما وجد على أرضها من يعارضه. فنصارى الشمال صاروا إما أتباع له أو يشغلهم الاستعداد لرد أي عدوان أندلسي دائم الاحتمال على أراضيهم، عن أي أمر آخر. والكارولانجيون كانوا يعدون السنوات الأخيرة المتبقية من حكمهم في بلاد الفرنجة. ولو فرضنا بإن الغرض من هذه الحملة ومثيلاتها كان إنهاك قوى الإسبان فإنها بالمقابل أنهكت قوى الأندلسيين واستنفذت في المدى الطويل جل طاقاتهم العسكرية والاقتصادية. إنما يبدو ان كل حكام الأندلس، بما في ذلك المنصور بكل ما أظهره من ذكاء وحنكة وبراعة في القتال كما في السياسة، باتوا أسرى سياسة الصوائف والشواتي كما وضعها أوائل ولاة وأمراء الأندلس باسم «الجهاد» كهدف لذاته، عاجزين عن تطوير مفهومها مقصرين عن جعلها ذات مردود إيجابي على الأرض. وما استطاع أحد ممن حكموا في شبه الجزيرة الإيبرية حتى نزول علم الإسلام عن سارية قصر الحمراء في غرناطة تطوير مفهوم «الجهاد» وجعله مربحاً على الصعيد الأقليمي. ولو فعلوا ذلك كلهم أو جلهم لربما كان قد تغير شكل مصير دولة الإسلام في الأندلس.

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، جزء ٢، صفحة ١٠٦.

(٢) Historia de Espana, T. IV, p. 419, Levi-Provencal.

ج ـ أما غزوة المنصور الثامنة والأربعين فقد أرادها إلى أرض، كما يقول المؤرخ ابن عذاري، لم يبلغها قبله مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم[1]، فكانت إلى شانت ياقوب في قاصية جليقية حيث عز الوصول على أوائل غزاة إسبانيا من المسلمين والتي صارت مع الزمن موطناً للمقاومة ضد وجود دولة الإسلام وأيضاً دين الإسلام في كل شبه الجزيرة الإيبرية. كانت قاعدة هذه الأراضي وقلبها النابض وقدس أقدامها مدينة شنت ياقوب (القديس يعقوب) Santiago التي كان، وما يزال لها حتى يومنا هذا، مكانة عظيمة عند الإسبان لاعتقادهم ان القديس يعقوب أحد حواري السيد المسيح يرقد في كاتدرائيتها. ثم إن الأساطير الإسبانية في العصور الوسطى قد ربطت بين معجزات هذا القديس وبين نضال الإسبان القومي والديني ضد المسلمين. كانت تصوره بصورة ملاك محارب يخرج أحياناً مع مقاتلة الإسبان يساعدهم على مواجهة أعدائهم مما أعطاه مع الوقت لقب «قاتل المسلمين»[2] .Matamoros وعلى هذا تحول في نظر إسبان العصور الوسطى من مجرد قديس إلى رمز قومي ووطني. وحين صمم المنصور على احتلال هذه المدينة كان يدرك ان هذا الإنجاز سيكون تتويجاً لأمجاده العسكرية، ليس لأنه يستهدف المعارضة القومية الإسبانية، وكعبة النضال والمقاومة ضد الأندلسيين، وإنما أيضاً لوعورة طرق هذه الأرض ولطبيعتها الجبلية الصعبة ولمناخها البارد المثلج، وأيضاً ولعل هذا هو الأهم لكون ما من مسلم قبله تجرأ على اقتحامها.

خرج المنصور على رأس جيوشه في تموز سنة ٩٩٧ م (جمادي الثانية سنة ٣٨٧ هـ) من عاصمته قرطبة مخترقاً أراضي غرب الأندلس باتجاه الشمال الإسباني. وفي الطريق كانت تنضم إليه جيوش حكام مناطق الثغور المسلمين وكذلك جيوش بعض حلفائه من «القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم وعلى

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٤٣.

(٢) تاريخ الأندلس والمغرب، مختار العبادي، صفحة ٢٣٢.

أتم احتفالهم»[١] حتى وصل إلى نهر دويرو. وفي نفس الوقت كان المنصور قد أمر بإنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف باسم قصر أبي دانس.Alcacer do Sol على شواطىء البرتغال الحالية، سار على محاذاتها وعبر مجرى نهر الدويرو الكبير حتى التقى بالمنصور وجيوشه. وكان ابن أبي عامر قد جهز الأسطول «برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة» وقد عملت سفن الأسطول بمثابة جسر عبر عليه المسلمون من ضفة إلى أخرى وتزودوا بكل ما كان يحمله لهم الأسطول الأموي. وسار المنصور بعد ذلك بجيوشه نحو جليقية يفتتح المدن ويحتل القلاع والحصون دون أن يواجه مقاومة جدية من سكان البلاد أو سادتهم لأن هؤلاء كانوا في أكثر الحالات يخلون مدنهم وقراهم وأراضيهم خوفاً ورهبة قبل وصول الأندلسيين. وعند وصول المنصور إلى مقصده، مدينة شانت ياقوب، في شهر آب (شعبان) كان سكانها قد هجروها وما وجد فيها إلا شيخاً من الرهبان يجلس إلى قبر القديس يؤنسه كما قال فتركه ابن أبي عامر وشأنه[٢]. أمر بهدم أسوار المدينة ومنشآتها وحصونها واستولى على ما فيها من كنوز وتحف. وفي نفس الوقت كانت بعض فرق جيشه تتابع المسير حتى بلغت مياه المحيط الأطلسي عند مدينة كورونيا La Coruna .

بعد ذلك انكفأ نحو مدينة مليقة[٣] حيث ودع حلفاءه النصارى الإسبان وأغدق عليهم العطايا والهبات «بجملتهم على أقدارهم وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم»[٤]. ومن هناك سار عائداً إلى قرطبة مكتفياً من الغنيمة بآلاف الأسرى يحملون على رؤوسهم أبواب مدينة شانت ياقوب وكأنه يريد أن يقدم دليلاً مادياً لأهالي العاصمة على انه حقق من الأمجاد ما لم يفعله قبله أي واحد من

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٤١.
(٢) البيان المغرب، جزء ٢، صفحة ٤٤٣.
(٣) مدينةLamego اليوم على الأرجح.
(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء٢، صفحة ٤٤٣.

حكام الأندلس. ومع هذا فإن مدينة شانت ياقوب ما بقي فيها مسلم واحد وتركت تعود للإسبان سياسياً وعسكرياً لتصبح بعد ذلك بسنوات قليلة قائدة ومنطلقاً لأشرس معارضة وطنية ودينية لوجود دولة الإسلام في الأندلس.

د ـ غزوته الأخيرة، قام بها في ربيع سنة ١٠٠٢ م (٣٩٢ هـ) إلى أراضي قشتالة ووصل بها حتى أحواز مدينة برغش Burgos'، حيث انتصر وقتل وسبى وهدم على عادته، إلا ان المرض والأعياء داهماه وعاد مسرعاً محمولاً على محفة حتى مدينة سالم حيث اشتدت عليه وطأة العلة فمات هناك ودفن مجللاً بأكفان صنعت بأنامل بناته ومن خالص ماله الموروث، ومعه صرة التراب رفيقة أسفاره الدائمة، ونقش على قبره[1]:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه

كانت وفاته في ١١ آب سنة ١٠٠٢ م (٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ) عن عمر بلغ أربعاً وستين عاماً.

ولو حاولنا هنا أن نقيم هذه الغزوات لقلنا إنها جعلت منه أعظم أبطال إسبانيا الإسلامية على الإطلاق. وقد أوجز الفتح ابن خاقان ما حقق في الميدان العسكري بقوله: «تمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد بقاع، ووالى بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع»[2]. وقد قيم المؤرخ الإسباني المعاصر بيدال غزوات المنصور بما يشبه ذلك فقال: «عبر سلسلة من خمسين غزوة، بمعدل واحدة أو اثنتين في السنة الواحدة أصاب المنصور النصرانية الإسبانية في كل مراكزها الحية من مدنية ودينية. لقد عاش الإسلام معه في إسبانيا

---

(١) نفح الطيب، المقري، جزء ١، صفحة ٩٨.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٤٤.

أيامه الباهرة السناء، ونصارى الشمال صاروا إلى موقف دفاعي بائس وظهروا وكأنهم ما وجدوا إلا ليقدموا المال والسلاح والأسرى وليقيموا مجد خلافة بني أمية»[1].

إلا ان هذا كله يجب أن لا يغيب عن أذهاننا ان المردود الفعلي لكل هذه الغزوات أقليمياً وعسكرياً ما كان إلا مردوداً آنياً أفاد منه أكثر ما أفاد المنصور بالذات من حيث انه قوى نفوذه وقضى على أخصامه ومعارضيه في الداخل ورفع من مكانته عند جماهير الأندلسيين. أما بالنسبة لإسبانيا الإسلامية فقد أرهقتها هذه الغزوات اقتصادياً، وساهمت في القضاء على قدراتها وفعالياتها في المدى الطويل، بدليل إننا بعد سنوات قليلة جداً من وفاة المنصور بن أبي عامر سنرى كل ذلك البناء الذي أقامه ينهار وتنهار معه الخلافة الأموية وتعود مقاومة الإسبان النصارى أقوى من السابق وأفعل ضد دولة الإسلام في الأندلس.

علاقات المنصور مع شمال أفريقيا:

على كثرة ما جدد وابتدع فإن المنصور ما كان في سياسته حيال بلدان شمال أفريقيا عموماً، والمغرب بصورة خاصة، مجدداً ومبتدعاً. لقد ورث عن الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر خطاً ثابتاً في السياسة الأندلسية، في هذا المجال، ما استطاع أو ما أراد الخروج عنه. ذلك انه منذ أقام الفاطميون الشيعة دولتهم في شمال أفريقيا، بدأ هناك صراع مرير بين فاطميين يريدون ويرون من حقهم أن يمدوا بسلطانهم باتجاه الغرب إلى أبعد المدى بحيث يطيح بدولة للأمويين، طالما اعتبروها سالبة لشرعيتهم ومتجاوزة لحقهم، وبين أمويين يرون من واجبهم بل ومن حقهم صيانة التراث السني في تلك الأصقاع والدفاع عن ملك أقاموه بجهادهم وبسواعدهم وبدماء شهدائهم. وكان المتوسط الغربي، وكانت أيضاً أراضي البربر في شمال أفريقيا مسرحاً لهذا الصراع. وقد رأينا كيف تمكن

---

(١) la Espana del Cid, R. Pidal. TI, p. 71-72.

الخليفتان الأندلسيان من إيقاف المد الشيعي الفاطمي عند حدود المغرب الأقصى، بعد أن أصبح المغربان الأدنى والأوسط، ومعهما جل قبائل صنهاجة، تحت النفوذ الفاطمي. بل أكثر من ذلك رأينا كيف صار المغرب الأقصى، بعد أن نجح الخليفة الحكم المستنصر في القضاء على دولة الأدارسة الموالية للفاطميين الشيعة وإرسال زعيمها الحسن بن جنون لاجئاً إلى مصر، مسرحاً لنفوذ بني أمية متحالفاً مع قبائل زناتة وخاصة مع فصائلها الهامة: مغراوة ومكناسة وبني يفرن.

عندما صارت الأمور إلى المنصور بن أبي عامر كانت بلاد المغرب الأقصى تعتبر بالنسبة للأندلسيين موقعاً متقدماً لهم باتجاه الفاطميين، ومنطقة نفوذ لهم تفصل بين أراضهم وأراضي أعدائهم الفاطميين. وقد درج المنصور على اتخاذ مدينة سبتة البحرية الهامة قاعدة أساسية للجيش الأندلسي تقيم على أراضيها بعض أفضل فرقه وترسو أمام شواطئها بعض من قطع أسطوله الهام. وما عدا ذلك فقد ترك زعماء البربر المتحالفين مع الأمويين أحراراً في شؤونهم الداخلية لا يبخل عليهم بعون عسكري، ولا بمدد مادي، وأيضاً بالهدايا الشخصية والمنح والعطايا. بل أكثر من ذلك كان يبالغ في إكرام من يحل منهم في الأندلس من رؤساء قبائلهم وأيضاً من سائرهم. ذلك إنه اعتبر دوماً مرتزقة البربر المصدر الأساسي لجنود جيشه والمورد الرئيسي لتغذية صوائفه وشواتيه بأفضل المقاتلين باعتبار انه ما اعتمد كثيراً على الجنود العرب لعدم ثقته بولاء رؤساء قبائلهم لشخصه ونظامه.

وكان أول نجاح تحقق للمنصور في شمال أفريقيا، ولو انه ما كان له كبير فضل في إنجازه، حين أقدم أحد زعماء مغراوة ويدعى خزرون بن فلفول في سنة ٩٨٠ م (٣٦٩ هـ) على مهاجمة مدينة سجلماسة وأحوازها باسم الخلافة الأموية والدعاء في مسجدها للخليفة هشام الثاني المؤيد. وقد قبل منه المنصور ذلك وأكرمه بعطايا كثيرة وعينه حاكماً على الأراضي التي استولى عليها[1]، في بلاد

(١) Historia de Espana Levi Provencal T IV p. 430.

المغرب الأوسط قريباً من مناطق النفوذ الأموي.

وهنا لا بد من الإشارة إلى ان تحالف الأمويين مع قبائل البربر في بلاد المغرب ما كان يرتكز إلى دعائم ثابتة ومستقرة إذ كانت تغلب عند هذه العقلية البدوية، وتسيطر عليها نزعة الفردية والمشاكسة. وبصورة عامة ما كان زعماء هذه القبائل دائمي الولاء لحكومة قرطبة ولا كانوا في جميع الحالات مسالمين لها. إذ كانت حركات التمرد والخروج على السلطة، كما الصراع مع بعضهم البعض، ظواهر عادية ومألوفة في بلاد المغرب. وهذا كله جعل المنصور ليظل قادراً على السيطرة على الوضع هناك، لا يكتفي بقاعدة سبتة البحرية الهامة وإنما يبادر لجعل مدينة الجزيرة الخضراء في أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيبرية قاعدة عسكرية هامة قادرة على التدخل في كل وقت لضمان استقرار نفوذ بني أمية على الجانب الآخر للبحر المتوسط.

في المرحلة الأولى من حكم الخليفة الأندلسي هشام الثاني كان العزيز سيد الفاطميين في مصر مشغولاًبقضايا بلاده الداخلية، وبصورة خاصة بمقارعة القرامطة[1]، فأهمل النظر في شؤون شمال أفريقيا عموماً لبعض الوقت. لكنه ما لبث حين استقرت الأمور في بلاده أن عاد للاهتمام بشؤون الشمال الأفريقي منذ بداية العام ٩٨٠ م (٣٦٩ هـ) مستفيداً من وجود خليفة ولد في قرطبة معتقداً ان وجوده لا بد أن يورث دولته الضعف والارتباك. أوعز إلى حليفه بلقين بن زيري من رؤساء قبائل صنهاجة بمهاجمة أراضي المغرب الأقصى. هاجم الزعيم البربري مناطق النفوذ الأموي في المغرب على رأس ستة آلاف من أفضل جنوده. تحاشى زعماء زناتة الموالين للأندلسيين التصدي للمهاجمين مما سمح لهم بالوصول حتى مدينة سبتة. سارع المنصور بن أبي عامر إلى إرسال قوة عسكرية ضخمة إلى مرفأ سبتة كما أمر أسطوله الكبير بالتوجه نحو مرفأ الجزيرة القريب ومنه إلى المدينة المهددة[2]. هذا التحرك الأندلسي الحاسم والسريع ألقى الرعب في

(١) الدولة العامرية، عنان، صفحة ٥٦.

(٢) Historia de Espana, T IV, p. 431, Levi.Provencal.

قلب بلقين بن زيري فتراجع عن مشارف سبتة وعاد أدراجه إلى بلاده.

ثم عاد العزيز بالله فأوعز، أو سمح للحسن بن جنون زعيم الأدارسة، الذي كان يقيم لاجئاً عنده في القاهرة، بالعودة إلى المغرب الأقصى لاسترجاع ملكه، وأمر أتباعه البربر من بني زيري بضرورة مساعدته. وبوصول الحسن بن جنون إلى المغرب الأقصى التف حوله هناك الشيعة والمتعاطفون مع الفاطميين وكل من كانوا يعادون الخلافة الأندلسية وكذلك التحقت به جموع قبيلة يفرن الزناتية فقوي ساعده واشتد عضده. ما تردد المنصور لحظة واحدة أمام الخطر الزاحف إليه من الشرق، فندب وزيره وابن عمه الوزير عمرو بن عبد الله بن أبي عامر المعروف باسم عسكلاجة، على رأس جيش كبير، ما لبث أن اتبعه بآخر بقيادة ابنه عبد الملك. ما استطاع زعيم الأدارسة الصمود كثيراً أمام حصار قوي ألقته عليه جيوش المنصور فعرض الاستسلام وطلب الأمان على أن يعود للعيش في حمى الخليفة في قرطبة كما فعل أيام الحكم. أمنه قائد الجيش الأندلسي وحمله إلى قرطبة. إلا ان المنصور شاء أن يحسم الأمر نهائياً ويتخلص من خصم عنيد تكررت ثوراته وكثر خروجه على الدولة الأموية فتجاوز عهد الأمان الممنوح وأمر جنده بقتل الحسن بن جنون وهو في الطريق وقبل أن يصل إلى قرطبة[1] وحمل رأسه إلى العاصمة في سنة ٩٨٥ م (٣٧٥ هـ). وبذا انتهت حملة الأدارسة الموالين للفاطميين الشيعة، وفشلت محاولتهم لإحياء دولتهم في المغرب، بوجه الدولة الأموية في الأندلس وتفرق بنو أدريس وأتباعهم في البلاد وسيطر المنصور ابن أبي عامر على كل المغرب الأقصى. لا بد من الإشارة هنا إلى ان الأسلوب الذي اتبعه المنصور في التخلص من الزعيم الأدريسي كان له أسوأ الوقع بين الناس آنذاك وأساء كثيراً إلى سمعته، خاصة في الأوساط المتدينة عموماً والمتشيعة لآل البيت باعتبار ان الحسن قتل بغياً وتعدياً وبعد أن أعطي الأمان باسم المنصور ذاته من أحد قادته.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤١٩.

بعد هذا الحادث عين المنصور وزيره الداهية حسن بن أحمد السلمي على بلاد المغرب الأقصى وأناط به مهمة إعادة ما كان ربما انفرط من عقد تحالفه مع سائر البربر لأنه كان مصراً على استمرار تحالفه معهم باعتبارهم الدعامة الأساسية لبقاء نظامه في الأندلس. وأيضاً اتخذ من زعيم قبائل مغراوة، زيري بن عطية، حليفاً له وجعله مقرباً منه وأوسع له في النفوذ والسلطان لما طالما أظهره من عظيم الولاء للبيت الأموي وللمنصور. وقد زار الزعيم البربري سيد قرطبة في أكثر من مناسبة ولاقى من ترحيبه وعطفه وإكرامه ما لا حدود له. وما تردد المنصور في إحدى المناسبات في إعطاء حليفه لقب الوزارة مقدماً على سائر زعماء قبائل البربر.

إلا ان هذه العلاقة بين الرجلين الكبيْرين سرعان ما انهارت بصورة غير منتظرة بعد زيارة قام بها الزعيم البربري للعاصمة، بالغ خلالها ابن أبي عامر في إكرام ضيفه. إنما في كل الحالات يرى المؤرخون ان أمراً ما لا بد أن يكون حدث بين الأثنين عكر جو الثقة المتبادلة بينهما وأحل مكانها عداءً مكشوفاً. ويبدو أن زيري بن عطية، بعد كل ما قدم من الخدمات لتدعيم نفوذ الدولة الأموية في الأندلس كما في شمال أفريقيا، وبعد أن ساهم في تأديب وإخضاع أبناء قومه من بني يفرن لحساب المنصور، غضب لإعطائه لقب الوزير أكثر مما اغتبط. فهو أساساً ما كان يجد كافياً ولائقاً به ما كان يعطيه إياه المنصور على وفرته. وبصورة خاصة ربما وجد ان لقب «وزير» هو أقل مما يستحق وهو الأمير، ابن الأمير. ولا بد ان عواطفه الصادقة تجاه الأمويين عموماً، وهشام الثاني ابن المستنصر، ما استساغت كثيراً تغلب ابن أبي عامر، الذي طال أمده، على الخليفة وسلبه المستمر لملكه[1] وأيضاً الحجر عليه. ولا بد أن نضيف إلى ما عكر العلاقة بين الرجلين الطموح الشخصي عند الزعيم البربري والمزاج المتقلب الذي اتصف به قومه آنذاك، وربما أيضاً الحساسية القبلية البربرية مما كان يجعله يفكر

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٢١.

بالاستقلال نهائياً عن سلطان قرطبة والارتقاء بشخصه إلى مكانة، مساوية لمكانة ابن أبي عامر ما كان هو إلا أهلاً لها.

وكمقدمة لخروجه على سلطان قرطبة أقدم على بناء مدينة خاصة به هي وجدة، جنوب مليلة قريباً من الحدود الجزائرية، أقام فيها قصبة عظيمة وداراً لسكناه ثم جعلها عاصمة له وقاعدة لحكمه وجيشه ابتداء من سنة ٩٩٦ م (٣٨٦ هـ). ما كان المنصور ابن أبي عامر، بما له من عيون وبما أقام من أرصاد وأعوان في كل مكان، بغافل عن تحركات زيري ومخططاته فبادر، حين اكتملت عنده القناعة بخروجه، إلى عزله عن خطة الوزارة ثم منع عنه رواتبه وألغى تحالفه معه ورفع عنه حمايته السياسية. وفي السنة التالية ٩٩٧ م (٣٨٧ هـ) أنفد له مملوكه الصقلبي «واضح» على رأس جيش كبير، اتجه أولاً إلى مدينة طنجة حيث وافته جموع كبيرة من البربر الموالين للأمويين. وفي أول لقاء بين جيوش زيري والجيش الأندلسي هزم هذا الأخير بالقرب من مدينة طنجة فبقي واضح ومن معه مدة سنة تقريباً في الأخبية في جبل حبيب[1] ينتظرون مدداً من سيد قرطبة.

ما استطاع المنصور أن يتقبل هكذا هزيمة، مع انها لم تكن حاسمة ولا ساحقة، ولا أراد أن يعترف بها لأنه لو فعل لفقد سلطان بني أمية نهائياً على المغرب الأقصى. ذهب بنفسه إلى قاعدته العسكرية في الجنوب، الجزيرة الخضراء، ليكون قريباً من الأحداث مشاركاً في توجيهها. وفي نفس الوقت أرسل ابنه عبد الملك على رأس جيش ضم أفضل جنود الأندلس إلى سبتة حيث التقت بقايا جيوش واضح.

كانت المعركة الفاصلة عند وادي منى قريباً من طنجة حيث بشرت الوقائع الأولى للقتال بانتصار زيري ومن التف حوله من جموع بربرية إلا ان محاولة جرت لاغتيال الزعيم البربري قام بها ابن عمه الخير بن مقاتل إذ طعنه برمح في قفاه

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٢١.

وهرب[1]، ألقت الفوضى في صفوف البربر مما سهل هزيمتهم وانتصار عبد الملك وجيوش الأندلسيين عليهم. وعلى الأرجح ما كانت الجريمة التي غيرت مجرى المعركة بعيدة عن تدبير المنصور لأن هذا ما كان غريباً عن أساليبه في التخلص من أخصامه.

وبذا دان المغرب الأقصى بكامله مجدداً للأندلسيين ودخل عبد الملك المظفر ابن المنصور مدينة فاس عاصمته في تشرين ثاني من سنة ٩٩٧ م (شوال ٣٨٧ هـ) حيث أقام ستة أشهر يعيد تنظيم أمور البلاد ويوصل ما انقطع من علاقة بين أبيه وبين بعض زعماء البربر، كان العامريون يحرصون على إبقائها. وقبل أن يعود عبد الملك إلى الأندلس جعل المنصور رجل ثقته صاحب الشرطة عيسى بن سعيد والياً على المغرب.

والواقع إن انتصار العامريين في شمال أفريقيا ما وقف عند حد تأكيد سلطان بني أمية على كل المغرب الأقصى، وإنما عاد زيري بن عطية بعد أن شفي من جراحه فأظهر فعل الندامة وأخذ يتوسع على حساب أراضي قبائل صنهاجة[2]، الموالية للفاطميين، في بلاد الجزائر من المغرب الأوسط باسم الخليفة هشام الثاني، مسترضياً المنصور الذي ما لبث أن عفا عنه وأقره على زعامة ما بيده حتى وفاته. وبعده تابع ابنه المعز سياسة الولاء الصادق للأمويين ولرجلهم القوي المنصور مما أبقى السيادة الأموية على المغرب الأقصى قوية نافذة حتى أواخر أيام العامريين.

منجزات المنصور الإدارية والعمرانية:

ومع ان المنصور ابن أبي عامر ما كان صاحب السلطان الشرعي لدولة الإسلام في الأندلس طيلة الفترة التي تسلط فيها على شؤون الحكم والدولة، والتى شغلت كل الربع الأخير من القرن العاشر للميلاد وحتى وفاته، إلا أنه كان

---

(١) (٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٢١.

عملياً المسؤول الوحيد والفعلي لكل ما تم خلالها من منجزات.

أولى اهتمامه، منذ صارت إليه كلمة نافذة في شؤون الأندلس، قضية بناء جيش قوي جديد متماسك يتناسب قوة وعدداً مع ما كان يجول في خاطره من مطامح واسعة ومع ما كان يريده لدولة الإسلام في الأندلس من رفعة ومنعة. لقد خطط لإعادة بناء الجيش على أسس جديدة ترتكز لتجارب الماضي بسلبياتها وإيجابياتها. فهو ما كان يريد الإستكانة إلى النظام التقليدي الذي كان يعتمد على زعماء من العرب والبربر يقيمون في المناطق وسط مزارع كبيرة يستثمرونها بما يشبه ما كان سائداً آنذاك في البلدان الأوروبية المجاورة من نظم وأساليب إقطاعية. فكان هؤلاء يأتون مع أتباعهم كلما دعاهم الأمير للقتال ينضمون بمجموعاتهم إلى جيش الدولة فيقاتلون تحت لوائه ثم يعودون بعد انتهاء الحرب، بما حصلوا عليه من غنائم وهبات وعطايا إلى مزارعهم. ومع الوقت تحول كثيرون من رؤساء القبائل من عرب أو بربر إلى مراكز قوى عسكرية وأحياناً سياسية، كثيراً ما كانت سبباً في نشوب ثورات وحركات تمرد. بل إن هذه المراكز كثيراً ما قادت إلى ظهور نزعات استقلالية وانفصالية كادت في أكثر من مرة تذهب بوحدة البلاد في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد. وأيضاً ما كان المنصور يريد العودة إلى الاعتماد على طبقة الجند الصقالبة التي قويت شوكتها زمن الحكم المستنصر والتي كادت تصبح دولة في قلب الدولة. لقد أراد المنصور أن يبني جيشاً واحداً متماسكاً يتألف من عناصر تتلقى مرتباتها وأعتدتها ومصادر رزقها من خزانة الدولة وحدها مما كان يجعل، في نظره، ولاءها أولاً وأخيراً لهذه الدولة. وقد ركز على ضرورة القضاء على كل التجمعات القبلية العنصرية داخل الجيش الجديد فأباح وأحياناً شجع الدخول إليه بصورة إفرادية للجميع من عرب وبربر وصقالبة ونصارى إسبان ومستعربين يتوزعون في فرقه دون تمييز أو امتيازات إلا للشجاعة والكفاءة وحسن الولاء. لم يكن شديد الثقة بأبناء القبائل العربية ولا بالصقالبة، إذ كان في أعماقه يريد جيشاً موالياً له شخصياً، قبل الخليفة، لمعرفته بان ولاء هذين العنصرين هو أولاً وأخيراً لغيره. كان في الواقع يريد جيشاً يكون

موالياً له وله وحده من منطلق كونه كان يعتبر الولاء لذاته ولاءً للدولة. فهو ما كان يفرق بين ذاته وبين الدولة. وفي هذا المفهوم يتساوى المستبدون في كل العصور والبلدان. وفي تاريخنا الحديث أمثلة عديدة على هذا النمط من التفكير السياسي ربما كان من أقربها إلى فهم المنصور نهج لويس الرابع عشر في فرنسا وبطرس الأكبر في روسيا ومحمد علي في مصر. وانطلاقاً من هذه القناعات أفسح المجال لأعداد كبيرة من مرتزقة النصارى الإسبان وبنسبة أكبر لبربر شمال أفريقيا حتى جاء وقت صار فيه هؤلاء الأخيرين عماد الجيش الأندلسي مما سيكون له في المدى البعيد أسوأ الأثر على حياة وكيان الدولة الأموية في إسبانيا. وقد بالغ المنصور في اعتماده على البربر في الجيش إلى حد أنه جعل حرس الديوان يضم ثلاثة آلاف من الفرسان البرابرة الغرباء ومعهم أيضاً ألفا رجل من السودان[1]. وكان يتعمد اختيار هؤلاء الجند من بربر العدوة الغرباء عن الأندلس فيأتي بهم مباشرة إلى جيشه وبذلك يضمن غربتهم عن عادات الأندلس وعما فيها من نزعات سياسية مختلفة وخلافات عنصرية وحساسيات قبلية ليكون ولاؤهم دوماً لمن جاء بهم ولمن كان يدفع لهم مرتباتهم وأرزاقهم. وقد توصل المنصور بما وضعه لجيشه الجديد من نظم صارمة وبما أخضع عناصره له من تدريب، وبما خصه به من أموال وأعتدة ووسائط نقل لأن يعطي دولة الإسلام في الأندلس أفضل وأقوى جيش عرفته في تاريخها الطويل، إذ هو الذي رافق المنصور في غزواته التي أربت على الخمسين كانت كلها ظافرة.

ويبدو ان جيش المنصور بلغ عند اكتمال تنظيمه اثنا عشر ألف فارس، جميعهم مرتزقون في الديوان[2] في أيام السلم وفي الظروف العادية. أما في مواسم الصوائف والشواتي فكان العدد يصل في بعض الغزوات إلى ست وأربعين ألف فارس. يضاف إلى ذلك ستمائة من الحرس الخاص يرافقون المنصور في

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٠٢.

(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٩٩.

حروبه ويتولون حمل العدة وتأمين خدمة الجنود. وتلتحق بهؤلاء فئة الرجالة الذين بلغ عددهم ستة وعشرين ألفاً. وكان الجند الدائمون من جيش المنصور يتوزعون بين العاصمة والحواضر الكبرى لضمان استقرار الأمن وسلامة النظام.

وكانت هناك ورشات تعمل بصورة دائمة، في السلم كما في الحرب، لإمداد هذا الجيش بكل ما يلزمه من العتاد. فكانت دار التراسين تصنع سنوياً للجيش الأندلسي ثلاثة عشر ألف ترس واثني عشر ألف قوس ومن النبل عشرين ألفاً[1]. وأيضاً كان يصنع للجند كل عام من الأخبية على أنوعها ثلاثة آلاف خباء[2].

وبلغ جيش المنصور من تكامله في أواخر الفرن العاشر أن انتفت الحاجة أحياناً للتجنيد الإجباري أثناء الغزوات مما جعل المنصور يذيع على الناس في سنة ٩٩٨ م (٣٨٨ هـ) بعد عودته من الغزو قراره بالإعفاء من إجبارهم على الغزو استغناءً بعدد الجيش ويعرفهم «بان من تطوع خيراً، فهو خير، ومن خف إليه فمبرور ومأجور، ومن تثاقل فمعذور»[3]. ومع ذلك كثيراً ما كان عدد الجنود المقاتلين يتضاعف أثناء الصوائف والشواتي بمن كان يلتحق بالجيش النظامي من متطوعة يأتون باختيارهم رغبة بثواب الجهاد أو طمعاً بغنائم الحرب. وكان المنصور حباً منه لجيشه يحرص دوماً على أن يقوده كلما أمكنه ذلك وكان يسعى للتعرف إلى شجعانه فيكرمهم، ويغدق وافر العطايا على المستحقين من مقاتلته، مما كان يجعل الجنود عموماً يتعلقون بشخصه ويتفانون في الولاء له.

ولعل مما ساعد المنصور على إنجاز أهدافه عموماً وخاصة في بناء الجيش الذي كان يحتاج دوماً إلى موارد مالية كبيرة، إذ جعل عماده الجندي المأجور بمرتب دائم وبأرزاق دائمة، توصله إلى إنماء مداخيل الخزينة بشكل مدهش. والواقع انه نجح في ضبط عملية الجباية كما في الإشراف على الإنفاق بحيث

---

(١) (٢) (٣) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٠١.

كانت خزانته تفيض سنوياً بمبالغ ضخمة من المال، ما أمكن أو ما كانت هناك ضرورة أو حاجة لإنفاقها. ولعل مما ساعد المنصور على النجاح في جعل خزينة الدولة في أيامه عامرة على الدوام وتتغذى من فوائض مستمرة من المداخيل، إصراره الدائم على مراقبة كل أعمال الدولة وفهمه الدقيق لعمليات الجباية والإنفاق. لقد تسلم منذ بداية تعاطيه مع الشأن العام أهم المناصب ذات الطابع المالي في الدولة الأندلسية. لقد كان أميناً لدار السكة، وأيضاً مشرفاً على الخزانة العامة كما آلت إليه في وقت من الأوقات خطة المواريث. وحين صارت إليه الوزارة والحجابة كان على إلمام تام بأمور المال والضرائب وبقي حتى نهاية حياته على اتصال وثيق بهذا القطاع الهام.

وقد بلغت حصيلة الضرائب العادية في أواخر أيام المنصور أربعة ملايين دينار، يضاف إليها ثلاثة موارد أخرى هامة: رسوم المواريث، ومال السبي والمغانم الذي كانت حصيلته هامة ودائمة لكثرة حروب المنصور وانتصاراته الباهرة دائماً، وما قد يقوم به السلطان من مصادرات[1] ما كانت وارداتها قليلة لكثرة من قضى عليهم المنصور من أعداء داخليين كان في أكثر الحالات يستصفي أموالهم. وما كانت مصاريف الدولة بما في ذلك نفقات الجيش والغزو وقصور الخليفة والمنصور تزيد عن ثلاثة ملايين ونصف المليون دينار في أكثر الحالات[2]. وما كان يفضل من المال بعد كل النفقة كان السلطان يضيفه إلى ما يتجمع في بيت المال من فوائض الدخل العام. وانطلاقاً من هذا الواقع ترك المنصور بعد وفاته خزينة عامرة بالمال تشهد بعظيم كفاءته في إدارة الشؤون المالية.

وكما كان المنصور بارعاً في شؤون المال، من جباية وإنفاق مما تجلى في حسن إدارته لوظائف السكة والخزانة العامة وإدارة المواريث كما رأينا، كذلك

(١) (٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٩٨.

كان بارعاً في الوظائف الأخرى التي تسلمها في قطاع الإدارة كما في القضاء. لقد أظهر مقدرة فائقة حين أشرف على أمن قرطبة بنفسه، إذ ضبط المدينة «ضبطاً أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاءة وأولي السياسة... فسد باب الشفاعات وقمع أهل الفسق والزعارات حتى ارتفع البأس وأمن الناس وأمنت عادية المتجرمين»، ومن المسلم به ان الأندلس ما عرفت على صعيد الأمن الداخلي من الاستقرار والهدوء ما عرفته في أيامه إذ خلت من الثورات واختفت منها أعمال الفتنة والتمرد. كيف لا وهو على استعداد دوماً لمواجهة الخارجين على سلطان الدولة بالشدة والحزم. فهو ما تردد حين تمرد على إرادته ابنه عبد الله، وتآمر على سلامة الدولة ووحدتها، في إعدامه. وكان شديد الاهتمام بمراقبة حسن سير القضاء تأميناً لإشاعة العدل بين المواطنين. اجتهد في اختيار قضاته من أكفأ وأنزه وأعلم رجال البلاد. وكتب السير والتراجم حافلة بأسماء وخصائص مجموعة كبيرة من الرجال استقضاهم المنصور. وكان يكن لهم احتراماً كبيراً فلا يسعى بحال من الأحوال للتجاوز على سلطاتهم أو التدخل في مسار العدالة. وما تردد مرة واحدة في إحقاق حق حتى على أقرب الناس إليه وألصقهم به.

اهتمامات المنصور السياسية والعسكرية ما شغلته عن رعاية الأمور العمرانية في الأندلس عموماً وفي قرطبة بصورة خاصة. لقد اتسعت العاصمة بشكل مدهش على أيامه وازداد عدد ضواحيها فبلغ واحداً وعشرين ضاحية أو ربضاً كان لبعضها من الأهمية والاتساع ما تفوقت به على أكبر مدائن الأندلس[1].

ولتأمين مزيد من الاتصال بين ضفتي نهر الوادي الكبير في قرطبة، وهو أمر اقتضته الزيادة في عدد السكان ونمو الأرباض، أمر في سنة ٩٨٨ م (٣٧٨ هـ) ببناء قنطرة استلزم إنجازها أكثر من سنة وبلغت تكاليف عمارتها مابة وأربعين ألف

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٣٩٧.

(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٠٣.

دينار «فعظمت بها المنفعة وصارت صدراً في مناقبه الجليلة»[1] وعلى عادة من سبقوه من حكام الأندلس أبدى اهتماماً، دائماً وخاصاً، بمسجد قرطبة فزاد في مساحته على جانبه الشرقي من الشمال إلى الجنوب جناحاً فخماً ضاعف في المساحة الأصلية للمسجد وبالغ في اتقان بنائه وإبداع زخرفته مع التمسك بتقليد ومحاكاة الأقسام القديمة.

وقد أراد المنصور أن يميز عهده بإنجاز عمراني كبير يمثل طموحاته ويجسد نظامه فابتنى عند أطراف قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير مدينة خاصة به أسماها «الزاهرة» وجعل منها مركزاً لحكومته، ومستقراً لدوائر دولته، وأقام فيها داره الخاصة ودور أتباعه وحشمه. وقد اجتهد في أن يجعلها مشابهة بل ومنافسة لمدينة «الزهراء» التي بناها الناصر. إلا ان مدينة الزاهرة ما صمدت أمام عاديات الدهر فكانت في مطلع القرن الحادي عشر للميلاد وبعد سنوات قليلة من غياب المنصور ضحية لتمرد وثورات الجنود البربر الذي استقدمهم هو من العدوة وأكثر منهم في جيشه، فما وصل شيء من آثارها إلينا ولا استطاع باحث في العصور الحديثة تحديد مكانها بدقة لزوال كل أثر لها.

أما اهتمام المنصور بالحياة الثقافية فأمر طبيعي بالنسبة لرجل مثله نشأ أصلاً في بيت علم وأدب وشعر وسلك هو نفسه في مطلع حياته مسالك الفقهاء والقضاة قبل أن ينحرف إلى العمل السياسي. وعلى هذا تصرف طوال حياته تصرف العالم المحب للعلماء فكان يكثر من مجالستهم ويناظرهم[2] ويفوض إلى بعضهم وظائف القضاء والتدريس في جامعة مسجد قرطبة الجامع. كان مجلسه يحفل دائماً بأهل العلم والأدب والشعر. وما كان يبخل أبداً في وصل المجيدين والمستحقين منهم بالصلات الوفيرة والعطايا الخيرة. وفي رعايته وحمايته عاش فقهاء ومحدثون وأدباء، لعل أشهرهم الشاعر صاعد البغدادي الذي أملى على

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٢، صفحة ٤٣٠.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، جزء ٧، صفحة ٢١٨.

طلابه في مسجد «الزاهرة» كتابه «الفصوص» الغني بأخبار العرب وأشعارهم.
وسار أيضاً على نهج أسلافه الأمويين فأكثر من شراء الكتب النادرة مما زاد في ثراء مكتبة قرطبة الشهيرة. إلا ان ما يؤخذ عليه في هذا المجال انه ما أحب الفلسفة والفلاسفة ولا أنس إلى علماء الفلك والتنجيم. وقد عبر عن نهجه هذا بصراحة حين أخرج بعض ما كان في خزانة الحكم المستنصر من نوادر المؤلفات الفلسفية والعقلية وأحرقها بمحضر عدد من أكابر رجال الدين والفقهاء. ولو ان المنصور حاول أن يبدو فى مظهر المدافع عن الدين ومفاهيمه إلا أننا لا نستطيع أيضاً أن نسقط من حسابنا انه ربما، وبوصوليته المعهودة، كان يستدر عطف وتأييد فئة متزمتة من رجال الدين في فترة شعر خلالها انه بحاجة لتأييدها أمام عوام قرطبة.
وبذا أضاف إلى سيئاته الكثيرة التي أشرنا إليها قبلاً واحدة أصابت العلم والثقافة.

عبد الملك بن أبي عامر «سيف الدولة»:

في غزوة المنصور الأخيرة اشتدت به العلة واختلف الأطباء في معرفة المرض وطرق مداواته وشعر بدنو أجله فأمر بأن يحمل إلى مدينة سالم حيث حل في قصره. وهناك وهو يعدد أيامه الأخيرة كانت تشغل باله أمور قرطبة ومصير ذلك البناء الشامخ الذي أقامه فيها والذي يرتكز إلى شخصه بالذات. كان يشعر ان أعداء كثيرين له ولنظامه يتربصون الدوائر في قرطبة وينتظرون الفرصة المناسبة للقضاء على ملك بني أبي عامر. كان يعرف انه قد ترك لورثته أعداء كثيرين يكرهونه ويناصبون أولاده العداء لاعتبارات كثيرة ومتعددة، يجمع بينهم رباط واحد على كثرة ما يفرق بينهم من مصالح وأهواء، هو الحقد على النظام العامري وسيده. ولما أيقن بالوفاة استدعى ابنه عبد الملك الملقب بسيف الدولة وأملى عليه وصيته الأخيرة[1] وأمره بالتوجه فوراً إلى العاصمة، تاركاً أمر الاهتمام بالمنصور وتدبير شؤون دفنه لشقيقه عبد الرحمن. سارع عبد الملك إلى العاصمة

---

(١) (٢) نفح الطيب، المقري، جزء ٣، صفحة ٩٤.

حيث يعرف الخليفة بحال أبيه والأهم ليكون فيها حين يصلها خبر وفاة المنصور ابن أبي عامر فيعمل على احتواء الحدث واستيعاب ردود فعله خاصة عند أعداء العامريين. وحين وصل الخبر بوفاة المنصور إلى العاصمة قام عبد الملك بإبلاغه إلى الخليفة الذي أقره على ما بيده من سلطان وأجراه على عادة أبيه «وخلع عليه وكتب له السجل بولاية الحجابة»[1]. وبذا تم انتقال السلطان من المنصور إلى ابنه سيف الدولة بهدؤ، ووفق الأصول الشرعية، وعلى يد صاحب الشرعية الأول هشام المؤيد مما لم يترك لمعارضي العامريين أيه فرصة للتحرك أو الاعتراض في الظاهر على الأقل وفي المدى القصير. وبعودة عبد الرحمن، بعد دفن أبيه، إلى قرطبة مع جنوده، رغم ما حصل في جيشه من اضطراب ساعة موت الرجل الكبير، كان كل شيء قد استقر في قرطبة مما ترك الفرصة لأن تأخذ مظاهر الحزن والأسى كل مأخذ في العاصمة كما في سائر أنحاء الأندلس التي افتقدت فعلاً الرجل القوى كما لم يكن قوياً أي واحد من الذين حكموا دولة الإسلام في إسبانيا على امتداد قرونها الثمانية.

انطلق عبد الملك في ممارسته لسلطانه من مواقع قوية وثابتة في مواجهة خصومه. فالحجابة التي آلت إليه بالأمر الواقع من أبيه تأكدت ولبست مسوح الشرعية بإقراره على ذلك من قبل الخليفة مما قطع الطريق على معارضيه. وللتعامل مع الأندلسيين ترك له أبوه وصية عظيمة رسم له خطة واضحة لعمله. وقد نقل إلينا ابن بسام في ذخيرته النص الكامل لتلك الوصية[2]. لقد ترك المنصور لابنه وصية على درجة كبيرة من الوضوح جمع فيها خلاصة تجاربه الطويلة مع الأندلسيين بمختلف فئاتهم وعناصرهم، وموجز فلسفته في الحكم وهي بالفعل أشمل من أن تكون خاصة به وبالأندلس وبالتالي فإنها تصلح لأن تكون نهجاً لكل مغتصب للسلطة ومستول عليها بغير مسوغ شرعي ودستوراً لكل مستبد مستنير

---

(١)

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، القسم ٤، المجلد ١، صفحة ٧٦.

في كل عصر وفي كل مصر. يخبر المنصور ابنه في وصيته بانه نظم له جباية تزيد على ما يحتاجه لنفقته وأمره بأن لا يطلق يده في الإنفاق. بهذا الشكل الموجز جداً أعطى ابنه القاعدة الأساسية لاستمرار حياة الدولة. فالمنصور يعرف بتجاربه ان اختلال التوازن بين دخل الدولة، أية دولة، وإنفاقها هو الطريق الأقصر للثورات وحركات التمرد وزوال الحكومات والأنظمة. وهذه أمور تصح في كل العصور وعلى كل الأنظمة والحكومات. وأيضاً نصحه بأن يتثبت مما يرفعه إليه أهل السعاية لأنه يعرف ان بطانة الحاكم والمقربين إليه هم في أكثر الحالات يشكلون حاجباً بينه وبين محكوميه يمنعه من التعرف إلى مظالمهم وشكاواهم وهمومهم. وكأني بالمنصور يطلب إلى ابنه أن لا يترك فاصلاً بينه وبين رعاياه وهو الأمر الذي ما استغنى عنه ملك أو رئيس أبداً. وأيضاً نصحه بأن يحسن معاملة سيد القصر هشام خاصة بعد أن أمن جانبه وتأكد عجزه وجهله، وفي نفس الوقت أن لا يأمن جانب حاشيته والمحيطين به لما بينهم وبين العامريين من كره ومنافسة. وبالنسبة للأمويين عموماً فقد أمره بالحذر منهم ومن شيعتهم وبالحزم في من يشك في أمره منهم. لقد كان المنصور يعرف ويعترف في أعماقه بالذنب العظيم الذي ارتكبه بحق هؤلاء حين سلبهم سلطاناً هو لهم، ولهم وحدهم، ولذا نصح ابنه بقوله: «إياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك، فإني أعرف ذنبي إليهم»[1] وهو مع وصيته الأخيرة ما أهمل حتى أن يترك لابنه مخزوناً من المال أمانة عند أمه ذلفاء ليكون ذخيرة لمملكته وعدة لحاجة تنزل به.

لقد ورث الحاجب عبد الملك عن أبيه دولة على درجة كبيرة من الاستقرار الداخلي، وأمناً لا يتجرأ على تعكيره مغامر أو طموح، وخليفة استسلم لمصيره وقنع من الحكم بالاسم والمظهر، وخزينة تعمر بفوائض الجباية ووافر الاحتياط وأيضاً حدوداً مصونة يهابها الأعداء ويحافظون على سلامتها مخافة على سلامة حدودهم هم. يضاف إلى ذلك ان الناس، عامة الناس، كانوا سعداء بما وصلوا

---

(١) الذخيرة، ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١، صفحة ٧٧.

إليه وبما بين أيديهم فمحضوا عبد الملك تأييدهم دون حدود عله يبقي لهم ما كان على أيام أبيه من يمن وازدهار. وقد أشار إلى ذلك ابن حيان فقال: «أنصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ما عهد مثله في دولة»[1]. وقد أراد عبد الملك أن يتجاوب مع التأييد الواسع الذي لقيه من الأندلسيين، واعتماداً على ما كان في خزائن الدولة من وفير المال، فبادر لأول ولايته إلى إسقاط سدس الجباية في جميع أقطار الأندلس عن الرعية[2] مما زاد في حب الناس له وتزايد التأييد والحماس له ولعهده.

والواقع إن الحاجب عبد الملك كان عند حسن ظن الناس فيه، وأهلاً للمهمة التي اختاره لها الرجل الكبير المنصور. سار منذ البداية على خطى أبيه ونفذ وصيته بحذافيرها فكان براً بالخليفة هشام، محافظاً على مكانته وهيبته، قادراً على صيانة الأمن والنظام، عظيم الاهتمام بالجيش الذي ازداد على عهده قوة وفعالية بما انضم إليه بصورة متوالية من جموع البربر والصقالبة[3]. لقد أكثر الحاجب سيف الدولة من هؤلاء يصطنعهم لعدم ثقته بالقبائل العربية كما كان حال أبيه معها ووفقاً لما طالما حذره من رؤسائها ومن دسائسهم وأطماعهم. وما لبثت أن عمت الأندلس موجة من الاطمئنان والثقة بالمستقبل رافقها ازدهار اقتصادي كبير ظهرت آثاره في مختلف مجالات الحياة. فعم اليسر وكثر المال بين أيدي الناس وأقبلوا على أسباب الترف والبذخ بما لا حدود له. «وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال، فمهد تلك الدولة في احتشاد النعم عندها، في كنف ملك مقتبل السعد ميمون الطائر، غافل عن الأيام، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها»[4].

---

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٨٤.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١، صفحة ٧٨.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١، صفحة ٨١.

(٤) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٨٥.

وتجاوب عبد الملك نفسه مع نزعة البذخ والتبذير هذه، فانهمك في طلب الآلات الملوكية، وتأنق في مراكبه هو وأصحابه. ومع تناقص ما كان في خزائنه من أموال وبمنتهى الحزم والتعقل أدرك، بعد زمن يسير، ان الازدهار الشائع في البلد يجب أن لا يبعده عن وصية والده فهجر اللهو والراحة وعكف على مراقبة متشددة لسبل إنفاقه وإنفاق رجال حكومته فعادت أحواله المالية إلى الصلاح والوفور[1].

لم يكن عبد الملك من أهل الأدب والعلم كأبيه المنصور وكما كان سائر أبناء بيت أبي عامر، بل كان أقرب إلى عقلية الجندي والمقاتل. ما كان يأنس كثيراً لمعاشرة الأدباء والشعراء ومجالستهم «حتى ما كان يسايره وينادمه إلا العجم من الجلاجقة والبرابرة ممن لا يهش لسماع، ولا يطرب لإيقاع»[2]. ومع ذلك وإدراكاً منه لأهمية الازدهار الثقافي والعلمي الذي كان في ازدياد مستمر منذ أيام الخليفة الناصر، وانطلاقاً من كونه رجل دولة من طراز ممتاز لا تقف مسؤولياته عند حدود أهوائه ومزاجه ما قصر لحظة واحدة في رعاية العلم وأهله، بما لا حدود له، بحيث ما شعر الناس يوماً على زمنه بأن الحضارة الأندلسية قد افتقدت الرعاية والحماية. فقد سار على نهج أبيه في الاهتمام بسائر طبقات أهل العلم والمعرفة. استمر في إغداق الصلات والعطايا لكل من استخلصه أبوه من خطباء وأدباء وشعراء ومؤرخين وكتاب سير ولاعبي شطرنج. وكانت المرتبات الشهرية وأعطيات المناسبات وجوائز الكتاب والشعراء تصل أصحابها بصورة مستمرة لكل من طلبها واستحقها، فما خبا نور جامعة قرطبة، ولا تناقص عدد من كانوا، من أروقة المسجد الجامع، يشعون على الأندلس علماً ومعرفة وثقافة وأدباً وشعراً.

وعلى الصعيد الإداري أبقى نظم الدولة وقوانينها وهيكليتها كما كانت على زمن أبيه لأنها كانت في أفضل حالاتها وفي أكمل فعالية. وقد اصطفى لمساعدته

---

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٨٩.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم ٤، مجلد ١، صفحة ٧٩.

اثنين من كبار مساعدي أبيه أوكل إليهما الجليل من أمور الدولة ومحضهما كامل ثقته حتى انه ما تردد في أن يسوق بعد ذلك إلى أحدهما الفتى الصقلبي طرفة رتبة الحجابة مما لم يحصل لواحد من أبناء هذه الفئة الدخيلة على الأندلس قبل ذلك.

استعان سيف الدولة عبد الملك على تدبير شؤون حكومته بعدد من الفتيان الصقالبة ترك له بعضهم المنصور الذي خبرهم، وقدر معرفتهم وحسن إدائهم وولائهم للعامريين، كما أضاف إليهم بعضاً ممن أدخلهم هو شخصياً في محيط الحكم والدولة. بلغ بعض هؤلاء مراكز عليا في القصر والإدارة وتفرد من بينهم خادم عبد الملك الأكبر طرفة الذي أحبه كثيراً وأعطاه من النفوذ والحظوة ما لا حدود له إلى أن تقدم على جميع وزرائه ومساعديه وما تردد في أن يعينه في النهاية حاجباً مكانه. وحين اعتلت صحة عبد الملك في الفترة الأخيرة من حياته وخاصة حين اشتد به المرض ولازم فراشه استبد طرفة بأمور الدولة واستأثر بالإشراف على أمور الجنود فخافوا سطوته[1] ووالوه. ويبدو ان طرفة هذا ما كان حكيماً ولا عرف لنفسه حدوداً، فأثار بصلفه وترفعه عن الناس حفيظة الوزراء والكتاب وكبار رجال القصر، فما ترك لنفسه صديقاً أو محباً، وما تردد في الإقدام على تقرير أمور هامة دون معرفة سيده مما أغضب هذا أيضاً. وحين أبل عبد الملك من مرضه أقدم، عملاً بوصية والده «عاجل من خفته على أقل بادرة» على اعتقال طرفة وهو في قمة مكانته وألقى به في سجن انتهى به إلى القتل.

وكان صنو طرفة في المكانة والنفوذ وشبيهه في النهاية التعيسة عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بان القطاع[2]. كان هذا من عائلة عربية معروفة التحق بخدمة محمد بن أبي عامر منذ أيام الخليفة الحكم، ورافقه في مساره الطويل نحو

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٢٥.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٢٨.

(٣) عرف بأخباره وفضله ابن سعيد في كتابه، المغرب في حلى المغرب، جزء ١، صفحة ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٦ - ٢١١ - ٣٢١.

الاستئثار بالسلطان، وظل إلى جانبه حائزاً ثقته ورضاه حتى نهاية حياة المنصور. جعله عبد الملك وزيراً له ومقرباً منه وأوسع له في النفوذ والسطوة حتى كاد يغلب سيده على سلطانه مما أكثر من حساده ومبغضيه خاصة وانه بعد مقتل طرفة، وكانت له يد في ذلك، استخف بجميع الناس وترك أسعافهم وزوى وجهه لهم[2]. وقد تحمل سيف الدولة عبد الملك كل ذلك منه وأغضى عن شكاوى المقربين منه لولا انه أخيراً ارتكب حماقتين ساقتاه إلى حتفه. أكثر من الاعتداد بنفسه، واغتر بنفوذه حتى انه ما تردد في التدخل في شؤون العائلة العامرية الخاصة واستعدى عليه عبد الرحمن ابن المنصور شقيق سيف الدولة وأيضاً والدته ذلفاء الواسعة النفوذ والكبيرة الأثر على ولدها. والثانية انه ترك لنفسه مداها، إذ كان محباً للمال، في استغلال السلطة لجمع ثروة ضخمة «حتى ما كان أحد يلي عملاً للسلطان ولا يتولى جهة إلا أسهم عيسى في فائدته وتناوله بمرفقه وهبته»[1].

تكاثرت الشكاوى بحق الوزير عيسى بن سعيد وأحاط أعداؤه وكارهوه من كل جانب بعبد الملك يحرضونه عليه ويحاولون إقناعه بأن ثقته بوزيره في غير مكانها. وحين أحس عيسى هذا بالجو المعادي له في أوساط القصر والدولة وأدرك تغير سيده نحوه، ويئس من إمكانية استرضائه عمد إلى خطوة كانت نهاية الحماقة وقصر النظر إذ لجأ إلى التآمر على العامريين وعزم على إبعاد عبد الملك، وسيده الخليفة هشام المؤيد بالله، وتوجيه الخلافة نحو أمير مرواني آخر هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر[2] سيكون إذا تحقق ذلك صنيعته وضامن استمرار نفوذه وهيمنته بعد أن يبعد العامريين. وحين بدأت اتصالاته بالأمير المرواني، كانت الذلفاء بما لها من نفوذ وبما عندها من عيون وأرصاد على معرفة بما يجري فنقلت ذلك إلى عبد الملك. وكان يقوي عزيمة الوزير عيسى بن سعيد في خطته هذه

---

(1) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٢٧.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، القسم الأول، المجلد الأول، صفحة ١٢٥ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٣٠.

ويشد أزره بعض كبار رجال الأرستقراطية العربية ، المناوئة أصلاً للعامريين ، لما أنزلوه بها من ضربات ، وكذلك فئات معارضة للحكم من الأندلسيين والبرابرة . قدمت الذلفاء لابنها من الأدلة على تآمر وزيره ما لم يبق له في نفسه أي أثر لمحبة أو ثقة فقرر التخلص منه . وفعلاً عمد في كانون أول سنة ١٠٠٦ م (ربيع أول ٣٩٧ هـ) إلى دعوته إلى مجلسه حيث دفع بوجهه ، بحضور جلسائه من أكابر رجال الدولة ومقدميها ، بما صار عنده من مآخذ على مسلكه وبما يتهمه به ، وانتهى بأن أمر الحاجب بقتله . وبغياب عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع[1] اختفى ما كان قد تجمع عنده وفي محيطه من نفوذ وسطوة وهيمنة ، اعتقد عبد الملك عملاً بوصية أبيه انها لا تتلائم مع سلامة نظامه .

وكان عبد الملك قبل ذلك ، وبعد مقتل طرفة ، قد أقدم على التخلص من واحد من أكابر رجال العلم والأدب والفلسفة ، عبد الملك بن أدريس الجزيري لمكانته من طرفة ولاشتراكه بشكل أو بآخر في الدسائس التي رافقت الفترة الأخيرة من حياته[2] .

استقبلت إسبانيا النصرانية بذهول وربما بحبور وفاة المنصور ابن أبي عامر ، الرجل الذي أنزل بها من الهزائم ما لا حد له ، والذي أذل عظماءها ، وأخضع ملوكها ، وانتهك أقدس مقدساتها في غزوته لمدينة شانت ياقوب . إنما ما كان له من هيبة في نفوس حكامها ، وما أثاره من خوف وفزع عند أهلها جعل المسؤولين هناك يترددون كثيراً قبل أن يظهروا ردود فعل مباشرة على هذا الحدث . فقد اعتادت إسبانيا المسيحية قبل ذلك ، وكلما تغير الجالس على عرش قرطبة أن تهاجم حدود إسبانيا الإسلامية وأن تضرب في مناطق الثغور فيها ، لما كان يرافق

---

(١) البيان المغرب ، ابن عذاري ، جزء ٣ . صفحة ٣٣ .

(٢) البيان المغرب ، ابن عذاري ، جزء ٣ ، صفحة ٤٦ ـ ترجم له الضبي في بغية الملتمس ، رقم ١٠٥٨ ، وأيضا عرف به وأبرز مكانته ابن سعيد في كتابه المغرب في حلى المغرب ، جزء ١ ، صفحة ٣٢١ .

عادة تغير الحكام والأنظمة من اضطراب وفتن. هذه المرة، التردد والجمود كانا أبرز ما ميز رد فعل حكام إسبانيا المسيحية على وفاة المنصور خاصة وان الطريقة الهادئة التي صارت بها السلطة إلى ابنه الحاجب عبد الملك سيف الدولة أكدت بشكل واضح قوة النظام واستمرار التفوق العسكري لإسبانيا المسلمة. يضاف إلى ذلك، إنه كان من الشائع والمعروف، ان عبد الملك كان صاحب خبرة واسعة في شؤون الحرب والقتال وانه كان جندياً أكثر مما كان رجل دولة أو من أهل الأدب والشعر كما كان بعض حكام الأندلس. كانت إسبانيا النصرانية قد تعرفت إلى عبد الملك، أيام أبيه، في ساحات القتال، وعرفت انه إن لم يكن أبرع من المنصور في قيادة الجيوش وتحقيق الانتصارات فهو يساويه قطعاً. وعلى هذا جنح سانشو غرسية، صاحب قشتالة، على ما عرف به من روح مشاكسة وميول عدوانية تجاه جيرانه الأندلسيين، إلى السكون والمهادنة. ثم بادر إلى توقيع معاهدة سلام وصداقة، مع واضح الفتى سيد مدينة سالم، جعلت منه صديقاً وحليفاً لحكومة قرطبة[1] وسيدها الفعلي عبد الملك سيف الدولة. أما مملكة ليون فكان يجلس على عرشها ولد في العاشرة من عمره هو ألفونسو الخامس، ويدير شؤون الحكم بالوصاية عليه مننديس غونثالث. ولما ما كان عبد الملك كثير الاطمئنان إلى سياسة هذا الوصي، لما يعرفه من شدة عدائه لإسبانيا الإسلامية، فقد أرسل منذ بداية حكمه جيشاً يرابط في مدينة قلمرية Coimbra في بلاد البرتغال الحالية، تحسباً لأي هجوم على أراضي الأندلس يأتي من بلاد جليقية[2]. بوريل الثالث، صاحب برشلونة، وحده اعتقد ان بإمكانه الإفادة من فترة التغيير في قرطبة، فهاجم أراضي المسلمين عند حدوده دون أن يحقق كبير إنجاز، مع العلم بانه كان قد سبق له وارتبط بمعاهدة سلام وقعها مع المنصور ابن أبي عامر قبل وفاته بقليل. ولم تظهر جيوش بوريل الثالث في ساحات القتال من الجدية والفعالية ما جعل عبد الملك يخشى بأسه ويعمل لقوته حساباً.

---

(١) (٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١، صفحة ٨٤.

عندما وجد عبد الملك ان الأمور في قرطبة قد استقرت له بشكل كامل، بادر، وهو الجندي قبل أي شيء آخر، مع إطلالة فصل الدفء إلى الإعداد لصائفته الأولى التي اختار أن تكون إلى أراضي برشلونة. والواقع إن عبد الملك أدرك، كما أدرك أسلافه من قبله، ان الصوائف والشواتي باتت قدراً لحكام الأندلس يقومون بها بصورة مستمرة بغض النظر عما إذا كانت هناك أسباب ومبررات لها، وبمعزل عن مردودها الإقليمي والمادي، وعن تكاليفها المرهقة مالياً وبشرياً. وانطلاقاً من هذه القناعة، أو بعبارة أصح من هذه الضرورة، قاد عبد الملك في فترة توليه الحجابة، على قصرها إذ بلغت فقط ست سنوات وأربعة أشهر وسبعة أيام[1]، سبع غزوات إلى أراضي إسبانيا المسيحية[2]، كانت منيته في الأخيرة منها، وكان دائماً ظافراً فما هزم في واحدة.

الصائفة الأولى، والتي بالغ في الاستعداد لها خرجت إلى أراضي برشلونة في سنة ١٠٠٣ م (٣٩٣ هـ) رداً على عدوان بوريل الثالث وتجاهله المعاهدة التي كان قد وقعها مع المسلمين. قصد عبد الملك، وجيوشه، مدينة طليطلة أولاً ومنها سار إلى مدينة سالم حيث وافته جموع من قادة الثغور وجنودهم وأيضاً العديد من وجوه نصارى الشمال مع عساكرهم أتوا تأكيداً لتحالفهم معه، مستعدين للقتال تحت لوائه. اتجه بعد ذلك، بكل من صار معه إلى عاصمة الثغر الأعلى سرغوسة ومنها إلى مناطق الحدود مع أعدائه. استولى على عدة من الحصون الهامة أكبرها حصن ممقصر.Monmagastre ثم توغل في تلك الأراضي ورفع بيرق الإسلام في مواقع ما كان المسلمون قبله قد دخلوها[3]. على ان عبد الملك أراد أن يضع لنشاطه الحربي سنة مستحدثة دشنها في حملته الأولى وخرج بها عن مألوف أسلافه. لقد رأى بنظره الثاقب انه لا يكفي أن تقاتل جيوشه في

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٤.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٣ ـ أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٨٧.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صحفة ٧.

أراضي إسبانيا المسيحية فتخرب وتدمر وتقتل وتغنم وتعود للاحتفال بما أنجزته في العاصمة مكتفية من النتائج بأكاليل نصر يرفعها قادتها وحكام الأندلس. لقد عزم عبد الملك على أن يجعل لانتصاراته مردوداً على الأرض. فهو بعد انتصاره في حصن ممفصر لم يهدمه ولم يحرقه ولم يدمر أحوازه وقراه، وفقاً لتقاليد أسلافه من حكام الأندلس وإنما أمر بإعماره بخلق من الأندلسيين يمدهم بأسباب الحياة فيه والدفاع عنه[1]. أمر الحاجب ساعة الاستيلاء عليه جنوده «ألا يحرقوا منزلا... فشرع للوقت في إصلاحه ونادى في المسلمين من أراد الثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن هذا الحصن وله مع ذلك المنزل والحرث فرغب في ذلك خلق عظيم واستقروا به»[2]. لقد اقتنع عبد الملك بان سياسة الصوائف والشواتي التقليدية كانت لها سلبية أساسية وهي انها ما هدفت يوماً إلى استعادة أرض مفقودة، أو اكتساب أرض جديدة من الأعداء، أو تغيير الحدود مع الإسبان، أو إعمار ربوع خالية بين شطري إسبانيا. لذا شاء ببعد نظره وبعبقريته العسكرية أن يسد هذه الثغرة. إلا ان هذا التدبير على أهميته، والذي كان من الممكن أن يغير مجرى تاريخ إسبانيا الإسلامية لو تنبه له أو اعتمده أوائل الحكام والقادة الأندلسيين، جاء متأخراً ومتأخراً جداً بحيث ما أعطى أي مردود وبالتالي ما اهتم به المؤرخون ولا أبرزوه على انه من أعظم منجزات عهد عبد الملك سيف الدولة. وقبل أن يعود إلى قرطبة أرسل الرسل إلى الخليفة يخبر بانتصاره العظيم ويعد بالوافر من الغنائم مما حصل عليه من الأعداء.

كانت عودته إلى قرطبة مناسبة عظيمة احتفل فيها أهل العاصمة بانتصار حاجبهم الشاب وكرمه الخليفة هشام المؤيد وأعلى مكانه وأغدق عليه الهدايا مما رفع من مكانته في الأندلس وزاد في قدره عند الأندلسيين. وما لبث بوريل الثالث أن أوفد مبعوثاً له إلى قرطبة ينشد السلام والمصالحة فجعل عبد الملك من يوم

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٤.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٧.

استقباله مناسبة عظيمة ازدانت فيها المدينة بأكمل عدة وأفضل زينة حتى ان من عايش ذلك اليوم وصفه بقوله: «إنه ما كان بالأندلس مثل ذلك في أمد الدولة»[1]. والواقع إنه كان من أبهى أيام التاريخ الأندلسي بلغ فيه تفوق إسبانيا الإسلامية على إسبانيا النصرانية ما يشبه الذروة إن لم يكن الذروة فعلاً.

وكانت غزوة عبد الملك سيف الدولة الثانية إلى أراضي قشتالة في صيف سنة ١٠٠٤ م (٣٩٤ هـ) فصال فيها وجال دون أن يواجهه صاحبها سانشو غرسية الذي كان على ما يبدو مهتماً بخلافاته مع مملكة ليون. عاد عبد الملك، على عادته، بالغنائم والسبايا إلى قرطبة ليقدم دليلاً جديداً لأهلها على انه سيد شبه الجزيرة الإيبرية بشقيها دون منازع وأقوى فرسانها وأبرع مقاتليها. وما لبث سانشو أن حضر بنفسه إلى قرطبة، ناشداً السلام، مقدماً الخضوع، متعهداً بالقتال متى دعي إلى ذلك إلى جانب سيد قرطبة[2]. وبذلك يكون عبد الملك وكما روى مؤرخ أندلسي عاش قريباً من الأحداث قد انتهى «عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلة عظيمة مثل منزلة والده المنصور وأحلوه محله في الإصغاء له والتعظيم لجلاله والهيبة من سخطه والطلب لمرضاته»[3].

في صيف سنة ١٠٠٥ م (٣٩٥ هـ) خرج سيف الدولة من قرطبة على رأس جيوشه نحو مناطق الحدود مع جليقية التي كان يشك منذ البداية بنوايا حكامها وخاصة الوصي على العرش فيها تجاه الأندلسيين والتي ما كانت بعد علاقاتها معه قد أخذت شكلاً واضحاً. اتجه أولاً نحو مدينة طليطلة يرافقه سانشو غرسية سيد قشتالة عملاً بالاتفاق الموقع بين الرجلين. ومن هناك وجه فتاه «واضح» مع خمسة آلاف جندي إلى مدينة سمورة، التي سبق أن هدمها المنصور، فأجلى بعض مقاتلة النصارى، لجأوا إلى ما كان قد بقي قائماً من أبراجها، وقتلهم وسبى

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١، صفحة ٨٥.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١، صفحة ٨٥.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٠.

نساءهم[1] وأشاع الخراب والدمار في أحوازها. أما عبد الملك وباقي مرافقيه فقد عبروا الحدود إلى أراضي جليقية ووصلوا حتى أقاصيها[2] منتصرين غانمين. عاد الحاجب بعد ذلك إلى قرطبة مضيفاً إلى سجل انتصاراته نصراً جديداً.

كانت غزوته في الصيف التالي من سنة ١٠٠٦ م (٣٩٦ هـ) إلى بلاد البشكنس مع نية الوصول إلى عاصمتهم بانبلونة بالذات. مشى أولاً نحو عاصمة الثغر الأعلى سرغوسة، حيث انضم إليه عدد من القادة المسلمين مع جندهم، ومنها إلى مدينة وشقة.Huesca ثم إلى حصن بربشتر ومنه عبر إلى أراضي أعدائه حيث هدم حصوناً كثيرة وجال عسكره في البلاد وسبى وقتل وأحرق وهدم[3] قبل أن يعود إلى قرطبة. ويبدو ان عبد الملك ما أحرز من المكاسب في غزوته هذه كما أمل ولا حقق منها ما أراد بدليل إن العامة في العاصمة أزرت بصائفته هذه وتكلمت في استقصار سعيه. وهذا اضطره في كتاب الفتح الذي وجهه إلى الخليفة وإلى الأندلسيين أن يفرد فصلاً يبين فيه عن وجه إخفاقه[4]. إنما ما حصل كان نكسة عابرة لم تخلف أثراً يذكر في سجل انتصارات الرجل، الباهرة والكثيرة.

إنمايبدو في كل الأحوال ان ظاهرة الضعف التي لاحت في صفوف الجيش الأندلسي وفي بنيته ما خفيت على وجهاء ومقدمي النصارى، وكلهم من كبار العسكريين ومن المحاربين الشجعان، فشجعتهم إلى جانب اعتبارات أخرى كانت تتفاعل في صفوف إسبان الشمال وبين دولهم على تكوين تحالف جديد، بوجه حكومة قرطبة، يضم كل قوى النصرانية بالرغم مما كان يشد سيدي برشلونة وقشتالة من معاهدات سلام إلى سيف الدولة المظفر. لم ينتظر سيد قرطبة أن تتكامل قوى التحالف الجديد فبادر مسرعاً في صيف سنة ١٠٠٧ م (٣٩٧ هـ) لقيادة صائفة، عرفت باسم غزوة النصر إلى أراضي قشتالة حيث واجه جموع

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١ ـ الذخيرة، ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١.

(٣) (٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٣.

إسبانيا النصرانية قبل أن تكتمل حشودها واستعداداتها وأنزل بها هزيمة كبيرة. رجع إلى قرطبة من غزوته الخامسة كأقوى ما يكون مستعيداً مكانته عند الأندلسيين وعند الخليفة. وكان أن منحه هشام المؤيد بالله، تكريماً له، وإجلالاً لمنجزاته وأيضاً بناء لطلبه، لقب «المظفر» كما أعطى ابنه الطفل لقب «ذي الوزارتين» مقدمة لإدخاله في سلك المراتب العالية. وكان أن تلقب بالحاجب المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور[1]. وكتب بذلك إلى أهل الخدمة وإلى سائر أقطار البلاد لتكون الرسائل الصادرة عنه والموجهة إليه بهذه الصيغة. وكانت مناسبة عظيمة أكرم فيها المظفر جنوده وأغرقهم بالعطايا والهبات وتبارى الأدباء والشعراء في تخليدها. إنما من المؤكد ان الانتصار العسكري في قشتالة ما كان حاسماً ولا جعل سانشو غرسية يركن إلى السكون والمهادنة مما اضطر المظفر للخروج في غزوته السادسة قبل الأوان، فقاد شاتية في مطلع سنة ١٠٠٨ م (٣٩٨ هـ). قصد عبد الملك حصن سنت مرتين على الضفة اليمنى لنهر الدويرو قريباً من منطقة الثغر الأوسط. ألقى المسلمون الحصار على الحصن، الذي قاوم أهله بضراوة، مدة تسعة أيام استسلموا بعدها وبعد أن نفذ منهم الماء والغذاء. ما تسامح معهم عبد الملك المظفر وإنما عمد لإرهاب قومهم إلى قتل رجالهم وسبي نسائهم وأطفالهم. وسارع إلى الكتابة إلى الخليفة يخبره بانتصاره. وهذه المرة أيضاً ظهرت عوامل الضعف والفرقة في بنية الجيش الأندلسي ولكن بصورة أقوى فكان الانتصار ظاهرياً وما كان حاسماً ولا قاطعاً إذ اضطر عبد الملك بعد أشهر قليلة ومع إطلالة فصل الصيف إلى الخروج في غزوته الأخيرة، الغزوة السابعة، مجدداً إلى أراضي قشتالة. وبوصوله إلى مدينة سالم مرض مرضاً شديداً أقعده عن متابعة المسيرة إلى أعدائه. ولما اشتدت به العلة وشاع أمرها بين الجنود ودب الوهن بينهم وبدأت تظهر بشكل متزايد علامات الضعف والارتباك في بنية الجيش الأندلسي، غادر كثير من المتطوعة ونقص الكثير من عديده. وحين

---

(١) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٣، صفحه ١٧.

خفت علته بعض الشيء عاد إلى قرطبة ليستعيد صحته وأيضاً ليعيد النظر في تركيبة جيشه خاصة بعد ما ألم به في مدينة سالم.

وفي فصل الخريف، وكان قد استرجع بعض عافيته ونشاطه خرج في شاتية، قبل أوانها قصد منها أن يفاجيء عدوه سانشو غرسية صاحب قشتالة. إلا أن ذبحة صدرية قوية فاجأته في الطريق وأخذت تقوى ويشتد أذاها مع الساعات[1] حتى كادت تخنقه. عندها أخذ القاضي ابن ذكوان، وكان يرافق الحملة المبادرة وأمر بعودة الجند وحمل المظفر إلى داره في الزاهرة. حمله غلمانه إلا انه على ما يظهر توفي، قبل أن يصلها، بالقرب من دير أرملاط ووصل إلى قرطبة ميتاً. ويبدو حسب بعض الروايات ان وفاته ما كانت حدثاً طبيعياً، وشاع بين الناس ان يداً دبرت مقتله بعناية فائقة. وقد أكد بعض المؤرخين انه مات مسموماً بتحريض من أخيه عبد الرحمن[2]. وهذه الرواية تفسر وتوضح العداء الشديد الذي واجهت به الذلفاء، عبد الرحمن وعهده، والذي ذهب بها إلى حد التحريض على حكمه ونظامه والتآمر على شخصه.

عبد الرحمن بن أبي عامر:

أسرع عبد الرحمن في الوصول إلى قرطبة فضبط شؤون الحكومة والقصر وقام بكل أمور الدولة واستقر في منصب الحجابة. وحين وصل جثمان أخيه المظفر إلى العاصمة قام إلى القصر الخلافي وحمل إلى سيده نبأ الوفاة فبادر هذا إلى تعزيته ومؤاساته بأخيه الراحل ثم أقره على ما بيده وقلده خطة الحجابة بصورة شرعية ورسمية. وتلقب عبد الرحمن منذ ذلك الوقت بالحاجب «ناصر الدولة». وعبد الرحمن هذا هو الولد الثاني للمنصور بن أبي عامر من زوجته الإسبانية ابنة سانشو غرسية الثاني ملك نبرة والتي عرفت باسم عبدة بعد أن أسلمت واستعربت.

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري. جزء ٣، صفحة ٣٧.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٣٧ ـ أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٠٩.

ومن هنا كان لقبه الغالب عليه والذي عرفه به معاصروه، كما من أرخوا لحياته وعصره، «شنجول» وهو اسم الدلع الذي كانت تناديه به أمه في صغره لشدة شبهه بجده سانشو[1]. وكان شنجول هذا حين صارت إليه حجابة الأندلس، ومعها كل أرث والده العظيم المنصور، شاباً ما تجاوز الخامسة والعشرين من العمر. وكان معروفاً منذ البداية للجميع بأنه يفتقر للكثير مما كان لأبيه وأخيه من ذكاء ومهارة وكفاءة. كان جاهلاً، غبياً، مغروراً بنفسه وبقدراته يفتقر للحكمة والاتزان. أغضب أهل قرطبة ونفر علماءها وفقهائها وقضاتها من شخصه منذ أيامه الأولى في الحكم إذ «افتتح أمره بالخلاعة والمجانة، فكان يخرج من منية إلى منية، ومن منتزه إلى منتزه مع الخياليين والمغنين والمضحكين مجاهراً بالفتك وشرب الخمر»[2]. لم يكن أصحابه وجلساؤه من أهل العلم والفضل والمعرفة كما كان الأمر مع أبيه المنصور. ولا كانوا من المحاربين والقادة العسكريين ورؤساء القبائل كما كان رفاق أخيه المظفر فافتقر إلى المستشارين العقال والمساعدين الأكفاء فما كان له رفيق يردعه من حماقه ولا جليس يبعده عن خطيئة. ومع ان عهده في السلطة ما امتد الى أكثر من أربعة أشهر فإنه ارتكب خلالها من الموبقات والمظالم الكثير وأقدم على حماقات ذهبت بسرعة غير منتظرة بصرح الدولة العامرية العظيم الذي اجتهد المنصور سنوات طويلة في إقامته. بل أكثر من ذلك فتح الباب واسعاً بممارساته المتهورة أمام فتنة خبيثة اجتاحت الأندلس لسنين عديدة وأطاحت بدولة المروانيين فيها.

ما كانت قد انصرمت عشرة أيام على حكمه حتى طلب إلى الخليفة أن يمنحه لقب «المأمون». ولما كان هشام الثاني ما يزال محجوراً عليه مسلوب السلطة والفعالية لا رأي له ولا إرادة قبل منه ما طلب وبادر إلى تسميته بالمأمون وصدرت عن القصر الخلافي إلى سائر أنحاء الأندلس رقعة بهذه التسمية وصار

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٣٨.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٤١.

بموجبها شنجول يعرف باسم «الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف». وكان هذا الأمر، على تفاهته، من بعض حماقاته إذ اتخذ لنفسه لقباً خلافياً عظيماً دون أن يكون قد قدم للمسلمين خدمة تبرر ذلك أو دون أن يكون قد قام للأندلس بأمر جليل. لهذا أنكر الناس على عبد الرحمن فعلته غير المبررة ونفروا منه ومن الخليفة هشام المؤيد لكونه سمح بها واعتبروا ذلك ضرباً من التهور والجرأة على ألقاب لها حرمتها وقدسيتها. والأندلسيون ذكروا دوماً ان أخاه عبد الملك ما حمل من قبل لقب «المظفر» إلا بعد سنوات عديدة في الحكم أظهر خلالها من الكفاءة والمقدرة في إدارة شؤون الدولة والأندلس، كما في ساحات القتال والدفاع عن حدود دولة الإسلام في إسبانيا، ما جعله أهلاً لكل تكريم ومحلاً لكل تعظيم وتجبيل.

بعد أسابيع خمسة من ذلك، وقبل أن يغفر له الأندلسيون ما أقدم عليه، من التلقب بألقاب الخلافة فاجأ الناس بمبادرة كانت معها نهايته وبداية نهاية العامريين. حتى ذلك الحين، ما كان القدر قد أعطى الخليفة هشام المؤيد وقد قارب مرحلة الشيخوخة ولداً ذكراً يرث سلطان بني أمية ولا كان هو أو أحد من الذين كانوا في محيط القصر والدولة ينتظر أن تلد إحدى زوجاته أو محظياته مثل ذلك الوريث. وبغباء لا حد له، معتداً بما رأى بيده من نفوذ وسلطان، اعتقد ان بإمكانه استغلال ضعف الخليفة والتماس ولاية العهد لنفسه. ومع ان أمراء بني أمية كانوا كثيرين وخاصة أحفاد الناصر وفيهم العالم والأديب ورجل الدولة والعسكري البارع، وكلهم يرون الخلافة -حقاً من حقوقهم لا بد أن يعود إليهم متى مات هشام فإنه اعتقد ان باستطاعته من موقعه في السلطة، أن يتجاوزهم جميعاً. دس إلى الخليفة بعض أتباعه ومؤيديه زينوا له فضل تسمية عبد الرحمن ولياً لعهده تؤول الخلافة إليه من بعده دون سائر فتيان ومشيخة الأمويين، فما تمنع ولا قاوم. لقد أبرز هذا التفكير عند عبد الرحمن شنجول سيئة أضيفت إلى سيئاته الكثيرة هي أن طموحه وغروره ما كانا أبداً يتوافقان مع واقع البلاد السياسي ولا كانا يميزان بين الممكن وغير الممكن. كانت هناك دائماً حدود في السياسة عند الأندلسيين،

تخطيها وتجاوزها يقود في أكثر الحالات إلى المهالك. فالإمارة والخلافة في الأندلس كانتا منذ القرن الثامن للميلاد، حين استقرت دولة الإسلام في إسبانيا على يد مرواني وحققت كل أمجادها وانتصاراتها وأيضاً نكساتها وهزائمها مع حكام من بني مروان، حقاً معترفاً به للأمويين لا ينازعهم فيه أحد. بل أكثر من ذلك في مطلع القرن الحادي عشر كان يبدو وكأنه قد ترسخ وتجذر في عقول وضمائر الأندلسيين الربط بين بني أمية ودولة الإسلام في إسبانيا واعتبارهما صنوان لا يفترقان. وما كان أندلسي يتخيل إمكانية رؤية الخلافة في غير أحفاد عبد الرحمن الداخل. وبذكاء نادر وواقعية مدهشة فهم المنصور والمظفر ذلك فأخذا من الخليفة كل السلطان وحملا كل الألقاب إلا ان أحداً منهما ما تجرأ على محاولة أخذ الخلافة من بني مروان. لقد أبقيا لهشام الثاني المؤيد بالله الأثواب الخلافية والمراسم الملوكانية والدعاء له من على منابر الأندلس وبذلك ظلت قائمة وبشكل معقول ومقبول الصلة مع المروانيين عموماً إذ بقي لهم الأمل بعودة الحق إلى نصابه في يوم من الأيام. وحتى لو تركنا جانباً هذه الاعتبارات التاريخية والعاطفية فإن التركيبة البشرية للمجتمع الأندلسي ورواسب الحساسيات القبلية القديمة ما كانت تسمح ليمني (العامريون) بتسلم خلافة أسسها وأقامها القيسيون (بنو أمية). وما محاولة تجاهل أو تجاوز ذلك الواقع التاريخي إلا بمثابة نكء لجراح قديمة وإذكاء لنيران خمد لهيبها منذ أمد طويل. لقد بدا عبد الرحمن شنجول وهو يلتمس ولاية العهد لنفسه، أجهل من أن يدرك الوقائع التاريخية المذكورة، وأغبى من أن يتفهم هذا الوضع السياسي المعقد، وأضعف من أن يسترشد بمن هو أعقل منه وأكثر حكمة فيستمد منه النصح والرؤية الواضحة.

وفي تشرين ثاني سنة ١٠٠٨ م (ربيع أول ٣٩٩ هـ) توصل بمساعدة عدد من القضاة وكبار العلماء والفقهاء إلى إقناع الخليفة هشام المؤيد بتسميته ولياً للعهد. وقد تولى عالم قرطبة الكبير أحمد بن برد[١]، بوصولية لا حد لها وبرغبة في

(١) ترجم له ابن البشكوال في كتاب «الصلة» حزء ١، صفحة ٤٢، رقم ٧٤، طبع مصر ١٩٥٥.

ممالأة أصحاب السلطان على حساب الأندلس وأهلها، صياغة كتاب بهذا الصدد يصدر عن الخليفة. أعطى ابن برد في كتابه عبد الرحمن بن أبي عامر من الميزات الحسنة ما لم تكن له في يوم من الأيام ومن الفضائل ما لم يعرف أبداً. وقد حاول، مع كل ما تضمنه الكتاب من تجاوز لحقوق المروانيين في الخلافة، أن يضفي على مبادرة الخليفة طابعاً من القداسة يجعل من إعطاء ولاية العهد لقحطاني هو عبد الرحمن بن أبي عامر بمثابة تحقيق لمشيئة إلّهية. أورد ابن برد في سياق كتاب الخليفة حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم رواه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة ورد فيه: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه»[1].

وفعلاً صدر عن الخليفة هشام المؤيد كتاب قرىء بحضوره على رجال الدولة وعلمائها وفقهائها جاء فيه إنه «لم يجد أحداً هو أجدر أن يقلده الخلافة في فضل نفسه وكرم خيمه وشرف موكبه، وعلو منصبه مع تقواه وعفافه وحزمه وثقافه من المأمون الغيب، الناصح الجيب، النازح عن كل عيب، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن ابن المنصور أبي عامر»[2].

ولم ينس عبد الرحمن شنجول وهو يستولي على ولاية العهد لنفسه أن يسوق إلى ابنه الطفل عبد العزيز خطة الحجابة مشفوعة بلقب سيف الدولة، وهو لقب عمه عبد الملك[3].

وبذلك اعتبر عبد الرحمن بن أبي عامر انه قد نال المبتغى وحصل على كل السلطان شكلاً ومضموناً. فأنفذ الكتب عنه إلى سائر أقطار الأندلس والعدوة يخبر بولايته للعهد ويأمر بالدعاء له من على منابر مساجد المسلمين بعد الدعاء

---

(١) البيان المغرب، ابن عداري، جزء ٣، صفحة ٤٥.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٤٥.
(٣) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٩٤.

للخليفة. بعدها قعد في قصر الزاهرة يتلقى تهاني المبتهجين، رياءً ونفاقاً في أكثر الحالات، من كبار رجال الحاشية والقبائل والفضاة وزعماء المروانيين. هذا في الظاهر بينما المبعدون عن الخلافة من الأمراء المروانيين وسائر المتضررين والمستائين من ممارسات عبد الرحمن وخاصة الأخيرة منها اتفقوا على ان ساعة العمل لإسقاط النظام قد أزفت. وبصورة عفوية التقى فرقاء عديدون على اختلاف مصالحهم واتجاهاتهم على ضرورة الإسراع بالعمل لقطع الطريق على مزيد من التهور يرتكبه عبد الرحمن شنجول. بل إن الغيارى، كل الغيارى على سلامة دولة الإسلام في إسبانيا وأهلها صاقوا ذرعاً بممارسات هذا الرجل الجاهل وأجمعوا على ضرورة إسقاطه حرصاً على سلامة الإسلام والمسلمين في شبه الجزيرة الإيبرية.

ولم ينس عبد الرحمن وهو في نشوة ما خيل له إنها انتصارات ومكاسب فعلية أن يسيء للمقربين إليه ولمن ساعدوه في كثير من تجاوزاته. كان من عادة رؤساء القبائل العربية وأكابر رجال الحاشية أن يضعوا على رؤوسهم قلانس مزركشه تميزهم عن سائر طبقات المجتمع يتيهون بها ويتباهون على من دونهم فأمرهم جميعاً بوضع العمائم على رؤوسهم تشبهاً بالبربر. لقد كره منه هؤلاء ذلك كثيراً واعتبروها بمثابة مساواة لهم برؤساء البربر، بل إن عامة الناس اعتبرت ذلك بمثابة تمهيد لتغليب عنصر البربر في مجتمع الأندلس وفي الدولة على عناصر العرب والأندلسيين مما لم يكن أحد على استعداد لتقبله.

كانت الذلفاء والدة عبد الملك المظفر أسرع الناس لاستغلال موجة العداء المتصاعدة بوجه عبد الرحمن وحكمه. هذه المرأة في الأساس كانت تحمل في أعماقها كرهاً شديداً لعبد الرحمن وتحقد عليه أشد الحقد لما كان شائعاً، ولما كانت تعتقد، من انه هو الذي أقدم على دس السم لابنها المظفر واغتياله لأخذ منصب الحجابة منه. اتخذت أداة لتحقيق غرضها أحد الفتيان العامريين ويدعى «بشر»، كان شديد الولاء لشخصها وللمروانيين فى نفس الوقت، فأخذ يتصل بأحفاد

الناصر يجمع شملهم ويحرضهم على استعادة حقهم المسلوب. وكان يعدهم باسم سيدته بالعون والمساعدة دون حدود. وقد نجح في إيجاد أمير مرواني، هو قبل أي شيء آخر من طينة عبد الرحمن وكان هذا من سؤ طالع الأندلسيين عموماً والمروانيين بصورة خاصة، يرفع لواء الثورة ويتبنى قضية الأمويين عموماً. قبل مهمة رفع لواء التمرد على الحكم العامري شاب مغامر دون حدود، مخاطر دون قيود، هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الذي كان يحمل في أعماقه حقداً كبيراً على العامريين لكون المظفر قد أمر بقتل أبيه «هشام» متهماً أياه بالضلوع في مؤامرة دبرها عليه وزيره ابن القطاع. تجمع حول محمد بن هشام نفر من الأمراء الأمويين، والناصريين بصورة خاصة، بايعوه على الزعامة والقيادة وحملوا رايته وصاروا ينشرون دعوته سراً بين الناس. وبسرعة مدهشة تكاثر الناس حوله يبايعونه خفية وتجمع حوله خلق كثير بصورة خاصة من رعاع قرطبة ومن المغامرين والمجرمين والأراذل إذ كان هو أصلاً من معدنهم وما عاشر ولا خالط في حياته غير هذه الطبقة من الناس. اتخذ له مقراً في سفح جبل قرطبة خارج العاصمة يلتقي أتباعه فيه بعيداً عن العيون والأرصاد. وبفضل دعم مالي مستمر من الذلفاء، إذ كانت هذه المرأة تملك ثروة ضخمة تركها لها زوجها المنصور أودعتها مكاناً آمناً في قرطبة، انتظم أمر ابن عبد الجبار هذا[1] وانتشر أتباعه وأعوانه في كل مكان.

في الأيام الأولى من سنة ١٠٠٩ م (٣٩٩ هـ) صارت سماء الحياة السياسية في قرطبة تبدو ملبدة بغيوم سوداء داكنة تنذر بشر مستطير وبعاصفة لا تبقي ولا تذر. وكان واضحاً ان الأندلسيين يريدون التخلص من حكم العامريين عموماً، على ما قدموه من عظيم الإنجازات وما حققوه من باهر الانتصارات لدولة الإسلام في الأندلس. ولعل مرد ذلك نفورهم من كثرة حماقات وتجاوزات عبد الرحمن وأيضاً ما طالما عرف به بصورة خاصة القرطبيون من ملل ملوكهم والقلق بذوي

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٥٣ ـ أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٠٩.

أمرهم[1]. استيلاء عبد الرحمن على ولاية العهد ذكر المروانيين بإن الخلافة لهم وتراثاً في بيتهم، من حقهم بل من واجبهم استعادته قبل أن يموت هشام ويذهب منهم إلى غيرهم وإلى الأبد. والقبائل العربية من قيسية ويمنية التي أذلها المنصور وابنيه وأبعدوها ولفترة طويلة عن القيادة والزعامة والوجاهة مقدمين عليها مرتزقة البربر والصقالبة الدخلاء على العروبة والإسلام، اعتقدت ان عبد الرحمن شنجول بارومته الغريبة وجهله[2] وقلة أنصاره يمكن الانتصار عليه واستعادة الأمجاد القديمة. وكذلك صنائع العامريين من البربر ما عاد ولاؤهم لأسيادهم على صفائه لكثرة ما استغلوهم وضربوهم ببعضهم البعض. يضاف إلى ذلك ان البربر قد كونوا لأنفسهم مع الوقت داخل قرطبة مصالح كثيرة ومتشعبة تجعل مواقفهم إلى جانب السلطة بعيدة عن الثبات والاستقرار. وحتى عامة الناس التي طالما بهرتها انتصارات العامريين العسكرية ما عادت شديدة الإعجاب بهؤلاء بعد ما ملت على ما يظهر استطالة استبدادهم بالسلطة والحكم.

على ان أغرب ما صدر عن معارضي عبد الرحمن شنجول هو انهم سلموا رئاستهم وفوضوا أمرهم إلى رجل على شاكلته ومن طرازه، اشتهر بالجهل والتهور وعرف بالمجون والخلاعة وما كانت له حسنة تذكر أو فضيلة تشكر. هذا الأمر سيجعل مصير الأندلسيين يتقرر في صراع بين رجلين يتساويان في السؤ والنزوع نحو الشر والمغامرة مما سيفتح الباب واسعاً أمام المصير السيء الذي أوصلت إليه أحداث تلك الأيام دولة الإسلام في الأندلس.

وبسبب الجهل والغرور ما استطاع عبد الرحمن شنجول أن يستشعر ما كان يتفاعل في الخفاء من مواقف معادية لشخصه ولنظامه ولا تمكن من رؤية النار التي كانت تضطرم تحت الرماد. وحين لفت نظره كبير فتيانه الصقالبة، وأقرب مستشاريه إليه، إلى ما يقوم به المروانيون من تحركات مريبة وما يتهدد العاصمة

---

(١) أعمال الاعلام، ابن الخطيب، صفحة ٩٠.

(٢) الدولة العامرية، عبد الله عنان، صفحة ١٣٥.

من اضطراب أمني[1] لم يأخذ الأمر على محمل الجد ولم يعطه أية أهمية. بل أكثر من ذلك وبغبائه المعهود وغروره اعتقد ان أفضل ما يفعله آنذاك هو القيام بغزوة إلى أراضي الإسبان كما كان يفعل أسلافه الأمويون والعامريون يتقرب بذلك من عقول وأفئدة الأندلسيين. تجاهل تماماً ما يمكن أن يحدث في غياب جيشه عن العاصمة من تحركات ومن اضطرابات أمنية وقرر أن يخرج في غزوته الأولى إلى أراضي الشمال الإسباني يرد على غارات كان قد بادر بها مناطق الثغور الإسلامية سانشو غرسية سيد قشتالة المشاكس.

في منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٠٠٩ م (منتصف جمادي الأولى ٣٩٩ هـ)، وفي قلب موسم الثلوج والأمطار ترك قرطبة مع جيوشه في طريقه إلى طليطلة ومنها عبر إلى أراضي جليقية في وقت لم يسمع بأشد منه قوة برد وكَلَب مطر مما لم يكن ليسمح له بتحقيق كبير إنجاز على الصعيد العسكري.

ويوم الثلاثاء في الخامس عشر من شهر شباط (١٦ جمادي الثاني) وصلت إلى قرطبة أخبار عبور عبد الرحمن وجيوشه أراضي العدو وبدء حربه معهم. وهنا بادر محمد بن عبد الجبار الذي أكمل استعداداته إلى إعطاء أتباعه إشارة البدء بالثورة بعد أن اطمأن لبعد خصمه وأمن من سرعة رجوعه. أخذ هو بنفسه المبادرة وهاجم باب السلطان في قصره الخلافي بقرطبة[2] مع نفر من أتباعه ما كان عددهم يزيد عن اثني عشر رجلاً من السفال والقتلة والسفاحين. وبسرعة مذهلة نجح ابن عبد الجبار ومن معه في اعتقال حاكم قرطبة عبد الله بن عمرو بن أبي عامر فقتلوه ورفعوا رأسه على رمح طافوا فيه الأسواق فاندفع خلق لا يحصى من رعاع العاصمة ومن عنازيها وجزاريها وسفلتها للانضمام إلى المهاجمين في محاصرة القصر الخلافي. وفي نفس الوقت أرسل محمد بن عبد الجبار نفراً من أتباعه اقتحموا سجن العاصمة وفتحوا أبوابه فانطلق جميع من كانوا فيه من اللصوص

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ٩٦.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٥٥.

وأصحاب الجرائم لنصرة الأمير الثائر وأيضاً للمشاركة في نهب ثروات قصر الخليفة هشام المؤيد متى تم اقتحامه.

قامت الثورة بهذه الجموع من رعاع وجهلة قرطبة وأرباضها وبغفل من عقال العاصمة، أو بموافقة ضمنية أو على الأقل بموقف سلبي منهم، فكان من الطبيعي أن تنحو الأحداث ذلك المنحى الهدام والمدمر. في مدى ساعات قليلة صار محمد بن عبد الجبار سيد الموقف في قرطبة وتنازل له عن الخلافة مساء ذلك اليوم هشام الثاني المؤيد بالله بحضور هشام بن عبد الملك كبير أهل العاصمة[1] وتمت له البيعة في إحدى قاعات القصر تحت اسم «المهدي». ومنذ تلك الساعة صار للأندلس خليفتها الرابع محمد بن هشام بن عبد الجبار «المهدي» وغاب عن مسرح أحداثها هشام المؤيد بعد أن عمرت خلافته ثلاثة وثلاثين عاماً ونيف.

بجهل وبغباء مطبق تهافت الناس على الخليفة الجديد «تهافت الفراش على النار، فلم يتوقف عن بيعته أحد منهم ولا استنكف عن قبض عطائه وذلك بطراً للنعمة وملالاً للعافية وجلاً بالفتنة... فلم يتخلف عن أخذ ماله واستحلال نهبه والدخول في فتنته فقيه ولا عالم ولا عدل ولا إمام ولا حاج ولا تاجر»[2].

وبما ان ابن عبد الجبار كان قد وعد رعاع قرطبة وسوقتها وهم يساعدونه في الاستيلاء على القصر الخلافي بأن يبيح لهم نهب مدينة العامريين «الزاهرة» فقد أراد أن يفي بوعده لهم. وعلى هذا بادر بكرة يوم الأربعاء إلى ندب ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة الذي اتخذه حاجباً له لقيادة جموعهم بعد أن سلحهم بالأسلحة السلطانية لمهاجمة قصر الزاهرة والاستيلاء عليه.

حين وصلت هذه الأخبار من العاصمة بادر حاكم الزاهرة عبد الله بن مسلمة إلى ضبط أسوار المدينة وإحكام إغلاق مداخلها واستعد أفضل استعداد مع جنوده

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٦٠.

(٢) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٣، صفحة ٦٢.

السبعمائة للقتال والمدافعة. إلا ان الأمور ما كانت بهذه البساطة لأن الذين كانوا معه من الوزراء وكبار الموظفين أذهلتهم أخبار العاصمة وما جرى فيها وعجزوا عن فهم حقيقتها وإدراك أبعادها فتحيروا وترددوا في اختيار القرار المناسب في الوقت المناسب فما استطاع أهل القصر مواجهة الجموع الزاحفة بالموقف القوي الحازم[1]. بعد مناوشات قصيرة استولى المهاجمون على دار الحاجبية الواقعة خارج أسوار المدينة وكانت مقراً للذلفاء حليفة ونصيرة سيدهم فنهبوا ما فيها وأخذوا من الأمتعة والأساس ما لا يوصف أو يقدر إلى أن تدخل الخليفة الجديد وأمر بنقل المرأة وحفيدها وحاشيتها وما بقي لها من مال ومتاع إلى دار لها في العاصمة. وما لبث أهل الزاهرة أن عزفوا عن القتال والمدافعة واستسلموا للمهاجمين بعد أن وصلهم أمان الخليفة. وبوحشية جاهلة مدمرة هاجمت الغوغاء قصر العامريين ودمرت أسواره واقتحمت أبوابه. تدخل القائد عبد الجبار بعض الوقت موقفاً المهاجمين ريثما تمكن من نقل ما خص به سيده وما أراده لنفسه من موجودات وتحف وجواهر وفاخر الأمتعة ثم ترك الدار لمصيرها فنهب النهابون خزائن الكسوة والفرش والأمتعة والطيب والحلية والذخائر والسلاح والعدة وأخذوا من كل ذلك ما لا يعلمه إلا الله[2].

وما اكتفى الخليفة الجديد بما وصله من منهوبات القصر العامري بل أخذ لنفسه ولأصحابه كل من كن فيه من جواري وأماء بعد أن أطلق الحرائر من النساء. وبعد ذلك مباشرة أمر بهدم مدينة الزاهرة بكاملها وأطلق يد العامة في دك أسوارها وقلع أبوابها وحمل كل ما تصل إليه اليد من حجارتها وعمدها ورخامها ومرمرها مشدداً على ضرورة طمس آثارها مخافة أن يعود عبد الرحمن من غزوته ويتخذها مجدداً مقراً له[3] ومستقراً لحكمه. وفي أيام قليلة زالت من عالم الوجود مدينة

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٥٨.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٦٣.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٦٥.

العامريين واختفى كل أثر لها بحيث صعب على المؤرخين بعد ذلك تحديد موقعها بوجه دقيق.

أحداث قرطبة المأساوية وقيام الخلافة الجديدة وزوال مدينة «الزاهرة» عاصمة العامريين لسنين كثيرة وصلت عبد الرحمن شنجول وهو يعسكر مع جنوده في أراضي الإسبان بعد أن استحال عليه تحقيق الانتصارات التي حلم بها والتي كان يريد أن يحملها في عودته إلى عاصمته كما كان يفعل قبله والده وأخوه المظفر.

استولى على عبد الرحمن شنجول خوف مريع حين أدرك أبعاد ما حدث واختلطت عليه الأمور واستعصى عليه اتخاذ القرار الملائم بالسرعة الملائمة. عاد مع جموعه إلى قلعة رباح حائراً في أمره غير واثق من استمرار ولاء ضباطه وجنوده. بقي في هذه المدينة أياماً عديدة يحاول أن يستوثق من ولاء من معه، وأصر على أن يأخذ منهم فرداً فرداً البيعة على حرب أهل العاصمة، ونصرة الخليفة المظلوم هشام بن الحكم[1] المؤيد بالله. إقامته هذه طالت أكثر مما يجب ومما تسمح به ظروفه الصعبة مما أفقده الكثير من قوته ومن أعوانه. فالأخبار كانت تتوالى من قرطبة حاملة تفاصيل ما حدث مما أخذ يوهن عزيمة المقاتلين ويضعف من ولائهم لرجل فقد شرعيته ومنصبه. يضاف إلى ذلك ان إقامة عبد الرحمن في قلعة رباح أعطت الخليفة الجديد المزيد من الفرص لتأكيد سلطانه وللسيطرة على مراكز القوة السياسية والعسكرية داخل البلاد. وحين اتخذ قراره بالزحف على قرطبة، كان الأمر في نظر المقربين إليه والمحيطين به قد حسم وما بخل عليه بعضهم بالنصح والإرشاد فاقترحوا إليه التوجه نحو طليطلة التي كان سيدها ما يزال على ولائه له ينتظر تطور الأمور ويعد حملته على العاصمة بشكل أفضل. إلا انه أصر على قراره بالزحف لاستعادة عاصمته بقوة السلاح في وقت كان جنوده فيه قد

---

(١) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٣، صفحه ٦٦.

بدأوا يغادرون معسكره أفراداً وجماعات. وحتى أولائك البربر الذين طالما كانوا دعامة الدولة العامرية وعدتها في حروبها المظفرة رفضوا مهاجمة العاصمة مخافة أن ينتقم أهلها من عائلاتهم وأولادهم وأملاكهم فيها. وأيضاً مستشاروه وكبار معاونيه أخذوا يتركونه لمصيره باحثين عن النجاة بأنفسهم وأموالهم. وحين وصل إلى دير أرملاط ضواحي قرطبة ما كان قد بقي معه إلا نفر ضئيل من غلمانه فأودع في قصر له هناك نساءه وعزم على الهرب مع صديق له من بني قومس النصارى بعد أن أدرك استحالة استعادة ما فقد. إلا ان جنوداً بقيادة ابن ذري أرسلهم الخليفة «المهدي» ما لبثوا أن اعتقلوا الرجلين وكبلوهما وساقوهما إلى العاصمة. وحين أدرك عبد الرحمن بن أبي عامرّ انه فقد كل شيء وانه صائر للمثول بين يدي أعداء له، ما عرفت الرحمة والشفقة طريقاً إلى قلوبهم، غافل حراسه واستل سكيناً من جيبه حاول به قطع شرايين يده للموت منتحراً، إلا ان حراسه عاجلوه بضربة سيف على رأسه ثم قتلوه ذبحاً هو وصديقه. وهكذا في الثالث من شهر آذار سنة ١٠٠٩ م (٤ رجب ٣٩٩ هـ)[1] قتل عبد الرحمن بن أبي عامر «شنجول» ثالث الحكام العامريين ومعه زالت الدولة العامرية وانطوت صفحة من أبهى وأجمل صفحات دولة الإسلام في إسبانيا وأحفلها بالمفاخر والانتصارات وأيضاً أغناها بالجرائم والموبقات. وبزوال هذه الدولة بدأت مرحلة جديدة سادت فيها «الفتنة» وعرفت فيها إسبانيا الإسلامية خلال حوالي العقدين من الثورات والمآسي والمحن ما ذهب بدولة بني مروان في الأندلس إلى الأبد.

البـاب الخامِس

نِهَاية دَوْلَة بَنِيَ أميَّة في الأنْدَلسْ

الفِتنَة الكُبرَىٰ

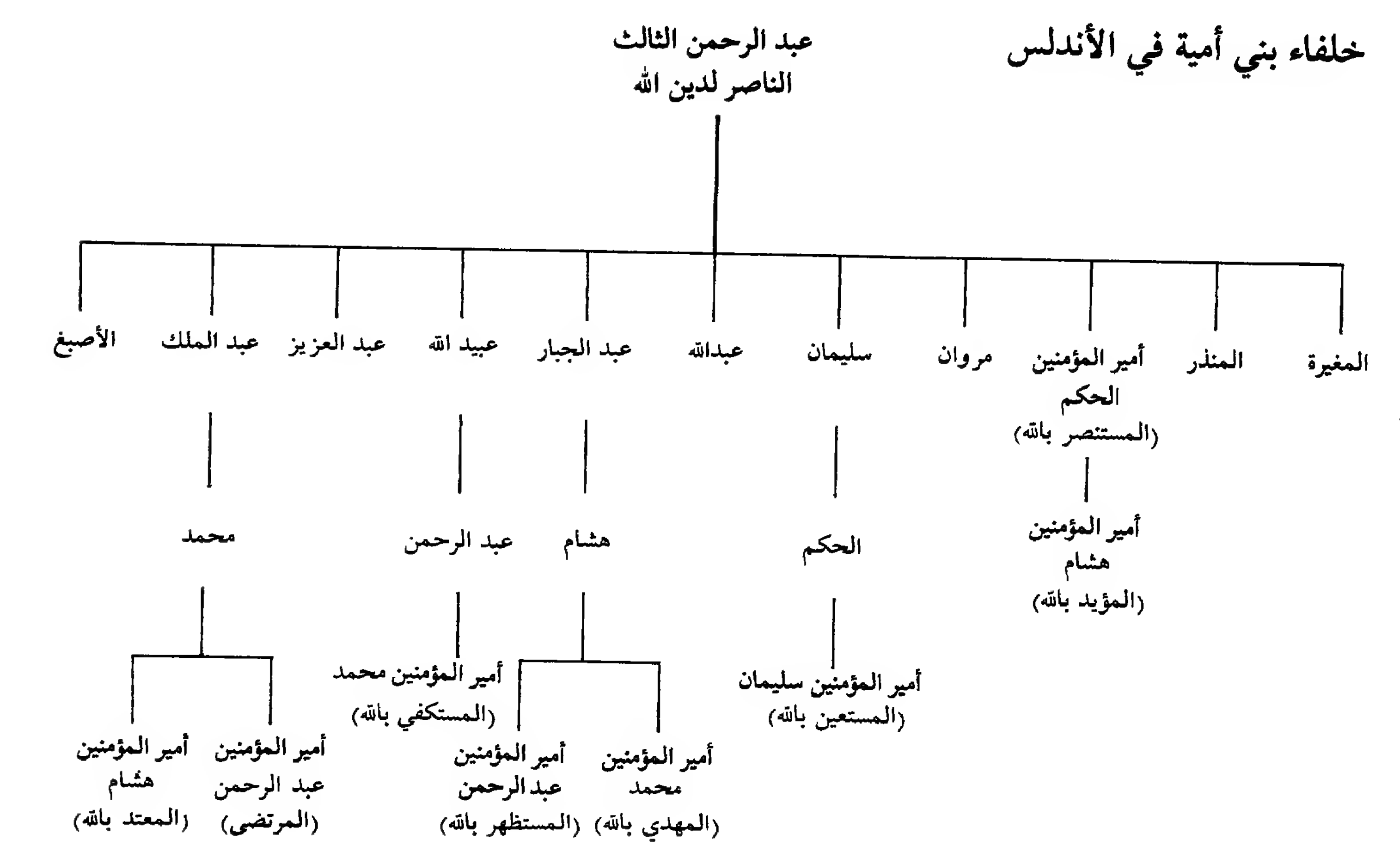
في مطلع القرن الحادي عشر وعلى أيام الخليفة هشام الثاني المؤيد بالله وحاجبه عبد الرحمن بن أبي عامر «شنجول»، وفي وقت كانت فيه دولة الإسلام في الأندلس في قمة ازدهارها السياسي والعسكري والاقتصادي والمالي، انفجرت دفعة واحدة جميع التناقضات العنصرية والحساسيات القبلية والانقسامات السياسية والطبقية التي كانت متوطنة، ومنذ أمد طويل، في بنية المجتمع الأندلسي والتي طالما كسفها توالي حكام عظام على قمة الهرم السياسي في الأندلس. وبوصول «المهدي» إلى سدة الخلافة ومقتل آخر العامريين، بدأت نتيجة لذلك مرحلة من الفوضى والاضطراب، امتدت على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، عرف خلالها القرطبيون سلسلة متلاحقة من الحروب والمحن أطاحت في النهاية بالدولة الأموية في الأندلس. والمستغرب ان دولة بني مروان، ذلك البناء الشاهق العظيم، الذي اجتهد في إقامته، وعلى مدى ما يزيد عن قرنين ونصف القرن أمراء وخلفاء عظام انهارت في وقت قصير جداً لا يتناسب إطلاقاً مع طول فترة التأسيس وعظمة الإنجاز. إنما يبدو ان عناصر الفرقة والهدم في المجتمع الأندلسي كانت قوية، راسخة الجذور، متأصلة في عقول وضمائر الأندلسيين أكثر بكثير مما ظن الذين بهرتهم إنجازات الحكم المستنصر الحضارية وانتصارات المنصور العسكرية في أراضي المغرب كما في بلدان إسبانيا المسيحية. بل أكثر من ذلك كان واضحاً ان حكام، إسبانيا الإسلامية رغم جهود بعضهم العظيمة، ما نجحوا كثيراً في صهر العناصر المختلفة والمتنافرة التي شكلت المجتمع الأندلسي

في بنية قومية واحدة قادرة على الصمود أمام العواصف والتحديات. كما ظهر للعيان ان عناصر الفرقة والتمزق في هذا المجتمع كانت من القوة والرسوخ بحيث تكفي حماقات يرتكبها حاكم ضعيف لتطيح بكل شيء.

القبائل العربية وأكثر من في الأندلس من أبنائها كانوا من القيسيين، ما استساغت في حال من الأحوال تسلط العامريين (يمنيين) على الحكم والخلافة، وإذا كانت قد استكانت بعض الوقت فما ذلك إلا خوفاً من بطش المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر، وأيضاً لأن الرجلين، إلى جانب كل ما قدماه من منجزات عظيمة بهرت الأندلسيين وقتاً طويلاً وشدتهم إليهما، قد حفظا الخلافة في البيت المرواني وتركا للأمويين عموماً الأمل بقرب عودة الحكم بكافة مظاهره لأهله وأصحابه الشرعيين. ومع ذهاب ولاية العهد إلى عبد الرحمن «شنجول» كان لا بد أن تطرح المشكلة بكافة أبعادها واستعيدت إلى الذاكرة كل الخلافات القيسية ـ اليمنية القديمة. ثم إن القبائل العربية عموماً ـ قيسية ويمنية ـ ما وضعت جانباً أنانيات رؤسائها ونزعتهم الفردية، وطموح كل واحد منهم، إلى السلطة والحكم، وما يجره الحكم من ثروة ونفوذ، طيلة أيام العامريين وقبلهم الناصر والمستنصر إلا مكرهة مضطرة. ومع عبد الرحمن «شنجول» كان لا بد أن تعود الأرستوقراطية العربية إلى واجهة الأحداث محاولة التعويض عما فاتها واستعادة ما فقدته من مواقع في السلطة كما في المجتمع.

والبربر فتح لهم المنصور الباب على مصراعيه فأقبلوا أفواجاً ووحداناً يعبرون البحر من العدوة لينضموا ألى جيوش الأندلس يشكلون عدتها وعمودها الفقري ويفيدون من عطايا العامريين وتقدماتهم وأيضاً مما كانت تجره عليهم حروب هؤلاء الكثيرة من غنائم ومكاسب وأسلاب. ومع الوقت صار هؤلاء يشكلون جل الجيش الأندلسي وانتشرت جموعهم وعائلاتهم في أحياء قرطبة وأسواقها كما في أرباضها يعيشون بين الأندلسيين في وضع معاشي متميز ضمنته السلطة لهم. هذا الوضع المستجد ما راق كثيراً للقرطبيين وصار يحي في نفوسهم

خلفاء بني أمية في الأندلس



تدريجياً ذكريات الصراع العربي ـ البربري القديمة. يضـاف إلـى ذلك إن هذه الجموع البربرية الحديثة العهد في الأندلس كانت ما تزال تحتفظ بلغتها وعاداتها وأساليب عيشها البدوية الأفريقية مما لم يكن إلا ليزيد الشقة بينهـا وبين أبنـاء العاصمة. وفوق هذا وذاك فإن قرب البربر من الحكام العامريين وارتباطهم بهم كان يجعلهم بشكل أو آخر يتحملون أوزار السلطة والحكم ويسألون ولو بصورة غير مباشرة من قبل الجماهير الأندلسية عن تسلط العامريين واستبدادهم بالخليفة والناس. وبذا جاء سقوط حكم عبد الرحمن «شنجول» بمثابة ضربة موجعة للبربر جعل منهم بصورة أساسية في مواجهة مختلف عناصر أعـداء الدولـة العامـرية وجعلهم بالتالي عنصراً أساسياً في كل الثورات والصراعات التـي سبقـت انهيار الخلافة الأموية.

أما الفتيان العامريون[1]، الذين خسـروا بذهـاب آخـر العامـريين مواقـع أساسية في السلطة والمحتمع فإنهم سيكونون حكماً وبدافع الحفاظ على البقاء والمصالح أيضاً طرفاً في الصراعات التي ستشغل ربع القرن الذي سيلي سقوط الدولة العامرية. ومع ان عدد هؤلاء الفتيان الصقالبة ما كان كبيراً، بالنسبة للعناصر الأخرى، ومع ان جذورهم في المجتمع الأندلسي ما كانت قديمة العهد، إلا انهم في الفترة المذكورة مارسوا دوراً رئيسياً بسبب قرب كثيرين منهم من المواقع الهامة في السلطة ولما كان لبعضهم من ثروات كبيرة استغلوها بذكاء ومقـدرة لصيانـة مواقع ومصالح طبقتهم.

ونضيف إلى كل ذلك ان نهج العامريين في الحكم على ما قدم من إنجازات للأندلس وما أعطاه للأندلسيين من استقرار سياسـي وأمنـي ومـا وفـره لهـم من انتصارات عسكرية باهرة ومن رخاء اقتصادي لا مثيل له، رافقه وجه آخر سلبي. لقد افتقد الأنـدلسيون، طيلـة ثلـث قرن من حكمهـم قدراً كبيراً من الحـرية،

---

(١) وهم العبيد الصقالبة الذين اشتراهم العامريون وأدخلوهم في خدمة الخاصة كما في خدمة دولتهم.

وخضعوا لنظام استبدادي قاهر يدين على الشبهة، ويعاقب على الشك، قضى على الآلاف دون ذنب ظاهر وألقى بآلاف آخرين في غياهب سجون رهيبة، وساق ألوف الشبان إلى ساحات القتال في حروب متتابعة لا تهدأ واحدة حتى تبدأ أخرى. ولو إن هذه الحروب كانت ظافرة كلها دون استثناء، وكانت تبهر الأندلسيين وتثري بعضهم بغنائمها، وتزين بيوتهم وقصورهم بسباياها، إلا انها كانت تترك آثاراً موجعة بين الناس بما تسببه من قتل أو جرح أو أسر قريب أو معيل. وما كان هذا إلا ليقيم أسس معارضة متزايدة في صفوف الأندلسيين للدولة العامرية. يضاف إلى ذلك ان اعتماد العامريين في الجيش على عنصر البربر بصورة أساسية وعلى الفتيان الصقالبة بدرجة أقل ما كان إلا ليزيد في المدى الطويل في العداء لهؤلاء في قلوب عامة الأندلسيين.

بصورة عفوية وبانفعالية آنية طالما ميزت القرطبيين، ابتهج هؤلاء بولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار «المهدي» وأقاموا الأعراس والليالي الملاح في رحاب العاصمة وأرباضها وداموا على ذلك أياماً[1]. لقد تصرفوا بفرح عظيم وبدوا وكأن كابوساً مرعباً قد انزاح عن صدورهم. لقد فعلوا كل ذلك بغباء لا حدود له، دون أن يعرفوا أي مصير ينتظرهم ودون أن يتساءلوا عن صفات وميزات الحاكم الجديد الذي إليه صارت أمورهم، والذي أسلموه ريادتهم ومستقبل بلدهم. بل الأسوأ من ذلك انهم سمحوا لأنفسهم بالانقياد إلى إمرة واحد من المروانيين ما اشتهر في حياته بمكرمة ولا عرفت عنه حسنة.

استهل «المهدي» عهده بتسمية ابن عمه سليمان بن هشام بن الناصر لولاية عهده، وصير الحجابة إلى ابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة، وأعطى شرطة المدينة لمحمد بن المغيرة، وما كان لواحد من هؤلاء فضل أو خبرة أو ذكاء أو خلق فكانوا فعلاً أشباه سيدهم في بشاعة المناقب وسؤ التدبير. واتبع ذلك بحماقة كبيرة

---

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١١٢ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٧٤.

عند ما أثبت أسماء الألوف ممن تبعه من سفلة قرطبة واراذلها في سجل العطاء مما جعل منهم حملا كبيراً على خزانة الدولة. كما ألحق كثيرين من هؤلاء بالجيش وهم لا خبرة لهم ولا دراية في الحرب والقتال[1] فكانوا عبئاً عليه أكثر مما كانوا دعماً له. وكما أعطى الأراذل وسفلة القوم المراكز العليا في الدولة فقد اختار من أمثالهم خدمه وحاشية قصره فأساؤوا معاملة الوافدين عليه واستخفوا بكثيرين من وجهاء البلاد وعلمائها وقادة عساكرها ولم يميزوا بين كبير وصغير ولا فرقوا بين عالم ووضيع متجاهلين كل أصول الاستقبال ومجافين قواعد التشريفات في القصور الملكية. وما سلم من أذاهم حتى كبار رجال الدولة من أمثال زاوي بن زيري بن مناد زعيم قبائل صنهاجة البربرية[2] مما كان بداية الفرقة بين المهدي والبربر. ويبدو ان «المهدي» ما كان أصلاً يحب البربر عموماً إذ كان يأخذ عليهم انهم كانوا الدعامة العسكرية للدولة العامرية، ومن هنا فإنه تجاهل الإساءة إلى زاوي بن زيري على أبواب قصره كما تعمد الإساءة المستمرة لقومه متجاهلاً بغبائه وقلة درايته في التعامل مع الناس فضلهم وشجاعتهم وأنفتهم وقوتهم العسكرية. وما تردد في أن يتسبب في طرد الزعيم الصنهاجي في إحدى المناسبات، عن أبواب قصره في غاية الذل والمهانة مما اعتبرته عامة قرطبة وأراذلها دعوة غير مباشرة لمهاجمة دور البربر في ضاحية الرصافة ونهبها[3].

هذه الممارسات الخاطئة على كثرتها وأهميتها ارتكبها «المهدي» في الشهر الأول من تسلمه السلطة وقبل أن يستتب له الأمر بالفعل وتعلن مناطق الأندلس اعترافها بخلافته. وفي الوقت الذي أخذ فيه البربر يبتعدون عنه ورده رسول من قبل صاحب مدينة سالم كبير الفتيان العامريين يعلنه فيه اعترافه بسلطانه وخضوع سائر مناطق الثغر الأوسط لحكومته. ومع ان الخليفة سر كثيراً بهذه الرسالة، وأقر

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب. صفحة ١١١.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء٣، صفحة .
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٧٦.

صاحبها على مابيده، فإنه ما عرف كيف يتخذ من هذه الصلة جسراً إلى سائر الفتيان العامريين ليضمهم إلى صفه يستقوي بهم ويستفيد من خبرتهم ومن مواقعهم الهامة في الإدارة والمجتمع. على العكس من ذلك وبغباء عجيب بادر لطرد عدد كبير من الفتيان العامريين من قرطبة فذهبوا إلى مناطق شرق الأندلس حيث أقاموا لأنفسهم قواعد هامة كان لها دور أساسي في مناصبته العداء والإعداد لإسقاط حكمه وأيضاً في بداية تفتيت الأندلس وشرذمته.

وحين تصور ان أمره قد استتب والبلاد دانت لحكمه قرر إنهاء قضية هشام المؤيد بالله التي طالت كثيراً فاستغل بشكل مسرحي مضحك موت رجل من أهل الذمة توفي وكان شديد الشبه بهشام فأعلن وفاة الخليفة السابق وأشهد على ذلك الوزراء والقضاة ودفنه بمأتم رسمي في شهر نيسان سنة ١٠٠٩ م (شعبان ٣٩٩ هـ) في حين أبقى هشاماً الحقيقي رهين الأسر[١].

إعلان هذه الوفاة بالشكل الذي تم فيه والحماقات المستمرة في التعامل مع الناس بدأت تتفاعل لتكون نواة معارضة متزايدة ضد ابن عبد الجبار تصدى لقيادتها بعض المروانيين مما جعله يعتقل عدداً منهم بينهم سليمان الذي اختاره لولاية عهده. وقد ظهرت بالفعل أول معارضة جدية له ولعهده حين قاد الأمير هشام بن سليمان بن الناصر ابن ولي العهد حركة تمرد انطلقت من ضاحية فحص السرادق التي كان ينزل فيها البربر بكثرة والذين أيدوه ودعموا تحركه. إلا ان هذا التمرد انتهى بالفشل وقتل زعيمه، الذي لقب نفسه بالرشيد، وانطلقت عامة قرطبة، بأمر وبموافقة من الخليفة «المهدي» تلاحق من كان في العاصمة من البربر وتعمل فيهم القتل والأسر والسبي. وكان من نتيجة ذلك أن هرب المغاربة عموماً إلى محلة أرملاط خارج قرطبة[٢]. فاستقر بعضهم فيها وهرب آخرون إلى مناطق الثغور يبحثون عن الأمن والسلامة وأيضاً يستعدون للثأر في مواجهة جديدة مع

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٧٧ ـ أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١١٢.
(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١١٣.

سكان العاصمة. وتعبيراً عن قرارهم خلع طاعة «المهدي» اختار كبيرهم زاوي بن زيري بن عطية، أحد المروانيين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، وكان قد فر من قرطبة خوفاً من بطش سيدها، أميراً للمؤمنين واختار له لقب «المستعين بالله»[1]. وجد البربر بعد ذلك في العمل على العودة إلى العاصمة لإنقاذ من بقي فيها من أقاربهم وأولادهم وأيضاً لحمل من نصبوه إماماً عليهم إلى القصر الخلافي ليصبح بالفعل سيد كل الأندلس.

وكان سيد قشتالة، سانشو غرسية، يرقب عن بعد خلافات الأندلسيين وتطورات الفتنة الدائرة بين القرطبيين والبربر منتظراً الظرف المناسب للتدخل ثأراً لما أنزل به العامريون من هزائم. وحين اشتد التنافس بين «المهدي» «والمستعين» أقبل الإثنان على طلب المساعدة منه والسعي للتحالف معه فاختار هو جانب البربر الذين تعهدوا له في حال انتصارهم بإعطائه عدة من القلاع والحصون الهامة على نهر الدويرو. وبالفعل قدم لهم عربون تحالفه معهم الوافر من الأغذية والمؤن مما كانوا في أمس الحاجة إليه ثم أقبل إليهم بعسكر عظيم من الإسبان النصارى[2].

زحف البربر وحلفاؤهم القشتاليون من منطقة تجمعهم في مناطق الثغور نحو قرطبة وبوصولهم إلى أحواز مدينة سالم تصدى لهم واضح حاكم الثغر الأوسط من قبل الخليفة «المهدي» فهزموه واضطروه للفرار نحو العاصمة. وفي مطلع تشرين ثاني سنة ١٠٠٩ م (ربيع أول سنة ٤٠٠ هـ) وصل سليمان المستعين ومن معه من الجنود البربر والقشتاليين إلى ضاحية أرملاط فتصدى لهم «المهدي» ومن معه من جنود جلهم من عوام القرطبيين ورعاعهم ممن لا قدرة لهم ولا خبرة في أمور الحرب والقتال. وكان انتصار «المستعين بالله» كبيراً في

---

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب صفحة ١١٣.
(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١١٣.

المواجهة التي حصلت بعد ذلك بيومين قريباً من ضفة نهر الوادي الكبير وهلك جمع عظيم من القرطبيين، منهم من مات غرقاً في مياه النهر، ومنهم من هلك على أيدي جنود سانشو غرسية الإسباني[1]. وفي اليوم الثامن من شهر تشرين ثاني (١٦ ربيع أول) دخل زاوي بن زيري، كبير الصنهاجيين، القصر في قرطبة مسترداً اعتباره بعد الإهانات العديدة التي وجهها له ولقومه «المهدي» ثم وافاه إليه سليمان «المستعين بالله» الذي ما لبث أن نودي به خليفة للأندلس في مسجد قرطبة الجامع[2]. اكتفى سانشو غرسية من النصر بما حمله جنوده من غنائم كسبوها في ساحات القتال، وبما ناله هو من تكريم أثناء إقامته القصيرة في عاصمة الأندلس، وعاد إلى بلاده قانعاً بأن يعطى الحصون التي وعده بها «المستعين بالله» حين تسمح بذلك الظروف. أما محمد بن عبد الجبار «المهدي»، فقد خرج من العاصمة متنكراً وقصد طليطلة حيث نزل في ضيافة أهلها وفي حمى الفتى واضح صاحب الثغر الأوسط الذي لقي عنده كل ترحيب وتكريم. وبقيت مناطق الثغور بمجملها تدين له بالطاعة والولاء وتدعو له من على منابرها.

سليمان المستعين بالله:

هو أحد أحفاد الناصر العظيم، صارت إليه الخلافة عن طريق البربر وباختيارهم وبحمى سيوفهم وحرابهم، وبذا كان عليه دائماً أن يواجه عداء القرطبيين بصورة خاصة والأندلسيين عموماً. فهو ما كان حراً في اعتماد السياسة التي يريد ولا كان قادراً على محالفة من يرغب. لقد جاء إلى الخلافة من ضمن لعبة الصراع البربري ـ الأندلسي فظل في جميع الحالات أسير هذا الصراع وتطوراته. عرف به ابن بسام بانه «ممن مدت له في الأدب غاية، كبا دونها أهل الآداب، ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب. . . وهو

(١) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٣، صفحة ٩٠.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٩١.

أحد من شرف الشعر باسمه، وتصرف على حكمه»[1]. وهذه صفات طالما ميزت حكام بني أمية في الأندلس، إلا انها وإن كانت هامة وضرورية إنما لا تكفي ولا تجعل من صاحبها بالضرورة رجل دولة. ويبدو ان سليمان المستعين هذا وإن كان يملك الكثير من صفات رجل الدولة إلا أنه ما كان رجل الظروف القاسية التي كانت تمر بها دولة دولة الإسلام في الأندلس.

سارع المستعين إلى تنظيم دولته فعين العمال على الولايات والمناطق التي اعترفت بسلطانه وحاول ضبط أمن العاصمة. وكان من أحكم ما فعله انه أسكن أعوانه من البربر في مدينة «الزهراء» خارج العاصمة لتلافي إقامتهم مع القرطبيين الذين كانوا يزدادون كل يوم عداء لهم ولا يتورعون عن إيذاء من وجدوه منهم في خلوة أو منفرداً أو من سولت له نفسه دخول أسواق المدينة وأزقتها. في هذا الوقت كان «المهدي» في طليطلة يجمع جموعه ويحشد الأنصار بمساعدة الفتى واضح، حاكم الثغر الأوسط لاستعادة عرشه. أجرى لذلك اتصالات مع حكام مناطق برشلونة الذين زارهم واضح، باسم سيده، وطلب العون والمساعدة منهم. وفعلاً اتفق مع بوريل الثالث.Borrell III صاحب برشلونة وأرمنغول Ermengol.[2] سيد أورخل على أن يقدما المساعدة للمهدي في استعادة عاصمته مقابل تقدمات مالية سخية وأيضاً لقاء وعد بتسليم مدينة سالم لهما. وحين كان القائدان الإسبانيان في طريقهما إلى طليطلة لملاقاة واضح والمهدي تسلما المدينة التي وعدا بها[3] والتي طالما كانت منذ أيام الناصر قاعدة أمامية لدولة الإسلام في إسبانيا والتي بالغ المنصور في تحصينها والاهتمام بها. بالمقابل سعى المستعين بالله لاستمالة أهل طليطلة إلى جانبه وأيضاً سكان مناطق الثغور إلا انه ما نجح في ذلك إذ كان العداء له وللبربر قوياً للغاية. بمرافقة الإسبان النصارى سار

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، مجلد ١، قسم ١، صفحة ٤٦.

(٢) تسميه المصادر العربية أرمقند.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٩٤.

«المهدي» وواضح إلى العاصمة ومعهما حوالي أربعين ألف جندي نزلوا في مكان قريب منها يدعى «عقبة البقر». وفي أواخر شهر أيار سنة ١٠١٠ م (١٤ شوال سنة ٤٠٠ هـ) خرج سليمان المستعين لملاقاة أعدائه في جموع جلها من البربر يقودها الزعيم الصنهاجي زاوي بن زيري بعد أن تخلف القرطبيون عن تأييده ومساعدته[١] نفوراً من الحرب وكرهاً لحلفائه. وفي قتال دار بعد ذلك بعدة أيام أبلى البربر بلاءً حسناً وكادوا ينتصرون لولا ان سليمان نفسه، بقلة خبرته في الشؤون العسكرية قصر عن فهم تطورات المعركة، وعجز عن الالتزام بالخطة الموضوعة فعمد إلى الفرار من أرض المعركة خوفاً ودون مبرر مما أدى إلى ضعضعة صفوف جنوده فانسحبوا مع انهم ما هزموا بل تمكنوا من قتل أحد زعيمي الإسبان مع عدد من وجوههم. ارتد البربر نحو الزهراء حيث أخذوا أموالهم وعيالهم وساروا نحو جنوب الأندلس بهدف العبور إلى المغرب تاركين سليمان لمصيره.

ولاية المهدي الثانية:

وفي اليوم التالي دخل المهدي العاصمة ومعه واضح وحلفاؤه الإسبان مستعيداً عرشه ومباشراً ولاية ثانية لن تكون على كل حال طويلة لأن الصراع العربي ـ البربري لم يحسم بل استفحل واشتد حدة وضراوة. عندما حل في قصر الخلافة، بعد أن جدد البيعة لنفسه كان يتحكم به هاجس واحد هو الثأر من البربر وضرب جموعهم، وكانت قد وصلت إلى نواحي بلدة مربيلة، قبل أن تتمكن من الخروج من الأندلس. جمع من أهل العاصمة ما استطاع من رجال وسلاح وأخذ منهم من المال ما قدر عليه، على قلة ما كان عندهم، بسبب توالي الحروب وخراب الزراعة والتجارة، وسار على رأس جيشه ومعه حلفاؤه الإسبان النصارى باتجاه وادي آرو قريباً من بلدة مربيلة.Marbella في طرف الشاطىء الجنوبي

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٩٤.

للأندلس. وبجيوشه التي بلغ تعداد مقاتليها حوالي أربعين ألف رجل هاجم جموع البربر في الحادي والعشرين من حزيران سنة ١٠١٠م (٦ ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ) فأنزلوا به هزيمة ساحقة وقتلوا من حلفائه الإسبان حوالي ثلاثة آلاف وغرق منهم خلق كثير في مياه وادي السقائين[2]. احتوى البربر على ما لا حد له من أموال رجال بن عبد الجبار ورجال واضح وحلفائهما. عاد بعد ذلك ابن عبد الجبار وواضح مسرعين إلى قرطبة ليستعدا لجولة جديدة في ذلك الصراع المضني بينما آثر الإسبان العودة مفلولين إلى بلادهم[3]. أما البربر فقد انحازوا أولاً إلى ناحية أقليم رية حيث لقيهم سليمان المستعين استعداداً، هم أيضاً، لاستئناف ذلك الصراع الذي أنهك البلاد وأتعب العباد، بعد أن عزفوا عن العودة إلى العدوة.

بدأ ابن عبد الجبار يتهيأ لجولة جديدة مع البربر وكذلك واضح صاحب الثغر الأوسط وطليطلة، في وقت كان القرطبيون قد سئموا القتال والخلاف وأضعفت قواهم الأزمة الاقتصادية الطويلة وفقدوا كثيرين من شبانهم في ساحات الحرب. أمر المهدي بحفر خندق طوق به قرطبة وبنى وراءه سوراً حصيناً يساعد في رد هجوم بربري منتظر. ولمواجهة المصاريف المتزايدة فرض الضرائب والإتاوات على أهل قرطبة مما زاد في حرج أوضاعهم فزادوا كرهاً بالحرب وازدادوا نفوراً منه ومن سياسته، على رغم عدائهم الشديد للبربر.

بالمقابل أحسن البربر وسليمان المستعين بالله الاستعداد للمواجهة المنتظرة واستولوا على موقع ببشتر العظيم التحصين، قلعة ابن حفصون سابقاً، والكثير الماء والمرعى والمزارع فزاد ذلك في قوتهم[4] وأخذوا يغيرون بصورة

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٩٦.

(٢) نهر صغير يجري في عمق وادي آرو.

(٣) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١١٦.

(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٩٩.

مستمرة على أحواز قرطبة، يتلفون المزارع، وينهبون القرى ويقطعون المواصلات. واتخذ فريق منهم مكاناً أكثر قرباً منها مما زاد في القدرة على مراقبة تحركات القرطبيين وعلى مهاجمة قوافلهم وأيضاً تحصيناتهم.

اشتدت الأزمة في قرطبة وأخذ الناس يتصايحون ويضجون من حصار البربر لهم وغاراتهم على أراضيهم وبدا لهم ابن عبد الجبار «المهدي» وكأنه العقبة الوحيدة التي تحول دون عودة السلام إليهم. ومما زاد في نفور الناس من حكمه إجحافه بهم وانهماكه في الخمر والمجون واللهو[1]. وكان الفتيان العامريون، وقد زاد عددهم بقرطبة بمن وفد إليها أخيراً من شاطبة، بعد نزوح البربر، وخاصة الفتيين الكبيرين خيران وعنبر، ينقمون على «المهدي» دوره في إزالة الدولة العامرية ويعتبرونه مسؤولاً عن كل ما نزل بدولة الإسلام منذ مقتل عبد الرحمن بن أبي عامر «شنجول» فتآمروا عليه مستغلين نقمة القرطبيين على حكمه. ولما كان واضح في أعماقه أقل منهم كرهاً للمهدي وحقداً عليه فقد وافقهم على ضرورة التخلص منه.

دخل فريق من الفتيان يوم الأحد في ٢٣ تموز سنة ١٠١٠ م (٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ) القصر وملكوه وأخرجوا الخليفة السابق هشام المؤيد بالله من محبسه وأقعدوه على سدة الخلافة ثم حملوا إليه ابن عبد الجبار فعاتبه طويلاً على ما فعل وجنى وأمر بإخراجه وبعد ذلك قتلوه ورموا بجثته إلى الشارع[2].

ولاية هشام المؤيد بالله الثانية:

وهكذا استرد هشام المؤيد سلطانه، وسط ظروف مأساوية، فجدد البيعة لنفسه في المسجد الجامع واختار لحجابته الفتى العامري «واضح» صاحب الثغر الأوسط. أرسل هشام رأس المهدي إلى سليمان المستعين بالله في محاولة

---

(١) (٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ٩٩ ـ أعمال الأعلام ابن الخطيب، صفحة ١١٦.

لاسترضائه وكاتب البربر يطلب منهم الاعتراف بخلافته وإعلان الطاعة له[1]. إلا ان هذه المبادرات باءت بالفشل لأن الصراع بين القرطبيين والبربر كان قد تجاوز إمكانية المصالحة والتفاهم سلماً.

بعد أشهر قليلة من استعادة هشام الخلافة جنح البربر إلى تشديد متزايد لحصارهم على من صاروا ألد أعدائهم، القرطبيين لكثرة ما كانوا ينزلون من الأذى والعنت بمن كان ما يزال منهم في العاصمة. اقتربوا أكثر من المدينة ونزلوا في ضاحيتي شقندة وفج المائدة بحيث ما عاد يفصلهم عنها غير الخندق والسور الذين أقامهما المهدي. كذلك نزلوا في مدينة الزهراء وأخرجوا من كان فيها من جنود الخليفة. وما اكتفى البربر بذلك وإنما صاروا يهاجمون كور الأندلس وخاصة مالقة وألبيرة يقتلون ويسبون ويدمرون وينهبون[2] كل ما تصل إليه أيديهم. اشتد الأمر على أهالي المدينة المحاصرين وعجز صاحب السلطان الفعلي فيها، واضح، عن دفع الأذى عنهم. أما هشام فكان على عادته لا يقدم ولا يؤخر ولا يحسم أمراً لأنه ما عرف ولا استطاع في يوم من الأيام أن يكون سيداً بحق وحاكماً بالفعل. ومع هذا فإن القرطبيين ما ازدادوا إلا كرهاً للبربر وحقداً عليهم وهؤلاء لا يكفون عن الإغارة على أحواز قرطبة «يخربون الديار، وينسفون النعام، ويسبون الحريم، ويصادرون بالفداء من يتهم باليسار من الرعية»[3]. ويبدو ان يأس القرطبيين وقنوطهم دفعا بهم إلى تلمس العون والمساعدة من الإسبان. ولما كان القشتاليون يراقبون عن بعد تطور الأوضاع في قرطبة فإنهم ما ترددوا في الاتصال بهشام وواضح وأرسلوا لهما وفداً من قبل صاحب قشتالة يطالب باستعادة جميع القلاع والحصون الواقعة على الحدود والتي احتلها الحكم المستنصر والمنصور والمظفر. وافق سادة قرطبة على تسليم تلك الحصون طمعاً بمساعدة يقدمها لهم نصارى الشمال أو على الأقل لكي لا يتحالف هؤلاء مع أعدائهم البربر.

---

(١) أعمال الأعلام ابن الخطيب، صفحة ١١٧ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٠١.

(٢) (٣) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١١٧.

ووضع اتفاق بحضور الفقهاء والقضاة والمفتين يعطي الإسبان أزيد من مائتي حصن وقلعة[1] مما أفقد الإسلام خط دفاعها الأول والأقوى مع إسبانيا المسيحية. يضاف إلى ذلك أن تحركات البربر المستمرة في مناطق الثغور قد خربت مدناً كثيرة ودمرت ما لا يحصى من القرى وهجرت الكثيرين من السكان في المناطق المحيطة بطليطلة ومدينة سالم مما سيعرض في المستقبل القريب منطقة الثغر الأوسط لأشد الأخطار.

استمرت الحرب بين البربر والقرطبيين، وكل فريق يزداد كرهاً للآخر وتصميماً على الخلاص منه وإذلاله في وقت كانت الأزمة الاقتصادية في العاصمة تبلغ حداً لا يطاق، حتى ان الخليفة اضطر لبيع كل ما كان عنده من تحف ورياش ومتاع وكتب وحلي ثمينة لتمويل الحرب ومتابعة القتال.

وحين شعر الحاجب واضح باستحالة الاستمرار في الصمود، ومقاتلة البربر، وأيضاً استحالة الخروج إليهم كما كان يلح أهل قرطبة اليائسين اختلطت عليه الأمور وعزم على الهرب تاركاً الناس لمصيرهم. تنبه لذلك بعض جنوده وأعوانه وخافوا على أنفسهم فهاجموا قصره وصادروا ما كان فيه من مال ومتاع وقتلوه وطافوا برأسه في أسواق العاصمة. وتسلم أمن قرطبة بعد ذلك رجل عرف بالقوة والحزم والشدة يدعى وداعة فعمل فعلاً على إشاعة الأمن وضبط أمور الناس. توالى الحصار على العاصمة واشتد البربر في قطع المؤن والأغذية عنها ولاحقوا بالقتل كل من تجرأ على الدخول إليها أو الخروج منها. ضج أهالي المناطق والثغور من الحرب ومن أذى البربر وطلبوا من القرطبيين مصالحة أعدائهم أو الخروج إليهم لحسم الصراع معهم. وفي شهر أيار من سنة ١٠١٣ م (شوال ٤٠٣ هـ) وقع أحد كبار قادة البربر ماكسن ابن شقيق زاوي بن زيري زعيم صنهاجة أسيراً بيد القرطبيين «فقتلوه وقطعوه قطعاً وتهادوا لحمه فأكلوه لما كان

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١١٧ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١٧.

أكثر من قتلهم وما جربوه من شجاعته وشدة نكايته»[1]. منذ وقع هذا الحادث اشتدت وتيرة هجمات البربر على قرطبة وأهلها وتوالت هزائم هؤلاء حتى هزيمتهم الكبيرة فخرج قاضيهم ابن ذكوان يطلب من البربر ومن سليمان المستعين بالله الأمان فأمنوهم لقاء مبالغ كبيرة من المال.

ولاية سليمان المستعين بالله الثانية:

وفي ١٠ أيار (٢٧ شوال) دخل سليمان قصر قرطبة للمرة الثانية وجدد البيعة لنفسه ثم استحضر هشاماً ووبخه وجعله يخلع نفسه. بعدها أقدم على خطوة كانت غاية في الحكمة والتعقل والمصالحة إذ خرج وأصحابه البربر للإقامة في مدينة الزهراء خارج أسوار العاصمة حقناً للدماء وتفادياً لما قد يحدث فيما لو أقام هؤلاء في بيوت العامة وأحيائها وسط ذلك الجو الشديد العداء لهم. إلا انه كان من الواضح ان الحكم في هذه المرحلة كان في الواقع للبربر إذ كان منهم الحاجب والوزير[1] وكبار الموظفين والولاة. وهذا أبعد القرطبيين عن المستعين بالله وزاد في مخاوفهم فهرب كثيرون منهم تاركين أموالهم وديارهم تحت رحمة أعدائهم.

أراد سليمان وهو يدرك ضعف دولته وضيق حدود سلطانها، إذ ما كان هذا يتجاوز أحواز العاصمة، أن ينهي حكاية هشام المؤيد التي طالت كثيراً والتي كان يخشى أن يأتي من يستغلها ضده. لقد غيب خبر هشام رسمياً وعلنياً وأسلمه إلى ابنه محمد بن سليمان بعد أن أوصاه به خيراً كما قال وادعى[2]. اختلف المؤرخون بعد ذلك في مصيره الحقيقي فقال بعضهم إن محمداً هذا قتل هشاماً دون علم أبيه وقال آخرون إنه فر من قرطبة وعاش متخفياً في ألبيرة يتعيش من سقاية الماء إلى أن

---

(١) البيان المغرب، جزء ٣، صفحة ١١٢.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١٣ ـ أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١١٩.

(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صحفة ١١٤.

(٤) (٥) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٢٠.

ظهر بعد ذلك بشكل مسرحي في أشبيلية على يد بني عباد. إلا ان الأرجح هو إنه قد اختفى إلى الأبد منذ ذلك الوقت دون أن يخلف عقباً يرث حقه أو يطالب بدمه.

وفي خطوة ثانية، أراد بها سليمان المستعين بالله أن يمكن لسلطانه، رأى أن يبعد نفوذ البربر عن العاصمة ما استطاع، مقتنعاً باستحالة إقامة نوع من التعايش بين أهل قرطبة وحلفائه بعد كل ما أهرق من دماء بين الفريقين فعمد إلى توزيع قبائلهم على المناطق مقطعاً رؤساءها بعض كور الأندلس. أنزل بني زيري بن مناد من قبائل صنهاجة كورة ألبيرة، وأعطى بني مغراوة جوفي البلاد، ومنح بني برزال وبني يفرن كورة جيان والمناطق المحاذية لها، وأحل بني دمر وأزداجة في شذونة ومورور وأحوازهما، وولى علي بن حمود على سبتة، مما بقي للأندلسيين من مناطق ما تزال تحت نفوذهم في العدوة المغربية، وأخاه القاسم على مدينة طنجة وأصيلا الخضراء[1]. ولم ينس المستعين، وهو يكافىء من ساعدوه وردوا إليه خلافته أن يعطي التجيبيين، وما كانوا من البربر، لما قدموه له من عون وتحالف صادق، سرغوسة ومعها ما بقي للمسلمين من مناطق الثغر الأعلى.

هذه الخطوة الأخيرة التي أرادها المستعين بالله لتقوية نفوذه في قرطبة من جهة، ولطمأنة سكانها وسائر من بقي على طاعته من الأندلسيين على قلتهم والذين كانوا يتخوفون من الوجود البربري الكثيف، كانت لها أبعاد غاية في الخطورة. انتشار القبائل البربرية في مناطق جنوب ووسط الأندلس بصورة رسمية وشرعية وتسلطهم على حكم كورها وحواضرها أخضعها بصورة دائمة لنفوذهم وأكد شرذمة سلطان دولة الإسلام في إسبانيا. ومع الوقت شكلت هذه القبائل مراكز قوى ستتحول تدريجياً إلى دويلات بربرية مستقلة تقوم على حساب نفوذ وسلطان خلافة قرطبة. ومما زاد في أذى انتشار النفوذ البربري في قرطبة كما في المناطق ان

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء٣، صفحة ١١٣ ـ أعمال الأعلام ابن الخطيب، صفحة ١١٩.

الفتيان الصقالبة العامريين الذين كانوا على عداء مع زعماء البربر خافوا هم أيضاً على ما بيدهم من مال ونفوذ كما خافوا على أنفسهم، فهربوا مع أتباعهم ومؤيديهم إلى مناطق شرق الأندلس بعيداً عن سلطان الخلافة وانتشروا في بلنسية وشاطبة ودانية[1] والجزائر الشرقية وأقاموا لأنفسهم مراكز قوة ما لبثت أن تحولت إلى دويلات مستقلة كما البربرية.

ومع ان سليمان المستعين اتخذ مبادرات متوالية، هدف منها الإصلاح السريع، إلا ان الأوضاع السيئة في قرطبة كانت قد بلغت مرحلة من التردي جعلتها عديمة المردود. كانت الفوضى مستحكمة في قرطبة كما في سائر المناطق وتقطعت الأواصر بين العاصمة والحواضر الكبرى وجنحت كور كثيرة نحو الاستقلال. ومع الوقت بدى واضحاً أن المستعين أعجز من أن يقيل الأندلس من عثرتها في سنوات ولايته الثانية مما زاد في طغيان البربر وتسلطهم. بل أكثر من ذلك أدرك رؤساء القبائل البربرية أنهم باتوا أقوى من أن يحتاجوا لخليفة مرواني يتحالفون معه ومال بعضهم إلى السعي لتسلم السلطان بصورة مباشرة.

وكان أول من فكر من زعماء البربر بذلك، وأسرعهم إلى العمل، علي بن حمود الحسيني أمير سبتة في المغرب الذي بادر إلى خلع طاعة سليمان المستعين بالله واستبد بالأمر ودعا الناس إلى تأييده فالتف حوله بشر كثير. وكان قبل ذلك قد راسل أخاه القاسم بن حمود بنواياه، وكان مقيماً بقرطبة، فتركها وعاد إلى الجزيرة الخضراء في طرف الأندلس الجنوبي على مقربة من أخيه. جعل علي بن حمود شعار قضيته وهدف تحركه نصرة الخليفة هشام المؤيد بالله مذيعاً على الناس كتاباً منه يعطيه ولاية عهده ويقول له فيه: «انقذني من أسر البرابر والمستعين»[2]. لا نعلم مدى صحة هذا الكتاب إنما ما يعطيه بعض المصداقية ان كبير مؤرخي الأندلس ابن حيان والذي عاش قريباً من هذه الأحداث المضطربة، هو الذي نقل

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١٥.

(٢) البان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١٦.

خبره إلينا قائلاً: «وكان هشام ابن الحكم عند ما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته، صير إلى علي بن حمود ولاية عهده وأوصى إليه بالخلافة من بعده، وراسله إلى سبتة بذلك سراً وولاه طلب دمه واستكتمه السر فيه إلى أوانه وبلوغ زمانه»[1].

وحين اكتملت عدة علي بن حمود وتوافت استعداداته كتب إلى حبوس الصنهاجي من زعماء البربر النازلين في المناطق القريبة من غرناطة وإلى خيران العامري صاحب مدينة ألمرية يخبرهما بدعوته ويطلعهما على رسالة هشام إليه فقبلا منه وأعلنا انضمامهما لقضيته ودعياه للحضور إلى الأندلس والنزول في مرفأ مالقة الكبير. وفعلاً حضر علي وجموعه وحلوا في مدينة مالقة بعد أن قتلوا حاكمها الموالي للمستعين[2]. التقى علي بمن أعلنوا تأييدهم له ونظموا سوية خطة للزحف على العاصمة. وفعلاً سار علي ومعه خيران وجيوشه وجيوش الصنهاجي وجموعه البربرية وأيضاً بعض زعماء الجنوب من المعارضين لحكومة قرطبة وخليفتها، باتجاه العاصمة. خرج سليمان المستعين بالله ومن بقي موالياً له من جنود البربر، حين وصلته أخبار تحركات الخارجين عليه في الجنوب، لملاقاتهم في شهر حزيران سنة ١٠١٦ م (محرم٤٠٧ هـ). التقى الجمعان بالقرب من العاصمة في مواجهة عسكرية سريعة وحاسمة، ذلك ان جل أتباع المستعين بالله ما عادوا متحمسين لنصرته فهزم وقتل بعض أصحابه وألقي القبض عليه[3].

وفي أول تموز سنة ١٠١٦ م (٢٢ محرم ٤٠٧ هـ) دخل علي بن حمود العاصمة وبويع له بالخلافة في مسجدها الجامع وهو ابن خمسة وخمسين عاماً وتلقب بالناصر لدين الله[4]. بادر بعد ذلك إلى طلب الحصول على هشام المؤيد

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١٤.
(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء٣، صفحة ١١٦.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ١١٦ ـ أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٢١.
(٤) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٢٠.

حياً أو ميتاً في مسعىً منه لإثبات كونه مات مقتولاً مما يبرر أمام القرطبيين استيلاءه على خلافة الأندلس[1]. أخرج هشام من قبره وتعرف الناس على جثته وما ظهر أثر لجرح فيها مما افترض معه انه مات خنقاً فأمر علي بتجهيزه ثانية وتم دفنه باحتفال مهيب في مدافن القصر الخلافي بجانب أبيه الحكم المستنصر. ثم دعا علي بن حمود بسليمان المستعين بالله وقتله بيده كما قتل أباه وأخاه وذلك كما قال: «جزاء قتل هشام»[2].

وبوفاة الخليفة سليمان المستعين بالله خرجت الخلافة رسمياً ولأول مرة، منذ أقام الإمارة الأموية عبد الرحمن الأول سنة ٧٥٦ في شبه الجزيرة الإيبرية، من البيت الأموي وآلت إلى بربري. والواقع ان أوضاع هذه الدولة كانت منذ مدة قد وصلت إلى مرحلة من الضعف والتردي ما عاد أحد معها ينتظر قيامها وعودة الحياة إلى أوصالها. ولعل هذا ما جعل ابن حيان الذي أرخ لتلك الحقبة يعتبر منذ بداية ولاية المستعين بالله الثانية ان دولة بني أمية قد ختمت بعد أن عمرت مائتي سنة وثمانية وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً[3].

الخلافة الحمودية:

كان من وجهاء ومقدمي أهل المغرب ومن الذين ساهموا إلى حد كبير في الصراع بين القرطبيين والبربر حول السلطة والحكم في قرطبة علي والقاسم من آل حمود. ومع ان الحموديين ما كانوا من البربر من حيث الدم والأصل والنسب فإنهم عملياً كانوا منهم بالعقلية والنشأة والعصبية والمسكن والعلاقات الاجتماعية والثقافة حتى أن أكثرهم ما كانوا يحسنون لغة العرب ولا كان لهم إلمام أو صلة بأدبهم وشعرهم وتاريخهم. إنهم من سلالة أدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الذي يعود هو بدوره بأصله إلى الحسن بن علي بن أبي

(١) Historia de Espania, T IV, p. 477.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ١، مجلد ١، صفحة ٤٢.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١٤.

طالب[1] مما كان يعطيهم أرومة قرشية جعلت لهم مكانة مميزة في المجتمع البربري كما بين سائر مسلمي شمال أفريقيا وإسبانيا. ومن هنا فإن علي بن حمود، والذي كان المستعين بالله قد صير إليه ولاية سبتة، انطلق من موقع قوي ومكانة مشرفة حين استولى على خلافة قرطبة وتلقب بالناصر لدين الله.

في بداية أمره حاول علي بن حمود أن يكون حاكماً صالحاً فاجتهد في إقامة توازن بين أتباعه من البربر وأعدائهم الأندلسيين. أشرف بنفسه على إقامة العدل وإشاعة الإنصاف ومنع الأذى عن أهل العاصمة وشارك في أكثر من مناسبة في قمع المخالفين وإقامة الحدود على المرتكبين والظالمين مما أشاع شيئاً من الاطمئنان والراحة بين الناس إلى حكمه وخلافته. إلا ان مسيرة السلام هذه سرعان ما أوقفها ظهور مرواني يطالب باستعادة الخلافة. ذلك إن أحد أحفاد الناصر وهو الأمير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن[1] انطلق من مدينة بلنسية في شرق الأندلس يطالب بالخلافة لنفسه كما لقب نفسه بالمرتضى. وبظهور هذا المرواني كان لا بد أن تتجه عواطف القرطبيين نحوه معرضة عن علي بن حمود رافضة لدولته وخلافته. بل أكثر من ذلك عاد القرطبيون فاشتدوا في معارضة من كانوا ينزلون بينهم من البربر مما جعل الخليفة يتغير عليهم ويبدل رأيه فيهم فمال إلى معاملتهم بالشدة والقسوة وأكثر من إلزامهم بالمغارم وعمد إلى نزع سلاحهم وامتحن جملة من علماء وفقهاء ووجهاء قرطبة[2].

حدث آخر ما لبث أن جاء يهدد الخلافة الحمودية، ذلك ان خيراناً العامري، حليف علي بن حمود ومساعده في الاستيلاء على قرطبة كان في أعماقه شديد الولاء للبيت الأموي وأنه ما تحالف معه إلا على افتراض أن هشام المؤيد

---

(١) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، جزء ١، صفحة ٤٩ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١١٩.

(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٢٩ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٢٣.

كان ما يزال على قيد الحياة ويطمع في إنقاذه وإعادته إلى عرشه. وحين تأكدت له وفاة سيده لم تعد له مصلحة في البقاء على تحالفه مع البربر فغادر قرطبة عائداً إلى شرقي الأندلس حيث كان الفتيان العامريون يسيطرون سيطرة تامة بما أقاموه لأنفسهم من دويلات شبه مستقلة. وهناك من مدينة ألمرية مقر ولايته أعلن الخروج على طاعة علي بن حمود وأظهر الرغبة في الثأر لدم هشام المؤيد كما دعا إلى إسقاط الخلافة الحمودية. ولهذه الغاية اتصل بالمنذر بن يحي التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان ما يزال على ميله للمروانيين وتحالفا ثم اتفقا على ضرورة الزحف على العاصمة. وتحقيقاً لهذا الهدف أخذا يعدان جيشاً جعلا قاعدته في مدينة شاطبة.

وفي الوقت الذي عزم فيه علي بن حمود على الخروج من العاصمة للقضاء على المتآمرين عليه، كان وضعه في العاصمة يزداد حرجاً مما جعل ثلاثة من فتيانه الصقالبة، لأسباب غير واضحة وبمبادرة منهم ودون أي تحريض كما تؤكد المصادر التاريخية يغتالونه وهو في الحمام ليلة الثاني والعشرين من آذار سنة ١٠١٨ م (٢ ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ) وبسرعة وقبل أن تتطور الأمور لغير صالحهم، بادر مقدمو البربر في العاصمة إلى الكتابة إلى شقيقه القاسم، والذي كان قد تقدم في خلافة أخيه وصار والياً على مدينة أشبيلية، فاستدعوه وبايعوه بالخلافة بعد ست ليال من مقتل أخيه[1] وتلقب بالمأمون.

قبل أن تكتمل استعدادات المتآمرين في شاطبة وفد عليهم، بمبادرة من خيران، المرتضى المطالب بعرش قرطبة فأخذت له البيعة من الناس ونودي به خليفة على الأندلس واعترفت بسلطانه مناطق الشرق والثغر الأعلى. وحين عزم هؤلاء على التحرك اختاروا أن يتوجهوا أولاً نحو غرناطة القاعدة البربرية القوية حيث كان يقيم كبير الصنهاجيين وأشد أنصار الخليفة الحمودي، زاوي بن زيري،

---

(١) البيان المغرب، ابن عذارى، جزء ٣، صفحة ١٣٠.

إلا أن المواجهة كانت هزيمة ساحقة للأندلسيين وأسفرت عن مقتل المرتضى وفرار خيران العامري ومنذر التجيبي من ساحة المعركة مخلفين وراءهما ما لا يحصى من القتلى والأسرى. هذه المعركة التي لم تحدد المصادر تاريخها بدقة وان أشار ابن عذاري وبشكل غامض انها وقعت سنة ٤٠٩ [١] (أواخر سنة ١٠١٨م) على الأرجح، ثبتت دعائم نظام القاسم بن حمود في قرطبة إلى درجة كبيرة وهو في مطلع عهده وأضعفت كثيراً من مقاومة الأندلسيين عموماً والقرطبيين خاصة لنظامه.

أراد القاسم أن ينهج في حكمه سبيل مراضاة القرطبيين واتقاء عدائهم ومعارضتهم فأشاع العدل بينهم وأحسن استقبال من وفد عليه منهم وأسقط عنهم بعض الضرائب وألغى ما كان أخوه قد فرضه عليهم من أتاوات وغرامات فاستتب له الأمر وهدأت خواطر أهل العاصمة واطمأنت نفوسهم بعض الشيء. وفي محاولة منه للحد من نفوذ البربر على دولته ونظامه أكثر من استعمال عناصر السودان في قصره وإدارته وصير إليهم بعضا من مناصب الإدارة والجيش. سياسة القاسم «المأمون» الحكيمة والمتوازنة والقائمة على العدل بين القرطبيين والبربر أعطت أهل العاصمة فترة امتدت على مدى ثلاث سنوات تقريباً كانت بمثابة هدنة ساد فيها الأمن والاستقرار، إلا ان البربر افتقدوا في نهايتها ما كان لهم من تفوق وسيطرة في العاصمة فمالوا عن تأييد القاسم وتخاذلوا عن دعم دولته ونظامه. ومن بعيد كان أبناء شقيقه المتوفي علي، يحي والي سبتة وأدريس صاحب مالقة يراقبان أوضاع العاصمة استعداداً لاستعادة حقهما في الخلافة الذي أخذه منهما عمهما القاسم دون وجه حق. توافق الأخوان على أن يقيم كبيرهما يحي في مالقة يحشد فيها الجنود والأنصار للزحف على العاصمة حين يصير ذلك ممكناً. وفي صيف سنة ١٠٢١ (ربيع ثاني ٤١٢ هـ) زحف يحي بن علي الحمودي على قرطبة فآثر

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٣٠.

عمه القاسم الفرار إلى أشبيلية بعد أن تخلى عنه بربر العاصمة وهناك أقام بصفته أميراً للمؤمنين.

بعد أسبوع من ذلك تقريباً بويع في قرطبة ليحيي بن علي ولقب نفسه «المستعلي». تم ذلك بتوافق فريقا البربر والأندلسيين بقرطبة وأعمالها طلباً للراحة والخلاص وسعياً وراء الأمن والاستقرار. حاول في بداية عهده مجانبة العصبية وإيثار العدل والإنصاف وطلب السلامة. حكم بتوافق واتفاق مع عمه الخليفة «المأمون» المقيم بأشبيلية، فكان للأندلسيين خليفتان في آن واحد مما جعل ابن حزم يعلق على ذلك بقوله: «ولم يسمع بخليفتين تصالحا ولا بأدل على الأدبار منه»[1]. ما تمكن يحي الحمودي من متابعة نهجه القويم أكثر من عام ونصف العام فقد في نهايتهما عطف أنصاره من البربر فآثر السلامة وهرب إلى مالقة قاعدته الأساسية. عاد عمه القاسم إلى قرطبة دون مقاومة تذكر في شباط سنة ١٠٢٣ م (ذي الحجة ٤١٣ هـ) ليباشر ولايته الثانية فيها وفي أشبيلية بينما ظل الناس في مالقة وسائر جنوبي الأندلس يعلنون طاعتهم لابن أخيه يحيى «المستعلي بالله». لم يدم حكمه في قرطبة طويلاً لما كان لأتباعه من البربر من نفوذ عليه مما أثار القرطبيين مجدداً وجعلهم يقررون وضع حد نهائي لمأساة العاصمة مع الحموديين. بإجماع كبير أعلنوا الثورة على القاسم بن حمود وحملوا السلاح بوجهه. وبعد معارك واشتباكات دموية عديدة أجبروه على الخروج من العاصمة في شهر أيلول سنة ١٠٢٣ م (جمادي الثانية ٤١٤ هـ)[2] ومعه كل أتباعه من البربر. اتجه أولاً نحو أشبيلية التي رفض أهلها استقباله فتابع مساره نحو شريش حيث ألقى القبض عليه ابن أخيه الذي صارت إليه وحده رئاسة البربر في جنوبي الأندلس كما في سبتة وطنجة من بلاد المغرب وما لبث أن قتله.

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٣٢.

(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٣٣ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٣٤.

بعد خروج القاسم بن حمود من قرطبة أظهر أهلها تصميماً واضحاً على إنهاء تسلط البربر عليهم وعادوا إلى البحث بين الأمراء المروانيين عمن يصلح إماماً للأندلسيين بعد أن افتقدوهم سنوات عديدة. كان القرطبيون بالرغم من كل ما عرفوه من محن ومآس ما زالوا في ضمائرهم وفي أعماقهم أسرى ذكريات الأيام العظيمة التي عاشوها وعاشتها معهم إسبانيا الإسلامية في ظل عبد الرحمن الأوسط والناصر والمستنصر، وكانوا ما يزالون على ثقتهم بقدرة البيت الأموي على إعطاء رجال عظام وأكفاء. اختار وجهاؤهم ومشيختهم أفضل من كانوا ما يزالون من الأمراء المروانيين في العاصمة وهم سليمان بن المرتضى ومحمد بن العراقي وعبد الرحمن بن هشام فدعوا إلى المسجد في قرطبة لمبايعة من يختار منهم للخلافة بحضور العامة والخاصة والجند.

المستظهر بالله:

بدا أول الأمر وكأن الاختيار سيقع على سليمان بن المرتضى فتعلقت به آمال الناس رجاء أن ينهي محنة العاصمة ويعيد وحدة الأندلس. في الثاني من كانون أول سنة ١٠٢٣ م (١٦ رمضان ٤١٤ هـ) اجتمع الناس في مسجد قرطبة وبدأوا يستعدون لمباشرة عملية المبايعة بصورة رسمية وعلنية إلا ان حدثاً مفاجئاً وضع حداً لعملية الاختيار الديموقراطية وفرض واقعاً جديداً. ذلك إن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار دخل «في خلق عظيم من الجند والعامة وقد تكتفه أميرا الدائرة محمود وعمير في رجالهما شاهرين سيفيهما أمامه لهجين باسمه»[1] مما ألقى الرعب في قلوب المشيخة والوزراء. دخل عبد الرحمن مباشرة المقصورة وبويع لوقته وسط دهشة وذهول الحاضرين. . . وما لبث أن استدعى المرشحين الآخرين سليمان بن المرتضى والعراقي فمثلا بين يديه وبايعاه. بعد ذلك ركب إلى القصر الخلافي ومعه ابن المرتضى وابن العراقي فاحتبسهما عنده. وقد ترك ابن حيان،

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ١، مجلد ١، صفحة ٤٩.

الذي كان ممن حضروا ذلك الاجتماع وصفاً دقيقاً ومستفيضاً لما جرى من أحداث في ذلك اليوم[1].

وكان عبد الرحمن المستظهر بالله، رغم صغر سنه، إذ ما كان آنـذاك قد جاوز الثالثة والعشرين من عمره، رجل دولة من طراز ممتاز، قوي الشخصية، نافذ الكلمة، وافر الخبرة والمعرفة بما اكتسبه من تجاربه في السعي إلى الخلافة سراً أيام آخر الخلفاء الحموديين. وقد شهد له ابن حيان الـذي عاصـره عدة مواقف ورأى له «رسائل وتوقيعات لم يقصر فيها عن الغاية»[2]. ويبدو ان الناس في بداية عهده علقوا على حكمـه آمـالاً كبـاراً إذ كان برأيهـم «فتـىً أي فتـىً لو أخطأتـه المتالف»[3]. وكان، إلى جانب ما بدر منه كرجل دولة بارع، «ذكياً لبيباً، أديبـاً حسن الكلام جيد القريحة مليح البلاغة يتصرف فيما شاءه من الخطابـة بديهـة وروية... يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة وبراءة»[4].

هذه الصفات كانت تجعل منه بالضرورة الرجل المناسب والمطلوب لتلك الحقبة المضطربة لولا ان الأمور في قرطبة كانت قدساءت بحيث استحالت إمكانية إعادتها إلى وضع طبيعي. لقد كان المستظهر بالله كما يؤكد ذلك مؤرخو عصره وبصورة خاصة ابن حيان «من فضلاء أهل بيته الناصريين» إلا ان الأحداث كانت تخطته وتجاوزت إرادته الخيرة بمراحل كثيرة.

باشر حكمه باختيار وزرائه من أفضل رجال قرطبة علماً وأدباً وكفاءة وخبرة أخذهم من موالي بني أمية وممن عرفوا بولائهم وإخلاصهم للمروانيين، نذكر منهم أبـاعامر بن شهيد، والكاتب الفيلسوف أبا محمد بن حزم، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم، مما لم يرق كثيراً لرجال السياسة آنذاك.

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ١، مجلد ١، صفحة ٤٩.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ١، مجلد ١، صفحة ٥٥.
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ١، مجلد ١، صفحة ٥٠.
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ١، مجلد ١، صفحة ٥٤.

كان عليه أن يتصدى وبصورة مباشرة لمشاكل كثيرة وشديدة التعقيد. كانت خزانة الدولة حاوية من المال بحيث ما وجد فيها ما يكفي لدفع مرتبات موظفيه ومصاريف قصره وجيشه فأغرم بعض الوزراء والمشيخة والأغنياء أموالاً كان في أمس الحاجة إليها مما أفقده عطف وتأييد هذه الطبقة الغنية والنافذة جداً في الشارع وبين العامة. ولما كان بأمس الحاجة لجند يكونون دعامة حكمه ونظامه، فقد سمح لنفسه تحت إلحاح الضرورة، بأن يستقبل بعض فرسان البربر في القصر الخلافي متجاهلاً أو متناسياً حدة الخلاف العربي البربري مما أثار العامة ضده بشكل عنيف للغاية.

والواقع إن القرطبيين ما أرادوا إعطاء المستظهر بالله الفرصة الكافية لإقالة الأندلس من عثرتها أو ما استطاعوا ذلك. بعد سبعة وأربعين يوماً فقط من بداية حكمه وبالرغم مما أظهره من رغبة في الإصلاح انساقوا وراء عواطف آنية وتأثروا بالنتائج الأولى لسياسته المالية ولرغبته في بناء الجيش فهاجموا قصره في ١٧ كانون ثاني سنة ١٠٢٤ (٣ذي القعدة ٣١٣هـ) وتغلبوا عليه وأجلسوا مكانه محمد بن عبد الرحمن الذي لقب نفسه «المستكفي بالله» والذي كانت أولى ممارساته استدعاء ابن عمه المستظهر وإعدامه بين يديه وبذلك قضى الوزراء والمشيخة وعوام قرطبة بأنانيتهم وقصر نظرهم وضيق أفقهم على آخر من أعطاه البيت الأموي من أفاضل الرجال بحيث «لم يأت بعده مثله»[٢].

المستكفي بالله:

هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر «المستكفي بالله». بويع بالخلافة يوم مقتل ابن عمه المستظهر بالله وكان في الثانية والخمسين من العمر.

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، مجلد ١، قسم ١، صفحة ٥٤ ـ ٥٥ ـ أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٣٥.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، مجلد ١، قسم ١، صفحة ٥٥.

يبدو انه كان أسوأ من جلس للإمارة في الأندلس ومن أردأ من عرف من الأمراء الأمويين. ما عرفت له حسنة ولا اشتهر بفضيلة، ولا كانت له مكرمة. عرفه ابن حيان معاصره بقوله: «لم يكن هذا المستكفي من الأمر في ورد ولا صدر، إنما أرسله الله على أهل قرطبة محنة وبلية، إذ كان منذ عرف غُفلاً عُطلاً منقطعاً إلى البطالة، مجبولاً على الجهالة... رأيته أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره»[1].

حكم المستكفي بالله في قرطبة مدة تقارب السنة ونصف السنة في فوضى ما عرفت الأندلس مثيلاً لها من قبل وربما من بعد. تسلطت عليه وتحكمت به امرأة أندلسية قادته كيف أرادت. على أيامه وصل أراذل الناس إلى مناصب الوزارة والكتابة وصارت وظائف الشرطة العليا وما دونها إلى بعض التجار والعامة من أصحاب المصالح. «ارتقى المسكتفي أيضاً بكثير ممن يحمل المحابر ويدرس مسائل الدفاتر من أصاغر الطبقة الفقهية، إلى ما بلغت عليتهم من منزلة الشورى، فوسم كافتهم بوسم الفتوى»[2]. وحين ارتفعت أصوات المعارضة بوجهه قتل ابن عمه محمد العراقي وألقى ببعض أبناء عمه في السجن ومعهم بعض وجهاء وعقال القرطبيين مثل علي بن حزم وان عمه عبد الوهاب. وعلى زمنه استؤصل ما بقي قائماً في الزهراء من قصور جده الناصر واقتلع كل ما فيها من ثمين المعدن والخشب.

من مدينة مالقة كان زعيم البربر الخليفة يحي بن علي بن حمود يراقب تطور الأوضاع في قرطبة منتظراً الفرصة المناسبة لاستعادة عرشه فيها. وفي مطلع صيف سنة ١٠٢٥ (٤١٦ هـ) تحرك يحي بن علي بن حمود باتجاه العاصمة الأندلسية مما أخاف القرطبيين وألقى الرعب في قلوبهم من إمكانية عودة البربر مجدداً إلى التسلط عليهم. ولما كان هؤلاء قد صمموا على الصمود والمقاومة فقد خرج

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ١، مجلد ١، صفحة ٤٣٤.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، قسم ١، مجلد ١، صفحة ٤٣٥.

المستكفي إدراكاً منه لضعفه وجبنه وعدم مقدرته على قيادة الحرب، من قصره فاراً بثياب غانية حتى لا يعرف وحل بمدينة أقليش Ucles بأقليم قونقة Cuenca حيث قتله بعد ذلك بسبعة عشر يوماً أحد مرافقيه طمعاً. بما كان يفترض انه يحمل من مال. فكانت دولته كما قال ابن حيان «سبعة عشر شهراً صعاباً نكدات، سوداً مشوهات مشؤومات»[1].

ويبدو إن يحي الحمودي ما كان شديد الرغبة في الوصول إلى قرطبة، التي بقيت في فوضى رهيبة بعد مقتل المستكفي في شهر ربيع أول من السنة دامت، حتى السادس عشر من رمضان (٩ تشرين ثاني سنة ١٠٢٥) حين حل في قصرها وسط معارضة غير جدية وغير منظمة من أهلها. ما استطاب الخليفة الحمودي طول الإقامة في عاصمة دمرها عقدان من الفوضى والحروب الأهلية وتركا اقتصادها منهاراً وخزينتها خاوية وأهلها تائهين في مسالك الفرقة والانقسام لا يجمعهم إلا عداء لا حدود له لكل ما هو بربري. وعلى هذا غادرها في أول شهر آذار من سنة ١٠٢٦ م (٨ محرم ٤١٧ هـ) وعاد إلى عاصمته الجنوبية مالقة تاركاً شؤونها بيد وزيره أحمد بن موسى وكاتبه دوناس بن أبي روح مع عدة مئات من مقاتلته.

ما تحمل القرطبيون طويلاً وطأة هؤلاء البربر فبادروا إلى إقامة صلات مع الفتيين الصقلبيين خيران صاحب ألمرية وزهير صاحب دانية من شرقي الأندلس واللذين ما كانا أقل منهم عداء للبربر. وحين اطمأن القرطبيون إلى استعداد الفتيين العامريين لتأييدهم وحين عرفوا إنهما بالفعل أخذا الطريق إلى العاصمة انقضوا على من كانوا عندهم وبينهم من البربر وقتلوا في يوم واحد من شهر أيار (ربيع ثاني) من نفس العام ما يزيد على ألف رجل منهم وهرب الوزيران أحمد بن موسى

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، مجلد ١، صفحة ٤٣٧.

(٢) أعمال الاعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٢٦.

ودوناس بن أبي روح فنجيا بأنفسهما[1] وبذلك ذهبت الخلافة الحمودية الجديدة من قرطبة وزال كل أثر لها ولمن احتمى بها من البربر بعد أن أجمع القرطبيون على خلع يحي بن علي بن حمود مجدداً.

ولم يمكث العامريان طويلاً في العاصمة بعد أن استحال عليهما إيجاد صيغة لحكم المدينة يجمع عليها أهلها وينقذها من مصير قاتم. وبذا ترك القرطبيون نهباً لأسوأ أنواع الفوضى والاضطراب والانقسامات السياسية.

تصدى كبار قرطبة ووزراؤها وفي مقدمتهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، خوفاً منهم من ترد متزايد للأوضاع في العاصمة وتسلط أكثر من العوام والغوغاء على مصايرها، لمهمة اختيار خليفة جديد بأسرع وقت ممكن. كان الناس رغم ما نالهم من أذى على يد بعض الأمراء المروانيين وما سببوه لهم من خيبة أمل وفشل ما زالوا يعلقون بعض الآمال على البيت الأموي ويعتقدون إن أمور الأندلس لا تستقيم إلا مع واحد منهم. اتصل الوزراء القرطبيون بأهالي الثغور كما اتصلوا بالثائرين المتمردين الكثر خارج العاصمة للاتفاق على مرشح مرواني يصلح للخلافة ويستطيع إصلاح أمور الناس والبلاد وأيضاً يحظى بموافقة الجميع فيكون خليفة للأندلس كل الأندلس لا خليفة لقرطبة أو لبعض القرطبيين. وأخيراً وقع الاختيار على هشام بن محمد الناصري شقيق المرتضى الذي قتل في غرناطة على يد البربر. وكان هشام هذا يقيم في حمى محمد بن قاسم الفهري صاحب حصن البونت.Alpuente في شمال شرق بلنسية منذ قتل أخوه وذلك خوفاً من بطش البربر. اتصلوا به وعرضوا عليه خلافة قرطبة فقبلها متردداً فبايعه الناس بإجماع وعقدوا له برضى وسموه أو سمى نفسه «المعتد بالله» وذلك في شهر حزيران سنة ١٠٢٧ م (ربيع ثاني سنة ٤١٨ هـ)[2]. ومع ذلك استمر مقيماً في

---

(١) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٣٧ ـ البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٤٤.

(٢) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣ صفحة ١٤٥.

مكانه والناس يخطبون له في قرطبة، مدة تزيد عن سنتين وسبعة أشهر يخاف مزاج القرطبيين الذي بدا في السنوات الأخيرة شديد التقلب على حكامهم من جهة، ومن جهة ثانية ينتظر استقرار الأمور والتأكد من اجتماع الناس حوله وإجماعهم على تأييد خلافته. وأخيراً وصل في شهر كانون أول من سنة ١٠٢٩م (ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ) إلى قرطبة في موكب متواضع جداً لا يتناسب إطلاقاً مع ما طالما أحب الأمراء والخلفاء الأمويون.

كان رجلاً كبير السن، عديم الخبرة في شؤون الحكم والإدارة، اشتهر في شبابه بالمجون والخلاعة ومعاشرة أهل السؤ والجهلة. وقد انكشف جهله منذ جلس للناس في قصر الخلافة في قرطبة فأدركوا قلة درايته في أمور الحكم من طريقة تعامله مع رسل ابن أبي عامر أمير بلنسية وابن هود صاحب لاردة وغيرهما ممن وفدوا عليه بكتب الاعتراف بخلافته والرغبة في طاعته.

وكانت أولى حماقاته في الحكم أن حمل إلى كرسي الوزارة رجلاً يسمى حكم بن سعيد القزاز، من رعاع قرطبة كان حائكاً ومن رفاق هشام ومعاشريه في شبابه. ليس هذا فقط وإنما قدمه على سائر مشيخة القرطبيين ووزرائهم الذين حملوه إلى الخلافة وخاصة أبي الحزم ابن جهور، وأطلق يده في المال، وأناط به الرجال وصار «ينظر بعينه ويسمع بأذنه، يدني من أدناه ويبعد من أقصاه وخلاه ومعظم الأمور يدبرها بجهله وخرقه واعتسافه وتهوره»[١]. وفوق هذا فحين احتاج هذا الوزير إلى موظفين ومساعدين اختارهم من معارفه فكانوا من سفلة القوم وأراذلهم وماجنيهم مما زاد في كره الناس له ونفور أكابر العاصمة وأرستوقراطيتها من سيده. ومع معرفة هذا الوزير بشديد كره أهل العاصمة للبربر فقد بالغ في إكرام جنوده وحرسه من هؤلاء، لعدم ثقته بغيرهم، وتمادى في الإغداق عليهم بالمال والزاد مما كان يأخذه من التجار[٢].

في هذا الوقت كان هشام لاهياً عما يجري في البلد، متغاضياً عما يقوم به وزيره حكم بن القزاز من حماقات وموبقات، يهتم بمائدته وشرابه ومجونه رغم

تقدمه في السن مما كان يثير قرف القرطبيين واشمئزازهم ومما جعلهم يتساءلون عن الحكمة من إبقاء هكذا خليفة وهكذا وزير.

وكان أن تجرأت العامة على الوزير ابن القزاز واغتالته، وهو في طريقه من داره، وهاجمت بعد ذلك القصر الخلافي. وكان على رأس المهاجمين مغامر آخر من المروانيين، هو أمية بن العراقي ممن اشتهروا بالتهور والجهالة، اعتقد إنها فرصته للوصول إلى سدة الخلافة. وبسرعة مدهشة سيطرت الغوغاء على القصر ومن فيه وجلس ابن العراقي على كرسي الخلافة وانتشر النُهابون يسرقون ما تصل إليه أيديهم من رياش القصر وتحفه. وقبل أن تتطور الأحداث تدخل المشيخة والوزراء وفي مقدمتهم ابن جهور فتصدوا للعامة فمنعوها من السرقة وأخرجوها من القصر وحالوا دون مبايعة ابن العراقي. بات ابن جهور ومعه علية القرطبيين مساء ذلك اليوم من شهر كانون أول سنة١٠٣١ م (١٢ ذي الحجة ٤٢٢ هـ)[١] في مسجد قرطبة يتداولون في الأزمة القائمة ويبحثون عن حل دائم لمستقبل الحكم في بلدهم فقر قرارهم على إلغاء الخلافة الأموية لعدم الصلوح في أهل بيتها «ونودي في الأسوق لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد»[٢] وتكفل الوزير بن جهور بإخراج آخر من جلس على عرش الأندلس من الأمويين «المعتد بالله» مع نسائه وأولاده من قرطبة وأحوازها الذي ذهب إلى منطقة الثغر الأعلى حيث عاش مغموراً في حمى بني هود إلى أن توفاه الله بعد ذلك بخمس سنوات ودفن في مدينة لاردة.

ولقطع الطريق على كل مغامر أو طامع بالخلافة من المروانيين، الذين أخرجوا جميعاً من قرطبة، أو من غيرهم رأى الوزراء والمشيخة وعامة الملأ إسناد أمور العاصمة، بعد إزالة رسوم الخلافة، إلى شيخ الجماعة أبي الحزم بن جهور

---

(١) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٤٥.
(٢) أعمال الأعلام، ابن الخطيب، صفحة ١٥٢.
(٣) البيان المغرب، ابن عذاري، جزء ٣، صفحة ١٤٥.

من كبار العرب وأشرافهم. وبذا غاب الأمويون إلى الأبد عن عاصمة الأندلس، إنما بعد أن تفككت عرى البلد وقامت الدويلات المستقلة في كل مكان، في الحواضر الكبرى كأشبيلية وغرناطة وجيان، وفي مناطق جنوب الأندلس وفي الشرق وفي أراضي الثغور، وما عاد في استطاعة ابن جهور أن يحكم إلا في قرطبة وأحوازها. وبذلك لحقت العاصمة بركب التشرذم وصارت دويلة كباقي الدويلات الأندلسية مما سيميز القرن الحادي عشر للميلاد (الخامس للهجرة) في إسبانيا الإسلامية الذي سيعرف بعصر ملوك ودويلات الطوائف.

المصَادر وَالمـَراجع

المَصَادِرُ العَرَبِيَّةُ القَدِيمَةُ

ابن الأبار:

أ ـ الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس.

ب ـ التكملة لكتاب الصلة، نشر بالانثيا، مدريد، ١٩١٥.

ابن أبي أصيبعة:

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩.

ابن الأثير:

ـ الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦.

ابن الخطيب:

أ ـ أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦.

ب ـ كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، مطبعة الخانجي، مصر.

ابن الفرضي:

ـ تاريخ علماء الأندلس، تحقيق الأبياري، بيروت، ١٩٨٤.

ابن القوطية:

ـ تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق الطباع، بيروت، ١٩٥٧.

ابن بسام:

ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩.

ابن البشكوال:
ـ الصلة، تحقيق الحسيني، القاهرة، ١٩٥٥.
ابن جلجل:
طبقات الأطباء والحكماء القاهرة ١٩٥٥.
ابن حزم:
ـ جمهرة أنساب العرب، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧.
ابن حيان:
ـ المقتبس في تاريخ رجال الأندلس.
١ ـ تحقيق محمود مكي، دار الكتاب العربي، يروت.
٢ ـ تحقيق الأب ملشور أنطونيا، باريس، ١٩٣٧.
٣ ـ تحقيق الحجي، بيروت ـ لبنان.
٤ ـ تحقيق شالميتا، كورينتي، صبح، مدريد ـ الرباط.
ابن خلدون:
أ ـ المقدمة، طبعة البيان العربي.
ب ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، منشورات الأعلمي، ١٩٧١.
ابن دحية البلنسي:
ـ المطرب من أشعار أهل المغرب، (وزارة التربية المصرية).
ابن سعيد المغربي:
ـ المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٥٣.
ابن عبد ربه:
ـ العقد الفريد، طبعة القاهرة، ١٩٥٢.
ابن عذاري، المراكشي:
أ ـ البيان المغرب، بيروت، ١٩٥٠.
ب ـ البيان المغرب، (الجزء الثالث)، القاهرة، ١٩٣٠..

ابن قتيبة :

ـ الأمامة والسياسة ، تحقيق الزيني ، القاهرة .

ابن الكردبوس :

ـ كتاب الاكتفاء ، (تاريخ الأندلس) ، تحقيق العبادي ، مدريد ، ١٩٧١ .

البلاذري :

ـ فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، ١٩٣٢ .

الحميري :

ـ الروض المعطار ، نشر ليفي بروفنسال ، ١٩٣٧ .

الحميدي :

ـ جذوة المقتبس ، تحقيق الأبياري ، بيروت ، ١٩٨٣ .

الخشني :

ـ كتاب القضاة بقرطبة ، مدريد ، ١٩١٤ .

الأدريسي :

ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، طبعة روما .

صاعد الطليطلي :

ـ طبقات الأمم ، طبعة الكتبي ، مصر .

الضبي :

ـ بغية الملتمس ، مدريد ، ١٨٨٥ .

الطبري :

ـ تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دار المعارف بمصر .

عبيد الله بن صالح :

ـ فتح العرب للمغرب ، المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٤ .

القلقشندي :

ـ صبح الأعشى ، نشر عالم الكتب ، القاهرة .

الماوردي:

ـ الأحكام السلطانية، طبعة المطبعة المحمودية.

مجهول:

ـ أخبار مجموعة، مدريد، ١٨٦٧.

مجهول:

ـ نص من عهد الخليفة الناصر لمؤلف مجهول، مدريد ـ غرناطة، ١٩٥٠.

المراكشي:

ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٤٩.

المقري:

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨.

النويري:

ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، (قسم تاريخ أفريقيا والأندلس)، غرناطة، ١٩١٩.

ياقوت الحموي:

ـ معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٧.

اليعقوبي:

ـ تاريخ اليعقوبي، النجف ١٣٥٨ هـ.

مؤلفات حديثة

أحمد بدر:

ـ دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، جزء أول.

حسن إبراهيم حسن:

ـ النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٢.

ـ تاريخ الإسلام، القاهرة، ١٩٥٩.

حسين مؤنس:

ـ فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩.

دايفز:

ـ شارلمان، ترجمة الباز العريني، القاهرة، ١٩٥٩.

رشيد رضا:

ـ الخلافة والإمامة العظمى، مطبعة المنار، ١٩٢٣.

شكيب أرسلان:

أ ـ تاريخ غزوات العرب.

ب ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية.

طرخان (إبراهيم):

ـ دولة القوط الغربيين، القاهرة، ١٩٥٨.

العبادي (عبد الحميد):

ـ المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، ١٩٥٨.

مَرَاجِع أجْنَبِيَّة

Aguado Bleye:

Manual de Historia de Espana, Madrid, 1946.

Asian Pena:

Manual de Historia de Espana, Barcelona, 1947.

Las Cagigas:

Los Mozarabes, Madrid, 1948.

Conde:

Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana, Madrid, 1874.

Dozy:

Historia de los Musulmanes de Espana, Barcelona, 1954.

Francisco Codera:

Estudios Criticos de Historia Arabe.

Espanola, Madrid, 1917.

Julian Pibera:

Disertaciones y Opusculos, Madrid, 1928.

Levi-Provencal:

Inscriptions Arabes d'Espagne, Leiden Paris, 1931.

Histoire des Musulmans de l'Espagne, (Publiee en Espagnol Par, R. Menendez Pidal dans "Historia de Espana" T IV et V, Madrid, 1957).

La Politica Africana de Abd Al Rahman, III Al Andalus, V XI, fase 2, 1946.

L'Espagne Musulmane au X ieme siecle, Paris, 1932.

Menendez Pidal:

La Espana del Cid, Madrid, 1957.

Primera Cronica General de Espana, Madrid, 1955.

NANAI:

Los Banu Di-l-Nun en Toledo, Madrid, 1961.

Pons Boigues:

Historiadores y Geografos Hispano-Arabes, Madrid, 1898.

Suarez Fernandez:

Manual de Historia Universal, T III, Madrid, 1972.

Saavedra:

Estudio Sobre la Invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892.

Simonet:

Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897.

Stones:

Moslems in Spain, Paris, 1913.

Encyclopedies:

Encyclopedie de L'Islam.
Encyclopaedia Britannica.
Jewish Encyclopaedia.

فهرس الأعلام

- الجيم -

- الحاء -

- الخاء -

- الدال -

- الراء -

- الزاي -

- السين -

- الشين -

- الصاد -

- العين -

- النون -

- الهاء -

فهرس الأماكن والمدن

- الجيم -

- الحاء -

- الخاء -

- الدال -

- الراء -

- العين -

- الغين -

- الفاء -

- القاف -

- الكاف -

- اللام -

- الميم -

- النون -

- الهاء -

- الواو -

- الياء -

محتويات الكتاب

الباب الرابع

الخلافة الأموية

الفصل الأول :

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الباب الخامس

نهاية دولة بني أمية في الأندلس

